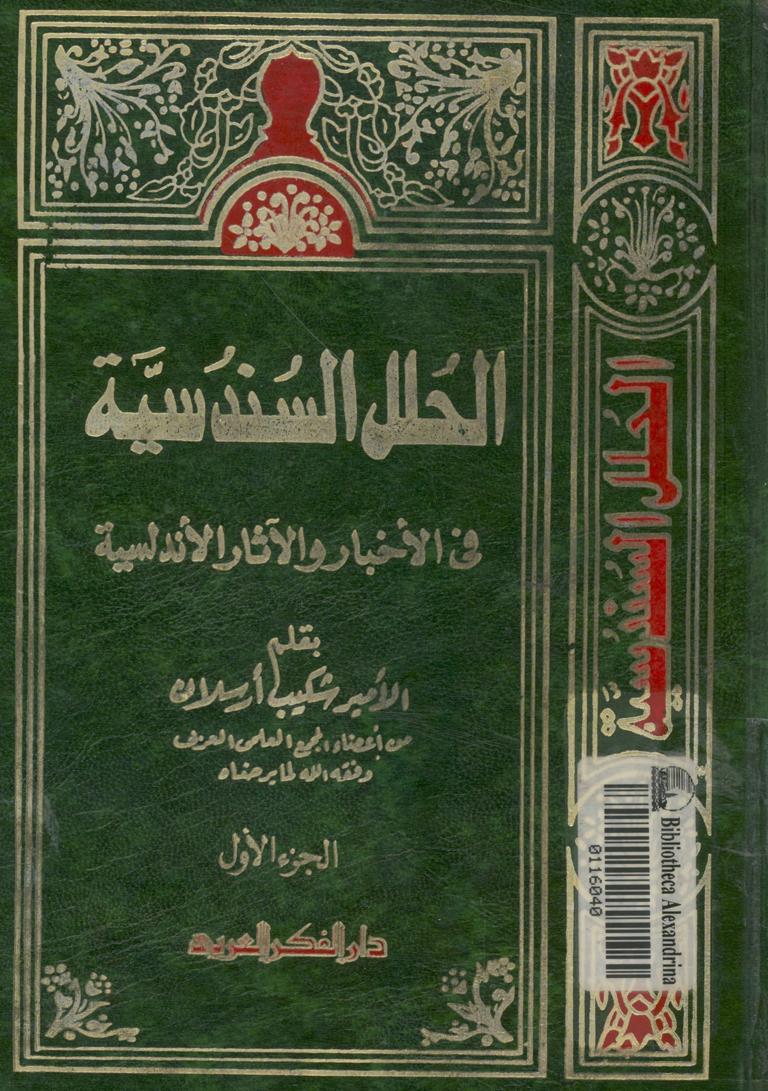
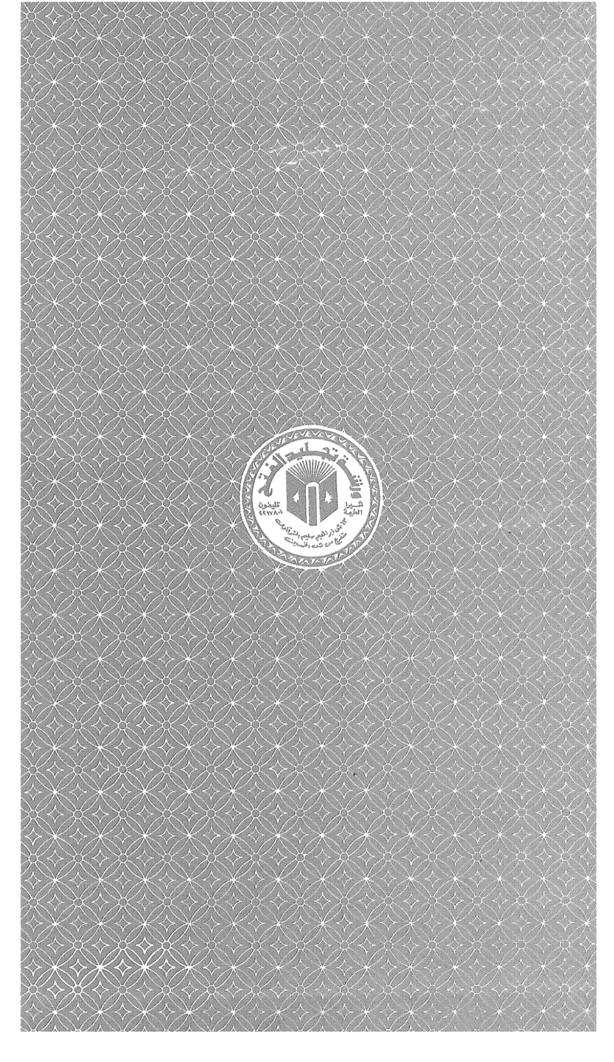
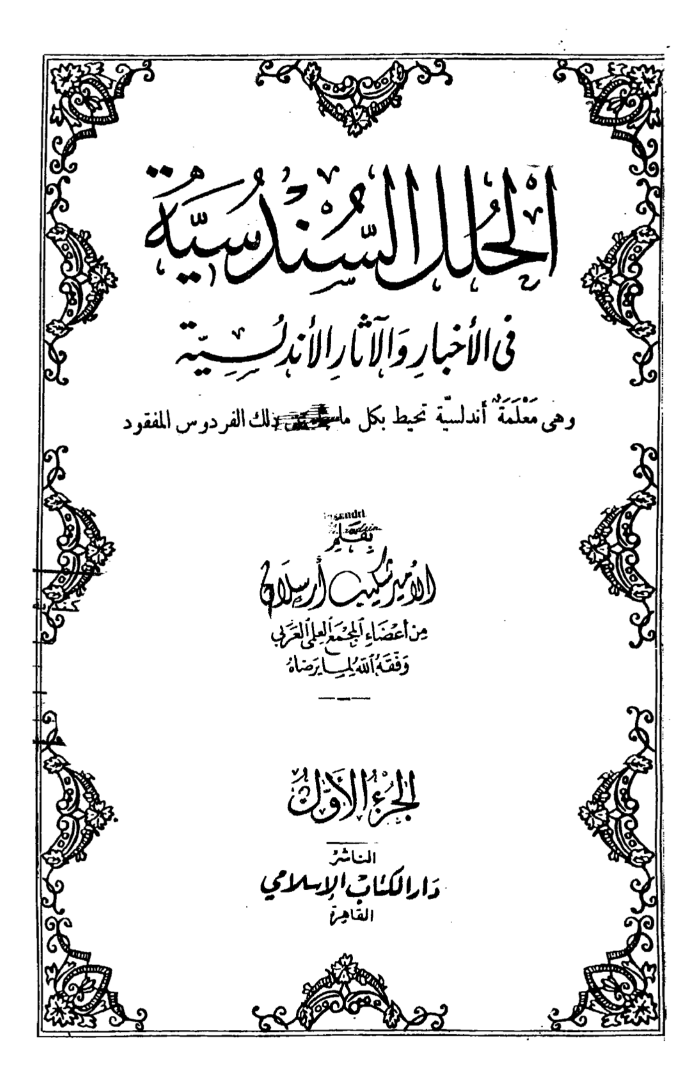

الحلل السندسية
في الأخبار والآثار الأندلسية
بقلم
الأمير شكيب أرسلان
من أعضاء المجمع العلمي العربي
وفقه الله لما يرضاه
الجزء الأول
دار الفكر العربي
الحلل السندسية
Bibliotheca Alexandrina
0116040


شبرا
الخيمة
تليفون





الحلل السندسية

في الأخبار والآثار الأندلسية

وهي معلمة أندلسية تحيط بكل ما يتعلق بذلك الفردوس المفقود

بقلم

الأمير شكيب أرسلان

من أعضاء المجمع العلمي العربي

وفقه الله لما يرضاه

الجزء الأول

الناشر

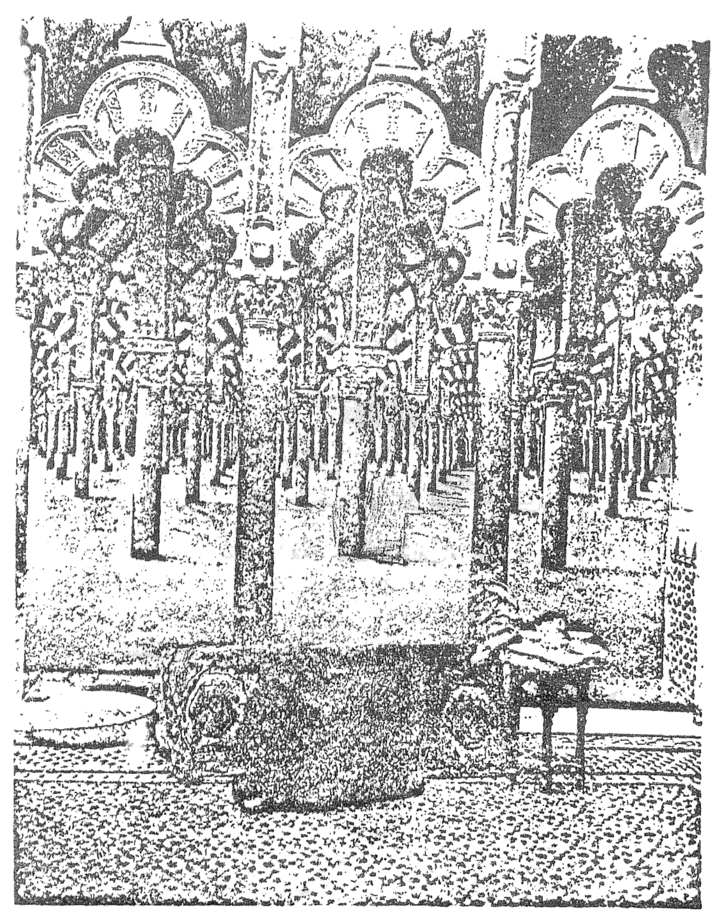
دار الكتاب الإسلامي

القاهرة

الإهداء

هدية روحية من المؤلف إلى روح أبي المطرف
الخليفة أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر
الأموى الذى يعجب به المؤلف أكثر
من كل خليفة حاشا الخلفاء الراشدين

المؤلف



صورة مسجد قرطبة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا

الحمد لله قبلة الكلام، والصلاة على رسول الله باب السلام، ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، شهادة تشفي الأوام، وتقشع الظلام، وتكون لنا العدة الواقية في حشرجة الأنفس وسكرات الحمام؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، النبي العربي الأمي الذي كرّم بني آدم بنعمة الاسلام، وجنّبهم عبادة الأصنام، وسنّمهم من التوحيد نعمة دائمة لا تَرِيمُ، وذروة عالية لا ترام، والذي نثر بدعوته يافوخ الشرك نثراً ليس له من بعده نظام، النبي الذي تمخّض لظهوره الكون قبل أن تلج الأيام في الليالي والليالي في الأيام، والرسول الذي بلغت به الرسالة أمدها الأقصى فانطوت من بعده الصحف السماوية وجفّت الأقلام، إذ ليس وراء توحيد الله تعالى مذهب ولا بغير حبه تعالى هيام، صلى الله عليه وسلم صلاة لباسها الدوام وشعارها اللزام، وسلم سلاماً نفحه الرّند ونشره الخزام. ورضى الله عز وجل عن آله وأصحابه نجوم الهدى و بدور التمام، وأنصاره الذين ألزمهم كلمة التقوى وكانوا بها أحق الأنام، الذين أقبلوا على الأمم بالعقيدة الحق والأخلاق العظام، وطلعوا بخيل الله على المشرق والمغرب بسهام غير خِطاء وسيوف غير كهام، ونشروا علم الفرقان الذي فرقت له قلوب الطواغيت وخفقت من الخوف سائر الأعلام، ففتحوا عذارى الممالك وأدركوا غرر الأماني بشدة الحزم لا بشدة الحزام.

و بعد، فإن من غرائز الجبلّة البشرية التي لا جدال فيها، تذكُّر الحوادث

الماضية ، والتحدث بالوقائع الخالية ، والوقوف على الرسوم العافية ، والاعتناء بحفظ الغابر إلى الحد الذى جعل الناس ينقشون الأخبار على الأحجار ، ويزبرون القصص على الجماد ، فضلا عن أن يكتبوها فى الأوراق ويحفظوها ضمن الأجلاد ، خشية عليها من الضياع بتقادم العهد ، وذهاباً بها عن النسيان بتطاول الدهر ، وذلك بما فطر الله عليه هذا النوع من حب الاشراف والاطلاع ، والغرام بالرواية والسماع ؛ وبأن الإنسان يجتهد أبداً أن يحفظ الماضى ، كما يجتهد أن يستدرك الآتى ، فحياته عبارة عن وصل آخر بأول ، وربط ماضٍ مع مستقبل ، وتعليل حديث بقديم ، فلهذا لا يبرح بين أثر دارس يقف عنده ، ورسم طامس يتعرّف خطبه ، وكتابةٍ مطلوسة يفك حروفها ، وحكاية مأثورة يتندّس نصوصها ، تارة يعرضها على أصولها ، وطوراً يقيسها بشكولها ؛ وهو لا يزال يجمع بين قرائنها ، حتى يدرك مباديها ويفقه مغازيها ، وكم للانسان من سهر ليال ، وبذل غوال ، وأعمال حلّ وترحال ، وراء قصة مغلقة يستوحي حديثها ، وقضية مُرْتَجَةٍ يستوخي نَجِيثها ؟ وكم من واقعة مبهمة ينشد عند المير وغليف سرها ، ولدى القلم المسمارى بَحيثها ؟ سنة الله الذى أقام الناس عليها بإزاء أى علم وأمام أى سر ، لا يتقيّدون فيها بقريب دون بعيد ، ولا يقصرونه على حاضر دون غابر ، ولا يختصون به موضعاً دون موضع ؛ بل استشراف الأسرار ، واستشفاف الأستار ، وهما من لوازم الانسان أيًّا كان متعلق العلم ومتسلق الفكر . إلاّ أنه إذا تعلق بالآباء والأجداد كانت النفوس به أولع ، وإليه أنزع ؛ وإذا اتصل بالقرابات والكلالات ، أو انتسب إلى الديارات والمباءات ، كان الحنين إليه أعظم ، والتهافت عليه أسرع ؛ فان المرء ليحرص على مآثر آبائه ، ما لا يحرص على مآثر سواهم ، ويُعنَى بالقصص وراء أصوله ما لا يُعْنَى وراء من تعداهم ؛ بل إن قسط همه من هذا الأمر هو على نسبة القرب والبعد ، وبمقدار الفصل والوصل .

وكل أمة من الأمم تدرس تواريخ البشر أجمع ، إلاّ أنها تجعل تاريخ سلفها هو العلم المقدّم ، والدرس المقدّس ، والبغية التى يجب أن تتوجه اليها خواطر ناشئتها ،

والغاية التي يتعين أن تُستحَثَّ نحوها ركاب نابهيها ؛ لما فى ذلك من وصل حديث بقديم ، وربط آخر بأول ، وإعادة فرع إلى أصل ، ورد عجز على صدر . فان كان الحاضر مماثلا للماضى ، والطريف غير مختلف عن التليد ، فمغزى التاريخ هو حفظ التسلسل ومنع التخلّف ، وحثّ الأخلاف على متابعة الأسلاف ، وبناء المجد سافاً من فوق ساف ، فان الأمم هى فى تنازع بقاء لا يفتر ، وتزاحم وِرد لا يسكن ، وكل منها يبغى أن يحفظ كيانه ، ويوطد بنيانه ، ويحمى حقيقته ، ويخلّد سجيته . بل يحاول أن يتقدم عما كان ، وأن يطاول كل درجة إمكان . وإن كان الحالى مقصّراً عن الخالى ، وقد عادت البدور أهلّة ، وذهب المجد إلاّ أقلّه ، وصارت الأوساط أطرافاً ، واستحالت الأثواب أطماراً ، ولم يبق من تلك المعالى السوالف إلاّ أخبار وسِيَر ومَثُلَات ، وذِكَر وحكايات ، يعتبر بها من اعتبر ، كان درس تاريخ السلف أحسن وسائل النشاط من العقال ، وأفضل حوافز الاستباق إلى الكمال ، ليقال للناشىء : هكذا كان آباؤك ، فأين إباؤك ؟ وهذا ما فعله أجدادك ، فأين جهادك ؟ وإذا كان هذا فَرِيّ آبائك ، فكيف ترضى أن تقصر عنهم ، وإذا رضيت بأن تقصر عنهم ، فقد يستبعد العقل أن تكون منهم . أيرضى أصحاب النفوس الأبيّة أن يقعدوا مع الخوالف ، وقد كان أوائلهم من السابقين الأُوَل ؟ أو أن يكونوا تابعين ، بعد أن كانوا متبوعين ، وأن يسودهم من كان لهم من جملة الخوَل ؟

فإذا كان علم التاريخ ضرورة من ضرورات البقاء ، فضلاً عن الارتقاء ؛ وشرطاً من شروط اللحاق ، فضلا عن السباق ؛ فأية أمة أجدر بمدارسته من هذه الأمة العربية ذات التاريخ الأمجد ، والسنام الأقعس ، والعرق الأنجب ، واللسان الأذرب ، والجهاد الذى شرّق وغرّب . أيام ملأت من الدهر مسمعيْه ، وضربت كل جبّار فى أخدعيه ، وفرضت الذلّة على جماجم الأكاسرة ، وأطارت النُعَرة من معاطس القياصرة .

قوم ابتسلوا للموت نفوسهم ، فرفعوا فى الحياة رؤوسهم ؛ يركبون من البر والبحر

كل غارب ، ويلتمسون بالجيش دار المحارب ؛ أحمت أنوفهم حياة القفر ، وأعزّت نفوسهم الرمال العُفر ؛ فكانت بلادهم عذارى تُخلف ظن كل فاتح ، وعقائل لا ينتهى إليها الطيف فضلاً عن الطائف .

ثم لما جاءهم الإسلام بعزائم القرآن ، وعزّز مافيهم من خِيمٍ كريم ، وطبع سليم ، بصلابة الإيمان ؛ اندفقت سيولهم من منابعها ، وخرجت سنابلهم من قنابعها ؛ وملكوا ما بين الصين وبحر الظلمات فى أقل من مائة عام ، وأتوا من الأعمال ما لو حدثوا أنفسهم به من قبل لقيل إنه من الأحلام . على أنهم لم يلبثوا بعد ذلك العز الأمنع ، والسناء الأسنع ، أن انصاعوا انصياع الكواكب عند انكدارها ، وأسرعوا إلى الهبوط سرعة المياه عند انحدارها . وذلك بتجردهم عما كان قد كساهم الإسلام من فضائل ، وأهبّ فيهم القرآن من عزائم ، وبسقوطهم فى مثل ما كان قد سقط فيه أعداؤهم من الأعاجم ؛ وبانغماسهم فى الشهوات البدنية ، وانصرافهم إلى السَّفْسَافَات الزمنية ؛ وولوعهم بالانتقاض على أمرائهم ، واشتغال الأمراء بأغراضهم وأهوائهم ، وتخلّف العلماء عن تقويم مُنآدهم ، وردعهم عن فسادهم . فمشى الفساد فى جَنَبَاتهم ، وطار الطيش بعَذَباتهم ، وتنازعوا ففلشت ريحهم ، وجاءت تباريحهم ؛ وتنكروا ؛ حتى لو عُرضوا على السلف فى أجداثهم لجهلوهم ، وتغيروا ، حتى لو نُشِر الآباء وتلاقوا بأبنائهم لأهملوهم ؛ فجنوا من انقلاب أخلاقهم فقد خَلاقِهم ، ونالوا من اعوجاج مسالكهم، ضياع ممالكهم ؛ وبعد أن كانت أنفتهم ملء العرانين ، وحميتهم ملء الحيازيم ، صاروا يرضون بكل حطة ، ويسلكون من الهوان كل خطة ، وهووا عن صهوات ذلك المجد العظيم ، وأُخرجوا من جنّات وعيون وكنوز ومقامٍ كريم .

وكان من أنفس ما سدّدهم الله إلى فتحه ، وقيّض لهم بالجهاد الطويل وسائل ربحه ، هذه الجزيرة الأندلسية الخضراء ، الخطة العذراء ، والدرة الدهماء ، والبقعة الجامعة بين الشموس والأفياء ، الرافلة فى حلل موشية من حوك الأرض وطراز السماء ، فأتوها من كل فج ، بين محتسب ومكتسب ، وراغب فى الدنيا وماهد للآخرة ،

وساموا ولايتها بالنفقات الوجيعة ، والبطشات الذريعة ؛ والنفوس السائلة أنهارا ، والجماجم الطائرة أسرابا ، والجيش يتلو الجيش ، والبعث يردف البعث ، وما زالوا يغاورونها بخيل لا تنحط لبُودها ، وفوارس لا تفارقها زرودها ، و يُريغونها من بين أيديها ومن خلفها ، وعن أيمانها وشمائلها ، إلى أن ذلّلوا أعرافها ، وألانوا أعطافها ؛ فخيّم الإسلام بقُرّتها تخييم من أجمع الاعمار ، وسكن إليها سكنى من ألقى عصا التسيار ، وأمدّتهم جزيرة العرب بأفلاذ أكبادها ، ورمت أعداءهم بأنجاد أجنادها ؛ وكانوا لولا العصبية بين القيسية واليمنية ، والخلاف على الخلافة بين الأموية والعباسية ، وما أُضيف إلى ذلك من ملاحم بين القبائل العربية والبربرية ؛ قد ألحقوا بالأندلس جميع الأرض الكبيرة ، وصارت لهم جوفيّ جبال البرانس أندلسات كثيرة ؛ ولكن اشتغالهم بفتنهم الداخلية ، وانهماكهم بمشاجراتهم العائلية ، و بقاء ما بقى فى طباعهم من حمية الجاهلية ، واستبدالهم ملوك الطوائف ، بجيوش الصوائف ، وحركات الفساد ، بحركات الجهاد ، ورضاهم عن تحمل الهزائم ، بدلا من تجريد العزائم ؛ كل ذلك أعاد تقدمهم تأخراً ، وردّ تجمعهم تبعثراً ، حتى صار عدوهم فى الجزيرة قسيما لهم مشاركا ، وخليطاً معهم مشابكا ؛ وكان هو لم يبقَ له من البلاد إلاّ الجبال والصخور ، ولم يملك إلاّ ما تركه له العرب من مسارح الغزلان وأوكار النسور ؛ وكانوا هم رتعوا فى كل روض نضير ، وملك كبير ، ومالوا إلى طعام أنيق وفراش وثير ، وجرّروا من التيه مطارف سندس وحرير ، وأغرتهم السعة بالدعة ، وأفضى بهم الرخاء إلى الارتخاء ، وأورثتهم رفاهية العيش قلّة الانتخاء . وشتان بين من ألِف الترف ومال إلى الهوى ، و بين من لزم الشظف وطوى على الطوى . ولله در من قال عن وقعة بطرنة بقرب بلنسية ، وقد مُحّص فيها المسلمون :

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستمُ حُللَ الحرير عليكمُ ألوانا

ما كان أقبحَهم وأحسنَكم بها لو لم يكن ببطرْنةٍ ما كانا

وهكذا لم يزل المخشوشن يفتك بالمتنعّم ، حتى دوّخه ؛ والمحروم يوقع بالمترف ، إلى

أن رنحه ؛ والشقاق مع ذلك بين المسلمين لا تنطفىء ناره ، ولا تنقطع أخباره ، والإصلاح بينهم تُخفق مساعيه ، والشر أبداً تَجادَعُ أفاعيه ؛ لا ينجع فى عقولهم بليغ نصح ، ولا يعوج بأسماعهم نذير خطب ؛ ولا يعوّلون على شاهد نقل ، ولا دليل عقل ، ولا يعتبرون بحلول بَثْق واقع على بثق . تنزل بهم كل هذه القوارع وهم فى سكرتهم يعمهون ، ويقرأ عليهم الدهر كل يوم سورة الغاشية فلا يتدبرون ، ولا يسمعون ، و(يُفتنون فى كلّ عامٍ مرةً أو مرّتَيْن ثم لايتوبون، ولا هم يذّكّرون) وأخيراً تناثروا بِددا ، وتطايروا قِددا ، فلكل بلدة دولة وأمير ، ومنبر وسرير ؛ وكل جار لجاره مناظر لا نظير ، يجور عليه ولا يُجير ، ولا يغار عليه بل يُغير !

وتفرقوا شيعاً فكلُّ مدينةٍ فيها أمير المؤمنين ومنبرُ

وهم فى أثناء هـذا يتسابقون فى ميدان الاستعانة ، بعضهم على بعض ، بالطاغية الذى يساومهم على المناصرة بتسليم الحصون ، وتعطيل الثغور ؛ والانهزام بلا سيف ، والرضى بكل حيف ، ويواطئون على حوزة الإسلام علنًا (ويأخذون عَرضَ هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا) والعدو كل يوم يتقدم ، وحوض الإسلام كل يوم يتهدم ؛ والخلاصة : ما زال يطغى وهم يحسِرون ، ويمد وهم يجزرون ، ويطول وهم يقصرون ، إلى أن عادوا إلى علَم ناكس ، وصوت خافت ، وباتوا ـ كما يقال ـ طوع كل شامت ؛ وتوقع كل عاقل الفاقرة الكبرى ، وأن من هو باق بسيف البحر ليس بثابت ؛ وما كانت إلا شفافة فى إناء الأندلس أراد العدو أن يستصفى سُؤرها ، وبقية فيما وَراء البحر صمم أن يقتلع جِذرها ، وجاءهم ذلك حينما لم يبق مرابطون ولا موحدون ، ولا أبطال يجاهدون فى سبيل الله فيقتُلون ويُقتلون ، بل حينما كل ملك بالعُدوة مشغول بسد فتوقه ، وحفظ حقوقه ؛ سعيد بأن يثبت فى مكانه ، راض بأن يخلص من عادية جيرانه ، بل من غائلة إخوانه . فكيف يستطيع أن يركب البحر لينازل الطواغيت ، ويجمع من الاسلام ذلك الشمل الشتيت ؟ فأراد الله أن يتركهم وشأنهم ، وهو تعالى المحيى المميت . واستأسد بذلك العدوّ ، فلم يزل يواثبهم

ويكافحهم، ويناديهم القتال ويراوحهم، حتى أجهضهم عن أماكنهم، وجفلهم عن مساكنهم، وأركبهم طبقاً عن طبق، واستأصلهم بالقتل والأسر كيفما اتفق؛ ورُدوا فى الحافرة، وصاروا رهن هوى الأمة الظافرة. ومن اختار منهم الدجن انتقلوا تدريجاً إلى دين الطاغية ولسانه، فخسروا الدنيا والآخرة، وصاروا عبرة فى العالمين (وتلك الأيامُ نُداولُها بين الناس، وليعلمَ الله الذين آمنوا ويتخذَ منكم شهداء، واللهُ لا يحبُّ الظالمين)

نعم؛ حواضر كالبحار الزاخرة، كانت تموج بالبشر؛ وحصون كالجبال الشامخة، تحصى بالألوف وتكبو فيها جياد الفِكَر، وجيوش كانت حصى الدهناء، ورمال البطحاء، ومساجد كانت فى الجمع المشهورة تغصُّ بألوف الألوف من المصلين، ومدارس كانت مكتظةً بالألوف من القراء والطالبين، وما شئت من إسلام وإيمان، وحديث وفرقان، وأذان يملأُ الآذان، وما أردت من نحو ولغة وطب، وحكمة ومعان وبيان، بلغة عربية عرباء، يحرسها علماء كنجوم السماء [1]؛ وما أردت من عيشٍ خضل

(١) قال العلامة دوزى المستشرق الكبير الهولاندى، أوثق أوربى كتب عن الأندلس، وذلك فى كتابه «مباحث عن تاريخ اسبانية وآدابها فى القرون الوسطى» Recherches sur l'histoire et la littérature de l'espagne pendant le moyen âge ما يلى:

«انهم كتبوا (يعنى الاسبانيول) تاريخ وطنهم الذى منه عدة مقاطعات تولاها العرب مدة ثمانية قرون، وذلك بدون أن يعرفوا لغة العرب. ولما لم يكونوا قادرين على مراجعة الكتب العربية كان لا مناص لهم من الخبط عند كل خطوة كلما أرادوا الكلام عن الدول العربية أو عن الحرب والسلم بين المسيحيين، ولهذا تجد كثيراً من الحقائق التى هى فى الدرجة القصوى من البال مجهولة عندهم مع أنها متعلقة بأخبار ممالك النصارى، وذلك لأن هذه المعلومات لا توجد فى الكتب اللاتينية ولا الاسبانيولية بل فى كتب مؤرخى العرب وأدبائهم وشعرائهم، لأن اسبانية المسلمة هى البلاد الأوربية التى فى القرون الوسطى كتب فيها أكثر من الجميع، والتى كان فيها المذهب التاريخى أكمل وأدق منه فى أى مكان»

وزمن نضر ، وحَزَرات أنفس ، وضَحِكات قلوب . كل هذا عاد كهشيم المحتظِر ، كأن لم يغْنَ بالأمس ، ولم يبقَ منه إلاَّ آثار صوامت ، وأخبار تتناقلها الكتب ، كأنه لم يعمر الأندلس من هذه الأمة عامر ، ولا سمر فيها سامر . قال تعالى : (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ) .

وبقيت الأمة العربية تنوح على هذا الفردوس المفقود الذى هبط منه أهله بأعمالهم ، نحواً من أربعمائة عام ، نواح الثاكل لولده لا يريد أن ينسى مصابه ، ولا يفتأ يذكر فصاله ؛ ولما كنت من جملة هذه الأمة الباكية على ذلك الفردوس الضائع ، أولعت من أوائل صباى بقراءة تاريخ الأندلس ، والتنقيب عن كل مايتعلق بالعرب فى تلك الجزيرة ، حتى إننى لما اطلعت على رواية «آخر بنى سراج» للكاتب الافرنسى الكبير «رينه شاتو بريان» بادرت بنقلها إلى العربية وذيلتها بتاريخ للأندلس نشرته من أربعين سنة ؛ ثم نفدت نُسَخُهُ بأجمعها ، فأعدت طبعه منذ إحدى عشرة سنة ، وقد قلت فى خاتمة كتابى ذاك مايناسب أن أعيده هنا ، رَعْياً لكون الغرض الذى حدانى يومئذ إلى نشر ذلك الملخَّص ، هو نفس الغرض الذى يحدونى اليوم إلى نشر هذا المطوَّل ؛ فالروح التى أملت ذاك هى التى قد أملت هذا ، وكلامى الأول هو كلامى الآخر ، ولو كَرَّت الأيام وتعددت الأعوام ، قلت :

« ولا أكتم القارىء الذى هو خليق بأن لايخفى عليه ذلك بشفوف بصره ولطف حسّه ، أن الأمر غير خال فى هذا الإملاء ، من نزعة جنسية ، وحنوة عصبية ، وهفوة للفؤاد وراء آثار بنى الجلدة ، مماتُستشعر فيه مرضاة هذه النفس ، العظيمة السر ، البعيدة مهوى الغرض ، الغريبة شكل الهم ، وتُوفَّر به اللذة والراحة لهذا الوجدان الداخلى ، السائح فى إثر ما يتعلق بالنفس من جميع جهاتها ، على ترجيح الأقرب فالأقرب ؛ وقد طبع الخالق الحكيم هذا المرء على حب جنسه ، والميل للاتصال بأبناء أبيه ، فكأنما يتمثل بذلك صورة نفسه التى هى جزء من هذا المجموع ، لما يُحِسُّ من أن أقرب أنواع الدم إلى دمه ، هو الجارى فى عروق قومه ؛ فهو يحنّ إليهم و يحنو

عليهم، ويتألم لآلمهم، و يعتز بعزهم؛ وتراه إذا غابت أشخاصهم استأنس بآثارهم بعد الأعيان، وارتاح إلى مواطنهم ورغب في الدوس على مواطىء أقدامهم ولو بعد أزمان. وقد عهدنا الذى يصاب بعزيز أو بذى قرابة يختلف إلى قبره، و يشفى بالبكاء عنده حرارة صدره؛ و إذا ظفر بقطعة من ملبوسه، أو مفروشه أو برقعة من خطه، احتفظ بها، وغالى فى قيمتها، وجعلها مدار أنسه، فى خلوات نفسه، وروح حياته فى منتبذ مناجاته. و بناء على هذا الشعور أولع الخلق بحفظ آثار الغابرين، وتطلعوا بغريزة فيهم إلى معرفة سِيَر السالفين، ووقفوا على الأطلال الدوارس، و بكوا على الدمن البوالى، كأنما يجدّدون عندها عهودهم مع آبائهم، و يشدّون لديها معهم عروة وفائهم».

إلى أن أقول: «فياليتنا نتبع الآن سنن من قبلنا، ونقتدى بسلفنا، ونبنى بناء أوائلنا، ونعتبر بحمراء غرناطتنا، وخضراء دمننا، ونتأمل فى سالف عزها، وسابق أمرها، ونتجنّب الفرقة التى آلت إلى فقدها، ونسأل رسومها عما مضى من نَعيمها، فهى رسوم إن لم تجبك حِواراً أجابتك اعتباراً؛ فلا يكوننّ دائماً من شأننا أن نتباهى بمجد الأوائل ونفاخر بالعظم الرميم، دون أن نقتص أثر الآباء ونحيى ذكر القديم، ولا يبقى من نصيبنا فى المجد إلاّ حديث سمر، ومجرّد ذِكَر. وما أحسن ما قال شوقى شاعر العصر:

وذاتِ دلالٍ من بنى الروم حولها	إذا ما تبدّت إخوة سبعة مُردُ
عُنيت بهـا حتى التقينا فهزّها	فتىً عربىٌّ ملء بردته مجدُ
فقالت: أطِيبٌ بعد عسر وشدة؟	فقلت نعم مسكُ الأحاديث والندُّ
عطلْنا من النعمى وطُوِّق غيرنا	تداولت الأيام وانتقل العقدُ
وما ضاعت الدنيا علينا وحسنها	ولـكنّ عن أغصانه رحل الوردُ

هذا، وكان الفراغ من كتابة هذا التاريخ، ليلة السبت الواقع فى السادس والعشرين من المحرم سنة خمس عشرة وثلثمائة بعد الألف» اهـ

فأنت ترى أن الكتاب الأول قد مضى عليه أربعون سنة ، وهى مدة تسمى عمراً ، ولقد سمعت من كثير من أعيان الأمة العربية أنهم قرءوا كتابى ذاك فى وقته ، وتتبعوا حوادث سقوط مملكة غرناطة وجلاء المسلمين الأخير عن الأندلس باهتمام عظيم ، ودمع سجيم . وقال لي بعضهم إنهم قرءوه مرتين ، وإن منهم من كان يبكى ، ومنهم من كان يتلهب وجداً ، ومنهم من كانت مهجته تذوب حسرة عند قراءته . وقد تضاعفت الآن هذه الذكرى ، وبعد مضى هذه السنين الأربعين ازداد الولوع بتاريخ الأندلس ، بازدياد الناشئة المقبلة على العلم ، وبنموّ الشعور العربى فى جميع طبقات هذا الشعب ، سواء منهم من فى الشرق ومن فى الغرب ، ولا يزال هذا الشعور فى نموّ ، وما برحت هذه الهمم فى سموّ ؛ ولا عجب فإن قوة الأمة هى على قدر ما مجّت من مشارب العلم ، وارتقت من درجات الثقافة الجم ، والأمة العربية فى هذه المدة قد اجتازت عقبات جياداً ، وقطعت أشواطاً طوالا ، وسارت السير النّجاء ، وشمّرت التشمير الباعث على الرجاء ؛ فأخذت تُحْفِى سؤال التاريخ عن ماضى أحوالها ؛ كما صرفت معظم بالها ، فى توطيد استقبالها .

ولهذا رأيت أنه من أمثل ما يمكننى أن أخدم به هذه الأمة ، قبل انصرافى من هذه الدنيا ، هو أن أهدى ناشئتها عن هذه القطعة النفيسة من تاريخها ، كتاباً شافياً للغليل ، جامعاً لأقطار هذا البحث ، ناظما بين القديم والحادث ، مقابلا بين ما قاله العرب وما قاله الافرنج .

وكنت قدّمتُ بين يدى هذا التأليف رحلة قمت بها من ست سنوات فى أكثر أنحاء أسبانية ، لأقرن الرواية بالرؤية ، وأجعل القَدَم رِدْءا للقلم ، ونويت أن أجعل الرحلة أساس الكلام وواسطة النظام ، وأن أضم التاريخ اليها ، وأفرّع التخطيط عليها .

ومن أجل ذلك كنت نويت أن أسمي هذا الكتاب « بالحلة السندسية فى لرحلة الأندلسية » وأشرت إلى هذا الاسم فى كتابى المنشور من سنتين ، الموسوم

« بغزوات العرب فى جنوبى فرنسة وشمالى إيطالية وفى سويسرة وجزائر البحر المتوسط » الذى عددته جزءاً من كتابى الأندلسى . إلا أنى رأيت فيما بعد أن ما نحن بسبيله قد اتسع جدًّا عن الرحلة ، وأن الاسم قد ابتعد عن المسمّى ، وأن الكتاب قد يقع فى عدة مجلدات كبار ، وقد يكون أوسع كتاب عربى كتب عن الأندلس ؛ هذا إذا فسح الله فى الأجل ، ووفق للعمل ، فعدلت إلى اسم آخر يشعر ما أنا متوخّيه من الإحاطة بقدر الطاقة ، وهو « الحلل السندسية ، فى الأخبار والآثار الأندلسية » وآليت لأبلغنّ فيه جُهَيْدَاى ، وأعقل به ما شرد عن سواى . ولم أقصد فى ذلك تنبُّلاً على الخلق ، ولا تزيُّداً فيما ليس بحق ، وإنما أردت النصح ما استطعت ، والتمحيص ما قدرت . والعلم أمانة ، من حملها فقد حمل إدًّا وتجشم بُهْراً . والتاريخ من عالجه فقد رقى حَزْناً ، وركب خشناً . فان كنت قرطست أو قاربت ، فقد بلغت من عملى المراد أو بعض المراد ؛ وإن كان سهمى قد طاش ، فكم فى حامَ وما ورد ، وغنّى وما أطرب ، ولكن شفع له الاجتهاد .

ولقد سهرت فى هذا التأليف ليالي متمطيات بأصلابها ، تحقيقاً عن لفظ ، أو تنقيباً عن اسم ، أو ضبطاً لرواية مختلف فيها ، أو لعدد أقلّ فيه الواحد وأكثر الآخر ، أو تعييناً ليوم واقعة من أىّ شهر أو من أية سنة ، أو مقابلة بين ما قاله عربى وما قاله أوربى عن الحادثة الواحدة ، أو تعريباً لعَلَم اسبانيولى على الوجه الذى كان يقوله العرب ، أو تبييناً لعَلَم عربى كيف كان يتلفظ به الاسبانيول ، وما أشبه ذلك مما أذبت له سواد العيون ، وأحييت كثيرا من الليالى الجون . ولا أزعم مع ذلك أنى بلغت به الأمد الذى ينجيه من تعنت الحساد ، أو يعليه على تصفّح النقّاد ، ولكنى بلغت فيه الجهد ، وأبليت العذر ، ولم أُبق فى القوس منزع ظفر .

ومما لا بد لى من الإشارة اليه فى هذه المقدمة أنى اخترت النقل عن المؤلفين ما استطعت ، لتكون هذه الموسوعة فى هذا الموضوع معرضاً للآراء ، ومجمعاً للأفكار التى يطلع منها القارىء على الصور المختلفة التى كانت عن مملكة العرب فى الأندلس ،

فى أذهان الذين عاشوا فى ذلك العصر وكتبوا عنه ، أو فى أذهان من كانوا على مقربة منه . ولم أشأ أن أصنع ما يصنعه الكثيرون من أخذ الشيء عن الآخرين وإبرازه للناس كأنه من ورى زنادهم ، وفيض قرائحهم ؛ فليس هذا مذهبى فى الكتابة ، ولا أراه الطريقة المثلى فى التأليف ؛ وإنما ينقل الانسان ما يستطيع الاتصال به من آراء الناس ورواياتهم ، ثم يشفعها برأيه الخاص ، وبالرواية التى يكون قد جزم هو بها ، أو رجحها على غيرها بحسب اجتهاده ؛ وله أن يستدل على صحة رأيه أو ثبوت روايته بما وجد من قرائن ، وآنس من شواهد ، وللقارىء بعد ذلك أن يذهب فى الترجيح والتجريح كيفما شاء بحسب ما يؤديه اليه نظره .

ولهذا نقلت ما قدرت أن أعثر عليه من الفصول المتعلقة بالأندلس ، عن المسعودى ، وابن حوقل ، والمقدسى ، والشريف الادريسى ، وابن الأثير ، وياقوت الحموى ، وابن عذارى ، وابن بشكوال ، وابن عميرة ، وابن الأبّار ، وابن خلدون ، ولسان الدين بن الخطيب ، وصاعد الطليطلى ، والهمدانى ، والقلقشندى ، والمقّرى صاحب نفح الطيب ، وغيرهم من مؤلفى العرب ؛ ونقلت أيضاً عن دوزى المستشرق الهولندي ، وعن رينو المستشرق الأفرنسى ، وعن أيزيدور الباجى ، وغيره من مؤلفى القرون الوسطى ، وعن أصحاب الانسيكلو بيدية الاسلامية ، وعن لاوي بروفنسال من المعاصرين ، وعن المسيوجوسه P. Gousset صاحب جغرافية اسبانية والبرتغال ، وعن بديكر ، وعن بعض علماء الاسبانيول مثل سيمونه Simonet وكوندي Conde وعن ألبار دوسيركور صاحب تاريخ المدجّنين ، والموريسك Albert de Circourt وعن دو ماريليس de marlês وعن كتب أخرى اسبانيولية استعنت على ترجمتها ببعض أصحابى من الأسبان ، ومن غيرهم . وعزوت الروايات إلى أصحابها ، ونقلت كثيراً من الفصول بنصوصها ، أو تلخيصاً مع التعليق عليها في الحواشى بما يعن لى مخالفاً أو موافقاً .

وهناك اصطلاح آخر ، جرى عليه بعض مؤلفى الافرنجة ، وتابعهم فيه المشرقيون

وهو إرسال الكلام من عندهم فى الموضوع ، ثم الاستشهاد بأقوال الآخرين بادماج بعض الجمل المأخوذة عنهم ، وذلك فى صلب الكلام مع الاشارة فى الحاشية إلى مأخذ تلك الجمل ؛ ولست أرى في ذلك بأساً ، و إنما ألاحظ هنا أن المؤلف قد يكون له رأى خاص فى مسألة من المسائل ، فيهمه تأييد رأيه ، فينقب فى الكتب على كل مايعزز وجهة نظره ، وكلما وقع على جملة لمؤلف رأى فيها تقوية لنظريته نقلها دون سواها ، وأدمجها فى كلامه ، فربما جاءت بتراء لا يعرف ما تقدمها ولا ما تأخر عنها ، وربما جاء نقل تلك الجملة من قبيل « ولا تقربوا الصلاة » وحذف « وأنتم سكارى » فمن المعلوم أن الحكم لا يصح باعتبار جملة واحدة لمؤلف ، و إنما يصح باعتبار مجموع كلامه بعد تصفحه بحذافيره . وهذا الذى حدانى إلى نقل فصول بأصبارها ، أخذ العِذْق بشماريخه ، ولو كان فى خلالها ما ليس عندى بثبت ، وما اضطررت أحياناً إلى رده .

و إتماماً للفائدة رأينا تزيين هذا الكتاب باطالس جغرافية ، محررة فيها أسماء البقاع والمدن ، باللغة العربية ؛ ورصّعناه بتصاوير لم يسبق أن اطلع عليها العرب ، وذلك لأن التصوير بالريشة قد يفعل مالا يفعله لتصوير بالقلم ، ولأن الصورة المحسوسة فى العين هى أوقع من الصورة المجردة فى الذهن ، فما ظنُّك إذا كانت الواحدة رديفاً للأخرى ؟

ولما كان المقصود بهذا الكتاب التوسع فى الموضوع بقدر الطاقة ، قسمناه إلى قسمين : جغرافية وتاريخ . وبدأنا بالجغرافية لأنها سابقة للتاريخ ، ولم نقتصر فى الجغرافية على ما كانت عليه اسبانية فى أيام العرب أو فى القرون الوسطى ، غير ناظرين إلى أحوالها الجغرافية الحاضرة ، بل جمعنا القديم إلى الحديث ونظمنا بين الخالى والحالى وقرنَّا ما كتبه العرب بما كتبه الافرنج ، و إن كنا لم نحب أن نملأ الكتاب بالأرقام والاحصائيات ، فى الكليات والجزئيات ، مما قد تمل الأنفس مطالعته .

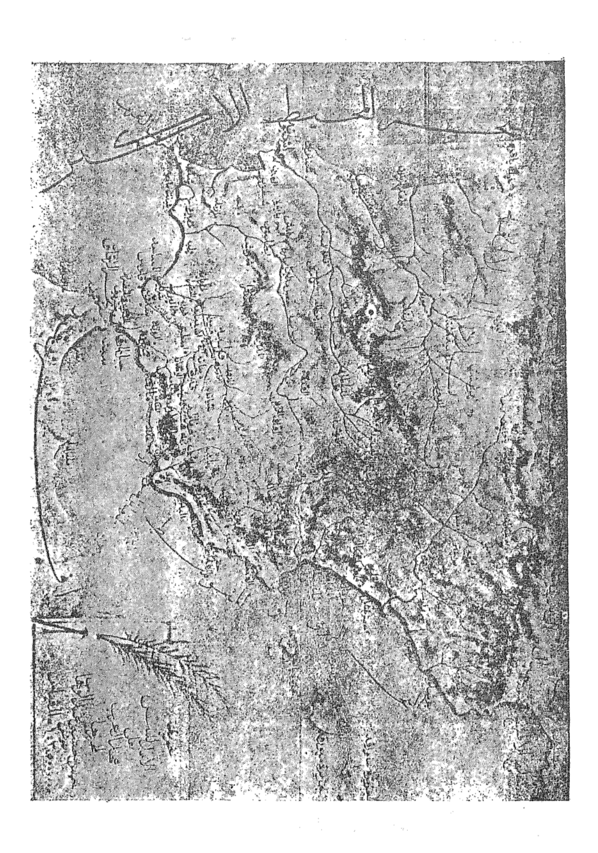
وقد أدخلنا فى القسم الجغرافى ذكر من نبغ من أهل العلم فى كل بلد من البلدان التى ذكرناها ؛ ولم نحصر ذلك فى العرب ، بل تجاوزناه إلى الاسبان ، ولكننا استقصينا فى أسماء العرب بالبديهة ما لم نستقص فى أسماء أولئك ، ؤاكتفينا من الأسبان بالمشاهير ، لأن قراءنا هم من العرب وغرضنا إنما هو تعريف ناشئة العرب بالأندلس العربية ، ولن يقرأ كتابنا من غير العرب إلاَّ من شاء من المتخصصين .
وقد كان مرادنا بادئ ذى بدء أن نسرد أسماء العلماء والأدباء المنسوبين إلى كل بلدة سرداً مجرداً من دون ترجمة ، ثم نرد تراجم أحوالهم إلى جزأين فى الآخر ، مخصصين بذلك الموضوع ؛ ولكننا رأينا فى ما بعد أن السرد المجرد لا يفيد شيئاً ولا يبلغ فى صدور القراء حاجة ، وأنه لابد من شدو شيء من ترجمة كل واحد منهم ، ومن تبيين العلم الذى كان متخصصاً به ، وذلك فى الأجزاء الأولى . وإن كنا عوّلنا على هذا الأسلوب فهو لايمنعنا من أن ننتخب من هؤلاء المترجمين طبقة عبقرية وفئة ممتازة نكتب لهم فى الآخر سيراً ضافية ، إن شاء الله ، نأتى فيها بمختارات من أقوالهم وأعوذجات من نظمهم ونثرهم .

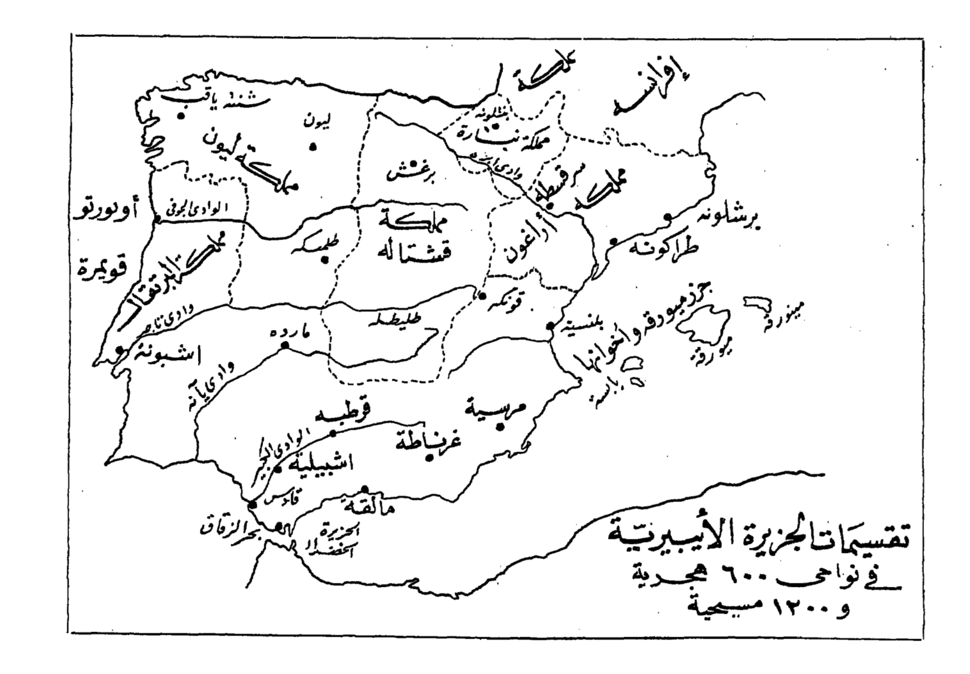
هذا ولقد أحببت أن أتوّج هذا الكتاب الذى تعبت فيه هذا التعب كله ، باسم أحد أمراء الاسلام وأقطاب الشرق ، الذين يتفق فى شأنهم الكلام ممن يملأ العيون والصدور ، ولا يكون الثناء عليه تنميق جمل وتشقيق ألفاظ ، بل يكون نفس فعله هو هو الهاتف بمدحه بدون منةٍ لقائل ، ولا فضلٍ لمنوّه ، وتكون سيرته الشخصية ومآثره المستمرة هى المخلّدة له فى الأعقاب وعلى طول الأحقاب ، وإذا رآنى الناس اخترته لتتويج هذا الكتاب باسمه قالوا بأجمعهم : تالله لقد أحسن الاختيار وأتى الأمر من بابه ، وما أطرى ولا بالغ ، ولا تملّق ولا داهن ، وإنما هو الحق الذى لا يجهله أحد . ولا يأتى على هذا الشرط عظيم من عظماء الاسلام قبل الأمير الكبير العلامة الخطير صاحب السمو الأمير عمر طوسون حفظ الله مهجته للاسلام والمسلمين وأمتع بطول حياته الشرق والشرقيين فقد أصبح هو فى هذا العصر أمين هذه الأمّة

فى كل ملةٍ ، ومفزعها فى كل مهمةٍ. و إليه ارتاحت جميع الضمائر، وعليه حامت جميع الخواطر ، وما من بَزْلَاءَ إلاَّ وقد نهض بها يشار إليه بالبنان فى جميع أنحاء العالم الاسلامى لا يعمل شيئاً مما يعمله رئاء ولا سمعة ولا ابتغاء شهرة ولا أمارة ، هو الذى يزينها وليس بالذى يتزين بها ، و إنما يعمل مايعمله ابتغاء وجه الله تعالى ، وخدمة لهذه الأمة التى أبى أن يكون من أعظم أمرائها نسباً وجلاء ، بدون أن يكون من أجل أمرائها علماً وعملا وَجَدَاء ، فكان قدوة لكل أمير لا يعرف العبث ، ولا يريد أن يضيع من عمره لحظة واحدة بدون فائدة للبشر. وما أقول هذا عن متابعة للناس فى شأن هذا الأمير المنقطع النظير ، ولا عن روايات معنعنة ولا عن شهرة طائرة و إن كان التواتر يفيد اليقين و إن كان الناس أكيس من أن يجمعوا على مدح رجل إن لم يكن لذلك أهلا ، و إنما أقول ما أقوله عما خبرته بنفسى وشاهدته بعينى ، وتبادلت معه فيه الكتب المتصلة والرسائل المتواترة ، مدة تزيد على خمس وعشرين سنة ، من أيام الحرب الطرابلسية إلى الحرب البلقانية ، إلى الحرب الكبرى إلى جميع الخطوب والنوازل التى حلت بالاسلام من بعدها مما قيدت خلاصته فى ترجمة حياتى التى أوصيت بأن تنشر من بعدى ، واستودعتها مكتب المؤتمر الاسلامى فى بيت المقدس ، وكذلك مما سجلته فى تاريخ الدولة العثمانية الذى حررته تعليقاً على تاريخ العلامة ابن خلدون رحمه الله إجابة لطلب المتصدى لتجديد طبعه الحاج محمد المهدى الحبابى الفاسى وفقه الله ، ولست والله يعلم فى شىء مما قيدته من أعمال الأمير الأوحد عمر طوسون مد الله ، فى حياته بالذى وفاه إلا النزر الأقل مما يجب من حقه على هذه الأمة التى تعرف له من فضله عليها بقدر ما ينكر هو من ذاته ، ولست فى جَعْلى هذا الكتاب باسمه الكريم إلاَّ الكاتب الذى عرف أن يسد ما نقصه من العلم و يتلافى ما فاته من براعة الانشاء بما وُفق إليه من معرفة الفضل وأُلهمه من براعة الاهداء .

ولأبدأ الآن بالموضوع مستمداً من الله الصواب والسداد (وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد) .

جنيف فى ٧ صفر الخير ١٣٥٥ شكيب أرسلان



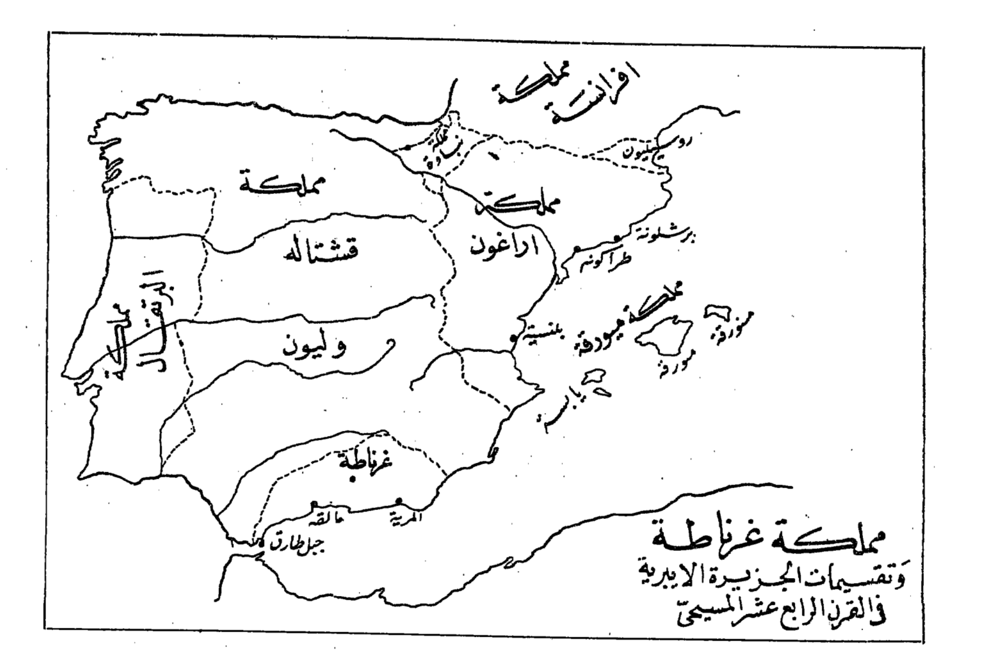


تقسيمات الجزيرة الأيبيرية
في نواحي ٦٠٠ هجرية
و ١٢٠٠ مسيحية
إفرانسه
مملكة
شنت ياقب
ليون
مملكة ليون
برغش
بنبلونه
مملكة نبارة
وادي ابره
مملكة سرقسطة
أراغون
برشلونه
طراكونه
أوبورتو
الوادي الجوفي
مملكة البرتقال
قويمرة
طلمنكه
مملكة قشتاله
قونكه
طليطلة
بلنسية
جزر ميورقة وأخواتها
مينورقة
ميورقة
يابسة
وادي تاجه
ماردة
اشبونة
وادي يانه
قرطبة
مرسية
غرناطة
الوادي الكبير
اشبيلية
قادس
مالقة
بحر الزقاق
الجزيرة الخضراء

إمارة قرطبة

في نواحي سنة ٢٠٠ هجرية

مملكة اشتوريش
نبارة
برغش
الوادي الجوفي
اوبورتو
طلمنكة
طليطلة
وادي تاجه
اشبونة
وادي يانه
وادي ابره
سرقسطة
برشلونة
بلنسية
جزر البليار
ميورقة
منورقة
يابسة
قرطبة
الوادي الكبير
اشبيلية
غرناطة
قادس
طنجة



مملكة غرناطة
وتقسيمات الجزيرة الايبرية
في القرن الرابع عشر المسيحي

لمحة عامة

من الأمثال المضروبة فى أوربة أن جبال البرانس — كما يقول العرب [١] — أو البيرانة Pyrénées كما يقول الأفرنج — هى الحد الفاصل بين أوربة وأفريقية. ويقولون : إذا تجاوزت معابر البيرانة فاعلم أنك قد دخلت فى أفريقية . وربما يستغرب القارىء هذا القول بعد علمه أن فى غرب البرانس (أو البيرانة) بلاداً طويلة عريضة هى من أكبر أقسام أوربة ، تتألف منها مملكتان أوربيتان هما اسبانية والبرتغال فكيف يمكن أن تكون هذه البلاد من أفريقية ؟ وماالموجب ، ياليت شعري ! لضرب هذا المثل الذى قد يكون من باب المبالغة فى تشبيه أسبانية والبرتغال الضاربتين فى مناطق الجنوب بجارتهما سواحل أفريقية الشمالية ؟ والحقيقة أنه ليس فى هذا المثل شىء من المبالغة . أما من جهة الشجر والحجر والتراب والماء فان الجزيرة الايبيرية المنفصلة عن أوربة بجبال البرانس أشبه بشمالى أفريقية وبغربى آسية . ولقد جرّبت هذا الشعور بنفسى فور دخولى إلى أسبانية ، إذ كان ذهابى إليها من طريق فرنسة أى من الشمال ، فما عبرت الحدود الواقعة بين فرنسة وإسبانية حتى خلت نفسى سائراً في سواحل الشام بلادى . فكيفما نظرت وقع نظرى على التين والزيتون والخرّوب والصنوبر والصبير وجميع الأشجار والنباتات الحرجيّة التى أعرفها فى بلادى ، مع وجوه الشبه الكثيرة في منظر الأرضين ولون التراب وتحدُّر الغدران يحف بها القصب والحلفاء ، ومع حنين النواعير فى البقاع التى لا يصح لها الشرب من الغدران ، وغير ذلك مما يخيّل لك أنك فعلا فى سواحل سورية . ولا شك فى أن هذا التشابه بين البلادين هو الذى حدا عرب سورية على انتجاع الأندلس أكثر من أى بلاد سواها ، لأن الانسان يحب إذا تغرّب أن يقع فى أرض تشبه مسقط رأسه .

وكان الجغرافيون القدماء يقسمون الكرة الأرضية إلى مناطق سبع ، وبحسب

(١) وقد يقول لها العرب جبال البرتات

هذه المناطق تكون اسبانية وجزائر البحر المتوسط مثل سردانية وصقلية وكريت وقبرص ، وكذلك البلاد الشامية والعراقية ، منطقة واحدة . وقد شاهدت شمالى المغرب فرأيته لا يفترق عن جنوبى أسبانية . وكيف يختلف عنه وكل الفاصل بينهما مضيق لايتجاوز فى بعض الأماكن أكثر من مسافة ١٥ كيلو متراً ؛ وهذا الفاصل قد جرى الماء فيه حديثاً بالنسبة إلى الأدوار الجيولوجية . وأنت إذا نظرت إلى شكل الأرض فى الجزيرة الخضراء وجبل طارق ، من جهة ، وإلى شكلها فى طنجة وجبل موسى وسبتة تجده واحداً ، فهى بقعة خرقها الماء من الأوقيانوس الاطلانطيقى إلى البحر المتوسط فجعلها شطرين ، ولكن لم ينزع من كل من الشطرين وحدته الطبيعية مع الآخر . وقد قيل لى : إنّ فى برية جبل طارق نوعاً من القِرَدَة قديم الوجود فيها ، وهذا النوع نفسه يسكن فى جبل موسى المقابل لجبل طارق وذلك من جهة افريقية .

هذا من جهة الجغرافية الطبيعية . أما من جهة الجغرافية السياسية التى تتعلق بالسكان والممالك ، أو من الجهة الاتنوغرافية كما يقال ، فلا شك أن الاسبانيين والبرتغاليين وإن كانوا أوربيين فى سلالتهم فانهم لاختلاطهم بالعرب والبربر والأمم السامية مدة قرون متطاولة أصبحوا أمة وسطاً بين الغرب والشرق [1] . وإذا صح

---

(١) يذهب كثير من المؤرخين إلى أن الايبيريين الذين هم سكان أسبانية الأولون هم والبربر من أصل واحد . ويستدلون على ذلك بالتشابه بين عادات الفريقين . من ذلك ما رواه سترابون من أن المرأة كان لها المقام الأول عندهم إلى زمن الرومانيين وهذه العادة معروفة الآن عند الطوارق فى صحراء إفريقية . ثم إن السليتين جاءوا من أوربة الوسطى فاختلطوا بالايبيريين ،كما أن قرطاجنة أرسلت إلى أسبانية مهاجرين كثيرين من إفريقية ، وقبل قرطجنة كان الفينيقيون قد عمروها . فأنت ترى أن اسبانية ملتقى للعناصر الشرقية والغربية ، فنها العناصر العربية التى تأتيها من شمالى البرانس ومنها العناصر الشرقية التى تأتيها من جنوبى بحر الزقاق .

ثم إنه طرأ على اسبانية جاليات يونانية نزلت فى أقسامها الشرقية ، وتلاها

الافتراض الذى يذهب إليه بعضهم من أن السلالة البيضاء هى التى انتقلت من على عنُق الدهر من المغرب إلى أوربة لم يكن العرب هم أول من أجاز من إفريقية إلى الأندلس .

إن شبه الجزيرة الايبيرية لا يتصل بأوربة إلاّ ببرزخ ، هو جبال البرانس ، وهي جبال شهيرة متوسط ارتفاعها سبعمائة متر عن سطح البحر تتكسر على أذيالها

جاليات رومانية غلبت على جميعها ، وفى أثناء ذلك دخلها العنصر السامى أيضاً بمجىء عدد كبير من اليهود .

وبعد أن تلاقى فيها الايبيريون والسليتون واللاتينيون واليونانيون من السلائل الأوربية ، والقرطاجنيون والفينيقيون واليهود من السلائل الأسيوية ، طرأت على اسبانية أمم جرمانية مثل السويف والالانيين والفندالس والقوط الذين ملكوها وكانوا الطبقة السائدة فيها عند ما فتحها العرب .

ولما جاء العرب دخلها ملايين منهم ومن البربر ، فاختلطت آسية وأفريقية بأوربة اختلاطاً شديداً ، وصار الغالب على اسبانية هو المدنية الشرقية ، ولا عبرة بما جرى من إجلاء العرب والبربر فيما بعد ، فان هؤلاء قد بقى منهم فى الجزيرة عدد كبير اندمجوا فى الأهالى فى جميع المقاطعات ودانوا بالنصرانية ولا يوجد فى اسبانية مكان يخلو منهم حتى أن القشتاليين الذين هم أقل أهل اسبانية اختلاطاً بالعناصر الشرقية والذين يمثلون السلالة الايبيرية القديمة لا يخلون من عنصر دخيل من العرب والبربر .

وعلى وجه الاجمال السلالة الآرية هى الغالبة على القسم الشمالى الغربى من اسبانية ولذلك أجسامهم أقوى وعضلاتهم أصلب . ومنهم القشتاليون الذين يعدّون أنفسهم محررى البلاد ، ففى أنوفهم نعرة شديدة . ومثل القشتاليين فى حمية الأنوف أهل أراغون وأهل مقاطعة مرسية . أما الكتكلونيون فهم أهل صناعة وعمل ، ولا يفترقون كثيراً عن أهل اللنفدوق فى جنوبى فرنسة لأنهم جيرانهم . وأما سكان الأندلس أى المقاطعات الجنوبية فيغلب على أهلها الذكاء والجمال والسرور وحب الترف ، وذلك لأنهم من بقايا العرب وممن كان اندمج فى العرب . اه تلخيصاً عن جوسه صاحب جغرافية اسبانية والبرتغال .

أمواج البحر المتوسط من الشرق والاطلانطيقى من الغرب ، وقد حفرت المياه على منحدريها سواء من جهة الشرق أو من جهة الغرب مُسْلانًا لا تحصى وأنهارا تتدفق وجرّدت صخورها من التراب الذى لا يزال يجحف به السيل من عشرات الآلاف من السنين .

والجيولوجيون يقولون : إنه لو حصل خلل فى توازن قشرة الأرض الصلبة أدّى إلى اضطراب أعماق البحار لما أمكن أن تكون الجزيرة الايبيرية بمنجاة من هجوم البحر من جهة الوادى الكبير فى الجنوب وجون نهر « إبرُه Ebre » فى الشرق حيث أن طرطوشة ليست إلاّ على ارتفاع مترين فقط من مصب نهر « إبره » كما أن إشبيلية لا تعلو إلاّ عشرة أمتار عن الوادى الكبير . ولو قُدّر أن البحر ارتفع مائة متر عما هو الآن لضربت أمواجه حيطان قرطبة . ولو أن البحر انبسط على سهل اشبيلية لغمر أكثر سهول الأندلس ، ولم يقف إلاّ فى سفوح جبال مورينة ، sierra - morena بحيث يعود إلى التشكل ذلك البوغاز القديم الذى يسميه العلماء بالبوغاز البيتىّ D'étroit Bétique الذى كان يصل البحر المتوسط بالاوقيانوس فاصلا بين جبال إسبانية الوسطى وبين جبال شلير الثلج (١) sierra nevada التى يعدها العلماء من جبال أفريقية والتى ذروتها المسماة بقمّة مولاى الحسن تعلو عن البحر ٣٤٨١ مترا . وهذا قبل أن حصلت الهزّات الجيولوجية الكبرى التى نشأ عنها الخرق البحرى المسمى ببوغاز جبل طارق .

كذلك ضفاف نهر « ابره » كضفاف الوادى الكبير الذى كان القدماء يقولون له نهر « بتيس » هى تحت تهديد البحر الدائم ، وذلك بحسب درجة ما يمكن أن يرتفع . فاذا ارتفع بضع مئات من الأمتار فان بنبلونة من نبارة (٢) Panpelune

(١) nevada معناها بالاسبانيولى المثلجة فالاسبانيون يعنون بقولهم Sierra nevada سلسلة جبال الثلج وأما العرب فكانوا يسمون سلسلة هذه الجبال شلير الثلج وكانوا يطلقون على مجموعها اسم الشارات أو الشرايا وهى تعريب للفظة Sierra مع الجمع

(٢) navarre

لا تعلو أكثر من أربعمائة متر ، ووشقه Huesca لا تعلو أكثر من ٤٦٦ متراً . وكذلك لاردة هى من هذه الأماكن التى قد تغمرها المياه ، وأهم من الجميع سرقسطة التى لا تعلو أكثر من مائتى متر وتطيلة التى علوها ٢٥٧ متراً

ولقد ثبت وجود مواد مالحة فى أعماق هذه الأودية تدل على أن البحر لم يتقلص عنها إلا من عهد قريب بالنسبة للاعمار الجيولوجية . فقلعة الجزيرة الايبيرية فى وجه البحار هى فى الجنوب جبال مورينه وجبال البشرات وفى الشرق جبال البرانس . وأما فى الشمال فهناك جبال قنطبرية[1] Cantabrique التى تعلو نحواً من الفين وخمسمائة متر ثم تنقطع دفعة واحدة فوق سواحل الاطلانطيك ، حيث تصادم البحر سلسلة صخور لاتنتهى إلا عند الوادى الكبير فى الجنوب . وإلى الاطلانتيك تنحدر الأنهر الأربع « مينو Minho » و « دورو Duero »[2] و « تاجه Tage » « ووادي يانه Guadiana » ومنها « دورو » و « تاجه » قدحفرا أخاديد ضيقة فى الأرض هى من العمق بحيث صارت فواصل طبيعية أبدية . ولاشك أنها لم تخل من تأثير فى السياسة وأن لها يداً فى فصل البرتغال عن أسبانية ، على حين أنه لا يوجد من جهة السكان فاصل بين الفريقين .

ثم أن القسم الأعلى من جبال اسبانية يقسم البلاد إلى قسمين : قشتالة القديمة ، وقشتالة الجديدة ؛ ويقال لها ولبلاد ليون léon والاشتراما دور Estramadure و«الميزيتا» meseta وهى أعالى اسبانية التى لولاها لدخل البحر على الجزيرة الايبيرية من جهات متعددة بارتفاع قليل ، ولجعل عاليها سافلها .

---

(١) الغالب على مؤلفى العرب أنهم كانوا يسمون هذه الجبال فى شمالى اسبانية بجبال استورياس Asturia's أو جبال جليقيه . وأما قنطبرية الأصلية فهى تمتد إلى الشمال الغربى حتى تلتقى بالبرانس . والطرف الشمالى الممتد من بلدةالفارو le Ferrol إلى بيونة Bayonne على الساحل يقال له جبال « شبية »

(٢) يسميه العرب « بالوادى الجوفى »

ثم إن الفاصل بين القشتالتين les deux Castilles سلسلة أهاضيب يقال لها شارات وادي الرمل ، لكثرة رملها ، والاسبانيول حرفوا «الرمل» فجعلوها «الرامه» فهم يقولون « وادى الرامه » وهو التوجيه الأرجح Guadarrama وسلسلة أخرى يقال لها هضاب « غريدوس » Sierra de Gredos وهى متصلة بسلسة مثلها من جهة الغرب يقال لها شارات « غاتا » والشارات البرتغالية التى يقال لها « استريلاً » Estrella كما أنها متصلة من جهة الشرق بنشوذ « شوريه » Seoria ومرتفعات « ديمنده » Demanda على نهر « ابره »

ولما كانت هضاب وادى الرمل عارية من الشجر الذى من طبيعته أنه يمسك الأرضين ، فقد تفككت أجزاؤها بحرارة شمس القيظ وبرودة جلد الشتاء ، وتكوّن منها كُتَل كثيرة لاسيما فى الجنوب حيث هى البلاد التى يعبر عنها بقشتالة الجديدة . وأن هذه الشارات التى فى وسط اسبانية هى التى تنحدر منها مياه وادى « الدوره » Duero الذى يجرى فى قشتالة القديمة ومياه النهرين الشقيقين « تاجه » Tage و وادى « يانه » Guadiana [1] اللذين يتحيفان فى جريهما جبال طليطلة Tolède وهضاب « وادى لبّ » Guadalupe و يخترقان البلاد إلى البرتغال ، إلا أن أحدهما « تاجه » ينصب فى خليج « اشبونة » Lisbonne والآخر يلتوى عن مجراه المستقيم قاصداً إلى الجنوب ، بدلاً من الغرب ، فينصبّ بحذاء « بطليوس » Badajoz بقرب خليج قادس cadix

وغير بعيد عن مصب وادى يانه ، ينصبُّ الوادى الكبير Guadilquivir الذى ينبع من الجبال الوسطى فى اسبانية . ولكن انصباب الأنهار من جهة البحر

(١) فى أسبانية نهران بهذا الاسم أحدهما يسير من شلير الثلج nevada ويمر ببلدة وادى آش guadis فى الجنوب والثانى الذى نذكره الآن يمر ببلاد البرتغال ويتصب فى البحر المحيط

المتوسط فى القسم الجنوبى من اسبانية هو قليل ، نظراً لاشراف شلير الثلج على البحر يتدلى إليه بدون فاصل ، فلا تكاد تجد الجداول مجالا للجرى . وذلك مثل وادى مالقة Guadalhorce ونهر المرية ونهر شنقورينه المشتق من نهر شقر Seegur والنهر المسمى بوادى الأبيار وادى بانسية Guadalaviar وغيرها

ويندر فى الدنيا وجود ساحل مضرّس مشقّق تشقُّق هـذا الساحل الذى هو شاطىء البحر المتوسط من اسبانية وهو معهد زلازل وموقد حركات بركانية لم تنطفىء وآثار ذلك بارزة فى الشقوق الهائلة التى تتخلّله من جبل طارق جنوباً ، إلى كتلونية شمالا ، وأعظمها الشق الذى ينحدر منه نهر « ابره » إلى البحر . ويرجح العلماء أن المزاهز البركانية هى التى فصلت جزيرة ميورقة عن راس « ناو » nao وأن ميورقة نفسها . إن هى وأخواتها ميورقة ويابســة إلاّ حلقات من سلسلة كان من جملتها قورسيكا وسردانية .

ويظهر أن الزلازل البركانية التى شقّت بوغاز جبل طارق ، وفصلت هذا الجبل عن أمّه افريقية ، وجعلته من أوربة ، وأقامت وأقعدت أركان شلير الثلج ، وفتحت فى ساحل اسبانية الشرقى فجاجاً ، وأحدثت فوق كثير من أقسام ذلك الساحل لججاً وأمواجاً ، لم تنقطع حركتها بالمرة ولا سكن توهجها ؛ فانه لا يزال هذا الشاطىء فى قلق إلى يومنا هذا . وكل يعلم أنه فى ٢ دسمبر سنة ١٨٨٤ وقعت زلزلة عظيمة كان معظم شدتها فى مالقة وغرناطة ونواحيهما ، وذهبت طائفة من العلماء حينئذ إلى هناك وحققوا منطقة الزلزال فوجدوا أنها لم تتجاوز اسبانية السفلى ، وأنها وقفت فى حذاء شارات مورنيا فكان الحاجز الذى صـدّ الزلازل عن شمول اسبانية العليا هو شفير « الميزيتا » meseta الايبيرية . وهكذا رجعت من أمام هـذا الحاجز إلى الوراء تصديقاً لقوله تعالى (وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بكم)

ولا تشتد الزلازل فى اشبيلية وقرطبة شدتها فى هذا الساحل من جبل طارق إلى برشلونه ، بل إن شارات الثلج أوالجبال التى يقول لها العرب جبال شلير Solair

بالرغم من غلظ أعناقها وثبوت أركانها ، ليست بمنجاة تماماً من تأثير هذه الهزّات الأرضية ، يظهر لك ذلك من أودية غرناطة و وادى آش ولورقة والوادى المسمّى شانغورينة عند مُرسية . وتستمر آثار عمل الزلازل إلى بلنسية فبرشلونة فجيرونده من كتلونية .

وكثيراً ما تتجاور الشقوة مع السعادة ويسكن الخير مع الشر فى بيت واحد ، فان هذه المنطقة هي مع زلازلها أخصب بقاع اسبانية ، ناهيك بمرج غرناطة و بساتين مالقة وجنان مرسية ولورقة وغيضة نخيل ألش وحقول القنت ، وأخيراً غوطة بلنسية التى تضارع غوطة دمشق . و بالاختصار هذا الخط البديع الذى فوقه الماء وتحته النار والذى هو بين الشمس والأمطار قد بسقت فيه عظام الأشجار وتهدلت فوقها أصناف الثمار ، وهو لجيد الجزيرة الايبيرية كالعقد لجيد الحسناء بلا إنكار .

اسم الجزيرة الايبيرية

توخينا أن نطلق على أسبانية والبرتغال اسم « الجزيرة الايبيرية » لا لأنها فعلا جزيرة ، قد جزر البحر عنها من الجهات الأربع ، بل فراراً من تكرار جملة « شبه الجزيرة الايبيرية » ولقد كان العرب يسمون هذه البلاد بالجزيرة الاندلسية مع معرفتهم أيضاً بأنها شبه جزيرة وأنها متصلة بالأرض الكبيرة من ناحية جبال « البرتات » أو البرانس . وقد قالوا كذلك « جزيرة العرب » مع أنها محاطة بالبحر من جهات ثلاث لا غير مثل جزيرة الاندلس . هذا ولو ارتفع البحر المتوسط قليلا من جهة « أربونة » Narbone لغمر تلك البسائط إلى خليج « برديل » Bordeaux وصارت أسبانية والبرتغال جزيرة حقيقية

أما هذه النسبة وهى الايبيرية فهى نسبة إلى أمة قديمة يقال لها « الايبير » ibère كانت أقدم أمة عمرت تلك البلاد ، ولم يعرف قبلها هناك أمة أخرى . وجميع الذين أوطنوا هذه الجزيرة إنما جاءوا بعد أمة الايبير هذه .

اسم الجزيرة الأندلسية

أما الجزيرة الاندلسية التى كان العرب يسمون بها هذه البلاد فهى منسوبة إلى « الاندلس » وقد كثر الكلام فى أصل هذه اللفظة ، ولكن أرجح الأقوال أنها مشتقة من اسم « الفاندالس » وهم جيل من الناس كانوا يسكنون بين نهر « الاودر » oder ونهر « الفيستول » vistule فى شرقى المانية . ويقال إنهم من أصل جرمانى ، ويقال إن بعضهم من أصل سلافى أو صقلبى كما تقول العرب . وهؤلاء الفاندالس زحفوا من الشمال إلى الجنوب حتى بلغوا بوغاز جبل طارق ، وذلك سنة ٤١١ قبل المسيح . ومن هناك أجازوا إلى افريقية . فلما عرفهم أهل افريقية أطلقوا اسمهم على البلاد التى جاءوهم منها وسموا هذه البلاد بالاندلس . وقالوا أن عبورهم إلى المغرب كان من جهة « طريف » tarifa وقالوا بل من الجزيرة الخضراء .

وجاء في الانسيكلوبيديا الاسلامية فى الجزء الأول صفحة ٣٥٤ بقلم سيبولد Seybold أن الفاندالس لم يقيموا فى جنوبى اسبانية إلا ثمانى عشرة سنة لاغير ، وأن بلاد جنوبى اسبانية كان يقال لها إلى ذلك الوقت «باتيكه » Betique فصار يقال لها « فاندليسيا » ومنها جاءت لفظة الأندلس ، ولما جاء العرب وفتحوا اسبانية أطلقوا عليها هذا الاسم وصاروا يقولون أندلس ، لا للبقعة الجنوبية المقابلة للمغرب فحسب ، بل لجميع الجزيرة الايبيرية ولجميع مافتحوه من البلدان بعد أن عبروا بوغاز جبل طارق . فالأندلس عند العرب هى من بحر الزقاق أو بوغاز جبل طارق . إلى جبال البرانس . وربما أطلقوا لفظة الأندلس على ماوراء البرانس من أرض الأفرنجة فاما الأسبان أنفسهم فكانوا لايعرفون هذا الاسم قبل العرب وكانوا يسمون البقاع الجنوبية من الجزيرة الايبيرية باسبانية القديمة ، كما كانوا يسمون شمالى اسبانية بأسمائها المختلفة مثل استورية التى كان العرب يقولون لها اشتورية أو اشتورياس ومثل ليون وقشتالة وأراغون الخ . ولكن بعد أن غاب العرب على تلك الأقطار

واشتهر اسم الاندلس عند الاسبانيول أنفسهم صاروا يطلقونه على جنوبى اسبانية ، لاسيما بعد أن بدأ العرب يتراجعون إلى الجنوب ، إلى أن انحصر هذا الاسم فى مملكة غرناطة الصغيرة . انتهى كلام الانسيكلوبيدية الاسلامية ملخصاً وقد نقل ذلك عنها المستشرق ليڤى أو لاوى بروفنسال E. Levi - Provençal فى كتابه (اسبانية المسلمة فى القرن العاشر [1] المطبوع في باريز سنة ١٩٣٢)

قلنا أن هذا الاسم لا يزال يطلق إلى الآن على ولايات اسبانية الجنوبية ، مثل قرطبة واشبيلية وغرناطة ورُنده ومالقه وما جاورها . ولننظر الآن إلى ماقاله مؤرخو العرب فى أصل اشتقاق لفظة الأندلس :

قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان : الأندلس يقال بضم الدال وفتحها وضم الدال ليس إلا ، وهى كلمة عجمية لم يستعملها العرب فى القديم وإنما عرفتها العرب في الاسلام وقد جرى على الألسن أن تلزم الألف واللام . وقد استعمل حذفها فى شعر ينسب إلى بعض العرب فقال عند ذلك :

سألت القوم عن أَنَسٍ فقالوا بأندَلس وأندُلسٌ بعيد

ثم أخذ ياقوت يبحث فى بناء لفظة أندلس ومكانها من الأوزان العربية وكيف أنه لايوجد لها وزن فى هذه اللغة ، بحثاً ليس له طائل ، لأن هذه اللفظة هى أعجمية من أصلها كما قال هو فلا حاجة لعرضها على وزن عربي . ولم يقل ياقوت مصدر هذه اللفظة كما ذكر غيره ، ولكن نقل المقرى فى نفح الطيب عن ابن سعيد أنها إنما سمّيت بالأندلس لأن هذا الاسم هو اسم ابن طوبال بن يافث بن نوح الذى نزلها كما أن أخاه سبت بن يافث نزل العدوة المقابلة لها وإليه تنسب مدينة سبتة (؟) قال : وقال ابن غالب : إنه أندلس بن يافث والله تعالى أعلم .

وقال القلقشندى في صبح الأعشى الجزء الخامس : وقد اختلف فى سبب تسمية الاندلس بهذا الاسم ، فقيل ملكته أمة بعد الطوفان يقال لها الاندلش بالشين المعجمة

(١) L'espagne musulmane au xéme siécle

فسمي بهم ، ثم عرب بالسين المهملة . وقيل خرج من رومة ثلاثة طوالع فى زمن الروم يقال لأحدهم القندلش بالقاف فى أوله و بالشين المعجمة فى آخره ، فنزل القندلش هذه الأرض فعرفت به ثم عربت بابدال القاف همزة والشين المعجمة سيناً مهملة . ويقال أن اسمها في القديم « آفارية [1] » ثم سميت « باطقه » ثم أشبانية [2] ثم الاندلس باسم الأمة المذكورة . قال فى تقويم البلدان : وسميت جزيرة لاحاطة البحر بها من الشرق والغرب والجنوب و إن كان جانبه الشمالى متصلا بالبر

---

(١) لا نعرف ما ذا أراد القلقشندى بهذه اللفظة « آفاريه » وإن لم تكن محرفة أو مصحفة فيكون الأشبه بها أن تكون « آثاريه » والحال أن بلاد الآثاريين هى فى شمال القوقاس . ثم إن الشعب الآفارى هو من أصل تركى زحف من الشرق إلى الغرب فى القرون الوسطى لكنه لم يتجاوز بوهيميا غربا ووقع بين السلاف من جهة والفرنج من جهة أخرى ثم اندمج فى الشعوب الأخرى لا سيا فى المجر

(٢) الايبيريون السليون هم أقدم أمة فى غربى أوربة انتجعت شبه الجزيرة الايبرية أى اسبانية والبرتغال الحاضرتين وقسما من بلاد الغال أى جنوبى فرنسة وبعض شمالى ايطالية . وقيل لاسبانية الحالية « ايبرية » نسبة اليهم ثم تحولت هذه اللفظة إلى « هيسبرية » بقلب الألف هاء Hespérie وهو اسم كان اليونانيون يسمون به شبه جزيرة ايطالية كما كان الرومانيون يسمون به شبه جزيرة إيبرية وبعد ذلك تحولت « هيسبرية » الى « هيسبانية » Hispanie ومنها صارت « اسبانية » Espagne والعرب كانوا يعرفون هذا الاسم إلا أنهم كانوا يجعلون السين شيناً

وهناك توجيه آخر لاسم اسبانية ، وهو أن اشبيليه كانت فى القدم مستعمرة ايبرية ، وكان يقال لها « هيسباليس » Hispalis ولم تلبث أن صارت عاصمة « باتيكا » أى اسبانية الجنوبية ، فلا عجب أن اشتق اسم اسبانية من هيسباليس لأن اللام والنون كثيراً ما يحصل التبادل بينهما ولا تنس أن أصل البلاد التى يقال لها اسبانية هو الجنوب من اسبانية الحالية وأن اسم اسبانية لم يشمل شمالى الجزيرة الايبرية إلا حديثاً فلا يبعد أن يكون اسم اشبيلية القديم شمل البلاد التابعة لها ، وكثيراً ما تسمت المملكة باسم العاصمة .

وهذا التوجيه هو الذى ظهر لمحرر هذه السطور ولم أجده فى كتاب وقد كاشفت

ما قاله دوزى عن اشتقاق اسم الأندلس

لم يأت دوزى فى هذه المسألة بشيء جديد ، ففى كتابه المسمى « بمباحث عن تاريخ اسبانية وآدابها فى القرون الوسطى » المحرر بالافرنسية ، يقول : ان هذا الاسم كان يطلق على مقاطعة بتيكه وقد جعله العرب عاماً لجميع اسبانية ، فترجح أن لفظة اندلس مشتقة من الفندالس الذين قبل أن أجازوا إلى افريقية احتلوا جنوبى أسبانية . وهذا الرأى فى هذا الاشتقاق هو قديم ، لأنه قد رواه الرازي ورد عليه بأن مقام الفندالس فى جنوب أسبانية كان قصيراً جداً ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن أول من أطلق لفظ اندلس على مقاطعة بتيكة وعلى أسبانية كلها هم المسلمون ، فان مؤرخى شمالى أسبانية لا يعرفون هذا الاسم بل يسمون باسبانية Spania جميع البلاد التى كانت فى حوزة العرب . فاما مؤلفو العرب فيسمون البلاد بالاندلس ويذكرون وجه التسمية . وفى « أخبار مجموعة » يقول إن أندلس كان اسم الجزيرة التى نزل بها طريف ، ويقال لها جزيرة طريف من ذلك الوقت . وقال المؤرخ عريب : أن

به الأستاذ المدقق السيد محمد علال الفاسى من آل الجد وهو من ثقوب الذهن وأصالة الرأى وسعة الاطلاع بالمكان الذى يعرفه له كل من عرفه فأجابنى بما يلى :

إن المحدثين تكلموا عن مصدر اشتقاق هذا الاسم « اسبانية » فذهب بعضهم إلى أنه مأخوذ من لفظة « شافان » السامية ومعناها الأرنب وهو الحيوان المعروف قيل لأن الفينيقيين وجدوه بكثرة هناك . ويظن الآخرون أنها سميت « اسبانية » من لفظة « أزبانيا » وهى لفظة باسكية معناها « شاطىء » ونفسى تطمئن لهذا التعليل لأنه منطبق تماماً على حال الجزيرة وليس فيه تغير كبير . أما كونها سميت اسبانية باسم اشبيلية التى كانت تدعى « هيسباليس » فغير متعين لأنى أظن أن هذه اللفظة كانت من قبل ، أى بعد سقوط مملكة القرطاجنيين ، علماً على شبه الجزيرة كلها وأن اشبيلية كانت معروفة عند الفينيقيين باسم « سيفيلا » والرومان هم الذين أبقوا اسم المملكة على خصوص هذه المدينة اه فرأى السيد علال هو إذا اشتقاقها من ازبانيا بمعنى شاطىء والله أعلم .

طريفاً نزل قبالة طنجة في الاندلس التي يقال لها اليوم جزيرة طريف . إذاً أصل الاسم كان لذلك المحل لا للبلاد كلها ، وقد ذكر غريغوار التورى Grégore de tours ما يدل على أن اسم المكان الذى نزل فيه طريف كان طرادوكته Traducta ، هو المكان الذى أجاز منه الفاندالس إلى افريقية فلما جاء البربر ونزلوا في هـذا المكان سموا باندلس كل البلاد وجاء طارق من بعده فكان هذا الاسم أصبح مستعملا

تخاطيط الجزيرة الأندلسية

قال سيبولد في الانسيكلو بيدية الاسلامية : إن العرب لم يكونوا ليتخلصوا ن المصور الجغرافى المعكوس المنحرف الذى وضعه بطليوس من قديم الزمان ، فكانوا صورون اسبانية بشكل مثلث غير منتظم ، أطرافه هي : من الجنوب طريف ورأس راكش ، ومن الشمال الشرقى رأس كريوس Créus ومرسى فاندر fort-Vendres وفى الشمال الغربى بلاد فينستير Finistére وكذلك كانوا يصورون جميع الشواطىء الممتدة من طريف إلي كريوس أو بالأقل إلى طركونة و برشلونة كأنها ثغور جنوبية كما تعلم ذلك من كتاب المراكشى . فأما جبال البرانس فهى في تصورهم ثغور شرقية للاندلس ! ثم إنهم فيما بعد فهموا أن شرق الأندلس إنما هو سواحل بلنسية ومرسية وفهموا أن الحد الغربى هو الاقيانوس الاطلانتيكى الذى كانوا يقولون له بحر الظلمات أو البحر المظلم أو البحر المحيط الأعظم أو الاقيانوس أو القاموس أو البحر الغربي في مقابلة الشرق الذى كانوا يقولون له البحر الرومى أو البحر الشامى أو المتوسط . وكان الحد الغربى للأندلس عندهم ممتدا من طريف إلى رأس « سان فنسان » Cap Saint - Vincent أو رأس « روكه » Roca عند أشبونة Sisbonne ومن هناك يصير عندهم الحد الشمالى الذى يمتد وراء غاليسية Galice إلى جبال البرانس في بلاد « فونترابية » Fontarabie . وكانوا يقولون لجبال البرانس جبل البرتات أو الجبل الحاجز أو الفاصل ، ويسمون جبال قشتالة بجبل الشارات وجبال نيفاده

Névada بجبل الثلج أو جبل شاير chulair (واصل هذه اللفظة هو سولوريوس (Solorius

ولهذا جميع الاطالس الجغرافية المتعلقة باسبانية العربية المنشورة إلى اليوم هى غير صحيحة ، سواء أطالس « سبرونر » و « منكه » Spruner et menka المطبوعة سنة ١٨٨٠ وأطالس دوريزين Draysen المطبوعة سنة ١٨٩٤ فى كتاب اوغست مولر المسمّى « بالإسلام فى الشرق والغرب » أو أطالس ستانلى لانبول Sane-Poole فى كتابه « العرب فى اسبانية » وكلها قد تناقلت الأغلاط الجغرافية من أيام « كازيرى » و « كوندى » و « سوزَة » و « جوبرت » و «غاينغوس» و «هامر» و « ملرن » وغيرهم ، حتى أن دوزى Dozy نفسه برغم مجهوداته الكثيرة لم يترك أثراً يذكر فى تصحيح جغرافية اسبانية ، وهو في ترجمته لكتاب الادريسى عن الاندلس والمغرب وتعليقه عليه لم يأت أيضاً بشيء من تصحيح الأغلاط التى وردت في نفس الأصل (١) نعم أنه فى تضاعيف كتبه عن الأندلس حقق بعض أماكن

(١) علق دوزى بعض ملاحظات على الادريسى ، إلا أن جل همه كان تحقيق الأعلام التى ذكرها الادريسى وذكر ما يقال لها بالاسبانيولية ، وقد رمى فقرطس فى جميع ما قاله إلا فى مواضع معدودة توقف فيها أو كان فى قوله نظر . وعلى كل حال فترجمته لكتاب الادريسى هى أحسن ترجمة ، وكفاها حسناً تصحيحه للاغلاط الفظيعة التى وقعت فى ترجمة « جوبر » Joubert وذهبت بالمعانى إلى أبعد ما يصل إليه التصور ومن أمثلة هذه الأغلاط أن الادريسى ذكر الروس فقال : إنهم يحلقون لحاهم ومنهم من يجمعها ويضفرها كاعراف الدواب . فوقع تصحيف فى « اعراف » جعلها « اعراب » فترجم جوبر ذلك بما يلى :

la réuniment et la tressent à la maniére des Arabes de Douab

أى يجمعونها ويضفرونها على نسق اعراب بلاد دواب !

وجاء فى كلام الادريسى عن أحد الظالمين انه « مسخ » وهو فعل مبنى للمجهول فلم يفهم جوبر لفظة « مسخ » وظنها اسم علم وترجمها هكذا on dit que cést masth بدلا من أن يقول il fut métamorphosé ووقع جوبر فى اغلاط كثيرة من هذا

لا سيما فى مبحثه المسمّى « بملاحظات جغرافيـة على بعض مقاطعات الأندلس القديمة » وذلك فى كتابه المسمى « بالتنقيبات عن تاريخ اسبانية وآدابها »
Recherereches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne
ولم تتقدم جغرافية اسبانية العلمية فى كتابات « سافيدرا » Soavedraولا « سيمونه » Simoner ولا « اغيلاز » Egilaz ولا« قديره » Codera ولا « باسه » Basser

وقد كان يجب جمع جميع ما تقدم من المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع ، ونخلها نخلا دقيقاً ، مع طرح جميع المجازفات والأخطاء التى تراكمت من أيام كزيرى Caisri وكوندى Conde إلى أيام هامر Hamner وميرن Mehren فـكما أن دوزى الـكبير عندما كتب التاريخ المسمّى بتاريخ مسلمى اسبانية ترك جميع ما كان تقدم عنها من الـكتابات ، وعدّها لغواً ، ورجع إلى المنابع العربية نفسها ؛ كذلك يجب العمل

النمط . أتينا بأمثلة منها استدلالا على خبط بعض المستشرقين ، ولـكن بعض هؤلاء تعقبوا جوبر هذا فى ترجمته السقيمة هذه ، ومن هؤلاء « كاترمار » Quatremére ومنهم دوزى . إلا أن كاترمار وان أصاب فى أكثر ما تعقب به جوبر فقد أخطأ فى بعضه مثل أن أكثر خشب مسجد قرطبة هو من الصنوبر الطرطوشى ، فذهب كاترمار إلى أن الطرطوشى هنا لا محل له وأنه قد يكون محرفاً عن لفظة « مرصوص » والحال أنه هو الصنوبر الطرطوشى المنسوب إلى طرطوشة tortose الموصوفة بجودة الصنوبر والتى فيها دار صنعة للسفن بسبب متانة خشب صنوبرها

وقد كانت ترجمة دوزى « لنزهة المشتاق فى اختراق الآفق » عن نسخة مخطوطة فى مكتبة باريز ، وأخرى فى مكتبة اكسفورد ، وفى كلتيهما أغلاط نسخ تحير دوزى وغير دوزى فى ردها إلى الأصل . وأما على وجه الاجمال فقد كان اجتهاد دوزى برغم بعض آراء تعسف فيها مما أزاح الستار عن أكثر حقائق العلم بالأندلس سواء من جهة تاريخها أم من جهة جغرافيتها ، وذلك فى نظر الأوربيين الذين لم يكونوا يعلمون عنها من قبله الا معلومات ناقصة وأخبارا مشوهة ولم تكن لهم عنها إلا آراء مشوبة باهوآء رجال الـكنيسة

نفسه فى جغرافية هـذه البلاد . وهذا العمل يحتاج إلى مراجعة الـكتب اللاتينية والاسبانية والعربية نفسها . وذلك أنه و إن كان التعصب الأعمى ، بعد سقوط مملكة غرناطة ، قد أخنى على كنوز أدبية هى فوق كل تقدير ، ومحا كتباً ذهبت وأصبح لا يمكن إحياؤها ، فانه لابد أن يكون فى الشرق وفى شمالى أفريقية كتب عربية متعلقة بالأندلس يمكن الاستفادة ، جدُّ الاستفادة منها ؛ بل يجب جمع التآليف الجغرافية والتاريخية التى كتبها العرب ، من زمن ابن خورداذبه ، إلى اليعقوبى ، إلى المسعودى ، إلى ياقوت ، إلى المقرى الذى أخـذ عن مائة مصنّف ، هذا مع مراجعة كتب التراجم التى فيها نسبة العلماء الأندلسيين إلى بلدانهم مما تؤخذ منه معلومات جغرافية كثيرة أيضاً ، ومما يدل على انتشار العلم فى اسبانية العربية بصورة مدهشة . ومما لاشك فيـه أنه قبل كل شىء تلزم مراجعة المكتبة العربية الاسبانية Beblioteca Arabico - Hispana لقُديرة [1] التى هى عشرة مجلدات وفيها تراجم علماء الأندلس ، و إن كان مع الأسف فيها تحريف أسماء كثيرة من أسماء البلاد التى ينسب اليها أولئك العلماء . انتهى ملخصاً .

وقال لاوى بروفنسال فى كتابه « أسبانية الاسلامية فى القرن العاشر » : إن جغرافيات العرب لم ترد فيها تفاصيل كافية شافية عن الانداس ، ونحن مضطرون أن نقتنع بالموجود بين أيدينا منها ، مثل كتاب الهمذانى الذى كتب فى حوالى سنة ٩١٠ مسيحية ، وكتاب الأصطخرى الذى تاريخه ٩٢١ مسيحية ، أى أوائل عهد عبد الرحمن الناصر ، وابن حوقل الذى أكمل جغرافيته سنة ٩٧٦ والمقدسى الذى كتب كتابه فى أحسن التقاسيم . بعد ابن حوقل ، فالاصطخرى ذكر أن أهم مدن

(١) Franciscus codera هو مستشرق أسبانى يقال إنه من سلالة عربية واسمه قديرة دليل على ذلك . وقد علمنا من الأستاذ القسيس آسين بالاسيوس Acin palacius المستشرق الاسبانيولى المعاصر الذى أثبت أن دانتى فى المهزله الالهية سرق رسالة الغفران للمعرى أن قديره هو أستاذه

الاندلس في أيامه كانت شنترين ، وجبل طارق . وطليطلة ، و وادى الحجارة ، و رية ، وفحص البلوط ، وقورية ، ومادرة . وقال : إن أهم الثغور لذلك العهد كانت ماردة ونفزة ووادى الحجارة وطليطلة . وأما المقدسي فأحصى ثمانى عشرة كورة للاندلس (سيأتى كلام المقدسى بحروفه نقلا عن الأصل)

أما محمد بن أحمد الرازى الأندلسي فله تاريخ وجغرافية للاندلس ، لا يوجد لها سوى ترجمة باللغة الاسبانية القشتالية ، عن ترجمة برتغالية ، عن الأصل العربي الذى كتب فى أوائل القرن الرابع عشر ، وقد أمر بهذه الترجمة إلى البرتغالية دنيس ملك البرتغال . وكتاب الرازى هـذا كان عمدة ياقوت الحموى عن الأندلس . و بحسب كلام الرازى كانت الأندلس إحدى وأربعين كورة : قرطبة ، وقبرة ، والبيرة ، وجيان ، وتدمير ، و بلنسية ، وطرطوشة ، وطرّاكونة ، ولاردة ، و بر باطانية ، ووشقة ، وتطيلة ، وسرقسطة ، و باروشه ، ومدينة سالم ، وشنتبرية ، ورواقو بيل ، وزوريتة ، ووادى الحجارة ، وطليطلة ، واو بيط ، وفحص البلوط ، وقرّيش ، وماردة و بطليوس ، و بيجه ، واقشنوبه ، وشنترين ، وقويمره ، واكشيتانية ، واشبونة ، واشبيلية ، وقرمونة ، ومورون ، وشذونة ، والجزيرة ، وريّة ، واسجه ، ونا كرونه . وأما الادريسى الذى كتب جغرافيته فى القرن الثانى عشر فالأندلس عنده ستة وعشرون أقليما ــ وهو تقسيم جغرافى ليس بسياسى ولا إدارى ــ وهذه الأقاليم هى : البحيرة ، وشذونة ، وجرف ، وقنبانية ، واشونه ، وريّة ، والبشرات ، و بجّانه ، والبيرة ، وفرّيرة ، وتدمير ، وقونسه ، وأرجيرة ، ومر بيطر ، والقواطم ، والفَلَجه ، والبلالطة ، والفخر ، وقصر أبى دنيس ، والبلاط ، و بلاطة ، والشارات ، وأرنيده ، والزيتون ، والبرتات ، ومرمرية . قال : وقد رأينا أن الشاميين نزلوا فى البيرة ، وأن أهل الأردن نزلوا فى مالقة ، وأن أهل فلسطين نزلوا فى شذونة ، وأن أهل حمص نزلوا فى اشبيليه ، وأن أهل قنّسرين سكنوا جيّان ، وأن أهل مصر كانوا فى بيجة ومرسية ؛ فكانت هـذه المدن فى زمن الخلافة الأموية امصاراً . وأما سائر الكور

فتشكلت فيما بعد ، مثل كور الجنوب العربى وهى : مورون ، ولبلة ، وماردة ، وشنترين ، وتاكرونه ، وريّة ، وبجّانه ، أى رُندة ، ومالقة ، واطريّة . وسنة ٣٥٠ عند ما تولى الحكم المستنصر كانت الثغور خطاً منحنياً ماراً بالقسم الشمالى من الأندلس من شرقيّه إلى الغرب ، يبتدئ من جنوبى برشلونة ويمتد شمالاً بغرب ، وذلك من عند بربشتر ووشقة ، ثم يتصل بوادى إبرُه شمالى تطيلة ، ثم يصعد من هذا الوادى إلى هارو ، ثم يعود فينحنى صوب الجنوب تابعاً مجرى الوادي الجوفى أى دويرُه ، إلى المحيط الاطلانتيكى بعد أن يمر بالمدن التالية : أُشمه ، وسيمنكاس ، وزمُّوره ، ولاميغو ، وبورتُه . وأما المسعودى فيقول فى مروج الذهب الذى تاريخه سنة ٣٢٧ للهجرة : إن الثغر الشمالى يمتد من طرطوشة إلى افراغة إلى لاردة . انتهى وسيأتى كلام المسعودى بحروفه .

عدد سكان أسبانية

لا شك أن العصر الذى بلغت فيه أسبانية ذروة نموها هو العصر الرومانى ، فقد قيل أنه كان فيها أيام الرومان من ثلاثين إلى أربعين مليون نسمة . ولكن لم يوجد وثائق تاريخية تؤيد بلوغ أهالى الجزيرة الايبيرية هذا العدد . ثم أنها كانت فى نمو عظيم أيام العرب ، يستدل على ذلك بكثرة مدنها الحافلة لعهد العرب ، فقد كان فيها نحو من أربعين مدينة عربية ، ومنها قرطبة التى أحزر عدد سكانها بنحو من مليونى نسمة ، كما سيأتى الكلام فى هذا المبحث . إلا أنه مع الأسف لا يوجد عندنا وثائق يعرف منها بالضبط عدد المسلمين الذين كانوا فى أسبانية لعهد الناصر مثلا ولا عدد مجموع السكان من مسلمين ومسيحيين فى ذلك العصر

ومن باب الحزر والتخمين أقول إنه لا يمكن أن يكون عدد مسلمى الاندلس لعهد الناصر والمستنصر أقل من خمسة عشر مليوناً . ولما أجلى الاسبانيول المسلمين واليهود هبط عدد سكان أسبانيا ، لهذا السبب ولسبب آخر هو كشف اميركة التى هاجروا إليها ، هبوطاً عظيما . ففى سنة ١٥٩٤ كان عدد سكان أسبانية نيفاً وثمانية

ملايين ، ومضى على ذلك قرنان ولم يزدد عدد الأهالي أكثر من مليون واحد ، ففي سنة ١٧٦٨ كان في أسبانية تسعة ملايين ومائة وستون الفاً من السكان ، ثم ازداد هذا العدد في زمن آل بربون إلى عشرة ملايين ، وذلك في أوائل القرن الثامن عشر . وسنة ١٨٣٢ كانوا احد عشر مليوناً ، وسنة ١٨٤٩ كانوا ١٤ مليوناً ، وفي أوائل هذا القرن العشرين صاروا ٢١ مليوناً ، والآن هم ٢٢ مليوناً و٣٣٨ الفاً

ومعدل كثافة السكان بالنسبة إلى مساحة الأرض هو ٤٠ نسمة في الكيلو متر الواحد ، هذا بالتعديل المتوسط . وأسباب عدم تزايد السكان كما في الممالك الأخرى ، لا تنحصر في المهاجرة ، بل هناك أسباب أخرى ، مثل عدم التناسب في توزيع الأراضي ، ومثل فدح الضرائب ، ومثل التعامل بالربا . ومن جملة هذه الأسباب ندور الحراج والغابات ، فالناس يرحلون إلى اميركة من الفقر ولا سيما من بلاد البشكونس ولاردة ووشقة وجيرونة . وأكثر الذين يرحلون من الجنوب هم أهالي المرية والقنت ، ففي السنة يرحل زهاء مائتي الف ، وهم يرحلون إلى المكسيك والارجنتين وسائر أمريكا . ومنهم من يرحل إلى المغرب وإلى الجزائر . وفي عمالة وهران ١٧٥ الف اسبانيولي

أقوال العرب عن جغرافية الأندلس

قول ابن حوقل

قال ابن حوقل الذي خرج راحلا من مدينة السلام سنة ٣٣١ ، ووصف جميع ماشاهده : وأما الأندلس فجزيرة كبيرة فيها عامر وغامر ، وطولها دون الشهر في عرض نيف وعشرين مرحلة ، وتغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر ، إلى أسباب التملك الفاشية من أكثرهم ، ولما هم بها من رغد العيش وسعته وكثرته . يملك ذلك أهل مهنهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم . ويساوي ملكهم بقلة شغله وسقوط تكلفه بشيء يحذره

وحال يخافه ، إذ لا خوف عليه ولا رقبة لأحد من أهل جزيرته مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله . ومما يدل بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضريبتها فى كل سنة مائتا الف دينار ، يكون ، عن صرف سبعة عشر بدينار ، ثلاثة آلاف الف درهم وأربعمائة الف درهم ، هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخراجاته واعشاره وضماناته ومراصده والأموال المرسومة الواردة والصادرة والجوالى والرسوم على بيوع الأسواق . ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يدهم مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم و بعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال ، وعلم موالينا[1] عليهم السلام بمحلها فى نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها[2]

(١) فى النسخة التى عندنا من « المسالك والممالك » لابن حوقل وهى المطبوعة فى ليدن سنة ١٨٧٣ يقول : وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها فى نفسها الخ » وأما فى نفح الطيب نقلا عن ابن حوقل فيقول : « مع علم أمير المؤمنين بمحلها فى نفسها الخ »

(٢) كلام ابن حوقل هنا لا يقره عليه أحد من أهل العلم الذين أجمعوا على وصف أهل الأندلس بخلاف هذه الأوصاف التى ينبزهم ابن حوقل بها ، وأقروا بمكان أهل الأندلس من سعة العقول وعلو الهمم وشدة البأس وسائر المناقب التى بلغوا بها ذرى أحسن مدنية وجدت فى القرون الوسطى ، إلا خصلتين كانتا بدون شك سبب بوارهم احداهما كثرة الانتقاض على ملوكهم وحب الشقاق فيما بينهم ، والثانية شدة الانغماس فى الترف الذى أدى إلى رجحان عدوهم عليهم فى الحروب بما كان عليه من الخشونة والصبر على الشدائد ، والذي يظهر لنا أن ابن حوقل إنما أراد تصغير شأن أهل الأندلس يومئذ أغراء لبنى العباس ، وهو من أتباعهم بشن الغارة عليها وإعادتها إلى إلى حضن الخلافة العباسية ، فقال ما قال على سبيل الدعاية لا غير ، وإلا فان كثيراً مما قاله مخالف للمحسوس ومنقوض بالاجماع ، وقد نقل المقرى فى نفح الطيب عن ابن سعيد مكمل هذا الكتاب ما يلى :

لم أر بدآ من إثبات هذا الفصل وإن كان على أهل بلدى فيه من الظلم والتعصب ما لا يخفى ، ولسان الحال فى الرد أنطق من لسان البلاغة ، وليت شعرى إذ سلب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء والهمم والشجاعة ، فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم

مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف ؟ ومن الذين حموها ببسالتهم من الأمم المتصلة بهم فى داخلها وخارجها نحو ثلاثة أشهر على كلمة واحدة فى نصرة الصليب؟ وإنى لأعجب منه إذكان فى زمن قد دلفت فيه عباد الصليب إلى الشام والجزيرة ، وعاثوا كل العيث فى بلاد الاسلام ، حيث الجمهور والقبة العظمى ، حتى أنهم دخلوا مدينة حلب . وما أدراك ، وفعلوا فيها مافعلوا و بلاد الاسلام متصلة بها من كل جهة ، إلى غير ذلك مما هو مسطور فى كتب التواريخ . ومن أعظم ذلك وأشده أنهم كانوا يتغلبون على الحصن من حصون الاسلام التى يتمكنون بها من بسائط بلادهم فيسبون ويأسرون فلا تجتمع همم الملوك المجاورة على حسم الداء فى ذلك ، وقد يستعين به بعضهم على بعض فيتمكن من ذلك الداء الذى لا يطب ، وقد كانت جزيرة الأندلس فى ذلك الزمان بالضد من البلاد التى ترك وراء ظهره . وذلك موجود فى تاريخ ابن حيان وغيره اه

قلت : لم يقصد بن سعيد بما قاله عن تخاذل مسلمى الشام ، الحروب الصليبية المعهودة التى تجلت فيها هذه الحالة بعينها لأن ابن حوقل عاش قبل الحروب الصليبية بمائة وخمسين سنة ، وإنما قصد حروب الروم البيزنطيين التى كانت سجالا بينهم وبين المسلمين . وحادثة حلب هذه كانت سنة ٣٥١ أى فى عصر ابن حوقل ، وسبى الدمشق من حلب بضعة عشر ألف صبى وصبية وفعل الأفاعيل ، ولكن المسلمين فى أمر التخاذل سواسية لاشرق منهم يقدر أن ينجد بغرب ولا غرب يقدر أن ينجد بشرق إلا من رحم ربك

فأما مغرب هـذه الجزيرة ، فمن مدخل هذا الخليج المذكور [1] ومصب مائه

(١) قوله المذكور يشير به إلى ما ورد له من كلام سابق عند ذكره لبلاد المغرب وذلك فى الصفحة ٧٣ من كتابه المسالك والممالك طبعة ليدن ، فان ابن حوقل يقول فى تلك الصفحة ما يلى : فأما ناحية البربر الذين بنواحى طنجة وأزيلة والبصرة وظاهر فاس فأكثرهم فى ضمن ولد ادريس بن عبد الله وهو ادريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب عليه السلام ، وهم فى غاية من طيب العيش ورفاهيته وخصبه ورخص الأسعار وطيب الأهوية والأغذية ، وكانت حالهم فيما تقدم أزيد من هذه الحال صلاحاً ، وفى وقتنا هذا فقد تدانت أحوالهم وصلحت أمورهم وعمر طريقهم . ولم يزل أهل هذا النسب منظوراً اليهم مرعية حقوقهم عند بنى أمية على سالف الدهر . وأدركت عبد الرحمن أبا المطرف بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان يحافظ عليهم مرة ويسوقهم بالعصا مرة لما كان تظاهر به أبو العيش من

عند البحر المحيط من نواحى « لبلة »(niebla) « وجبل العيون » (Gibraleon) آخذاً على « ألب » (Hielba) و « شلب » (Silves) إلى أن يتصل «.بشنترة» (cintre) ذاهباً على « سمُّورة » (Zamora) وليون (Léon) واربونة (narbonne) من بلاد جلّيقية [١] إلى أقاصى (بياض بالأصل) ومشرقها . فمن مشرق جلّيقية إلى الخليج الرومى على نواحى « سرقصّة » وضواحى « وسكّة » [٢] وطرطوشة وجميع بلاد الأفرنجية من جهة البر ، وجنوبها الخليج المذكور من تجاه جزيرة صقيلية إلى بلاد بلنسية ومرسية والمرية ومالقة والجزيرة إلى ركن البحر المحيط وأول أرضها المعمورة على الخليج الرومى ، فمن أشبيلية إلى طرطوشة وهى آخر المدن التى على البحر المتصلة ببلاد الافرنجة ، ومن جهة البر ببلاد (علجسكس) وهى بلاد حرب من النصارى ، ثم تتصل ببلد (بسكونَس) وهى أيضاً نصارى ، ثم ببلاد الجلالقة ، فتنتهى الاندلس إلى حدين : حد إلى دار الـكفر ، وحد إلى البحر . وما ذكرته من المدن على البحر وغيره فمدن كبار عامرة ولم تزل الاندلس فى أيدى بنى مروان إلى هذه الغاية . ومن مشاهير مدنها القديمة جيان (Jian) والاسبانيول

قبح السيرة وخبث المعاملة لبنى السبيل وكثرة الغيلة ، وذلك أن عبد الرحمن هذا (يعنى به الخليفة عبد الرحمن الثالث الأموى الملقب بالناصر وكان ابن حوقل من أبناء عصره) وأهله يملكون الأندلس ويحاذون هذه الناحية وبينهم أصل الخليج الخارج إلى بلد الروم عن قرب مسافة ما بين العدوتين ، حتى انهم ليرى بعضهم ماشية بعض وصور أشجارهم وزروعهم ويتبينون الأرض المفلوحة من الأرض البور وعرض الماء فى ذلك يكون ١٢ ميلا

(١) المعهود أن العرب كانوا يقولون جليقية لشمالى الأندلس ، وقد يقولون لها غاليسية كما يقول الاسبانيول ، وإذا كان كذلك فاربونه (Narbonne) ليست من بلاد جليقية المذكورة . والذى يظهر أن ابن حوقل أراد بجليقية هنا البلاد المسماة بلاد الغال من الافرنجة وهى بلاد تقع أربونة فيها

(٢) الغالب أن أهل الأندلس يقولون سرقسطة ووشقة ولكن ابن حوقل كثيراً مايتابع اللفظ الاسبانيولى فتجد بينه وبين جغرافيى العرب بعض الاختلاف فى الاسماء

يلفظونها الآن خيان (بالخاء على عادتهم فى قلب الجيم خاء) وطليطلة (Toledo) ووادى الحجارة (والاسبانيون يكتبونهـا هكذا Guadalajara وكان العرب يسمونها أيضاً مدينة الفرج) وجميعها قديمة ولم يحدثوا بها بالاسلام غير مدينة بجانة (Pechina) وهى المرية (نقل القلقشندى فى صبح الأعشى عن تقويم البلدان أن مدينة مرسية هى إسلامية محدثة بنيت فى أيام الأمويين) وهى على حدود رستاق البيرة وشنترين على ظهر البحر المحيط . وبالاندلس قلاع كثيرة ترد إلى مصر والمغرب وأكثر جهازهم الرقيق من الجوارى والغلمان ، من سبى أفرنجة وجليقية والخدم الصقالبة .

وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب [1] الأندلس ،

---

(١) ذكر لافى بروفنسال فى كتابه « اسبانية المسلمة فى القرن العاشر » ان لفظة صقالبة كان يطلقها العرب على الأرقاء الذين كانوا يشترونهم من أوربة . وأصل ذلك أن الجيوش الجرمانية عند ما كانت تغزو بلاد السلاف كانت تكثر من السبى منهم وإذا رجعت من غزواتها بالأسرى باعتهم من عرب اسبانية . ولما كان هؤلاء الأرقاء من جنس السلاف سماهم العرب صقالبه ، وصارت لفظة الصقالبة تطلق على جميع هؤلاء المماليك . قال : وفى زمان الرحالة ابن حوقل فى أواسط القرن العاشر كانوا يسمون فى اسبانية صقالبة جميع المماليك الذين من أصل أوربى والذين كانوا يخدمون فى الشرطة أو فى الجند أو فى قصر الخلافة . وقد ذكر أنه لما كان يجول فى الأندلس ، لعهد الحكم المستنصر ابن الناصر ، لم يكن الصقالبة أى المماليك كلهم من الجنس السلافى بل كان منهم جم غفير من سبى « كلابره » و « لومباردية » و « كتلونية » و « غاليسية » وكان أكثر وصولهم إلى الأندلس بواسطة غزاة البحر من المغاربة والأندلسيين ، وأما الذين منهم كانوا يرشحون لخدمة الحرم فى القصور فقد كانوا يخصونهم . وكان تجار اليهود عندهم كما قال دوزى معامل للخصى أهمها معمل فردون Verdune فى فرنسة فكانوا بعد خصيهم يبيعونهم فى الاندلس ، ونظرا لأنهم كانوا يأتون بهم صغاراً فكانوا يتعلمون العربية بسرعة وينشأون فى الاسلام انتهى .

وأقول إن ترجمة لفظة سلاف بصقالبة آتية من كون أحد أصناف الأمة السلافية

لأنهم بها يخصون ، ويفعل ذلك بهم تجّار اليهود عند قرب البلد . وجميع ما يسبى إلى خراسان من الصقالبة فباقٍ على حالته ، ومُقَدٌّ على صورته ؛ وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح ، والخليج الآخذ من بحر الروم ممتدًا على القسطنطينية واطرابزندة يشق بلدهم بالعرض ، فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون ، والنصف الشمالى يسبيه الأندلسيون ، من جهة جيليقية وافرنجة وانكبردة Lombardia وقلورية Calabra و بهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله

وريو (١) Rio كورة عظيمة خصيبة ، ومدينتها « ارجدونة » ومنها كان عمر ابن حفصون الخارج على بنى أميةَّ ، وفحص البلوط متصل بديار ابن حفصون كورة واسعة خصيبة . واسقفة رستاق حسن ومدينته غافق (٢) . وبالأندلس غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تمدّن . وهم على دين النصرانية روم ، وربما عصوا فى بعض الأوقات ولجأ قوم منهم إلى حصن ، فطال جهادهم لأنهم فى غاية العتو والتمرد ، وإذا خلعوا ربقة الطاعة صعب ردهم إلا باستئصالهم ، وذلك شيء يطول . وماردة وطليطلة من أعظم مدن الأندلس وأشدها منعة (٣) وثغور الجلالقة « ماردة » و « نَفْزَةَ » (٤)

ومنهم من يسكن الآن فى يوغسلافية ، يقال لها الاسكلافون Escklavon أو الاسكلابون فعربها العرب اسقلابون ، ثم جمعوها على صقالبة أو صقالب . قال المتنبي :

يجمع الروم والصقالب والبلـــغار فيها وتجمع الآجالا

(١) الغالب على العرب أنهم يقولون « ريه » لا « ريو » فابن حوقل تابع فيها لفظ الاسبانيول .

(٢) سيأتى ذكرها كلها .

(٣) سيأتى إن شاء الله فى القسم التاريخى من « الحلل السندسية » أخبار ثورات هاتين البلدتين على بنى أمية وهم فى عنفوان أمرهم وريعان قوتهم .

(٤) نفزة بفتح فسكون فزاى بلدة بالأندلس جاء فى معجم البلدان ما يلى : قال السلفى : نفزة بكسر النون قبيلة كبيرة منها بنو عميرة و بنو ملجان المقيمون بشاطبه . ينسب إليها أبو محمد عبد الله بن أبى زيد عبد الرحمن الفقيه النفزى أحد الأئمة على

و « وادى الحجارة » و « طليطلة » . ومدينة الجلالقة مما يلى ثغور الأندلس يقال لها « سمُّور » (Zamora) . وعظيم الجلالقة بمدينة يقال لها « ليون » (Léon) فيها سلطانهم وعدتهم بعد سمُّورة ، ومدينة يقال لها « أوبيت » (Ovido) وهي بعيدة عن بلد الاسلام ، وليس فى أصناف الكفر الذين يلون الأندلس (يريد أن يقول أنهم يجاورون الاندلس) أكثر عددا من الافرنج ، غير أن الذين يلون المسلمين منهم فئة ضعيفة شوكتهم ، قليلة عدتهم ، وفيهم إذا مُلكوا طاعة ، وحسن نصيحة ، ومحاسن كثيرة ، و إليهم يرغب أهل الأندلس عن الجلالقة بأولادهم ، والجلالقة أصدق محاسن ، وأقل طاعة ، وأشد قوة ، وأكثر بأساً و بسالة ، وفيهم غدر. وهم فى عرض طريق الافرنجة .

وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة ، وليس بجميع المغرب عندى لها شبيه فى كثرة أهل وسعة رقعة ، وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق . و يزعم قوم من أهلها أنها كأحد جانبي بغداد : وذلك أن عبد الرحمن بن محمد (١) ابتنى فى غربها مدينة تعرف بالزهراء فى سفح جبل يعرف بجبل « بطلش » (٢)

مذهب مالك وله تصانيف . وأبو العباس احمد بن على بن عبدالرحمن النفزى الأندلسى سمع مشايخنا ودخل نيسابور واصبهان ، وخرج من بغداد سنة ٦١٣ ودخل شيراز . وأبو عبد الله محمد بن سليمان المالسى النفزى ، وهو ابن أخت غانم بن الوليد بن عمرو ابن عبد الرحمن المخزومى أبى محمد من الأندلس ، روى عن خالد . مات فى شوال سنة ٥٢٥ ومولده سنة ٤٣٤ قال أبو الحسن المقدسى : وأبو محمد عبد الغفور بن عبد الله ابن محمد بن عبد الله النفزى ، وله تصانيف مات فى ربيع الآخر سنة ٥٣٩ وأبوه من أهل الرواية مات فى سنة ٣٧ . اه

(١) يريد به عبد الرحمن الثالث الأموى الملقب بالناصر أعظم ملوك ذلك القطر بل أعظم ملوك عصره

(٢) العرب يسمونه جبل العروس والمعروف أن قرطبة هى مبنية فى سفوح شارات مورينا

وخط فيها الأسواق ، وابتنى الحمامات والخانات والقصور والمتنزهات واجتلب إلى ذلك بناء العامة ، وأمر مناديه بالنداء : ألا من أراد أن يبنى داراً أو يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله أربعمائة درهم ، فتسارع الناس إلى العمارة ، فتكاثفت وتزايدوا فيها ، فكادت أن تتصل الأبنية بين قرطبة والزهراء ، وانتقلوا ببيت مالهم ودواوينهم وخزائنهم . وقد نقل جميع ذلك وأعيد إلى قرطبة تطيراً منهم بها ، وتشاؤماً بموت رجالهم فيها ، ونهب سائر ذخائرهم .

وسمعت من غير ثقة ممن يستنبطن حالهم أن لعبد الرحمن بن محمد ، مما اتجه له جمعه من مال الأندلس وجباياتها ، من حقوقها وغير واجبها إلى سنة ٣٤٠ نحو عشرين ألف ألف دينار ، ولست أشك على ما يوجبه النظر ، وتواطأ به الخبر ، فى ما جمعه الحكم بعد هلاك أبيه ، من خدمه والمصادرين الذين كانوا فى جملته ، وإلى وقتنا هذا عن أسباب الأندلس ولوازمها وجباياتها وخراجها وأعشارها وصدقاتها وجواليها(1) تمام أربعين ألف ألف دينار . وليس لهذا المال فى وقتنا هذا بموضع من مواضع الأرض نظير ، غير ما فى يد أبى تغلب الغضنفر بن الحسن بن عبد الله بن حمدان ، فانه مما يعلمه الخاص والعام بالعراق وديار ربيعة ، جمع من تركة أبيه ما يضاهيه ويزيد عليه زيادة بيّنة .

وقرطبة وإن لم تكن كأحد جانبى بغداد فهى قريبة من ذلك ولاحقة به إن شاء الله ، وهى مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة ، وفيها كان مسكن سلطانهم قديماً ، وداره داخل سورها ، وأكثر أبواب هذه الدار مشرعة فى البلد من غير جهة . ولها بابان يشرعان فى نفس السور إلى الطريق الآخذ على الوادى من الرصافة ، والرصافة مساكن أعالى البلد متصلة بأسفلها من ربضها ، مشتبكة أبنيتها ، محيطة بها ، مستديرة عليها من شرقها وشمالها وغربها . فأما الجنوبية

(1) الجوالى جمع جلية وهى ما يؤخذ من أهل الذمة المقيمين فى دار الاسلام

منها فهو إلى واديها ، وعليها الطريق المعروف بالرصيف ، والأسواق والبيوع والخانات والحمامات ومساكن العامة بربضها [١] ، ومسجد جامعها جليل فى نفس المدينة ، والحبس منه قريب ، وقرطبة هذه بائنة بنفسها عن مساكن أرباضها ظاهرة ، ودُرْتُ بها فى غير يوم فى قدر ساعة ، وقد قطعت الشمس خمسة عشر دقيقة ماشياً .

وللزهراء أيضاً مسجد جامع دون جامع البلد فى المحل والقدر والكبر ، وعلى سورها سبعة أبواب حديد ، وليس لها نظير بالمغرب لفخامة حال ، وسعة تملك ، وابتذالا لجيد الثياب والكسى ، وفراهة كراع ، وكثرة حلى ، وإن لم يكن لها فى عيون كثير من الناس حسن بارع ، فليس لجيوشهم حلاوة فى العين ، ولا علم بأفانين الفروسية وقوانينها ، ولا بالشجاعة وطرقها . وأكثر ظفر جيوشهم فى القتال بالكيد ، ومما يدل على ذلك أنى لم أر قط بها أحداً أجرى فرس فاره أو برذون هجين ، ورجلاه فى الركب ، ولا يستطيعون ذلك ، ولا بلغنى عن أحدهم ، وكل ذلك لخوفهم من السقوط إلى فشل فيهم عند لقائهم وتواطؤهم على نزع أرجلهم من ركبهم ، ولم تطبق قط جريدة عبد الرحمن ، ولا من سبقه من آله ، خمسة آلاف فارس ، فمن يقبض رزقه ويحتم عليه ديوانه لأنه مكفى المؤونة بأهل الثغور ، مما ينو به من كيد العدو الذى يجاوره من الروم ، ولا عدو عليه سواهم ، وقلما يكترث لهم ، وربما طرقه فى الأحايين مراكب الروس والترك والصقالبة والبجناكية ، وهم جيل من أجيال الترك المجاورين لأرض الخزر والبلغار ، فأنكوا فى أعمال الأندلس وربما انصرفوا خاسرين .

وبالأندلس غير مجلب من التجارة كالزيبق والرقيق والحديد والرصاص ، وضروب من الفرش ، كقطع الأرمنى الحسن . وعندهم تُعمل اللبود المشهورة فى جميع الأرض بالجودة والصبغ الحسن ، ولهم من الألوان والأصباغ والحشائش التى يلوّن بها الحرير وأنواع الصوف والثياب ما ليس فى بلد من بلدان الأرض له نظير حسناً

(١) سيأتى الكلام مفصلا عن خطط قرطبة ومعه أطلس خاص بها على ما كانت عليه أيام العرب

وكثرة . فأما أسعارهم فتضاهي النواحي الموصوفة في الرخص ، وكثرة فواكههم مع طيبة فيها فكالمباحة التي لا ثمن لها . وملابسهم نظيفة ، إلى طيب عيش يناله عوامهم وقل من يصير إليه أهله من أهلها إلاّ على الفاره من المركوب ، ولا يعرف فيهم المهنة والمشي إلاّ أهل الصنائع والأرذال ، وأكثر ركوبهم البغال وفيها يتفاخرون وبها يتكاثرون . ولهم منها نتاج في جزائرهم[1] لم أر مثله في معادن البغال المذكورة ، ومواضعها المشهورة ، كارمينية والران ، ونتاج برزعة ، وباب[2] الأبواب ، وشروان شاه ، لأنها توضع عندهم ، وتنجب في بلدهم ، ويجلب إليهم أيضاً منها شيء حسن الشية ، عظيم الخلق ، كثير الثمن والطالب من ميورقة ، وهي جزيرة في بحرهم منقطعة تلي ناحية الفرنجة ، واسعة الخير ، كثيرة الثمار ، رخيصة الماشية ، لكثرة المراعي ، غزيرة النتائج والمواشي ، معدومة الجوائح ، قليلة الآفة ، فليس بها عاهة ولا وحش يؤذيهم في سائمتهم ، ورأيت منها غير بغل بيع بخمسمائة دينار ، وإليها ترغب ملوكهم وإياها يستوطئون ، ويؤثرون فيما يركبون . فأما ما تبلغ قيمته منها المائة والمائتي دينار فأكثر من أن يحصى . وليس ذلك لأنها أزيد على البغال الموصوفة في حسن السير وسرعة المشي ، بل لعظم خلقها ، وحسن شياتها ، واختلاف ألوانها ، وجمال مناظرها وعلو ظهورها ، وصحة قوائمها .

ذكر المسافات بها من قرطبة إلى « مراد »[3] مرحلة ، ومن مراد إلى « غرغيره »[4] يوم ، ثم إلى اشبيلية يوم ، وهي مدينة كثيرة الخير والفواكه والكروم ، والتين خاصة ، وهي على وادي قرطبة (أي الوادي الكبير) . ومن اشبيلية إلى « لبلة »[5]

---

(١) لا سيما جزيرة ميورقة

(٢) يقال باب الأبوب للبلاد المسماة اليوم بطاغستان

(٣) هو عند الأسبان Moratalla

(٤) الادريسي يقول عن هذا المحل الغيران

(٥) هي التي يقول لها الأسبان Niebla وهي وطن بني الجد الفهريين الذين هم اليوم

يومان . وهى مدينة صالحة القدر ، عليها سور . ومنها إلى «جبل[١] العيون» يومان ، وهى مدينة قديمة أزلية كثيرة الخير ، ومن جبل العيون إلى « ألب » [٢] ثلاثة أيام ، وهى أيضاً مدينة قديمة ذات سور ، ومن ألب إلى « أُخشُنَبة » [٣] وهى مدينة مشهورة عظيمة كثيرة الخير ، أربعة أيام ، ومن أخشنبه إلى مدينة «شلب»[٤] ستة أيام ، ومن شلب إلى « قصر أبي[٥] دانس » خمسة أيام ، وهى مدينة صالحة خصيبة ، ومنها إلى المعدن ، وهو فم النهر ، إلى مدينة « لشبونة » [٦] يوم ، ومن لشبونة إلى شنترين [٧] يومان ، ومن شنترين إلى « يابُرة »[٨] أربعة أيام ، ومن يابرة إلى « جليانة » يومان ، ومن جليانة إلى « ألبش » يوم ، ومن ألبش إلى « بطليوس»[٩] عدوة النهر ، يوم ، ومن بطليوس إلى « قنطرة [١٠] السيف » أربعة أيام ، ومن قنطرة السيف إلى « ماردة » [١١] يومان ، ومن ماردة إلى « مدلِّين » [١٢] يومان ، ومن

بفاس وما زال يظهر منهم النوابغ سواء فى الأندلس أو فى المغرب . وكان نزوحهم من لبلة إلى مالقة أولا ثم إلى إشبيلية ثم إلى فاس

(١) Gebraleon عندالاسبانيول

(٢) هى Huelva عند الاسبانيول وأكثر ما يقول لها العرب « أونبه »

(٣) عند الاسبان Osconba

(٤) عندهم Selves

(٥) Abidanis

(٦) Lisboa و Lisbonne

(٧) Santarem

(٨) عند الاسبانيول Evora وهى بلدة سكانها اليوم ١٦ الفاً ولكنها كانت ذات بال فى أيام العرب ولا تزال عليها المسحة العربية إلى اليوم وهى من أعمال البرتغال وسنذكرها فيما بعد .

(٩) Badajoz كانت من حواضر الأندلس وسيأتى خبرها الوافى بقدرها

(١٠) عند الاسبانيول Alcantara

(١١) ماردة هى merida وهى أيضاً من أمهات الأندلس وسيأتى ذكرها

(١٢) مدلين هى medellin وكان الرومان يقولون لها metellinum

مدائن إلى « ترجيلة »[١] يومان ، ومن ترجيلة إلى « قصراش »[٢] يومان . ومن قصراش إلى « مكناسة » يومان . ومن مكناسة إلى « مخاضة البلاط » يوم ، ومن مخاضة البلاط إلى « طلبيرة »[٣] خمسة أيام ، ومن طلبيرة إلى طليطلة ثلاثة أيام . ومن قرطبة إلى بطليوس فى جهة المغرب على الجادة ست مراحل . ومن قرطبة إلى بلنسية اثنتا عشرة مرحلة . ومن قرطبة إلى المرية ، فرضة بجانة ، سبعة أيام ، ومن المرية إلى مرسية خمسة أيام .

وجميع هذه المدن المذكورة مشهورة بالغلات والتجارات والكروم والعمارة والأسواق والعيون والحمامات والخانات والمساجد الحسنة ، وفيها ما يزيد على بعضها فى الحال والجباية والارتفاع والولاة والقضاة والحلفين على رفع الأخبار ، وتأمل الأحوال ، وليس بها مدينة غير معمورة ، ذات رستاق فسيح إلى كور ، إلا ولها ضياع كثيرة ، وأكارة واسعة ، وماشية وسائمة ، وعدة وكراع وعبيد . ومن قرطبة إلى كركويه[٤] ، مدينة فيها منبر ولها أسواق وبها حمامات وفنادق ، أربعة أيام ، وفى كل ليلة ينزل بقرية آهلة ، ومن كركويه إلى « قلعة رباح »[٥] يوم ، وهى مدينة كبيرة ذات سور من حجارة ، ولها واد كبير هى عليه ، منه شربهم ، ويزرعون عليه ، وبها أسواق وحمامات ومتاجر ، والطريق على قرى ذات عمارة

ومن قلعة رباح إلى « مَلَقُون » مرحلة ، وهى مدينة على نهر ، لها سور من تراب ، وهى دون قلعة رباح فى الكبر ، ونهرها يعرف باسمها ، ومنه شرب أهلها . ومنها إلى « أبلش » مرحلة ، وهى قرية فيها فندق وعين منها شربهم آهلة ، ومن

---

(١) ترجيله هى Trajillo

(٢) قصارش هى Caseres

(٣) Talavera de la Reina

(٤) Caracuel وقال بيلاج الأويطى Pélage D'oviedo هى - caraqui أى كما يلفظها العرب

(٥) Calatrava

أبلش إلى طليطلة مرحلة ، وطليطلة مدينة كبيرة جليلة مشهورة ، أكبر من بجانة ، ذات سور منيع ، وهي على وادى تاجه ، وعليه قنطرة عظيمة ، ويقال إن طولها خمسون باعاً ، ويصير واديها الى الوادى المنصب إلى شنترة .

ومن طليطلة إلى « مغام »[1] مرحلة ، وهي قرية كبيرة بها معدن الطَفَل الأندلسى ، ومن مغام إلى « الغرا » مرحلة ، وهي مدينة كبيرة ذات سوق ومحال، وتكون نحو وادى آش . ومن الغرا إلى وادى الحجارة ، وهي مدينة كبيرة ، وثغر مشهور الحال مسوّر بحجارة ، وهي ذات أسواق وفنادق وحمامات وحاكم ومحلّف وبها تسكن ولاة الثغور كأحمد بن يعلى وغالب ، وعليها أكثر جهاد جليقية ، ومنها إلى « شعراء القوارير » مرحلة ، وبها منهل تنزله الرفاق ، ومن شعراء القوارير الى « مدينة سالم » مرحلة ، ومن مدينة سالم إلى مدينة غالب بن عبد الرحمن ، ولها سور عظيم ورساتيق واقليم واحد وماشية ، رفهة فى جميع أسبابها ، وهي أكثر الأندلس حرباً وغزواً . انتهى كلام ابن حوقل .

قول ياقوت الحموى

وقال ياقوت الحموى فى معجم البلدان :

قال ابن حوقل التاجر الموصلى ، وكان قد طوف البلاد ، وكتب ما شاهده : أما الأندلس فجزيرة كبيرة ، فيها عامر وغامر ، طولها نحو الشهر ، فى نيف وعشرين مرحلة ، تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة في الأحوال . وعرض فم الخليج الخارج من البحر المحيط قدر اثنى عشر ميلا ، بحيث يرى أهل الجانبين بعضهم بعضاً ويتبينون زروعهم وبيادرهم . قال : وأرض الأندلس من على البحر تواجه من أرض المغرب تونس . وإلى « طبرقة » إلى « جزائر مزغنّاى » ثم إلى « أنكور » ثم إلى « سبتة » ثم إلى « أريلى » ثم إلى البحر المحيط . وتتصل

(١) مغام magham

الأندلس فى البر الأصغر من جهة جليقية ، وهو جهة الشمال ، ويحيط بها الخليج المذكور من بعض مغربها وجنوبها ، والبحر المحيط من بعض شمالها وشرقها من حد الجلالقة على كورة « شنترين »(١) الى « اشبونة »(٢) ثم إلى جبل الغور ، ثم إلى ما لديه من المدن إلى جزيرة جبل طارق ، المحاذى لسبته ، ثم إلى « مالقة » ثم إلى « المرية » فرضة « بجانة »(٣) ثم إلى بلاد « مرسية »(٤) ثم إلى « طرطوشة »(٥) ثم تتصل ببلاد الكفر مما يلى البحر الشرقى فى ناحية أفرنجة ، ومما يلى المغرب ببلاد « عَلْجَسكس »(٦) وهم جيل من الانكبرد(٧) ثم إلى بلاد « بسكونس »(٨) ورومية الكبرى فى وسطها ، ثم ببلاد الجلالقة حتى تنتهى إلى البحر المحيط

ووصفها بعض الأندلسيين بأتم من هذا وأحسن . وأنا أذكر كلامه على وجهه قال : هى جزيرة ذات ثلاثة أركان مثل شكل المثلث ، قد أحاط بها البحران

---

(١) Santarem (٢) Lisbonne (٣) Béchina (٤) Marcie
(٥) Tortose

(٦) نظن أنه يعنى بهذا الاسم الجيل الذى يقال له عندهم Cuskaldonac والاسبان يقولون vascongados

(٧) يريدون بهم اللومبارديين وقد جاء تعريفه الانكبرده فى معجم البلدان قال :
الانكبرده بالفتح ثم السكون وفتح الكاف وضم الباء الموحدة وسكون الراء ودال مهملة وهاء بلاد واسعة من بلاد الافرنج بين القسطنطينية والاندلس تأخذ على طرف بحر الخليج من محاذاة جبل القلال وتمر على محاذاة ساحل المغرب مشرقاً إلى أن تتصل ببلاد قلوريه انتهى . قلت هذا الوصف لا ينطبق إلا على مملكة إيطالية الحاضرة الممتدة من جبل القلال غرباً وهو الجبل المشرف على مدينة نيس إلى بلاد كالبرة شرقاً وهى التى يعنيها بقوله قلورية . عليك لمعرفة جبل القلال بمراجعة كتابنا « غزوات العرب فى أوربة » .

(٨) هم الباسك فى شمالى أسبانية وجنوبى فرنسة والعرب يقولون لهم الباشكنس أو الباسكنس ولغتهم يقال لها vascuence ومن هذه اللفظة قال لهم العرب ذلك لأن الفاء (v) هى دائماً باء عند العرب .

المحيط والمتوسط ، وهو خليج خارج من البحر المحيط ، قرب سلا من بر البر بز . فالركن الأول هو فى هذا الموضع الذى فيه صنم قادس ، [١] وعنده مخرج البحر المتوسط الذى يمتد إلى الشام ، وذلك من قبلى الأندلس . والركن الثانى شرقى الأندلس بين مدينة « أربونة » [٢] ومدينة « بُرديل » [٣] وهى اليوم بيد الافرنج بإزاء جزيرتي « ميورقة » و« منورقة » مجاورة من البحرين المحيط والمتوسط ومدينة أربونة تقابل البحر المتوسط ، ومدينة برديل تقابل البحر المحيط . والركن الثالث هو ما بين الجنوب والغربى من حيز جليقية ، حيث الجبل الموفى على البحر ، وفيه الصنم العالى المشبه بصنم قادس ، وهو البلد الطالع على بريطانية [٤] . فالضلع الأول منها أوله حيث مخرج البحر المتوسط الشامى من البحر المحيط ، وهو أول الزقاق فى موضع يعرف بجزيرة طريف من بر الأندلس يقابل قصر مصمودة بإزاء سلا فى الغرب الأقصى من البر المتصل بأفريقية وديار مصر ، وعرض الزقاق ههنا اثنا عشر ميلا ، ثم تمر فى القبلة إلى الجزيرة الخضراء من بر الأندلس المقابلة لمدينة سبتة . وعرض الزقاق ههنا ثمانية عشر ميلا . وطوله فى هذه المسافة إلى ما بين جزيرة طريف وقصر مصمودة إلى المسافة التى ما بين الجزيرة الخضراء وسبتة نحو العشرين ميلا . ومن ههنا يتسع البحر الشامى إلى جهة المشرق ، ثم يمر من الجزيرة الخضراء إلى مدينة « مالقة » [٥] إلى حصن « المنكب » [٦] إلى مدينة « المرية » [٧] إلى قرطاجنة [٨] الخلفاء ، حتى تنتهى إلى جبل « قاعون » [٩] الموفى على مدينة « دانية » [١٠]

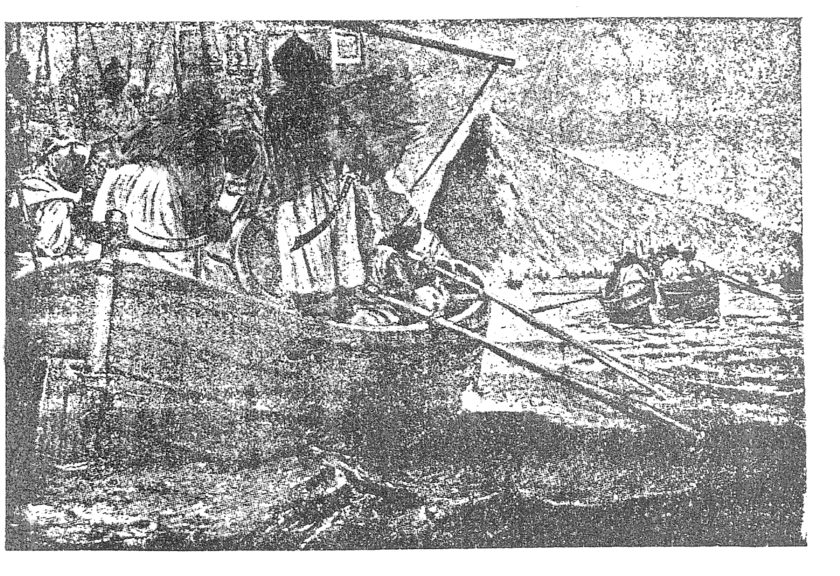
---

(١) على ربوة من الأرض كان هذا الصنم إلى جنوبى المكان المسمى الآن سان فرناندو وهو من بناء الفينيقيين وكان خبر بنائه محفوراً على أعمدة الفولاذ بأحرف فينيقية . وقد عمر فينيقيو صور قادس من منذ ١١٠٠ قبل المسيح ثم فى سنة ٥٠١ قبل المسيح فتحها فينيقيو قرطاجنة .

(٢) Narbonne فى جنوبى فرنسة (٣) Beaurdeaux (٤) جزيرة انكلترة

(٥) Malaga (٦) Amonacar (٧) Almeria (٨) Cartagéne

(٩) Caoun (١٠) Dénia



مرور العرب لأول مرة من المغرب إلى الأندلس سنة ٧١٠ ب . م

ثم ينعطف من دانية إلى شرق الأندلس ، إلى حصن « قليره » [١] إلى بلنسية . ويمتد كذلك شرقاً إلى « طَرَكونة [٢] » إلى « برشلونة » [٣] إلى « اربونة » إلى البحر الرومى ، وهو الشامى ، وهو المتوسط .

والضلع الثانى مبدؤه كما تقدم من جزيرة « طريف » [٤] آخذاً إلى الغرب فى الحوز المتسع الداخل فى البحر المحيط ، فيمر من جزيرة طريف إلى « طرف الأغرّ » [٥] إلى جزيرة « قادس » [٦] وههنا أحد أركانها . ثم يمر من قادس إلى بر المائدة [٧] ، حيث يقع نهر إشبيلية فى البحر ، ثم إلى جزيرة « شلطيش » [٨] إلى وادى « يانة » [٩] إلى « طبيرة » [١٠] ، ثم إلى « شنترية » [١١] إلى « شِلب » [١٢] ، وهنا عطف إلى أشبونة وشنترين ، وترجع إلى طرف العرف ، مقابل شِلب . وقد يُقطع البحر من شِلب إلى طرف العُرف مسيرة خمسين ميلا ، وتكون اشبونة وشنترة وشنترين على يمين من حَوْز طرف العُرف ، وهو جبل منيف داخل فى البحر نحو أربعين ميلا ، وعليه كنيسة الغراب [١٣] المشهورة ، ثم يدور من طرف العرف مع البحر المحيط فيمر على حوز « الريحانة » وحوز « المَدْرَة » وسائر تلك البلاد مائلا إلى الجوف [١٤] ، وفى هذا الحيز هو الركن الثانى .

(١) Cullera (٢) Tarracone (٣) Barcelonne (٤) Tarifa
(٥) Trafalgar (٦) Cadix (٧) Almeida (٨) Saltés
(٩) Guadiana (١٠) Tavira (١١) Cintra (١٢) Silves

(١٣) يتكرر ذكر كنيسة الغراب فى جغرافيات العرب وتحرير خبرها وجود أسطورة مآلها أن الرومان فى صدر النصرانية قتلوا قديساً مسيحياً اسمه صان فنسان فى بلنسية وطرحوا تجاليده فى البرية لتأكلها الوحوش فجاء غراب وحفظه من أكل الضوارى له ولا نعلم لأى سبب أريد نقل جثة هذا القديس من شرق الأندلس إلى غربها ؟ وإنما نعلم أنه فى أيام عبد الرحمن الداخل صدر الأذن للنصارى بنقلها إلى كنيسة فى طرف مقاطعة الغرب على البحر المحيط .

(١٤) الجوف فى اصطلاح إخواننا المغاربة والاندلسيين هو الشمال وقد فكرت كثيراً فى وجه هذا الاصطلاح فلم يظهر لى شيء يصح التعويل عليه ولا عثرت على نص

والضلع الثالث ينعطف فى هذه الجهات من الجنوب إلى الشرق ، فيمر على بلاد جليقية وغيرها حتى ينتهى إلى مدينة برديل (Bordeaux) على البحر المحيط المقابل

يفيد سبب تسميتهم الشمال بالجوف وقد سألت أهل الذكر ممن أعتقد بعلمهم فأبدى كل واحد ماعنده : فالسيد علال الفاسى يظن أنه لما كان الجوف واقعاً شمالى مكة فقد غلب على أهل الحجاز أن يقولوا لكل شمال جوفاً ثم سرى هذا الاستعمال من الحجاز إلى المغرب والأندلس . وهو وجه وجيه لأن مدينة الجوف هى فى وسط البرية إلى الشمال من الحجاز وإلى الغرب من العراق وإلى الشرق من الشام ، وكما غلب على الناس جميعاً فى الشام أن يقولوا للجنوب قبلة نظراً لكون الكعبة هى إلى الجنوب من الشام يجوز أن يكون الحجازيون سموا الشمال جوفاً لكون الجوف ونواحيها هى فى شمالهم وأنت ترى أنهم يقولون للشمال شاماً بغلبة الاصطلاح المبنى على كون الشام هى إلى الشمال من الحجاز وفى كثير من الصكوك تجدهم يكتبون : يحده من القبلة كذا ومن الشام كذا وقد أجابنى الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى رئيس المجمع العلمى العربى بأنه يستحسن رأى الأستاذ علال الفاسى فى هذه اللفظة ويقول إنهم فى الحجاز يعبرون عن الشمال بالشام وإنه وجدت فى أوراق الطابو التركية القديمة ما ورد فيه لفظة « يمنى » بمعنى الجنوب فانهم فى الحجاز نفسه كما عبروا عن الشمال بالشام فقد عبروا عن الجنوب باليمن وهو شىء طبيعى بالنسبة لهم ثم قال الشيخ المغربى : إلا أنه يوجد فى الأندلس بلدان باسم الجوف كما يظهر من معجم البلدان أحدهما فى غربى الاندلس على البحر المحيط والآخر فى أقليم اكشونية فالى أى جوف انتسب هذا الاصطلاح ؟ هل هو الجوف الذى فى الشرق أم الجوف الذى فى الاندلس ؟ وأما الاستاذ الاب انسطاس الكرملى فقد أجابنى بما يلى : الجوف : الشمال وهو من اصطلاح المغاربة جاء فى كتاب الادريسى وفى اللمحة البدرية : وسبب هذه التسمية هو ان الذين سموا بهذا الاسم ريح الشمال أو الشمال نفسه هم سكان البلاد الواقعة فى جنوبى بحر الروم فاذا هبت الشمال عندهم جاءتهم من « جوف » ذيالك البحر فلذلك عرفوها بهذا الاسم كأنهم أشاروا إلى أصل مهبها فحذفوا واكتفوا باللفظ الظاهر الاشارة إليه انتهى . أما دوزى فى كتابه « متمم المعاجم العربية » ذكر فى صفحة ٥٣٥ مايلى : جوفى : شمالى . هذا المعنى كثير الاستعمال لدى المؤلفين المغاربة ريح جوفى : ريح الشمال انتهى . قلت : أما فى الاندلس فلا يكادون يعبرون عن الشمال إلا بالجوف .

لأربونة على البحر المتوسط ، وهنا هو الركن الثالث ، وبين أربونة و برديل الجبل الذى فيه هيكل الزهرة ، الحاجز بين الأندلس و بين بلاد أفرنجة العظمى ، ومسافته من البحر نحو يومين للقاصد . ولولا هذا الجبل لالتقى البحران ، ولكانت الأندلس جزيرة منقطعة عن البر ، فاعرف ذلك ! فان بعض من لا علم له يعتقد أن الأندلس يحيط بها البحر فى جميع أقطارها لكونها تسمى جزيرة ، وليس الأمر كذلك ، و إنما سميت جزيرة بالغلبة ، كما سميت جزيرة العرب وجزيرة « أقور »[1] وغير ذلك وتكون مسيرة دورها أكثر من ثلاثة أشهر ، ليس فيها ما يتصل بالبر إلاّ مقدار يومين كما ذكرنا وفى هذا الجبل المدخل المعروف بالأبواب [2] الذى يدخل منه من بلاد الأفرنج إلى الأندلس ، وكان لا يرام ولا يمكن أحداً أن يدخل منه لصعوبة مسلكه فذكر بطليموس أن قَلَوْ بَطْرَة ، وهى امرأة كانت آخر ملوك اليونان ، أول من فتح هذه الطريق وسهّلها بالحديد والخل .

قلت : ولولا خوف الاضجار والاملال لبسطت القول فى هذه الجزيرة ، فوصفها كثير ، وفضائلها جمة ، وفى أهلها أئمة وعلماء وزهّاد ، ولهم خصائص كثيرة ، ومحاسن لاتحصى ، و إتقان لجميع ما يصنعونه ، مع غلبة سوء الخلق على أهلها ، وصعوبة الانقياد [3] . وفيها مدن كثيرة ، وقرى كبار ، يجىء ذكرها فى أماكنها من هذا الكتاب حسب ما يقتضيه الترتيب إن شاء الله تعالى ، و به العون والعصمة انتهى كلام ياقوت فى المعجم .

---

(١) هى إقليم الموصل وآمد وديار بكر وديار ربيعة وما إليها .

(٢) ولذلك عرف حتى عند العرب بلفظة « البرتات » أى الأبواب بلغات الافرنج

(٣) وهذا هو الأمر الذى كان سبب ضياع هذا الفردوس على العرب فما حصله عرب الاندلس بحزمهم وحسن ترتيبهم أضاعوه بشدة إنشقاقهم واستمرار تشغيبهم ولله أمر هو بالغه.

قول الشريف الادريسى

وقال الشريف الادريسى فى كتابه « نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق » وهو أشهر جغرافية عربية — الكلام الآتى :

الجزء الأول من الاقليم الرابع مبدأوه من المغرب الأقصى حيث البحر المظلم ، ومنه يخرج خليج البحر الشامى ماراً إلى المشرق ، وفى هذا البحر المرسوم بلاد الأندلس المسماة باليونانية « أشبانية » وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها شكل مثلث ، وتضيق من ناحية المشرق حتى يكون بين البحر الشامى والبحر المظلم المحيط بجزيرة الأندلس ٥ أيام . ورأسها العريض نحو من ١٧ يوماً . وهذا الرأس هو فى أقصى المغرب فى نهاية انتهاء المعمور من الأرض ، محصور فى البحر المظلم ، ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم [١] ولا وقف بشر منه على خبر صحيح ، لصعوبة عبوره ، وظلام أنواره وتعاظم أمواجه ، وكثرة أهواله ، وتسلط دوابه ، وهيجان رياحه ، وبه جزائر كثيرة ، ومنها معمورة ومغمورة . وليس أحد من الربانين يركبه عرضاً ولا ملججاً ، وإنما يمر منه بطول الساحل ، ولا يفارقه . وأمواج هذا البحر تندفع منغلقة كالجبال ، لا ينكسر ماؤها ، وإلا فلو تكسر موجه لما قدر أحد على سلوكه . والبحر الشامى [٢] فيما يحكى كان بركة منحازة مثل ماهو عليه الآن بحر طبرستان [٣] لا تتصل مياهه بشىء من مياه البحر .

وكان أهل المغرب الأقصى من الأمم السالفة يغيرون على أهل الاندلس فيضرون بهم كل الاضرار . وأهل الاندلس أيضاً يكابدونهم ويحاربونهم جهد الطاقة ، إلى أن كان زمان الاسكندر [٤] ووصل إلى أهل الاندلس ، فاعلموه بما هم

---

(١) خلفه بر اسمه أمريكا حاول العرب العبور إليه من قبل وقيل وصلوا إليه

(٢) أى المتوسط

(٣) أى بحر الخزر أو قزوين Caspienne

(٤) من عادة مؤرخينا نقل روايات العامة ومن عادة العامة أنهم كلما رأوا أثراً

عليه من التناكر مع أهل السوس ، فأحضر الفعلة والمهندسين ، وقصد مكان الزقاق ، وكان أرضاً جافة ، فأمر المهندسين بوزن الأرض ، ووزن سطوح ماء البحرين ، ففعلوا ذلك فوجدوا البحر الكبير يشف علوّه على البحر الشامى بشيء يسير ، فرفعوا البلاد التى على الساحل من بحر الشام ، ونقلها من أخفض إلى أرفع . ثم أمر أن تحفر الأرض التى بين طنجة و بلاد الأندلس ، فحفرت حتى وصل الحفر إلى الجبال التى فى أسفل الأرض ، و بنى عليها رصيفاً بالحجر والجيّار افراغاً ، وكان طول البناء ١٣ ميلا ، وهو الذى كان بين البحرين من المسافة والبعد ، و بنى رصيفاً آخر يقابله مما يلى أرض طنجة . وكان بين الرصيفين سعة ستة أميال فقط . فلما أكمل الرصيفين حفر للماء من جهة البحر الأعظم ، فمرّ ماؤه بسيله وقوته بين الرصيفين ، ودخل البحر الشامى ، ففاض ماؤه ، وهلكت مدن كثيرة كانت على الشطين معاً ، وغرق أهلها ، وطغى الماء على الرصيفين نحو ١١ قامة ، فأما الرصيف الذى يلى بلاد الاندلس فانه يظهر فى أوقات صفاء البحر ، فى جهة الموضع المسمّى بالصفيحة ظهوراً بيّناً ، طوله على خط مستقيم (هنا لم نتبين الكتابة) وقد رأيناه عياناً ، وجرينا على طوله مع هذا البناء . وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة ، ووسط هذا البناء يوافق الموضع الذى فيه حجر الأيّل على البحر .

وأما الرصيف الآخر الذى بناه الاسكندر فى جهة بلاد طنجة ، فان الماء حمله فى صدره ، واحتفر ما خلفه من الأرض [1] ، وما استقر ذلك منه حتى وصل إلى

متوغلا فى القدم أو خبراً أحاطت به الظلم نسبوه إلى الاسكندر أو إلى هرقل أو إلى العمالقة أو إلى الجن وهلم جرا .

(١) علماء الجيولوجية يذهبون إلى أن إتصال البحر المحيط بالبحر المتوسط كان نتيجة زلازل ونوازل طبيعية بها الله تعالى مرج البحرين يلتقيان وإن ذلك لم يكن من عهد شديد التوغل فى القدم بالنسبة إلى الادوار الجيولوجية وعليه فتكون حكاية الاسكندر وفتحه بحر الزقاق ليمنع الغارات بين أهل السوس وأهل الاندلس هى من جملة الخرافات التى يروى مثلها فى كل مكان عن الاسكندر ولو كان منع الغارات

الجبال من كلتى الناحيتين . وطول هذا المجاز المسمّى بالزقاق ١٣ ميلا ، وعلى طرفه من جهة المشرق المدينة المسماة بالجزيرة الخضراء ، وعلى طرفه من ناحية المغرب المدينة المسماة بجزيرة طريف . ويقابل جزيرة طريف فى الضفة الثانية من البحر مرسى القصر المنسوب لمصمودة ، ويقابل الجزيرة الخضراء فى تلك العدوة مدينة سبتة . وعرض البحر بين سبتة والجزيرة الخضراء ١٨ ميلا ، وعرض البحر بين جزيرة طريف وقصر مصمودة ١٣ ميلا وهذا البحر فى كل يوم وليلة يجزر مرتين ، ويمتلئ مرتين ، فعلا دائماً ، ذلك تقدير العزيز الحكيم .

وأما على ضفة البحر الكبير من المدن الواقعة فى هذا البحر المرسوم فهى « طنجة » و « سبتة » و « نكور » و « بادس » و « المزمة » و « مليلة » و « هُنَين » و « بنو وزّار » و « وهران » و « مستغانم » فأما مدينة سبتة فهى تقابل الجزيرة الخضراء ، وهى سبعة أجبل صغار متصلة بعضها ببعض معمورة ، طولها من المغرب إلى المشرق نحو ميل ، ويتصل بها من جهة المغرب ، وعلى ميلين منها ، جبل موسى وهذا الجبل منسوب لموسى بن نصير ، وهو الذى كان على لديه افتتاح الأندلس فى صدر الإسلام ، وتجاوره جنات و بساتين وأشجار وفواكه كثيرة ، وقصب سكر ، وأترجّ يتجهز به إلى ما جاور سبتة من البلاد ، لكثرة الفواكه بها . ويسمّى هذا المكان الذى جمع هذا كله (بليونُش) (١) . وبهذا الموضع مياه جارية ، وعيون

والحروب بين الشعوب يقتضى أن يحال بين الفريقين المتغاورين ببحر لامتلأت كرة الارض ترعا وخلجاً وما الناس بعد ذلك يبالغى مرادهم من السلام لانه قد يغير بعضهم على بعض بالسفن وكم من أمة أغارت على أمة أخرى وبينهما أبحر محيطة وأبعاد لايكاد يتصورها العقل فالحادث الذى رووه عن الاسكندر هو غريب ، وأغرب منه ذلك التعليل الذى جعلوا وصل ما بين البحرين من أجله

(١) مما أرويه عن بليونش هذه أنها جنة غناء ولكن طريقها فى غاية الوعورة ولهذا قال أحدهم :

بليونش جنة ولكن طريقها يقطع النياطا
كجنة الخلد لا يراها إلا الذى جاوز الصراطا

مطردة ، وخصب زائد ، ويلي المدينة من جهة المشرق جبل عال يسمى « جبل المُنية »[1] وأعلاه بسيط ، وعلى أعلاه سور بناه محمد بن أبي عامر عند ما جاز اليها من الأندلس وأراد أن ينقل المدينة إلى أعلى هذا الجبل فمات عند فراغه من بنيان أسوارها ، وعجز أهل سبتة عن الانتقال إلى هذه المدينة المسماة بالمُنية ، فمكثوا فى مدينتهم ، وبقيت المنية خالية ، وأسوارها قائمة ، وقد نبت حطب الشعّراء فيها . وفى وسط المدينة بأعلى الجبل عين ماء لطيفة لكنها لا تجفّ البتة ، وهذه الأسوار التى تحيط بمدينة المنية تظهر من عُدوة الأندلس لشدة بياضها . ومدينة سبتة سميت بهذا الاسم لأنها جزيرة منقطعة ، والبحر يطيف بها من جميع جهاتها ، إلا من ناحية المغرب ، فان البحر يكاد يلتقى بعضه ببعض هناك ، ولا يبقى بينهما إلا أقل من رمية سهم ، واسم البحر الذى يليها شمالا بحر الزقاق ، والبحر الآخر الذى يليها فى جهة

(١) دوزى يقرأ هذه الجملة « جبل المينا » لا جبل المنية ونحن نقول لا مانع من ذلك ولكن يكثر تسمية المصايف والمرتبعات عند العرب باسم « منية » بالكسر وفى مصر من هذه المنيات ما لا يحصى منها ما هو بالمفرد ومنها ما هو بالتثنية ومنها ماهو بالجمع . وقد عد الزبيدى فى التاج نحواً من مائة وتسعين منية بالمفرد . وزيادة على ثلاثين بالتثنية هكذا : منيتا طاهر وأمامه . منيتا فاتك ومزاح ، منيتا السويد والطبل الخ وعد عدة منيات أو منيات بالجمع هكذا : منى مرزوق ، منى جعفر ، منى مغنوج ، منى غصين الخ وكل هذا فى بر مصر . وفى الشام بعض « منيات » أيضا منها « المنى » بقرب طرابلس الشام وهى تلفظ بالاماله على عادة الشام . وفى الاندلس عدة منى ذكر منها الزبيدى منية عجب ، منها خلف بن سعيد المتوفى سنة ٣٠٥ ولم يذكر غيرها . ولكن لافى بروفنسال فى كتابه « اسبانية المسلمة فى القرن العاشر » قال إن بالاندلس عدة أماكن اسم الواحد منها « منية » وإنما يلفظها الاندلسيون بالضم ويظن أن أصل اللفظة يونانى ثم دخلت فى لغة القبط بمعنى ميناء أو محط أو دير . وكان فى قرطبة « منية الناعورة » للخليفة الناصر وهو متنزه معروف و « منية عبد الله » و « منية المغيرة » و « منية عجب » ولم يذكر ياقوت من منى الاندلس سوى منية عجب ولم يذكر من منى مصر إلا منية أبى الخصيب وبضع عشرة أخرى

الجنوب يقال له بحر بسول ، وهو مرسى حسن يُرسَى فيه فيُكِنّ من كل ريح .

وبمدينة سبتة مصايد للحوت ولايعدلها بلد فى إصابة الحوت وجلبه ، ويصاد بها من السمك نحو من مائة نوع ، ويصاد بها السمك المسمى بالتنّين الكبير ، وصيدهم له يكون زرقاً بالرماح وهذه الرماح لها فى أسنتها أجنحة بارزة تنشب فى الحوت ولا تخرج ، وفى أطراف عصيها شرائط القنّب الطوال ، ولهم فى ذلك دربة وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين .

ويصاد بمدينة سبتة شجر المرجان الذى لايعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار . وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكّه وصنعه خرزاً وثقبه وتنظيمه ، ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد ، وأكثر ما يحمل إلى « غانة » وجميع بلاد السودان ، لأنه فى تلك البلاد يستعمل كثيراً . ومن مدينة سبتة إلى قصر مصمودة فى الغرب ١٣ ميلا وهو حصن كبير على ضفة البحر ، تنشأ به المراكب والحراريق التى يسافر فيها إلى بلاد الأندلس ، وهي على رأس المجاز الأقرب إلى ديار الأندلس ومن قصر مصمودة إلى مدينة طنجة غرباً ٢٠ ميلا . ومدينة طنجة قديمة أزلية ، وأرضها منسوبة اليها ، وهى على جبل عال مطل على البحر ، وسكنى أهلها منه فى سند الجبل إلى ضفة [1] البحر ، وهى مدينة حسنة لها أسواق وصناع ، وفعلة وبها انشاء المراكب ، وبها أقلاع وحط ، وهى على أرض متصلة بالبر فيها مزارع وغلات وسكانها برابر ينسبون إلى صنهاجة . ومن مدينة طنجة ينعطف البحر المحيط الأعظم آخذاً فى جهة الجنوب إلى أرض « تشمّسْ » وتشمّس كانت مدينة كبيرة ذات سور من حجارة يشرف على نهر « سفْدر » وبينها وبين البحر نحو ميل ، ولها قرى عامرة باصناف من البربر ، وقد أفنتهم الفتنة وأبادتهم الحروب المتوالية عليهم . ومن تشمّس إلى قصر عبد الكريم ، وهو على مقربة من البحر ، وبينه وبين طنجه ،

(١) سند الجبل ما قابلك منه وعلا عن السفح فأما الآن فقد ارتفعت طنجة إلى أعلى الجبل وهى مدينة حسنة كما قال ، عمرها الله بأهلها

يومان ، وقصر عبد الكريم مدينة صغيرة على ضفاف نهر « لكس » وبها أسواق على قدرها يباع بها ويشترى ، والأرزاق بها كثيرة والرخاء بها شامل . ومن مدينة طنجة إلى مدينة « أزيلا » مرحلة خفيفة جداً ، وهى مدينة صغيرة جداً ، وما بقى منها الآن إلا نزر يسير ، وفى أرضها أسواق قريبة . وأزيلا هذه ، ويقال أصيلا ، عليها سور . وهى متعلقة على رأس الخليج المسمى بالزقاق ، وشرب أهلها من مياه الآبار . وعلى مقربة منها في طريق القصر مصب نهر سفدد ، وهو نهر كبير عذب تدخله المراكب ، ومنه يشرب أهل تشمس التى تقدم ذكرها . وهذا الوادى أصله من ماءين يخرج أحدهما من بلد « دنهاجة » من جَبَل « البصرة » والماء الثانى من بلد كتامة ، ثم يلتقيان ، فيكون منهما نهر كبير . وفى هذا النهر يركب أهل البصرة فى مراكبهم بأمتعتهم حتى يصلوا البحر فيسيروا فيه حيث شاءوا . وبين تشمس والبصرة دون المرحلة على الظهر . والبصرة [1] كانت مدينة مقتصدة عليها سور

(١) بعد أن ذكر ياقوت البصرة المشرقية فى معجم البلدان عاد فذكر البصرة المغربية فقال : بلد فى المغرب فى أقصاه قرب السوس خربت . قال ابن حوقل وهو يذكر مدن المغرب من بلاد البربر : والبصرة مدينة مقتصدة عليها سور ليس بالمنيع ولها عيون خارجها عليها بساتين يسيرة وأهلها ينسبون إلى السلامة والخير والجمال وطول القامة واعتدال الخلق وبينها وبين المدينة المعروفة بالأقلام أقل من مرحلة وبينها وبين مدينة يقال لها تشمس أقل من مرحلة أيضاً . ولما ذكر المدن التى على البحر قال : ثم تعطف على البحر المحيط يساراً وعليه من المدن قريبة منه وبعيدة « جرماية » و « ساوران » و « الحجبى » على نحر البحر ودونها فى البر مشرقا « الأقلام » ثم البصرة وقال البشارى : البصرة مدينة بالمغرب كبيرة كانت عامرة وقد خربت وكانت جليلة . وكان قول البشارى هذا فى سنة ٣٧٨ . وقرأت فى كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى الأندلسى : بين فاس والبصرة أربعة أيام قال : والبصرة مدينة كبيرة وتعرف بصرة الكتان كانوا يتبايعون فى بدء أمرها فى جميع تجاراتهم بالكتان وتعرف أيضاً بالحمراء لأنها حمراء التربة وسورها مبنى بالحجارة والطوب وهى بين شرفين ولها

ليس بالحصين ، ولها قرى وعمارات وغلات ، وأكثر غلاتها القطن والقمح ، وسائر الحبوب بها كثيرة ، وهى عامرة الجهات ، وهواؤها معتدل ، وأهلها أعفاء ، ولهم جمال وحسن أدب . وعلى نحو ١٨ ميلا مدينة « باب أقلام »(١) وهى من بناء عبدالله بن ادريس ، بين جبال وشعار متصلة ، والمدخل اليها من مكان واحد . وبالجملة فانها خصيبة كثيرة المياه والفواكه ، وعلى مقربة منها مدينة « قرت » وهى على سفح جبل منيع ، لا سور عليها ، ولها مياه كثيرة وعمارات متصلة . وأكثر زراعاتهم القمح والشعير وأصناف الحبوب . وكل هذه البلاد منسوبة إلى بلاد طنجة ومحسوبة منها . وفى جنوب البصرة على نهر « سبو » الآتى من ناحية فاس قرية كبيرة كالمدينة الصغيرة يقال لها « ماسنة » وكانت قبل هذا مدينة لها سور وأسواق وهى الآن خراب . وعلى مقربة منها مدينة « الحجر » وكانت مدينة محدثة لآل ادريس ، وهى على جبل شامخ الذرى ، حصينة منيعة ، لا يصل أحد اليها إلا من طريق واحد ، والطريق صعب المجاز ، يسلكه الرجل بعد الرجل ، وهى خصيبة رفهة كثيرة الخيرات ، وماؤها فيها ، ولها بساتين وعمارات ، ومن مدينة سبتة

عشرة أبواب وماؤها زعاق وشرب أهلها من بئر عذبة على باب المدينة وفى بساتينها آبار عذبة ونساء هذه البصرة مخصوصات بالجمال الفائق والحسن الرائق ليس بأرض المغرب أجمل منهن . قال أحمد بن فتح المعروف بابن الخزاز التيهرتى يمدح أبا العيش عيسى بن ابراهيم بن القاسم .

قبح الاله الدهر إلا قينـــة بصرية فى حمرة وبيـــاض
الخمر فى لحظاتهـــا والورد فى وجناتها والكشح غير مفاض
فى شكل مرجى ونسك مهاجر وعفاف سنى وسمت إباض
تيهرت ، أنت خليـــة وبرقة عوضت منك ببصرة فاعتاضى
لا عذر للحمراء فى كلفى بهـــا أو تستفيض بأبحر وحياض

قال : ومدينة البصرة مستحدثة أسست فى الوقت الذى أسست فيه أصيلة أو قريبا منه

(١) ورد ذكرها فى نقلنا عن ياقوت هنا

السابق ذكرها بين جنوب وشرق إلى حصن « تطاون » مرحلة صغيرة ، وهو حصن في بسيط الأرض ، و بينه و بين البحر الشامي خمسة أميال . وتسكنه قبيلة من البربر تسمى مَجَكْسَة [1] . ومنه إلى « أنزلان » وهو مرسى فيه عمارة ، نحو من ١٥ ميلا وأنزلان مرسى عامر ، وهو أول بلاد غمارة . و بلاد غمارة جبال متصلة بعضها ببعض كثيرة الشجر والغياض وطولها نحو من ثلاثة أيام . و يتصل بها من ناحية الجنوب جبال « الكواكب » وهي أيضاً جبال عامرة كثيرة الخصب ، وتمتد في البرية مسيرة ثلاثة أيام حتى تنتهي قرب مدينة فاس . وكان يسكنها غمارة إلى أن طهر الله منهم الأرض ، وأفنى جمعهم ، وخرب ديارهم ، لكثرة ذنوبهم ، وضعف اسلامهم وكثرة جرأتهم ، و إصرارهم على الزنا المباح ، والموار بة الدائمة ، وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق ، وذلك من الله جزاء الظالمين . و بين سبتة وفاس على طريق « زجّان » ثمانية أيام . وعلى مقربة من انزلان حصن « تقساس » على البحر ، و بينهما نصف يوم ، وهو حصن معمور في غمارة ، لكن أهله بينهم و بين غمارة حرب دائمة ، ومن تقساس إلى قصر « تاركّا » وله مرسى . ومنه إلى حصن « مسيكاسه » نصف يوم ، وهو لغمارة . ومن مسيكاسة إلى حصن « كركال » ١٥ ميلا ، وهو أيضاً لغمارة . ومن حصن كركال إلى مدينة « بادس » مقدار نصف يوم ، و بادس مدينة متحضّرة فيها أسواق وصناعات قلائل ، وغماره يلجأون اليها في حوائجهم ، وهي آخر بلاد غماره ، و يتصل بها هناك طرف الجبل ، و ينتهي طرفه الآخر في جهة الجنوب ، إلى أن يكون بينه و بين بلد بني « تاوده » أر بعة أميال ، وكان بهذا الجبل قوم من أهل « مزكلدة » أهل جرأة وسفاهة وتجاسر على من جاورهم ، فأبادهم سيف الفتنة ، وأراح الله منهم . ومن مدينة بادس إلى مرسى « بوزكور » ٢٠ ميلا ،

(١) كان هذا في القرن السادس للهجرة وهو القرن الذي عاش فيه الشريف الادريسي ولكن في القرن العاشر للهجرة عمرت تطاون بالأندلسيين بعد جلائهم الأخير وصارت من المدن الكبار المعدودة من القواعد زادها الله من فضله .

وكانت مدينة فيما سلف لكنها خربت ولم يبق لها رسم ، وتسمى فى كتب التواريخ « نكور » وبين بوزكور وبادس جبل متصل يُعرف بالأجراف ، ليس فيه مرسى . ومن بوزكور إلى المزمّة ٢٠ ميلا ، وكانت به قرية عامرة ومرسى توسق المراكب منه . ومن المزمّة إلى واد بقربها ، ومنه إلى طرف « ثغلال » ١٢ ميلا . وهذا الطرف يدخل فى البحر كثيراً ، ومنه إلى مرسى « كرط » ٢٠ ميلا وبشرقى كرط واد يأتى من جهة « صاع » ومن كرط إلى طرف جون داخل فى البحر ٢٠ ميلا ، ومن كرط إلى مدينة « مليلة » في البحر ١٢ ميلا ، وفى البر ٢٠ ميلا .

ومدينة مليلة مدينة حسنة متوسطة ذات سور منيع وحال حسنة على البحر ، وكان لها قبل هذا عمارات متصلة وزراعات كثيرة، ولها بئر فيها عين أزلية كثيرة الماء ومنها شربهم، ويحيط بها من قبائل البربر بطون بطوية .

ومن مليلة إلى مصب الوادى الذى يأتى من « آقرسيف » ٢٠ ميلا ، وأمام مصب هذا النهر جزيرة صغيرة . ويقابل هذا الموضع من البرية مدينة « جراو » ومن مصب وادى آقرسيف إلى مرسى « تافركنيت » على البحر ، وعليه حصن منيع صغير ٤٠ ميلا . ومن تافركنيت إلى حصن تابحريت ثمانية أميال ، وهو حصن حصين ، حسن عامر آهل وله مرسى مقصود . ومن تابحريت إلى « هُنين » على البحر ١١ ميلا ومنها إلى « تلمسان » فى البر ٤٠ ميلا . وفيما بينهما مدينة « ندرومة » وهى مدينة كبيرة عامرة آهلة ، ذات سور وسوق ، موضعها فى سند ، ولها مزارع ولها واد يجري فى شرقيها ، وعليه بساتين وجنات وعمارة وسقى كثير .

وهنين مدينة حسنة صغيرة فى نحر البحر ، وهى عامرة ، عليها سور متقن وأسواق وبيع وشراء ، وخارجها زراعات كثيرة ، وعمارات متصلة . ومن هنين على الساحل إلى مرسى « الوردانية » ستة أميال ، ومنها إلى جزيرة « القشقار » ثمانية أميال ، ومنها إلى جزيرة « إرشقول » ويروى « ارجكون» وكانت فيما سلف حصناً عامراً له مرسى وبادية وسعة فى الماشية والأموال السائمة ، ومرساها فى جزيرة فيها

مياه ومواجل كثيرة للمراكب ، وهي جزيرة مسكونة ، ويصب بحذائها نهر مَلَوية ومن مصب الوادى إلى حصن « أسلان » ستة أميال على البحر ، ومنه إلى طرف خارج فى البحر ٢٠ ميلا ، ويقابل الطرف فى البحر جزيرة الغنم ، وبين جرائز الغنم وأسَلان ١٢ ميلا . ومن جزائر الغنم إلى بنى وزّار ١٧ ميلا ، وبنو وزّار حصن منيع فى جبل على البحر ، ومنه إلى « الدفالى » وهو طرف خارج فى البحر ١٢ ميلا ، ومن طرف الدفالى إلى طرف « الحرشة » ١٢ ميلا ، ومنه إلى « وهران » ١٢ ميلا . وقد ذكرنا وهران وأحوالها فيما صدر من ذكر الأقليم الثالث ، والله المستعان

فلنرجع الآن إلى ذكر الأندلس ووصف بلادها ، ونذكر طرقاتها ، وموضوع جهاتها ، ومقتضى حالاتها ، ومبادىء أوديتها ، ومواقعها من البحر ، ومشهور جبالها وعجائب بقعها ، ونأتى من ذلك بما يجب بعون الله تعالى فنقول :

أما الأندلس فى ذاتها فشكل مثلث يحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث ، فجنوبها يحيط به البحر الشامى ، وغربها يحيط به البحر المظلم ، وشمالها يحيط به بحر الانقليشيين[١] من الروم . والأندلس طولها من كنيسة الغراب التى على البحر المظلم إلى الجبل المسمى بهيكل الزهرة ألف ميل ومائة ميل ، وعرضها من كنيسة « شنت ياقوب »[٢] التي على أنف بحر الانقليشيين إلى مدينة المرية التى على بحر الشام ستمائة ميل .

وجزيرة الأندلس مقسومة من وسطها فى الطول بجبل طويل يسمى الشارات[٣] وفى جنوب هذا الجبل تأتى مدينة طليطلة . ومدينة طليطلة مركز لجميع بلاد الأندلس

(١) يريد بالانقليش أو بالانقليشيين الانكليز وكان من عادة العرب أن يقلبوا السين والزاى شيناً فى أكثر الأحيان .

(٢) العرب يقولون شنت ياقوب أو شنت ياقب والاسبان يقولون « سانتياغو دو كومبستله » Santiago De Compostela وهى أقدس كنيسة عند الاسبانيول وفيها قبر يعقوب أحد الحواريين .

(٣) Sierra وقد صارت الشارات تفيد معنى سلسلة جبال .

وذلك أن منها إلى مدينة قرطبة ، بين غرب وجنوب ، تسع مراحل ، ومنها إلى لشبونة غرباً تسع مراحل ، ومن طليطلة إلى شنت ياقوب على بحر الانقليشيين تسع

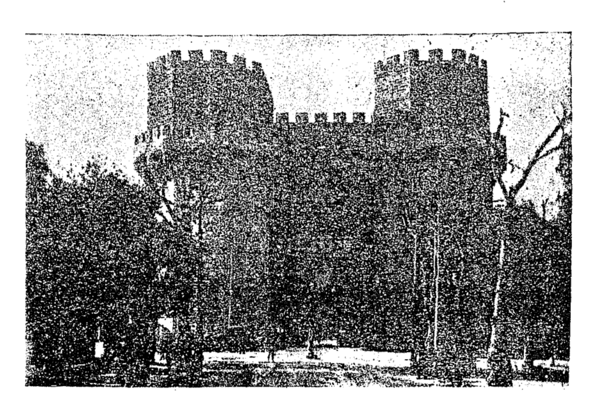


مدينة شانت ياقب أقدس بلدة عند الاسبانيين



متنزه في شانت ياقب

مراحل ، ومنها إلى « جاقة » [1] شرقا تسع مراحل ، ومنها إلى مدينة بلنسية ، بين شرق وجنوب ، تسع مراحل ، ومنها أيضاً إلى مدينة المرية على البحر الشامى تسع مراحل .



برج سرافوس (بلنسية)

ومدينة طليطلة كانت فى أيام الروم مدينة الملك ومداراً لولاتها ، وبها وجدت مائدة سليمان بن داود ، مع جملة ذخائر يطول ذكرها · وما خلف الجبل المسمى بالشارات فى جهة الجنوب يسمى اشبانية ، وما خلف الجبل فى جهة الشمال يسمى قشتالة . ومدينة طليطلة فى وقتنا هذا يسكنها سلطان الروم القشتاليين .

(١) جاقة من بلاد سرقسطة بلدة فيها اليوم ٥٠٠٠ نسمة من السكان وهى مركز ناحية « سوبرارى » ، ولها سور يرجع تاريخ بنائه إلى القرن العاشر وقد أنشىء خط حديدى بين جاقة Jaca واولورون oloron يختصر بنحو مائة كيلو متر المسافة بين باريز ومجريط .



متنزه النخل (بلنسية)

والأندلس المسماة اشبانية أقاليم عدة ، ورساتيق جملة ، وفى كل إقليم منها عدة مدن نريد أن نأتى بذكرها مدينة مدينة بحول الله تعالى . ولنبدأ الآن منها باقليم البحيرة [١] وهو إقليم مبدأه من البحر المظلم ، ويمرّ مع البحر الشامىّ ، وفيه من البلاد جزيرة طريف ، والجزيرة الخضراء ، وجزيرة قادس ، وحصن « اركش » [٢] ، و« بكة » [٣] و « شريش » [٤] ، و « طشّانة » [٥] ، و « مدينة ابن السليم » [٦] ، وحصون كثيرة كالمدن عامرة ، سنأتى بها فى موضوعها

ويتلوه اقليم « شذونة » [٧] ، وهو من اقليم البحيرة شمالا ، وفيه من المدن

---

(١) Le Lago de la janda (٢) Arcos (٣) Becca
(٤) Jeres (٥) Tocina (٦) Grazalema وأظن اسمها محرفاً عن « قرية سالم » ، وهى الآن قرية كبيرة فى برية تبعد عن رندة ٢٥ كيلو متراً إلى الجنوب وقد زرتها بالسيارة لما كنت فى رندة (٧) Sidonia

مدينة « اشبيلية » [١] ، ومدينة « قرمونة » [٢] ، و« غلسانة » [٣] ، وحصون كثيرة . ويتلوه اقليم الشرف ، وهو ما بين اشبيلية و « لبلة » [٤] والبحر المظلم ، وفيه من المعاقل « حصن القصر » [٥] ومدينة لبلة و « ولبة » [٦] وجزيرة « شلطيش » [٧] وجبل العيون . ثم يليه اقليم « الكنبانية » [٨] وفيه من المدن قرطبة و « الزهراء » [٩] و « استجة » [١٠] و « بيانة » [١١] و « وقبرة » [١٢] و « اليسانة » [١٣] وبه جملة حصون كبار سنذكرها بعد هذا . ويلي اقليم الكنبانية اقليم « اشونة » [١٤] وفيه حصون عامرة كالمدن ، منها لورقة واشونة وهو اقليم صغير . ويليه مع الجنوب اقليم « رية » [١٥] وفيه من المدن مدينة مالقة و « ارشذونة » [١٦] و « مربلّة » [١٧] و « بُبَشطر » [١٨] و « وليسكنصاد» [١٩] وغير

---

(١) Sevilla (٢) Carmona بلدة ذات موقع نادر فى الدنيا مبنية على جبل مشرف على بسائط لا ينتهى البصر إلى مداها وقد زرتها بالسيارة من اشبيلية

(٣) غلسانه هى اليوم عند الاسبانيول médina Sidonia (٤) niebla

(٥) Hisnalcasar (٦) Hulba (٧) Saltes (٨) La campina

(٩) medina Az-zahra (١٠) Ecija (١١) Baena

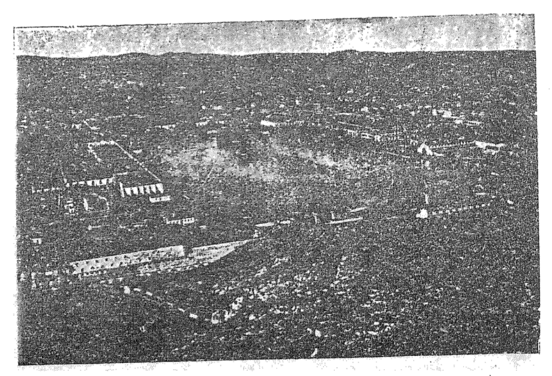
(١٢) cabra (١٣) Lucina (١٤) usona (١٥) Rio

وليعلم القارىء أننا التزمنا ترجمة الأعلام العربية بما يقابلها من الأسماء الاسبانيولية وترجمة الأعلام الاسبانية بما كان يقوله لها العرب وتحرينا فى ذلك جهد الطاقة ولم نبق فى قوس البحث منزع ظفر حتى حققنا كل هذه الأسماء إلا ما ندر فان معرفتها بلسانى العرب والافرنج شرط فى فهم جغرافية الأندلس وتاريخها وبدون ذلك لا تتحصل للقارىء صورة تامة عنها فى ذهنه ولم نكتف بترجمة الأعلام من العربى إلى الاسبانيولى ومن الاسبانيولى إلى العربى مرة واحدة بل ربما كتبنا اسم المكان الواحد باللغتين مرتين وثلاثاً لا نمل من ذلك حتى يرسخ فى ذهن القارىء بالتكرار وإلا فانه لا يحفظ هذه الأعلام المتبادلة من قرأها مرة واحدة .

(١٦) Archidona وقد يكتبها العرب بالجيم (١٧) marbella

(١٨) Bobachtero (١٩) هذه اللفظة لم ندر حقيقتها

هذه من الحصون . و يتلو هذا الاقليم « البشارات » [١] وفيه من المدن «جيّان» [٢] وجملة حصون وقرى كثيرة تشفّ على ستمائة قرية ، يتخذ بها الحرير . ثم اقليم « بجانة » [٣] وفيه من المدن « المرية » [٤] و « برجة » [٥] وحصون كثيرة منها « مرشانة » [٦] و « برشانة » [٧] و « طرجالة » [٨] و « بالش » [٩] ويتلوه



صورة مرسى قرطاجنة

فى جهة الجنوب اقليم « البيرة » [١٠] وفيه من المدن « اغرناطة » [١١] و « وادى آش [١٢] و « المنكّب » [١٣] وحصون وقرى كثيرة . ومنها إقليم « فرّيرة » [١٤]

---

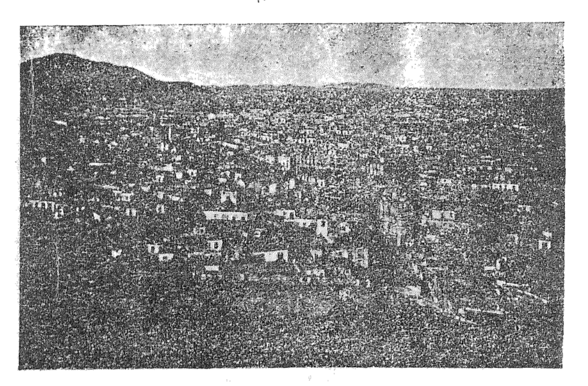
(١) Sierra (٢) jaen واصل اسمها فى زمن الرومان usiense وكان القشتاليون يقولون لها Gien (٣) Béchina (٤) Almeria (٥) Berja

(٦) merchana هى من مقاطعة بجانة وقد درست ولا تزال منها بقايا فى دسكرة يقال لها « ترك » Terque (٧) برشانة Purchina هى أيضا من مقاطعة بجانة

(٨) Targela (٩) velez (١٠) vera (١١) Grenade

(١٢) Guadix (١٣) Almonacar (١٤) Ferreira

وهو يتصل باقليم البشارات ، وفيه مدينة « بسطة »[١] وحصن «تشكر»[٢] الموصوف بالمنعة . وفيه حصون كثيرة وسنأتي بها بعد . ثم كورة « تدمير »[٣] وفيها من المدن « مرسيه »[٤] و « اوريوله »[٥] و « قرطاجنة »[٦] ، و « لورقه »[٧] و « مولة »[٨] و «جنجالة»[٩] ويتصل بكورة« كونـكة »[١٠] وفيها «الش»[١١] و « القنت»[١٢] و « شقورة »[١٣] ويليه اقليم « ارغيرة » (؟) وفيه من البلاد



مدينة قرطاجنة

« شاطبة»[١٤] و « شقر »[١٥] و « دانية »[١٦] وفيه حصون كثيرة . ويليه اقليم مرباطر وفيه من البلاد « بلنسية »[١٧] و « مرباطر »[١٨] و« بُريانة »[١٩] وحصون

---

(١) Baza (٢) Tixar (٣) Todmir (٤) Murcie
(٥) Orihuela (٦) Cartagéne (٧) Lorca (٨) Mola
(٩) Chinchilla (١٠) Cuenca (١١) Elche (١٢) Alicante
(١٣) Segura (١٤) Chativa أو Jatiba (١٥) Se gur
(١٦) Denia (١٧) Valence (١٨) Murviedro (١٩) Brienne

كثيرة . ويليه مع الجوف إقليم « القواطم » [1] وفيه من البلاد « الفَنْت » [2] و « شنت [3] ماريه » المنسوبة لابن رزين . ويتصل به إقليم « الولجة » [4] وفيه من البلاد « سرتة » [5] و « قلعة رباح » [6] و « فتة » [7] ويلي هذا الاقليم اقليم « البلالطة » [8] . وفيه حصون كثيرة منها ومن أكبرها « بُطروش » [9]



الساقية العتيقة (الش)

و « غافق » [10] وحصن ابن هارون (؟) وغيرها دونها فى الكبر . ويلي هذا الاقليم غربا اقليم « الفِقر » (؟) وفيه من البلاد « شنت [11] ماريه » و « مارتلة » [12] و « شلب » [13]

---

(١) دوزى يظن أن الاسم محرف بالنسخ وأن أصله « القواسم » ونحن نرجح أنه محرف عن « القواطن » وسيأتى الكلام على ذلك (٢) puente

(٣) Albarracine (٤) لم ندر أهو عربى أم معرب ؟ وهى Walaja

(٥) Zarruta (٦) Calatrava (٧) Puenta (٨) البلالطة أى البلوطين نسبة إلى لحص البلوط (٩) Pedroche (١٠) Gafic

(١١) Santa Maria (١٢) Martela (١٣) Silves

وحصون كثيرة وقرى . ويلى هذا الاقليم اقليم « القصر » [١] وفيه القصر المنسوب « لأبي دانس » وفيه «يابرة» [٢] و « بطليوس » [٣] و « شريشة » [٤] و« ماردة » [٥] و « قنطرة [٦] السيف » و « قورية » [٧]. و يليه اقليم البلاط وفيه مدينة« البلاط » [٨]



غيضة من غياض الش

ومدلين [٩] . ويلى هذا الاقليم إقليم بلاطه [١٠] وفيه « شنترين » و « لشبونة » و « شنترة » ويليه إقليم الشارات وفيه « طلبيرة » [١١] و « طليطلة » [١٢]

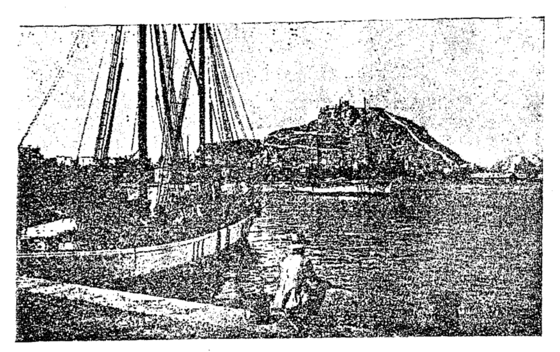
---

(١) Cacer (٢) Evora (٣) Badjoz (٤) Xerex de Estramador وهى عند العرب شريشة إلا أنها غير شريش التى منها أبو العباس الشريشى شارح المقامات الحريرية (٥) Merida (٦) Alcantara

(٧) Coria (٨) Albalat

(٩) Medellin (١٠) ـورة البلاطة فى أيام العرب كانت تشتمل على شترين Santarem واشبونة Lisbonne أو Lisboa وشنترة Cintra ويقال لها فى هذه الأيام « استرمادوره » البرتغالية (١١) Talavera (١٢) Toledo

و « ومجريط » [١] و « الفهمين » [٢] و « وادى الحجارة » [٣] « اقليش » [٤]
و « وبذة » [٥] ويليه أيضاً إقليم « أرنيط » [٦] وفيه من البلاد « قلعة أيوب » [٧]
وقلعة « دروقة » [٨] ومدينة « سرقسطة » [٩] و « وشقة » [١٠] و « تطيلة » [١١]
ثم يليه إقليم الزيتون وفيه « جاقة » [١٢] و « لاردة » [١٣] و « مكناسة » [١٤]
و « افراغه » [١٥] ويليه إقليم «البرتات» [١٦] وفيه «طرطوشة» [١٧] و«طركونة» [١٨]



مرسى القنت

(١) Madrid (٢) بلدة من أعمال طليطله اسمها عربى منسوبة إلى بنى فهم على ما ورد فى معجم البلدان لياقوت وقد ذكرنا ما قال فى موضع آخر
(٣) Guadalajara وقد يقول لها العرب مدينة الفرج محركة (٤) Aclés
(٥) Huete (٦) أظن أن أرنيط هى التى يقال لها Arenedo
(٧) Calatayud (٨) Daroca (٩) Saragosse
(١٠) Huesca (١١) Tudela (١٢) Jaca (١٣) Lerida
(١٤) Méquinensa (١٥) Fraguas (١٦) جبال البرتات هى جبال البرانس أو جبال البيرانه (١٧) Tortosa (١٨) Tarracona



متنزه راميرو (القنت)

و « برشلونة » [١] ويلى هذا الاقليم غرباً اقليم « مرمرية » [٢] وفيه حصون خالية ، ومما يلى البحر حصن « طشكره » [٣] و « كشتالى » [٤] و « كتندة » [٥] فهذه كلها أقاليم اشبانية المسمى جملتها بالأندلس . فأما جزيرة « طريف » [٦] فهى على البحر الشامى ، فى أول المجاز المسمى ، بالزقاق ، ويتصل غربيها ببحر الظلمة . وهى مدينة صغيرة ، عليها سور تراب ، ويشقها نهر صغير ، وبها أسواق وفنادق وحمامات ، وأمامها جزيرتان صغيرتان تسمى احداهما « القنتير » [٧] وهما على مقربة من البر . ومن جزيرة طريف إلى الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلا ، تخرج من الجزيرة إلى « وادى [٨] النساء » وهو نهر جار ، ومنه إلى الجزيرة [٩] الخضراء

(١) Barcelone (٢) Marmaria (٣) Tixar
(٤) Castello (٥) Cutenda (٦) Tariffa
(٧) لم نعرف اسمها بالاسبانى (٨) الاسبانيول يقولون Guadannasi وذلك أنهم حكوا فى لفظها العرب وهؤلاء فى الأندلس كانوا يميلون الألف كثيراً
(٩) الاسبانيول بحسب عادتهم من قلب الجيم خاء والسين والزاى ثاء يقولون

وهى مدينة متحضرة لها سور حجارة مفرّغ بالجيّار ، ولها ثلاثة أبواب ودار صناعة داخل المدينة ، ويشقها نهر يسمى نهر العسل ، وهو حلو عذب ، ومنه شرب أهل المدينة ، ولهم على هذا النهر بساتين وجنّات بكلتى ضفتيه معاً . وبالجزيرة الخضراء إنشاء وإقلاع وحط ، وبينها وبين مدينة سبتة مجاز البحر ، وعرضه هنالك ثمانية عشر ميلا . وأمام المدينة جزيرة تعرف بجزيرة « أم حكيم » وبها أمر عجيب ، وهو أن فيها بئراً عميقة كثيرة الماء حلوة ، والجزيرة فى ذاتها صغيرة مستوية السطح ، يكاد البحر يركبها[1] والجزيرة الخضراء أول مدينة افتتحت من الأندلس فى صدر الاسلام ، وذلك فى سنة ٩٠ من الهجرة ، وافتتحها موسى بن نصير من قبل المروانيين ، ومعه طارق بن عبد الله بن ونموا الزناتى ، ومعه قبائل البربر . فكانت هذه الجزيرة أول مدينة افتتحت فى ذلك الوقت ، وبها على باب البحر مسجد يسمى بمسجد الرايات ، ويقال إن هناك اجتمعت رايات القوم للرأى ، وكان وصولهم اليها من جبل طارق وإنما سمى جبل طارق لأن طارق[2] بن عبد الله بن ونموا الزناتى لما جاز بمن معه من البرابر

« الخثيرة » ، وقد ذكرت فى إحدى مقالاتى عن رحلتى إلى الأندلس أن للقوم رغبة شديدة فى حرف « الخاء » ، ثم طالعت بعد ذلك كتاب « السفر إلى المؤتمر » لصديق العلامة أحمد زكى باشا المصرى رحمه الله وفيه فصل عن رحلته إلى الأندلس سنة ١٨٩٣ فوجدته يقول فى صفحة ٣٨٧ ما يلى : « لاحظت دوران حرف الخاء فى غالب كلماتهم التى يكون فيها شين أو جيم أو سين بحيث لو سمعهم رجل من أهل المزاح لأستمنح السماح وقال أن لغة القوم تدور على حرف الخاء » قال : وقد سمعتهم يقولون « الخثيرا » فسألت فاعلمونى بأنها الجزيرة الخضراء » فقد توارد الخاطر مع الخاطر

(١) قد يوجد الماء الحلو أحيانا فى وسط البحر إذا انقشعت عنه موجة الماء الملح شرب منه ركاب السفن .

(٢) لا نعلم لماذا ينسب الشريف الادريسى طارق المنسوب إليه جبل الفتح بخلاف ماهو شائع ، فانه يجعله طارق بن عبد الله بن ونموا الزناتى والمشهور أن اسم أبيه زياد وأن عبد الله هو جده جاء فى « البيان المغرب فى أخبار المغرب » لابن

وتحصنوا بهذا الجبل ، أحس فى نفسه أن العرب لا تثق به ، فأراد أن يزيح ذلك عنه ، فأمر باحراق المراكب التى جاز فيها ، فتبرأ بذلك عما اتهم به .

وبين هذا الجبل والجزيرة الخضراء ستة أميال ، وهو جبل منقطع عن الجبال



صورة طراكونة من كتلونية

مستدير ، فى أسفله من جهة البحر كهوف ، وفيها مياه قاطرة جارية ، وبمقربة منه مرسى يعرف بمرسى الشجرة . ومن الجزيرة الخضراء إلى مدينة اشبيلية خمسة أيام . وكذلك من الجزيرة الخضراء إلى مدينة مالقة خمس مراحل خفاف ، وهى مائة ميل ومن الجزيرة الخضراء إلى مدينة اشبيلية طريقان طريق فى الماء ، وطريق فى البر ، فأما طريق الماء فمن الجزيرة الخضراء إلى الرمال فى البحر ، إلى موقع نهر «برباط»(١)

عذارى المراكشى الجزء الأول المطبوع فى « ليدن » بتصحيح المستشرق الشهير الهولاندى دوزى Dozy وذلك سنة ١٨٤٨ أن طارق هو ابن زياد بن عبد الله بن ولفو بن ودخوم بن نبرغاسن بن ولهاص بن يطومت بن نفزاوة . وأجمع مؤرخو العرب على أنه ابن زياد

(١) يقول دوزى فى ترجمة كلام الادريسى أن نهر برباط يمر بقرب الموضع المسمى اليوم Alola de los Gazules

٢٨ ميلا ، ثم إلى موقع نهر «بكة»(١) ستة أميال ، ثم إلى الحلق المسمى « شنت(٢) بيطر » ١٢ ميلا ، ثم إلى « القناطر »(٣) وهى تقابل جزيرة قادس ١٢ ميلا ، وبينهما مجاز سعته ستة أميال . ومن القناطر تصعد فى النهر إلى رابطة « روطة »(٤)

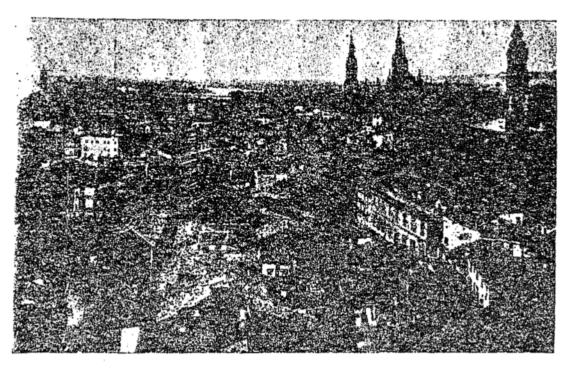


صورة طراكونة متنزة المحطة

٨ أميال ، ثم إلى « المساجد »(٥) ٦ أميال ثم إلى مرسى « طبرشانة »(٦) إلى « العطوف »(٧) إلى « قبطور »(٨) إلى « قبطال »(٩) . وقبطور وقبطال قريتان فى وسط النهر، ثم إلى جزيرة ينشتالة(١٠) ثم إلى الحصن الزهر(١١) إلى مدينة اشبيلية

(١) Becca وهى بقرب طرف الأغر (٢) Sancti petri
(٣) هى الجزائر التى يقال لها عند الاسبانيول Iles des lions
(٤) بلدة محصنة على جون قادس والاسبانيول يكتبونها هكذا : Rota
(٥) يقول الاسبان للمساجد San Locar ويقال إن أصلها Solucar وإنها محرفة عن Solis Lucos (٦) Tebugena (٧) لم نعلمه
(٨) Captor (٩) Cabtal (١٠) Jenechtelà
(١١) لم نعرف هل يسميه الأسبان باسمه العربى أم له عندهم اسم آخر ؟

فذلك من اشبيلية إلى البحر ٦٠ ميلا . وأما طريق البر فالطريق من الجزيرة إلى « الرتبة » ثم إلى نهر « برباط »(١) إلى قرية « فيسانة »(٢) وبها المنزل . وهي قرية كبيرة ، ذات سوق عامرة ، وخلق كثير . ومنها إلى مدينة « ابن السليم »(٣) إلى جبل « مُنت »(٤) ثم إلى قرية « عسلوكة »(٥) ، وبها المنزل . ثم منها إلى



صورة سرقسطة أو الثغر الأعلى « منظر عمومى »

« المدائن »(٦) إلى « زيرد(٧) الحبالة » وبها المنزل ، ثم إلى اشبيلية مرحلة .

ومدينة اشبيلية مدينة كبيرة عامرة ذات أسوار حصينة ، وأسواق كثيرة ، وبيع وشراء ، وأهلها مياسير ، وجل تجارتها بالزيت ، يتجهز به منها إلى أقصى المشارق

(١) مر ذكره (٢) Faisana

(٣) هذه التي يقال لها عند الأسبان « غرازاليما » Grasalema

(٤) mont

(٥) لم نعرف هذه القرية ولا عرفنا هل هذا هو اسمها الحقيق أم هو محرف ؟

(٦) ما اطلعنا على هذه المدائن

(٧) ولا على حقيقة هذا الاسم الآخر

والمغارب ، براً و بحراً ، وهذا الزيت عندهم يجتم من « الشرف[١] » وهذا الشرف هو مسافة أربعين ميلا، وهذه الأربعون ميلا كلها تمشى في ظل شجر الزيتون والتين ، أوله بمدينة اشبيلية وآخره بمدينة « لبلة[٢] » وكله شجر الزيتون وسعته ١٢ ميلا وأكثر ، وفيه فيما يذكر ثمانية الآف قرية عامرة آهلة بالحمامات والديار الحسنة . و بين الشرف وأشبيلية ثلاثة أميال . والشرف سمى بذلك لأنه مشرف من ناحية اشبيلية ممتد من الجنوب إلى الشمال . وهو تل تراب أحمر ، وشجر الزيتون مغروسة به من هذا المكان إلى قنطرة لبلة . واشبيلية على النهر الكبير ، وهو نهر قرطبة

ومدينة لبلة مدينة حسنة أزلية ،وهي متوسطة القدر ، ولها سور منيع . و بشرقيها نهر يأتيها من ناحية الجبل ، و يجازعليه فى قنطرة إلى مدينة لبلة . و بها أسواق وتجارات . ومنافع جمة . و شرب أهلها من عيون فى مرج من ناحية غربيها . و بين مدينة لبلة والبحر المحيط ستة أميال .

وهناك على ذراع من البحر تطل مدينة «ولبة»[٣] وهي مدينة صغيرة متحضرة ، عليها سور من حجارة ، و بها أسواق وصناعات ، وهى مطلة على جزيرة «شلطيش[٤]» وجزيرة شلطيش يحيط بها البحر من كل ناحية ، ولها من ناحية الغرب اتصال بأحد طرفيها إلى مقربة من البر ، وذلك يكون مقدار نصف رمية حجر . ومن هناك يجوزون لاستقاء الماء لشربهم ، وهى جزيرة طولها نحو من ميل وزائد ، والمدينة منها فى جهة الجنوب ، وهناك ذراع من البحر يتصل به موقع نهر لبلة ، و يتسع حتى يكون أزيد من ميل ، ثم لا يزال الصعود فيه فى المراكب إلى أن يضيق ذلك الذراع حتى

(١) لا يزال يقال له الشرف إلى اليوم

(٢) Niebla وكان اسمها عند الرومان « ايليبوله » فتلفظ العرب بها أقرب إلى الاسم الرومانى القديم

(٣) Huelva واسمها الرومانى القديم « أونبة » Onba وهكذا كان يقول لها العرب وربما قالوا « ولبة »

(٤) Saltés

يكون سعة النهر وحده مقدار نصف رمية حجر ، ويخرج النهر من أسفل جبل عليه مدينة ولبة ، ومن هناك تتصل الطريق إلى مدينة لبلة . ومدينة شلطيش ليس لها سور ولا حظيرة ، وإنما هي بنيان يتصل بعضه ببعض ، ولها سوق وبها صناعة الحديد الذي يعجز عن صنعه أهل البلاد لجفائه ، وهي صنعة المراسي التي ترمي بها السفن والمراكب الحمالة الجافية ، وقد تغلب عليها المجوس [١] مرات ، وأهلها إذا سمعوا بخطور [٢] المجوس فروا عنها واخلوها . ومن مدينة شلطيش إلى جزيرة قادس ١٠٠ ميل ، ومن جزيرة قادس المتقدم ذكرها إلى جزيرة طريف ٦٣ ميلا . ومن جزيرة شلطيش مع البحر ماراً في جهة الشمال إلى حصن « قسطلة » [٣] على البحر ١٨ ميلا وبينهما موقع نهر يانة ، وهو نهر ماردة وبطليوس ، وعليه حصن « مارتلة » [٤] المشهور بالمنعة والحصانة . وحصن قسطلة على نحر البحر ، وهو عامر آهل ، وله بساتين وغلات شجر التين كثيرة ، ومنه إلى قرية « طبيرة » [٥] على مقربة من البحر ١٤ ميلا ، ومن القرية إلى مدينة « شنت [٦] ماريه » الغرب ١٢ ميلا .

ومدينة شنت ماريه على معظم البحر الأعظم ، وسورها يصعد ماء البحر فيه إذا كان المد ، وهي مدينة متوسطة القدر ، حسنة الترتيب ، لها مسجد جامع ومنبر وجماعة وبها المراكب واردة وصادرة ، وهي كثيرة الأعناب والتين .

ومن مدينة شنت ماريه إلى مدينة شلب ٢٨ ميلا ، ومدينة شلب حسنة ، في بسيط من الأرض ، وعليها سور حصين ، ولها غلات وجنات ، وشرب أهلها من

(١) يريد بالمجوس النورمانديين الذين كانوا يطرقون سواحل فرنسة وأسبانية وغيرهما وكانوا في الماضي مجوسا ثم بعد طول ترددهم إلى البلدان الجنوبية استقروا في غربي فرنسة وتركوا العبث ولصوصية البحر ودخلوا في النصرانية .

(٢) استعمل الادريسي « الخطور » بالمعنى الذي تستعمله فيه العامة وهو الحضور أو السفر وأما في الفصيح فهو مصدر خطر الشيء بالبال

(٣) Castella أو Casella (٤) Martola (٥) Tavira

(٦) Santa Maria ويقال لها Santa maria de Algaroe ويقال لها أيضا « فارو » وهي من البرتغال

واديها الجارى بجنوبها ، وعليه ارحاء البلد ، والبحر منها غربا على ثلاثة أميال ، ولها مرسى فى الوادى ، وبها الانشاء ، والعود بجبالها كثير ، يُحمل منها إلى كل الجهات . والمدينة فى ذاتها حسنة الهيئة ، بديعة المبانى . مرتبة الأسواق ، وأهلها وسكان قراها عرب من اليمن وغيرها ، وهم يتكلمون بالكلام العربى الصريح ، ويقولون الشعر وهم فصحاء نبلاء ، خاصتهم وعامتهم . وأهل بوادى هذا البلد فى غاية من الكرم ، لا يجاريهم فيه أحد . ومدينة شلب على اقليم الشنشين (١) ، وهو إقليم به غلات التين الذى يحمل إلى أقطار الغرب كلها ، وهو تين طيب عِلك لذيذ شهى . ومن مدينة شلب إلى بطليوس ثلاث مراحل . وكذلك من شلب إلى حصن « مارتلة » ثلاثة أيام . ومن مارتلة إلى حصن ولبة مرحلتان خفيفتان . ومن مدينة شلب إلى حلق « الزاوية » (٢) ٢٠ ميلا وهو مرسى وقرية ومنه إلى قرية « شقرش » (٣) على مقربة من البحر ١٨ ميلا ومنه إلى طرف الغرب ، وهو طرف خارج في البحر الأعظم ١٢ ميلا ، ومنه إلى « كنيسة الغراب » (٤) ٧ أميال .

وهذه الكنيسة من عهد الروم إلى اليوم لم تتغير عن حالها ، ولها أموال يتصدق بها عليها . وكرامات يحملها الروم الواردون عليها ، وهى فى طرف خارج فى البحر وعلى رأس الكنيسة عشرة أغربة لا يعرف أحد فقدها وعهد زوالها ، وقسيسو الكنيسة يخبرون عن تلك الأغربة بغرائب يتهم المخبر بها ولا سبيل لأحد من المجتازون بها أن يخرج منها حتى يأكل من ضيافة الكنيسة ، ضريبة لازمة وسيرة دائمة ، لا ينتقلون عنها ولا يتحولون منها ، وورثها الخلف عن السلف ، أمر معتاد متعارف دائم ، والكنيسة فى ذاتها كنيسة عامرة بالقسيسين والرهبان ، وبها أموال مدخرة ، وأحوال واسعة وأكثر هذه الأموال محبسة عليها فى أقطار الغرب وبلاده

---

(١) Chinchin

(٢) يقول دوزى أن حلق الزاوية مقاطعة هناك

(٣) Sagres (٤) تقدم ذكرها

وينفق منها على الكنيسة وخدامها وجميع من يلوذ بها ، معما يكرم به الأضياف الواردون على الكنيسة المذكورة ، قلوا أو كثروا .

ومن كنيسة الغراب إلى القصر مرحلتان . وكذلك من شلب إلى القصر أربع مراحل . و « القصر »[1] مدينة حسنة متوسطة على ضفة النهر المسمى « شطوبر »[2] وهو نهر كبير تصعد فيه السفن والمراكب السفرية كثيراً . وفى ما استدار بها من الأرض كلها أشجار الصنوبر ، ولها الانشاء الكثير ، وهى فى ذاتها رطبة العيش خصيبة كثيرة الألبان والسمن والعسل واللحوم . و بين القصر والبحر ٢٠ ميلا . ومن القصر إلى « يبورة »[3] مرحلتان .

ومدينة يبورة كبيرة عامرة بالناس ، ولها سور وقصبة ومسجد جامع ، و بها الخصب الكثير الذى لا يوجد بغيرها من كثرة الحنطة واللحم وسائر البقول والفواكه ، وهى أحسن البلاد بقعة ، وأكثرها فائدة ، والتجارات إليها داخلة وخارجة ، ومن مدينة يبورة إلى مدينة بطليوس مرحلتان فى شرق . ومدينة بطليوس مدينة جليلة فى بسيط الأرض ، وعليها سور منيع ، وكان لها ربض كبير ، أكبر من المدينة فى شرقيها فخلا بالفتن . وهى على ضفة نهر « يانة »[4] وهو نهر كبير و يسمى النهر الغوّر ، لأنه يكون فى موضع يحمل السفن ، ثم يغور تحت الأرض حتى لا يوجد

---

(١) وهى الآن بلدة صغيرة ليس فيها أكثر من ٢٥٠٠ نسمة وفيها آثار قديمة ويقول لها الاسبانيول Alcacer do jal

(٢) Chetvubar وهذا الاسم هو اسم بلدة اليوم على هذا النهر

(٣) ويقال لها أيضاً « يابره » بضم الباء و بالاسبانيولى Evora وهى الآن بلدة ليس فيها أكثر من ١٦ الف نسمة وكانت هذه البلدة شهيرة فى زمان الرومانيين واستولى عليها العرب سنة ٧١٥ مسيحية ثم استردها الاسبان سنة ١١٦٦ وكان يجلس فيها ملوك البرتغال أحيانا وإذا دخل إليها الانسان إلى هذه الساعة يظنها مدينة عربية لكثرة مبانى العرب فيها وغلبة طرز الانشاء العربى على مبانيها

(٤) Guadiana

منه قطرة فسمى الغوّر لذلك ، وينتهى جريه إلى حصن مارتلة ، ويصب فى قريب من جزيرة شلطيش . ومن مدينة بطليوس إلى مدينة اشبيلية ٦ أيام على طريق حجر بن أبى خالد ، إلى جبل العيون [١] ، إلى اشبيلية . ومن مدينة بطليوس إلى مدينة قرطبة على الجادة ٦ مراحل . ومن بطليوس إلى مدينة ماردة على نهر يانة شرقاً ٣٠ ميلاً ، وبينهما حصن على يمين المارّ إلى ماردة .

ومدينة ماردة كانت دار مملكة « لماردة » [٢] بنت هرسوس الملك ، وبها من البناء آثار ظاهرة ، تنطق عن ملك وقدرة ، وتعرب عن نخوة وعزّة ، وتفصح عن غبطة . فمن هذه البناآت ان فى غربى المدينة قنطرة كبيرة ذات قسىّ ، عالية الذروة ، كثيرة العدد ، عريضة المجاز . وقد بنى على ظهر القسىّ أقباء تتصل من داخل المدينة إلى آخر القنطرة ، ولا يُرى الماشى بها . وفى داخل هذا « الداموس » [٣] قناة ماء تصل المدينة . ومشى الناس والدواب على تلك النواميس . وهى متقنة البناء ، وثيقة التأليف ، حسنة الصنعة . والمدينة عليها سور حجارة منجورة من أحسن صنعة واوثق بناء . ولها فى قصبتها قصور خربة . وفيها دار يقال لها دار الطبيخ ، وذلك أنها فى ظهر مجلس القصر ، وكان الماء يأتى دار الطبيخ فى ساقية ، هى الآن بها باقية الأثر ، لا ماء بها ، فتوضع صحاف الذهب والفضة بأنواع الطعام فى تلك الساقية على الماء حتى تخرج بين يدى الملكة ، فترفع على الموائد . ثم إذا فرغ من

---

(١) Jibralion

(٢) المعروف أن مدينة ماردة بنيت سنة ٢٣ قبل المسيح بناها يوبليوس كاريزيوس ونمت نمواً عظيما حتى صار يقال لها رومة الاسبانية وفى زمان القوط صارت قاعدة ولاية لوزيطانية وقيل أنه كان لها ٨٤ باباً وخمسة حصون و ٣٧٠٠ برج واستولى عليها العرب بقيادة موسى بن نصير سنة ٧١٣ مسيحية واستردها الاسبانيول سنة ١٢٢٨ مسيحية ومنذ استردها الاسبانيول سقطت أهميتها وسنذكرها فى الكلام على قواعد الأندلس .

(٣) الداموس هو القترة أو ما يستتر الانسان به .

أكل ما فيها وضعت فى الساقية ، فتستدير إلى أن تصل إلى يد الطبّاخ بدار الطبخ ، فيرفعها بعد غسلها . ثم تمر بقية ذلك المـاء فى سروب القصر . ومن أغرب الغريب جلب الماء الذى كان يأتى إلى القصر على عمد مبنية تسمّى « الأرجالات[1] » ، وهى أعداد كثيرة باقية إلى الآن قائمة على قوام ، لم تخل بها الأزمان ولا غيرتها الدهور ، ومنها قصار ومنها طوال ، بحسب الأماكن التى وجب فيها البناء ، وأطولها يكون غلوة سهم ، وهى على خط مستقيم . وكان الماء يأتى عليها فى قنى مصنوعة ، خربت وفنيت ، وبقيت تلك الأرجالات قائمة يخيّل إلى الناظر إليها أنها من حجر واحد ، لحكمة إتقانها ، وتجويد صنعتها . وفى وسط هذه المدينة احناء قوس ، يدخل عليه الفارس بيده علم قائم ، عدة أحجاره ١١ حجراً فقط ، فى كل عضادة منها ثلاثة أحجار ، وفى القوس أربعة أحجار حنيّات ، وواحد قُفْل ، فكانت الجلة ١١ حجراً . وفى الجنوب من سور هـذه المدينة قصر آخر صغير ، وفى برج منه كان مكان مرآة ، كانت الملكة ماردة تنظر إلى وجهها فيها . ومحيط دوره ٢٠ شبراً ، وكان يدور على حرفه ، وكان دورانه قائماً . ومكانه إلى الآن باقٍ . ويقال إنما صنعته ماردة لتحاكى به مرآة ذى القرنين التى صنعَها فى منار الاسكندرية .

ومن مدينـة ماردة إلى قنطرة السيف يومان . وقنطرة السيف[2] من عجائب

---

(١) هذه اللفظة لم تمر بنا أصلا مع اتساع اللغة والذى يظهر لنا أن عامة الأندلس استعملوها بمعنى « الأرجل » جمع « رجل » بكسر فسكون وقد يأتى جمعه أيضاً على « أرجال » فتكون الأرجالات جمع الجمع وذلك كما جمعوا « الرجل » بفتح فضم على رجال ثم جمعوا رجالا على رجالات . ومعنى تسمية هذه الأعمدة التى يجرى فوقها الماء « أرجالات » هو أن قنى الماء قائمة عليها وهى لهذه الأقنية أشبه بالأرجل

(٢) هذه البلدة هى الآن صغيرة وموقعها على الضفة الجنوبية من نهر تاجه وشهرتها بالجسر الذى فيها وكان العرب لذلك يسمونها القنطرة والاسبان يقولون لها الآن Alcantara وكان ينسب اليها نظام فرسان القنطرة وكان هذا النظام تأسس سنة ١٨٧٦ مسيحية فى قلعة سان يوليان دوبيرال لأجل حماية ثغور المسيحيين فى وجه العرب فلما

الأرض . وهو حصن منيع على نفس القنطرة . وأهلها متحصنون فيه ، ولا يقدر لهم أحد على شيء . والقنطرة لا يأخذها القتال إلاّ من بابها فقط . ومن مدينة قنطرة السيف إلى مدينة « قورية » [1] مرحلتان خفيفتان ، وقورية الآن مدينة في ملك الروم ، ولها سور منيع ، وهي في ذاتها أزليّة البناء واسعة الفناء من أحصن المعاقل ، وأحسن المنازل . ولها بوادٍ شريفة خصيبة ، وضياع طيِّبة عجيبة ، وأصناف من الفواكه كثيرة ، وأكثرها الكروم وشجر التين .

ومن قورية إلى « قلمرية » [2] ٤ أيام . ومدينة قلمرية مدينة على جبل مستدير ،

بدأ العرب يتراجعون بسبب فتنهم وتفرق كلمتهم تقدم هذا النظام إلى القنطرة وجعل مركزه فيها وصار رئيس فرسان القنطره يجب أن يكون من بيت الملك وأما الجسر فهو روماني واقع إلى الشمال الغربي من البلد كان بناؤه سنة ١٠٥ بعد المسيح وهو من الحجر المحبب طوله ١٨٨ متراً وعرضه ٨ أمتار وهو على ستة أقواس اثنان منها في الوسط فوهة كل منها ١٥ متراً وعلوه ٥٨ متراً وله برج علوه ١٣ متراً . وفي بلدة القنطرة كنيسة اسمها ساتنا مارية المكبر Almocober بنيت في القرن الثالث عشر في محل جامع .

(١) Coria قال ياقوت في معجمه هي من عمل ماردة وهي النصف بينها وبين زمّوره مدينة الأفرنج

(٢) Coïmbre يقول لها العرب « قلمرية » ، قاعدة مقاطعة من مقاطعات البرتغال وعدد سكانها اليوم يناهز ٢٠ الفاً وفيها مدرسة جامعة ومرصد فلكي وهي قسمان المدينة العليا والمدينة السفلى وهذه متصلة بنهر « منديق » Mondego وكان اسم قلمرية عند الرومان هو « آمينيوم » Aeminium ثم في القرن التاسع أطلقوا عليها اسم « كونمبريكا » Conimbrica وهي مدينة قديمة خربت وانتقل أهلها إلى هذه . وقد استولى عليها العرب فيما استولوا عليه من الجزيرة الاندلسية ثم استرجعها النصارى منهم سنة ٨٧٢ أي بعد فتح المسلمين لها بقليل ثم استردها المسلمون سنة ٩٧٨ مسيحية في زمن الحكم المستنصر الأموي رحمه الله على يد غالب مولاه وجاء في النفح أن الحكم عمرها واعتنى بها . ثم عاد النصارى فاستولوا عليها سنة ١٠٦٤ بعد سقوط الدولة الأموية في قرطبة وذلك على يد فرديناند الأول القشتالي الذي بقي يحاصرها ستة أشهر إلى أن ملكها .

وعليهما سور حصين ، ولها ٣ أبواب ، وهى في نهاية من الحصانة ، وهى على نهر « منديق » [(١)] وجريه على غربيها ، ويتصل جرى هذا النهر إلى البحر ، وعلى مصبه هناك حصن « منت ميور » [(٢)] ولها على النهر أرحاء . وعليه كروم كثيرة وجنات ولها حروث كثيرة متصلة بالغربى منها إلى ناحية البحر ، ولها أغنام ومواش ، وأهلها أهل شوكة فى الروم ، ومن القصر المتقدم ذكره إلى مدينة « لشبونة » [(٣)] مرحلتان ، ومدينة لشبونة على شمالى النهر المسمي تاجة وهو نهر طليطلة ، وسعته أمامها ستة أميال ويدخله المد والجزر كثيراً ، وهى مدينة حسنة ممتدة مع النهر ، ولها سور ، وقصبة منيعة ، وفى وسط المدينة حمامات حارة فى الشتاء والصيف ، ولشبونة على نحر البحر المظلم وعلى ضفة النهر من جنوبه ، قبالة مدينة لشبونة ، حصن المعدن ، وسمى بذلك لأنه عند هيجان البحر يقذف هناك بالذهب والتبر ، فاذا كان زمن الشتاء قصد إلى هذا الحصن أهل تلك البلاد فيخدمون المعدن الذى به إلى انقضاء الشتاء ، وهو من عجائب الأرض ، وقد رأيناه عياناً . ومن مدينة لشبونة كان خروج المغرّرين [(٤)] فى

ثم آلت إلى البرتغال وصارت عاصمة ملكهم ولذلك العهد زحف اليها أبو يعقوب يوسف سلطان الموحدين ليسترجعها للاسلام فامتنعت عليه . وبقيت عاصمة للبرتغال إلى سنة ١٢٦٠ حينما جعلوا العاصمة فى اشبونة ولكن الملك دنيس عوض قلمرية بنقل المدرسة الجامعة من اشبونة اليها . وفى زمن ياقوت الحموى (المتوفى سنة ٦٢٦) كان المسلمون قد فقدوها لأنه قال : وهى اليوم بيد الافرنج خذلهم الله

(١) Mondego (٢) Montemayor

(٣) لشبونة أو إشبونة Lisbonne أو Lisboa وسيأتى الكلام عليها مفصلا

(٤) قصة الاخوة المغرورين هذه قصة شهيرة صارت الآن معلومة عند أهل هذا العصر بعد أن بقيت مدة طويلة مدفونة فى كتاب الادريسى ، هذا الذى لم تتداوله الأيدى ، وإنما كان يطلع عليه بعض المستشرقين من علماء الافرنج ، وبعض المطلعين من العرب على خزائن الكتب . وقليلا ما هم . وبقى الأمر كذلك إلى سنة ١٨٩٢ ، وكنت فى باريز ، وكان عمرى ٢٢ سنة ، فقرأت فى جريدة النشرة الأسبوعية التى كان ينشرها الأستاذ العلامة ابراهيم الحورانى باسم جمعية الأميركيين فى بيروت ، وذلك

ركوب بحر الظلمات ، ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه ، كما تقدم ذكرهم ، ولهم بمدينة

مقاله مترجمة ، عن مجلة أميركية ، لا أتذكر الآن اسمها ، يقول فيها بمناسبة كشف قارة أميركة : إنه شائع من جملة الأخبار كون العرب وصلوا إلى أميركة قبل كولمبوس وذلك بركوبهم البحر قاصدين الغرب من جهة الأندلس . ويقول : ليس عندنا نحن معلومات عن هذا الشأن تستند إلى وثائق خطية ، وإنما هو كلام متواتر بين الناس ، فكنا نود لو عرفنا ما عند العرب من هذا الموضوع ، وأردف الأستاذ الحوراني ذلك بنداء إلى علماء العرب أن افتونا بما عندكم عن هذه المسألة .

فني الحال فكرت في هذه المسألة ، وقلت أنا في باريز وأمامي المكتبة العمومية العظيمة ، فيمكنني أن أبحث فيها ما شئت وذهبت إلى خزانة الكتب الكبرى Bibliottieque National وبمجرد وصولي أمام ذلك البحر الخضم من الكتب فكرت أن حادثا كهذا لا يمكن أن ينشد إلا في كتب العرب المؤلفة عن الأندلس ورجحت أن أبدأ البحث في كتب الجغرافية على كتب التاريخ ، وقلت في نفسي أن أشهر جغرافية عربية في القرون الوسطى هي جغرافية الشريف الادريسي ، فطلبت فهرس الكتب العربية ، ووجهت نظري إلى كتب الجغرافية ، فعثرت على كتاب « نزهة المشتاق ، إلى اختراق الآفاق » للسيد الادريسي ، وبدأت بتصفحه ، ولم أكن طالعته من قبل ، فما مضى ربع ساعة حتى عثرت على هذه الواقعة ، وهي التي يسردها الادريسي حسبما هو مكتوب في المتن . فكان ذلك عجباً ، لأن ما كنت أقدر له حتى أصل إليه أياماً طوالا ، من بحث وتنقيب في مختلف الكتب ، قد وصلت إليه في ربع ساعة . فنسخت ماورد عن الاخوة المغرورين أو المغررين بتمامه ، وذهبت فكتبت مقالة بعثت بها إلى جريدة ثمرات الفنون في بيروت أوردت فيها في عرض الجواب على سؤال النشرة الاسبوعية وسؤال علماء أميركة ماجاء في كتاب الشريف الادريسي بالحرف . ثم علقت على ذلك توجيها للكلام يساعد على استخلاص المعنى ، وهو أن الاخوة المغرورين خرجوا من أشبونة أولا ، إلى ناحية الغرب ، في نحر البحر ، وساروا ١٢ يوماً . فلم يجدوا شيئا ، فانعطفوا إلى ناحية الجنوب ، فساروا ١٢ يوماً أخرى ، فوصلوا إلى جزيرة لم يجدوا فيها إلا غنما لحومها مرة لاتؤكل ، فانعطفوا أيضاً إلى الجنوب ، وجروا ١٢ يوماً ، إلى أن وصلوا إلى جزيرة وجدوا فيها بشراً ، وأخذوا إلى أمير الجزيرة ، وجرى معهم ماجرى ، كما هو وارد في

لشبونة بموضع من قرب الحمّة ، درب منسوب إليهم يعرف بدرب المغرّرين إلى آخر

الكتاب . وأزيد الآن هذا بيانا فأقول : الذى يلوح لى أنهم وصلوا أولا إلى جزيرة من جزائر الانطيل ، التى هى بين أميركا الشمالية ، وأميركا الجنوبية ، ومجموع هذه الجزائر هو بين ١٠ و ٢٧ درجة من العرض الشمالى ، وبين ٦٢ و ٨٧ درجة من الطول ، فى غربى خط نصف النهار ، المار بباريز . وكان أول وصول كريستوف كولومبوس إلى جزيرة من اميركا كهذه فى ١٢ أكطوبر سنة ١٤٩٢ ، وجزر الانطيل تنقسم إلى الانطيل الكبرى ، وهى إلى الشمال الغربى ، والانطيل الصغرى ، وهى إلى الجنوب الشرقى ، وهذه الجزر صغيرة لا تحصى ، والذى يظهر أن الاخوة المغرورين بعد أن ساروا ١٢ يوماً خطاً مستقيما إلى الغرب ، ولم يجدوا شيئا ، خافوا من التلف ، فرجعوا إلى الجنوب ، وكانوا لو صبروا وتابعوا جريهم خطا مستقيما ، وصلوا إلى ساحل القارة المسماة الآن بأميركا الشمالية ، ولكنهم يئسوا من الوصول إلى البر من جهة السير نحو الغرب ، فساروا إلى الجنوب ، لعلهم يجدون البر هناك ، فوصلوا الجزيرة التى وجدوا فيها الغنم ، ولم يجدوا البشر ، فحينئذ يئسوا ، وعادوا جنوباً إلى الشرق ، فوصلوا إلى إحدى جزائر الخالدات أو جزائر أسور Acores وهذه الجزائر كما هو معلوم ، مسكونة من قديم الزمان ، وهى واقعة بين ٢٧ و ٣٣ و ٤٠ درجة من الطول الغربى ، و ٣٦ و ٥٠ و ٣٩ و ٤٥ من العرض الشمالى . وهى أقرب قليلا إلى أوربة منها إلى افريقية . وقد جاء فى الانسيكلوبيدية الافرنسية الكبرى أن جزر آسور كان وصل إليها القرطاجنيون ، ثم النورمنديون ، ثم العرب . تجد هذا فى الجزء الأول صفحة ٤٣١ . ثم يقول أنهم لم يكشفوا هذه الجزائر إلا فى القرن الخامس عشر ، حينما وصل إليها البرتغاليون ، وأن هؤلاء بدأوا باستعمارها سنة ١٤٤٤ ، ولم تنكشف جميع هذه الجزائر دفعة واحدة ، بل الواحدة بعد الأخرى .

قال وإنه كان قد قصدها بعد البرتغال قوم من الفلمنك ، ثم قال ولما طرد العرب من اسبانية التجأ منهم أناس إلى هذه الجزر ؛ ونشروا فيها المدنية . أما الخالدات ويقال لها كنارى Canaries فهى أقرب إلى افريقية منها إلى أوربة ، وهى ممتدة من الشمال إلى الجنوب بين ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٢٥ من العرض الشمالى ، وممتدة من الشرق إلى الغرب بين الدرجة ١٥ و ٤٠ و ٢٠ و ٣٠ من العرض الغربى عن باريز ، وليس بين إحدى الخالدات المسماة فورت افنطوره Fortaventura وبين رأس جنوبى من مراكش

الأبد . وذلك أنه اجتمع ثمانية رجال ، كلهم أبناء عم ، فأنشأوا مركباً حمالا ، وأدخلوا فيه

غير مائة كيلو متر لا غير وربما كان وصولهم إلى إحدى جزائر الخالدات أرجح ، لانهم من هناك ذهبوا بهم إلى مرسى أسفى (قرب) ما بين الخالدات ومراكش. وبالاختصار الاخوة المغرورون كانوا قد وطأوا البر الاميركي بأرجلهم ، ولكنهم بقلة عددهم ، وقلة الوسائل التى كانت فى أيديهم ، لم يتقدموا الى الامام . ويغلب على الظن أن كريستوف كولومبوس لم يكن يجهل قصة المغرورين هذه ، وأنه سمع بنزولهم فى إحدى الجزر بعد مسيرة ٢٤ يوما فى الاوقيانوس الاطلانطيكى ، ناخرين الغرب ثم منعطفين إلى الجنوب ، فاستنتج من ذلك أن وجود البر وراء بحر الظلمات أمر لا بد منه ولكن لا بد أيضا من أن يكون الملججون فى هذا البحر العظيم عدداً كبيراً . وتكون معهم جميع الأقوات والأدوات والأسباب اللازمة ، وأن يكونوا سائرين فى عدة سفن ، بعضها فى اثر بعض . ولذلك بقى كولومبوس مدة طويلة ، يراجع الملك فرديناند والملكة ايزابلة حتى أقنعهما بتزويده بكل ماطلبه ، لعلمه أن السفر شاق وطويل ، وأن أمامه أهوالا . ولذلك كلفت رحلته هذه حتى كشف أميركا مبلغاً قدروه بثلاثمائة وستة وثلاثين ألفا وخمسمائة فرنك افرنسى . وهو مبلغ جسيم بالنسبة إلى ذلك الوقت ، وسار بثلاث سفن كبيرة وكان سفره من جزيرة « شاليش » قبالة « أونبة » فى غربى أسبانية ، إلى جزر الخالدات ، ومنها بقى يخوض بحر الظلمات ٣٢ يوما ، إلى أن وصل إلى إحدى الجزر وهى التى سماها سان سالقادور . ومن المحقق أن قضية وجود بر وراء بحر الظلمات ، لم تكن تولدت فى مخيلة كولومبس بل هى فكرة قديمة معروفة

وكان كولومبس قد اطلع على كتاب « صورة الأرض » تأليف الكردينال بطرس دالى Pierre D'Ailly مطران كمبراى Combray ، وهو تأليف كتبه هذا المطران سنة ١٤١٠ ، وحشر فيه معلومات كثيرة تتعلق بصورة الأرض ، منها مانقله عن التوراة ، ومنها ما نقله عن اليونان ، ومنها ما أخذه عن العرب ، كما جاء فى الانسيكلوبيدية الكبرى الافرنسية ، فى ترجمة كولومبس ، وقد ورد فى هذا الكتاب أن أرسطو وشارحه ابن رشد لم يكونا يعتقدان أنه يوجد بين ساحل إفريقية الغربى وساحل الهند الشرقى مسافة شاسعة البعد ، فمطالعة كولمبوس هذا الكتاب بنوع خاص كانت تحمله على الاعتقاد بالوصول إلى الهند من طريق بحر الظلمات ولا تعبأ برواية الادريسى عن عدة أيام السفر التى رواها عن المغرورين ، فانه إنما روى عن أفواه

من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا البحر فى أول طاروس الريح (١) الشرقية فجروا بها نحواً من ١١ يوماً ، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج ، كدر الروائح كثير التروش (٢)

الناس ، ولم يجتمع بالاخوة المذكورين . والأرجح أن سفرهم استمر أكثر مما قال ، لأن كولمبوس بقى يلجج فى الجزر الخالدات إلى أول جزيرة وطئها من أميركا مدة ٣٢ يوماً ، وهذا ثابت تاريخا ، وغاية ما يستفاد من العبرة فى قصة المغرورين ، أن العرب حاولوا اختراق بحر المحيط ، والوصول إلى البر الذى يقال له اليوم أميركا .

هذا وجاء فى صبح الأعشى للقلقشندى عند ذكر ملوك مملكة « مالى » فى السودان الغربى ما يلى : انه تولى منهم الملك منسى موسى بن أبى بكر ، قال فى « العبر » : وكان رجلا صالحاً ، وملكا عظيما له أخبار فى العدل تؤثر عنه ، وعظمت المملكة فى أيامه إلى الغاية ، وافتتح الكثير من البلاد ، قال فى « مسالك الأبصار » : حكى ابن أمير حاجب والى مصر عنه أنه فتح بسيفه وحده أربعاً وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال ، وقرى وضياع . قال فى « مسالك الأبصار » قال ابن أمير حاجب : سألته عن سبب انتقال الملك اليه فقال : إن الذى قبلى كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك فجهز مئين من السفن وشحنها بالرجال والازواد التى تكفيهم سنين ، وأمر من فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته ، أو تنفد ازوادهم ، فغابوا مدة طويلة ، ثم عاد منها سفينة واحدة ، وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم فقال . سارت السفن زماناً طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له جرية عظيمة ، فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم ، فرجعت بسفينتى ، فلم يصدقه . فجهز الفى سفينة . الفاً للاولاد ، وألفاً للأزواد . واستخلفنى ، وسار بنفسه ليعلم حقيقة ذلك ، وكان آخر العهد به وبمن معه قال فى « العبر » وكان حجه فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة فى الأيام الناصرية محمد بن قلاوون . اهـ ومعناه أن هذا الحادث إن كان وقع فيكون فى أول القرن الثامن من الهجرة وقد ورد هذا الخبر فى الجزء الخامس من صبح الأعشى فليراجع هناك

(١) هذه اللفظة غير عربية ومعناها هبوب الريح .

(٢) هكذا فى الأصل وربما كان المعنى مناسبا لسياق الكلام الذى تقدمه فان فعل ترش فى العربى معناه ساء خلقه

قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلاعهم فى اليد الأخرى ، وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب ١٢ يوماً ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم مالا يأخذه عدّ ولا تحصيل ، وهى سارحة لا راعى لها ، ولا ناظر إليها ، فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها ، فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها ، فوجدوا لحومها مرّة لا يقدر أحد على أ كلها فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب ١٢ يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة ، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث فقصدوا إليها ليروا ما فيها ، فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم فى زوارق هناك ، فأخذوا وحملوا فى مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر ، فأنزلوا بها فى دار ، فرأوا رجالا شقراً زعراً شعور رؤوسهم شعورهم سبطة ، وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب ، فاعتقلوا منها فى بيت ثلاثة أيام ، ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى ، فسألهم عن حالهم وفى ما جاءوا ، وأين بلدهم ، فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك ، فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم أحضروا بين يدي الملك ، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه ، فأخبروه بما أخبروه به للترجمان بالأمس : من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ، ويقفوا على نهايته . فلما علم الملك ذلك ضحك ، وقال للترجمان خبّر القوم أن أبى أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا فى عرضه شهراً ، إلى أن انقطع عنهم الضوء ، وانصرفوا من غير حاجة ، ولا فائدة تجدى . ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيراً ، وأن يحسن ظنهم بالملك ، ففعل . ثم صرفوا إلى موضع حبسهم ، إلى أن بدأ جرى الريح الغربية ، فعمّر بهم زورق ، وعُصبت أعينهم . وجُرى بهم فى البحر برهة من الدهر . قال القوم : قدّرنا أنه جُرى بنا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جيء بنا إلى البر ، فأُخرجنا وكتفنا إلى خلف وتُركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار ، وطلعت الشمس ونحن فى ضنك وسوء حال ، من شدة الأكتاف ، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا

فأقبل القوم إلينا ، فوجدونا بتلك الحالة السيئة لخلونا من وثاقنا ، وسألونا فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم و بين بلدكم ؟ فقلنا : لا . قال : إن بينكم و بين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم وأسفى ! فسمى المكان إلى اليوم «أسفى» ، وهو المرسى الذى فى أقصى المغرب ، وقد ذكرناه قبل هذا . ومن مدينة لشبونة Lisbonne[1] مع النهر إلى مدينة شنترين Santaren[2] شرقا ثمانون ميلا والطريق بينهما لمن شاء فى النهر أو فى البر ، و بينهما فحص « بلاطة » ، و يخبر أهل لشبونة وأكثر أهل الغرب أن الحنطة تزرع بهذا الفحص ، فتقيم بالأرض أربعين

(١) Lisbonne .

(٢) Santaren مستعمرة رومانية كان يقال لها فى زمن قيصر سكالابيس Scallabis فأطلق عليها اسم « بريزيديوم يوليوم وقد تحول اسمها بعد النصرانية إلى سنتا ايرين أى القديسة ايرينة وهى قديسة شهيدة عند الاسبانيول . والبلدة تعد مفتاح وادى تاجه وكان لها شأن عظيم فى تاريخ البرتغال وقد استولى عليها العرب فيما استولوا عليه من البلدان ثم استرجعها منهم الاذفونش السادس ملك قشتالة سنة ١٠٩٣ وفى زمن أبى يعقوب يوسف سلطان الموحدين حاول المسلمون استردادها فردهم عنها الدون شانجه Don Sancho وفى هذه البلدة غرق فى النهر البرنس الفونس ابن يوحنا الثانى ملك البرتغال وكان الابن الوحيد لأبيه وكان عروساً وعمره لم يتجاوز السادسة عشرة فذهب لاستقبال أبيه ممتطيا جواده فرحاً فحملته غرارة الشباب على الخوض فى النهر فأخذه النهر وكانت فاجعة عظيمة لا تزال مراثيها عند البرتغال محفوظة إلى اليوم . وقد وقعت هذه الفاجعة فى ١٣ يوليو سنة ١٤٩١ هذا وقد سقطت مكانة شنترين اليوم فالآن جميع سكانها عشرة آلاف نسمة وفيها بعض آثار من زمن العرب وأسوار وقصر عربى يقولون له «الكازار» Alcaazr كما يقولون لكل قصر عربى وفيها برج يقال له برج « كباساس » Cabaças كان فى أصله منارة مسجد . قال ياقوت الحموى عن شنترين : كلمتان مركبتان من شنت كلمة ورين كلمة ورين بكسر الراء وياء مثناة من تحت ونون مدينة متصلة الأعمال بأعمال باجه فى غربى الاندلس ثم غربى قرطبة وعلى نهر تاجه قريب من انصبابه فى البحر المحيط وهى حصينة بينها وبين قرطبة خمسة عشر يوماً وبينها وبين باجة أربعة أيام وهى الآن للافرنج ملكت فى سنة ٥٤٣

يوماً فتحصد ، وأن الكيل الواحد منها يعطى مائة كيل ، وربما زاد ونقص .

ومدينة شنترين على جبل عال كثير العلو جداً ، ولها من جهة القبلة حافة عظيمة ولا سور لها ، وبأسفلها ربض على طول النهر ، وشرب أهلها من مياه عيون ، ومن ماء النهر أيضاً ، ولها بساتين كثيرة وفواكه عامة ، ومباقل ، وخير شامل . ومن مدينة شنترين إلى مدينة بطليوس [1] أربع مراحل ، وعلى يمين طريقها مدينة يلبش [2] ، وهى فى سفح جبل ، ولها سور منيع ، ورقعة فرحة ، وبها عمارة وأسواق وديار كثيرة ، ولنسائها جمال فائق ، ومنها إلى بطليوس ١٢ ميلا . ومن ماردة [3] إلى حصن « كركوى [4] » ثلاث مراحل ، ومن كركوى إلى مدينة « قلعة رباح » [5] على ضفة نهر يانة . وهذا النهر يأتى من مروج فوقها ، فيمر بقرية يانة [6] إلى قلعة رباح ، ثم يسير منها إلى حصن « أرندة » [7] ومنه إلى ماردة ، ثم يمر بمدينة بطليوس فيصير منها إلى مقربة من « شريشة » [8] ، ثم يصير إلى حصن « مارتلة » [9] فيصب فى البحر المظلم .

ومن قلعة رباح [10] إلى قلعة « ارلية » [11] يومان ، وهو حصن منيع ، ومنه

(١) Badajoz عاصمة بنى الأفطس وسيأتى الكلام عليها تفصيلا

(٢) بالأسبانيولى Elvas استرجعها ملك ليون من العرب سنة ١١٦٦

(٣) بالأسبانيولى Merida وهى من قواعد الأندلس مر ذكرها وسيأتى أيضا

(٤) Karacuel أو Caraqui .

(٥) Calatrava (٦) Ana (٧) Aranda

(٨) شريشة الوارد ذكرها هنا يقال لها عند الاسبانيول Xeres de Estramadura وهى غير شريش البلدة المشهورة بقرب اشبيلية التى ينسب اليها الشريشى شارح مقامات الحريرى وسيأتى ذكرها .

(٩) يقول الاسبانيول لهذا الحصن Martola

(١٠) حرف الاسبانيول قلعة رباح إلى كالاترابة وسيأتى الكلام عليها .

(١١) عند الاسبانيول Aralia

إلى طليطلة مرحلة . ومن قلعة رباح فى جهة الشمال إلى حصن البلاط [١] مرحلتان ومن حصن البلاط إلى مدينة « طلبيرة » [٢] يومان . وكذلك من مدينة « قنطرة السيف » [٣] إلى المخاضة أربعة أيام ، ومن المخاضة إلى طلبيرة يومان وكذلك من مدينة ماردة إلى حصن مدلّين [٤] مرحلتان خفيفتان ، وهو حصن عامر آهل ، وفيه خيول ورجال لهم سرايا وطرقات فى بلاد الروم . ومن حصن مدلين إلى « ترجالة » [٥] مرحلتان وهما خفيفتان ، ومدينة ترجالة كبيرة كالحصن المنيع ، ولها أسوار منيعة و بها أسواق عامرة وخيل ورجل يقطعون أعمارهم فى الغارات على بلاد الروم ، والأغلب عليهم اللصوصية والخداع . ومنها إلى حصن « قاصرس » [٦] مرحلتان خفيفتان ، وهو حصن منيع ومحرس رفيع ، فيه خيل ورجل يغاورون فى بلاد الروم . ومن مكناسة إلى مخاضة البلاط يومان . ومن البلاط إلى « طلبيرة » [٧] يومان ، ومدينة طلبيرة

(١) Balat

(٢) Talavera وسيأتى الكلام عليها وهى من المدن المذكورة وقد خرج منها رهط من العلماء .

(٣) Alcantra وسيأتى الكلام عليها .

(٤) Medellin

(٥) ترجالة يقول لها الاسبانيول Trugillo قال فى دليل بديكر أنها اليوم قرية فيها ١٢٥٠ نسمة وفيها حصن من أيام العرب رممه الفرنسيس فى زمن بونابرت لما كانوا فى أسبانية

(٦) يقول الأسبانيول لهذه البلدة Ceçares جاء فى دليل بديكر أن سكانها ١٦٩٠٠ وأن القسم القديم منها مبنى على رابية تحيط به أسوار وأبراج وأبواب وأن القسم الجديد هو فى الجانب الأدنى منها ثم أن فى القسم الأعلى كنيسة يقال لها « سان ماتيو » مبنية مكان المسجد الجامع وفيه أيضاً مكان القصر الذى كان فى أيام العرب ويوجد فى هذه البلدة فى شارع الدانه Aldana رقم ١٠ بيت عربى لا يزال محفوظا على حاله .

(٧) يوجد فى الأندلس ثلاث بلاد باسم طلبيرة هذه وقرية إلى الجنوب منها

على ضفة نهر تاجة ، وهى مدينة كبيرة ، وقلعتها أرفع القلاع حصناً ، ومدينتها أشرف البلاد حسناً ، وهو بلد واسع المساحة ، شريف المنافع ، وبه أسواق جميلة الترتيب ، وديار حسنة التركيب ، ولها على نهر تاجة أرحاء كثيرة ، ولها عمل واسع المجال ، وإقليم شريف الحال ، ومزارعها زاكية ، وجهاتها حسنة مرضية ، أزلية العمارة ، قديمة الآثار ، وهى من مدينة طليطلة على سبعين ميلا .

ومدينة طليطلة من طلبيرة شرقاً وهى مدينة عظيمة القطر ، كثيرة البشر حصينة الذات ، لها أسوار حسنة ، فيها حصانة ومنعة وهى أزلية ، من بناء « العمالقة » (١) وقليلا ما رؤى مثلها اتقاناً ، وشماخة (٢) بنيان ، وهى عالية الذرى ، حسنة البقعة ، زاكية الرقعة ، وهى على ضفة النهر الكبير المسمى « تاجة » لها قنطرة من عجيب البنيان ، وهى قوس واحدة والماء يدخل تحت تلك القوس كله بعنف وشدة جرى ،

يقال لها طلبيرة البقعة Talavera La Vega ويوجد على ضفة وادى يانة بقرب بطليوس قرية يقال لها طابيرة . وأما المقصود هنا فهى الكبرى ويقال لها طلبيرة رينه De La Reina وهى الآن بلدة صغيرة سكانها عشرة آلاف لكنها واقعة فى بقعة جميلة على نهر تاجه ولها جسر مركب من ٣٥ قوساً وفيها باب رومانى قديم وفيها أبراج يقال لها « البرّاناس » من بناء العرب يعود تاريخها إلى سنة ٩٣٧ مسيحية ولعل اللفظة محرفة عن « البرانية » أى الأبراج البرانية . ومن طلبيرة هذه يذهبون إلى النزهة فى شارات « غريدوس » وإلى وادى اللب Guadalupe . وبالقرب من طلبيرة بلدة قلصادة Colzada وهى بلدة ينسب إليها بعض أهل العلم من العرب

(١) يقول دوزى عند شرح هذه اللفظة أن العرب كانوا يعنون بالعملاق كل عظيم الجثة . فكأنه يريدان يقول أنه لا يجب أن يفهم أن العمالقة الساميين الذين هم من بلاد العرب والذين كانت الحروب بينهم وبين اليهود هم الذين بنوا طليطلة وإنما قصدوا بذلك شعباً عظام الجثث وقد جرت العادة عند الناس أنهم كلما رأوا بناء عظيما شامخاً نسبوه إلى العمالقة أو إلى الجن أو إلى الاسكندر وما أشبه ذلك مما يهولهم من منظره

(٢) المعروف فى اللغة شمخ يشمخ شمخاً وشموخاً ولم نجد شماخة وربما كانت هذه اللفظة من جملة خطأ النسخ

ومع آخر القنطرة ناعورة ارتفاعها فى الجو ٩٠ ذراعاً ، وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة ، والماء يجرى على ظهرها فيدخل المدينة . ومدينة طليطلة كانت فى أيام الروم دار مملكتهم ، وموضع قصدهم ، ووجد أهل الاسلام فيها عند افتتاح الأندلس ذخائر كادت تفوق الوصف كثرة ، فمنها أنه وجد بها ١٧٠ تاجاً من الذهب مرصعة بالدر ، و بأصناف الحجارة الثمينة ، ووجد بها ألف سيف مجوهر ، ملكى ، ووجد بها من الدر والياقوت أكيال وأوساق . ووجد بها من أنواع آنية الذهب والفضة مالا يحيط به تحصيل ، ووجد بها مائدة سليمان بن داود ، وكانت فى مايذكر من زمردة وهذه المائدة اليوم فى مدينة رومة .

ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها وأنهار جارية مخترقة ، ودواليب دائرة ، وجنات يانعة ، وفوا كه عديمة المثال ، لا يحيط بها تكييف ولا تحصيل ، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ، وقلاع منيعة ، تكنفها . وعلى بعد منها فى جهة الشمال الجبل العظيم المتصل المعروف بالشارات ، وهو يأخذ من ظهر مدينة سالم إلى أن يأتى قرب مدينة قلمرية . فى آخر المغرب . وفى هذا الجبل من الغنم والبقر الشىء الكثير الذى يتجهز به الجلابون إلى سائر البلاد ، ولا يوجد شىء من أغنامه وأبقاره مهزولا ، بل هي فى نهاية السمن ، ويضرب بها فى ذلك المثل ، فى جميع أقطار الاندلس . وعلى مقربة من طليطلة قرية تسمى بمغام [1] ، وجبالها وترابها

(١) عند الاسبانيول Magham وقد ذكر ياقوت هذه البلدة وقال أنه يقال لها أيضا « مغامه » بالفتح فيهما وقال إنه ينسب إليها أبو عمران يوسف بن يحي المغامى ومحمد بن عتيق بن فرج بن أبى العباس بن اسحق التجيبى المغامى المقرىء الطليطلى أبو عبد الله لقى أبا عمرو الدانى وعليه اعتمد وروى عن أبى الربيع سليمان بن ابراهيم وأبى محمد بن أبى طالب المقرىء وغيرهم وكان عالماً بالقراءة بوجوهها إماماً فيها ذا دين متين وكان مولده لتسع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٤٢٢ ومات باشبيلية فى منتصف ذى القعدة سنة ٤٨٥ وحبس كتبه على طلبة العلم الذين بالعدوة وغيرها . قال : وفيها معدن الطين الذى تغسل به الرؤوس ومنها ينقل إلى سائر بلاد المغرب .

الطين المأكول ، الذى ليس على قرارة الارض مثله ، يتجهز به منها إلى أرض مصر وجميع بلاد الشام والعراقات و بلاد الترك ، وهو نهاية في لذاذة الأكل ، وفى تنظيف غسل الشعر [١] . ولطليطلة فى جبالها معادن الحديد والنحاس ، ولها من المنابر فى سفح هذا الجبل مجريط [٢] ، وهى مدينة صغيرة ، وقلعة منيعة معمورة ، وكان لها فى زمن الاسلام مسجد جامع ، وخطبة قائمة ، ولها أيضاً مدينة الفهمين [٣] ، وكانت مدينة متحضرة ، حسنة الأسواق والمبانى ، و بها مسجد جامع ، ومنبر وخطبة ، وهى كلها اليوم مع طليطلة فى أيدى الروم ، وملكها من القشتالين ، و ينتسب إلى الأذفونش الملك

وفى الشرق من مدينة طليطلة إلى مدينة وادى الحجارة ٥٠ ميلا وهى مرحلتان ومدينة وادى الحجارة حصينة حسنة كثيرة الأرزاق والخيرات ، جامعة لاشتات المنافع والغلات ، وهى مدينة ذات أسوار حصينة ، ومياه معينة ، و يجرى منها بجهة غربيها نهر صغير ، لها عليه بساتين وكروم ، وجنات وزراعات ، و بها من غلات الزعفران الشيء الكثير ، يتجهز به منها ، و يحمل إلى سائر العمالات والجهات . وهذا النهر يجرى إلى جهة الجنوب ، فيقع فى نهر تاجه الأكبر فيمده . ونهر تاجه

---

(١) الغسل بالكسر ما يغسل به الرأس من خطمى وطين واشنان ونحوه . عن لسان العرب .

(٢) هى التى يقول لها الاسبان مدريد وهى اليوم عاصمة اسبانية ومن أهم مدن أوربة وقد كانت مجريط فى زمن الادريسى خرجت من يد الاسلام ومثلها طليطلة فلذلك قال أنه كان لمجريط فى زمن الاسلام مسجد جامع وخطبة قائمة وسنذكر طليطلة تفصيلا ونؤيد ما يجب تأييده من كلام الادريسى عنها ونرد ما هو من قبيل الأساطير مثل قوله : أن طليطلة هى من بناء العمالقة

(٣) قال ياقوت فى معجم البلدان : الفهمين كأنه جمع فهمى اسم قبيلة الفهمين بالأندلس من أعمال طليطلة انتهى ولم يذكر زيادة على ذلك ونحن نعلم أنه يقال الفهميون لفهم الجمرات بطن من لخم وأنه يوجد أيضاً فى الازد بطن اسمهم فهم بن غنم ابن دوس بن عدنان منهم جذيمة بن مالك بن فهم الملك الأبرص راجع تاج العروس

المذكور يخرج من ناحية الجبال المتصلة بالقلعة [١] والفنت [٢] فينزل ماراً مع المغرب إلى مدينة طليطلة [٣] ، ثم إلى طلبيرة [٤] ، ثم إلى المخاضة [٥] ، ثم إلى القنطرة [٦] ثم إلى قنيطرة محمود [٧] ثم الى مدينة شنترين [٨] ، ثم إلى لشبونة [٩] ، فيصب هناك فى البحر . ومن مدينة وادى الحجارة إلى مدينة سالم [١٠] شرقا ٥٠ ميلا .

ومدينة سالم هذه مدينة جليلة فى وطاء من الأرض ، كبيرة القطر كثيرة العمارات والبساتين والجنات ، ومنها إلى مدينة شنت مارية ابن رزين [١١] أربع مراحل خفاف ، ومنها إلى الفنت أربع مراحل . و بين شنت مارية والفنت مرحلتان ، وشنت مارية والفنت مدينتان عامرتان ، بهما أسواق قائمة ، وعمارات متصلة دائمة ، وفواكه عامة وكانا فى الاسلام منازل القواطم [١٢] . ومن مدينة سالم إلى مدينة قلعة

---

(١) يقول دوزى فى ترجمته لكلام الادريسى هنا إن المقصود بهذه القلعة هى قلعة كبريال وهى إلى الشمال الغربى من « الفنت »

(٢) الفنت هذه هى التى يقول لها الاسبانيول « البونت » Alpuente

(٣) Toledo (٤) Talevera De La Reina

(٥) لا نعلم ماذا يقول الاسبانيول لهذا المكان

(٦) هى قنطرة السيف بلدة معروفة ينسب إليها فى زمن العرب جماعة من أهل العلم والاسبان يقولون Alcantra (٧) لم نعلم ماذا يقول الاسبانيول لهذه البلدة

(٨) Santaren وهى مدينة مشهورة سيأتى ذكرها

(٩) Lisboa عند البرتغال أو Lisbonne وسيأتى ذكرها

(١٠) Medinaceli عند الاسبانيول بحذف الميم

(١١) Albarrazin عند الاسبانيول

(١٢) غريب جداً ذكر الادريسى هؤلاء « القواطم » بدون التعريف عنهم بشىء ولذلك لم يفهم هذه اللفظة أحد من مترجمى كلام الادريسى ومفسريه ونحن أشكل علينا أيضاً فهمها ولم يذهب فكرنا إلى أنها « القواطم » بالفاء الموحدة لأنه لم يسمع أن قوماً من الفاطميين سكنوا بتلك الأرض واشتهروا بها واشتهرت بهم وكذلك من العادة أن يقال لهم « الفاطميون » أو « الطالبيون » أو « الهاشميون » ولم نسمع

أيوب[١] ٥٠ ميلا شرقاً ، وهي مدينة رائقة البقعة ، حصينة شديدة المنعة ، بهية الأقطار كثيرة الأشجار والأثمار . وعيونها مخترقة ، و ينابيعها مغدودقة ، كثيرة الخصب ، رخيصة الأسعار ، وبها يصنع الغفار المذهب ، و يتجهز به إلى كل الجهات . ومن مدينة قلعة أيوب إلى قلعة دَرُوقه[٢] ١٨ ميلا . ودروقة مدينة صغيرة متحضرة ، كثيرة العامر

بقوم اسمهم القواطم يسكنون فى شمالى الأندلس فبقى علينا أن نعلم ما المراد بالقواطم بالقاف المثناة ، فالعلامة دوزى يظن أنها محرفة عن « القواسم » لأنه كان فى الفنت فخذ يقال لهم « بنو قاسم » ولا يزال هذا الاسم Beni Cassim يطلق على مكان بشرقى الفنت إلى اليوم . قال دوزى : فيجوز أن يكون قيل لهم فيما بعد القواسم ، ثم تحرفت القواسم هذه بطول الزمن إلى قواطم . قلنا : أن وجود أناس فى تلك البقعة كان يقال لهم بنو قاسم لاشك فيه وقد رأيت فى معجم البلدان ذكر مكان فى تلك الناحية قال ياقوت عنه أنه من عمل بنى قاسم . ثم إن دوزى نفسه يقول إن بنى قاسم هؤلاء من ذرية عبد الملك بن قطن الفهرى أمير الأندلس المشهور الذي كان قبل بنى أمية فأنا أظن أن القواطم غير محرفة عن القواسم بل محرفة عن القواطن وذلك نسبة إلى عبد الملك بن قطن المذكور فان ذرية هذا الرجل ينبغى أن يقال لهم « القطنيون » فالناس استثقلوا جمع ذرية ابن قطن على القطنيين كما جمعوا بنى فهم على الفهميين لثقل الأولى وخفة الثانية فاختاروا للاولى جمع التكسير وقالوا قواطن يريدون به بنى قطن . ومثل هذا الجمع كثير عند العرب . وأما انقلاب نون قواطن إلى ميم بحيث صارت قواطم فان بين النون والميم تبادلا كثيراً كما لا يخفى فهذا وجه خطر ببالنا عن هذه اللفظة والله أعلم

(١) الاسبانيول يقولون لها « كالاتايود » Calatayud وهى بلدة على وادى شلون جاء فى دليل بديكر أنه يشرف على هذه البلدة حصن اسمه قلعة أيوب بناه العرب فى القرن الثامن للمسيح وأن أذفونش الأول ملك أراغون انتزع قلعة أيوب سنة ١١١٩ من أيدى العرب . والمشهور أن بانى قلعة أيوب هو أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير . وسنأتى على ذكرها تفصيلا

(٢) هذه البلدة هى على ٣٥ كيلو مترا من قلعة أيوب ، والأسبان يقولون لها « داروكة » Daroca جاء فى دليل بديكر أن هذه البلدة ازدهرت فى زمان العرب

غزيرة البساتين والكروم ، وكل شيء بها كثير رخيص . ومن دروقة إلى مدينة سرقسطة [١] ٥٠ ميلا . وكذلك من مدينة قلعة أيوب إلى مدينة سرقسطة ٥٠ ميلا

ومدينة سرقسطة قاعدة من قواعد مدن الأندلس ، كبيرة القطر ، آهلة ممتدة الأطناب ، واسعة الشوارع والطرقات ، حسنة الديار والمساكن ، متصلة الجنات والبساتين ، ولها سور مبنى من الحجارة حصين ؛ وهى على ضفة النهر الكبير المسمى إبره [٢] ، وهو نهر كبير ، يأتى بعضه من بلاد الروم ، وبعضه من جهة جبال قلعة أيوب ، وبعضه من نواحى قلهرّة [٣] ، فتجتمع مواد هذه الأنهار كلها فوق مدينة تطيله [٤] ثم تنصب إلى مدينة سرقسطة ، إلى أن تنتهى إلى حصن جَبْرَه [٥] ، إلى موقع نهر الزيتون ، ثم إلى طرطوشة فيجتاز بغربيها إلى البحر .

ومدينة سرقسطة هى المدينة البيضاء ، وسميت بذلك لكثرة جصها وجيّارها ، ومن خواصها أنها لا تدخلها حية البتة ، وإن جلبت اليها وأدخلت المدينة ماتت وحيّا بلا تأخير . ولمدينة سرقسطة جسر عظيم يجتاز عليه إلى المدينة ، ولها أسوار منيعة ، ومبان رفيعة ، ومنها الى وشقة [٦] ٤٠ ميلا . ومن وشقة إلى لاردة [٧] ٧٠

وكان لها سور طوله ثلاثة كيلومترات وعليه ١١٤ برجاً وكان لدروقة قلعة مبنية على صخر عظيم من بناء العرب وسيأتى ذكرها بأوسع من هذا

(١) Saragosse وهى من قواعد الأندلس الكبار كان العرب يسمونها بالثغر الأعلى وسنذكر عنها كل ما يلزم عند الوصول إلى مكانها من جغرافية الأندلس

(٢) Ebro وسيأتى الكلام على هذا النهر ومنبعه ومجراه .

(٣) Calahorra وهى بلدة قديمة على ضفة نهر سيدا كوس Cidacos اشتهرت بشدة أهلها فى مقاومة الرومانيين ومنها إلى « شورية » ٩٩ كيلومتر .

(٤) Tudela (٥) Chibrana

(٦) الاسبانيول يقولون لها Huesca وهى مدينة قديمة جدا وكان الرومانيون يسمونها أوسكه Osca وعمرت فى زمان العرب وبقيت فى أيديهم إلى سنة ١٠٩٦ ثم صارت قاعدة لمملكة أراغون وهى على مسافة ٢٢ كيلو مترا من سرقطة وسكانها اليوم ١٣٠٠٠ نسمة وسيأتى ذكرها .

(٧) هذه البلدة هى من عمل كتلونية فيها اليوم ٢٣٠٠٠ نسمة والاسبان يقولون

ميلا . ومدينة لاردة مدينة صغيرة متحضرة . ولها أسوار منيعة ، وهى على نهر كبير ومن مكناسة [١] إلى طرطوشة [٢] مرحلتان وهما ٥٠ ميلا ، ومدينة طرطوشة مدينة على سفح جبل ، ولها سور حصين ، وبها أسواق وعمارات ، وصناع وفعلة ، وإنشاء المراكب الكبار من خشب جبالها ، وبجبالها يكون خشب الصنوبر الذى لا يوجد له نظير فى الطول والغلظ ، ومنه تتخذ السوارى والقرى [٣] وهذا الخشب الصنوبر الذى بجبال هذه المدينة أحمر صافى البشرة ، دسم لا يتغير سريعاً ، ولا يفعل فيه السوس ما يفعله فى غيره ، وهو خشب معروف منسوب . ومن طرطوشة إلى موقع النهر فى البحر ١٢ ميلا ، ومن مدينة طرطوشة إلى مدينة طركونة [٤] ٥٠ ميلا .

ومدينة طركونة على البحر ، وهى مدينة اليهود ، ولها سور رخام ، وبها أبنية حصينة وأبراج منيعة ، ويسكنها قوم قلائل من الروم ، وهى حصينة منيعة ، ومنها

لها ليريده Lerida وكان الرومانيون يسمونها ايلرده Ilerda وهى مدينة قديمة جداً أيضاً وجدت فيها مسكوكات من زمان الايبيريين وعليها رأس ذئب . وفى السنة ٤٩ قبل المسيح هزمت فيها جيوش قيصر جيوش أعدائه المنتسبين إلى بومبي . وكان استيلاء العرب عليها سنة ٧١٣مسيحية واسترجعها الاسبان سنة ١١١٧ وسيأتى ذكرها

(١) الاسبان يلفظونها مكيننسة Mequinenza وهى من شارات ساحل كتلونية

(٢) عند الاسبان تورتوزه Tortosa وكان الرومان يقولون لها درتوزه Dertosa وقال لها العرب طرطوشة وسيأتى ذكرها بما يليق من التفصيل .

(٣) السوارى جمع سارى وهو الخشبة المعترضة فى وسط السفينة ويكون عليه الشراع وهو معروف . وأما القرى فليس فى اللغة بهذا المعنى بل القرى جمع قرية وهى البلدة . ولكن يوجد فى اللغة « القرية » بتشديد الياء وهى عود الشراع الذى يجعل فى عرضه من أعلاه والمعروف أنه يجمع على قرايا . ورد ذلك فى تاج العروس وقال الزبيدى : والعامة تقول القرية بالتخفيف أى أن الادريسى جرى فى جمعه القرية على القرى بجرى العامة لأنه من بعد تخفيفها صار جمعها على قرى هو الأولى وقد لحظنا أن الادريسى يستعمل كثيرا من الألفاظ العامية ولحظ ذلك دوزى من قبل

(٤) Tarragona والاسبانيول يقولون لها طركونه كالعرب وهى مدينة بحرية

إلى برشلونة [١] فى الشرق ٦٠ ميلا ، ومن مدينة طرّكونة غرباً إلى موقع نهر إبرُه ٤٠ ميلا ، وهذا الوادى ههنا يتسع سعة كثيرة ، ومن موقع النهر إلى رابطة « كشطالى » [٢] غرباً على البحر ١٦ ميلا ، وهى رابطة حسنة ، حصينة منيعة ، على نحر البحر الشامى ، يسكنها قوم أخيار ، وبالقرب منها قرية كبيرة ويتصل بها عمارات ومزارع ، ومن رابطة كشطالى غرباً إلى قرية « يانة » Ianna قرب البحر ٦ أميال ، ومنها إلى حصن « بنشكله » [٣] ٦ أميال ، وهو حصن منيع على ضفة البحر ، وهو عامر آهل ، وله قرى وعمارات ومياه كثيرة . ومن حصن بنشكله إلى عقبة « ابيشة » [٤] ٧ أميال ، وهو جبل معترض عال على البحر والطريق عليه لابد من السلوك على رأسه ، وهوصعب جداً . ومنه إلى مدينة « بوريانه » [٥] غرباً ٢٥ ميلا

سكانها ٢٤ ألفاً ، مشرفة على البحر تعلوه إلى حد ١٦٠ متراً وهى مدينة قديمة ايبيرية ولا يزال فيها مسكوكات من ذلك العهد . استولى عليها الرومانيون وحصنوها وجعلوها مرسى شهيراً وصارت مركزاً لهم فى اسبانية وأقام بها أغسطس الرومانى سنة ٢٦ قبل المسيح وجعلها قاعدة للمقاطعة المسماة « اسبانية الطركونية » وفيها ابنية رومانية ومشهد للتمثيل وبعد النصرانية صارت مركز اسقفية ولما جاء القوط سنة ٤٧٥ للمسيح جعلوا عاليها سافلها واستولى عليها العرب سنة ٧١٣ واسترجعها الاسبانيول بعد ذلك بأربعمائة سنة وصارت تابعة لبرشلونة

(١) Barcelona وهى قاعدة كتلونية وأكبر مدن اسبانية وأوسعها تجارة وأكثرها صناعة وسيأتى ذكرها تفصيلا

(٢) دوزى يعتقد أن هذه الرابطة هى التى يقول لها الاسبانيول Castillo De Chiver وهى بقرب قلعة شيڤر أو شيبر

(٣) ويقول لها الاسبانيول « بنيسكولا » Penuscola وتسمى جبل طارق بلنسية لأنها فى جزيرة متصلة بالبر بلسان من الرمل وكان هذا الحصن فى يد العرب إلى سنة ١٢٣٣ إذ أخذه منهم جاك الأول ملك أراغون .

(٤) هى بالاسبانيول Abicha

(٥) الاسبانيول يقولون لبوريانة Burriano أى بوريانة بالتشديد . وتأمل فى ما ورد فى دليل بديكر فى كلامه على البلاد التى بين طرطوشة وبلنسية قال : إن

ومدينة بوريانه مدينة جليلة عامرة كثيرة الخصب والأشجار والكروم، وهي في مستو من الأرض ، وبينها وبين البحر نحو من ثلاثة أميال . ومن بوريانه إلى « مرباطر » [١] وهي قرى عامرة وأشجار ومستغلات، ومياه متدفقة، ٦٠ ميلا، وكل هذه الضياع والأشجار على مقربة من البحر . ومنها إلى « بلنسية » غرباً ١٢ ميلا .

ومدينة بلنسية قاعدة من قواعد الأندلس ، وهي في مستو من الارض ، عامرة القطر ، كثيرة التجار والعمار ، وبها أسواق وتجارات ، وحط واقلاع ، وبينها وبين البحر ٣ أميال مع النهر، وهي على نهر جار ينتفع به ، ويسقى المزارع ، ولها عليه بساتين وجنات ، وعمارات متصلة . ومن مدينة بلنسية إلى مدينة سرقسطة ٩ مراحل على « كتندة » [٢] وبين بلنسية وكتندة ٣ أيام، ومن كتندة إلى « حصن الرياحين » مرحلتان، وهو حصن كثير الخلق عامر بذاته . ومن حصن الرياحين إلى «القنت»[٣] يومان ، ومن مدينة بلنسية إلى جزيرة « شقر » [٤] ١٨ ميلا، وهي على نهر شقر

قسطلون البلانة Castellon De La Plana هي مدينة زاهرة سكانها ٢٨ الف نسمة وهي مركز تجارة للبرتقال ولها فرضة على البحر اسمها « غراو » ، والقطار الحديدى يمر منها في مكان اسمه المجرّ Migares على جسر ثلاثة عشر قوساً راكب فوق قناة قسطلون المشتقة من النهر . وهذه التحفة البديعة من بدائع هندسة العرب تسقى تلك الأراضى منذ ستمائة سنة ثم تفيض من هناك إلى مدينة فيلاريال Villarreal وهي مدينة سكانها ١٦ ألفاً ويوجد فيها بساتين البرتقال وبينها بعض أشجار النخل والنساء تحمل هناك أباريق غريبة ترجع إلى عهد قديم ، ثم إن مياه المجر هذا لا تزال توزع على الأراضى إلى بوريانة التى هى أيضاً من الأماكن المشهورة بالبرتقال .

(١) Murbiter أو Merviedero

(٢) الاسبانيول يقولون Ceutenda

(٣) » » Alicante

(٤) » » Rio Jucar أى نهر شقر وعليه بلدة اسمها الصيرة

وجزيرة شقر المذكورة حسنة البقاع ، كثيرة الأشجار والأثمار والأنهار ، وبها ناس وجلّة ، وهى على قارعة الطريق الشارع إلى مرسية . ومن جزيرة شقر إلى «شاطبة»[١] ١٢ ميلا . ومدينة شاطبة مدينة حسنة ، ولها قصاب ، يضرب بها المثل فى الحسن والمنعة ويعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الارض ، ويعم المشارق والمغارب ومن شاطبة إلى « دانية »[٢] ٢٥ ميلا ، وكذلك من شاطبة إلى بلنسية ٣٢ ميلا ، وكذلك من بلنسية إلى مدينة دانية ، على البحر مع الجون ٦٥ ميلا ومن بلنسية إلى حصن « قليرة »[٣] ٢٥ ميلا ، وحصن قليرة قد أحدق البحر به ، وهو حصن منيع ، على موقع نهر شقر ، ومنه إلى مدينة دانية ٤٠ ميلا ومدينة دانية على البحر عامرة حسنة ، لها ربض عامر ، وعليها سور حصين ، وسورها من ناحية المشرق فى داخل البحر ، قد بنى بهندسة وحكمة ، ولها قصبة منيعة جداً ، وهى على عمارة متصلة وشجرات تين كثيرة وكروم ، وهى مدينة تسافر اليها السفن ، وبها ينشأ أكثرها ، لأنها دار انشاء السفن ، ومنها تخرج السفن إلى أقصى المشرق ، ومنها يخرج الاسطول للغزو ، وفى الجنوب منها جبل عظيم مستدير يظهر من أعلاه جبال « يابسة »[٤] فى البحر ، ويسمى هذا الجبل جبل قاعون[٥]

والعرب يسمونها جزيرة شقر والصيرة وهى تحريف الجزيرة

(١) الاسبانيول يقولون لها Jatiba ويقلبون الجيم خاء على عادتهم

(٢) Denia ولا بد من لفظ الألف بالاماله حتى يفهم الاسبانيولى أن المراد هو هذه البلدة . ومن المعلوم أن عرب الأندلس كان أكثر لفظهم بالامالة . ولما كنت فى الأندلس أردت الذهاب من القنت إلى دانية فلفظت هذه بغير امالة لأجل قطع تذكرة السفر فلم يفهموا منى فى بادىء الأمر .

(٣) دوزى يقول انه « كوليره » Cullera

(٤) يابسة هى جزيرة Ibiza أعلى قمة فيها تعلو ٤٧٥ متراً

(٥) Càoun

ومن مدينة شاطبة إلى بكيران غرباً ٤٠ ميلا ، وحصن « بكيران »[١] حصن منيع عامر كالمدينة ، وله سوق مشهوده ، وحوله عمارات متصلة ، تصنع به ثياب بيض تباع بالأثمان الغالية ، و يعمر الثوب منها سنين كثيرة ، وهى من أبدع الثياب عتاقة ورقة ، حتى لا يفرق بينها و بين الكاغد فى الرقة والبياض . ومن بكيران إلى دانية ٤٠ ميلا . ومن حصن بكيران الى مدينة « الش » ٤٠ ميلا . ومدينة الش[٢] مدينة فى مستو من الأرض ، و يشقها خليج يأتى اليها من نهرها ، يدخل المدينة من تحت السور ، فيتصرفون فيه ، ويجرى فى حمامها ، و يشق أسواقها وطرقاتها ، وهو نهر مليح سبخى ، وشرب أهل المدينة من الخوابى ، يجلب اليها من خارجها ، ومياهها المشروبة من مياه السماء . ومن مدينة الش إلى مدينة « وريوالة »[٣] ٢٨ ميلا ، ومدينة أوريولة على ضفة النهر الأبيض هو نهرها ونهر مرسية ، وسورها من ناحية الغرب على جريته ، ولها قنطرة على قوارب ، يدخل اليها منها ، ولها قصبة فى نهاية من الامتناع ، على قنة جبل ، ولها بساتين وجنات ، ورياضات دانية ، وبها من الفواكه ما لا تحصيل له ، و بها رخاء شامل ، وبها أسواق وضياع . و بين أوريولة والبحر ٢٠ ميلا . و بين أوريولة ومدينة مرسية ١٢٠ ميلا ، ومن مدينة أوريولة إلى « قرطاجنة » ٤٥ ميلا .

ومن مدينة دانية المتقدم ذكرها على الساحل إلى مدينة « لَقَنت »[٤] غرباً

---

(١) حصن بكيران هو فى جنوبى شاطبة والاسبانيول يكتبونه Bocayrant

(٢) Elche وهى ذات النخل وسيأتى الكلام عنها . وأظن بنى الالشى فى دمشق أصلهم منها

(٣) هى بالاسبانيولى أوريواله Orihuela والعرب يتزلون لها اريوله وربما يضعون الواو بعد الألف ولكن وردت فى جغرافية الادريسى وغيره بزيادة ألف بعد الواو أى اريوالة وتكررت على هذا الشكل ويقال لهذه البلدة تدمير باسم الأمير الذى كان فيها يوم أخذها منه العرب صلحا

(٤) الأسبانيول يقولون آليكنت Alicante والعرب يقولون القنت بالألف

على البحر ٧٠ ميلا . ولقنت مدينة صغيرة عامرة ، وبها سوق ومسجد جامع ومنبر ويتجهز منها بالحلفاء إلى جميع بلاد البحر . وبها فواكه وبقل كثير وتين وأعناب ولها قصبة منيعة عالية جداً في أعلى جبل [١] ، يصعد اليه بمشقة وتعب ، وهي أيضاً مع صغرها تنشأ بها المراكب السفرية والحراريق . وبالقرب من هذه المدينة ، وبالقرب منها ، جزيرة تسمى « ابلناصة » [٢] وهي على ميل من البر ، وهي مرسى حسن ، وهي مكمن لمراكب العدو ، وهي تقابل « طرف الناظور » [٣] ، ومن طرف الناظور إلى مدينة القنت ١٠ اميال ، ومن مدينة القنت في البر إلى مدينة الش مرحلة خفيفة ، ومن مدينة القنت إلى « حلوق بالش » [٤] ٥٧ ميلا و بالش مع مراسى افواه أودية تدخلها المراكب ومن بالش إلى جزيرة الفيران [٥] ميل . وبين هذه الجزيرة والبر ميل ونصف ، ومنها إلى ظرف « القيطال » [٦] ١٢ ميلا ، ومنه إلى « برتمان [٧] الكبير ، وهو مرسى ، ٣٠ ميلا ، ومنه إلى مدينة « قرطاجنة » [٨] ١٢ ميلا . ومدينة قرطاجنة ، وهي فرضة مدينة مرسية .

واللام وأحيانا لقنت بلام دون ألف وجميع هذه المدن سيأتي الكلام عليها في مواضعها

(١) الاسبانيول يقولون لهذه القصبة التي بأعلى الجبل حصن « سانتا بربارة » Castillo De Santa Barbara

(٢) هنا خطأ في النسخ ولا يوجد ابلناصه وإنما الجزيرة اسمها بلانة وهي في جنوبي القنت .

(٣) طرف الناظور هو سانتا بولو Santa Polo

(٤) بالش هي Bélich ومرساها يقول له الاسبانيول Mar Menor

(٥) اسم هذه الجزيرة عند الاسبان Isla Grosa

(٦) القيطال Cap De Palos

(٧) برتمان الكبير هو عند الاسبان Puerto Pormann وكان يقال له أيام الرومان Pertus Magnus

(٨) أحسن مرسى في أسبانية وسيأتي ذكرها

وهى مدينة قديمة أزلية ، لها مرسى ترسى بها المراكب الكبار والصغار ، وهى كثيرة الخصب والرخاء المتتابع ، ولها إقليم يسمى « الفندون »[1] وقليل مايوجد مثاله فى طيب الأرض ، وجودة نمو الزرع فيه ، ويحكى أن الزرع فيه يثمر بسقى مرة واحدة ، واليه المنتهى فى الجودة .

ومن مدينة قرطاجنة على الساحل إلى «شجانة»[2] ٢٤ ميلا ، وهو مرسى حسن وعليه بقربه قرية ، ومنه إلى حصن « آقلة »[3] ١٢ ميلا ، وهو حصن صغير على البحر ، وهو فرضة « لورقة » ، و بينهما فى البر ٢٥ ميلا . ومن حصن آقلة إلى وادى « بيرَة »[4] فى قعر الجون ٤٢ ميلا . وعلى مصب النهر جبل كبير وعليه حصن بيرة

---

(١) يظن دوزى أنه واقع تحريف لم يظهر معه أصل الكلمة

(٢) Chadjena

(٣) جاء فى دليل بديكر عند ذكر مدينة لورقة قال أن سكانها ٣٠ ألف نسمة وكانت تسمى إلوكرو Ilucro فى زمن الرومانيين فقال العرب لها لورقة وهى مبنية إلى الشمال الغربى من شارات كانو ، ويشقها وادى « الأنطين » والبلدة القديمة لاتزال شوارعها ضيقة وهى تذهب صعدا فوق الصخور إلى أن تتصل بحصن عربى لا يزال ماثلا وفيها كنيسة اسمها ستامارية مبنية فى المكان الذى خيم فيه الأذفونش الملقب بالحكيم قبل أن أخرج هذه البلدة من أيدى العرب سنة ١٢٣٤ وإلى الشمال شارات كانو والخط الحديدى يمر فى مكان يقال له « نوغلت Nogalte كان ميداناً للوقائع الشداد بين عرب غرناطة والمسيحيين وهناك على البحر مرسى آكيلاس اهـ فهذه هى آقلة التى يشير إليها الادريسى

(٤) Véra جاء فى كتاب « صفة مملكة غرناطة » المنقول عن « معيار الاختبار » لابن الخطيب مايلى عن بيره هذه وضبطها بفتح فسكون : « بلدة صافية الجو رحيبة الدو يسرح فيها البعير ويجم بها الشعير ويقصدها من مرسية واحوازها العير فسا كنها بين تجر وابتغاء أجر ، ووادبها نيلى الفيوض والمدود ، مصرى التخوم والحدود ، إن بلغ إلى الحد المحدود ، فليس رزقه بالمحصور ولا بالمعدود ، إلا أنها قليلة المطر ، مقيمة

المطلّ على البحر ، ومن الوادى إلى الجزيرة المسماة « قربُنيرة »[1] ١٢ ميلا ، ثم إلى « الرصيف » ستة أميال ، ثم إلى « الشامة البيضاء » ثمانية أيام ، ثم إلى طرف « قابطة[2] ابن أسود » ستة أميال . ومن طرف القابطة إلى المرية ١٢ ميلا . ومن مدينة قرطاجنة إلى مرسية فى البر ٤٠ ميلا .

ومدينة مرسية قاعدة أرض تدمير . وهى فى مستو من الأرض ، على النهر الأبيض ، ولها ربض عامر آهل ، وعليها وعلى ربضها أسوار حصينة ، وحظائر متقنة والماء يشق ربضها ، وهى على ضفة النهر المعروف ، ويجاز إليها على قنطرة مصنوعة من المراكب . ولها أرحاء طاحنة في المراكب ، مثل طواحن سرقسطة . التى هى تركب في مراكب تنتقل من موضع إلى موضع ، وبها من البساتين والأشجار والعمارات مالا يوجد بتحصيل ، ولها كروم ، وبها شجر التين كثير ، ولها حصون وقلاع وقواعد وأقاليم معدومة المثال . ومن مدينة مرسية إلى مدينة بلنسية خمس مراحل ، ومن مرسية إلى المرية على الساحل ٥ مراحل ، ومن مرسية إلى قرطبة عشر مراحل ، ومن مرسية إلى حصن شقورة[3] ، ٤ مراحل ، ومن مرسية إلى « جنجالة »[4] ٥٠

على الخطر ، مثلومة الأعراض والأسوار ، مهطعة لداعي البوار ، خليفة الحسن المغلوب ، معللة بالماء المجلوب ، آخذة بكظام القلوب ، خاملة الدور ، قليلة الوجوه والصدور ، كثيرة المشاجرة والشرور ، وذهل أهلها فى الصلاة شائع فى الجهور ، وسوء ملكة الأسرى من الذائع بها والمشهور .

(١) Carbonéra (٢) Cap De Gata

(٣) النهر الذى تشرب منه مرسية كان يقال له فى القديم تادر Tader والاسبانيول يقولون له سيغوره Segura والعرب يقولون له شقورة وسيأتى الكلام على شقورة وغيرها تفصيلا والادريسى يسميه بالنهر الأبيض ودوزى يقول إن Guadalaviar الذى يمر ببلنسية هو النهر الأبيض وكذلك جاء فى دليل بديكر ولكن تعريب Guadalaviar هو وادى الابيار .

(٤) يقول الأسبانيول لهذه البلدة شنشيلة Chinchilla وهى على ٢٩٨ كيلومتراً من مجريط وفيها يتلاقى خطان حديديان خط مرسية وخط قرطاجنة وهى مبنية على

ميلا . ومدينة جنجالة متوسطة القدر ، حصينة القلعة ، منيعة الرقعة ، ولها بساتين وأشجار وعليها حصن حسن ، و يعمل بها من وطاء الصوف مالا يمكن صنعه فى غيرها باتقان الماء والهواء ، ولنسائها جمال فائق وحصافة .

ومن جنجاله « إلى « كونكة » يومان ، وهى مدينة أزلية صغيرة ، على منقع ماء مصنوع قصداً ، ولها سور ، وليس لها ر بض ، و يصنع بها من الأوطية المتخذة من الصوف كل غريبة . ومن قونكة إلى قلصة [1] ثلاثة مراحل شرقا ، وقلصة حصن منيع يتصل به أجبل كثيرة ، بها شجر الصنو بر الكثير و يقطع بها الخشب ويلقى فى الماء ، ويحمل إلى دانية و إلى بلنسية فى البحر ، وذلك أنها تسير في النهر من قلصة إلى جزيرة شقر ، ومن جزيرة شقر إلى حصن « قالييره » وتفرّغ هناك على البحر ، فتملأ منها المراكب ، وتحمل إلى دانية ، فتنشأ منها السفن الكبار ، والمراكب الصغار ، و يحمل إلى بلنسية منه ما كان عريضاً ، فيصرف فى الأبنية والديار . ولا تزال عادة ارسال الخشب فى النهر إلى جزيرة شقر إلى قليبرة الخ إلى

رابية عليها حصن وفى جوانبها كهوف يسكن فيها الناس ومنها يمتد الخط الحديدى إلى بلدة يقال لها « ألبره » على نحو ٤٠ كيلو مترا من جنجالة ثم إلى محل يقال له عند الاسبانيول ألمنصا Almansa ولا شك أنه محرف عن المصنع جاء فى دليل بديكر أن هناك خزانا بناه العرب طوله ألفا متر وعرضه ألفا متر وعمقه ثمانون متراً وهو مبنى على واد بين جانبيه سد وهناك حصن عربى مبنى على حجر أبيض مشرف على السهل . قلت ولقد مررت على جنجاله والمصنع فى طريق إلى مرسية وأنا بالقطار وشاهدت هذا الخزان فى أثناء المسير . وقد ضبط ياقوت الحموى اسم شنشالة بالتاء فقال شنتجاله وبخط الأشتوى شنتجيل بالياء . وسيأتى ذكرها فى موضعه

(١) الخط الحديدى من مرسية يمر على قرية اسمها « غرنجة » ثم على « قلصة » ويقول لها الأسبانيول كاللوزه Callosa وهى بلدة صغيرة منظرها لا يزال عربياً مبنية بحذاء جندل كبير وفيها بيوت كثيرة منحوتة فى الجندل وحولها برتقال ونخل . ولم يعرف دوزى قلصه هذه فوضع عليها علامة وقال إن أحرفها غير بينة وكتبها هكذا : Calaca

يومنا هذا . ومن قلصة إلى شنت مارية ثلاث مراحل ، وكذلك من قلصة إلى « الفنت » أيضاً مثل ذلك ، ومن « قونكة » [١] إلى « و بذى » [٢] ثلاث مراحل و« و بذى » و « اقليش » [٣] مدينتان متوسطتان ، ولها أقاليم ومزارع عامرة ، و بين وبذى واقليش ١٨ ميلا ، ومن اقليش الى شقورة ٣ مراحل وشقورة حصن كالمدينة ، عامر بأهله ، وهو فى رأس جبل عظيم متصل ، منيع الجهة ، حسن البنية ، ويخرج من أسفله نهران ، أحدهما نهر قرطبه ، المسمى بالنهر الكبير ، والثانى هو النهر الأبيض الذى يمر بمرسية ، وذلك أن النهر الذى يمر بقرطبة يخرج من هذا الجبل من مجتمع مياه كالغدير ، ظاهر فى نفس الجبل ، ثم يغوص تحت الجبل ، ويخرج من مكان فى أسفل الجبل ، فيتصل جريه غربا إلى جبل « نجدة » [٤] ، إلى « غادرة » [٥] ، إلى قرب مدينة « أبذة » [٦] ، إلى أسفل مدينة « بيّاسة » [٧] ، إلى حصن « اندوجر » [٨] ، إلى « القصير » [٩] ، إلى « قنطرة اشتشان » [١٠] ،

---

(١) يأتى المسافر من مجريط قاصدا إلى ساحل البحر عن طريق جنجالة فيمر ببلدة يقال لها « غيتاف » Getafe على ١٤ كيلو متراً من مجريط وبعد ذلك يمر ببلدة يقال لها « بنتو » Pinto ثم ببلدة يقال لها بلدمورو Valdemoro ـ ومن المعلوم أن المورو عند الأسبان هو المسلم ـ ثم إن الخط الحديدى يمر ببقعة مريعة مسقية يقال لها بقعة جرامة Jarama ومن هذه البقعة يصل المسافر إلى نهر تاجه وهناك بلدة يقال لها « أرنجويس » Arenjuez على مسافة ٥٠ كيلو مترا من مجريط ومنها يصل إلى مدينة قونكة وهى بلدة قديمة جداً كانت من مراكز العرب استرجعها من أيديهم الاذفونش الثامن سنة ١١٧٧ بعد حصار طويل وهى الآن قسمان المدينة القديمة والمدينة الجديدة وعدد سكانها ١٢ ألفا والقديمة مبنية على صخور شامخة

(٢) هى Huete (٣) اقليش هى Ucles

(٤) Nadjda (٥) Gadira (٦) Ubeda (٧) Baeza

(٨) Andojar (٩) Al - Kosair (١٠) Pont D'échtechàn

إلى قرطبة إلى حصن « الدور »[١] إلى حصن « الجُرف »[٢] إلى حصن « لورة »[٣] إلى حصن « القليعة »[٤] إلى حصن « قطنيانة »[٥] إلى « الزرّادة »[٦] إلى اشبيلية ، إلى « قبطال »[٧] إلى « قبتور »[٨] ، إلى « طبرشانة »[٩] ، إلى « المساجد »[١٠] ، إلى قادس ، ثم إلى بحر الظلمات .

وأما النهر الأبيض الذى هو نهر مرسية فانه يخرج من أصل الجبل ، ويحكى أن أصلهما واحد ، أعنى نهر قرطبة ونهر مرسية . ثم يمر نهر مرسية فى عين الجنوب إلى حصن « افرد »[١١] ، ثم إلى حصن « موله »[١٢] ، ثم إلى مرسية ، ثم إلى أوريوالة إلى المدوّر ، إلى البحر ، ومن شقورة إلى مدينة « سرتة »[١٣] مرحلتان كبيرتان ، وهي مدينــة متوسطة القدر ، حسنة البقعة ، كثيرة الخصب ، وبالمقربة منها حصن . . .[١٤] ، ومن حصن . . . إلى طليطلة مرحلتان . ومن أراد من مرسية إلى المرية سار من مرسية إلى قنطرة « اشكابة »[١٥] إلى حصن « لبرالة »[١٦] إلى حصن « الحمّة »[١٧] إلى مدينة « لورقة »[١٨] ، وهى مدينة غراء حصينة ، على ظهر جبل

---

(١) Almodovar (٢) Aljorf (٣) Lora (٤) Alcoléa

(٥) Cantillana (٦) Az - Zarrada (٧) Cabtal

(٨) Cabtor (٩) Trébugena (١٠) يقول الاسبانيول للمساجد صان لوكار San - Locar ويقال ان أصلها Solus Lucos (١١) Ferez

(١٢) Mula (١٣) يقول لها الأسبانيول Almonacid De Zorita

(١٤) موضوع فى الأصل بعد لفظة حصن ثلاث نقط . ثم موضوع جملة « ومن حصن » وبعدها أيضاً ثلاث نقط . وبعدها جملة « إلى طليطلة » وهذا فى النسخة المطبوعة فى ليدن المترجمة الى الافرنسية بقلم دوزى وفى الحاشية مذكور انه « حصن فنة » أو « قنة » أو « قيه » اشارة الى ان اللفظة غير محققة . ثم ان دوزى يقول بعد هذا ان هذا البلد هو الذى يقال له Hita Calatrava

(١٥) قنطرة اشكابة هى Cantarilla

(١٦) Lebrilla

(١٧) الحمة يقول لها الاسبانيول Alhama وفى الاندلس حمات متعددة

(١٨) تقدم ذكرها وسيأتى مرة أخرى

ولها أسواق وربض فى أسفل المدينة ، وعلى الربض سور ، وفى الربض السوق ، والرهادرة [١] ، وسوق العِطر ، وبها معادن تربة صفراء ، ومعادن مغرة ، تحمل إلى كثير من الأقطار . ومن حصن لورقة إلى مرسية ٤٠ ميلا ، ثم من لورقة إلى « آبار الرتبة » [٢] إلى « حصن بَيْرة » [٣] مرحلة ، وهذا الحصن حصن منيع ، على حافة مطلّة على البحر . ومن هذا الحصن إلى « عقبة شقَر » [٤] ، وهى عقبة صعبة المرقى ، لا يقدر أحد على جوازها راكباً ، وإنما يأخذها الركبان رجالة ، ومن العقبة إلى « الرابطة » [٥] مرحلة ، وليس هناك حصن ولا قرية ، وإنما بها قصر به قوم حراس للطريق ، ومن هذه الرابطة إلى المرية مرحلة خفيفة

ومدينة المرية كانت فى أيام الملثَّم [٦] مدينة الاسلام ، وكان بها من كل الصناعات كل غريبة ، وذلك أنه كان بها من طرز الحرير ٨٠٠ طراز ، يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهانى والجرجانى ، والستور المكللة والثياب المعيّنة ، والخُمُر والعتّابى ، والمعاجر ، وصنوف أنواع الحرير ، وكانت المرية قبل الآن يصنع بها من صنوف الآلات النحاس والحديد ، إلى سائر الصناعات ، ما لا يحدّ ولا يُكيّف ، وكان بها من فواكه واديها الشىء الكثير الرخيص ، وهذا الوادى المنسوب إلى بجانة Bichêna بينه وبين المرية ٤ أميال ، وحوله جنات وبساتين وأرحاء ، وجميع نِعَمها وفواكهها تجلب إلى المرية ، وكانت المريه اليها تقصد مراكب البحر من

(١) لم يظهر لنا معنى هذه اللفظة ونظنها من تحريف النساخ

(٢) Ar - Rataba ومن يقرأ « الرتبة » يظنها لأول وهلة بالضم فالسكون أى المنزلة والحال انها محركة بفتح الأول والثانى والثالث فالرتبة هى الخلل الذى بين الأصابع

(٣) هى التى تقدم ذكرها وتلفظ بفتح أولها وهى غير البيرة المشهورة التى منها مدينة غرناطة

(٤) Mujacar (٥) Arrabita

(٦) أى ايام دولة المرابطين يوسف بن تاشفين ورهطه

الاسكندرية والشام كله ، ولم يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها مالا . ولا أتجر منهم فى الصناعات وأصناف التجارات تصريفاً وادخاراً . •

والمرية فى ذاتها جبلان وبينهما خندق معمور ، وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة . والجبل الثانى منهما فيه رَبَضها ويسمى جبل « لاهم » Lahem والسور يحيط بالمدينة وبالربض . ولها أبواب عدة ولها من الجانب الغربى ربض كبير عامر يسمى ربض الحوض ، وهو ربض له سور عامر بالأسواق والديار والفنادق والحمامات . والمدينة فى ذاتها مدينة كبيرة كثيرة التجارات ، والمسافرون اليها كثيرون وكان أهلها مياسير ، ولم يكن فى بلاد أهل الأندلس أحضر من أهلها نقداً ، ولا أوسع منهم أحوالا . وعدد فنادقها التى أخذها عد الديوان فى التعيين الف فندق ، إلا ثلاثين فندقا ، وكان بها من الطرز أعداد كثيرة ، قدمنا ذكرها . وموضع المرية من كل جهة استدارت به صخور مكدّسة ، وأحجار صلبة مضرّسة ، لا تراب بها ، كأنما غُربلت أرضها من التراب وقصد موضعها بالحجر ، والمرية فى هذا الوقت الذى ألّفنا كتابنا فيه ، صارت ملكا بأيدى الروم ، وقد غيروا محاسنها وسبوا أهلها . وخرّبوا ديارها ، وهدموا مشيّد بنيانها ، ولم يبقوا على شيء [1] منها . وللمرية منابر

---

(١) ان الشريف ابا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الحمودى الحسنى المعروف بالشريف الادريسى ولد سنة ٤٩٣ للهجرة وفق ١١٠٠ للميلاد وكانت ولادته فى سبتة وقد توفى سنة ٥٦٠ للهجرة وفق ١١٦٦ للميلاد وقد حصل العلم فى قرطبة ولذلك قيل له القرطبى ولما اتصل بخدمة دجار الثانى ملك صقيلية قيل له الصقيلى وقد صنع للملك المذكور قبل وفاته بقليل صورة للارض كانت أكمل ماعرف لذلك العهد وكرة أرضية من فضة وألف كتابه هذا « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وقد اكمل تأليفه قبل سنة ٥٤٨ . وأما استيلاء العدو على مدينة المرية فقد كان يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٥٤٢ أى قبل تأليف كتاب الادريسى هذا بست سنوات واستشهد فى وقعة الاستيلاء عليها الامام الرشاطى المحدث الكبير صاحب كتاب « اقتباس الأنوار والتماس الأزهار فى نسب الصحابة ورواة الآثار » وهو أبو محمد

منها مدينة برجة [١] ودلاية [٢] . و بين المرية و برجة مرحلة كبيرة . و بين برجة ودلاية نحو من ٨ أميال . و برجة أكبر من دلاية ، ولها أسواق وصناعات وحروث ومزارع . ومن المرية لمن أراد مالقة طريقان ، طريق فى البرّ وهو تحليق [٣] وهو ٧ أيام والطريق الآخر فى البحر وهو ١٨٠ ميلا . وذلك أنك تخرج من المرية إلى قرية البجانس [٤] على البحر ستة أميال ، ومن قرية البجانس يمر الطريق فى البر إلى برجة ودلاية . ومن قرية البجانس إلى آخر الجون ، وعليه برج مبنى بالحجارة ،

عبد الله بن على بن عبد الله بن على بن خلف بن احمد بن عمر اللخمى الرشاطى المرى جاء فى نفح الطيب أنه بعد أخذ النصارى مدينة المرية هذه المرة رجعت إلى ملك المسلمين واستنقذها الله تعالى على يد الموحدين وبقيت فى أيدى الاسلام سنين . وكان أول الولاة عليها حين استولى عليها أمير المسلمين عبد المؤمن بن على رجلا يقال له يوسف ابن مخلوف فثار عليه أهل المرية وقتلوه وقدموا على أنفسهم الرميمى فأخذها النصارى منه عنوة وأحصى عدد من سبى من أبكارها فكان ١٤ ألفاً . قال فى النفح : ولما أخذت المرية أقبل إليها السيدان أبو حفص وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنين عبد المؤمن فحصرا النصارى بها وزحف إليها أبو عبد الله بن مردنيش ملك شرق الأندلس محاربا لها فكانا يقاتلان النصارى والمسلمين داخلا وخارجا . ثم رأى ابن مردنيش العار على نفسه فى قتالها مع كونهما يقاتلان النصارى فارتحل فقال النصارى ما ارتحل ابن مردنيش إلا وقد جاءهم مدد فاصطلحوا ودخل الموحدون المدينة وقد خربت وضعفت إلى أن أحيى رمقها الرئيس أبو العباس احمد بن كمال واشتهر من ولاتها فى مدة بنى عبد المؤمن فى المائة السابعة الأمير أبو عمران بن أبى حفص عم ملك افريقية أبى زكريا ثم استبد بأمر المرية أحد بنى الرميمى الذين أخذ النصارى البلدة من جدهم ثم آلت إلى بنى الأحمر أصحاب غرناطه . ثم ذهبت فيما ذهب من ملكهم عند ما انطوى بساط الأندلس والله غالب على أمره انتهى ملخصاً وسنأتى على هذه الوقائع بتفصيل عند ما نصل إلى التاريخ إن شاء الله .

(١) Berja (٢) Dalias عند الاسبانيول . وسيأتى ذكر برجة ودلاية .

(٣) لعله يريد الارتفاع والدوران لأنه طريق فى الجبال .

(٤) لم نهتد إلى معرفة هذه القرية ولا اهتدى دوزى

مصنوع لوقيد النار فيه عند ظهور العدو فى البحر [١] ، ستة أميال ، ومن هذا الطرف إلى مرسى البيرة ٣٢ ميلا ، ومنه إلى قرية « عذرة » [٢] على البحر ١٢ ميلا . وقرية عذرة مدينة صغيرة لا سوق لها ، وبها الحمام والفندق ، وبها بشر كثير ، وبغر بيها ينزل نهر كبير ، منبعه من جبل شاير ، ويجتمع بمياه برجه وغيرها فيصب عند عذرة فى البحر ، ومن عذرة إلى قرية « بليسانة » [٣] ٢٠ ميلا ، وهى قرية آهلة على شاطىء البحر ، ومنها إلى « مرسى الفروج » [٤] ، ١٢ ميلا ، وهو مرسى كالحوط صغير . ومنه إلى قرية « بطرنه » [٥] ٦ أميال ، وبها معدن التوتية

(١) عند ما ذهبنا من مالقة إلى الجزيرة الخضراء بالسيارة الكهربائية على شاطىء البحر لم نكن نجتاز أكثر من خمسمائة متر حتى نرى برجا مخروطى الشكل على أكمة مشرفة على البحر أشبه بمنارة مسجد . فهذه الأبراج كانت فى القديم توقد فى رؤوسها النيران إذا طرق العدو البلاد وكانت تقابلها أبراج فى الداخل فتى شاهد الناس النيران خفوا إلى محل الواقعة . وأما البرج الذى يذكره الادريسى هنا فيقول له الاسبانيول Puenta elema

(٢) هذه القرية هى المرسى الذى ركب منه أبو عبد الله محمد بن الأحمر آخر ملوك المسلمين فى الأندلس قاصداً إلى المغرب فرسى به السفين بمرسى مليلة وهذا حسبما جاء فى كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » الذى لم يذكر اسم مؤلفه وقد عثرنا على نسخة منه مطبوعة بمدينة منيخ الألمانية سنة ١٨٦٣ مع ترجمة ألمانية وحواشى للمستشرق الألمانى « مارك بوس موللر » وطبعناه مضافاً إلى الطبعة الثانية من كتابنا مختصر تاريخ الأندلس تذيلا على ترجمتنا « لآخر بنى سراج » وقد طبع كتابنا هذا أول مرة سنة ١٣١٥ وثانى مرة سنة ١٣٤٣ وسنأثر عنه وعن « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » عند الوصول إلى القسم التاريخى من « الحلل السندسية » لا سيما أن مؤلف هذا الكتاب قد ألفه سنة ٩٤٧ أى قبل تأليف نفح الطيب بنحو من ٩٣ سنة وكان حياً فى أثناء الكائنة الأندلسية على أثر سقوط غرناطة واحتضار حشاشة الاسلام فى الأندلس كما يظهر من تاريخ كتابه . والاسبانيول يقولون لهذه القرية Adra

(٣) هى عند الاسبانيول Torre De Mélicena

(٤) هو المسمى Castillo De Ferro (٥) هى Paterna عند الأسبان

التى فاقت جميع معادن التوتية طيباً ، ومنها إلى قرية « شلبونة »[١] ١٢ ميلا ، ومن شلبونة إلى مدينة المنكّب فى البحر ٨ أميال . « والمنكّب »[٢] مدينة حسنة متوسطة كثيرة مصايد السمك ، وبها فواكه جمّة ، وفى وسطها بناء مربّع قائم كالصنم أسفله واسع ، وأعلاه ضيّق ، وبه حفيران من جانبيه متصلان من أسفله إلى أعلاه وبأزائه من الناحية الواحدة فى الأرض حوض كبير يأتى اليه الماء من نهر ميل ، على ظهر قناطر كثيرة معقودة من الحجر الصلد فيصب ماؤه فى ذلك الحوض ، ويذكر أهل المعرفة من أهل المنكّب أن ذلك الماء كان يصعد إلى أعلى المنار ، وينزل من الناحية الأخرى ، فيجرى هناك إلى رحى صغيرة . كانت ، وبقى موضعه الآن على جبل مطل على البحر ، ولا يعلم أحد ما المراد بذلك ؟

ومن مدينة المنكّب فى البر إلى مدينة أغرناطة ٤٠ ميلا ، ومن المنكّب على البحر إلى قرية « شاط »[٣] ١٢ ميلا ، وبقرية شاط زبيب حسن الصفة ، كبير المقدار أحمر اللون ، يصحب طعمه مرارة ، ويتجهّز به إلى كل البلاد الأندلسية . وهو منسوب إلى هذه القرية . ومن قرية شاط إلى قرية « طرُّش »[٤] على ضفة البحر

(١) هى عند الاسبان Salobréna والعرب تقول لها فى الغالب « شلوبانية » ونظرا للامالة فى لهجة الأندلس فقد يقولون « شلوبينية » وهكذا ضبطها ياقوت فى معجم البلدان . وأما لسان الدين بن الخطيب فكتبها بالألف لا بالياء وسنذكر وصفه لها وقال ياقوت : هى من أعمال كورة البيرة على شاطىء البحر كثيرة الموز وقصب السكر والشاه بلوط . قال : ينسب إليها أبو على عمر بن محمد بن عمر الأزدى النحوى إمام عظيم مقيم باشبيلية وهو حى أو مات عن قريب أخبرنى خبره أبو عبد الله محمد ابن عبد الله المرسى يعرف بأبى الفضل وكان من تلاميذه . اه .قلت هو أبو على الشلوبينى النحوى المشهور وكان يقال له أبو على الشلوبين وقد مات ياقوت الحموى وهو حى بل أبو على الشلوبين عاش بعد ياقوت ١٩ سنة لأن ياقوت مات سنة ٦٢٦ والشلوبين مات سنة ٦٤٥ بين يدى حصار الاسبانيول لاشبيلية قبل أخذهم أياها بقليل

(٢) يقول لها الاسبانيول Almunécar

(٣) شاط يقول لها الاسبانيول Jete (٤) يقول لها الاسبان Turrox

١٢ ميلا. ومنها إلى قصبة «مرّية بلّيش»[١] ١٢ ميلا، وهو حصن على ضفة البحر صغير المقدار ويصب بقربة منه في جهة المغرب نهر الملاحة، وهو نهر يأتي من ناحية الشمال، فيمرّ بالحمّة، ويتصل باحواز حصن صالحة[٢]، فيقع فيه هناك جميع مياه صالحة، وتنزل إلى قرية «الفشاط»[٣] وتصب هناك في غربي حصن مرّية بلّش في البحر، ومن مرّية بلش إلى قرية «الصيرة» ولها طرف يدخل في البحر، ٧ أميال. ومن طرف قرية الصيرة إلى قرية «بزليانة»[٤] ٧ أميال.

وهي قرية كالمدينة في مستو من الأرض، وأرضها رمل، وبها الحمام والفنادق وشباك يصاد بها الحوت الكثير، ويحمل منها إلى تلك الجهات المجاورة لها، ومن بزليانه إلى مدينة مالقة[٥] ٨ أميال، ومدينة مالقة مدينة حسنة عامرة آهلة، كثيرة الديار، متسعة الأقطار، بهيّة كاملة سنيّة، أسواقها عامرة، ومتاجرها دائرة، ونعمها كثيرة، ولها فيما استدار بها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب إلى ريّة وتينها يحمل إلى بلاد مصر والشام والعراق، وربما وصل إلى الهند، وهو من أحسن التين

---

(١) ان دوزى يرى في لفظة «مرية» عند عرب الأندلس معنى البرج الذى «يرى» منه أو الذى توقد فيه النار إذا طرق العدو. فقول الادريسى «مرية بلش» معناه البرج الخاص بهذا الأمر من ابراج بلش البحرية ويستشهد على صحة رأيه بقول البكرى «مرية بجانة»، وأما بلش هذه فهى بلش مالقة ويقال لها عند الاسبان Velez ويقال لهذه المرية Torre Del Marre

(٢) الاسبان يسمونه Saliha أو Zalia وقد خرب من بعد جلاء العرب عن غرناطة:

(٣) Al - Fachat

(٤) بزليانة عند الأسبانيول Las Ventas De Mesmiliana

(٥) قال عنها ابن الخطيب في «معيار الاختيار» ما أقول في الدرة الوسيطة وفردوس هذه البسيطة أشهد لو كانت يوماً لكانت عيدا في الأيام تبعث لها بالسلام مدينة السلام وتلقى لها يد الاستسلام محاسن بلاد الاسلام أى دار وقطب مدار وهالة أبدار وكنز تحت جدار الخ، ويكتبها الأسبان Malaga وسيأتى وصفها مشبعا

طيباً ، وعذوباً ، ولمدينة مالقة ربضان كبيران . ربض « فنتنالة »[١] وربض « التبّانين »[٢] وشرب أهلها من مياه الآبار ، وماؤها قريب الغور ، كثير عذب ، ولها واد يجرى فى أيام الشتاء والربيع ، وليس بدائم الجرى . وسنذكرها بعد هذا بحول الله تعالى وقوته .

ولنرجع الآن إلى ذكر مدينة المرّية فنقول : ان الطريق من مدينة المرية الى اغرناطة البيرة ، فمن أراد ذلك خرج من المرية إلى « بجّانة »[٣] ستة أميال ، ومدينة بجّانة كانت المدينة المشهورة قبل المرية ، فانتقل أهلها إلى المرية ، فعمرت وخربت بجّانة ، فلم يبق منها الآن إلا آثار بنيانها ، ومسجد جامعها قائم بذاته ، وحول بجّانة Pechina جنّات و بساتين ، ومتنزّهات وكروم ، وأموال كثيرة لأهل المرية وعلى يمين بجانة ، وعلى ستة أميال منها « حصن الحمّة »[٤] والحمة فى رأس جبل و يذكر المتجولون فى أقطار الأرض أن ماثل هذه الحمة فى المعمور من الأرض وأتقن منها بناء ولا أسخن منها ماء ، والمرضى والمعُلّون يقصدون إليها من كل الجهات فيلزمون المقام بها إلى أن تستقلّ عللهم ، ويشفوا من أمراضهم وكان أهل المدينة فى أيام الربيع يدخلون اليها مع نسائهم وأولادهم باحتفال من المطاعم والمشارب والتوسع فى الانفاق وربما بلغ المسكن بها فى الشهر ثلاثة دنانير مرابطية ، وأكثر وأقلّ . وجبال هذه الجهة كلها جِص يحتفر و يحرق ، و ينقل إلى المرية ، و به جميع عقد بنيانهم وتجصيصهم ، وهو بها وعندهم كثير ، رخيص لكثرته . ومن مدينة بجانة إلى قرية « بني عبدوس »[٥] ٦ أميال ، ومنها إلى حصن « مندوجر »[٦] ٦ أميال ، و به المنزل

---

(١) ربض فنتانة فى مالقة يقول له الاسبانيول Fontanella

(٢) ربض التبانين أى أصحاب التبن

(٣) Bachana أو Bechina

(٤) الحمة التى هى هنا هى Al Hamma

(٥) بنى عبدوس يكتبها الأسبانيول Benabdoux (٦) Monto - jar

لمن خرج من المرية ، وهى مرحلة خفيفة . وحصن مندوجر على جبل تراب أحمر ، والجبل على ضفة نهر ، والنزل فى القرية منها ، ويباع بها للمسافرين الخبز والسمك ، وجميع الفواكه ، كل شىء منها فى إبّانه . ثم إلى حمّة « غشّر » (١) ثم إلى الحمة المنسوبة إلى « وشتن » (٢) ، ومنها إلى « مرشانة » (٣) ، وهو على مجتمع النهرين ، وهو من أمنع الحصون مكاناً ، وأوثقها بنياناً ، وأكثرها عمارة ، ومنها إلى قرية « بلذوذ » (٤) ، ثم إلى « حصن القصير » (٥) ، وهو حصن منيع جداً ، على فم مضيق فى الوادى ، وليس لأحد جواز إلا بأسفل هذا الحصن ، ومنه إلى خندق « فبير » (٦) ، ثم إلى « الرتبة » (٧) ، ثم إلى قرية « عبلة » (٨) ، وبها النزل . ومن قرية عبلة إلى حصن « فنيانة » (٩) ، ثم إلى قرية « حنصل » (١٠) ، ثم الى أول فحص عبلة ، وطول هـذا الفحص ١٢ ميلا ، وليس به عوج ولا أمت ، وعن شمال المارّ جبل شلير الثلج ، وفى حضيض هذا الجبل حصون كثيرة ، منها حصن « فرّيرة » (١١) ينسب اليها الجوز ، وذلك أن بها من الجوز شيئاً يفرط فى غير رض ولا يعدله في طعمه شىء من الجوز من غيرها من الأقطار . . . .

ومن حصن هذا الجبل حصن « دِلر » (١٢) ، وبه من الكمثرى كل عجيبة ، وذلك أن الكمثرى به يكون منها فى وزن الحبّة الواحدة رطل أندلسى ، وأما الأعمّ

---

(١) هذه الحمة عرفها دوزى بأنها حمة أوجيجر Hamma Ujijar

(٢) أما حمة « وشتن » فلم يعرفها ورجح تصحيف الأسم

(٣) Merchena قال فى دليل بديكر : مرشانة مدينة قديمة جداً أهلها اليوم ١٢ ألف نسمة مبنية فى مكان مرتفع حولها أسوار مشعثة فيها قصور أدواق أركوس « اركش » وهى ملتقى خطى الحديد بين غرناطة واشبيلية

(٤) هى بالأسبانى Bolud (٥) Al-Kosaïr

(٦) خندق فبير هو Fabair

(٧) Arrataba (٨) Abla (٩) Finana

(١٠) Conçol (١١) Ferreira (١٢) Dilar

منها فكثر تان في وطل واحد ، ولها مذاق عجيب . ومن آخر فحص عبلة إلى خندق آش ، ثم إلى مدينة وادي آش [1] وهي مدينة متوسطة المقدار ، ولها أسوار محدقة ، ومكاسب مؤنقة ، ومياه متدفقة ، ولها نهر صغير دائم الجرى ، ومنها إلى قرية « دشمة » [2] وبها المنزل . ومنها إلى « الرتبة » ثم الى قرية « أفرافيدة » [3] ثم إلى قرية «ود» [4] وهي قرى متصلة . ومنها الى مدينة أغرناطة ٨ أميال . ومدينة وادي آش رصيف يجتمع به طرق كثيرة ، فمن أراد منها مدينة بسطة خرج منها الى جبل عاصم [5] ثم الى قرية . . . [6] الى مدينة بسطة [7] وبينهما ٣٠ ميلا . ومدينة بسطة متوسطة المقدار ، حسنة الموضع ، عامرة آهلة ، لها أسوار حصينة ، وسوق نظيفة وديار حسنة البناء ، رائقة المغنى ، وبها تجارات وفعلة لضروب من الصناعات ، وعلى

---

(١) Guadix وهي من مشهورات مدن الاندلس قال عنها لسان الدين : هي مدينة الوطن ومناخ من عبر أو قطن للناس ماظهر ولله مابطن وضع سديد وبأس شديد ومعدن حديد ومحل عدة وعديد وبلد لا يعتل فيه إلا النسيم ومرأى يخجل منه الصباح الوسيم كثيرة الجداول والمذانب مخضرة الجوانب إلى الفواكه الكثيرة والكروم الأثيرة والسقى الذى يسد الخلة ويضاعف الغلة وسندها (مكان من جبلها وسند الجبل هو مادنا منه) معدن الحديد والحرير ومعقلها أهل التاج والسرير وهي دار حساب وارث واكتساب وماؤها مجاج الجليد وهواؤها يذكى طبع البليد إلا أن ضعيفها يضيق عليه المعاش وناقهها يتعذر عليه الانتعاش وشيخها يخطو على قصبة الارتعاش فهي ذات برد وعكس وطرد الخ وسنق إن شاء الله بوصفها

(٢) هي دجة أو دشمة لا فرق كما يقال أرجدونة وارشدونة والاسبان يكتبونها Déchima

(٣) Afraferida

(٤) هي بالاسبانيولى Wod

(٥) لم يعرفه دوزى ولا نحن عرفنا عنه إلا أنه جبل عاصم .

(٦) يورا : بروا : فروا : بروه غير محقق هذا الاسم

(٧) الاسبانيول يقولون بازه Baza وهي مدينة قديمة وقد ازدهرت كثيرا في أيام العرب وسكانها الآن ١٤ ألف نسمة قال لسان الدين عن هذه البلدة : « بسطة بلد

مقربة منها حصن « طشكر »[1] الذى فاق جميع حصون الأندلس منعة، وعلواً ورفعة، وطيب تربة وهواء. وليس لأحد موضع يصعد منه الى هذا الحصن إلا موضعان، وبين الموضع والموضع ١٢ ميلا، على طرق مثل شراك النعل، ومدارج النمل، وبأعلاه الزرع والضرع والحصاد والمياه، واليه الانتهاء فى الخصب وجودة الحصانه. وكذلك من وادى آش إلى جيّان ثلاث مراحل خفاف

ومدينه جيان[2] حسنة كثيرة الخصب، رخيصة الأسعار، كثيرة اللحوم والعسل، ولها زائد على ثلاثة آلاف قرية كلها يربّى بها دود الحرير، وهى مدينة كثيرة العيون الجارية تحت سورها، ولها قصبة من أمنع القصاب وأحصنها يرتقى اليها على طريق مثل مدرج النمل، ويتصل بها جبل « كور »[3]. وبمدينة جيّان

خصيب ومدينة لها من اسمها نصيب (أى بسطة) دوحها متدلدل وطيب هوائها غير متبدل وناهيك من بلد اختص أهله بالمران فى معالجة الزعفران وامتازوا به عن غيرهم من الجيران يتخلل مدينتها الجدول المتدافع الناقع للغال النافع، ثياب أهلها بالعبير تتأرج وحورها تتجلى وتتبرج وولدانها فى شط أنهارها المتعددة تتفرج ولها الفحص الذى يسافر فيه الطرف سعيا ولا تعدم السائمة به ريا ولا رعيا ولله در القائل :

فى بلدة عودت نفسى بها　　إذ فى اسمها طه وياسين

الجأنى الدهر إلى عالم　　يؤخذ منه العلم والدين

إلا أن تربتها تفضح البناء، وإن صحبه الاعتناء، فأسوارها تسجد عند الاقامة، وخندقها لا كسارها تلقامة، ورياحها عاصفة، ورعودها قاصفة، والعدو فيها شديد الفتكات، معمل الحركات، وساكنها دائم الشكاة، وحدها قليل، وعزيزها لتوقع المكروه ذليل اه قال هذه الجمل الاخيرة لأنها يوم وصفها ابن الخطيب كانت ثغراً من ثغور غرناطه. وفتحها فرديناند وايزابلا سنة ١٤٨٩ قبل فتحهما غرناطة باربع سنوات ولا تزال المدافع التى فتحها بها معروضة وكنيستها صان مكسيمو هى فى مكان المسجد الجامع ولا تزال آثار القصر العربى دار الحكومة ماثلة والخط الحديدى يمر منها إلى وادى آش بين شارات بسطة وجبلكون ويدور حتى لا ينزل إلى الوادى العميق المسمى بالغور Gor

(١) يقول له الاسبانيول Tixcar　(٢) سيرد ذكرها والاسبانيول يقولون لجيان خيان على عادتهم فى قلب الجيم خاء　(٣) Cour

بساتين وجنات ، ومزارع وغلات القمح والشعير والباقلاء وسائر الحبوب ، وعلى ميل منها نهر « بلون » (١) وهو نهر كبير ، وعليه أرحاء كثيرة جداً ، وبها مسجد جامع وجلة وعلماء . ومن مدينة جيّان إلى مدينة « بياسة » (٢) ٢٠ ميلا ، وبياسة تظهر من جيان ، وجيّان تظهر من بياسة ، وبياسة على كدية (٣) تراب مطلة على على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة ، وهي مدينة ذات أسوار وأسواق ومتاجر ، وحولها زراعات ، ومستغلات الزعفران بها كثيرة . ومنها إلى « أبّذة » (٤) فى جهة الشرق ٧ أميال وهي مدينة صغيرة ، وعلى مقربة من النهر الكبير ، لها مزارع وغلات قمح وشعير كثيرة جداً ، وفيما بين جيان وبسطة ووادى آش حصون كثيرة ، عامرة ممدّنة آهلة ، لها خصب وغلال نافعة كثيرة ، فمن ذلك أن بشرقى جيان وقبالة بياسة حصناً عظيما يسمى شوذر (Joder) وإليه ينسب الخلاط الشوذرى (٥) ومنه فى الشرق إلى حصن « طوية » (٦) ١٢ ميلا ، ومنه إلى حصن « قيشاطة » (٧) وهو حصن كالمدينة له أسواق وربض عامر ، وحمام وفنادق ، وعليه جبل يقطع به من الخشب التى تخرط منه القصاع والمخابى والأطباق وغير ذلك ، مما يعم بلاد الاندلس وأكثر بلاد المغرب أيضاً . وهذا الجبل يتصل ببسطة ، وبين جيان وهذا الحصن مرحلتان ، ومنه الى وادى آش مرحلتان ، ومنه الى أغرناطة مرحلتان ومن وادى آش المتقدم ذكرها الى أغرناطه ٤٠ ميلا

---

(١) Guadabellon

(٢) والأسبانيول يكتبونها Baeza وسيأتى ذكر هذه المدن كلها

(٣) العرب يقولون كدية للتراب الغليظ الصلب

(٤) Ubeda بلدة قديمة من زمن الايبيريين لكنها الآن ساقطة

(٥) لم يعرف دوزى ماهو الخلاط الشوذرى ؟ ولا نحن عرفناه إلا أن يكون محرفا عن الخليط وهو شراب من تمر وزبيب ويكون أهل هذا البلد يتقنونه فاشتهر بهم

(٦) Toyo (٧) بالأسبانيولى « كيساده » Quesada والخط الحديدى يمتد من بياسة إلى ابدة إلى شوذر إلى قيشاطة

ومدينة اغرناطه محدثة من أيام الثوار بالأندلس ، و إنما كانت المدينة المقصودة البيرة (Vera) ، فخلت وانتقل أهلها إلى اغرناطة ، ومدّنها وحصّن أسوارها و بنى قصبتها حيّوس الصنهاجي [1] ، ثم خلفه ابنه بادس بن حيوس ، فكملت فى أيامه وعمرت إلى الآن . وهى مدينة يشقها نهر يسمّى « حدرّو » [2] وعلى جنوبها نهر الثلج المسمى « شنيل » [3] ومبدأه من جبل شلير ، وهو جبل الثلج ، وذلك أن هذا الجبل طوله يومان وعلوه فى غاية الارتفاع ، والثلج به دائماً فى الشتاء والصيف : ووادى آش واغرناطة فى شمالى الجبل ، ووجه الجبل الجنوبى مطل على البحر ، يرى من البحر على مجرى (... بياض بالأصل) ونحوه وفى أسفله من ناحية البحر برجة ودلاية ، وقد ذكرناها فى ما سبق . ومن أغرناطة إلى مدينة المنكّب على البحر ٤٠ ميلا ، ومن أغرناطة إلى مدينة « لوشة » [4] مع جرية النهر ٢٥ ميلا . ومن المنكّب إلى مدينة المرية ١٠٠ ميل فى البحر ، ومن المنكّب إلى مدينة مالقة ٨٠ ميلا .

ومدينة مالقة مدينة حسنة حصينة و يعلوها جبل يسمّى جبل « فاره » [5] ، ولها قصبة منيعة ور بضان ، لا أسوار لها ، وبها فنادق وحمامات ، وبها من شجر التين ما ليس بأرض [6] ، وهو التين المنسوب إلى ريّة . ومالقة قاعدة ريّة ، ومن مالقة

---

(١) سيأتى خبره فى باب التاريخ .

(٢) الاسبانيول يقولون له « درّو » Darro (٣) Xenil

(٤) الاسبانيول يقولون : لوجه ويسمونها بسان فرنسيسكو و موقعها جميل فى سفح جبل على الضفة الجنوبية من نهر شنيل وكانت أعمر مما هى الآن فى أيام العرب وكان يقال أن لوشة والحمة هما مفتاحا غرناطة . وقد استولى فرديناند وايزابله على لوشة بمساعدة جيش من الانكليز وذلك سنة ١٤٨٨ ولا تزال فى لوشة بقايا آثار العرب

(٥) الاسبانيول يقولون للاكمة التى عليها حصن مالقة Gibral - Faro وليس بينه و بين البحر إلا مسافة أمتار معدودة وقد صعدت إلى هذا الحصن ورأيته لا يزال على ما كان أيام العرب . (٦) قال الشاعر :

مالقة حييت يا تينها السفن من أجلك يا تينها

إلى قرطبة فى جهة الشمال أربعة أيام ، ومن مالقة أيضاً إلى غرناطة ٨٠ ميلا . ومن مالقة إلى الجزيرة الخضراء مائة ميل ، ومن مالقة إلى اشبيلية خمسة مراحل ، ومن مالقة إلى « مُرْبَلّة » [١] فى طريق الجزيرة الخضراء ٤٠ ميلا ، ومُربَلّة مدينة صغيرة متحضّرة ، ولها عمارات وأشجار تين كثيرة ، وفى الشمال منها قلعة « بُبَشْتر » [٢] ، وهى قلعة فى نهاية الامتناع والتحصين ، والصعود إليها على طريق صعب .

وأما مابين مالقة وقرطبة من الحصون المانعة التى هى حواضر فى تلك النواحى فمنها مدينة « ارشذونه » [٣] و « انتقيرة » [٤] ، وبينها وبين مالقه ٣٥ ميلا . وكانت ارشذونة هذه وانتقيرة مدينتين أخلتهما الفتن فى زمان الثوار بالأندلس . بعد دولة ابن أبى عامر القائم لدولة بنى أمية . ومن ارشذونة إلى حصن « اشير » [٥] ٢٠ ميلا وهو حصن حسن حصين ، كثير العمارة آهل ، وله سوق مشهورة ، ومنه إلى باغُة [٦] ١٨ ميلا ، وباغُة مدينة صغيرة القدر ، لكنها فى غاية الحسن ، لكثرة مياهها ،

نهى طبيبى عنه فى علتى ما لطبيبى عن حياتى نهى !

(١) هى Marbella على الطريق بين مالقة والجزيرة الخضراء وقد قطعنا هذه الطريق بالسيارة الكهربائية والذى أتذكره أننا بقيناست ساعات من مالقة إلى الجزيرة

(٢) يقول لها الاسبانيول Barbxter أو Bobastro .

(٣) وقد يكتبها العرب بالجيم أى أرجدونة وهكذا جاءت فى « معيار الاختيار » لابن الخطيب الذى هجاها هجواً مراً فقال : شر دار ، وطلل لم يقومنه الاجدار ، وقومها ذوو بطر وأشر ، وشيوخها تيوس فى مسالخ البشر ... الخ

(٤) Ontequera بلدة فى سفح شارات توزكالس بديعة الموقع وهى بلدة زراعية فيها من السكان ٢٣ ألفا وفى رأسها حصن عربى قديم وفيها برج يسمى اليوم بلوطة وبقرب هذه البلدة كانت الواقعة التى هزم فيها أبو عبد الله الزغل سلطان غرناطة جيشا اسبانيولياً بقيادة سيفونتس وأغيلار وذلك سنة ١٤٨٣ .

(٥) الاسبانيول يكتبون هذا الاسم هكذا : Isnajar

(٦) اسم هذه البلدة فى القديم ايباغنوم Epagnumm والعرب كانوا يقولون لها باغه والاسبانيول اليوم يقولون لها Priego

والماء يشق بلدها ، وعليه الارحاء داخل المدينة ، ولها من الكروم والأشجار ما لا مزيد عليه ، وهي فى نهاية الخصب والرخاء . و يليها فى جهة المشرق الحصن المسمى « بالقبذاق » [١] و بينهما مرحلة خفيفة ، وحصن القبذاق كبير عامر ، وهو فى سفح جبل ينظر إلى جهة الغرب ، و به سوق مشهورة ، ومنه إلى حصن « بيّانة » [٢] مرحلة صغيرة ، و بيّانة حصن كبير فى أعلى كدية تراب ، قد حفّت بها أشجار الزيتون الكثيرة ، ولها مزارع الحنطة والشعير . ومن حصن بيانة إلى « قبرة » [٣] مرحلة خفيفة . وحصن قبرة كبير كالمدينة حصين السكان ، وثيق البنيان ، وهو على متصل أرض وطيئة وعمارات ومزارع . ومنه إلى مدينة قرطبة ٤٠ ميلا ، و يتصل به بين جنوب وغرب مدينة « اليسانة » [٤] وهى مدينة اليهود ، ولها ربض يسكنه المسلمون و بعض اليهود ، و به المسجد الجامع ، وليس على الربض سور ، والمدينة مدينة متحصّنة بسور حصين ، و يطوف بها من كل ناحية حفير عميق القعر والسروب ،

(١) بالاسبانيولى Alcabdzac ويقولون أيضا Alkaudette

(٢) إذا جاء المسافر من جيان إلى غرناطة بالسيارة مر بوادى « غواردية » الذى هو إلى الجنوب الشرقى ثم أنه يمر بشارات « اليسيانة » ثم بشارات الأنوار حيث هناك منظر جميل من جهة جبل الثلج شلير ثم يمر بشارات البيرة حتى ينتهى إلى مرج غرناطة وأما الخط الحديدى فيمر بغياض الزيتون الخاصة بجيان وينتهى إلى بلدة يقال لها الدون جيمينو ثم يصل إلى « مرتوس » ثم إلى بلدة يقال لها « الكوديت » (ويقال لها القبذاق) ثم يمر بالناحية التى يسقيها وادى الحوز Guadajoz ثم يصل إلى « لك » و« بيانة » Luque - Baena فلك هى Luque قرية إلى الشمال وأما بيانة Baena فهى إلى الجنوب وهى بلدة سكانها ١٥ ألفاً . ومن هناك يمر الخط ببلدة « قبرة » Cabra وأصل اسمها فى القديم « ايغابروم » Igabrum وسكانها ١١ ألف نسمة موقعها جميل وهى على الصبب الشمالى من شارات قبرة . ثم يقطع الخط نهر قبرة وشاراتها فيصل إلى اليسانة Lucena وهى اليوم بلدة سكانها ٢١ ألفا

(٣) تقدم ذكر « قبره » مع بيانه واليسانة .

(٤) تقدم ذكرها فى هذه الصفحة نفسها

وفائض مياهها قد ملأ الحفير ، واليهود يسكنون بجوف المدينة ، ولا يداخلهم فيها مسلم البتة وأهلها أغنياء مياسير ، أكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين ، واليهود بها تحذّر وتحصّن من مضدّهم . ومن اليسانة إلى مدينة قرطبة ٤٠ ميلا ، ويلي هذه الحصون حصن « بُلاى »[1] Aguilar De La Frontera وحصن « مُنْتُرك »[2] وهى في ذاتها حصون يسكنها البربر من أيام الأمويين ، ومن حصن بُلاى إلى مدينة قرطبة ٢٠ ميلا ، وبالقرب من بُلاى حصن « شنت[3] ياله » وهو حصن على مَدَرَة ، والماء منه بعيد . ومنه إلى استجة[4] فى الغرب ١٥ ميلا . ومن حصن شنت ياله

---

(١) وهو Aguilar De La Frontera

(٢) يقول الأسبانيول لهذا الحصن Monturque

(٣) Santa Ella

(٤) الاسبانيول يقولون اسيجه Eciga والخط الحديدى يخرج من قرطبة إلى وادى الجوز Guadajoz ثم إلى « وادى القصر » ثم إلى « كرلوطه » ثم إلى استجة التى هى على ٥٦ كيلو متراً من قرطبة وكان الرومان يقولون لها استيجى Astigi وكان لها عظمة فى زمان الرومانيين وأما الآن فهى بلدة صناعية سكانها ٢٢ ألف نسمة وشوارعها لا تزال ضيقة كشوارع المدن العربية وحرها شديد فى الصيف وهذا هو السبب فى ضيق شوارعها . وأما ضواحيها فعلى خصب عظيم وعلى مقربة منها بلدة يقال لها « لويزيانة » ثم إن الخط الحديدى على مائة كيلو متر من قرطبة يصل إلى مدينة « مرشانة » Marchena وهى بلدة قديمة جداً مبنية على محل عال وحولها أسوار وعلى ١٠٨ كيلومترات بلدة يقال لها « بردى » Paradas وبعدها بلدة يقال لها الرحل Arahal وعلى مسافة ١٢٨ كيلومتراً يصل الخط إلى « موررور » وهى على « وادى ياره » ويوجد بقرب شارات موررور حصن عربى ومقاطع للبرمر . ثم يصل الخط إلى أتريرة Utrera ثم إنه من أشبيلية إلى أتريرة يقطع وادى ياره Guadaira بازاء الوادى الكبير فيمر بمكان يقال له حصن الفرج Aznalfarache ثم ببلدة « كورية » ، وأما أتريرة فبلدة فيها ١٥ الف نسمة أهلها زراع ورعاة أغنام . ومن أتريرة يذهب الخط فى سهول الوادى الكبير فيمر ببلدة يقال لها « قنطرلة » ثم ببلدة يقال لها عند الاسبانيول « لبريجة » ، وكان العرب يقولون لها « نبريشة » ، وأهلها ١١ الف

إلى قرطبة ٢٣ ميلا . ومدينة استجة على نهر أغرناطه المسمى شنيل وهي مدينة حسنة ولهـا قنطرة عجيبة البناء من الصخر المنجور ، و بها أسواق عامرة ، ومتاجر قائمة ، ولها بساتين وجنات ملتفة ، وحدائق زاهية . ومن استجة إلى قرطبة ٣٥ ميلا ومن استجة في جهة الجنوب إلى حصن اشونة (١) نصف يوم . وحصن أشونة حصن ممدّن كثير الساكن ومنه إلى « بَلشانة » Belicena ومدينة بلشانه Belicena حصن كبير عامر ، له حصانة ووثاقة . يحيط به شجر الزيتون . ومن استجة إلى مدينة قَرْمُونه Carmona ٤٥ ميلا ، وهي مدينة كبيرة يضاهي سورها سور اشبيلية وكانت فيما سلف بأيدي البرابر ، ولم يزل أهلها أبداً أهل نفاق ، وهي حصينة على رأس جبل حصين منيع ، وهي على فحص ممتد ، جيد الزراعات ، كثير الاصابة في الحنطة والشعير ومنه في الغرب إلى اشبيليه ١٨ ميلا ، وقد ذكرنا اشبيلية فيما سبق . ومن مدينة قَرْمونة إلى شريش Jerej من كورة شذونه Sidonia ٣ مراحل . وكذلك من مدينة اشبيلية إلى شريش مرحلتان كبيرتان جداً

نسمة ولها كنيسة أصلها جامع . ومنها يمر المسافر بمكان يقال له الكرڤو Elcurvo فيرى أثار حصن عربي قديم يقول له الاسبانيول « ملغاريحو » Melgarejo ومن هناك يصل إلى « شريش » والأسبانيول يسمونها خريس Jerez وذلك لأنهم يقلبون الجيم والشين خاءا وسيأتي الكلام على شريش في مكانه

(١) عند الأسبانيول أوسينا Ossuna يخرج المسافر من قرطبة بالقطار الحديدي القاصد إلى مالقة فيمر على جسر فوق الوادي الكبير طوله ٢٠٠ متر ويخترق ناحية « كامبينا » Campina التي يسقيها وادي الجوز وبعد مسافة ٥٠ كيلو مترا يمر ببلدة « منتيلة » Momtilla ثم ببلدة « منت ميور » Montemayor ثم يتقدم إلى مدينة « اغيلار » Agiler وفيها حصن عربي هو حصن بلاي ثم يمر على بحيرتين اسم إحداهما « زونار » والأخرى « رينكون » وبالقرب منهما حصن عربي قديم وعلى مسافة ٧٦ كيلو متراً بلدة « بنت شنيل » وعلى مسافة ١٠٠ كيلو متر بلدة الروضة Roda وفيها ملتقى الخطين الحديديين خط غرناطة ـ مالقة وخط اشبيلية ـ قادس . وكل هذه النواحي ملآى بشجر الزيتون ومن الروضة يذهب الخط الحديدي إلى مرشانة ثم إلى أشونة وهي بلدة رومانية قديمة أعطاها قيصر حقوق المدن الرومانية

ومدينة شريش متوسطة حصينة مسوّرة الجنات ، حسنة الجهات ، وقد أطافت بها الكروم الكثيرة ، وشجر الزيتون والتين ، والحنطة بها ممكنة ، وأسعارها موافقة ومن شريش إلى جزيرة قادس Cadix ١٢ ميلا فمن شريش إلى القناطر ٦ أميال ، ومن القناطر إلى جزيرة قادس ٦ أميال ، ومن اشبيلية المتقدم ذكرها إلى قرطبة ٣ مراحل ولها ٣ طرق طريق « الزنبجيار » Az - Zanbadjar وطريق «لورة» Lora وطريق الوادى ، فأما طريق الزّنبجيار فقد ذكرناها ، وهي من اشبيلية إلى قرمونة مرحلة . ومن قرمونة إلى استجة مرحلة . ومن استجة إلى قرطبه مرحلة . وأما طريق لورة فمن اشبيلية إلى منزل « أبان » Aban ثم إلى « مرلش » Marlich ثم إلى حصن « القليعة » Coléa و به المنزل ، وعند مسيرك من مرلش إلى القليعة تبصر حصن قطنيانه Cantillanna على الشمال والمنزل القليعة وهى ضفة النهر الكبير ، يجاز اليها فى المركب ، ومن حصن القليعة إلى الغيران[1] إلى حصن لورة ، وهو يبعد عن الطريق نحو رمية سهم ، وعلى يمين المار حصن كبير عامر ، على ضفة النهر الكبير ، ومن لورة إلى قرية « صدف »[2] ويقابلها على يسار السالك على جبل عال حصن منيع ، وقلعة متحصنة تسمى « شنت فيِلَة »[3] وهى معقل للبربر من قديم الزمان .

---

(١) هذه التى يقول لها ابن حوقل « غرغيرة »

(٢) الصدف ككتف بطن من كندة قال الزبيدى فى تاج العروس فى شرح القاموس : ينسبون اليوم إلى حضرموت وإذا نسبت اليهم قلت هو صدفى محركة كراهة الكسرة قبل ياء النسب قاله ابن دريد وأنشد :

يوم لهمدان ويوم للصدف ولتميم مثله أو تعترف

وقال غيره : هو صدف بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير ابن سبأ . وينسب إليه خلق من الصحابة وغيرهم وقد نزلوا بمصر واختطوا بها ومنهم يونس بن عبد الأعلى الصدفى وغيره اه . وهذه القرية فى الأندلس نزلها أناس من الصدف وعمرت بهم فقيل لها الصدف

(٣) الاسبانيول يقولون لها : Siete Filla

ومن صدف إلى قلعة « ملبال »[١] وهى على نهر ملبال وهو نهر مدينة « فرنجُلوش »[٢] ومن هذه القنطرة إلى مدينة فرنجُلوش ١٢ ميلا . ومن القنطرة إلى قرية « شُوشِبيل »[٣] وهى قرية كبيرة على نهر قرطبة المسمّى بالنهر الكبير ، ومنها إلى « حصن مُراد »[٤] وبه المنزل ، ومن حصن مراد إلى الخنادق إلى حصن المُدَوَّر ، ثم إلى السوانى[٥] ثم إلى قرطبة ، وهى المنزل . وبين أشبيلية وقرطبة ٨٠ ميلا على هذا الطريق ، ومن حصن المدور الذى ذكرناه إلى فرنجولش ١٢ ميلا ، وهى مدينة حصينة منيعة ، كثيرة الكروم والأشجار ، ولها على مقربة منها معادن الفضة ، بموضع يعرف بالمرج ، ومنها إلى حصن « قسطينة »[٦] الحديد ١٦ ميلا ، وهذا الحصن حصن جليل ، عامر أهل ، وبجباله معادن الحديد الطيب المتفق على طيبه وكثرته ، ومنه يتجهز إلى جميع أقطار الأندلس ، ويقرب منه حصن « فِرِّيش »[٧] وبه مقطع الرخام الرفيع الجليل الخطير ، المنسوب إليه ، والرخام الفِرِّيشى أجل الرخام بياضاً وأحسنه ديباجا ، وأشده صلابة ، ومن هذا الحصن إلى « جبل العيون »[٨] ٣ مراحل خفاف ، ومن شاء المسير إلى قرطبة أيضاً من إشبيلية ركب المراكب ، وسار صاعداً فى النهر إلى أرحاء « النرّادة » ، إلى عطف منزل « ابان » ، إلى « قطنيانة » ، إلى « لورة » ، إلى حصن « الجرف » ، إلى « شوشبيل » ، إلى

---

(١) لم يعرفها دوزى ولا عرفناها نحن

(٢) الاسبانيول يقولون لفرنجلوش Hornachuelos

(٣) Chouchabil

(٤) هذا الحصن اسمه عند الاسبان Mratalla

(٥) الاسبانيول أخذوا لفظة السانية فيما أخذوه من لغة العرب وهى الآلة الرافعة للماء وأصلها الغرب مع أدواته والسانية أيضا الناقة يستقى عليها من البئر من فعل سنا ارتفع ويقال أيضا سنوت الباب فتحته . والاسبانيول يكتبون السانية : Acéna

(٦) قسنطينة الحديد Constantine De Fer

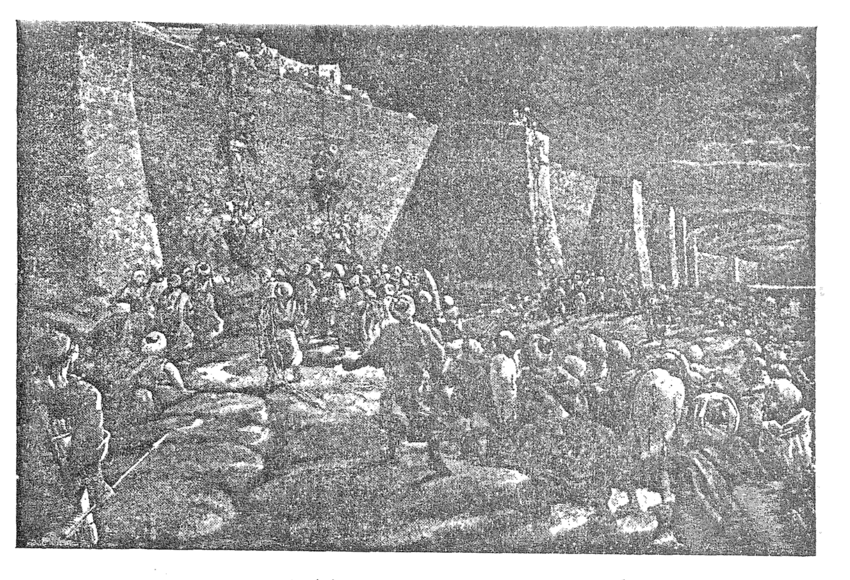
(٧) Firriche (٨) Gibraléone

موقع نهر « ملبال » ، إلى حصن « المدور » ، إلى « وادى الرمان » ، إلى أرحاء « ناصح »[1] إلى قرطبة ، ومدينة قرطبة قاعدة بلاد الأندلس ، وأم مدنها ، ودار الخلافة الاسلامية .

وفضائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومناقبهم أظهر من أن تستر ، وإليهم الانتهاء ، فى السناء والبهاء ، بل هم أعلام البلاد ، وأعيان العباد ، ذُكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الزى فى الملابس والمراكب ؛ وعلو الهمة فى المجالس والمراتب ، وجميل التخصص فى المطاعم والمشارب ، مع جميل الخلائق ، وحميد الطرائق ، ولم تخلُ قرطبة قط من أعلام العلماء ، وسادات الفضلاء ، وتجّارها مياسير ، لهم أموال كثيرة ، وأحوال واسعة ، ولهم مراكب سنية ، وهم عليّة ، وهى فى ذاتها مدن خمس ، يتلو بعضها بعضاً ، بين المدينة والمدينة ، سور حاجز ، وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات ، وفى طولها من غربيّها إلى شرقيّها ٣ أميال ، وكذلك عرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود بشمالها ميل واحد . وهى فى سفح جبل مطلّ عليها يسمّى جبل العروس ، ومدينتها الوسطى هى التى فيها باب القنطرة .

وفيها المسجد الجامع ، الذى ليس بمساجد المسلمين مثله ، بنية وتنميقا ، وطولا وعرضا ، وطول هذا الجامع مائة باع مرسلة ، وعرضه ٨٠ باعا[2] ، ونصفه مُسَقَّف

(١) Nacih (٢) يقول دوزى نقلا عن لابورد Laborde فى كتابه « وصف أسبانية » Description De L'Espagne : إن طول مسجد قرطبة فى حالته الحاضرة هو ٦٢٠ قدماً وعرضه ٤٤٠ قدماً وهكذا قرر ماندوس Mandoz فى كلامه عن هذا المسجد . وكان فيه أيام العرب ١٤٠٠ سارية أما الآن فهى ٨٥٠ سارية لا غير كما قال البارون شاك Schack قلت : أخبرنى المهندس هرناندز الذى كان دليلى فى قرطبة وهو من الموكلين بالجامع الأعظم أن طول المسجد هو ١٧٥ متراً وأن عرضه ١٢٥ متراً وأخذ القلم وحسب ذلك بالتربيع فوجد أن المسقف والصحن يتسعان لثمانين ألف مصل أما لافى بروفنسال المستشرق الافرنسى صاحب « أسبانية المسلمة



عساكر العرب فى حصار قرطبة وهم يتسلقون جدرانها سنة ٧١٢ ب ٠ م

ونصفه صحن للهواء ، وعدد قِسِيّ مُسَقَّفِهِ ١٩ قوساً ، وفيه من السوارى ، أعنى سوارى مُسَقَّفه ، بين أعمدته ، وسوارى قِبلَته ، صغاراً وكباراً ، مع سوارى القبة الكبرى وما فيها : ألف سارية . وفيه ١١٣ ثُرَيًّا للوقيد ، أكبرها واحدة منها تحمل ألف مصباح ، وأقلّها تحمل ١٢ مصباحاً . وسقفه كله سماوات خشب مسمّرة فى جوائزسقفه ، وجميع خشب هذا المسجد الجامع من عيدان الصنوبر الطرطوشى [1]

فى القرن العاشر ، فقال إن : طول المسجد هو ١٨٠ متراً وعرضه ١٣٠ وسنذكر فيما سيأتى أثناء الكلام على قرطبة كل ما يتعلق بهذا المسجد

(١) الصنوبر الطرطوشى مضرب الأمثال فى الصلابة والثبات هذا وقد نقل المقرى فى النفح كلام الادريسى هنا ملخصا فقال : وقال بعض المؤرخين حين ذكر قرطبة ما ملخصه : هى قاعدة بلاد الأندلس ودار الخلافة الاسلامية ، وهى مدينة عظيمة وأهلها أعيان البلاد وسراة البلاد فى حسن المآكل والمشارب والملابس والمراكب وعلو الهمم وبها أعلام العلماء ، وسادات الفضلاء ، واجلاد الغزاة وأنجاد الحروب ، وهى فى تقسيمها خمس مدن يتلو بعضها بعضا ، وبين المدينة والمدينة سور عظيم حاجز ، وكل مدينة مستقلة بنفسها ، وفيها ما يكفى لأهلها من الحمامات والأسواق والصناعات ، وطول قرطبة ثلاثة أميال فى عرض ميل واحد ، وهى سفح جبل مطل عليها ، وفى مدينتها الثالثة وهى الوسطى القنطرة والجامع الذى ليس فى معمور الأرض مثله ، وطوله مائة ذراع فى عرض ثمانين ، وفيه من السوارى الكبار الف سارية ، وفيه مائة وثلاثة عشر ثريا للوقود ، أكبرها تحمل ألف مصباح . وفيه من النقوش والرقوم ما لايقدر أحد على وصفه ، وبقبلته صناعات تدهش العقول ، وعلى فرجة المحراب سبع قسىّ قائمة على عمد ، طول كل قوس فوق القامة ، قد تحير الروم والمسلمون فى حسن وضعها . وفى عضادتى المحراب أربعة أعمدة اثنان أخضران ، واثنان لازورديان . ليس لها قيمة ، لنفاستهما ، وبه منبر ليس على معمور الأرض أنفس منه ولامثله فى حسن صنعته ، وخشبه ساج وآبنوس وبقم وعود قاقلى ، ويذكر فى تاريخ بنى أمية أنه أحكم عمله ونقشه فى سبع سنين ، وكان يعمل فيه ثمانية صناع ، لكل صانع فى كل يوم نصف مثقال محمدى ، فكان جملة ما صرف على المنبر لا غير عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالا . وفى الجامع حاصل كبير ملآن

ارتفاع حد الجائزة منه شبر وافر ، فى عرض شبر إلا ثلاثة أصابع ، فى طول كل

من آنية الذهب والفضة لأجل وقوده ، وبهذا الجامع مصحف يقال إنه عثمانى ، وللجامع عشرون باباً مصفحات بالنحاس الأندلسى ، مخرمة تخريماً عجيباً بديعاً ، يعجز البشر ويبهرهم ، وفى كل باب حلقة فى نهاية الصنعة والحكمة ، وبه الصومعة العجيبة التى ارتفاعها مائة ذراع بالمكى المعروف بالرشاشى ، وفيها من أنواع الصنائع الدقيقة ما يعجز الواصف عن وصفه ونعته . وبهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر مكتوب على الواحد اسم محمد ، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح ، والجميع خلقة ربانية .

وأما القنطرة التى بقرطبة فهى بديعة الصنعة ، عجيبة المرأى ، فاقت قناطر الدنيا حسناً . وعدة قسيها سبعة عشر قوساً سعة كل قوس منها خمسون شبرا ، وبين كل قوسين خمسون شبرا . وبالجملة فحاسن قرطبة أفضل المحاسن ، وأعظم من أن نحيط بها وصفاً انتهى ملخصاً وهو وإن تكرر بعضه مع ماقدمته فلا يخلو من فائدة زائدة والله الموفق

وما ذكره فى طول المسجد وعرضه مخالف لما مر ، ويمكن الجواب بأن هذا الذراع أكبر من ذلك ، كما أشار اليه هو فى أمر الصومعة ، وكذلك ذكره فى عدد السوارى ، إلا أن يقال : ما تقدم باعتبار الصغار والكبار ، وهذا العدد الذى ذكره هنا إنما هو للكبار فقط كما صرح به والله تعالى أعلم . وأما الثريات فقد خالف فى عدها ما تقدم ، مع أن المتقدم هو قول ثقات مؤرخى الأندلس ، ونحن جلبنا النقل من مواضعه وإن اختلفت طرقه ومضموناته انتهى . قلت : أى من قرأ هـذا التلخيص ، وكان طالع جغرافية الشريف الادريسى ، يعلم أن هذا النقل الذى نقله المقرى ، إنما نقله عنه ولكن ملخصاً كما صرح هو بذلك . ولم نعلم سبب تحامى المقرى نسبة هذا النقل والتصريح باسم الكتاب الذى نقل عنه . وعلى كل حال فظاهر للعيان أن الكلام ملخص عن « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » غير أنه لابد هنا من بعض ملاحظات : الأولى أن هناك غلطا فى النسخ ، إما فى كتاب الادريسى أو فى كتاب نفح الطيب نفسه ، مثل أن الجامع الأعظم طوله مائة ذراع فى عرض ثمانين ، والحال أن الادريسى كما فى نسخة باريز ونسخة أوكسفورد لم يقل مائة ذراع ، وإنما قال مائة باع مرسلة فى ثمانين باعا . والفرق بين الباع والذراع غير خاف على أحد . وأنه يستحيل قول الادريسى إن الجامع هو مائة ذراع فى ثمانين ، لأن الادريسى عرف قرطبة بنفسه ، ووصف المسجد

جائزة منها ٣٧ شبراً ، وبين الجائزة والجائزة غِلَظ جائزة . والسماوات التي ذكرناها

الأعظم وصف من رأى لا من سمع ، فلا يمكن أن يقع فى خطأ فظيع كهذا . ولقد أشار المقرى بأنه يمكن أن يكون هذا الذراع الذى ذكره الادريسى أكبر من الذراع الذى حسب بموجبه غيره من المؤرخين ، ممن ذكروا أن طول الجامع من القبلة إلى الجوف ثلاثمائة وثلاثون ذراعاً وعرضه من الغرب إلى الشرق مائتان وخمسون ذراعاً ، فمهما كان هذا الذراع يزيد على ذلك الذراع فيبقى البون شاسعاً ، والصحيح أن الادريسى إنما قال مائة باع فى ثمانين ، لا مائة ذراع فى ثمانين . والملاحظة الثانية هى فى اختلاف عدد الثريات ، فالادريسى يقول مائة وثلاث عشرة ثريا ، وهو مخالف لما قاله غيره ، مثل ابن الفرضى مثلا الذى قال أنها مائتان وثمانون ثريا ، ومثل ابن سعيد الذى نقل عن ابن بشكوال فقال أنها مائتان وأربع وعشرون ثريا . وليس الاختلاف هنا بشيء،فان الثريات هى مما يزيد وينقص بحسب الوقت ، لأنها آنية منقولة وليست من قبيل المساحة التى هى شيء ثابت محسوس . وتأويل هذا الفرق هو أنه يوم عرف الادريسى مدينة قرطبة لم يكن فى الجامع الأعظم أكثر من ١١٣ ثريا ، فان الادريسى نفسه ذكر كون قرطبة لعهده قدانتقصت منها الحوادث بتوالى الفتن ، ونزح أهلها إلا اليسير ، فلا جرم أن النقص الذى لحق بأهلها وبكل شيء يخصها قد وصل إلى ثريات جامعها ، فسقط عددها إلى النصف مما كانت كما سقط عدد الخدمة فى الجامع فقد ورد فى كلام ابن الفرضى أنه كان يتصرف فى المسجد بين أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وموقدين مائة وتسعة وخمسون شخصاً . وروى غيره أنهم كانوا ثلاثمائة ، والحال أن الادريسى لا يذكر غير ستين شخصاً فيظهر أن هذا العدد هو الذى كان فى زمانه ، أى بعد تقلص العمران فى قرطبة .

والملاحظة الثالثة هى من جهة سقوط كلمات فى النسخ أو اختلافها ، ففى نسخة نفح الطيب يقول نقلا عن الادريسى إنه كان يعمل فى المنبر ثمانية صناع . وفى نسختى باريز واكسفورد يقول ستة ، وفى نسخة نفح الطيب يقول : وفى الجامع حاصل كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لأجل وقوده . وفى نسختى باريز وأوكسفورد يزيد على الذهب والفضة لفظة المسك . وفى نسخة نفح الطيب يذكر أن الصومعة ارتفاعها مائة ذراع بالمكى المعروف بالرشاشى . والحال أنه فى النسختين المذكورتين يذكر الرشاشى بدون المكى . والملاحظة الرابعة هى أنه فى نسخة نفح الطيب يقول

هي كلها مسطّحة ، فيها ضروب الصنائع المنشاة من الضروب المسدّسة والمورّبى ! وهى صنع الفصّ وصنع الدوائر والمداهن ، لا يشبه بعضها بعضاً ، بل كل سماء منها مُسكتَفٍ بما فيه من صنائع قد أحكم ترتيبها ، وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة الزنجفرية ، والبياض الاسفيذاجى ، والزرقة اللازوردية ، والزرقون البازوقى ، والخضرة الزنجارية ، والتكحيل النقسى ، تروق العيون ، وتستميل النفوس ، باتقان ترسيمها ، ومختلفات ألوانها وتقسيمها . وسعة كل بلاطة منها ، اعنى من بلاطات مسقّفه ٣٣ شبرا ، و بين العمود والعمود ١٥ شبراً ، ولكل عمود منها رأس رخام وقاعدة رخام . وقد عقد بين العمود والعمود على أعلى الرأس قسىّ غريبة ، فوقها قسىّ أُخر ، على عمد من الحجر المنجور متقنة . وقد جصّص الكل منها بالجصّ والجيّار ، وركّبت عليها بحور مستديرة ناتئة ، بينها ضروب صناعات الفسفس بالمغرة . وتحت كل سماء منها إزار خشب فيه مكتوب آيات القرآن .

ولهذا المسجد الجامع قبلة يُعجز الواصفين وصفُها ، وفيها إتقان يبهر العقول تنميقُها وكل ذلك من الفسيفساء المذهب والملوّن ، مما بعث صاحب القسطنطينية العظمى إلى عبد الرحمن المعروف بالناصر لدين الله الأموى . وعلى هذا الوجه ، أعنى وجه المحراب ، سبع قسى قائمة على عمد ، وطول كل قوس منها أشف من قامة ، وكل هذه القسىّ مزجّجة صنعة القرط وقد أعيت المسلمين والروم بغريب أعمالها ، ودقيق تكوينها ووضعها . وعلى أعلى الكل كتابان مسجونان بين بحرين من الفسيفساء

إن فى الجامع ثلاثة أعمدة حمر ، على الواحد اسم محمد وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح . وهذا لا يوجد فى النسخة التى نقلنا عنها المطبوعة فى ليدن وفقا لنسختى باريز وأوكسفورد ، والخبر كله غريب ، لأن التصوير مكروه ، ولا سيا فى المساجد . وقد أوردنا هذه الملاحظات لأجل الاستدلال على ما بين النسخ من الاختلافات فليكن الراوى من النسخ على حذر ، ولا يجوز له أن يجزم بخبر إلا بعد أن ينخل رواياته نخلا دقيقاً ، ويقابل بينها بأجمعها فيعتمد على المتواتر الذى أجمع عليه الرواة أو الذى ترجح بالاقل لدى الجمهور و بالاخص على ما طابق المحسوس

المذهب ، فى أرض الزجاج اللازوردى وتحت هذه القسى التى ذكرناها كتابان مثل الأولين مسجونان بالفسيفساء المذهب فى أرض اللازورد ، وعلى وجه المحراب أنواع كثيرة من التزيين والنقش ، وفى عضادتى المحراب ٤ أعمدة اثنان أخضران ، واثنان لازورديان لاتقوم بمال . وعلى رأس المحراب خصة رخام قطعة واحدةمشبوكة محفورة منمقة بأبدع التنميق من الذهب واللازورد وسائر الألوان وعلى وجه المحراب مما استدار به حظيرة خشب بها من أنواع النقش كل غريبة .

ومع يمين المحراب المنبر الذى ليس بمعمور الأرض مثله صنعة خشب آبنوس وبقس وعود المجمر ، ويحكى فى كتب تواريخ بنى أمية أنه صنع فى نجارته ونقشه ٧ سنين ، وكان عدد صناعه ستة رجال ، غير من يخدمهم تصرفا ، ولكل صانع منهم فى اليوم نصف مثقال محمدى . وعن شمال المحراب بيت فيه عُدد وطشوت ذهب وفضة ومسك لوقيد الشمع فى ليلة ٢٧ من شهر رمضان المعظم . ومع ذلك ففى هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله ، فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو المصحف الذى خطه بيمينه رضى الله عنه ، وفيه نقط من دمه ، وهذا المصحف يخرج فى صبيحة كل يوم جمعة ، ويتولى اخراجه رجلان من قَوَمَة المسجد . وأمامهم رجل ثالث بشمعة ، وللمصحف غشاء بديع الصنعة ، منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه ، وله بموضع المصلى كرسى يوضع عليه ويتولى الامام قراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى موضعه .

وعن يمين المحراب والمنبر باب يفضى إلى القصر بين حائطى الجامع فى ساباط متصل ، وفى هذا الساباط ٨ أبواب منها ٤ تنغلق من جهة القصر ، و ٤ تنغلق من جهة الجامع . ولهذا الجامع عشرون باباً مصفحة بصفائح النحاس وكواكب النحاس ، وفى كل باب منها حلقتان فى نهاية من الأتقان ، وعلى وجه كل باب منها فى الحائط ضروب من الفص المتخذ من الآجر الأحمر المحكوك ، أنواعاً شتى ، وأجناساً مختلفة من الصناعات والتريش وصدور البُزاة . وفيما استدار بالجامع فى أعلاه لتمدد الضوء

ودخوله إلى المسقّف متكآت رخام ، طول كل متكأ منها قدر قامة ، فى سعة ٤ أشبار فى غلظ ٤ أصابع . وكلها صُنُع مسدّسة ومثمّنة ، مخرّمة منفوذة لا يشبه بعضها بعضاً .

وللجامع فى الجهة الشمالية الصومعة الغريبة الصنعة الجليلة الأعمال الرائقة الأشكال التى ارتفاعها فى الهواء مائة ذراع بالذراع الرشاشى[1] منها ٨٠ ذراعاً إلى الموضع الذى يقف عليه المؤذن بقدميه ، ومن هناك إلى أعلاها ٢٠ ذراعاً ويصعد إلى أعلى هذه المنارة بدرجين أحدهما من الجانب الغربى والثانى من الجانب الشرقى إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لا يجتمعان إلا اذا وصلا أعلاها . ووجه هذه الصومعة كله مبطّن بالكذّان الكّى ، منقوش من وجه الأرض إلى أعلى الصومعة صنع مثمّنة تحتوى على أنواع من الصنع والتزويق والكتابة والملون ، وبالأوجه الأربعة الدائرة من الصومعة صفان من قسى دائرة على عمد الرخام الحسن . والذى فى الصومعة من العمد بين داخلها وخارجها ٣٠٠ عمود بين صغير وكبير . وفى أعلى الصومعة بيت له أربعة أبواب مغلقة ، يبيت فيه كل ليلة مؤذنان . وللصومعة ١٦ مؤذناً ، ويؤذنون فيها بالدولة لكل يوم مؤذنان على توالٍ . وفى أعلى الصومعة على القبة التى على البيت ثلاث تفاحات ذهب ، وتفاحتان من فضة ، وأوراق سوسنية ، تسع الكبيرة من التفاحات ٦٠ رطلا من الزيت . ويخدم الجامع كله ٦٠ رجلا وعليهم قائم ينظر فى أمورهم ، وهذا الجامع متى سها أمامه لا يسجد لسهوه قبل السلام ، بل يسجد بعد السلام .

ومدينة قرطبة فى حين تأليفنا هذا الكتاب طحنتها رحى الفتنة ، وغيّرها حاول المصائب والأحداث ، مع اتصال الشدائد على أهلها ، فلم يبق بها منهم الآن إلا الخلق اليسير ، ولا بلد أكبر اسما منها فى بلاد الأندلس .

---

(١) الذراع الرشاشى يقال أنه الذراع المكى وهو ثلاثة أشبار

ولقرطبة القنطرة التى علت القناطر فخراً فى بنائها واتقانها ، وعدد قسيّها ١٧ قوساً بين القوس والقوس ٥٠ شبراً ، وسعة القوس مثل ذلك ٥٠ شبراً ، وسعة ظهرها المعبور عليه ٣٠ شبراً . ولها ستائر من كل جهة تستر القامة . وارتفاع القنطرة من موضع المشى إلى وجه الماء فى أيام جفوف الماء ٣٠ ذراعاً ، و إذا كان السيل يصل الماء منها إلى نحو حلوقها . وتحت القنطرة يعترض الوادى رصيف سد مصنوع من الأحجار القبطية والعمد الجاشية (١) من الرخام . وعلى هذا السد ثلاثة بيوت أرحاء ، فى كل بيت منها أربع مطاحن (٢) .

ومحاسن هذه المدينة وشماختها أكثر من أن يحاط بها خُبْراً

ومن مدينة قرطبة إلى مدينة الزهراء ٥ أميال ، وهى قائمة الذات بأسوارها ورسوم قصورها ، وفيها قوم سكان بأهليهم وذراريهم ، وهم قليلون ، وهى فى ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الأعلى يوازى على الجزء الأوسط ، وسطح الثلث الأوسط يوازى على الجزء الأسفل ، وكل ثلث منها له سور . فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها . والجزء الأوسط

---

(١) قد ترجم دوزى « الاحجار القبطية » بالاحجار المصرية وقال عن « العمد الجاشية » لعلها مصحفة وأصلها « الخاشنة » ونحن نقول : لم يرد استعمال « الخاشنة » وإنما يقولون « الخشنة » ونرى الأقرب أن تكون هذه اللفظة بالسين المهملة لا بالشين المعجمة وأنها « الجاسية » أى الصلبة

(٢) لا تزال جدران المطاحن قائمة إلى الآن وإليها أشرت بقولى فى القصيدة التى نظمتها يوم زرت قرطبة

وتلك الطواحين الشهيرة لم تزل ... كأن تركوها أمس لم تتغير

ومنها :

ولما رأيت المسجد الجامع الذى ... بقرطبة من فوق فوق التصور

عضضت على كفى بكل نواجذى ... وقلت لعينى اليوم دورك فاهمرى

وسنذكرها كلها فى محلها

بساتين وروضات والجزء الثالث فيه الديار والجامع . وهي الآن خراب فى حال الذهاب .

ومن مدينة قرطبة إلى المرّية ٨ أيام . ومن قرطبة إلى اشبيلية ٨٠ ميلا . ومن قرطبة إلى مالقة ١٠٠ ميل . ومن قرطبة إلى طليطلة ٩ مراحل ، فمن أرادها سار من قرطبة فى جهة الشمال إلى عقبة « أرلش »[1] ١١ ميلا . ومنها إلى دار البقر[2] ٦ أميال « ثم إلى بطروش »[3] ٤٠ ميلا . وحصن « بطروش » حسن كثير العمارة ، شامخ الحصانة ، لأهله جلادة وحزم على مكافحة أعدائهم ، ويحيط بجبالهم وسهولهم شجر البلوط الذى فاق طعمه طعم كل بلوط على وجه الأرض ، وذلك أن أهل هذا الحصن لهم اهتمام بحفظه وخدمته ، لأنه لهم غلة وغياث فى سنى الشدة والمجاعة . ومن حصن

(١) Arlech

(٢) يقول الاسبان لدار البقر Castillo Del Bacar

(٣) Bedroches جاء فى دليل بديكر أن الخط الحديدى من مجريط إلى بطليوس يمر بقرية « غيتاف » Getafe وتكون وراءه جبال وادى الرمل Guadarrama ثم يصل الخط إلى بلدة « القدور » Algodor ومنها يتشعب خط كستيليجو ـ طليطلة . ثم يجتاز الخط شعاب جبال طليطلة الفاصلة بين وادى تاجة ووادى يانة ثم يمر بلدة « المو ناسيد » Almonacid وفيها حصن عربى ثم بلدة «ماسكارالك» Mascaraque ثم بلدة « مورة » Mara وفيها بقايا حصن وهى على ٩١ كيلو متراً من مجريط ثم بلدة « أورغاز » Orgaz وفيها أيضاً حصن كبير ثم بلدة « منسنيق » Manzanéque ثم « ايبانش » Ybenes وعن يمينه «وادى الأرزة» Guadalerza ثم بلدة « أورده » Urda ثم يصل إلى بلدة ريال Ciudad Real التى بقربها بلدة « الأرك » Alarcos وهذه الشهيرة بالوقعة التى انتصر فيها الموحدون على الأذفنش الثامن صاحب قشتالة سنة ١١٩٥ ثم يمر بأرض قلعة رباح ثم بلدة « برتلانو » Puertellano ثم بلدة اسمها « المدور » (غير حصن المدور الذى هو من عمل قرطبة) ثم بلدة «صان كنتين» San Quintin ثم « بلد نبياش » Valdepénas بقرب مشتى يقال له وادى الكدية ثم يصل بعد ٢٧١ كيلو مترا من مجريط إلى « المعدن » Almaden وفيها حصن عربى

بطروش إلى حصن « غافق » [١] ٧ أميال ، وحصن غافق حصن حصين ، ومعقل جليل ، وفى أهله نجدة وحزم ، وجلادة وعزم ، وكثيراً ما تسرى إليهم سرايا الروم فيكتفون بهم فى إخراجهم عن أرضهم ، واتقاذ غنائمهم منهم ، والروم يعلمون بأسهم وبسالتهم فيناحرون [٢] أرضهم ويتحامون عنهم . ومن قلعة غافق إلى جبل « عافور » [٣] مرحلة ، ثم إلى دار البقر مرحلة ، ثم إلى قلعة « رباح » [٤] ، وهى قلعة حسنة ، وقد سبق ذكرها . وكذلك الطريق من قرطبة إلى بطليوس . . من قرطبة إلى دار البقر المتقدم ذكرها مرحلة ، ومنها إلى حصن « بِنذر » [٥] مرحلة ، ثم إلى « زواغة » مرحلة ، وزواغة حصن عليه سور تراب ، وهو على كدية تراب ، ومنه إلى نهر « اثنه » [٦] مرحلة ، ومنه إلى حصن « الحنش » [٧] مرحلة ، وحصن

وفيها معدن من أغنى معادن الزئبق فى العالم ومن هناك يمر الخط بين « شيليون » Chillon و « بطروس » Pedroches بواد اسمه « وادى المِيس » Guadalmez ويدخل فى عمل قرطبة فيمر ببلدة « بلال قصر » Belalcasar ثم بلدة « المورشون » Almorchon حيث ينشعب من الخط شعبة إلى قرطبة . وعلى مسافة ٤٠٨ كيلو مترات يصل إلى « مدلين » Medellin وعلى ٤٥١ كيلو مترا يصل إلى ماردة اه محصلا . ثم قال دوزى : إن البلوط الذى نسبه الادريسى إلى بطروس يترجح أنه الكستنا لا البلوط المعهود واستدل على ذلك بأن بطره القلعى يسمى الكستنا بطروش

(١) يقول الأسبان لغافق Ghafic

(٢) فى النسخة التى ترجم عنها دوزى يقول : « ينافرون أرضهم ويتحامون عنهم » ولا معنى هنا لجملة « ينافرون أرضهم » والأقرب أن تكون « يناحرون أرضهم » أى هم ساكنون فى نحر أرضهم ولكنهم لشدة بأسهم تراهم يتجنبون التعرض لهم

(٣) جبل عافور لم يعرفه دوزى ولا نحن اهتدينا له وإنما نعلم أن العرب تقول : وقع فى عافور أى فى شر وعفار ومثله وقع فى عاثور

(٤) Calatrava

(٥) يظن دوزى أن « بنذر » مصحف عن « بنبذر » إذ هناك نهر بهذا الاسم Benbezar

(٦) لم نعلمه ولا عرفنا حقيقة الاسم

(٧) هو الذى يقول له الأسبان Alenje

الحنش منيع شامخ الذروة ، مطلّ الغلوة شاهق البنيّة ، حامى الأفنية . ومنه إلى مدينة ماردة مرحلة لطيفة ، ثم إلى بطليوس مرحلة خفيفة . فذلك من قرطبة إلى بطليوس ، ٧ مراحل . و بشمال قرطبة إلى حصن « ابال » مرحلة ، وهو الحصن الذى به معدن الزيبق ، ومنـه يتجهّز بالزيبق والزنجفر إلى جميـع أقطار الأرض ، وذلك أن هذا المعدن يخدمه أزيد من ألف رجل ، فقوم للنزول فيه وقطع الحجر ، وقوم لقطع الحطب لحرق المعدن ، وقوم لعمل أوانى لسبك الزيبق وتصعيده ، وقوم لشأن الأفران والحرق . قال المؤلف : وقد رأيت هذا المعدن فأُخبرت أن من وجه الأرض إلى أسفله نحو من مائتى قامة وخمسين قامة (١) . ومن قرطبة إلى اغرناطة ٤ مراحل وهى مائة ميل . و بين اغرناطة وجيّان ٥٠ ميلا وهى مرحلتان .

وأما بحر الشام الذى عليه جنوب بلاد الأندلس ، فمبدأه من الغرب ، وآخره حيث انطاكية ، ومسافة مابينهما ٣٦ مجرى . فأما عروضه فمختلفة ، وذلك أن مدينة مالقة يقابلها من الضفة الأخرى « المزمّة » و « قادس » و بينهما عرض البحر مجرى يوم واحد بالريح الطيّبة المعتدلة . وكذلك « المريّة » يوازيها فى الضفة الأخرى « هُنين » وعرض البحر بينهما مجريان . وكذلك أيضاً مدينة « دانية » يقابلها من الضفة الأخرى « تَنَس » و بينهما ٣ مجار . وكذلك مدينة برشلونة تقابلها من عدوة الغرب الأوسط « بجّانة » و بينهما ٤ مجار فى عرض البحر ، والمجرى مائة ميل

وأما جزيرة « يابسة » فانها جزيرة حسنة كثيرة الكروم والأعناب ، و بها مدينة حسنة صغيرة متحضّرة ، وأقرب برّ إليها مدينة دانية ، و بينهما مجرى . وفى شرقى جزيرة يابسة جزيرة ميورقة (٢) ، و بينهما مجرى ، و بها مدينة كبيرة ، لها

(١) نقل لافى بروفسال كلام الادريسى هذا إلى كتابه عن أسبانية

(٢) أقمت بجزيرة ميورقة عشرين يوماً وجولت فيها ، ولشدة ما استلطفتها أخذت عنها معلومات كثيرة ، واقتنيت كتباً من تاريخها بالأسبانيولى ، وجمعت أسماء العلماء والأدباء الذين نبغوا من أهلها من عرب وأسبانيول ، وعزمت أن أفردها بتاريخ هى

مالك وحارس ذو رجال وعدد وأسلحة وأموال ، و بالشرق منها أيضاً جزيرة مينورقة تقابل مدينة برشلونة ، و بينهما مجرى ، ومن مينورقة إلى جزيرة سردانية ٤ مجار . فهذا ما أردنا ذكره .

ماقاله عن إقليم الأندلس
أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب الهمدانى
فى كتابه «صفة جزيرة العرب»

ذكر الأقاليم السبعة التى كان الجغرافيون الأولون يقولون بها ، فذكر الأندلس فى الاقليم الثالث فقال : الاقليم الثالث حده منتهى أرض الحبشة ، مما يلى أرض الحجاز ، إلى نصيبين ، إلى أقصى الشام ، إلى البحر الذى بين أرض مصر و بين الشام إلى وسط البحر الذى يلى الأندلس مما يلى المغرب .

ثم ذكر معرفة قسمة الأقاليم لبطلميوس فقال : فأما بطلميوس وقدماء اليونانيين فانهم رأوا أن طباع الأقاليم وجبلّتها لا تكون إلا طرائق من المشرق إلى المغرب ، متجاورة بعضها إلى بعض ، من خط الاستواء إلى حيث يقع القطب الشمالى ، خمسين درجة ، وهو ضعف الميل و زيادة جزءين وكسر ، وقد حد فى قانونه عرض كل إقليم منها وساعات نهاره الأطول ، على وسطه دون طرفيه ، بقول من نقل عنه ، فجعل وسط الاقليم الأول مدينة سبا بمأرب من أرض اليمن ، وجعل العرض ستة عشر جزءاً وربعاً وخمساً ، وساعات نهاره الأطول ثلاثة عشر سواء ، وعرض الاقليم الثانى منتهى الميل ، وهو ثلاثة وعشرون جزءا وخمسة أسداس ، وساعات نهاره الأطول ثلاث عشرة ونصف ، والثالث إقليم اسكندرية ، وعرضه ثلاثون

وشقيقتيها مينورقة ويابسة واسميه « الاصول المعرقة والغصون المورقة فى محاسن جزيرة ميورقة » ولعله يكون جزءا من هذه الموسوعة إن شاء الله

جزءا وسدس وخمس جزء ، وساعاته أربع عشرة ، والرابع إقليم بابل ، وعرضه ستة وثلاثون جزءا وعشر ، وساعات نهاره الأطول أربع عشرة ونصف . والاقليم الخامس عرضه أربعون جزءا ، وتسعة أعشار ، وثلث عشر ساعة ، وساعاته خمس عشرة ساعة والاقليم السادس عرضه خمسة وأربعون جزءا ونصف وسدس عشر ، وساعات نهاره الأطول خمس عشرة ساعة ونصف ، والاقليم السابع عرضه ثمانية وأربعون جزءا ونصف وثلث عشر ، ونهاره الأطول ست عشرة ساعة . وقد حدّ أقاصيها وأدانيها وبعض ما تشتمل عليه من البلاد المشهورة فقال : إن الاقليم الأول يمر على وسطه من المشرق إلى المغرب على المواضع التى يكون نهارها الأطول وعرضها ما ذكرناه وابتداؤه حيث يكون نهاره الأطول اثنتى عشرة ساعة وثلاثة أرباع ساعة ، وعرضه اثنا عشر جزءا ونصف . وانتهاؤه حيث يكون نهاره الأطول ثلاث عشرة ساعة وربعاً وعرضه عشرين جزءا وربعاً ، ووسط هذا الاقليم مدينة سبأ ، وما كان فى مثل عرضها من مواضع الأرض ، وابتداؤه من المشرق من أقاصى بلاد الصين الخ .

ولما وصل إلى الأقليم الرابع قال : ويمر الأقليم الرابع على وسطه من المشرق إلى المغرب على المواضع التى يكون نهارها الأطول وعرضها ما قد ذكرناه ، وابتداؤه من الموضع الذى انتهت اليه ساعات الأقليم الثالث ، وعرضه إلى حين يكون نهاره الأطول أربع عشرة ساعة وثلاثة أرباع ساعة ، وعرضه ثمانياً وثلاثين درجة . ووسط هذا الأقليم بالتقريب مدينة أصبهان من مواضع ، وابتداؤه من المشرق آخر أرض الصين وتبّت و بلخ وخراسان والجبال وأرض الموصل وشمال الشام ، و بعض الثغور ، و بحر الشام وجزيرة قبرص ، و بلاد طنجة ، إلى أن ينتهى إلى حد المغرب من دون البحر المظلم . ويمر الأقليم الخامس على وسطه من المشرق إلى المغرب على المواضع التى يكون نهارها الأطول وعرضها ما قدمنا ذكره . وابتداؤه من الموضع الذى انتهى إليه عرض الأقليم الرابع ، ساعاته إلى حيث يكون نهاره الأطول خمس عشرة ساعة وربعاً وعرضه ثلاث وأربعون درجة ، ووسط هذا الأقليم بالتقريب مدينة مَرْو ، وما

كان في مثل عرضها من مواضع الأرض . فابتداؤه من المشرق داخل بلاد الترك وشمال خراسان وأذربيجان وكور أرمينية وبلاد الروم وسواحل بحر الشام الشمالية والأندلس إلى أن ينتهى إلى حد المغرب من دون البحر المظلم .

ثم نقل عن بطلميوس قوله : لما انقسمت دائرة البروج بأربعة أقسام ، وهى المثلثات ، لأن كل قسم منها ثلاثة أبراج ، على طبيعة من الطبائع الأربع ، التى هى النار والأرض والهواء والماء ، انقسم عامر الأرض بأربعة أقسام ، كل قسم منها منسوب إلى قسم من المثلثات في الطباع ، لأن كل محيط بطبع ما أحاط به على قدر طبيعته (إلى أن يقول) فلما كانت هذه الأشياء كذلك ، كان موضع سكناها ينقسم إلى أربعة أرباع متساوية فى العدد للمثلثات ، ثم أتى على ذكر الربع المنسوب إلى « أوروفة » ـ يريد بها أوربة ـ فقال : ان الأمم الكلية التى تسكن فى هذه الأجزاء هى أهل بلاد الصقالبة وبلاد برطانية وغالاطية وجرمانية وباسترانية وإيطالية وغالية وأبولية وطورينية وقلطيقة وسبانية (إلى أن قال) عن طبائع أهل هذه البلدان : يجب أن يكون أهل هذه البلدان ، فى أكثر الأمر ، بسبب رئاسة هذا المثلث ، وبسبب الكواكب التى تشترك فى تدبيره ، غير خاضعين ، محبين للحرية والسلاح والتعب ، محاربين ، أصحاب سياسة ونظافة ، كبار الهمم ، ولما كان المشترى والمريخ مشتركين فيهم ، إذا كانا فى الحال المنسوبة إلى العشيات ، وكانت الأجزاء المتقدمة من هذا المثلث مذكرة ، والمتأخرة مؤنثة ، عرض لهذه الأمم ألا يكون لهم غيرة فى أمر النساء (إلى أن يقول) : وأما بلاد إيطالية منها وبلاد أبولية ـ يريد نابولى ـ وبلاد غالية ـ جنوبى فرنسة ووسطها ـ وبلاد صقيلية ، فانها تشاكل الأسد والشمس ولذلك صار سكانها أصحاب سياسة ، وأصحاب اصطناع المعروف ، وأصحاب مؤاساة . وأما بلاد طورينية منها وبلاد قالتقى ـ يريد بها بلاد السلتيين Celtes وهم أمة كانت تجاور الغاليين والايبيريين ـ وبلاد سبانية ، فانها تشاكل الرامى والمشترى ولذلك صار سكانها سليمى القلوب محبى النظافة انتهى .

هذا ما جاء فى كتاب الهمدانى من جغرافيي العرب وحكمائهم عن اسبانية ، وأما قضية تأثير الكواكب فى طباع سكان الأرض ، وما نقله الهمداني عن بطلميوس القلودى من هذا الباب فهو معدود اليوم من النظريات البالية ، التى عدل الناس عنها ، لا سيما أننا لا نراها مطردة ولا غالبة حتى نحكم بصحتها .

ما ذكره أبو العباس أحمد المقّرى

صاحب كتاب نفح الطيب عن بلاد الأندلس

من الجهة الجغرافية

اعلم أعزّك الله أنه لايزال نفح الطيب من أعظم المراجع التى يعول عليها المحققون فى أخبار الأندلس ، برغم كل ما عليه من مآخذ ومغامز ، وما فاته من مباحث ومسائل ، وذلك لأن صاحبه اتصل بكتب كثيرة لم يتيسر لغيره الاطلاع عليها ، وشافه فى الشرق والغرب عدداً كبيراً من الجلّة وحاضَرَهم ، وكان المقّري نفسه مولعاً بأخبار الأندلس ، متخصصاً فيها حافظا من أنبائها ، وكلام علمائها ، ونظم شعرائها ، ولا سيما من أقوال لسان الدين بن الخطيب ، وزير بنى الأحمر الشهير بما يكاد يكون من المعجزات ، ولما كان قد رحل إلى المشرق ، كأكثر علماء المغرب ، وحج البيت الحرام خمس مرات ، وزار المدينة المنورة ، والبيت المقدس ، انتهى فى طوافه إلى دمشق الشام التى أخذت بمجامع فؤاده ، فألقى بها عصا التسيار ، وتعرف بكثير من علماء الشام وأدبائها وسراتها ، فكان ذكر الأندلس أمامهم ملهج لسانه الدائم ، وغرام قلبه الملازم ، فأرادوه أولا على تأليف كتاب يتضمن مرويّاته عن لسان الدين بن الخطيب ، فصحت عزيمته على ذلك ، و بدأ بكتابة هذا الكتاب سنة تسع وثلاثين وألف للهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية . إلاّ أنه بعد ما بدأ به بدا له أن يتوسع فى الموضوع ، ولا يقتصر على أخبار لسان الدين وحده فكان عند ما شرع بهذا التأليف سماه « عَرف الطيب فى التعريف بالوزير ابن

الخطيب » ثم لما أجمع التوسع فى الموضوع عاد فسمى كتابه « بنفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » وهو لعمرى اسم لائق بمسماه ، ولفظ موافق لمعناه ، ولا أظنه يوجد اسم ألذّ للقارىء من اسم « نفح الطيب » كما أن الملابسة ظاهرة بين قوله « غصن الأندلس الرطيب » ومزايا الأندلس الطبيعية فى كثرة جنانها و بساتينها ووفرة فواكهها ورياحينها ، وما اتصفت به من الخصب والنماء ، وجمعته من زكاء الأرض إلى خير السماء ، ولما كان للسان الدين بن الخطيب في هذا الكتاب الحصة الكبرى فى الآثار المروية ، والأصوات المحكية ، لم يكن من العجب أن يجعل اسمه فيه وقد كان فى الأصل هو المقصود بالتأليف . هذا وقد كان تأليف المقّرى للنفح حينما كان مقيما بالشام ، ولذلك قال عنه فى المقدمة ما يلى :

« وله بالشام تعلق من وجوه عديدة ، هادية لمتأمله إلى الطريق السديدة ، أولها أن الداعى لتأليفه أهل الشام ، أبقى الله مآثرهم ، وجعلها على مرّ الزمان مديدة ، ثانيها أن الفاتحين للأندلس هم أهل الشام ، ذوو الشوكة والنجدة الحديدة ، ثالثها أن غالب أهل الأندلس من عرب الشام الذين اتخذوا بالأندلس وطناً مستأنفاً وحضرة جديدة . وار بعها أن غرناطة نزل بها أهل دمشق ، وسموها باسمها ، لشبهها بها فى القصر والنهر ، والدوح والزهر ، والغوطة الفيحاء ، وهذه مناسبة قوية العرى شديدة »

قد يكون كلام المقّرى هذا مما لا يعجب بعض الثائرين على السجع فى أخريات هذه الأيام ولكنه ذو معنى كبير ، وفيه تصريح خطير ، ولذلك فإن ثورة هذه الفئة على السجع ، والفاصلة ، ليس من شأنها أن تفل من حد رغبتنا فى نقل كلام يعود على وطننا الشامى بشقص كهذا من الفخر لم يوفره لغيره ثقة كبير ، كأبى العباس أحمد المقّرى المغربى ، إن لم يكن هو حجة فى أخبار الأندلس فياليت شعرى من يكون هو الحجة ؟! فنحن رواة عنه ، ونقلة من نصوصه بأسجاعها وفواصلها وحروفها وحركاتها

نعم إن « نفح الطيب » هو كتاب أدب ، أكثر منه كتاب تاريخ ، وقد قيل فيه ، وكاد يلحق بالأمثال السائرة : إنه « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، الذى من لم يقرأه فليس بأديب » ولكنه إلى هذا الوقت لا يزال عمدة المنقبين عن آثار الأندلس سواء فى التاريخ أو فى الجغرافية أو فى الأدب أو فى المحاضرة برغم كل ما فاته منها ، ولا أزال أنا أستقى من منابعه برغم ما نقمت عليه فى كتابى « مختصر تاريخ الأندلس » الذى حررته ذيلا على « آخر بنى سراج » Dernier Des Abencerrage الرواية التى من قلم شاتو بريان الكاتب الأفرنسى الشهير ، وقد ترجمتها إلى العربية واردفتها بتاريخ للأندلس ونشرتهما سنة ١٣١٥ .

فيناسب أن أعيد هنا ما كنت قلته من ٤٠ سنة ، وهو منقول بالحرف عن صفحة ٦٠ و ٦١ و ٦٢ و ٦٣ من ذلك الكتاب ، طبعته الثانية بمطبعة المنار وهو هذا (تحت عنوان) « تمهيد »

إنما حدانى إلى تذييل هذه الرواية أمران : الأول إعانة القارىء على فهم الحوادث ومعرفة المواقع ، بما تُفْقَد بدونه لذة المطالعة . والثانى ما رأيته من اختصار جرم الرواية ، فآثرت اردافها بذيل يطيل من قدها ، و يزيد فى حجمها ، و يكون فيه من حقائق الوقائع التاريخية ما لا يقصّر فكاهة عن موهوم الرواية الغرامية ، فجاءت روايتنا ذيّالا ، و إن لم نرج أن تكون طاووساً ، وليست هذه أول مرة جرّت فيها الروايات أذيالا ، واتخذت القصص أذنابا طوالا .

وما أقصد بهذا الذيل استقصاء تاريخ الأندلس الاجمالى إلا ما اضطر اليه مساق الكلام . فقد كنت منذ نشأتى ممن لا يحبون التأليف فيما كثر فيه التأليف ، وطال فيه المقال كأنما أعده تكرارا لسابق ، أو إعادة لصدى ، وأراه خلوا من كل براعة . وأخبار الأندلس مستفيضة فى التواريخ شرقا وغربا ، ومعروفة عند الأدباء بما لا يكون التأليف فيه سوى زيادة فى عدد الكتب . و إنما يستحب الانشاء فى ماندر

فيه الكلام وعز البحث ، وطمست الأعلام ، فاذا قرأته العامة ، بل الخاصة ، سقطت منه على جديد ذى طلاوة ، ولم تسأمة النفوس ، لعدم تداولها مطالعته المرة بعد الأخرى مدارسة كتب القواعد التى لا تتغير .

فأشد الأقسام عوزاً إلى البحث من تاريخ هذه البلاد ـ التى لا نزال نحسبها عربية لكون أحسن أيامها ما كان من أيام العرب فيها ـ إنما هو القسم الأخير ، وأحوج طائفة من أخبارها إلى التدوين ما تعلق بدَور الجلاء ، وعصر الخروج من بلاد كانت مدة الضيافة فيها ثمانمائة سنة ، وذلك لأن هذا الحادث الكبير الذى هو من أضخم الحوادث فى الإسلام وقع على حين خمول من القرائح العربية ، وبعد مرور زمن العلم والفلسفة عند معشر الناطقين بالضاد ، ولدى إقحاط البلاد بالأدمغة المتوقدة ، وعقم الأمة عن الرؤوس المولدة ، بحيث فاته من التأليف والكتابة فيه ما لم يكن ليفوته لو وقع قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة ، فانه لا عطر بعد عروس .

نعم لا أنكر أن (كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) للعلامة المقّرى هو من أوفى الكتب بأخبار الأندلس وآدابها : حقيبة أنباء ، وقِمَطر حوادث وخزانة آداب ، وكشكول لطائف ، وديوان أشعار ، وقد كان عهد تصنيفه على أثر النازلة الكبرى بباقى الأندلس ، وامتصاص سؤر الكاس ، وعفاء الأثر الأخير من سلطان المسلمين فيها ، بحيث أمكن صاحبه ذكر سقوط مملكة غرناطة ، واستيلاء الاسبانيول على الجميع ، وختم الدولة الاسلامية فى تلك الديار ، ولكنه ككثير من مؤرخينا أو مؤلفينا الذين لا يرعون النسبة بين الأشياء ولا ينتبهون إلى قاعدة أن الحسن إنما هو تناسب الأعضاء ، فقد بحث فى هذا الخطب الجلل ، والحادث العمم ، بحثاً هو دون حقه بدركات ، وأتى عليه كما يأتى على واقعة متوسطة البال ، من الوقائع التى أشار اليها في بطن كتابه واستوعبه فى أوراق يسيرة ، كانت لطافتها تكون فى كثافتها ، فان التناسب يقضى باعطاء كل مقام من المقال ما يكافيه ، ويقوم بحقه ويجىء على قدره . ولو فسح الفاضل المقّرى رحمه الله لواقعة سقوط مملكة غرناطة ،

وحادث انقراض أمر الاسلام بالأندلس ، ما فسحه فى تاريخه للنثر الكثير ، الذى يغنى عن كله بعضه من المخاطبات التى صدرت عن لسان الدين بن الخطيب ، أو وجهت اليه ، أو إلى غيره ، أو الشعر الغزير الذى كثير منه حقيق بالاسقاط من ذلك المجموع ، والقصص التى يرويها عن بعض المشايخ مع طول أناة غريب فى الاستقصاء ، مع أنه ليس فيها ما يرفع أقدارهم إلى السماء ، لكان ذلك أجزل فائدة وأسنى موقعاً ، وكانت الناس قد شفت غليلها من خبر هذه الطامة التي لكل الحوادث سلوان يسهلها ، وليس لها سلوان ، كما قال أبو البقاء الرندى ، ولكفينا مؤونة النقل عن كتب الافرنج فيما يختص بالعرب ، وحسبك أنه ذكر جميع وقائع السلطان أبى عبد الله بن الأحمر ، وعمه الزغل ، وذهاب تلك المملكة ، وما جرى فى ضمنه من الحروب وما حصر من المدن ، فى مسافة من التاريخ ، استوعبت أطول منها رسالة ، واحدة صادرة عن ذلك السلطان إلى الشيخ الوطّاسى صاحب فاس فى موضوع أبرد ما فيه ، مع طوله ، أنه اعتذار عن سقوط آخر ممالك المسلمين بالأندلس على يده ، بأن الخطب غير نادر المثال ، وأن بغداد ، دار خلافة بنى العباس ، قد أصابها ما أصاب غرناطه ! فانظروا هل هذا مما يؤثر على طوله ، أو مما ترتاح الأنفس إلى قبوله ، على فرض صحة تمثيله ؟ وإن كان العذر فى ذلك ما يقال من أن صاحب النفح قد ألفه وهو نضو أسفار ، خال من الأسفار ، ليس لديه من العدة ما يستعين به على الاطالة ، والأخذ بالأطراف ، فسبحان الله ! كم يتلهى بعض علمائنا بحفظ ما لا ينفع عن تعليق ما ينفع ؟ ! وهذا الفاضل المقرى قد أملى عن ظهر قلبه أربعة مجلدات كبار ، أودعها من التاريخ والجغرافية والقصص والنكات ، وحشاها من الشعر والنثر والتراجم والتصوف . غثاً وسميناً ، ما لا أظن حافظة تتمكن من اختزانه بين صدغين ، وتركنا فى التاريخ المهم من تفصيل الوقائع الشداد ، والمعارك التى سالت فيها أنهر الدماء ، في دور النزع الأخير ، عيالا على الافرنج ، مضطرين إلى الأخذ من مصنفاتهم ،

فكنا وإياهم فى أخذ تاريخنا عنهم كما كنا فى أخذ لغتنا عن صحاح الجوهرى [(١)]

ولا لشك أن فى ديار المغرب من التواريخ عن كارثة الأندلس الأخيرة ما يستوفى شرحها [(٢)] ولكنه لم يشتهر عندنا فى المشرق غير نفح الطيب من متأخر التآليف ، وهذه هي الحال معه ، فلا عجب أن ساقنا حب الاستقصاء ، واقتفاء أثر أبناء الجلدة ، إلى أخذ أخبارنا عن الأجانب وتلونا : (هذه بضاعتنا ردت الينا) اه

هذا ما كتبته عن نفح الطيب يوم كنت فى السابعة والعشرين من العمر ، ولست من بعد مضى تسع وثلاثين سنة على ذلك القول براجع عنه اليوم من حيث الجوهر ، وإن كنت أرانى الآن أقل قسوة ، وأكثر عطفاً على المقرى وأعظم تقديراً لما أملاه فى كتابه ، ولا عجب فالذى عند الشيخ من سعة الطبع ، وقبول العذر ، ليس عند الشاب .

---

(١) إن الجوهرى كان فارسياً فلما ألف كتابه الصحاح فى لغة العرب قيل إنه قال لهم : خذوا لغتكم عن هذا الرجل الأعجمى . فجعلت أنا هذه الجملة من قبيل المثال . ولما طبعت كتابى هذا طبعته الثانية بمطبعة المنار وكان الأستاذ الأكبر فقيد الاسلام فى هذا العام السيد محمد رشيد رضا رحمه الله هو المتولى تصحيح الطبع أخذته الغيرة من جملتى هذه فعلق عليها فى الحاشية مايلى : يعنى أخذ العرب لغتهم عن الجوهرى وهو أعجمى النسب . ولكنه صار من العرب لغة وأدباً وديناً وكتابه الصحاح أحد معاجم اللغة وقد ألف العرب قبله وبعده معاجم تغنى عنه وليس فيه شىء لا يوجد فى غيره اه . قلت وهذا لا يمنع من أن تكون تلك الجملة قد قيلت وأن يكون المثال مطابقا للحال .

(٢) كنت يومئذ أظن ذلك ولكنى لم أجد هذه الضالة بعد البحث والاستقراء إلا ما كان من وجدانى « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » وكتاب محمد بن عبد الرفيع الأندلسى المتوفى عام اثنين وخمسين وألف أى بعد الجلاء الأخير بخمس وثلاثين سنة اطلعت منه على فصل نقله عنه الشيخ أبو عبد الله محمد أبوجندار فى كتابه « تاريخ رباط الفتح » وشيأ من « أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض »

وعلى كل حال فقول المستشرق «لافى بروفسال» Lévi - Provençal فى الانسيكلوبيدية الاسلامية L' Encyclopédie De Lislam إن نفح الطيب هو الوثيقة الوحيدة التى فى أيدينا عن حادثة خروج العرب النهائى من أسبانية ليس بصحيح

ولنبدأ الآن وقد أردنا أن ننقل ما جاء فى النفح من المعلومات الجغرافية عن الأندلس لنقارن بينها و بين معلومات سائر مؤلفى العرب كابن حوقل والادريسى و ياقوت وغيرهم . قال فى الجزء الأول فى صفحة ٦٣ من الطبعة الأولى المنسوبة إلى المطبعة الأزهرية المصرية ما يلى :

الباب الأول

فى وصف جزيرة الأندلس ، وحسن هوائها ، واعتدال مزاجها ، ووفور خيراتها واستوائها ، واشتمالها على كثير من المحاسن واحتوائها ، وكرم بقعتها التى سقتها سماء البركات بأنوائها ، وذكر بعض مآثرها المجلوة الصور ، وتعداد كثير مما لها من البلدان والكور ، المستمدة من أضوائها ، فأقول :

محاسن الأندلس لاتستوفى بعبارة ، ومجارى فضلها لا يشق غباره ، وأنى تجارى وهى حائزة قصب السبق ، فى أقطار الغرب والشرق ؟ ! قال ابن سعيد : إنما سميت بالأندلس ابن طوبال بن يافث بن نوح لأنه نزلها كما أن أخاه سبت بن يافث نزل العدوة المقابلة لها واليه تنسب سبته [1] . قال : وأهل الأندلس يحافظون على قوام اللسان العربى لأنهم إما عرب أو متعربون [2] انتهى . وقال الوزير لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى فى بعض كلام له أجرى فيه ذكر البلاد الأندلسية ، أعادها الله تعالى للاسلام ، ببركة المصطفى عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام ما نصه : خص الله تعالى بلاد الأندلس من الربيع وغدق السقيا ، ولذاذة الأقوات وفراهة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض [3] ألوان الانسان ، ونبل

---

(١) هذه من الروايات التى هى أشبه بالأساطير

(٢) هذا القول ليس كالذى قبله بل هو فى غاية الصحة

(٣) عند ما كنت فى غرناطة نازلا فى فندق الحمراء أحسن فنادقها كنت أسال عن الاماكن والبقاع دليل ذلك الفندق وكان من الأدباء فقلت له ذات يوم : جئت

الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الادراك ، واحكام التمدن ، والاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار ، مما سواها . انتهى .

وقال أبو عامر السلمى فى كتابه المسمى « در القلائد وغرر الفوائد » : الاندلس من الأقليم الشامى [١] وهو خير الأقاليم وأعدلها هواء وترابا ، وأعذبها ماء ، وأحسنها حيوانا ونباتا ، وهو أوسط الأقاليم ، وخير الأمور أوساطها

قال أبو عبيد البكرى : الأندلس شامية فى طيبها وهوائها ، يمنية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عطرها وذكائها ، أهوازية فى عظم جباياتها ، صينية فى معادن جواهرها ، عدنية فى منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة اليونانيين أهل الحكمة وحاملى الفلسفة ، [٢] ، وكان من ملوكهم الذين أثروا الآثار بالأندلس هرقلس ، وله

إلى أسبانية من جهة فرنسة فكنت أظن أن سكان الصقع الشمالى منها أوضأ وجوهاً وأشرق جمالا من سكان الجنوب فرأيت الأمر بالعكس إذ أنى كنت كلما تقدمت إلى الجنوب أرى الوجوه أحسن والقدود أرشق والنعمة أظهر . فأجابنى فوراً : هذا صحيح يعلمه كل احد وذلك لأننا نحن فى الجنوب عرب

(١) يريد أنها موازية للشام وأنهما على خط واحد ومن المعلوم أن القطر الشامى هو فى الجغرافية مثال الاعتدال

(٢) لليونانيين فى أسبانية آثار لا تنكر ، لكنها لا تذكر بالقياس إلى آثار الفينيقيين والقرطاجنيين والرومان والذى يلوح لنا أن أبا عبيد البكرى حمل أكثر ما فى أسبانية القديمة من الآثار على تأثير اليونانيين ، وهذا خطأ ، أو أنه خلط بينهم وبين الفينقيين والقرطاجنيين والرومان . والحقيقة أن اليونانيين جاءوا إلى السواحل الأسبانية من جهة البحر المتوسط ، ويظن أن انتجاعهم لهذه السواحل وقع بين سنة ٦٣٠ وسنة ٥٧٠ قبل ميلاد المسيح ، ولم ينحصر تبسطهم فى سواحل البحر المتوسط ، بل اخترقوا بحر الزقاق ، وامتدوا على سواحل غاليسية وقنتبرية ، ومع هذا فأكثر ما كانت لهم مستعمرات هو فى السواحل الشرقية التى هى اليوم سواحل كتلونية إلى بلنسية ودانية . وكانوا يسمون مستعمراتهم هذه أمبورياس Ampurias وتوابعها ، ومنها كانوا يتقدمون إلى الداخل لاجل التجارة مع الايبيريين ، وأكثر ما بقى عنهم من الآثار إنما

الأثر فى الصنم بجزيرة قادس وصم جيليقية ، والأثر فى مدينة طرّكونة [١] الذى لا نظير له .

قال المسعودى : بلاد الأندلس تكون مسيرة عمائرها ومدنها نحو شهرين ، ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة . انتهى باختصار . ونحوه لابن اليسع إذ قال : طولها من أربونة إلى أشبونة ، وهو قطع ستين يوماً للفارس المجد . وانتقد بأمرين : أحدهما أنه يقتضى أن أربونة داخلة فى جزيرة الأندلس ، والصحيح أنها خارجة عنها ، والثانى أن قوله ستين يوماً للفارس المجد اعياء وافراط ، وقد قال جماعة أنها شهر ونصف . قال ابن سعيد : وهذا يقرب إذا لم يكن للفارس المجد . والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر . وكذا قال الحجارى . وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك فعملوا حسابا بالمراحل الجيدة أفضى إلى نحو شهر بنيف قليل . قال الحجارى فى موضع من كتابه إن طول الأندلس من الحاجز إلى اشبونة الف ميل ونيف اه . وبالجملة فالمراد القريب من غير مشاححة ، كما قاله ابن سعيد وأطال فى ذلك ، ثم قال بعد كلام : ومسافة الحاجز الذى بين بحر الزقاق والبحر المحيط أربعون

وجد فى خرابات أمبورياس ورزواس ، وهى من آنية الزجاج ، ومن الفخار الملون ، ومن الحلى ، ومن بعض التماثيل ، مثل تمثال اسكولاب المحفوظ فى متحف برشلونة ، ووجدت أيضا بعض قطع من الفسيفساء ، ووجدت مسكوكات مضروبة فى امبورياس وروزاس اللتين يظهر أنهما أول المدن الأسبانية التى وقع فيها ضرب السكة ، وكان لليونانيين فى أمبورياس وروزاس ودانية معابد للالهة ديانة Diane التى هى من معبودات آسية فى الأصل

(١) إن الذى أثر الآثار العظيمة فى طركونة الباقية إلى يومنا هذا تدهش الناظر وتذهل الخاطر ، إنما هو أغسطوس الرومانى الذى أقام بها سنة ٢٦ قبل المسيح ، فبنى فيها الهيكل العظيم لعبادة الآلهة رومة ، وكانت فيها هياكل أخرى وأبنية يقصر عنها الوصف . وأما قادس فقد كان استولى عليها الفينيقيون ، ثم آلت إلى الرومانيين ، وسكن بها أناس من اليونانيين ، وترك الجميع فيها أثاراً مذكورة . وهيكل قادس المشهور عند العرب بصنم قادس هو من آثار الفينيقيين

ميلا ، وهذا عرض الأندلس عند رأسها من جهة الشرق ، ولقلّته ، سمّيت جزيرة ، وإلاّ فليست بجزيرة على الحقيقة ، لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة ، وعرض جزيرة الأندلس فى موسطها عند طليطلة ستة عشر يوماً .

واتفقوا على أن جزيرة الأندلس مثلثة الشكل ، واختلفوا فى الركن الذى فى الشرق والجنوب فى حيز أربونة ، فمن قال إنه فى أربونة . وإن هذه المدينة تقابلها مدينة برديل التى فى الركن الشرقى الشمالى أحمد بن محمد الرازى ، وابن حيان . وفى كلام غيرهما أنه فى جهة أربونة ، وحقق الأمر الشريف ، وهو أعرف بتلك الجهة لتردده فى الأسفار براً وبحراً اليها ، وتفرّغه لهذا الفن . قال ابن سعيد : وسألت جماعة من علماء هذا الشأن فأخبروني أن الصحيح ما ذهب إليه الشريف ، وأن اربونة وبرشلونة [١] غير داخلتين فى أرض الأندلس ، وأن الركن الموفى على بحر الزقاق بالمشرق بين برشلونة وطرّكونة [٢] فى موضع يعرف بوادى « زنلقطو » ، وهنالك الحاجز الذى يفصل بين الأندلس والأرض الكبيرة ، ذات الألسن الكثيرة ، وفى هذا المكان جبل البرت ، الفاصل فى الحاجز المذكور ، وفيه الأبواب التى فتحها ملك اليونان بالحديد والنار والخل ، ولم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة قبل ذلك فى البر . وذكر الشريف أن هذه الأبواب فى مقابلتها فى بحر الزقاق البحر الذى بين جزيرتى ميورقة ومنورقة ، وقد أخبر بذلك جمهور المسافرين لتلك الناحية . ومسافة هذا الجبل الحاجز بين الركن الجنوبى والركن الشمالى أربعون ميلا قال : وشمال الركن المذكور عند مدينة برديل ، وهى من مدن الأفرنجة ، مطلة على البحر المحيط ، فى شمال الأندلس . قال ويتقهقر البر بعد تميز هذا الركن إلى

(١) أما اربونة Narbonne فغير داخلة فى الجزيرة الايبرية وأما برشلونة فهى داخلة فيها لأن كل ماهو جنوبى جبال البرانس هو داخل فى الجزيرة

(٢) كلا فجبال البرتات ليست بين طركونه وبرشلونه بل هى إلى الشمال منهما وهى الحاجز بين الأندلس والأرض الكبيرة

الشمال فى بلاد الفرنجة ، ولهم به جزائر كثيرة ، وذكروا من الركن الشمالى عند « شنت [١] ياقوه » من ساحل الجلالقة فى شمال الاندلس ، حيث تبتدىء جزيرة « برطانية [٢] الكبيرة » فيتصوّر هنالك بحر داخل بين ارضين ، من الناس من يجعله بحراً منفرداً خارجاً من البحر المحيط ، لطوله الى الركن المتقدم الذكر عند مدينة برديل [٣] . وذكر الشريف : ان عند شنت ياقوه فى هذا الركن المذكور ، على جبل بمجمع البحرين ، صنما مطلا مشبهاً بصنم قادس .

(١) Santiago (٢) Grande - Bretagne

(٣) إن سكان أسبانيا الاصليين لم يتركوا كتابات تاريخية ولا جغرافية عن بلادهم ، كما يصرح به الاستاذ رافائيل بالستر Ballester أحد علماء التاريخ فى اسبانية الذى ألف أحسن تاريخ لتلك المملكة ، ونشر كتابه سنة ١٩١٧ ، ثم أعيد طبعه مراراً ، لاقبال الناس عليه ، بما فيه من تحقيق وتمحيص ، واختصار لا يفوت معه معنى مهم ، واجتناب للخوض فى مالم يثبت بطريقة علمية . فهو الذى يقول : إن جميع ماورد من المعلومات القديمة عن أسبانية إنما جاء فى كتب الرومان واليونان ، وهى أيضاً معلومات ناقصة ، ومنها ماليس مستنداً إلى وثائق يركن إليها . ثم قال إن أقدم كتاب ورد فيه ذكر أسبانية هو كتاب الاوديسه Odyssée المنسوب إلى هوميروس ، وهو ديوان شعر شهير ، وقد جاء فيه ذكر أسبانية تحت اسم « سيكانيه » Sicania وأنها بقعة خصيبة فى أقصى المغرب . وفى المائة الخامسة قبل المسيح كان اليونان يعرفون جنوبى أسبانية ، ويسمون ذلك القطر بلاد تارتسيد Tarteside ويعرفون أيضاً القسم الشرقى من أسبانية ، ويقولون له « ايبيرية » نسبة إلى نهر ايره ، وقد شمل هذا الاسم فيما بعد سائر شبه الجزيرة الايبيرية . أما اسم « اسبيرية » Hespéria فيظهر أنه كان اسما شعرياً أطلقه اليونان على جميع الاقاليم الغربية . ولم يكن جغرافيو اليونان بادىء ذى بدىء يعرفون خليج غشقونية Gascogne ، وكانوا يظنون أن أسبانية إنما هى على مساواة غالية ، أى جنوبى فرنسة . وبقى الامر كذلك إلى القرن الرابع قبل المسيح ، فجاء سائح اسمه بيتياس Pythéas فاطلع على أن فى شمالى اسبانية إلى الغرب بحرا يجعل أسبانية عبارة عن شبه جزيرة

ومن ذلك الوقت صار يقال لأسبانية شبه الجزيرة الايبيرية . وأول ما عرف الأقدمون من أسبانية هو السواحل الجنوبية والشرقية ، أى من جبال البيرانس إلى

والركن الثالث بمقربة من جبل الأغن ؟ حيث صنم قادس . والجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحر الزقاق من البحر المحيط ، مارًّا مع ساحل البحر الجنوبى الى جبل البرت المذكور . انتهى .

والكلام في مثل هذا طويل الذيل . قال الشيخ أحمد بن محمد بن موسى الرازى : بلد الاندلس هو آخر الاقليم الرابع الى المغرب ، وهو عند الحكماء بلد كريم البقعة ، طيّب التربة ، خصب الجناب ، منبجس الأنهار الغزار ، والعيون العذاب ، قليل الهوام ذوات السموم ، معتدل الهواء والجوّ والنسيم ، ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال ، وسِطَة من الحال ، لا يتولد فى احدها فصل يتولد منه فيما يتلوه انتقاص ، تتصل فواكهه اكثر الأزمنة ، وتدوم متلاحقة غير مفقودة . أما الساحل منه ونواحيه فيبادر بباكوره . واما الثغر وجهاته ، والجبال المخصوصة ببرد الهواء ، فيتأخر بالكثير من ثمره ، فمادة الخيرات بالبلد متمادية فى كل الاحيان ، وفواكهه على الجملة غير معدومة فى كل أوان . وله خواص في كرم النبات توافق فى بعضها أرض الهند المخصوصة بكرم النبات وجواهره ، منها ان المحلب وهو المقدّم فى الافاوية ، والمفضّل فى أنواع الأُشْنان [1] لا ينبت بشىء من الأرض الاّ بالهند والاندلس ، وللاندلس المدن الحصينة ، والمعاقل المنيعة ، والقلاع الحريزة ، والمصانع

أعمدة هرقل التى هى بوغاز جبل طارق ، وأما السواحل الجنوبية فكانت عندهم تنتهى برأس سانفنسان Saint - Vincent كما أن الساحل الشمالى كان ينتهى برأس اورتغال Ortegal فكان الاولون يتصورون سواحل أسبانية من جهة الجنوب تصوراً صحيحاً ، أما من جهة الغرب فكانت فى تخيلهم أقصر مما هى فى الواقع . فاما أواسط أسبانية فلم تعرف إلا فى المائة الثانية قبل المسيح . قال المؤرخ رافائيل بالستر : إن بين أسبانية وأفريقيه تشابهاً عظيما من الجهة الجغرافية ، وقال أيضاً إن أحسن وصف لاسبانية مما تركه الاقدمون هو ما جاء فى كتاب سترابون الجغرافى اليونانى الذى وجد قبل المسيح بقرن واحد .

(١) بضم أوله هو الحمض الذى يغسل به الايدى وقد يكسر أوله

الجليلة ، ولها البرّ والبحر ، والسهل والوعر ، وشكلها مثلث ، وهي معتمدة على ثلاثة أركان ، الأول هو الموضع الذى فيه صنم قادس المشهور بالاندلس ، ومنه مخرج البحر المتوسط الشامى ، الآخذ بقبلى الاندلس . والركن الثانى هو بشرقى الاندلس ، بين مدينة نربونة ، ومدينة برديل ، مما بايدى الفرنجة اليوم ، بازاء جزيرتى ميورقه ومنورقة ، بمجاورة من البحرين ، البحر المحيط والبحر المتوسط ، و بينهما البر الذى يعرف بالابواب ، مسيرة يومين . ومدينة نربونة تقابل البحر المحيط .[١] والركن الثالث منها هو ما بين الجوف[٢] والغرب من حيز جلّيقية ، حيث الجبل الموفى على البحر ، وفيها الصنم العالى المشبه بصنم قادس ، وهو الطالع على بلد برطانية . قال : والاندلس اندلسان فى اختلاف هبوب رياحها ، ومواقع أمطارها ، وجريان انهارها : اندلس غربى ، واندلس شرقى . فالغربى منها ما جرت اوديته الى البحر المحيط الغربي ، وتمطر بالرياح الغربية ، ومبتدأ هذا الحوز من ناحية المشرق مع المَفازَة الخارجة مع الجوف ، الى بلد شنتمرية ، طالعاً الى حوز « اغريطة »[٣] المجاورة لطليطلة ، مائلا الى الغرب ، ومجاورا للبحر المتوسط ، الموازى لقرطاجنة الخلفاء ، التى من بلد لورقة ، وللحوز الشرقى المعروف بالاندلس الأقصى . وتجرى أوديته الى الشرق ، وأمطاره بالريح الشرقية ، وهو من حدّ جبل البشكنس ، هابطاً مع وادى « ابره »[٤] الى بلد « شنت[٥] مرية » ، ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط ، وفى القبلة منه البحر الغربى ، الذى منه يجرى البحر المتوسط ، الخارج الى بلد الشام ، وهو البحر المسمّى ببحر « تيران »[٦] ومعناه الذى يشق دائرة الارض ، و يسمّى البحر الكبير . انتهى .

(١) سهو من الناسخ فان نربونة تقابل البحر المتوسط

(٢) المغاربة والاندلسيون يقولون للشمال الجوف كما تقدم الكلام عليه وسنعود اليه

(٣) أظن أنه المكان الذى يقول له الاسبانيول Agredas

(٤) Ebro (٥) Santa Maria

(٦) يكتب بالافرنسية هكذا Tyrrhenienne وهو البحر الذى يفصل بين ايطالية وقورسقة وسردانية وصقلية

قال أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم المعروف بابن النظّام : بلد الاندلس عند علماء أهله اندلسان : فالاندلس الشرقى منه ماصبّت أوديته الى البحر الرومى المتوسط المتصاعد من أسفل أرض الأندلس الى المشرق ، وذلك ما بين مدينة تدمير الى سرقسطة . والاندلس الغربى ما صبّت أوديته الى البحر الكبير المعروف بالمحيط ، اسفل من ذلك الحدّ ، الى ساحل المغرب . فالشرقى منهما يمطر بالريح الشرقية ، ويصلح عليها ؛ والغربى يمطر بالريح الغربية ، وبها صلاحه ، وجباله هابطة الى الغرب ، جبلا بعد جبل . وانما قسمته الاوائل جزئين لاختلافهما فى حال امطارهما ، وذلك انه مهما استحكمت الريح الغربية ، كثر مطر الاندلس الغربى ، وقحط الأندلس الشرقى ، ومتى استحكمت الريح الشرقية كثر مطر الأندلس الشرقى ، وقحط الغربى . وأودية هذا القسم تجرى من الشرق الى الغرب ، بين هذه الجبال . وجبال الاندلس الغربى تمتدّ الى الشرق ، جبلا بعد جبل ، تقطع من الجوف الى القبلة ، والاودية التى تخرج من تلك الجبال يقطع بعضها الى القبلة ، وبعضها الى الشرق ، وتنصبّ كلها الى البحر المحيط ، بالاندلس القاطع الى الشام ، وهو البحر الرومى . وما كان من بلاد جوفى الأندلس من بلاد جليقية وما يليها ، فان أوديتَه تنصب إلى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف [1] (وصفة الأندلس) شكل مركن على مثال الشكل

(١) تقدم لنا أن اخواننا المغاربة اصطلحوا على تسمية الشمال بالجوف ، وأننا بحثنا كثيرا حتى نعلم وجه هذه التسمية ، لانه ليس فى كتب اللغة ما يدل على أن الجوف يعنى به الشمال ، بل الجوف فى اللغة هو المطمئن من الارض ، وهو داخل الشيء : فمن الانسان بطنه ، ومن البيت داخله . ولا مناسبة بين الشمال والجوف فى شيء . ومع هذا فلا تكاد فى جميع كتب الأندلس تجد معنى الشمال معبراً عنه بغير الجوف ، مما حدانا أن نسأل اخواننا المعروفين بسعة الاطلاع فى اللغة ، واصالة الرأى فى توجيه معانى الالفاظ ، عما يرونه من وجه هذا الاصطلاح ، فالسيد علال الفاسى من رؤوس أدباء المغرب ، رأى كما تقدم الكلام عليه ، أن الجوف بلاد واقعة فى شمالى مكة فكما أن الجنوب يسمى بالقبلة فى بلاد الشام ، أصبح الجوف علماً على الشمال بالنسبة إلى أهل الحجاز ، ومن هنا غلب هذا الاستعمال فى المغرب والاندلس . وقد استحسن

المثلث ، ركنها الواحد فيما بين الجنوب والمغرب ، حيث اجتماع البحرين عند صنم

هذا الرأى الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى رئيس المجمع العلمى العربى فى دمشق.
وأما الأستاذ الأب انسطاس الكرملى فمال إلى القول بأن الذين أطلقوا الجوف على على الشمال لا بد أن يكونوا أهالى شمالى أفريقية لأن الريح الشمالية تهب عليهم من جوف البحر المتوسط فصار كل شمالى عندهم جوفاً . ثم أنه جاءنى جواب فى هذا الموضوع من الاستاذ الشيخ خضر حسين التونسى يقول فيه : إن أهل تونس كما يسمون الجنوب بالقبلة ، يسمون الشمال بالجوف . وتجد هذا الاستعمال فاشياً فى تحديد الأرضين ، ويظهر أنه جاء إلى تونس من الاندلس ، وكنت أخبرت الاستاذ الخضر عما ظهر للاستاذ علال الفاسى من جهة هذا الاستعمال ففى جوابه قال لى أنه قد خطر ذلك على باله ، ولكن لم يطمئن إليه لأن هذه الكلمة بهذا المعنى لم تستعمل إلا بالمغرب والاندلس . ويظهر أن أصل استعمالها هو فى الاندلس ، فربما كان السبب فيه أن العرب دخلوا الأندلس من جهة الجنوب ، فكان الجوف عندهم هو داخل البلاد ، وهو فى الشمال كما لا يخفى ، فصار الشمال عندهم مرادفا للجوف

وأما كاتب هذه السطور فقد كنت من أول الأمر أظن أن العرب لما كانوا قد دخلوا الاندلس من الجنوب ، وتوغلوا فيها إلى الشمال ، وصلوا إلى مايسمونه بالارض الكبيرة ، شمالى البرانس ، وهى وسط القارة الاوربية ، لاطرفها كما هى أسبانية فصاروا يقولون للأرض الكبيرة جوفا ، ولما كانت الأرض الكبيرة هى فى الشمال نحرا ، صار الشمال والجوف عندهم مترادفين . وقد جاءنى من السيد علال الفاسى مؤخراً كتاب يقول فيه : « وأما رأيكم فقد وجدت ما يستأنس له به فى كلام ابن خلدون فقد جاء عنده فى صفحة ٣٠٣ مالفظه : « وقال هوروشيوش أن نيرون قيصر انتقض عليه أهل مملكته ، فخرج عن طاعته أهل بريطانية من أهل الجوف ، ورجع أهل أرمينية والشام إلى طاعة الفرس اه .

وخلاصة القول أن الاستاذين عبد القادر المغربى وعلال الفاسى يميلان إلى القول بأن الجوف استعمل للشمال لوقوع بلاد الجوف فى شمالى مكة ، كما استعملت القبلة لمعنى الجنوب لوقوعها فى شمالى الشام ، وأن العلامة الكرملى يرى التسمية المذكورة بدأت عند أهل شمالى أفريقية ، لكون الرياح الشمالية تهب على بلادهم من « جوف » البحر المتوسط ، وأن العلامة خضر حسين التونسى يذهب إلى رأى قريب من رأى

قادس . وركنها الثاني في بلد جليقية ، حيث الصنم المشبه صنم قادس ، مقابل جزيرة بريطانية . وركنها الثالث بين مدينة نربونة ، ومدينة برديل من بلد الفرنجة ، بحيث يقرب البحر المحيط من البحر الشامي المتوسط فيكادان يجتمعان في ذلك الموضع فيصير بلد الأندلس جزيرة بينهما في الحقيقة ، لولا أنه يبقى بينهما برزخ برية صحراء وعمارة مسافة مسيرة يوم للراكب منه المدخل إلى الأرض الكبيرة . التي يقال لها الأبواب ، ومن قِبَلِهِ يتصل بلد الأندلس بتلك البلاد المعروفة بالأرض الكبيرة ، ذات الألسن المختلفة .

قال : وأول من سكن بالاندلس على قديم الأيام ، فيما نقلته الاخباريون ، من بعد عهد الطوفان ، على ما يذكره علماءعجمها ، قوم يعرفون بالاندلش ، معجمة الشين بهم سمّي المكان ، فعرّب فيما بعد بالسين غير المعجمة ، كانوا الذين عمروها ، وتناسلوا فيها وتداولوا ملكها دهراً ، على دين التمجّس والإهمال والإفساد في الأرض ، ثم أخذهم الله بذنوبهم ، فحبس المطر عنهم ، ووالى القحط عليهم ، وأعطش بلادهم حتى نضبت مياهها ، وغارت عيونها ، و يبست أنهارها ، و بادت أشجارها ، فهلك كثرهم ، وفرّ من قدر على الفرار منهم ، فاقفرت الأندلس منهم و بقيت خالية ، فيما يزعمون ، مائة سنة و بضع عشر سنة ،وذلك من حد بلد الفرنجة إلى حد بحر الغرب الأخضر

هذا العاجز ، وهو أن العرب جاؤا الأندلس من الجنوب ، فكان داخلها أو جوفها هو الشمال في نظرهم ، وفي الواقع ، فأطلقوا كلمة الجوف على كل ماهو شمالي . وإنما الفرق هو في أني أنا أظن أن الجوف عند العرب لم يكن جوف الاندلس نفسها ، ولكن جوف القارة الاوربية كلها ، لأن الاندلس في ذاتها هي طرف بالنسبة إلى القارة المذكورة ، فالاندلس وجزر البحر المتوسط وايطالية هي بالنسبة إلى أوربة معدودة من الاطراف ، والجوف هو وسط القارة . ولما كان هذا الوسط هو في الشمال بالنسبة إلى أهل المغرب وعرب الاندلس ، فقد أطلق هؤلاء اسم الجوف على الشمال وكلام ابن خلدون فيه ما يدل على هذا ، لانه يذكر انتقاض أهل بريطانية ، وهم أهل شمالي فرنسة وجزيرة انكلترة ، ويعدهم أهل وسط اوربة فهذه هي الآراء المختلفة في هذا التوجيه وللقارىء أن يختار منها ما يشاء

وكان عدّة ما عمرتها هذه الامة البائدة مائة عام و بضع عشرة سنة . ثم ابتعث الله لعمارتها الافارقة (١) ، فدخل اليها بعد اقفارها تلك المدة الطويلة ، قوم منهم ، أجلاهم

(١) أى أهل أفريقية . وهذا الرأى الذى قاله ابن النظام معروف فى أوربة . قال رافائيل بالاستر فى تاريخ أسبانية ما خلاصته : إن الذين عمروا أسبانية قبل الجميع هم الليقوريون Ligures والايبيريون Ibères والسلتيون Celtes فأما أصل الليقوريين فجهول ، ولا يعرف وجودهم إلا من بعض أسماء البقاع ، وكل ما يقال عن أصلهم فهو رجم بالغيب : وأما الايبريون فقد ذهب قوم إلى أن أصلهم هو من آسية ، وقيل إنهم من أصل سامى أفريقى ، وذلك لشدة التشابه بين الايبريين وبين قبائل الاطلس ، والبرابر والطوارق ، سواء فى الملامح ، أو فى المنازع والأخلاق ومن المؤرخين من يرى أن الايبيريين هم أجداد الباشكنس الحاليين ، ويستدلون على هذا ببعض أدلة لغوية . أما السلتيون فهم شعب طرأ من آسية على غربى أوربة والوسط منها وقد انتجعوا أسبانية فى القرن السادس قبل المسيح ، وأقاموا بغربيها وموسطتها ، وتلاقوا مع الايبيريين ، ولم يطرد أحد الفريقين الآخر . وكانت نتيجة تساكن هذين العنصرين تولد اسم « السلتيبير » Celtibères أى السلتى الايبيرى وهو اسم أطلق على الايبيريين الذين فى أواسط أسبانية وقد عرف هذا الاسم منذ سنة ٢١٨ قبل المسيح وبالاختصار كانت اسبانية لذلك العهد منقسمة إلى ما يلى :

القسم الشمالى الشرقى الذى يقطنه الباشكنس ، مثل بيسقاية ونبارة ، ووشقة ، والفاردول Vardules فى « قيبوسقوا » Guipuzcoa . والايلرجيت Illergetes فى لاردة . والكوزيتان Cosétanes فى طركونة ، واللاسيتان Lacétanes فى برشلونة والاوسيتان Ausétanes ، والانديجيت Indigétes فى جرنده Géronne ، والايديتان Edetans فى بلنسية ، والباستيتان Bastitans فى لقنت ومرسية ، والترديتان Turdetans والتردول Turdules والتارتيز Tarteses فى الجنوب من بوغاز جبل طارق إلى وادى يانه Guadiana . ثم القسم المتوسط ، وسكانه الاوريتان Orétans فى جهات المانش . والكاربيتان Carpétans فى طليطلة . والاريفاك Arévaques فى شوريه Soria ونومانسيه Numancia مع المقاطعات السلتيبرية الممتدة من الوادى الجوفى Dourv إلى أرض بالنسية Palencia (هى غير بلنسية Valencia) حيث يسكن القاسيون Vacéens

ملك أفريقية تخفيفاً منهم ، لإمحال توالى على أهل مملكته ، وتردد عليهم ، حتى كاد يفنيهم ، فحمل منهم خلقاً فى السفن مع قائد من قِبَلِهِ يدعى أبطريقس ، فأرسوا بريف الأندلس الغربى ، واحتلوا بجزيرة قادس ، فاصابوا الاندلس قد أُمطِرت وأخصبت فجرت أنهارها ، وانفجرت عيونها ، وحييت أشجارها ، فنزلوا الاندلس مغتبطين وسكنوها معتمرين وتوالدوا فيها ، فكثروا ، واستوسعوا فى عمارة الارض ، ما بين الساحل الذى أرسوا فيه بغربيها ، إلى بلد الأفرنجة من شرقيها ، ونصبوا من أنفسهم ملوكا عليهم ، ضبطوا أمرهم ، وتوالوا على إقامة دولتهم ، وهم مع ذلك على ديانة من قبلهم من الجاهلية ، وكانت دار مملكتهم « طالقة » ؟ الخراب اليوم ، من أرض أشبيلية ، اخترعها ملوكهم وسكنوها ، فاتسق ملكهم بالأندلس مائة وسبعة وخمسين عاماً ، إلى أن أهلكهم الله تعالى ونسخهم بعجم رومة ، بعد أن ملك من هؤلاء الأفارقة فى مدتهم تلك أحد عشر ملكا .

ثم صار ملك الاندلس إلى عجم رومة ، وملكهم أشبان بن طيطش ؟ وباسمه سميت الاندلس اشبانية . وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان ، فاحيل بلسان العجم ، وقيل بل كان مولده باصبهان ، فغلب اسمها عليه[1] ؟ وهو الذى بنى إشبيلية ، وكان اشبانية اسماً خالصاً لبلد اشبيلية ، الذى كان ينزله اشبان هذا ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كله . فالعجم الآن يسمونه اشبانية ، لآثار اشبان هذا فيه ، وكان أحد الملوك الذين

ثم القسم الثالث الذى يقطنه القنتبريون Cantabres أهل سنتاندر (أوشنتادرم) والاستوريون Astures (أو الاشتوريون) والغاليسيون Gallaïques أهل غاليسيا Galicia وقبائل سلتية ساكنة بين البحر المحيط والوادى الجوفى والأمة التى يقال لها اللوزيتانيون Lusitains وهم أقوى أمة ايبرية بين الوادى الجوفى ووادى يانه أى البرتغال وشمالى الاسترامادور . وإلى الشرق من لوزيتانية كان يسكن الفتونيون Vettons وكان فى جزيرتى ميورقة ومينورقة قوم يقال لهم « الجيمناز » Gimnèses وفى جزيرة يابسة قوم يقال لهم « البيتيوز » Pytieuses

(١) لم نعثر على شىء من هذا فى كلام المحققين

ملكوا أقطار الدنيا ، فبازعموا ، وكان غزا الا فارقة،عند ما سلطه الله عليهم فى جموعه ففض عساكرهم ، وأثخن فيهم ، ونزل عليهم بقاعدتهم « طالقة »[١] وقد تحصنوا فيها منه ، فابتنى عليهم مدينة اشبيلية اليوم واتصل حصره وقتاله لهم ، حتى فتحها الله عليه وغلبهم ، واستوت له مملكة الاندلس باسرها ، ودان له من فيها ، فهدم مدينة طالقة ونقل رخامها وآلاتها إلى مدينة أشبيلية ، فاستتم بناءها . واتخذها دار مملكته واستغلظ سلطانه فى الارض ، وكثرت جموعه ، فعلا ، وعظم عتوّه . ثم غزا إيليا ، وهى القدس الشريف ، من أشبيلية ، بعد سنتين من ملكه ، خرج اليها فى السفن فغنمها وهدمها وقتل فيها من اليهود مائة الف واسترق مائة الف ، ونقل رخام إيليا وآلاتها إلى الاندلس وقهر الاعداء ، واشتد سلطانه . إنتهى .

وذكر بعض المؤرخين : أن الغرائب التى أصيبت فى مغانم الأندلس أيام فتحها كمائدة سليمان عليه الصلاة والسلام ، التى ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طليطلة ، وقُلَيْلَة[٢] الدر التى ألفاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة ، وغيرهما من ظرائف الذخائر ، إنما كانت مما صار لصاحب الأندلس من غنيمة بيت المقدس إذ حضر فتحها مع بختنصّر[٣] ، وكان اسم ذلك الملك بريان ؟ وفى سهمه وقع ذلك ومثله ، مما كانت الجن تأتى به نبى الله سليمان[٤] ، على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام ، انتهى .

---

(١) جاء ذكر طالقة هذه فى معجم البلدان لياقوت قال : طالقة ناحية من أعمال اشبيلية بالأندلس . وقرأت أسماء علماء من العرب منسوبين إلى طالقة

(٢) تصغير قلة بمعنى جرة

(٣) المعروف أن الذى فتح بيت المقدس من ملوك بابل هو نبوكدنصر الثانى ابن نابوبولصر وكان قد خلف أباه سنة ٦٠٤ قبل المسيح وهو الذى حصر بيت المقدس مرتين سنة ٥٩٧ ثم سنة ٥٨٦ وسبى بنى اسرائيل السبى الشهير المعروف بسبى بابل .

(٤) هذه كلها من أساطير الأولين

وقال غير واحد من المؤرخين ، كان أهل المغرب الأقصى يضرون بأهل الأندلس لاتصال الأرض ، ويلقون منهم الجهد الجهيد فى كل وقت ، إلى أن اجتاز بهم الاسكندر[١] ،فشكوا حالهم اليه ، فأحضر المهندسين ، وحضر إلى الزقاق ،فأمر المهندسين بوزن سطح الماء من المحيط والبحر الشامى ، فوجدوا المحيط يعلو البحر الشامى بشىء يسير فأمر برفع البلاد التى على ساحل البحر الشامى ونقلها من الحضيض إلى الأعلى ، ثم أمر بحفر ما بين طنجة و بلاد الأندلس من الأرض ، فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية ، و بنى عليها رصيفاً بالحجر والجيار بناء محكما ، وجعل طوله اثنى عشر ميلا ، وهى المسافة التى كانت بين البحرين ، و بنى رصيفاً آخر يقابله من ناحية طنجة ، وجعل بين الرصيفين سعة ستة أميال ، فلما كمل الرصيفان حفر من جهة البحر الأعظم وأطلق فم الماء بين الرصيفين ، فدخل فى البحر الشامى ، ثم فاض ماؤه فأغرق مدناً كثيرة ، وأهلك أمماً عظيمة ، كانت على الشطين[٢] ، وطفا الماء على الرصيفين إحدى عشر قامة . فأما الرصيف الذى يلى بلاد الأندلس فانه يظهر فى بعض الأوقات إذا نقص الماء ، ظهوراً بيناً مستقيما ، على خط واحد ، وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة . وأما الرصيف الذى من جهة العدوة ، فان الماء حمله فى صدره ، واحتفر ما خلفه من الأرض اثنى عشر ميلا . وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز ، وسبتة ، وطنجة . وعلى طرفه من الناحية الأخرى جبل طارق بن زياد ، وجزيرة طريف ، وغيرهما والجزيرة الخضراء ، و بين سبتة والجزيرة الخضراء ، عرض البحر انتهى ملخصاً . وقد تكرر بعضه مع ما جلبناه ، والعذر بيّن ، لارتباط الكلام بعضه ببعض .

وقال ابن سعيد . ذكر الشريف[٣] أن لاحظ لأرض الأندلس فى الاقليم

(١) ومتى اجتاز بهم الاسكندر ؟
(٢) بمقتضى هذه الأساطير يكون الاسكندر اتقى الضرر الأخف بالضرر الأشد
(٣) يعنون بالشريف الشريف الادريسي

الثالث قال : ويمر بجزيرة الأندلس الاقليم الرابع على ساحلها الجنوبى ، وما قاربه من قرطبة واشبيلية ومرسية وبلنسية ، ثم يمر على جزيرة صقلية ، وعلى ما فى سمتها من الجزائر ، والشمس مدبّرة له . والاقليم الخامس يمر على طليطلة ، وسرقسطة ، وما فى سمتها إلى بلاد أرغون التى فى جنوبها برشلونة ، ثم يمر على رومية وبلادها ، ويشق بحر البنادقة ، ثم يمر على القسطنطينية ، ومدبّرته الزهرة . والسادس على ساحل الأندلس الشمالى الذى على البحر المحيط وما قارب به ، وبعض البلاد الداخلة فى قشتالة وبرتقال وما فى سمتها . وعلى بلاد برجان والصقالبة والروس ، ومدبره عطارد ، ويمر الاقليم السابع فى البحر المحيط ، الذى فى شمال الاندلس ، إلى جزيرة انقلطرة ، وغيرها من الجزائر ، وما فى سمتها من بلاد الصقالبة وبرجان [1] . قال البيهقى : وفيه تقع جزيرة تولى ، وجزيرتا أجبال والنساء . وبعض بلاد الروس الداخلة فى الشمال والبلغار ومدبّره القمر . اه

وقال بعض العلماء ما معناه إن النصارى أعطوا عن الآخرة بستاناً متصلا من البحر المحيط بالأندلس إلى خليج القسطنطينية وعندهم عموم الشاه بلوط ، والبندق ، والجوز ، والفستق ، وغير ذلك مما يكون أكثر وأمكن فى الاقاليم الباردة ، والتمر عندهم معدوم ، وكذا الموز وقصب السكر ، وربما يكون شىء من ذلك فى الساحل ، لان هواء البحر يدفىء . اه

قال ابن حيان فى المقتبس : ذكر رواة العجم أن الخضر عليه السلام وقف على أشبان المذكور وهو يحرث الارض بفدن له أيام حراثته : فقال له : يا أشبان إنك

---

(١) برجان بالجيم بلد من نواحى الخزر ، قاله ياقوت فى معجم البلدان ، قال المنجمون هو فى الأقليم السادس ، وطوله أربعون درجة ، وعرضه خمس وأربعون درجة ، وكان المسلمون غزوه فى أيام عثمان رضى الله عنه ، فقال أبو نجيد التميمى :

بدأنا بجيلان فزلزل عرشهم كتائب تزجى فى الملاحم فرسانا
وعدنا لاشيان بمثل عداتهم فعادوا جوالى بين روم وبرجانا

لذو شأن ، وسوف يحظيك زمان ، و يعليك سلطان . فاذا أنت غلبت على ايليا ، فارفق بذرية الانبياء . فقال له اشبان : أساخر بى رحمك الله ؟ أنّى يكون هذا منى وأنا ضعيف ممتهين حقير فقير ؟ ليس مثلى ينال السلطان ! فقال له : قد قدّر ذلك قبك من قدّر فى عصاك اليابسة ما تراه فنظر اشبان إلى عصاه فاذا بها قد أورقت فريع لما رأى من الآية ، وذهب الخضر عنه ، وقد وقع الكلام بخلده ، ووفرت فى نفسه الثقة بكونه ، فترك الامتهان من وقته ، وداخل الناس ، وصحب أهل البأس منهم ، وسما به جدّه ، فارتقى فى طلب السلطان حتى أدرك منه عظيما ، وكان منه ما كان ، ثم أتى عليه ما أتى على القرون قبله . وكان ملكه كله عشرين سنة

وتمادى ملك الاشبانيين بعده إلى أن ملك منهم الاندلس خمسة وخمسون ملكا

ثم دخل على هؤلاء الاشبانيين من عجم رومة أمة يدعون البشتولقات وملكهم طلويش بن بيطه ، وذلك زمن بعث المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، أتوا الاندلس من قبل رومة ، وكانوا يملكون أفرنجة معها ، و يبعثون عمالهم اليها، فاتخذوا دار مملكتهم بالاندلس مدينة ماردة (١) ، واستولوا على مملكة الاندلس ، واتصل

(١) المعروف أن الذين بنوا ماردة هم الرومانيون ، وذلك قبل المسيح بخمس وعشرين سنة لاغير ، وسموها « أوغستا أميريتا » Augusta Emérita وكانت قاعدة ولاية « لوزيتانيا » ثم عظمت ونمت حتى صار يقال لها « رومة الاسبانيولية » ، ودخل عليها القوط وهى بهذه الحالة ، وأما « الشتولقات » فلم نعرف من يعنى بهم مؤرخونا ؟ وهم معذورون فى عدم تمحيص التاريخ فى القرون الوسطى التى كان التاريخ القديم فيها لا يزال فى مهد الطفولية سواء فى الشرق أو فى الغرب والمظنون أنهم يريدون بهم الفيزيقوط Visigots أما « أشبان » هذا فلم نعرفه ، ولا عرفنا عنه شيئا ، ولا سمعنا بغزوه بيت المقدس ولا باخضرار العصا فى يده . وجل ما عرفنا عن الذين كانوا يلون اسبانية قبل القوط أنهم من أمة « السويف » Suèves وهى أمة جرمانية زحفت من الشمال إلى الجنوب نظير القوط . ويقال أنها من نفس الجنس الجرمانى الذى يقال له اليوم « سڤاب » Swab وأن القوط نزعوا من أيديهم القسم الشمالى الغربى من اسبانية

ملكهم بها مدة ، إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكا ، ثم دخل على هؤلاء

سنة ٥٨٥ قبل المسيح ومن ذلك الوقت كانت الدولة للقوط الملقبين « بالفيزيقوط » وربما كان العرب رأوا فيهم جنساً آخر غير الجنس القوطى ، على حين أنهم هم قوط الغرب ، كما أن « الأوستروقوط » هم قوط الشرق . وكلا الفريقين استولى على ايطالية وتقدم إلى جنوبى فرنسة ، ثم فتح القوط الغربيون اسبانية ، كما ذكرنا ، وتولى أول ملك منهم عليها سنة ٥٣١ ب م واسمه « طوديش » Theudis ثم « طيوديجيزل » Théodigisèle سنة ٥٤٨ ثم « اجيلا » Agila سنة ٥٤٩ ثم « أتناجيلد » Atanagild سنة ٥٥٤ ثم « ليوبا » الأول Libua سنة ٥٦٧ ثم « ليوفيجيلد » Léowigild سنة ٥٧٢ ثم « هرمينيجلد » Herménigild سنة ٥٨٥ ثم « ريكاريد » Récarède سنة ٥٨٦ ثم « ليوبا » الثانى سنة ٦٠١ ثم « فيتريك » Vitceic سنة ٦٠٣ ثم « غندمار » Gondemar سنة ٦١٠ ثم « سيزبوط » Sisebut سنة ٦١٢ ثم « ريكاريد » الثانى سنة ٦٢١ ثم « سونتيلا » Suintila سنة ٦٢١ ثم « ريسيمر » Ricimer سنة ٦٢٥ ثم سيزيناند Sisenand سنة ٦٣١ ثم « شنتيلا » Chintila سنة ٦٣٦ ثم « طولغا » Tulga سنة ٦٤٠ ثم « شنداسنت » Chindasuinte سنة ٦٤٢ ثم « ريسيزوينت » سنة ٦٥٢ ثم « فامبا » Vamba سنة ٦٧٢ ثم « أرفيج » Ervige سنة ٦٨٠ ثم « أجيزا » Egiza سنة ٦٨٧ ثم « فيتيزا » Witiza سنة ٧٠٠ ثم « رودريك » أو « لذريق » Rodrique سنة ٧١٠

والذى يلوح لنا من المقابلة بين هذه الروايات التى فى بعض كتب العرب وبين تواريخ الافرنج المعول عليها أن الذين يعنيهم ابن حيان بقولهم « البشتولقات » هم « الفيزيقوت » أو « الفيزيقوط » أنفسهم والمشابهة بين اللفظتين ظاهرة فالفاء هى الباء والزاى هى الشين لأن من عادة العرب قلب السين والزاى شيناً بل يقال أن أوائل الاسبان أيضاً كانوا يقلبونهما شيناً فتصير اللفظة هى « البيشيقيوت » وأما اللام فطالما ادخلوها على الاعلام التى فيها « واو » مثل « بردوين » Baudwin جعلوها « بلدوين » ومثل « بيوغراد » Beaugrade التى صارت « بلغراد » وعليه فتصير اللفظة « البشيقولت » ثم جمعوها على « بيشقولتات » ، ثم تعاورها التصحيف الذى لا يوجد أكثر منه فى نسخ العرب للألفاظ الافرنجية فان الاسم الإفرنجى يجتاز عند العرب عقبتين الأولى هى اللفظ لأن العرب لا تقدر ان تتلفظ ببعض الحروف الافرنجية ولو قطعت رؤوسها

البشتولقات أمة القوط ، مع ملك لهم ، فغلبوا على الاندلس ، واقتطعوها من يومئذ

والثانية هي التحريف والتصحيف في النسخ فبعد ان يمر الإسم الافرنجي بهاتين العقبتين يبعد جداً عن أصله حتى يصعب رده الى الأصل . وانا أرى ان « طوليش بن بيطه » الذي ذكره ابن حيان انه أول من ملك من «البشقولتات» انما هو «طوديش» Theudis الذي ذكر مؤرخو الافرنجة انه أول من ملك من « الفيزيقوط » أو « البيزيقوط » في أسبانية . وكذلك « خشندش » الذي قال ابن حيان انه هو أول من تنصر من ملوك القوط انما هو «شنداسنت» الذي ملك عام ٦٤٢ وان الاسم تحرف أولا الى «خنداشنت» ثم تصحف وتحرف فصار « خشندش » على ان مؤرخي الافرنج يذكرون ان أول ملك تنصر من ملوك القوط هو ريكاريد الأول اى قبل عهد الذي سموه « خشندش » أو تصحف اسمه الى خشندش ، بخمسين سنة وشيء . واما « فيتيزا » الذي يسميه العرب في كتبهم « غيطشه » فاني معتقد ان الغين هنا هي تصحيف الفاء وان العرب من البداية قالوا « فيطشه » لا « غيطشه » وذلك لأنهم لفظوا الزاى شيناً على عادتهم فصار «فيتيزه» هو « فيتيشه » ثم فخموا التاء فصار « فيطشه » . واما عدد ملوك « الفيزيقوط » فهو بحسب ما ذكر الافرنج ٢٥ ملكا كما ترى ورواية ابن حيان عن عدد ملوك «البشقولتات» الذين اعتقد انهم هم هم هي انهم ٢٧ ملكا فالروايتان متقاربتان . وهناك ملاحظة ، وهي ان المقرى يروى فيما بعد قائلا : وقال جماعة : ان القوط غير البشقولتات الخ وهذا دليل على وجود روايات أخرى بان البشقولتات هم من القوط انفسهم لا سيما انه يروى عن هؤلاء ان عددهم ٢٧ ملكا

وفي كتابنا « غزوات العرب في اوربة » نذكر مدينة طلوزة Toulouse ونقول انها كانت قاعدة مملكة التكتوزاجيين Valces Tectosages وقلت في الحاشية ان هؤلاء هم جيل من الغولوا ولا نعلم هل هم الذين أرادهم صاحب نفح الطيب عند ذكر الأمم التي عمرت الاندلس وسماهم البشتلقات أم لا ؟ وقد تكون اللفظة مصحفة عن تشتلقات وفي صبح الاعشى يذكر الشبنقات ويقول انهم ملكوا الاندلس وبلاد الأندلس معاً وان القوط خرجوا عليهم . انتهى . الا ان العلامات كثيرة على كون المراد بالبشتلقات أو البشتقات هم امة الفيزيقوط . هذا ويظهر ان المؤرخين من أسبانيين وغيرهم مختلفون في عدد ملوك القوط وفي اسمائهم وفي سني ملكهم وذلك كما ترى من سلسلة ملوك القوط التي ننشرها هنا مع صورة كل واحد منهم فانك تراها مختلفة عن

من صاحب رومة، وتفردوا بسلطانهم ، واتخذوا مدينة طليطلة دار مملكتهم وأقروا بها سرير ملكهم ، فبقى باشبيلية علم الاشبانيين ، ورياسة أوليتهم (وقد كان عيسى المسيح عليه السلام) بعث الحواريين فى الارض يدعون الخلق إلى ديانته ، فاختلف الناس عليهم، وقتلوا بعضهم واستجاب لهم كثير منهم . وكان من أسرعهم إجابة لمن جاءه من هؤلاء الحواريين خشندش ملك القوط ، فتنصر ، ودعا قومه إلى النصرانية وكان من صميم أعاظمهم ، وخير من تنصر من ملوكهم ، وأجمعوا على أنه لم يكن فيهم أعدل منه حكما ، ولا أرشد رأيا ، ولا أحسن سيرة ، ولا أجود تدبيراً ، فكان الذي أصل النصرانية فى مملكته ، ومضى أهلها على سنته إلى اليوم ، وحكموا بها ، والانجيلات فى المصاحف الأربعة التى يختلفون فيها من انتساخه ، وجمعه ، وتثقيفه . فتناسقت ملوك القوط بالأندلس بعده ، إلى أن غلبتهم العرب عليها ، وأظهر الله تعالى دين الاسلام على جميع الأديان .

فوقع فى تواريخ العجم القديمة ان عدة ملوك هؤلاء القوط بالاندلس ، من عهد « اثانا وينوس »[1] الذى ملك فى السنة الخامسة من مملكة « فلبش »[2]

السلسلة الأولى التى نقلناها عن تواريخ ممحصة افرنجية الا ان السلسلة المصوّرة مبدوء فيها بملوك القوط وهم لا يزالون فى غالية وهى منقولة عن مجموعة عظيمة مطبوعة فى برشلونة بمطبعة « بوناڤيستا » Buenavista كانت قد أهديت الى الوطنى الكبير فقيد المغرب الحاج عبد السلام بنونه من عيون أعيان تطاون رحمه الله وقد أهدانا اياها أخوه الفاضل الحاج محمد العربى بنونه حفظه الله وما نشرناه فى هذا الكتاب من التصاوير والرسوم منه ما أخذناه عن هذه المجموعة ومنه ما اقتنيناه فى أثناء سياحتنا الى الاندلس ومنه ما أرسلنا واستجلبناه منها فيما بعد

(١) أظن هذا الاسم محرفاً وأصله « أتاناجيلدوس » وهو من ملوك القوط ، وقد مر بك

(٢) فيلبس القيصر الرومانى ملك من سنة ٢٤٤ للمسيح إلى سنة ٢٤٩ وكان عربى الأصل .

القيصرى » لمضى اربعمائة وسبع من تاريخ الصفر [١] المشهور عند العجم ، إلى عهد

(١) كان أشهر تاريخ هو التاريخ المسمى باليلياني Julien وذلك أنهم قسموا السنة إلى ١٢ شهراً تبلغ عدة أيامها جميعاً ٣٥٥ يوماً فلزم حينئذ إضافة شهر جديد تكون أيامه ٢٢ أو ٢٣ يوما ، حتى تتم المطابقة مع السنة الشمسية . فكان هذا الشهر المضاف يأتى كل سنتين ، ويكون دوره فى آخر السنة بين ٢٣ و ٢٤ فبراير وكانوا يسمونه « مرسدونيوس » Mercedonius فكان دور أربع سنوات يزيد باثنى‌عشر يوماً على عدد الأيام التى فى السنوات الأربع الشمسية وأخيرا صار يأتى ١ يناير فى ١٥ اكطوبر ، فاضطر يوليوس‌قيصر إلى‌اصلاح الحساب ، وأضاف إلى‌السنة شهرين ، أحدهما ٣٣ يوماً ، والآخر ٣٤ يوماً . ثم جاء الفلكى الاسكندرى سوزستان Sosisthène فقرر للسنة ٣٦٥ يوماً ، وبقيت ست ساعات لأجل تتمة الوقت الذى يقتضيه دوران الشمس حول الأرض ، فتألف من هذه الساعات يوم واحد كل أربع سنوات ، فوضعوا هذا اليوم بعد ٢٣ فبراير

وهكذا جرى اصلاح الحساب الأول ، إلا أن سنة سوزستان نفسها بقيت ناقصة باحدى عشرة دقيقة واثنتى عشرة ثانية عن السنة الشمسية ، وبقيت الحال هكذا من سنة ٤٧ للمسيح إلى سنة ١٥٨٢ فتنبه لاصلاح هذا الخلل البابا غريغوريوس الثالث عشر ، فأصلح الحساب اليولياني ، وسمى الحساب الجديد بالحساب الغريغورى ، ولكنه لم يسلم من الخلل أيضاً ، بحيث لا يزال علماء الفلك والتقويم يفكرون فى حساب آخر ينتهى إليه الضبط ، ولكن صعوبة ترك التقليد تحول دون هذا المشروع فى اوربة ، وسنة ١٩١٧ إذ كنت من أعضاء مجلس النواب العثمانى فى استانبول ، تقرر عندنا فى المجلس العمل بالتاريخ الغريغورى بكونه أصح من التاريخ العربى ، فتم هذا القرار فى مجلس النواب أو المبعوثين ، وتقدم إلى مجلس الأعيان ، فجاء الفلكى الشهير أحمد مختار باشا الغازى ، واعترض على هذا التغيير ، وقال : إن الحساب الغريغورى هو أيضا غير سالم من الخطأ ، فما الفائدة فى العدول عن خطأ إلى خطأ آخر ؟ وبين ببراهين علمية صحة نظره . وبذلك عدلت الدولة العثمانية يومئذ عن اتخاذ الحساب الغريغورى ، وبقيت على الحساب الذى يقال له المارتى ، وهو حساب عربى قد رفع منه الفرق بين الشمسى والقمرى ، ولكن تركيا بعد الحرب العامة عادت فاتخذت الحساب الغريغورى . أما فى زمن أغسطس قيصر فقد وضع الرومان حسابين لمواسم الزراعة أحدهما يسمى


سلسلة ملوك القوط في اسبانية
الاريقو
٤٨٤ – ٥٠٧
اوريقو
٤٦٧ – ٤٨٤
تيودوريقو
٤٥٣ – ٤٦٧
توريسموندو
٤٥١ – ٤٥٣
تيودوريدو
٤١٩ – ٤٥١
فاليه
٤١٦ – ٤١٩
سجريكو
٤١٦
اتولفو
٤١٤ – ٤١٦
ليوفيجلده
٥٧٢ – ٥٨٦
ليوفا ردا ١
٥٦٧ – ٥٧٣
آنا ناجيلده
٥٥٤ – ٥٦٧
اجيلا
٥٤٩ – ٥٥٤
توريسيلو
٥٤٨ – ٥٤٩
توريس
٥٣١ – ٥٤٨
امالاريقو
٥١١ – ٥٣١
غيزاليقو
٥٠٧ – ٥١١
سيسينده
٦٣١ – ٦٣٦
سونيلا
٦٢١ – ٦٣١
ريكاردو ٢
٦٣١
سيسيروتو
٦١٢ – ٦٣٠
غوندمارو
٦١٠ – ٦١٢
فيتيريقو
٦٠٣ – ٦١٠
ليوفا ٢
٦٠١ – ٦٠٣
ريكاردو ١
٥٨٦ – ٦٠١
لذريق
٧٠٩ – ٧١١
فيتيشا
٧٠١ – ٧٠٩
ايغيقا
٦٨٧ – ٧٠١
ايرفيضيو
٦٩٠ – ٦٨٧
فامبا
٦٧٢ – ٦٩٠
راسيسفنو
٦٤٩ – ٦٧٢
شينداشفيتو
٦٤٣ – ٦٤٩
تولفا
٦٤٠ – ٦٤٣
سنتيلا
٦٣٦ – ٦٤٠

لذريق آخرهم ، الذى ملك فى السنة التاسعة والاربعين وسبعمائة من تاريخ الصفر ، وهو الذى دخلت عليه العرب فأزالت دولة القوط ، ستة وثلاثون ملكا ، وأن مدة أيام ملكهم بالاندلس ثلثمائة واثنتان وأربعون سنة اه .

وقال جماعة : إن القوط غير البشتولقات ، و إن البشتولقات من عجم رومة ، و إنهم جعلوا دار ملكهم ماردة ، واتصل ملكهم إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكا ، ثم دخل عليهم القوط ، واتخذوا طليطلة دار مملكة ، ثم ذكر تنصر ملكهم خشندش مثل ما تقدم ، ثم ذكر أن عدّة ملوك القوط ستة وثلاثون ملكا

وذكر الرازي أن القوط من ولد ياجوج بن يافث بن نوح ، وقيل غير ذلك اه

وذكر الرازى فى موضع آخر نحو ما تقدم وزيادة ونصه :

إن الاندلس فى آخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة التى تقدم ذكرها التى هى ربع معمور الدنيا ، فهى موسطة من البلدان ، كريمة البقعة ، بطبع الخلقة ، طيبة التربة ، مخصبة القاع ، منبجسة العيون الثرّارة ، منفجرة الأنهار الغزار ، قليلة الهوام ذوات السموم ، معتدلة الهواء أكثر الازمان ، لا يزيد قيظها زيادة منكرة تضر بالابدان ، وكذا فصولها فى أعم سنيها تأتى على قدر من الاعتدال ، وتوسط من الحال ، وفواكهها تتصل طول الزمان ، فلا تكاد تعدم ، لان الساحل ونواحيه ، يبادر بباكوره ، كما أن الثغر وجهاته ، والجبال التى يخصها برد الهواء ، وكثافة الجو ، تستأخر بما فيها من ذلك ، حتى يكاد طرفاها كهنا يلتقيان ، فمادة الخيرات فيها متصلة كل أوان .

كولوتيانوم Colotianum ، والآخر فالنس Vallense ووجدا مكتوبين على الحجارة

وأما تاريخ الصفر فيقال إنه اصطلاح أسبانى كان مبدأه أول يناير سنة ٣٨ قبل الميلاد ، أى فى زمن فتح أغسطس الرومانى لاسبانية ، وبقى مستعملا فيها إلى أواخر القرن الخامس عشر

ومن بحرها بجهة الغرب يخرج العنبر الجيد ، المقدّم على أجناسه فى الطيب ، والصبر على النار ، وبها شجر المحلب ، المعدود فى الأفاوية ، المقدّم فى أنواع الأشنان كثير واسع . وقد زعموا أنه لا يكون إلا بالهند ، وبها فقط . وبها خواص نباتية يكثر تعدادها . انتهى [١]

وقد ذكر غيره تفصيل بعض ذلك فقال : يوجد فى ناحية « دلاية » [٢] من إقليم « البشرة » [٣] عود الانجوج ، لا يفوقه العود الهندى ذكاء وعطر رائحة وقد سيق منه إلى خيران [٤] الصقلبى صاحب المرية ، وأن أصل منبته كان بين أحجار هناك « وبأكشونية » [٥] جبل كثيرا ما يتضوّع ريحه ريح العود الذكى ، إذا أرسلت فيه النار ، وببحر « شدونة » [٦] وجد العنبر الطيب الغربى ، وفى جبل « منت ليون » المحلب [٧] ، ويوجد بالأندلس القُسط [٨] الطيب ، والسنبل [٩] الطيب ، والجنطيانة [١٠] تحمل من الأندلس إلى جميع الآفاق وهو عقّار [١١] رفيع

---

(١) هذه الجملة من كلام الرازى قد تقدمت ، لكن باختلاف قليل عما هى فى هذا الموضع ، ونحن أحببنا أن نحافظ بقدر الامكان على نصوص المؤلفين الذين نقلنا عنهم

(٢) برجة ودلاية هما من عمل المرية

(٣) الأسبان يقولون للبشرة أو البشرات Albuxara وهى جبال عالية مشرفة على البحر المتوسط (٤) سيأتى خبره

(٥) قال ياقوت : اكشونية بفتح الهمزة وسكون الكاف وضم الشين المعجمة وسكون الواو وكسر النون وياء خفيفة مدينة بالاندلس يتصل عملها بعمل أشبونة . وهى غربى قرطبة ، وهى مدينة كثيرة الخيرات ، برية بحرية ، قد يلقى بحرها على ساحلها العنبر الفائق الذى لا يقصر عن الهندى (٦) Sidonia

(٧) ضبطه بفتح أوله وهو شجر له حب يجعل فى الطيب

(٨) بضم أوله فسكون وهو عود يتداوى به

(٩) السنبل هنا هو نبات طيب الرائحة يتداوى به ويسمى سنبل العصافير

(١٠) الجنطيانة هو من العقاقير المعروفة فى المغرب واطباء المغرب يطلقونه على جذر النبات المعروف عند الصيادلة « بأوضمى » هكذا كتب الينا من فاس

(١١) بفتح أوله وتشديد ثانيه والجمع عقاقير

والمرّ الطيب بقلمة أيوب ، وأطيب كهرباء الأرض بشدونة ، درهم منها يعدل دراهم من الجلوبة . وأطيب القرمز قرمز الاندلس ، وأكثر ما يكون بنواحي اشبيلية ، ولبلة [1] ، وشدونة ، و بلنسية ، ومن الاندلس يحمل إلى الآفاق .

و بناحية لورقة من عمل تدمير يكون حجر اللازورد الجيد ، وقد يوجد فى غيرها وعلى مقربة من حضرة لورقة من عمل قرطبة معدن البلور ، وقد يوجد بجبل «شحيران» وهو شرقى « بيرة » وحجر النجادى ؟ يوجد بناحية مدينة الاشبلونة ، فى جبل هنالك يتلألأ فيه ليلا كالسراج ، والياقوت الأحمر يوجد بناحية حصن « منت ميور » [2] من كورة مالقة ، إلاّ أنه دقيق جداً لا يصلح للاستعمال لصغره ، و يوجد حجر يشبه الياقوت الأحمر بناحية « بجانة » [3] فى خندق يعرف بقرية « ناشرة » أشكالا مختلفة كأنه مصبوغ ، حسن اللون ، صبور على النار ، وحجر المغناطيس الجاذب للحديد يوجد فى كورة تدمير . وحجر الشادنة » يوجد بجبال قرطبة ، كثير ، و يستعمل ذلك فى التذاهيب . وحجر اليهودى فى ناحية حصن « البونت » [4] أنفع شيء للحصاة وحجر المرقشيثا الذهبية فى جبال « ايده » [5] لا نظير لها فى الدنيا ، ومن الأندلس

(١) Niebla قد كررنا تعريف هذه الأسماء بالعربى و بالاسبانيولى لأن القارىء لا يقدر ان يحفظها الا بالتكرار ، وان لم ترسخ فى ذهنه فلا يستطيع ان يفهم تاريخ الاندلس وجغرافيتها على وجهها . فالتكرار لازم الا فى التعريف بالاسماء المشهورة

(٢) Montmayor (٣) Bechina

(٤) قال ياقوت : حصن « البونت » بالضم والواو والنون ساكنان والتاء فوقها نقطتان حصن بالاندلس ، وربما قالوا البنت ، وقد ذكر . ينسب اليه ابو طاهر اسماعيل ابن عمران بن اسماعيل الفهرى البنتى ، قدم الاسكندرية حاجاً ، ذكره السلفى ، وكان اديباً أريباً قارئاً ، وعبد الله بن فتوح بن موسى بن ابى الفتح بن عبد الله الفهرى البنتى أبو محمد ، كان من أهل العلم والمعرفة ، وله كتاب فى الوثائق والاحكام ، وله أيضاً رواية توفى فى جمادى الآخرة سنة ٤٦٢

(٥) Ubeda من أعمال جيان

تحمل إلى جميع الآفاق بفضلها . والمغنيسيا بالأندلس كثير . وكذلك حجر « الطَّلْق »(١) ويوجد حجر اللؤلؤ بمدينة برشلونة ، إلاّ أنه جامد اللون . ويوجد المرجان بساحل بيرة ، من عمل المرية ، مالقط منه فى أقل من شهر نحو ثمانين رطلاً .

ومعدن الذهب بنهر لاردة ، يجمع منه كثير ، ويجمع أيضاً فى ساحل الاشبونة ومعادن الفضة فى الأندلس كثيرة ، فى كورة تدمير ، وجبال جمة »(٢) ببجانة ، و بإقليم « كرتش » من عمل قرطبة معدن فضة جليل . و « باشكونية »(٣) معدن القصدير لا نظير له ، يشبه الفضة ، وله معادن بناحية أفرنجة وليون . ومعدن الزئبق فى جبل البرانس ، ومن هنالك يتجهز به إلى الآفاق . ومعادن الكبريت الأحمر والأصفر بالأندلس كثيرة . ومعدن التوتية الطيبة بساحل « البيرة »(٤) بقرية تسمى « بطرنة »(٥) وهى أزكى توتيا وأقواها فى صبغ النحاس . وبجبال قرطبة توتيا وليست كالبطرنية . ومعدن الكحل أشبه بالأصفهانى بناحية مدينة طرطوشة ، يحمل منها إلى جميع البلاد . ومعادن الشبوب والحديد والنحاس بالأندلس أكثر من أن تحصى .

وما ذكرت هنا ، وإن تكرر بعضه مع ما سبق أو يأتى ، فهو لجمع النظائر وما لم نذكره أكثر ، والله تعالى أعلم .

ومن خواص طليطلة أن حنطتها لا تتغير ولا تسوس على طول السنين ، يتوارثها

---

(١) بكسر فسكون وزان مثل هو حجر براق يتشظى اذا دق صحائف وشظايا يتخذ منه مضاوى للحمامات بدلا عن الزجاج واجوده اليمانى ثم الهندى ثم الاندلسى

(٢) لا أعلم هل هذه اللفظة هى دجمة ام جمة فان كانت دجمة وقد سقطت الدال منها فى النسخ فهى عند الاسبانيول هكذا Diegma وان كانت جمة كما هى مكتوبة فى النفح فلا يبعد أن تكون اسما عربياً من أصله لا سيما انه يوجد جبال كثيرة عند العرب باسم جمآء بالمد والهمز مؤنث اجم الذى لاقرن له ويقال بيت أجم أى لا شرفة له

(٣) فى غربى الأندلس كانت مقاطعة يقال لها اشكونية قاعدتها مدينة شلب

(٤) Vera (٥) Baterna

الخلف عن السلف . وزعفران طايطلة هو الذى يعم البلاد ، ويتجهّز به الرفاق إلى الآفاق . وكذلك الصبغ السماوى . اه

وقال المسعودى فى مروج الذهب بعد كلام ما نصه : والعنبر كثير ببحر الاندلس ، يجهّز إلى مصر وغيرها ، ويحمل إلى قرطبة من ساحل لها يقال له « شنترين »(١) و « شدونة »(٢) تباع الاوقية منه بالاندلس ثلاثة مثاقيل ذهباً ، والاوقية بالبغدادى ، وتباع بمصر أوقيته بعشرين ديناراً ، وهو عنبر جيد ، ويمكن أن يكون هذا العنبر الواقع إلى بحر الروم ، ضربته الأمواج من بحر الأندلس إلى هذا البحر لاتصال الماء . وبالأندلس معدن عظيم للفضة ومعدن للزئبق(٣) ليس

(١) Santarem فى البرتغال (٢) Sidonia

(٣) جاء فى كتاب « اسبانية المسلمة فى القرن العاشر للاوى . بروفنسال ماتحصله : كانت المعادن من قديم الزمان معروفة فى أسبانية ، وكان الرومان يستخرجون منها جانباً كبيراً ، وذلك كالحديد والذهب والفضة والرصاص والنحاس ، وكان الحديد مبذولا . ولما دخل المسلمون الى الأندلس لم يهملوا المعادن ، بل وفروا لها أعظم جانب من العناية وكانوا يستخرجون الذهب من رمال نهر لاردة ونهر شقر ونهر التاجه . وكانت الفضة فى نواحى مرسية والحمة وقرطبة بمكان يقال له المرج حسبما روى الادريسى وفى « تطالقة » من عمل باجة كما قال ياقوت فى المعجم ويوجد الحديد فى شمالى الوادى الكبير بين قرطبة واشبيلية ، وروى الادريسى انه كان منه فى قسطنطانية. وروى ياقوت انه كان منه فى فرّيش وكان على مسافة ١٢٥ كيلو متراً الى الشمال من قرطبة معدن زئبق مشهور ، وكان هذا المعدن معروفا عند الرومانيين ، وتنبه له المسلمون واستغلوه ، وجغرافيو العرب يقولون انه فى جبل البرانس ومنه فى المحل الذى يقال له اليوم سيودادريال Ciudadreal فقد كان يوجد زئبق أيضا هناك ، وأيضا فى أبال بقرب قرطبة . وقال الادريسى انه رأى فى هذا المعدن الأخير ألف عامل ، منهم من كان مشغولا باستخراج المادة من آبارها ، ومنهم من كان ينقل الحطب لأجل التحمية ، ومنهم من كان يصنع الآنية التى يستودع فيها المعدن بعد ذوبه ، ومنهم من كانوا يبنون المواقد

وكان عمق الآبار نحواً من مائة ذراع

بالجيد يجهّز إلى سائر بلاد الاسلام والكفر، وكذلك يحمل من بلاد الأندلس الزعفران وعروق الزنجبيل . وأصول الطيب خمسة أصناف المسك، والكافور، والعود، والعنبر، والزعفران، وكلها تحمل من أرض الهند وما اتصل بها إلا الزعفران والعنبر اهـ .

وهو وإن تكرر مع ما ذكرته عن غيره فلا يخلو من فائدة والله تعالى أعلم .

وذكر البعض أن فى بلاد الاندلس جميع المعادن الكائنات عن النّيرات السبعة الرصاص من زحل، والقصدير الأبيض من المشترى، والحديد من قسم المريخ، والذهب من قسم الشمس، والنحاس من الزهرة، والزئبق من عطارد، والفضة من القمر .

وذكر الكاتب ابراهيم بن القاسم القروى المعروف بالرقيق بلد الأندلس فقال : أهله أصحاب جهاد متصل، يحاربون من أهل الشرك المحيطين بهم أمة يدعون

وكان يوجد زئبق وتوتية بقرب شَلَوْبين على ساحل البحر المتوسط، وكذلك ذكر المقرى وجودهما فى بطرنه . ويظهر ان المسلمين لم يعتنوا بمعادن التنك التى فى « ريوتنتو » الى الشمال الشرقى من « أنبه » ولكن كانوا يأخذون النحاس من « أشكونية » فى الغرب وهى تابعة البرتغال اليوم . وكان عندهم الرصاص فى « قبره » وعندهم الملح فى سرقسطة، وكان عندهم الطفال بقرب طليطلة والكحل فى نواحى طرطوشة وبسطة وكانت الأندلس موصوفة بالحجارة الثمينة، فكان الياسنت من مالقه وحجر الكهرباء فى مرسية . وأما المرمر فلم يكن يكفى البلاد بل كانوا يستوردون من الخارج وكان معدن المرمر فى جبال مورينا وفى مكايل ومن هذه قطعت أعمدة المرمر التى كانت فى المرية وقد نقلت الآن إلى مجريط . وكان يوجد من الحديد فى جزيرة شلطش بازاء أنبه وهناك دار صناعة حسبما قال الادريسى . وفى شلطش أيضا مصايد للاسماك كان يحمل منها إلى أشبيلية، ويقول الادريسى إنه كان من هذه المصايد فى بزليانه بقرب مالقه وكان صيادو السمك فى سواحل الاتلانتيك كما روى ياقوت فى المعجم يبحثون عن العنبر الرمادى ولا سيما فى سيتوبال وكان يقال لها الجون العنبرى عند العرب وكان أيضاً يوجد فى شذونة وكانوا يجدون المرجان بقرب المرية

الجلالقة ، يتاخمون حوزهم ، ما بين غرب إلى شرق ، قوم لهم شدة ، ولهم جمال وحسن وجوه ، فأ كثر رقيقهم الموصوفين بالجمال منهم ، ليس بينهم و بينهم درب [(١)] فالحرب متصلة بينهم ما لم تقع هدنة . و يحاربون بالأفق الشرقى أمة يقال لهم الفرنجة ، هم أشدّ عليهم من جميع من يحاربونه من عدوّهم ، إذ كانوا خلقاً عظيما فى بلاد كثيرة واسعة جليلة ، متصله العمارة ، آهله ، تدعى الأرض الكبيرة ، هم أ كثر عدداً من الجليقيين ، وأشدّ بأساً ، وأحدّ شوكة ، وأعظم امدادا . وهذه الأمة يحاربون أمة الصقالبة المتصلين بأرضهم ، لمخالفتهم إياهم فى الديانة ، فيسبونهم و يبيعون رقيقهم بأرض الأندلس ، فلهم هنالك كثرة ، وتخصيهم للفرنجة يهود [(٢)] ذمتهم الذين بأرضهم ، وفى ثغر المسلمين المتصل بهم ، فيحمل خصيانهم من هنالك إلى سائر البلاد ، وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هناك فصاروا يخصون و يستحلون المثلة .

قال ابن سعيد : ومخرج بحر الروم المتصاعد إلى الشام ، هو بساحل الأندلس الغربى بمكان يقال له الخضراء ، ما بين طنجة من أرض المغرب ، و بين الأندلس فيكون مقدار عرضه هناك كما زعموا ، ثمانية عشر ميلا . وهذا عرض جزيرة طريف إلى قصر مصمودة بالقرب من سبتة . وهناك كانت القنطرة التى يزعم الناس أن الاسكندر بناها ليعبر عليها من بر الاندلس إلى بر العدوة ، ويعرف هذا الموضع الزقاق ، وهو صعب المجاز ، لأنه مجمع البحرين ، لا تزال الامواج تتطاول فيه ، والماء يدور ، وطول هذا الزقاق الذى عرضه ثمانية عشر ميلا ، مضاعف ذلك إلى ميناء

---

(١) الدرب كل مدخل إلى بلاد الروم قال امرؤ القيس :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

(٢) تقدم الكلام فى إحدى الحواشى أن تجار اليهود كانوا يخصون سبى الصقالبة ، وأنه كان بحسب تعبير دوزى معمل للخصاء فى فردون Verdun وقد نقل ذلك عنه لافى بروفنسال فى كتابه «أسبانية المسلمة فى القرن العاشر» L'Espagnie Musulmane Au xem Siècle

سبتة ، ومن هناك يأخذ البحر في الاتساع إلى ثمانمائة ميل وأزيد ، ومنتهاه مدينة صور من الشام ، وفيه عدد عظيم من الجزائر ، قال بعضهم : إنها ثمان وعشرون جزيرة منها صقلية ومالطة وغيرها اه . وبعضه بالمعنى . وقال بعضهم عند وصفه ضيق بحر الزقاق قرب سبتة ما صورته : ثم يتسع كما امتدّ حتى يصير إلى ما لا ذرع له ولا نهاية .

وقال بعضهم : وكان مبلغ خراج الاندلس الذى كان يؤدى إلى ملوك بنى أمية ، قديماً ثلاثمائة ألف دينار ، دراهم أندلسية كل سنة قوانين . وعلى كل مدينة من مدائنهم مال معلوم فكانوا يعطون جندهم ورجالهم الثلث من ذلك مائة ألف دينار ، وينفقون فى أمورهم ونوائبهم ومؤن أهليها مائة ألف دينار ويدخرون لحادث أيامهم مائة ألف دينار اه .

وذكر غيره : أن الجباية كانت بالأندلس أيام عبد الرحمن الأوسط ، ألف ألف دينار فى السنة ، وكانت قبل ذلك لاتزيد على ستمائة ألف[1] . حكاه ابن سعيد وقال : أن الأندلس مسيرة شهر مدن وعمائر[2]

---

(١) سيأتى ذكر دخل الدولة الأندلسية فى أيام الناصر والمستنصر ، وذلك تفصيلا عند ما نصل إن شاء الله إلى قرطبة

(٢) قال المؤرخ الأسبانيولى رافائيل بالستر فى تاريخه المترجم إلى الافرنسية المطبوع سنة ١٩٢٨ ، وذلك فى الصفحة ٥٢ مايلى : «كانت أسبانية الاسلامية من أغنى البلاد الاوربية وأحصاها سكانا فى عصر الخلفاء ، وكان فيها ست حواضر كبرى ، وثمانون مدينة معمورة جد العمران ، وثلاثمائة مدينة من الدرجة الثانية ، هذا عدا القرى التى لا تحصى والمزارع . وكان الذهب والمرمر مبذولين فى القصور والجوامع ، وكذلك العاج والحجارة الكريمة . وكانت مراسم الاحتفالات فى قصور الخلفاء على غاية من الأبهة الشرقية ، وقد كانت هذه الثروة ، وهذه الأبهة هما ثمرة النمو الاقتصادى وتلك السعة التى كانت أسبانية تتمتع بها أوانئذ هى بفضل رقى الزراعة والصناعة والتجارة اه .

وقال قاضي القضاة ابن خلدون الحضرمي في تاريخه الكبير ما صورته : كان هذا القطر الأندلسي من العدوة الشمالية من عدوتي البحر الرومي ، وبالجانب الغربي منها ، يسمى عند العجم الأندلوش ، وتسكنه أمم من افرنجة المغرب ، أشدهم وأكثرهم الجلالقة . وكان القوط قد تملكوه ، وغلبوا على أهله لمئين من السنين قبل الاسلام ، بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين ، حاصروا فيها رومة ، ثم عقدوا معهم السلم ، على أن ينصرف القوط إلى الأندلس ، فصاروا اليها ، وملكوها [1] ، ولما أخذ الروم واللطينيون بملة

قلنا أن الحواضر الست الكبرى لابد من أن يعني بها قرطبة ، واشبيلية ، وغرناطة ، وبلنسية ، وطليطلة ، وسرقسطة . وأما الثمانون مدينة المعمورة جداً فيعني بها المدن التي من درجة مالقة ، والمرية ، ومرسية ، وجيان ، وشاطبة ، ودانية ، وميورقة ، وطرطوشة ، وماردة ، وبطليوس ، وشنترين ، وبرشلونة ، واشبونة وما في ضربها . وأما الثلاثمائة مدينة من الدرجة الثانية فهي من قبيل قبرة ، وبيانة ، وبياسة ، والمدور ، وقرمونة ، وشلب ، ولبلة ، وشريش ، ورندة ، والجزيرة الخضراء ، وبسطة ، وبرجة ، ودلاية ، والش ، وأوريوالة ، والقنت ، وقرطاجنة ، وشقورة ، وشنشالة ، واقليش ، وطلبيرة ، وقلعة رباح ، ومجريط ، ووادي الحجارة ، ومدينة سالم ، وشنتمرية ابن رزين ، وقلعة أيوب ، ودروقة ، وتطيلة ، ولاردة ، وطركونة ، ووشقة ، وبربشتر ، ولحص البلوط ، ويابره ، وشنترة ، وقنطرة السيف ، وجزيرة شقر ، وقونكة ، ومربيطر ولوشة ، ووادي آش ، وقرية سلامة ، وقادس ، ويلبش ، وابذة ، وبجانة ، وطشانة ، وشنتمرية الغرب ، واشونة ، وقلعة يحصب ، وأسيجة . واسترقة ، وبلش ، وقلعة حماد ، ومورور ، واندوجر ، والمنكب ، واندرش ، واندة ، ولورقة ، واونبة ، ومرتلة ، ومدينة الزهراء ، وما في ضربها . وكيفما اقتصد المخمن في تخمين عدد سكان الأندلس الاسلامية لعهد بني أمية ، فلا يقدر أن ينزل ذلك عن ١٥ مليون نسمة ، وقد يكون مناهزاً العشرين

(١) ماقاله ابن خلدون هنا هو الصحيح فان أمة اسمها « الفيزيقوط » هي أحد أقسام القوط ، ويقال إنها من أصل جرماني ، هاجمت الرومان واقتتلت معهم في القرن الثالث للمسيح ، فقهرهم الروم أولا ، ثم أذنوا لهم في الاقامة على ضفاف الدانوب ومن ذلك الوقت صاروا أشبه بجيش روماني ، وفي أوائل القرن الخامس ثار زعيم الفيزيقوط

النصرانية ، حملوا من وراءهم بالمغرب من أمم الفرنجة والقوط عليها ، فدانوا بها .
وكان ملوك القوط ينزلون طليطلة ، وكانت دار ملكهم ، وربما تنقلوا ما بينها وبين قرطبة ، واشبيلية ، وماردة ، وأقاموا كذلك نحواً من أربعمائة سنة إلى أن جاء الله

« ألاريك » Alaric طالبا من رومة أن توليه القيادة العليا لجيوشها ، فلما أبوا إجابة طلبه هذا نهب رومة وعاث ، ومات سنة ٤١٠ فخلفه « آتولف » Ataulf ودخل إلى بلاد الغال ، وانتصر فيها لهونوريوس الرومانى على نظرائه ، فكافأه باقطاعه البلاد التى تغلب عليها ، وكان السويفيون والفاندالس والآلانيون خارجين فى أسبانية عن طاعة رومة ، فزحف إليهم « فاليا » زعيم القوط ، وأدخلهم فى الطاعة ، ولكن بعد أن استتب الأمر للقوط فى أسبانية خرجوا هم أنفسهم عن طاعة رومه فى أيام زعيمهم المسمى أوريك سنة ٤٦٧ ، ولم يكن القوط فى أسبانية أمة ذات عرق واحد ، وإنما كانوا جيشا من أصول شتى يخضعون لرئيس ، وفى سنة ٤٧٦ انحلت السلطنة الرومانية فبسط القوط سلطانهم على أكثر أسبانية ، ولكنهم فقدوا مقاطعاتهم فى غالية ، لأن الفرنج Les Francs غلبوهم عليها ، وكان الفرنج كاثوليكيين ، وكان القوط قد تنصروا لكن على مذهب آريوس ، أى كانوا لا يقولون بألوهية عيسى عليه السلام ، فوقعت العداوة بين الفريقين من أجل اختلاف الدين ، وانهزم القوط فى واقعة عند بواتية ، Poitiers وقتل فيها أميرهم الاريك الثانى ، ولم يبق لهم فى بلاد الغال سوى مقاطعة سبتمانيا Septimanie التى قاعدتها أربونة . وفى القرن السادس للمسيح اشتدت الفتنة فى أسبانية بين القوط بعضهم مع بعض ، وقتل كثير من ملوكهم غيلة ، فجاء تيودوريك ملك الأوستروقوط ، أى القوط الشرقيين ، من ايطالية ، ووضع على عرش أسبانية أحد أولاده ، ثم فى سنة ٥٥٤ ثار رجل اسمه أتاناجيلد ، وتغلب على المملكة ، وجاءت عساكر أمبراطور الروم من القسطنطينية فأنجدته ، ولما كانت سنة ٥٦٨ ثار الملك ليوفيجيلد ، وتغلب على السويفيين ، وجمل أسبانية كلها فى حكم القوط ، إلا أنه كان آريوسىّ المذهب ، وكان أكثر أهل أسبانية كاثوليكيين ، فثارت الأكثرية عليه ؛ وأثاروا عليه ابنه هرمينجيلد ، فساق عسكراً وتغلب على ابنه وقتله ، ولكن بعد موت ليوفيجيلد خلفه ابنه ريكاريد فترك هذا الآريوسية ، مذهب أبيه ، وتحول كاثوليكيا فى سنة ٥٨٧ وصارت فى ذلك الوقت الكثلكة هى دين الدولة الأسبانية

بالاسلام والفتح ، وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لذريق ، وهو سمة لملوكهم ، كما أن جرجير سمة لملوك صقليه اه .

ومن أشهر بلاد الأندلس غرناطة [١] وقيل إن الصواب أغرناطة بالهمز ، ومعناه بلغتهم الرمانة ، وكفاها شرفاً ولادة لسان الدين بها وقال « الشقندى » : أما غرناطة فانها دمشق بلاد الأندلس ، ومسرح الأبصار ، ومطمح الأنفس ، ولم تخل من أشراف أماثل ، وعلماء أكابر ، وشعراء أفاضل ، ولو لم يكن لها إلا ما خصه الله تعالى به من المرج الطويل العريض ، ونهر شنيل ، لكفاها .

وفى بعض كلام لسان الدين ما صورته : وما لمصر تفخر بنيلها ، وألف منه فى شنيلها ؟! يعنى أن الشين عند أهل المغرب عددها الف ، فقولنا شنيل إذا اعتبرنا عدد شينه كان الف نيل [٢] . وفيها قيل :

غرناطةٌ ما لها نظير ... ما مصر ، ما الشام ، ما العراق

ما هى إلا العروس تُجْلَى ... وتلك من جملة الصداق

وتسمى كورة « البيرة » التى منها غرناطة دمشق ، لأن جند دمشق نزلوها عند الفتح ، وقيل إنها سميت بذلك لشبهها بدمشق فى غزارة الأنهار ، وكثرة الأشجار ، حكاه صاحب « منهاج الفكر » قال : ولما استولى الفرنج على معظم بلاد الأندلس انتقل أهلها اليها فصارت المصر المقصود ، والمعقل الذى تنضوى اليه العساكر والجنود [٣] ، ويشقها نهر عليه قناطر يجاز عليها . وفى قبليها جبل شلير ،

---

(١) سنذكرها فى مكانها إن شاء الله مطولا

(٢) إن المبالغة ولو جازت فى الشعر فلا يجوز أن تصل إلى هذا الحد ولا سيما أن لسان الدين قال ذلك فى النثر لا فى النظم

(٣) كنت ذكرت فى كتابى تاريخ الأندلس الذى جعلته ذيلا على رواية « آخر بنى سراج » فى صفحة ٢٣٧ من الطبعة الثانية مايلى :

« قال بعض المؤرخين إن مملكة غرناطة لعهد السلطان أبى الحسن على (والد أبى

وهو جبل لا يفارقه الثلج ، صيفاً ولا شتاء ، وفيه سائر النبات المندي ، لكن ليس فيه خصائصه اه .

ومن أعمال غرناطة قطر « لوشة » [١] وبها معدن للفضة جيد ، ومنها ، أعنى لوشة ، أصل لسان الدين بن الخطيب . وهذا القطر ضخم ، ينضاف اليه من الحصون والقرى كثير ، وقاعدته لوشة بينها وبين غرناطة مرحلة ، وهي ذات أنهار وأشجار وهى على نهر غرناطة الشهير بشنيل .

ومن أعمال غرناطة الكبار عمل « باغة » [٢] والعامة يقولون « بيغة » وإذا نسبوا اليه قالوا بيغى ، وقاعدته باغة ، طيبة الزرع ، كثيرة الثمار ، عزيرة المياه ، ويجود فيها الزعفران ..

ومن أعمال غرناطة « وادى آش » [٣] ويقال وادى الأشات ، وهى مدينة جليلة ، قد أحدقت بها البساتين والأنهار ، وقد خص الله أهلها بالأدب وحب الشعر وفيها يقول أبو الحسن بن نزار :

وادى الأشات يَهيجُ وَجْدى كُلَّما ... أذكرت ما أفضت بك النعماء

لله ظلُّك والهجيرُ مسلَّطٌ ... قد بَرَّدَتْ لَفَحَاتِه الانْدَاء

والشمس ترغب أن تفوز بلحظة ... منه فَتَطْرِفُ طَرْفَهَا الأفياء

والنهر يبسم بالحبـــاب كأنه ... سلخ نَضَتْهُ حَيَّةٌ رقشـــاء

عبد الله آخر السلاطين المسلمين فى الأندلس) كانت مشتملة على أربع عشرة مدينة عظيمة وسبع وتسعين قلعة عدا الأبراج والحصون والقرى العامرة . وورد فى التاريخ العام للعلامة كنتو الشهير أن سلطنة غرناطة فى تلك الأيام كانت تحتوى ثلاثين مصرا ، وثمانين مدينة صغيرة ، وعدداً لا يحصى من الأبراج والحصون والدساكر . وقد قدر بعض المؤرخين عدد بقية المسمين فى الأندلس بأربعة ملايين نسمة .

(١) وسماها الأسبانيول صان فرانسيكو لوشة Loja

(٢) أصلها « باغو » ثم سماها الأسبانيول « بريغو » Priego

(٣) تقدم عنها كلام والأسبانيول يقولون Guadis وسيرد ذكرها أيضا

فلذاك تحذَرُه الغصون فميلُها أبداً على جَنَباته إيمـــاء

(ومن أعمال وادى آش) حصن « جليانة »[١] وهو كبير يضاهى المدن ، وبه التفاح الجليانى الذى خص الله به ذلك الموضع ، بجمع عظم الحجم ، وكرم الجوهر ، وحلاوة الطعم ، وذكاء الرائحة ، والنقاء ، وبين الحصن المذكور ووادى آش اثنا عشر ميلا .

ومن غرائب الأندلس أن به شجرتين من شجر القسطل ، وهما عظيمتان جداً ، إحداهما بسند[٢] وادى آش ، والأخرى ببشرة[٣] غرناطة ، فى جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب ، وهذا أمر مشهور ، قال أبو عبد الله بن جزى وغيره .

وكانت إلبيرة[٤] هى المدينة قبل غرناطة ، فلما بنى الصنهاجى مدينة غرناطة وقصبتها وأسوارها ، انتقل الناس اليها ، ثم زاد فى عمارتها ابنه باديس بعده .

---

(١) قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان : جليانة بالكسر ثم السكون وياء وألف ونون حصن بالأندلس من أعمال وادى ياش حصين كثير الفواكه ويقال لها جليانة التفاح لجلالة تفاحها وطيبه وريحه ، قيل إذا أكل وجد فيه طعم السكر والمسك ، منها عبد المنعم بن عمر بن حسان الشاعر الأديب الطبيب ، كان عجيباً فى عمل الأشعار التى تقرأ القطعة الواحدة بعدة قواف ، ويستخرج منها الرسائل والكلام الحكمى مكتوباً فى خلال الشعر ، وكان يعمل من ذلك دوائر وأشجاراً ، وصوراً ، سكن دمشق ، وكانت معيشته الطب ، يجلس باللبادين ، على دكان بعض العطارين ، كذلك لقيته ، ووقفنى على أشياء مما ذكرته ، وأنشدنى لنفسه مالم أضبطه عنه . ومات بدمشق سنة ٦٠٣

(٢) السند محركة : ما قابلك من الجبل ، وعلا عن السفح ، وفى وطنى من جبل لبنان مكان بين عين عنوب وعيناب يقال له السند ، يعلو عن الأولى وينخفض عن الثانية .

(٣) تقدم لنا أن الجبال التى فى مملكة غرناطة كانوا يقولون لها البشرات

(٤) قال ياقوت فى المعجم : الألف فيه ألف قطع ، وليس بألف وصل ، فهو بوزن إخريطة ، وإن شئت بوزن كبريته ، وبعضهم يقول ايلبيرة ، وربما قالوا لبيرة ، وهى كورة كبيرة من الأندلس ، ومدينة متصلة بأراضى كورة قبرة ، بين القبلة

وذكر غير واحد أن فى كورة سرقسطة الملح الاندرانى الأبيض الصافى الأملس الخالص ، وليس فى الأندلس موضع فيه مثل هذا الملح . قال : وسرقسطة[١] بناها قيصر ملك رومة التى تؤرخ فى مدته مدة الصفر قبل مولد المسيح على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام ، وتفسير اسمها : قصر السيد . لأنه اختار ذلك المكان بالأندلس وقيل إن موسى بن نصير شرب من ماء نهر « جلق »[٢] بسرقسطة فاستعذبه ، وحكم أنه لم يشرب بالأندلس أعذب منه ، وسأل عن اسمه فقيل جلق ونظر إلى ما عليه من البساتين فشبهها بغوطة جلق الشام ، وقيل إنها من من بناء الاسكندر والله أعلم . وبمدينة برجة ، وهي من أعمال المرية ، معدن الرصاص وهى على واد مبهج ، يعرف بوادى « عذراء »[٣] وهو محدق بالأزهار والأشجار ، وتسمى برجة[٤] بهجة ، لبهجة منظرها ، وفيها يقول أبو الفضل بن شرف القيروانى رحمه الله تعالى :

والشرق من قرطبة ، بينها وبين قرطبة تسعون ميلا ، وأرضها كثيرة الأنهار والأشجار ، وفيها عدة مدن منها : قسطيلية ، وغرناطة ، وغيرهما تذكر فى مواضعها . وفى أرضها معادن ذهب وفضة وحديد ونحاس ، ومعدن حجر التوتيا فى حصن منها يقال له شلوبينية ، وفى جميع نواحيها يعمل الكتان والحرير الفائق . انتهى . ثم ذكر ياقوت بعض العلماء الذين نبغوا من أهل إلبيرة ، وسنذكر أسماءهم فى متن هذا الكتاب ، عند ما نصل نحن إلى ذكر إلبيرة وسننقل هناك ما ذكره لسان الدين بن الخطيب عن إلبيرة نقلا عن الاحاطة فى أخبار غرناطة ، وكذلك سنذكر ما قاله غيره

(١) بناها أوغسطس قيصر ، ومنها اشتق اسمه ، وكان يقال لها قبل أن مصرها أوغسطس قيصر سلدوبة Salduba ويظهر أن العرب قالوا « السيدلابة »

(٢) سرقسطة واقعة على نهر « ابره » يشتق منه نهر جلق Gallégo جاريا إلى الشمال ، بينما نهرا شالون Jalon وهرقا Huerva يسيلان إلى الجنوب

(٣) سبق ذكرها وفى مرج دمشق قرية يقال لها عذرا

(٤) وفى جبل لبنان قرية يقال لها برجة من اقليم الخروب . وفى اقليم سرقسطة قصبة اسمها برجة بضم أولها ، وينسب إليها أناس من أهل العلم

رياض تَعَشَّقَها سُنْدُسٌ تَوَشَّتْ معاطفُها بالزَهَرْ
مدامعُها فوق خدَّىْ رُبًا لها نظرةٌ فتَنَتْ مَن نظَرْ
وكلٌّ مكان بها جنةٌ وكلٌّ طريق اليها سَقَرْ

وفيها أيضاً قوله :

حُطَّ الرحال بِبَرْجهْ وارتَد لنفسك بَهْجَة
فى قلعة كسلاح ودَوْحة مثل لُجَة
لحصْنُها لك أَمْن وَرَوْضُها لك فُرْجه
كل البلاد سواها كعُمْرة وهى حَجَّة

وبمالقة التين الذى يضرب المثل بحسنه ، ويجلب حتى للهند والصين ، وقيل إنه ليس فى الدنيا مثله ، وفيه يقول أبو الحجاج يوسف ابن الشيخ البلوى المالقى حسبما أنشده غير واحد ، منهم ابن سعيد :

مالقة حُيِّيتَ يا تِينَها الفُلْكُ مِنْ أجلِك يا تِينَها[1]
نَهَى طبيبى عنه فى عِلّتي ما لطبيبى عن حياتى نَهَى

وذيّل عليه الامام الخطيب أبو محمد عبد الوهاب المنشى بقوله :

وحِمْص لا تنس لها تينَها واذكر مع التين زياتينَها

وفى بعض النسخ :

لا تنس لاشبيليّة تينها واذكر مع التين زياتينَها

وهو نحو الأول لأن حمص هى اشبيلية لنزول أهل حمص من المشرق بها حسبما

---

(١) الفلك : السفينة ، تذكر وتؤنث وتقال للمفرد وللجمع ، فمن المفرد المذكر قوله تعالى (فى الفلك المشحون) ومن المفرد المؤنث قوله تعالى (والفلك التى تجرى فى البحر) ومن الجمع قوله تعالى (وترى الفلك فيه مواخر) وقوله تعالى (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) وكان سيبويه يقول : الفلك هى جمع تكسير للفلك التى هى واحد

سنذكره . ونسب ابن جزى فى ترتيبه لرحلة ابن بطوطة البيتين الأولين للخطيب أبى محمد عبد الوهاب المالقى ، والتذييل لقاضى الجماعة أبى عبد الله بن عبد الملك فالله أعلم

وقال ابن بطوطة : وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ، ويجلب منها إلى أقاصى البلاد ، ومسجدها (١) كبير الساحة ، كثير البركة ، شهيرها ، وصحنه لا نظير له فى الحسن ، وفيه أشجار النارنج البديعة . انتهى . وقال قبله : إن مالقة إحدى قواعد الأندلس ، وبلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه ، رأيت العنب يباع فى أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير ، ورمانها المرسى الياقوتى لا نظير له فى الدنيا . وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب اهـ .

وبكورة اشبونة المتصلة بشنترين معدن التبر ، وفيها عسل يجعل فى كيس كتان . فلا يكون له رطوبة كأنه سكر . ويوجد فى ريفها العنبر الذى لا يشبه إلا الشِّحْرى .

ومن أشهر مدن الأندلس مدينة قرطبة ، أعادها الله تعالى للإسلام ، وبها الجامع المشهور ، والقنطرة المعروفة بالجسر ، وقد ذكر ابن حيان أنه بنى على أمر عمر بن عبد العزيز (٢) رضى الله عنه ، ونصه : وقام فيها بأمره على النهر الأعظم بدار مملكتها

---

(١) وهو الكنيسة الكاتدرائية الآن

(٢) جاء فى كتاب « أخبار مجموعة » فى فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم . وهو أقدم تاريخ لعرب الأندلس — ولم يعرف اسم مؤلفه — أن عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة ولى الأندلس السمح بن مالك ، فكتب إلى عمر يعلمه أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض فيه الشتاء عامة (قال) فان أمرنى أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت فان قبلى قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ، ونفقات الجهاد وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم . فيقال والله أعلم أن عمر

قرطبة الجسر الأكبر الذى ما يعرف فى الدنيا مثله . انتهى . وفيها يقول بعض علماء الأندلس .

بأربعٍ فاقتِ الأمصارَ قُرْطُبَةٌ   منهن قنطرةُ الوادى وجامِعُها
هاتان ثنتان والزهراءُ ثالثة   والعِلْمُ أعظمُ شىء وهو رابعُها

وقال الحجارىّ فى المسهب : كانت قرطبة فى الدولة المروانية قبة الإسلام ، ومجتمع أعلام الأنام ، بها استقرّ سرير الخلافة المروانية ، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدّية واليمانية ، وإليها كانت الرحلة فى الرواية ، إذ كانت مركز الكرماء ، ومعدن العلماء وهى من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، ونهرها من أحسن الأنهار ، مكتنف بديباج المروج ، مطرز بالأزهار ، تصدح فى جنباته الأطيار ، وتنعر النواعير ، ويبسم النوّار ، وقرطاها الزاهرة والزهراء ، حاضرتا الملك ، وأُفقاه النعماء والسراء ، وإن كان قد أخنى عليها الزمان ، وغير بهجة أوجهها الحسان ، فتلك عادته ! وسل الخورنق والسدير وغُمدان ، وقد أعذر بإنذاره ، إذ لم يزل ينادى بصروفه : لا أمان ! لا أمان ! وقد قال الشاعر :

وما زلتُ أسمع أنّ الملو   كَ تبنى على قَدْرِ أخطارِها

انتهى .

وقال السلطان يعقوب المنصور بن السلطان يوسف بن السلطان عبد المؤمن بن على لأحد رؤساء أجنادها : ما تقول فى قرطبة ؟ فخاطبه على ما يقتضيه كلام عامّة الأندلس بقوله : جوفها [1] شمام [2] ، وغربيها قمام [3] ، وقبلتها مدام ، والجنة هى

رحمه الله أمر ببناء القنطرة بصخر السور ، وأن يبنى السور باللبن ، إذ لا يجد له صخراً فوضع يداً فبنى القنطرة فى سنة إحدى ومائة

(١) أى شماليها

(٢) لم يرد شمام مصدراً لفعل شم ، وإنما هو الشميم والشم والشميمى وعليه لا يصح شمام إلا إن كان مصدراً لفعل شام ، من باب المفاعلة . أو كان بالتشديد وأما كلام العامة فلا حاجة لتطبيقه على قواعد العربية

(٣) قم الرجل : أكل ما على الخوان ، ومثله اقتم ، والمصدر هو القم والاقتمام ،

السلام . يعني بالشمام جبال الورد ، ويعني بالقمام ما يؤكل ، إشارة إلى محرث « الكنبانية » [١] . ويعني بالمدام النهر .

ولما قال والده السلطان يوسف بن عبد المؤمن لأبي عمران موسى بن سعيد العنسي : ما عندك في قرطبة ؟ قال له : ما كان لي أن أتكلم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها . فقال السلطان : إن ملوك بني أمية حين اتخذوها حضرة مملكتهم لعلى بصيرة : الديار المنفسحة الكبيرة ، والشوارع المتسعة ، والمباني الضخمة المشيدة ، والنهر الجاري ، والهواء المعتدل ، والخارج الناضر ، والمحرث العظيم ، والشعراء الكافيه والتوسط بين شرق الأندلس وغربها . قال فقلت : ما أبقى لي أمير المؤمنين ماأقول !

قال ابن سعيد : ولأهلها رياسة ووقار ، لا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم ، إلاّ أن عامتها أكثر الناس فضولا ، وأشدهم تشغيباً ، ويضرب بهم المثل ، ما بين أهل الأندلس ، في القيام على الملوك ، والتشنيع على الولاة ، وقلة الرضا بأمورهم ، حتى أنّ السيدأبا يحيى أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما انفصل عن ولايتها : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ فقال مثل الجمل ، إن خففت عنه الحمل صاح ، وإن أثقلته صاح ، ماندري أين رضاهم فنقصده ، ولا أين سخطهم فنجتنبه ، وما سلط الله عليهم حجّاج الفتنة ، حتى كان عامتها شراً من عامّة العراق [٢] وإن العزل عنها لما قاسيته من أهلها عندي ولاية ، وإني ، إن كانت العود إليها ، لقائل : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ! انتهى .

فأما القمام فلم يرد بمعنى الأكل بل بمعنى الكناسة . فلهذا أصاب صاحب النفح بقوله إن هذا من كلام عامة الأندلس

(١) Campaina قال ياقوت : ناحية بالأندلس قرب قرطبة ينسب إليها محمد ابن قاسم بن محمد الأموي الجالطي الكنباني ، ذكر في جالطة بأتم من هذا

(٢) وهم كانوا السبب في سقوط الأندلس لأن الفتنة التي أثاروها هي التي آلت إلى سقوط هيبة الخلافة وسقوط هيبة الخلافة آل إلى ظهور ملوك الطوائف وهؤلاء هم كانوا مبدأ اضمحلال الاسلام في الأندلس

وقال أبو الفضل التيفاشي : جرت مناظرة بين يدى ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه أبي الوليد بن رشد ، والرئيس أبي بكر بن زهر . فقال ابن رشد لابن زهر فى تفضيل قرطبة : ما أدرى ما تقول ؟ غير أنه إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مُطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية . قال : وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً [1] انتهى .

وحكى الامام ابن بشكوال عن الشيخ أبي بكر بن سعادة أنه دخل مدينة طليطلة مع أخيه على الشيخ الأستاذ أبي بكر المخزومى . قال : فسألَنا : من أين ؟ فقلنا : من قرطبة . فقال : متى عهدكا بها ؟ فقلنا : الآن وصلنا منها . فقال : أقربا إلىّ أشَمّ نسيم قرطبة فقربنا منه فشم رأسى وقبّلهُ وقال لى أكتب :

أقرطبة الغراء هل لِىَ أوْبةٌ إليكِ وهل يدنو لنا ذلك العهدُ
سقى الجانبَ الغربىَّ منك غمامةٌ وقعقع فى ساحات دَوْحاتك الرعْدُ
لياليك أسحارٌ وأرضُكِ روضة وتُرْبُكِ فى استنشاقها عنبر ورْدُ

وكتب الرئيس الكاتب أبو بكر بن القبطرنه للعالم أبي الحسين بن سراج بقوله :

ياسيدى وأبى ، هوًى وجلالةً ورسولَ وُدِّى إن طلبتُ رسولا
عرِّجْ بقرطبةٍ إذا بُلِّغتَها بأبى الحُسَين وناده تأميلا
وإذا سعدت بنظرةٍ من وجهِ اهـدِ السلامَ لكفِّه تقبيلا
واذكرْ له شوق وشكرى مُجْمِلا ولو استطعت شرَحته تفصيلا
بتحية تُهْدَى إليه كأنما جرّتْ على زهر الرياض ذيولا

(١) نقل صاحب نفح الطيب عن أبي محمد بن حزم مايلى : أخبرنى تليد الخصى وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة فى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لاغير اه قلنا وكان عدا خزانة كتب دار الخلافة خزائن لاتحصى فى قرطبة

وفى باب اليهود بقرطبة يقول أبو عامر بن شهيد :

لقد أطْلَعوا عند باب اليهو د بَدْرًا أَبَى الحُسنُ أنْ يُكْسَفا
تراه اليهودُ على بابها أميرًا فتحسَبُهُ يوسُفا

واستقبحوا قولهم باب اليهود فقالوا : باب الهدى . وسنذكر قرطبة والزهراء والزاهرة ومسجدها فى الباب المنفرد بها ، إن شاء الله تعالى ، وكذلك القنطرة [١]

ومن أعظم مدن الأندلس اشبيلية ، قال الشقندى : من محاسنها اعتدال الهواء ، وحسن المبانى ، ونهرها الأعظم الذى يصعد المد فيه اثنين وسبعين ميلا ثم يحسر ، وفيه يقول ابن سفر :

شقّ النسيمُ عليْهِ جَيْبَ قميصِهِ فانساب مِنْ شَطَّيْهِ يطلب ثارَهُ
فتضاحكت وُرْقُ الحَمام بدَوْحها هُزْءًا فضَمّ من الحياء إزارَهُ

وقيل لأحد من رأى مصر والشام : أيهما رأيت أحسن ، أهذان أم اشبيلية ؟ فقال بعد تفضيل اشبيلية : شرفها [٢] غابة بلا أسد ، ونهرها نيل بلا تمساح اه

ويقال إن الذى بنى اشبيلية اسمه « يوليس » [٣] وأنه أول من سُمِّيَ « قيصر »

---

(١) وسنذكرها نحن أيضاً عند الوصول إلى مبحث قرطبة

(٢) يعنى غابة الزيتون العظيمة المسماة بالشرف

(٣) هو يوليوس قيصر وكان قد فتح اشبيلية سنة ٤٥ ق م واتخذها حاضرة لاسبانية كما كان « بومبى » اتخذ قرطبة . وليس يوليوس قيصر هو الذى بناها ، بل هى بلدة عظيمة من قبل ، واقعة على طريق التجارة الأعظم ، من قادس إلى ماردة إلى طلمنكة ، وإنما ازداد قيصر اعتناءاً بها ، ثم صارت سنة ٤١١ ب م عاصمة للوندال ، وفى سنة ٤٤١ عاصمة للقوط ، وفى سنة ٥٥٧ انتقل « اتانا جيلد ملك القوط » منها إلى طليطلة ، نظراً لتوسطها فى المملكة ، ولكن بقى يقيم بها فى الأحايين نائب الملك . واستولى العرب على اشبيلية تحت قيادة موسى بن نصير سنة ٧١٢ ب م وسلموا قيادها فى بداية الأمر إلى غيطشة أو فيطشة Vitiza وأعقابه لأنهم ذكروا لغيطشة ولاءه لهم عند الفتح

وأنه لما دخل الأندلس أعجب بساحاتها ، وطيب أرضها ، وجبلها المعروف بالشرف ، فردم على النهر الأعظم مكاناً ، وأقام فيه المدينة ، وأحدق عليها بأسوار من صخر صلد وبنى فى وسط المدينة قصبتين بديعتى الشأن ، تعرفان بأخوين ، وجعلها أم قواعد الأندلس ، واشتق لها اسمها من « رومية يوليس » [١] انتهى . وقد تقدم شىء من هذا .

وكان الأولون من ملوك الأعاجم يتداولون بسكناهم أربعة بلاد من بلاد الأندلس : اشبيلية ، وقرطبة ، وقرمونة ، وطليطلة ، ويقسمون أزمانهم على السكينونة بها . وأما شرف اشبيلية فهو شريف البقعة ، كريم التربة ، دائم الخضرة فرسخ فى فرسخ ، طولا وعرضاً ، لا تكاد تشمس فيه بقعة ، لالتفاف زيتونه .

واعلم أن اشبيلية لها كور جليلة ، ومدن كثيرة ، وحصون شريفة ، وهى من الكور المجندة ، نزلها جند حمص ، ولواؤهم فى الميمنة ، بعد لواء جند دمشق وانتهت جباية اشبيلية أيام الحكم بن هشام إلى خمسة وثلاثين الف دينار ومائة دينار . وفى اقليم « طالقة » [٢] من اقاليم اشبيلية وجدت صورة جارية من مرمر ، معها صبى ، وكأن حية تريده ، لم يسمع فى الأخبار ، ولا رؤى فى الآثار ، صورة أبدع منها ، جعلت فى بعض الحمامات ، وتعشقها جماعة من العوام . وفى كورة ماردة حصن « شنت أفرج » [٣] فى غاية الارتفاع ، لا يعلوه طائر البتة ، لا نسر ولا غيره

ومن عجائب الأندلس البلاط الأوسط من مسجد جامع « اقايش » [٤] فاز

---

(١) سماها قيصر Colonia Julia Romula

(٢) قال ياقوت : طالقة من أعمال اشبيلية بالأندلس

(٣) الأسبانيول يقولون لشنت افرج Santa Cruz أى الصليب المقدس

(٤) عند الأسبانيول Uclès وأكثر سينات الأسبانيول يقلبها العرب شينا مثل برسلونة التى هى عندهم برشلونة ،وسيڤيله التى يقولون لها اشبيلية ، وسنتره التى يقولون لها شنترة ، ووادیس التى هى عندهم وادى آش . إلى ما لا يحصى من الأعلام إلا أن ذلك غير مطرد ، فبعض الأعلام لا تزال سينها عندهم سيناً ، وذلك مثل بلنسية

طول كل جائزة منه مائة شبر واحد عشر شبراً ، وهي مربعة منحوتة ، مستوية الأطراف

وقال بعض من وصف اشبيلية إنها مدينة عامرة ، على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة ، وعليه جسر مربوط بالسفن ، وبها أسواق قائمة ، وتجارات رابحة ، وأهلها ذوو أموال عظيمة ، وأكثر متاجرهم الزيت ، وهو يشتمل على كثير من اقليم الشرف . واقليم الشرف على تل عال ، من تراب أحمر ، مسافته أربعون ميلا فى مثلها ، يمشى به السائر فى ظل الزيتون والتين . ولها فيما ذكر بعض الناس قرى كثيرة ، وكل قرية عامرة بالأسواق ، والديار الحسنة والحمامات وغيرها من المرافق .

وقال صاحب « منهاج الفكر » عند ذكر اشبيلية : وهذه المدينة من أحسن مدن الدنيا ، وبأهلها يضرب المثل فى الخلاعة ، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة . ويعينهم على ذلك واديها الفرج ، وناديها البهج ، وهذا الوادى يأتيها من قرطبة ، ويجزر فى كل يوم . ولها جبل الشرف[١] ، وهو تراب أحمر ، طوله من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلا ، وعرضه من المشرق إلى المغرب اثنا عشر ميلا ، يشتمل على مائتين وعشرين قرية ، قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت . انتهى .

ومرسية وسرقسطة وقادس وغيرها . ولقد أخبرنى والدنا الفاضل البحاثة المدقق السيد محمد الفاسى من آل الجد الفهريين أن الأسبان القدماء كانوا أيضاً ينطقون بالسين شينا فى ألفاظ كثيرة مثل Burgos برغش Vargas بركاش اسم آل بركاش الوجهاء فى رباط الفتح ، ولذلك كان الأسبان فى الماضى يكتبون السين المنطوق بها شينا بحرف X فكانوا يكتبون مثلا اشبيلية هكذا Xévilla وارشيدونة Arxidona وشلير Xolair وهلم جرا . قلت : وربما كان القوط أتوا بهذا النطق من الشمال لانهم هم جرمانيون فى الاصل ، وكل حرف S فى اللغة الجرمانية ينطق به شينا ، وهو عندهم اصطلاح قديم إلا فى مقاطعة هنوفر ، فهناك حرف S ينطق به سينا

(١) لايصح أن يسمى الشرف جبلا ، ولقد مررت به فى ذهابى من أشبيلية إلى رندة ، فهو نشز ناهض قليلا عن الأرض

ولكورة « باجة »[١] من الكور الغربية التى كانت من أعمال اشبيلية أيام بنى عباد خاصّية فى دباغة الأديم وصناعة الكتان . وفيها معدن فضة . وبها ولد المعتمد بن عباد ، وهى متصلة بكورة ماردة .

والجبل طارق حوز قصب السبق بنسبته إلى طارق مولى موسى بن نصير إذ كان أول ما حل به مع المسلمين من بلاد الأندلس عند الفتح ، ولذا شهر بجبل الفتح ، وهو مقابل الجزيرة الخضراء ، وقد تجون البحر هنالك مستديراً ، حتى صار مكان هذا الجبل كالناظر للجزيرة الخضراء ، وفيه يقول مطرّف شاعر غرناطة :

وَأَقْوَدَ قد أَلْقَى على البحر مَتْنَهُ فاصبح عن قُود الجبال بِمَعْزِلِ
يُعَرِّضُ نحو الأُفْقِ وَجْهاً كأنما تراقبُ عيناه كواكبَ مَنْزِلِ

و إذا أقبل عليه المسافرون من جهة سبتة فى البحر ، بان كأنه سرج . قال أبو الحسن على بن موسى بن سعيد : أقبلت عليه مرة مع والدى فنظرنا اليه على تلك الصفة فقال والدى : أجز :

أنظر إلى جبل الفَتْح راكباً مَتْن لُج

فقلت : وقد تفتّح مثل الافنان فى شكل سَرْج

وأما جزيرة طريف فليست بجزيرة ، وإنما سميت بذلك الجزيرة التى أمامها فى البحر مثل الجزيرة الخضراء ، وطريف المنسوبة اليه بربرى من موالى موسى بن نصير . ويقال إن موسى بعثه قبل طارق فى أربعمائة رجل ، فنزل بهذه الجزيرة فى رمضان سنة إحدى وتسعين ، وبعده دخل طارق . والله أعلم .

ومن أعظم كور الأندلس كورة طليطلة ، وهى من متوسط الأندلس ، وكانت دار مملكة بنى ذى النون ، من ملوك الطوائف ، وكان ابتداء ملكهم صدر المائة الخامسة . وسماها قيصر بلسانه « بزليطلة » وتأويل ذلك : انت فارح . فعربتها

---

(١) Beja

العرب ، وقالت « طليطلة » [1] . وكانوا يسمونها وجهاتها فى دولة بنى أمية بالثغر الأدنى ، و يسمون سرقسطة و جهاتها بالثغر الأعلى . و تسمّى طلطيلة مدينة الاملاك لأنه فيما يقال ملكها اثنان وسبعون انسانا ، ودخلها سليمان بن داود عليهما السلام ، وعيسى بن مريم ، وذو القرنين [2] ، وفيها وجد طارق مائدة سليمان ، وكانت من ذخائر أشبان ملك الروم الذى بنى أشبيلية ، أخذها من بيت المقدس ، كما مر [3] . وقومت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار . وقيل إنها كانت من زمرد أخضر ، ويقال إنها الآن برومة . والله أعلم بذلك . ووجد طارق بطليطلة ذخائر عظيمة [4] منها مائة وسبعون تاجاً من الدر والياقوت والأحجار النفيسة ، وإيوان ممتلىء من أوانى الذهب والفضة ، وهو كبير ، حتى قيل إن الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لوسعه . وقد قيل أن أوانى المائدة من الذهب ، وصحافها من اليشم والجِزع . وذكروا فيها غير هذا ، مما لا يكاد يصدقه الناظر فيه . و بطليطلة بساتين محدقة ، وأنهار مخترقة ، ورياض وجنان ، وفواكه حسان ، مختلفة الطعوم والألوان ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ، ورساتيق مريعة ، وضياع بديعة ، وقلاع منيعة ، وبالجملة فمحاسنها كثيرة ، ولعلنا نلم ببعض متنزهاتها فيما يأتى من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى

وطليطلة قاعدة ملك القوطيين ، وهي مطلة على نهر تاجة ، وعليه كانت القنطرة التى يعجز الواصفون عن وصفها ، وكانت على قوس واحد ، تكنفه فرجتان من كل جانب ، وطول القنطرة ثلاثمائة باع ، وعرضها ثمانون باعاً ، وخربت أيام الأمير محمد ،

---

(١) قال المؤرخ الرومانى « تيت ليف » : طوليتوم Toletum مدينة صغيرة لكنها ذات موقع حصين

(٢) هذا من أساطير الأولين

(٣) لم نقرأ هذا فى تاريخ يوثق به

(٤) أما هذا فصحيح وإن تطرقت إليه المبالغة ؛ كما هو المعتاد فى مثل هذه الحوادث

لما عصى عليه أهلها ، فنزاهم واحتال في هدمها . وفي ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس :

أضحت طُليطلةُ معطلةً من أهلها في قَبْضة الصقْر
تُرِكَت بلا أهل تؤهلُها مهجورةَ الأكناف كالقبْر
ما كان يُبقِى اللهُ قَنطرةً نُصِبَت لحَمْلِ كتائب الكُفْر

وسيأتي بعض أخبار طليطلة [١] .

ومن مشهور مدن الأندلس المَرية ، وهي على ساحل البحر ، ولها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران ، بناها عبد الرحمن الناصر ، وعظمت في دولة المنصور ابن أبي عامر ، وولى عليها خيران ، فنسبت القلعة إليه . وبها من صنعة الديباج ما تفوق به سائر البلاد . وفيها دار الصناعة [٢] . وتشتمل كورتها على معدن الحديد والرخام . ومن أبوابها باب العقاب عليه صورة عقاب من حجر ، قديم عجيب المنظر

وقال بعضهم : كان بالمرية لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول ، وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول ، وللاسقلاطون كذلك ، وللثياب الجرجانية كذلك ، وللاصفهانية مثل ذلك ، وللعتابي والمعاجر المدهشة ، والستور المكللة . ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف [٣] . وفاكهة المَرية

(١) سيأتيك خبر طليطلة في الجزء الأول هذا

(٢) المرية كانت مرسى الأسطول الاسلامي الأندلسي الذي بلغ أوج عظمته في أيام عبد الرحمن الناصر ، وبقيت كذلك مدة من الزمن بعد ذهاب الناصر رحمه الله ، وفي أيام مجاهد العامري وولده على كانت دانية مرفأ عظيما للأسطول الاسلامي وكانت فيها دار صناعة وكانت دور صناعة في مدن بحرية أخرى مثل الجزيرة الخضراء وشلب والقنت وقستلون في كتلونية والمنكب ومالقه وقصر أبي دانيس في الجهة الغربية وجزيرة يابسة ، وفي زمن الناصر أنشئت دار صناعة عظيمة في طرطوشة ، وذلك لأن الصنوبر الطرطوشي مشهور بالصلابة

(٣) نقل لاوى بروفنسال عن مؤلفي العرب ماذكروه عن عظمة تجارة المرية ، وأنها كانت أعظم ميناء في الأندلس ، كما قال الشقندي ، وذكر أنه كان فيها ألف إلا

يقصر عنها الوصف حسناً ، وساحلها أفضل السواحل [1] ، وبها قصور الملوك القديمة الغريبة العجيبة . وقد ألف فيها أبو جعفر بن خاتمة تاريخاً حافلا ، سماه « بمزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية » فى مجلد ضخم ، تركته من جملة كتبي بالمغرب . والله سبحانه المسؤل فى جمع الشمل ، فلله الأمر من بعد ومن قبل .

ووادى المرية طوله أربعون ميلا فى مثلها ، كلها بساتين بهجة ، وجنات نضرة وأنهار مطردة ، وطيور مغردة . قال بعضهم : ولم يكن في بلاد الأندلس أكثر مالا من أهل المرية ، ولا أعظم متاجر وذخائر ، وكان بها من الحمامات والفنادق نحو الألف ، وهي بين الجبلين ، بينهما خندق معمور ، وعلى الجبل الواحد ، قصبتها المشهورة بالحصانة ، وعلى الآخر ربضها . والسور محيط بالمدينة والربض . وغربيها ربض لها آخر يسمى ربض الحوض ، ذو فنادق وحمامات ، وخنادق وصناعات ، وقد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة ، وأحجار أوليّة . وكأنما غربلت أرضها من التراب . ولها مدن وضياع عامرة متصلة الأنهار . انتهى .

وقال ابن اليسع عند ذكر مدينة « شنترة » [2] : إن من خواصها أن القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضى أربعين يوماً من زراعته ، وأن التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر . قال لى أبو عبد الله الباكورى ، وكان ثقة : أبصرت عند المعتمد بن عباد رجلا من أهل شنترة ، أهدى اليه أربعا من التفاح ، ما يُقِلُّ الحامل على رأسه غيرها ، دور كل واحدة خمسة أشبار . وذكر الرجل بحضرة ابن عباد أن المعتاد عندهم أقل من هذا ، فاذا أرادوا أن يجيء بهذا العِظَم وهذا القدر قطعوا أصلها وأبقوا منه عشراً أو أقل ، وجعلوا تحتها دعامات من الخشب . انتهى .

ثلاثين فندقاً مقيدة فى ديوان الخراج ، وأنها كانت مدينة صناعية من الدرجة الأولى ، وفيها المناسج الحريرية وغيرها ، ومعامل الحديد والنحاس والزجاج

(١) إلى يومنا هذا فواكه المرية مشهورة ، ومنها يجلب إلى أوربة أفضل العنب

(٢) Cintra من مدن البرتغال

وبحصن « شنش »[١] على مرحلة من المرِّية التوت الكثير ، وفيها الحرير والقرمز ، ويعرف واديها بوادى « طبرنش »[٢] وبغربى مالقة عمل « سهيل »[٣] وهو عمل عظيم كثير الضياع ، وفيه جبل سهيل ، لايرى نجم سهيل بالأندلس إلا منه

ومن كور الأندلس الشرقية تدمير[٤] وتسمى مصر أيضاً ، لكثرة شبهها بها ، لأن لها أرضاً يسيح عليها نهر فى وقت مخصوص من السنة ، ثم ينضب عنها ، فتزرع كما تزرع أرض مصر ، وصارت القصبة بعد تدمير مرسية ، وتسمى البستان لكثرة جناتها المحيطة بها ، ولها نهر يصب فى قبليها .

واعلم أن جزيرة الأندلس ، أعادها الله للاسلام ، مشتملة على موسطة وشرق وغرب . فالموسطة فيها من القواعد المصَّرة التى كل مدينة منها مملكة مستقلة ،

---

(١) لانعلم أهى فى الأصل شنشين Chinchin وقد حرفها النساخ إلى شنش ، أم هى من الأصل شنش

(٢) يقول لها الاسبانيول Tabarnax قال عنها لسان الدين بن الخطيب فى « معيار الاختبار » حاضرة البلاد المشرقية ، وثنية البارقة الأفقية ، ماشئت من تنجيد بيت ، وعصر زيت ، واحياء أنس ميت ، وحمام طيب ، وشعر تنثر فيه دنانير أبى الطيب ، إلا أنها محيلة الغيوث ، عادية الليوث ، ولو شكر الغيث شعيرها ، أخصبت البلاد وعيرها

(٣) هو اسم عربى من أصله والأسبانيول يقولون لهذا المكان « فوانجيرولا » Fuengirola قال لسان الدين فى « معيار الاختبار » : حصن حصين ، يضيق عن مثله هند وصين ، ويقضى بفضله كل ذى عقل رصين ، سبب عزه متين ، ومادة قوته شعير وتين ، قد علم أهله مشربهم ، وأمنوا مهربهم ، وأسهلت بين يديه قراه ، ماثلة بحيث تراه ، وجاد بالسمك واديه ، وبالحب ثراه ، وعرف شأنه بأرض النوب ، ومنه يظهر سهيل من كواكب الجنوب . إلا أن سواحله بِلُّ الغارة البحرية ، ومهبط السرية غير السرية ، ومسرح السائمة الأميرية ، وخدامها كما علمت أولئك هم شر البرية اه . قلت : قوله البل بكسر أوله معناه مباح يقال هو « حل وبل » أى سواحل سهيل مباحة للغارات البحرية لكثرتها عليها

(٤) هى البلدة التى يقال لها أوريولة وهى من عمل مرسية

لها أعمال ضخام، وأقطار متسعة : قرطبة، وطليطلة، وجيان، وغرناطة، والمرية، ومالقة : فمن أعمال قرطبة « استجة » و « بلكونة » و « قبرة » و « رندة » و « غافق » و « المدوّر » و « اسطبة » و « بيانة » و « اليسانة » و « القصير »[١] وغيرها . ومن أعمال طليطلة « وادى الحجارة » ، و « قلعة رباح » ، و « طلمنكة »[٢] وغيرها . ومن أعمال جيان ، « ابذة » ، و « بياسة » ، و « قسطلة »[٣] وغيرها ، ومن أعمال غرناطة « وادى آش » ، و « المنكّب » و « لوشة »[٤] وغيرها . ومن أعمال المرية « اندرش »[٥] وغيرها . ومن أعمال

---

(١) الأسبانيول يقولون لاستجة Eciga ولبلكونه Balcona ولقبره Cabra ولرندة Ronda ولغافق Gafic وللمدرر Almodovar ولأسطبة Estepa ولبيانه Baessa ولأليسانة Lucana وللقصير Alkosair

(٢) الأسبانيول يقولون لوادى الحجارة Guadalajara ولقلعة رباح Calatrava ولطلمنكة Salamanqua

(٣) الأسبانيول يقولون لجيان خيان بالخاء وبدون تشديد ، ويقول دوزى إن القشتاليين كانوا يقولون فى القرون الوسطى جيان مخففة ، وأن أصل هذا الاسم رومانى ، وهو أوسيانس Uciense فالعرب حذفوا آخر الاسم ، فبقى أوسيان ، فقلبوا السين شينا ، ثم غلبت الجيم الشين ، وحذفوا الأول ، فانتهى الأمر بأن صارت جيان ، والله أعلم . ويقول الأسبانيول لأبذه Ubeda ولبياسه Baeza ولقسطلة Castella وكل هذه الأسماء قد تقدم ذكرنا لها بالعربى وبالاسبانيولى وإنما نكررها لترسخ فى ذهن القارىء

(٤) لا يخفى أن غرناطة هى عند الأسبانيول Granada ووادى آش Geiadix والمنكب Almunécar ، ولا نعلم لماذا الاسبانيول قلبوا الباء راء ، ولوشة هى عندهم Loja

(٥) لا يخفى أن المرية هى من فعل رأى بحسب رأى دوزى ، فقد قال إن هذا الاسم فى أصله لم يكن علماً وأنه صفة لبرج يكون مشرفاً على البحر ، ترى منه مراكب البحر ، وتراه المراكب من البحر . وهذا الرأى ليس ببعيد عن الصواب ، لانه فى

مالقة « بلش و « الحامه »[١] ، وغيرهما . و ببلش من الفواكه ما بمالقة ، وبالحامة العين الحارة على ضفة واديها .

وأما شرق الأندلس ففيه من القواعد « مرسية » و « بلنسية » و « دانية » و « السهلة » و « الثغر الأعلى »[٢] . فمن أعمال مرسية « أوريولة » و « القنت » و « لورقة »[٣] وغير ذلك ومن أعمال بلنسية « شاطبة » التي يضرب بحسنها المثل ، ويعمل بها الورق الذى لا نظير له ، و « جزيرة شقر » وغير ذلك وأما « دانية » فهى شهيرة ، ولها أعمال ، وأما « السهلة » فانها متوسطة بين بلنسية وسرقسطة ، ولذا عدها بعضهم من كور الثغر الأعلى ، ولها مدن وحصون . ومن أعمال الثغر الأعلى سرقسطة . وهى أم ذلك الثغر . وكورة «لاردة» والقلعة ، وتسمى بالبيضاء[٤]

العربى يوجد فعل أراه إياه يريه إراءة وإيراء ، أى جعله ينظر فيه فهو مر وهى مرية . فهذا فى الارجح أصل هذه اللفظة ، وفيما بعد أدخلوا عليها التشديد بتحريف العوام . ومع هذا فالأسبانيول لايلفظونها بالتشديد بل يلفظونها بفتح الاول وكسر الثانى فسكون فياء فألف هكذا Almeria وأما اندرش فيكتبونها Andarax وهى البلدة التى عينها فرديناند لأبى عبد الله بن الاحمر ، بعد أن أخرجه من غرناطة ، حتى يقيم بها قبل أن تحيل عليه وأخرجه إلى المغرب ، وقد ذكرها لسان الدين فى «معيار الاختبار» فقال عنها : عنصر جباية ، وكن به أولو إباية ، حريرها ذهب ، وتربها تبر ملتهب ، وماؤها سلسل ، وهواؤها لايلفى معه كسل إلا أنها ضيقة الأحواز والجهات ، كثيرة المقابر والقهوات ، عديمة الفرج والمتنزهات ، ثقيلة المغارم ، مستباحة المحارم ، أعرابها أولو استطالة ، فلا يعدم الزرع عدوانا ، ولا يفقد عير الشر نزوانا ، وطريقها غير سوى وساكنها ضعيف يشكو من قوى اه .

(١) الاسبانيول يقولون لبلش مالقة Velez Malaga ويقولون للحامة Alahama

(٢) مرسية هى Murcia وبلنسية Valencia ودانية Denia والسهلة Azaila والثغر الاعلى هى سرقسطة Zaragoza

(٣) كلها قد تقدم ذكرها وبعض وصفها

(٤) أى سرقسطة

وكورة « تطيلة » ومدينتها « طرسونة » (١) وكورة « وشقة » ومدينتها تمريط (٢) ، وكورة مدينة سالم ، وكورة قلعة أيوب ، ومدينتها بليانة ، وكورة « برطانية » (٣) وكورة « باروشة » (٤)

وأما غرب الاندلس ففيه « اشبيلية » و «ماردة» و « اشبونة » و «شلب» (٥) فمن أعمال اشبيلية « شريش » و « الخضراء » و « لبلة » (٦) وغيرها . ومن أعمال ماردة « بطليوس » و « يابرة » (٧) وغيرها . ومن أعمال اشبونة « شنترين » (٨) وغيرها . ومن أعمال شلب «شنت ريه » (٩) وغيرها .

وأما الجزر البحرية بالأندلس فمنها جزيرة « قادس » (١٠) وهى من أعمال اشبيلية . وقال ابن سعيد : إنها من كورة شريش ولا منافاة ، لأن شريش من أعمال اشبيلية كما مر . قال : وبيد صنم قادس مفتاح . ولما ثار بقادس ابن أخت القائد أبي عبد الله بن ميمون ، وهو على بن عيسى قائد البحر بها ، ظن أن تحت الصنم مالا فهدمه فلم يجد شيأ اه .

وهى أعنى جزيرة قادس فى البحر المحيط . وفى المحيط الجزائر الخالدات (١١)

---

(١) قد تقدم ذكر هذه المدن وسيأتى الخبر عنها كلها

(٢) Tamarite - Altorricon

(٣) إن هذه الكورة هى المسماة بلطانية عند الأسبان وهى شمالى وشقة

(٤) قال ياقوت : باروشة مدينة من غربى سرقسطة بقرب من أرض الفرنج

(٥) هذه الاسماء هى Sévilla و Merida و Lisboa و Silves

(٦) » » » Xeres و Algezira و Niebla

(٧) » » » Badajoz و Evora

(٨) Santarem (٩) Santamaria

(١٠) Cadix وليست بجزيرة تامة ، وذلك لأنها ترتبط بالبر بخيط دقيق من التراب قليل العرض لا يزيد على أمتار معدودات ، وهو أيضاً غير مستطيل

(١١) Canaries

السبع ، وهى غربى مدينة سلا ، تلوح للناظر فى اليوم الصاحى الصافى الجو من الأبخرة الغليظة ، وفيها سبعة أصنام على أمثال الآدميين ، تشير أن لا عبور ولا مسلك وراءها . وفيه بجهة الشمال جزائر السعادات [١] ، وفيها من المدن والقرى مالا يحصى ومنها يخرج قوم يقال لهم المجوس ، على دين النصارى ، أولها جزيرة برطانية [٢] وهى بوسط البحر المحيط ، بأقصى شمال الاندلس ، ولا جبال فيها ولا عيون ، و إنما يشربون من ماء المطر ، و يزرعون عليه ، وقال ابن سعيد : وفيه جزيرة «شلطيش» [٣] وهى آهلة ، وفيها مدينة ، و بحرها كثير السمك ، ومنها يحمل مملحا إلى اشبيلية ، وهي من كورة « لبلة » مضافة إلى عمل « أونبة » [٤] اه .

وقال بعضهم لما جرى ذكر قرطاجنة من بلاد الاندلس : إن الزرع فى بعض أقطارها يكتفى بمطرة واحدة ، و بها أقواس من الحجارة المقربصة ، وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحير البصر والبصيرة . ومن أعجب بنائها « الدواميس [٥] » وهى أربعة وعشرون ، على صف واحد ، من حجارة مقربصة ، طول كل داموس مائة وثلاثون خطوة ، فى عرض ستين خطوة ، وارتفاع كل واحد أكثر من مائتى ذراع ، بين كل داموسين انقاب محكمة ، تتصل فيها المياه من بعضها إلى بعض ، فى العلو الشاهق ، بهندسة عجيبة ، و إحكام بديع . انتهى

« قلت » : أظن هذا غلطا فان قرطاجنة التى بهذه الصفة قرطاجنة أفريقية لا قرطاجنة الأندلس . والله أعلم .

---

(١) Açores

(٢) بريطانية العظمى

(٣) Saltes وهى جزيرة فى غربى الاندلس ينسب إليها أبو محمد الشلطيشى وغيره من أهل العلم وسيأتى ذكرها

(٤) Huelva

(٥) الداموس هو القترة أو ما يستتر به

وقال صاحب « مناهج الفكر » عند ما ذكر قرطاجنة : وهى على البحر الرومى ، مدينة قديمة بقى منها آثار ، ولها فحص طوله ستة أيام ، وعرضه يومان ، معمور بالقرى انتهى . وذكر قبل ذلك فى « لورقة »[1] أنه بناحيتها يوجد حجر اللازورد ، وفي البحر الشامى الخارج من المحيط جزيرتا ميورقة ومنورقة ، و بينهما خمسون ميلا وجزيرة ميورقة مسافة يوم بها مدينة حسنة[2] وتدخلها ساقية جارية على الدوام ، وفيها يقول ابن اللبانة :

بلدٌ أعارته الحمامةُ طوقَها ... وكساه حُلّةَ ريشِهِ الطاوُوسُ
فكأنما الأنهارُ فيه مُدامةٌ ... وكأنَّ ساحاتِ الديارِ كُؤوسُ

وقال يخاطب ملكها ذلك الوقت :

وَغَمَرْتَ بالاحسان أَرْضَ مُيورقةٍ ... وبنيت ما لم يَبْنِهِ الاسْكَنْدَرُ

وجزيرة يابسة[3] . واستقصاء ما يتعلق بهذا الفصل يطول ، ولو تُتبع لكان تأليفاً مستقلا ، وما أحسن قول ابن خفاجة :

إن للجنة بالأنْدلُسِ ... مُجْتَلَى حُسْنٍ ورَيا نفس
فسَنا صبحتها من شنَب ... ودُجَى ليلتها من لَعَس
وإذا ما هبّت الريح صَبًا ... صِحْتُ : واشوقى إلى الأندلس!

وقال بعضهم فى طليطلة :

زادت طُليطُلةٌ على ما حدَّثوا ... بلد عليه نضرةٌ ونعيمُ

---

(١) Lorca

(٢) الاسبانيول يقولون لهذه المدينة « بالما » Palma وأما العرب فكانوا يقولون للجزيرة ميورقة وللمدينة أيضا ميورقة . وقد أقمت بهذه البلدة عشرين يوماً فى أثناء سياحتى إلى الاندلس سنة ١٩٣٠ فرأيتها من أجمل بلاد الله وأخصبها

(٣) Ibiza

اللهُ زَيَّنهُ فوشَّح خصْرَهُ نهر المجرّة والغصونُ نجومُ

ولا حرج إن أوردنا هنا ما خاطب به أديب الأندلس أبو بحر صفوان بن إدريس الأمير عبد الرحمن ابن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن على ، فانه مناسب ونصه :

« مولاى أمتع الله ببقائك الزمان وأبناءه ، كما ضمّ على حبك أحناءهم وأحناءه ، وأوصل لك ماشئت من المنّ والأمان ، كما نظم قلائد فخرك على لبة الدهر نظم الجمان ، فانك الملك الهمام ، والقمر التمام ، أيامك غرر وحجول ، وفرند بهائها فى صفحات الدهر يجول ، ألبست الرعية برود التأمين ، فتنافست فيك من نفيس ثمين ، وتلقت دعوات خلدك لها باليمين ، فكم للناس من أمن بك و إيناس ، وللأيام من لوعة فيك وهيام وللأقطار من لبانات لديك وأوطار ، وللبلاد من قراع على تملكك لها وجلاد ! ! يتمنون شخصك الكريم على الله ويقترحون ، ويغتبقون فى رياض ذكرك العاطر بمدام حبك ويصطبحون ، كل حزب بما لديهم فرحون ، محبة من الله ألقاها لك ، حتى على الجماد ، ونصراً مؤزراً تنطق به ألسنة السيوف على افواه الاغماد ، ومن أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها ، ومن طوى حسن نية ختم الله له بالجميل إعادتها وإبداءها ، ومن قدّم صالحا فلا بد من أن يوازيه ، ومن يفعل الخير لايعدم جوازيه ولما تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار ، وطال بها الوقوف على حبك والاقتصار ، كلها يفصح قولا ، ويقول أنا أحق وأولى ، ويصيخ إلى إجابة دعوته ويصغى ، ويتلو إذا بشر بك : ذلك ما كنا نبغى . تنمّرت حمص غيظاً ، وكادت تفيض فيظاً وقالت : ما لهم يزيدون وينقصون ، ويطمعون ويحرصون ؟ إن يتبعون إلاّ الظن وإن هم إلاّ يخرصون ! ألهم السهم الأسدّ ، والساعد الأشدّ ، والنهر الذى يتعاقب عليه الجزر والمدّ ؟ أنا مصر الأندلس والنيل نهرى ، وسمائى التأنس والنجوم زهرى ، إن تجاريتم فى ذلك الشرف[1] ، فحسبى أن أفيض فى ذلك الشرف ، وإن تبجحتم بأشرف

(١) هو غابة الزيتون التى تقدم ذكرها

اللبوس ، فأى إزار اشتملتموه « كشنتبوس »[١] ؟ إلى ما شئت من أبنية رحاب ، وروضى يستغنى بنضرته عن السحاب ، وقد ملأت زهراتى وهادا ونجادا ، وتوشح سيف نهرى بحدائقى نجادا ، فأنا أولا كم بسيدنا الهمام وأحق ، الآن حصحص الحق !

فنظرتها قرطبة شذراً ، وقالت : لقد كثرت نذرا ، و بذرت فى الصخر الأصم بذرا ، كلام العدى ضرب من الهذيان ، وانى للايضاح والبيان متى استحال المستقبح مستحسناً ، ومن أودع أجفان المهجور وسنا ، أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ؟ ! ياعجبا للرا كز تقدم على الأسنة ، وللأثفار[٢] تفضل على الأعنة ! إن ادعيتم سبقا فما عند الله خير وأبقى ، لى البيت المطهر الشريف ، والاسم الذى ضرب عليه رواقه التعريف ، فى بقيعى محل الرجال الأفاضل ، فليرغم أنف المناضل ، وفى جامعى مشاهد ليلة القدر ، فحسبى من نباهة القدر ، فما لأحد أن يستأثر على بهذا السيد الأعلى ، ولا أرضى له أن يوطىء غير ترابى نعلا ، فأقروا لى بالابوة ، وانقادوا لى على حكم النبوة ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة ، وكفوا عن تباريكم ذلكم خير لكم عند باريكم .

فقالت غرناطة : لى المعقل الذى يمتنع ساكنه من النجوم ، ولا تجرى إلا تحته جياد الغيث السجوم ، فلا يلحقنى من معاند ضرر ولا حيف ، ولا يهتدى إلى خيال طارق ولا طيف ، فاستسلموا قولا وفعلا ، فقد أفلح اليوم من استعلى ، لى بطاح تقلدت من جداولها أسلاكا ، وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكا ، ومياه تسيل على أعطافى كأدمع العشاق ، و برد نسيم يرذد ماء المستجير بالانتشاق ، فحنى لا يطمع فيه ولا يحتال ، فدعونى فكل ذات ذيل تختال ، فأنا أولى بهذا السيد الأعدل ، وما لى به من عوض ولا بدل ، ولم لا يعطف على عنان مجده و يثنى ، و إن أنشد يوماً فاياى يعنى :

---

(١) Santiponce من قرى اشبيلية

(٢) الثفر محركة وقد تسكن السير : الذى فى مؤخر السرج

بلاد بها عَقَّ الشباب تمائمي وأول أرض مَسَّ جلدى تُرابها

فما لكم تعتزون لفخرى وتنتمون ، وتتأخرون فى ميدانى وتتقدمون ؟ تبرأوا إلىّ مما تزعمون ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون .

فقالت مالقة : أتتركونى بينكم هملا ، ولم تعطونى فى سيدنا أملا ؟ ولِمَ ولى البحر العجاج ، والسبل الفجاج ، والجنات الأثيرة ، والفوا كه الكثيرة ؟ ! لدىّ من البهجة ما تستغنى به الحمام عن الهديل ، ولا تجنح الأنفس الرقاق الحواشى الى تعويض عنه ولا تبديل ، فما لى لا أعطى فى ناديكم كلاماً ، ولا أنشر فى جيش فخاركم أعلاماً ؟ ! فكأنّ الأمصار نضرتها ازدراء ، فلم تر لحديثها فى ميدان الذكر اجراء ، لأنها موطن لا يحظى منه بطائل ، ونظن البلاد تأولت فيها قول القائل :

اذا نَطَقَ السفيهُ فلا تُجبهُ خيرٌ من إجابته السكوتُ

فقالت مرسية : أمامى تتعاطون الفخر ، و بحضرة الدر تنفقون الصخر ، إن عدّت المفاخر ، فلى منها الأول والآخر ، أين أوشالكم من بحرى ، وخرزكم من لؤلؤ نحرى ؟ وجعجعتكم من نفثات سحرى ؟ فلى الروض النضير ، والمرأى الذى ما له نظير ، ورتقاتى التى سار مثلها فى الآفاق ، وتبرقع وجه جمالها بغرة الاصفاق ، فمن دوحات ، كم لها من بكور وروحات ، ومن أرجاء ، اليها تمد أيدى الرجاء . فابنائى فى الجنة الدنيوية مودعون ، يتنعمون فيما يأخذون و يَدَعُون ، ولهم فيها ما تشتهى أنفسهم ولهم فيها ما يَدَّعون ، فانقادوا لأمرى ، وحاذروا اصطلاء جمرى ، وخلّوا بينى و بين سيدنا أبى زيد ، وإلا ضربتكم ضرب زيد ، فأنا أولا كم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم ، وما يلقّاها إلا ذو حظ عظيم .

فقالت بلنسية : فيم الجدال والقراع ، وعلام الاستهام والاقتراع ، وإلام التعريض والتصريح ، وتحت الرغوة اللبن الصريح ؟ ! أنا أحوزه من دونكم ، فأخمدوا نار تحرككم وهدونكم ، فلى المحاسن الشامخة الأعلام . والجنات التى تلقى اليها الآفاق يد الاستسلام ، و برصافتى وجسرى أعارض مدينة السلام ، فأجمعوا

على الانقياد لى والسلام ، و إلا فعضوا بناناً ، واقرعوا أسناناً . فأنا حيث لا تدركون وأنَّى ؟ ومولانا لا يهلكنا بما فعل السفهاء منا !

فعند ذلك ارتمت جمرة تدمير بالشرار ، واستدّت اسهمها لنحور الشرار ، وقالت : عش رجباً ، تر عجبا ! أبَعدَ العصيان والعقوق ، تتهيأن لرتب ذوى الحقوق ؟ ! هذه سماء الفخر ، فمن ضمنك أن تعرجى ؟ ليس بعشك فادرجى ، لك الوصف والخبل . آلآن ؟ وقد عصيت قبل أيتها الصائمة الفاعلة ، من أدراك أن تضربى وما أنت فاعلة ، ما الذى يجديك الروض والزهر ؟ أم يفيدك الجدول والنهر ؟ وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ هل أنت إلا محط رحل النفاق ، ومنزل ما لسوق الخصب فيه من نَفَاق ، ذراك لا يكتحل الطرف فيه بهجوع ، وقراك لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فإلامَ تبرز الاماء فى منصة العقائل ؟ ولكن اذكرى قول القائل :

بلنسية ، بينى عن القلب سَلْوَةً   فانك روض لا أحِنُّ لزَهْرِك
وكيف يُحب المرء داراً تقسَّمَتْ   على صارِمَىْ جُوعٍ وفتنةٍ مشرِكِ ؟

بيد أنى أسأل الله تعالى أن يوقد من توفيقك ما خمد ، ويسيل من تسديدك ما جمد ، ولا يطيل عليك فى الجهالة الأمد ، وإياه سبحانه نسأل أن يرد سيدنا ومولانا إلى أفضل عوائده ، ويجعل مصائب أعدائه من فوائده ، ويمكن حسامه من رقاب المشغبين ، ويبقيه وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويصل له تأييداً وتأبيداً ، ويمهد له الأيام حتى تكون الأحرار لعبيد عبيده عبيداً ، ويمد على الدنيا بساط سعده ، ويهبه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده .

آمين ! آمين ! لا أرض بواحدة   حتى أضيف اليها ألف آمينا

ثم السلام الذى يتعانق عبقاً ونشراً ، ويتألق رونقاً وبشراً ، على حضرتهم العلية ، ومطالع أنوارهم السنية الجلية ، ورحمة الله تعالى وبركاته [1] (انتهى)

---

(١) يرى القارىء أن صاحب النفح يأتى بالجغرافية والتاريخ والمحاضرات والمسامرات والنظم والنثر ، كل ذلك فى نسق ، وأن الترتيب ليس هو الصفة الغالبة على تاليفه ، بل هو فى

ولما ألمّ الرّحالة ابن بطوطة فى رحلته بدخوله بلاد الأندلس، أعادها الله تعالى للاسلام قال : فوصلت إلى بلاد الأندلس حرسها الله تعالى حيث الأجر موفور للساكن، والثواب مذخور للمقيم والظاعن . . . إلى أن قال عند ذكره غرناطة مانصه : قاعدة بلاد الأندلس، وعروس مدنها، وخارجها لا نظير له فى الدنيا، وهو مسيرة أربعين ميلا، يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الأنهار الكثيرة، والبساتين الجليلة، والجنات، والرياضات، والقصور، والكروم، محدقة بها من كل جهة، ومن عجيب مواضعها « عين الدمع » [(١)] وهو جبل فيه الرياضات والبساتين، لامثل له بسواها . انتهى

وقال الشقندى : غرناطة : دمشق بلاد الأندلس، ومسرح الأبصار، ومطمح الأنفس، ولم تخل من اشراف أماثل، وعلماء أكابر، وشعراء أفاضل، ولو لم يكن بها إلا ما خصها الله تعالى به من كونها قد نبغ فيها النساء الشواعر، كنزهون القَلْبعيّة، والركونية، وغيرهما، وناهيك بهما فى الظرف والأدب . انتهى

ولبعضهم، يتشوق إلى غرناطة، فيما ذكره بعض المؤرخين، والصواب أن الأبيات قيلت فى قرطبه كما مر والله أعلم .

أغرناطة الغراء، هل لِيَ أوبة   اليك وهل يدنو لنا ذلك العهد

سقى الجانبَ الغربيَّ منك غمامةٌ   وقَعْقَع فى ساحات رَوْضتك الرعد

لياليك أسحارٌ، وأرضك جنةٌ   وتُرْبُك فى استنشاقها عنبر وَرْدُ

وقال ابن مالك الرعينى :

رعى الله بالحمراء عيشاً قَطَعْتُهُ   ذهبت به للأنس والليلُ قَدْ ذَهَبْ

هذا سائر على قاعدة : إن الحديث شجون، ولقد رأينا الاولى أن نبقى نسقه على علاته، وأن لا نتصرف إلا ماندر فى ترتيبه وتبويبه

(١) الاسبانيول يقولون لهذه العين Fuente del Avellano

ترى الأرضَ منها فضةً فاذا اكتست بشمسِ الضُّحَى عادت سبيكتُها ذَهَبْ

وهو القائل :

لا تظنوا أن شوقى خمدا بعدكم ، أو أن دمعى جمدا

كيف أسلو عن أناس مثلهم قلّ أن تُبْصِرَ عينى أحداً

وغرناطة من أحسن بلاد الأندلس ، وتسمى بدمشق الأندلس ، لأنها أشبه شىء بها ، ويشقها نهر « حَدَرُّه » (١) ويطل عليها الجبل المسمى بشلير ، الذى لا يزول الثلج عنه شتاء ولا صيفاً (٢) ويجمد عليه ، حتى يصير كالحجر الصلد ، وفى أعلاه الأزاهر الكثيرة ، وأجناس الأفاوية الرفيعة . ونزل بها أهل دمشق ، لمّا جاءوا إلى الأندلس ، لأجل الشبه المذكور . وقرى غرناطة فيما ذكر بعض المتأخرين مائتان وسبعون قرية (٣) وقال ابن جزى مرتب رحلة ابن بطوطة ، بعد ذكر كلامه ما نصه : قال ابن جزى : لولا خشيت أن أنسب إلى العصبية ، لأطلت القول فى وصف غرناطة ، فقد وجدت مكانه ، ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول فيه . ولله در شيخنا أبى بكر ابن محمد بن شيرين السبتى ، نزيل غرناطة حيث يقول :

رعى اللهُ من غِرناطةٍ مُتَبَوَّأً يَسُرُّ حزيناً أو يُجِيرُ طَريداً

تبرَّمَ منها صاحبى عند ما رأى مسارِحَها بالثَّلجِ عُدْنَ جَليداً

هو الثغرُ ، صانَ اللهُ مَن أهلت به وما خيرُ ثغرٍ لا يكون بَرودا ؟

وقال ابن سعيد ، عند ما أجرى ذكر قرية نارجة ، وهى قرية كبيرة تضاهى

---

(١) الاسبانيول يقرلون Darro

(٢) سيأتى ذكر غرناطة وقراها فى محله

(٣) هذا هو الجبل الذى قال فيه القائل وقد حل باحدى قراه :

يحل لنا ترك الصلاة بأرضهم وشرب الحميا وهو شىء محرم

فراراً إلى نار الجحيم فانها أخف علينا من شلير وأرحم

المدن قد أحدقت بها البساتين ، ولها نهر يفتن الناظرين ، وهى من أعمال مالقة : انه اجتاز مرة عليها معوالده أبى عمران موسى ، وكان ذلك زمان صباغة الحرير عندهم وقد ضربوا فى بطن الوادى بين مقطعاته خياما ، وبعضهم يشرب ، وبعضهم يغنى ويطرب ، وسألوا : بِمَ يعرف ذلك الموضع ؟ فقالوا الطراز ، فقال والدى اسم طابق مسماه ، ولفظ وافق معناه .

وقد وجدتَ مكان القولِ ذا سَعَةٍ   فان وَجَدْتَ لساناً قائلا فقُلِ

ثم قال أجز :

بنارجـةٍ حيثُ الطِّراز المُنَمْنَمُ

فقلت : أقِمْ فوقَ نهرٍ ثَغْرُه يتبسمُ

فقال : وسمعك نحو الهـاتفات فانها

فقلت : لِما أبصرتْ مِنْ بهْجَةٍ تترنَّم

فقال : أيَا جنةَ الفِردوسِ لستُ بآدَمٍ

فقلت : فلاَ يكُ حظِّى من جَنَاكِ التندُّمُ

فقال : يعز علينـا أن نزوركِ مثـلَ ما

فقلت : يزورُ خيالٌ من سُلَيْمَى مسلِّمُ

فقال : فلو أننى أُعْطَى الخيارَ لَمَا عَدَتْ

فقلت : محلَّكِ لِى عَيْنٌ بمرآكِ تنْعَمُ

فقال : بحيثُ الصَّبا والطَّلُّ من نفثاتها

فقلت : وقَتْ لَسْعَ روضٍ فيه للنهر أرْقَمُ

فقال : فوا أسَفِى ! إن لم تـكن لِىَ عودةٌ

فقلت : فـكنْ مالِكاً إنى عليك مُتَمِّمُ(١)

(١) متمم كمعظم هو متمم بن نويرة بن حمزة التميمى اليربوعى الشاعر الصحابى أخو مالك بن نويرة الصحابى أيضا رضي الله عنهما

فقال : فأحسَب هـذا آخَر العَهْدِ بيننا

فقلت : وقد يَلْحَظُ الرحمنُ شَوْقى فيرحَمُ

فقال : سلام ! سلامٌ لا يزال مُرَدّداً

فقلت : عليك ! ولازالت بك السُّحْب تَسْجُم ! انتهى .

وقال ابن سعيد : إن كورة بلنسية ، من شرق الأندلس ، ينبت بها الزعفران وتعرف بمدينة التراب ، وبها كُمُثْرَى تسمى الأرزة ، فى قدر حبة العنب ، قد جمع مع حلاوة الطعم ، ذكاء الرائحة ، إذا دخل دارا عرف بريحه ، ويقال إن ضوء بلنسية يزيد على ضوء سائر بلاد الأندلس ، وبها منارة ومسارح ، ومن أبدعها وأشهرها الرصافة ، ومُنْية ابن ابى عامر .

وقال الشرف أبو جعفر بن مسعدة الغرناطى من أبيات فيها :

هى الفِردوْس فى الدنيا جَمالا لساكِنها وكارهها البعوض

وقال بعضهم فيها :

ضاقَتْ بَلَنسيةٌ بى وذادَ عَنّى غُموضى

رقْصُ البراغيث فيها عَلَى غِنَاء البَعُوض

وفيها لابن الزقاق البلنسى :

بلنسيةٌ إذا فكّرتَ فيها وفى آياتها أسنى البلادِ

وأعظمُ شاهِدي منها عليْهَا وأن جَمالها للعين بَادِى

كَسَاها ربُّها دِيبَاجَ حُسْن لها عَلَمَان مِنْ بَحْر ووادى

وقال ابن سعيد أيضاً : أنشدنى والدي قال : أنشدنى مروان بن عبد الله بن عبد العزيز ملك بلنسية لنفسه بمراكش قوله :

كأنّ بلنسيةً كاعِبٌ ومَلْبَسها سُنْدُسٌ أخضَرُ

إذا جئتَها سَتَرَتْ نفسَها بأكمامِها فهْىَ لا تظهَرُ

وأما قول أبي عبد الله بن عياش : «بلنسية بيني» البيتين وقد سبقا ، فقال ابن سعيد : إن ذلك حيث صارت ثغرا يصابحها العدو و يماسيها [١] اه .

وقال أبو الحسن بن حريق يجاوب ابن عياش :

بَلَنْسِيَةٌ قَرَارَةُ كلِّ حُسْن حديث صَحّ في شَرْق وغَرْب
فان قالوا مَحَلُّ غَلَاءِ سعر ومَسْقَطُ ديمَتَيْ طعن وضَرْب
فقل هيَ جَنَّةٌ حُفَّتْ رُبَاها بمكروهَيْنِ من جوع وحَرْب

وقال الرصافي في رصافتها :

ولا كالرُّصافة من منزلٍ سَقَتْهُ السحائبُ صَوْبَ الوَلِي
أحِنُّ اليها ومَنْ لي بها وأينَ السَّرِىُّ مِن المَوْصلي

وقال ابن سعيد : و برصافة [٢] بلنسية مناظر و بساتين ومياه ولا نعلم في الاندلس مايسمّى بهذا الاسم الاّ هذه ، ورصافة قرطبة . انتهى . ومن أعمال بلنسية قرية « المنصف » التي منها الفقيه الزاهد أبو عبد الله المنصفي وقبره كان بسبته يزار رحمه الله . ومن نظمه :

قالت لِيَ النفسُ : أتاكَ الرَّدَى وانت في بَحْر الخطايا مُقيم
فَمَا ادَّخَرْتَ الزادَ ، قلت اقصري! هل يُحْمَلُ الزادُ لدار الكريم ؟

ومن عمل بلنسية قرية «بطرنة» [٣] وهي التي كانت فيها الوقعة المشهورة للنصارى على المسلمين . وفيها يقول ابو اسحق بن يعلى الطرسوني : [٤]

---

(١) هذا كان بعد انصداع الوحدة الأندلسية وانقسام البلاد بين ملوك الطوائف واستشاد طواغيت الاسبانيول .

(٢) الاسبان يقولون Ruzafa وهي إلى الجنوب الشرقي من البلدة .

(٣) هي مقلوبة عن طبرنة Tabernes

(٤) نسبة إلى طرسونة من عمل سرقسطة .

لبسوا الحديدَ الى الوَغَى ولبِستمُ حُلَلَ الحرير عليكمُ ألوانا
ما كانَ اقبَحَهُمْ وأحسنَكُمْ بها ! لو لم يكُنْ بِبَطَرْنَةٍ ما كانا

ومن عمل بلنسية « مينطة »[١] التى نسب اليها جماعة من العلماء والأدباء .
ومن عمل بلنسية مدينة « اندة »[٢] التى فى جبلها معدن الحديد . واما «رندة»[٣] بالراء فهى فى متوسط الاندلس ، ولها حصن يعرف باندة أيضاً . وفى اشبيلية ، اعادها الله ، من المتفرجات والمتنزهات كثير ، ومن ذلك مدينة « طريانة »[٤] فانها من مدن أشبيلية ومتنزهاتها ، وكذلك « تيطل » فقد ذكر ابن سعيد جزيرة تيطل فى المتفرجات . وقال ابو عمران موسى بن سعيد فى جوابه لأبى يحيى صاحب سبتة ، لما استوزره مستنصر بنى عبد المؤمن ، وكتب الى المذكور يرغبه فى النقلة عن الاندلس

---

(١) Mogente وهى بلدة صغيرة قديمة واقعة فى بقعة طيبة . جاء فى دليل بديكر انها من بناء العرب .

(٢) Onda قال ياقوت : بالضم فسكون ، مدينة من أعمال بلنسية بالأندلس ، كثيرة المياه والرساتيق والشجر ، وعلى الخصوص التين ، فانه يكثر بها . وقد نسب إليها كثير من أهل العلم اه وذكر ياقوت بعضهم وسنذكرهم ونذكر كل من انتسب إلى أندة ، وكانت أندة دار القضاعيين .

(٣) إن كانت رندة هى الشهيرة التى نعرفها فليست من متوسط الأندلس ، بل هى من الجبال الجنوبية فيها ، تارة كانت تعد من عمل قرطبة ، وطورا من عمل اشبيلية ، وأخيرا آلت إلى مملكة غرناطة ، وهى التى منها أبو البقاء صالح بن شريف الرندى الشاعر الشهير صاحب مرثية الأندلس : لكل شيء إذا ماتم نقصان .

(٤) قال ياقوت : طريانة حاضر من حواضر اشبيلية ، ينسب إليها الفقيه عبد العزيز الطريانى ، كان نحوياً بارعاً ، قرأ على أبى ذر مصعب بن محمد بن مسعود ، قرأ عليه صديقنا الفتح بن عيسى القصرى مدرس رأس عين اه قلت : وهى تكتب بالاسبانولية هكذا : Triana جاء فى دليل بديكر أنها مسكن الطبقة الدنيا من الشعب ، وإليها ينسب الفخار الطريانى المشهور ، وكان يصنع بها أحسن الزليج الاشبيلى وقد أحييت هذه الصناعة من جديد .

إلى مراكش ، ما نص محل الحاجة منه : وأما ما ذكر سيدى من التخيير بين ترك الاندلس ، و بين الوصول الى حضرة مراكش ، فكفى الفهم العالى من الاشارة قول القائل :

والعِزُّ محمودٌ ومُلْتَمَسٌ وألَذُّهُ ما كان فى الوطن

فاذا نلت بك السماء فى تلك الحضرة ، فعلى من أسود فيها ؟ ومن ذا أضاهى بها ؟

لا رَقَتْ بي همّةٌ إن لم أكن فيك قد أمّلت كل الأمل

و بعدها فكيف أفارق الأندلس ، وقد علم سيدى أنها جنة الدنيا ، بما حباها الله به من اعتدال الهواء ، وعذوبة الماء ، وكثافة الأفياء ، وأن الانسان لا يبرح فيها بين قرة عين وقرار نفس ؟

هى الأرضُ لا وِرْدٌ لدَيْها مُكدَّرٌ ولا ظلٌّ مقصورٌ ولا رَوْضَ مُجْدبُ

أفُق صقيل ، و بساط مدبج ، وماء سائح ، وطائر مترنم بليل ، وكيف يعدل الأديب عن أرض على هذه الصفة ؟ فياسموءل الوفاء ، و ياحاتم السماح ، و ياجذيمة الصفاء ، كِلْ لمن أمَّلك النعمة ، بتركه فى موطنه ، غير مكدّر لخاطره بالتحرك من معدنه ، متلفتاً إلى قول القائل :

وسوّلت لى نفسى أن أفارقَها والماء فى المُزْن أصفَى منه فى الغُدُر

فان أغناه اهتمام مؤمله عن ارتياد المراد ، و بلّغه دون أن يشدّ قتباً ولا أن يُنضى عيساً غاية المراد ، أنشد ناجح المرغوب ، بالغ المطلوب :

وليس الذى يَسْتَتْبِع الوَبْلَ رائداً كمن جاءه فى داره رائدُ الوَبْل

ورب قائل إذا سمع هذا التبسط على الأمانى : ماله تشطَّط ، وعدَلَ عن سبيل التأدب وتبسَّط ؟ ! ولا جواب عندى إلاّ قول القائل :

فهذه خِطّةٌ ما زلتُ ارقُبُها فاليومَ أبسطُ آمالى وأحتَكِمُ

ومالى لا أُنشد ما قاله المتنبى فى سيف الدولة :

ومَنْ كنتَ بحرًا له ياعليّ لم يقبل الدرَّ إلاّ كبارا

انتهى المقصود منه .

وقال الحجارى : إن مدينة «شريش[١]» بنت اشبيلية ، وواديها ابن واديها ، ما أشبه سُعْدَى بسعيد ! ! وهى مدينة جليلة ، ضخمة الأسواق ، لأهلها همم وظرف فى اللباس وإظهار الرفاهية ، وتخلق بالآداب . ولا تكاد ترى بها إلاّ عاشقاً أو معشوقا . ولها من الفواكه ما يعم ويفضل ، ومما اختصت به احسان الصنعة فى المجبّنات ، وطيب جبنها يعين على ذلك . ويقول أهل الأندلس : من دخل شريش ولم يأكل بها المجبّنات فهو محروم اه .

والمجبنات نوع من القطائف يضاف إليها الجبن فى عجينها وتقلى بالزيت الطيب .

وفى شلب يقول الفاضل الكاتب أبو عمرو بن مالك بن سيدمير

أشَجَاكَ النسيمُ حين يَهُبُّ ؟	أمْ سَنَى البَرْقِ إذ يَخُبُّ ويخبو ؟
أمْ هَتوفٌ على الأراكة تشدُو	أمْ هَتونٌ من الغَمامة سكْبُ ؟
كُلٌّ هـذاك للصَّبابة داعٍ	أىُّ صَبٍّ دُموعُه لا تَصُبُّ ؟
أنا لولا النسيمُ والبَرْق والوُرْ	قُ وصَوْبُ الغَمام ما كُنت أصْبو
ذكرَتْنِىَ شلباً ، وهيهاتَ مِنِّي	بَعْدَ ما استحكم التباعُدُ شِلْبُ !

(١) Xeres أو Jerez وقد كانوا يقولون لها Xeres de la Frontera ومعناه شريش الثغر ، لأنها بقيت مده طويلة فى أواخر مقام العرب بالأندلس هى الثغر بين المسلمين الذين كانوا فى مملكة غرناطة والاسبانيول الذين كانوا غلبوا على اشبيلية وهى اليوم ثالث بلدة فى اسبانية من جهة الثروة ، ومن أشهر مدن أوربة فى صنعة الخمر . وخمرها هو الذى يقال له « شرى » Sherry عند الانكليز والبلدة نظيفة خفيفة على الروح ، والبيوت فيها لاتزال على طراز البناء العربى . ذهبت إليها صباحا بسكة الحديد من اشبيلية ، ورجعت منها بعد الغداء إلى اشبيلية . وكان استرداد الأسبان لشريش سنة ١٢٥١ على يد الملك فرديناند الا أن العرب استرجعوها أول مرة . ثم عاد الاسبان فغلبوا عليها . ثم عاد العرب فأخذوها ثانى مرة بعد وقائع شداد . ثم عاد الاذفنش الملقب بالحكيم فاستولى عليها سنة ١٢٦٤ وبقيت فى أيدى الاسبانيول من ذلك الحين . وسيأتى ذكرها مفصلا متى وصلنا الى كورة اشبيلية

وتسمى أعمال شلب كورة « اشكونية » وهى متصلة بكورة أشبونة ، وهى ، أعنى أشكونية ، قاعدة جليلة ، لها مدن ومعاقل ، ودار ملكها قاعدة « شِلْب »[1] و بينها و بين قرطبة سبعة أيام . ولما صارت لبنى عبد المؤمن ملوك مراكش أضافوها إلى كورة أشبيلية . وتفتخر شلب بكون ذى الوزارتين ابن عمار منها ، سامحه الله . ومنها القائد أبو مروان عبد الملك بن بدران ، وربما قيل ابن بدرون ، الأديب المشهور شارح قصيدة ابن عبدون التى أولها :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بعـد العَين بالأثَرِ فما البُكاءُ على الأشْباح والصُّوَر ؟!

(١) Silves قال ياقوت الحموى فى معجمه : شلب بكسر أوله وسكون ثانيه ، وآخره باء موحدة ، هكذا سمعت جماعة من أهل الاندلس يتلفظون بها ، وقد وجدت بخط بعض أدبائها : شلب بفتح الشين . وهى مدينة بغربى الاندلس ، بينها وبين باجه ثلاثة أيام ، وهى غربى قرطبة ، وهى قاعدة ولاية اشكونية ، وبينها وبين قرطبة عشرة أيام للفارس المجد . بلغنى انه ليس بالاندلس بعد اشبيلية مثلها ، وبينها وبين شنترين خمسة أيام . وسمعت ممن لا احصى انه قل ان ترى من أهلها من لا يقول شعراً ، ولا يعانى الأدب ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه ، وأى معنى طلبت منه . وينسب اليها جماعة منهم محمد بن ابراهيم بن غالب بن عبد الغافر ابن سعيد العامرى من عامر بن لؤى الشلبى ، وأصله من باجه يكنى أبا بكر روى عن على بن الحجاج الاعلم كثيراً ، وسمع من عبد الله بن منظور صحيح البخارى ، وكان واسع الأدب ، تولى الخطابة ببلده مدة طويلة ، ومات لخمس خلون من جمادى الاولى سنة ٥٣٢ ومولده سنة ٤٤٦ وامر أن يكتب على قبره :

لئن نفذ القدر السابق بموتى كما حكم الخالق
فقد مات والدنا آدم ومات محمد الصادق
ومات الملوك وأشياعهم ولم يبق من جمعهم ناطق
فقل للذى سره مصرعى تأهب فانك بى لاحق

انتهى . قلنا وينسب الى شلب من العلماء جم غفير سنأتى بتراجمهم عند الوصول الى ذكر هذه المدينة

وهذا الشرح شهير بهذه البلاد المشرقية . ومن نظم ابن بدرون المذكور قوله

العشقُ لَذَّتهُ التَّعنيقُ والقُبَلُ ... كما مُنَغِّصُهُ التثريبُ والعَذَلُ

ياليتَ شِعْرى اهل يقضى وِصالكُمُ ... لولا المُنى لم يكُنْ ذا العُمْرُ يتصلُ

ومنها نحوىُّ زَمَانه وعلاَّمتهُ ، أبو محمد عبد الله ابن السيد البطليوسى ، فان شلبا بَيْضتهُ ، ومنها كانت حركته ونهضته ، كما فى الذخيرة . وهو القائل :

إذا سألونيَ عَن حالتى ... وحاولتُ عُذراً فلم يُمكنِ

أقولَ : بخير ، ولكنّهُ ... كَلاَمٌ يَدور على الألسُنِ

وربّك يعلم ما فى الصُّدور ... ويعلم خائِنةَ الأعْيُنِ

وقال الوزير أبو عمرو بن الفلاس يمدح بطليوس بقوله :

بطليوسُ[1] لاأنساكِ ما اتصلَ البُعْدُ ... فلله غَوْرٌ فى جَنابكِ أو نَجْدُ

ولله دَوْحاتٌ تَحُفّكِ يُنَّعاً ... تفجّر واديها كما شُقِّقَ البُرْدُ

وبنو الفلاس من أعيان حضرة بطليوس ، وأبو عمرو المذكور أشهرهم ، وهو من رجال الذخيرة والمسهب ، رحمه الله تعالى . وفى شاطبة[2] يقول بعضهم :

نِعْمَ ملقَى الرَّحلِ شاطبة ... لِفَتًى طالتْ به الرُّحَلُ

بلدةٌ أوقاتُها سَحَرٌ ... وصَباً فى ذَيْله بَلَلُ

ونسيمٌ عَرْفُهُ أَرِجٌ ... ورياضٌ غُصْنُها ثَمِلُ

ووُجوهٌ كُلُّها غُرَرٌ ... وكلامٌ كلُّه مُثُلُ

وفى برجة يقول بعضهم :

إذا جئت برجةَ مستوفزاً ... فخُذ فى المقام وَخَلِّ السَّفرْ

فكلُّ مكان بها جَنَّةٌ ... وكلُّ طريق اليها سَقَرْ

---

(١) سيأتى ذكرها مفصلا عند ذكر مدائن الغرب من الاندلس

(٢) سيأتى ذكرها مفصلا عند ذكر مدائن الشرق من الاندلس

واعلم أنه لو لم يكن للأندلس من الفضل سوى كونها ملاعب الجياد للجهاد ، لكان كافياً ، ويرحم الله لسان الدين بن الخطيب ، حيث كتب على لسان سلطانه إلى بعض العلماء العاملين ما فيه إشارة إلى بعض ذلك ما نصه : من أمير المسلمين فلان إلى الشيخ كذا ابن الشيخ كذا وصل الله له سعادة تجذبه ، وعناية اليه تقربه وقبولا منه يدعوه إلى خير ما عند الله و يندبه ، سلام كريم عليكم ورحمة الله و بركاته .
أما بعد حمد الله المرشد المثيب ، السميع المجيب ، معوّد اللطف الخفى ، والصنع العجيب المتكفل بإنجاز وعد النصر العزيز والفتح القريب ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذى القدر الرفيع والعز المنيع والجناب الرحيب ، الذى به نرجو ظهور عبدة الله على عَبَدَة الصليب ، ونستظهر منه على العدو بالحبيب ، ونعدّه عدتنا لليوم العصيب ، والرضا عن آله وصحبه الذين فازوا بمشاهدته بأوفى النصيب ، ورموا إلى هدف مرضاته بالسهم المصيب ، فانا كتبناه اليكم ، كتب الله تعالى لكم عملا صالحاً يختم الجهاد صحائف بره ، وتتمحض لأن تكون كلمة الله هى العليا جوامع أمره ، وجعلكم ممن تهنى فى الأرض التى فتح فيها أبواب الجنة مدة عمره ، من حمراء غرناطة ، حرسها الله تعالى ، ولطف الله هامى السحاب ، وصنعه رائق الجناب ، والله يصل لنا ولكم ما عوّده من صلة لطفه ، عند انبتات الأسباب ، و إلى هذا أيها المولى الذى هو بركة المغرب المشار اليه بالبنان ، وواحده فى رفعة الشأن المؤثر ما عند الله على الزخرف الفتان ، المتقلل من المتاع الفان ، المستشرف إلى مقام العرفان ، من درج الإسلام والايمان والاحسان ، فإننا لما نؤثره من بركم الذى نعده من الأمر الأكيد ونضمره من ودكم الذى نحله محل الكنز العتيد ، ونلتمسه من دعائكم التماس العدة والعديد ، لا نزال نسأل عن أحوالكم التى ترقت فى أطوار السعادة ، ووصلت جناب الحق بهجر العادة ، وألقت إلى يد التسليم لله والتوكل عليه بالمقادة ، فنسرّ بما هيأ الله تعالى لكم من القبول و بلغكم من المأمول ، وألهمكم من الكلف بالقرب اليه والوصول ، والفوز بما لديه والحصول ، وعند ما ردّ الله تعالى علينا الرد الجميل ، وأنالنا فضله

الجزيل ، وكان لعثارنا المقيل ، خاطبناكم بذلك لمكانكم من ودادنا ، ومحلكم من حسن اعتقادنا ، ووجّهنا إلى وجهة دعائكم وجه اعتدادنا ، والله ينفعنا بجميل الظن فى دينكم المتين ، وفضلكم المبين ، و يجمع الشمل بكم فى الجهاد عن الدين ، وتعرفنا الآن بمن له بانبائكم اعتناء ، وعلى جلالكم حمد وثناء ، ولجناب ودكم اعتزاء وانتماء ، بتجاول عزمكم بين حج مبرور ترغبون من أجره فى ازدياد ، وتجدون العهد منه بأليف اعتياد و بين رباط فى سبيل الله وجهاد ، وتوثير مهاد ، بين ربا أثيرة عندالله ووهاد ، يحشر يوم القيامة شهداؤها مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، والله أصدق القائلين الصادقين ، حيث لاغارة لغير عدو الاسلام تُتّقَى ، الا لابتغاء مالدى الله يرتقى ، حيث رحمة الله قد فتحت أبوابها ، وحور الجنان قد زينت أترابها ، دار العرب الذين قرعوا باب الفتح ، وفازوا بجزيل المنح ، وخلدوا الآثار ، وأرغموا الكفار ، وأقالوا العثار ، وأخذوا الثار ، وأمنوا من لفح جهنم ، بما علا على وجوههم من ذلك الغبار ، فكتبنا اليكم هذا نقوّى بصيرتكم ، على جهة الجهاد من العزمَين ، ونهب بكم إلى إحدى الحسنيين ، والصبح غير خاف على ذى عينين والفضل ظاهر لاحدى المنزلتين ، فانكم إن حججتم أعدتم فرضاً أديتموه ، وفضلا ارتديتموه ، فائدته عليكم مقصورة ، وقضيته فيكم محصورة . و إذا أقمتم الجهاد ، جلبتم إلى حسناتكم عملا غريباً ، واستأنفتم سعياً من الله قريباً ، وتعدت المنفعة إلى ألوف من النفوس ، المستشعرة لبأس البوس ، ولو كان الجهاد بحيث يخفى عليكم فضله لأطنبنا ، وأعنة الاستدلال أرسلنا . هذا لو قدمتم على هذا الوطن ، وفضلكم غُفل من الاشتهار ، ومن به لا يوجب لكم ترفيع المقدار ، فكيف وفضلكم أشهر من مُحيّا النهار ، ولقاؤكم أشهى الآمال وآثر الأوطار ؟! فان قوى عزمكم ، والله يقويه ، و يعيننا من بركم على ما ننويه ، فالبلاد بلادكم ، وما فيها طريفكم وتلادكم وكهولها إخوانكم ، وأحداثها أولادكم ، ونرجو أن تجدوا لذكركم الله فى رباها حلاوة

زائدة ، ولا تعدموا من روح الله فائدة ، وتتكيف نفسكم فيها بكيفيات تقصر عنها خلوات السلوك إلى ملك الملوك ، حتى تغتبطوا بفضل الله الذى يوليكم ، وتروا أثر رحمته فيكم ، وتخلفوا فخر هذا الانقطاع إلى الله فى قبيلكم وبنيكم ، وتختموا العمل الطيب بالجهاد الذى يمليكم ، ومن الله تعالى يدنيكم ، فنبيكم العربى ، صلوات الله عليه وسلامه ، نبى الرحمة والملاحم ، ومُعمِل الصوارم ، و بجهاد الفرنج ختم عمل جهاده ، والأعمال بالخواتم ، هذا على بعد بلادهم من بلاده ، وأنتم أحق الناس باقتفاء جهاده ، والاستباق إلى آماده .

هذا ما عندنا حثثنا كم عليه ، وندبْنَا كم اليه ، وأنتم فى إيثار هذا الجوار ، ومقارضة ما عندنا بقدومكم على بلادنا من الاستبشار ، بحسب ما يخلق عنكم من بيده مقادة الاختيار ، وتصريف الليل والنهار ، وتقليب القلوب و إجالة الأفكار ، و إذ تعارضت الحظوظ فما عند الله خير للأبرار ، والدار الآخرة دار القرار ، وخير الأعمال عمل أوصل إلى الجنة و باعد من النار ، ولتعلموا أن نفوس أهل الكشف والاطلاع ، بهذه الأرجاء والاصقاع ، قد اتفقت أخبارها ، واتحدت أسرارها ، على البشارة بفتح قرُب أوانهُ ، وأظلّ زمانه ، فنرجو الله أن تكونوا ممن يحضر مدّعاه ، و يكرم فيه مسعاه ، و يسلف فيه العمل الذى يشكره الله و يرعاه ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله و بركاته . انتهى

ولما دخل الأندلس أمير المسلمين علىّ ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى ، ملك المغرب والأندلس ، وامعن النظر فيها ، وتأمّل وصفها وحالها ، قال : إنها تشبه عُقاباً مخالبهُ طليطلة ، وصدره قلعة رباح ، ورأسه جيّان ، ومنقاره غرناطة وجناحه الأيمن باسط إلى المغرب ، وجناحه الأيسر باسط إلى المشرق . . . في خبر طويل لم يحضرنى الآن ، إذ تركته مع كتبي بالمغرب ، جمعنى الله بها على أحسن الأحوال .

ومع كون أهل الأندلس سُبّاق حَلْبة الجهاد ، مهطعين إلى داعيه من الجبال

والوهاد ، فكان لهم فى الترف والنعيم والمجون ، ومداراة الشعراء ، خوف الهجاء ، محل وثير المهاد . وسيأتى فى الباب السابع من هذا القسم من ذلك وغيره ما يشفى ويكفى ، ولكن سنح لى أن أذكر هنا حكاية أبى بكر المخزومىّ الهجّاء المشهور ، الذى قال فيه لسان الدين بن الخطيب فى الاحاطة : إنه كان أعمى شديد الشر ، معروفاً بالهجاء ، مسلّطا على الأعراض ، سريع الجواب ، ذكى الذهن ، فطنا للمعاريض سابقاً فى ميدان الهجاء ، فاذا مدح ضعف شعره .

والحكاية هى ما حكاه أبو الحسن بن سعيد فى الطالع السعيد إذ قال ، حكاية عن أبيه فيما أظن : قدم المذكور ، يعنى المخزومى ، على غرناطة أيام ولاية أبى بكر ابن سعيد ، ونزل قريباً منى ، وكنت أسمع به : نار صاعقة يرسلها الله على من يشاء من عباده ، ثم رأيت أن أبدأه بالتأنيس والاحسان ، فاستدعيته بهذه الأبيات :

يا ثانيـاً للمعَرّى فى حُسنِ نظمٍ ونثرِ
وفَرْط ظَرْف ونُبْلٍ وغَوْصِ فهمٍ وفِكرِ
صِلْ ثم واصِـل حفيًّا بكل برٍّ وشُكر
وليسَ إلاّ حـديثٌ كما زَهَا عِقْدُ دُرّ
وشـــادِنٍ يتغنى على ربابٍ وزمر
وما يسامحُ فيـه الغفـــورُ مِنْ كأْس خَمْرٍ
وبيننا عَهْدُ حِلْف لياسِر حِلْف كفر
نعم نُجَـدّده عهدا بطيب سكر ويسر
والكأس مثلُ رَضاع ومَنْ كمثلك يَدْرى ؟

ووجه له الوزير أبو بكر بن سعيد عبداً صغيرا قاده . فلما استقرّ به المجلس ، وأفعمته روائح الندّ والعود والأزهار ، وهزت عطفه الأوتار ، قال :

دارُ السَّعيدىّ ذى ؟ أم دار رضوان ؟ ما تَشْتهى النفسُ فيها حاضرٌ دانِ !

سقَتْ أباريقها للندّ سُحب نَدًى تحدى برَعْدٍ لأوتار وعِيدانِ
والبرْقُ من كل دَنّ ساكب مطَرًا يُحْيي به مَيْتَ أفكارٍ وأشجانِ
هـذا النعيمُ الذى كُنَّا نحدّثُه ولا سبيل له إلاّ بآذانِ

فقال أبو بكر بن سعيد : و إلى الآن لاسبيل له إلا بآذان ؟ فقال : حتى يبعث الله ولد زنا كلما أنشدت هـذه الأبيات قال إنها لأعمى . فقال : أما أنا فلا أنطق بحرف . فقال : من صمت نجا .

وكانت نزهون بنت القلاعى حاضرة فقالت : وتراك يا أستاذ ، قديم النعمة بمجرد ندّ وغناء وشراب ، فتعجّب من تأتّيه ، وتشبهه بنعيم الجنة ، ويقول ما كان يعلم إلا بالسماع ، ولا يبلغ إليه بالعيان ! ولـكن من يجيء من حصن المدور ، وينشأ بين تيوس و بقر ، من أين له معرفة بمجالس النعيم ؟ ! فلما استوفت كلامها تنحنح الأعمى ، فقالت له : ذبحة ! فقال : من هذه الفاضلة ؟ فقالت عجوز مقام أمك ! فقال : كذبت ! ماهذا صوت عجوز . . . الخ . ثم قال :

على وجه نزهونَ من الحسن مَسْحةٌ و إن كان قد أمسى من الضوء عاريا
قواصـدُ نزهونٍ توارِكُ غـيرِها ومن قصَدَ البحرَ استقلّ السواقيا

(وطوينا هنا بعض محاضرات لاصلة لها بموضوعنا من جغرافية البلاد إلى أن يقول) :

والذى رأيته لبعض مؤرخى المغرب فى سرقسطة أنها لاتدخلها عقرب ولا حية إلا ماتت من ساعتها ، ويؤتى بالحيات والعقارب إليها حية ، فبنفس ماتدخل إلى جوف البلد تموت . قال ولا يتسوّس فيها شيء من الطعام ، ولا يعفّن ، و يوجد فيها القمح من مائة سنة ، والعنب المعلق من ستة أعوام ، والتين والخوخ وحب الملوك[1] والتفاح والأجّاص اليابسة من أربعة أعوام ، والفول والحمص من عشرين سنة ،

(١) هذا الذى يقال له الكرز فى الشرق وبالافرنسية Cerise .

ولا يسوّس فيها خشب ولا ثوب ، كان صوفاً أو حريراً أو كتّانا . وليس فى بلاد الأندلس أكثر فاكهة منها ، ولا أطيب طعما ، ولا أكبر جرما . والبساتين محدقة بها من كل ناحية ثمانية أميال ، ولها أعمال كثيرة ، مدن وحصون وقرى ، مسافة أربعين ميلا ، وهى تضاهى مدن العراق فى كثرة الأشجار والأنهار ، وبالجملة فأمرها عظيم . وقد أسلفنا ذكرها .

واعلم أن بأرض الأندلس من الخصب والنضرة وعجائب الصنائع وغرائب الدنيا مالا يوجد مجموعه غالباً فى غيرها . فمن ذلك ما ذكره الحجارى فى المسهب أن السمّور الذى يعمل من وبره الفراء الرفيعة ، يوجد فى البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية ، ويجلب إلى سرقسطة ويصنع بها . ولما ذكر ابن غالب وبر السمور الذى يصنع بقرطبة قال : هذا السمور المذكور هنا لم أتحقق ماهو ، ولا ماعنى به ، إن كان هو نباتا عندهم ، أو وبر الدابة المعروفة ، فان كانت الدابة المعروفة فهى دابة تكون فى البحر وتخرج إلى البر ، وعندها قوة ميز . وقال حامد بن سمحون الطبيب ، صاحب كتاب الأدوية المفردة : هو حيوان يكون فى بحر الروم ، ولا يحتاج منه إلا خصاه ، فيخرج الحيوان من البحر فى البر ، فيؤخذ وتقطع خصاه ويطلق ، فربما عرض للقناصين مرة أخرى ، فاذا أحس بهم وخشى أن لا يفوتهم ، استلقى على ظهره وفرّج بين فخذيه ، ليرى موضع خصييه خاليا ، فاذا رآه القناصون كذلك تركوه . قال ابن غالب ويسمّى هذا الحيوان أيضاً « الجند بادستر » والدواء الذى يصنع من خصييه من الأدوية الرفيعة ، ومنافعه كثيرة ، وخاصيته فى العلل الباردة ، وهو حارّ يابس فى الدرجة الرابعة

« والقنلية » ؟ حيوان أدق من الأرنب ، وأطيب فى الطعم ، وأحسن وبرا ، وكثيراً ما يلبس فراؤها ، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى ، ولا يوجد فى بر البربر ، إلا ماجاب منها إلى سبتة ، فنشأ فى جوانبها . قال ابن سعيد : وقد جلبت فى هذه المدة إلى تونس حضرة أفريقية .

ويكون بالأندلس من الغزال والأيل وحمار الوحش وبقره وغير ذلك مما لا يوجد فى غيرها كثيرا . وأما الأسد فلا يوجد فيها البتة ، ولا الفيل ، ولا الزرافة وغير ذلك ، مما يكون فى أقاليم الحرارة . ولها سبع يعرف « باللب »(١) أكبر بقليل من الذئب ، فى نهاية من القحة ، وقد يفترس الرجل ، إذا كان جائعاً . وبغال الأندلس فارهة ، وخيلها ضخمة الأجسام ، حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السلاح والعَدْوُ فى خيل البرّ الجنوبىّ . ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره ويطول ، وكذلك حيوان البحر . ودوابّ بحرها المحيط فى نهاية من الطول والعرض قال ابن سعيد : عاينت من ذلك العجب ، والمسافرون فى البحر يخافون منها ، لئلا تقلب المراكب ، فيقطعون الكلام ، ولها نفخ بالماء من فيها يقوم فى الجوّ ، ذا ارتفاع مفرط .

وقال ابن سعيد : قال المسعودى فى مروج الذهب : فى الأندلس من أنواع الأفاوية خمسة وعشرون صنفا : منها السنبل ، والقرنفل ، والصندل والقرفة ، وقصب النريرة ، وغير ذلك . وذكر ابن غالب أن المسعودى قال : أصول الطيب خمسة أصناف : المسك ، والكافور ، والعود ، والعنبر ، والزعفران . وكلها من أرض الهند إلا الزعفران والعنبر ، فانهما موجودان فى أرض الأندلس ، ويوجد العنبر فى أرض الشّحر : قال ابن سعيد : وقد تكلموا فى أصل العنبر : فذكر بعضهم أنه عيون تنبع فى قعر البحر ، يصير منها ماتبلعه الدواب وتقذفه . قال الحجارى : ومنهم من قال إنه نبات فى قعر البحر ، وقد تقدم قول الرازى : إن المحلب ، وهو المقدم فى الأفاوية ، والمفضل فى أنواع الأشنان ، لايوجد فى شىء من الأرض إلا بالهند والأندلس . قال ابن سعيد : وفى الأندلس مواضع ذكروا أن النار إذا أطلقت فيها فاحت بروائح العود ، وما أشبهه . وفى جبل شلير أفاوية هندية . قال : وأما الثمار وأصناف الفواكه فالاندلس أسعد بلاد الله بكثرتها ، ويوجد فى سواحلها قصب السكر ،

(١) Loup

والموز ، و يوجدان فى الاقاليم الباردة ، ولايعدم منها إلا التمر . ولها من أنواع الفوا كه ما يعدم فى غيرها أو يقل كالتين القوطي والتين السفرىّ باشبيلية . قال ابن سعيد : وهذان صنفان لم ترعيني ، ولم أذق لهما ، منذ خرجت من الاندلس ، ما يفضلهما . وكذلك التين المالقى والزبيب المنكّبى [١] والزبيب العسلى والرمان السفرى [٢] والخوخ والجوز واللوز وغير ذلك مما يطول ذكره .

وقد ذكر ابن سعيد أيضاً : أن الارض الشمالية المغربية فيها المعادن السبعة ،

---

(١) قال لسان الدين بن الخطيب فى « معيار الاختيار » عن المنكب : مرفأ السفن ومحطها ، ومنزل عباد المسيح ومخطبها بلدة معقلها منيع وبردها صقيع ، القصر مفتح الطيقان ، والمسجد المشرف المكان ، والاثر المنبىء عن كان وكان ، كأنه مبرد واقف . أو عمود فى يد مثاقف ، قد أخذ من الدهر الأمان ، وتشبه بصرح هامان ، وأرهقت جوانبه بالصخر المنحوت ، وكاد أن يصل ما بين الحوت والحوت ، (يريد باحد الحوتين برج الحوت الذى بالسماء وبالثانى سمك البحر ، كناية عن الارتفاع ، أو كما يقولون : من السماك إلى السمك) غصت بقصب السكر أرضها واستوعب به طولها وعرضها ، زبيبها فائق ، وجنابها رائق ، وقد مت إليها جبل الشوار بنسب الجوار منشأ الاسطول ، فوعده غير ممطول ، وأمده لا يحتاج إلى الطول (إلى أن يقول) هواؤها فاسد ، ووباؤها مستاسد ، التبست فيها السماء وتغيرت بالسمائم المسميات والاسماء فأهلها من أجداث بيوتهم يخرجون ، إلى جبالها يعرجون ، والودك إليها مجلوب ، والقمح بين أهلها مقلوب ، والحرباء بعرائها مصلوب

(٢) قالوا انه لما اتسق الأمر لعبد الرحمن الداخل فى الأندلس أرسل القاضى معاوية بن صالح إلى الشام ليأتيه باخته أم الأصبغ فأبت عن الانتقال وقالت : كبرت سنى وأشرفت على انقضاء أجلى ولا طاقة بى على شق القفار والبحار وحسبى أن أعلم ماصار إليه من نعمة الله . ولما صار معاوية بن صالح إلى عبد الرحمن أدخل إليه تحف أهل الشام وكان فى تلك التحف من الرمان المعروف اليوم بالأندلس بالرمان السفرى فجعل جلساء الأمير من أهل الشام يذكرون الشام ويتأسفون عليها وكان فيهم رجل يسمى سفر فأخذ من ذلك الرمان شيئا لطف به وغرسه حتى علق وتم وأثمر ، فهو اليوم الرمان السفرى . نسب إليه

وأنها فى الاندلس التى هى بعض تلك الأرض . وأعظم معدن للذهب بالاندلس ، فى جهة « شنت ياقور » [١] قاعدة الجلالقة على البحر المحيط . وفى جهة قرطبة الفضة والزئبق والنحاس فى شمال الاندلس كثير ، والصُّفْر الذى يكاد يشبه الذهب ، وغير ذلك من المعادن المتفرقة فى أماكنها ، والعين التى يخرج منها الزاج فى لبلة مشهورة ، وهو كثير مفضل فى البلاد ، منسوب لجبل طليطلة جبل الطفل [٢] الذى يجهز إلى البلاد ، و يفضل على كل طفل بالمشرق والمغرب .

و بالأندلس عدة مقاطع للرخام . وذكر الرازى : أن بجبل قرطبة مقاطع الرخام الأبيض الناصع اللون والجزى وفى « ناشرة » مقطع عجيب للعمد و « بباغة » من مملكة غرناطة مقاطع للرخام كثيرة غريبة ، موشاة فى حمرة وصفرة وغير ذلك من المقاطع التى بالأندلس من الرخام الحالك والمجزّع وحصى المرية يحمل إلى البلاد فانه كالدر فى رونقه ، وله ألوان عجيبة . ومن عادتهم أن يضعوه فى كيزان الماء وفى الأندلس من الأمنان التى تنزل من السماء القرمز الذى ينزل على شجرة البلوط فيجمعه الناس من الشعراء ، و يصبغون به فيخرج منه اللون الأحمر ، الذى لا تفوقه حمرة .

قال ابن سعيد : والى مصنوعات الأندلس ينتهي التفضيل ، وللمتعصبين لها فى ذلك كلام كثير ، فقد اختصت المرية ومالقة ومرسية بالموشّى المذهب الذى يتعجب من صنعته أهل المشرق اذا رأوا منه شيئاً وفى « نيشتالة » [٣] من عمل مرسية تعمل البسط التى يغالى فى ثمنها بالمشرق ، و يصنع فى غرناطة و بسطة من ثياب اللباس المحرّرة ، الصنف الذي يعرف بالملبد المختّم ، ذو الالوان العجيبة . و يصنع فى مرسية من الأسرّة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة ، وآلات الصُّفْر والحديد من

(١) Santiago وهى شنت ياقب أقدس مكان عند نصارى الاندلس

(٢) الفصيح هو الطفال بالضم و بالكسر وهو الطين اليابس

(٣) Jenechtéla

السكاكين ، والمقاصّ المذهبة ، وغير ذلك من آلات العروس والجنديّ ما يبهر العقل ، ومنها تجهز هذه الاصناف الى بلاد افريقية وغيرها ، ويصنع بها وبالمرية ومالقة الزجاج الغريب العجيب ، وفخّار مزجج مذهب ، ويصنع بالاندلس نوع من المفضض المعروف بالمشرق بالفسيفساء ، ونوع يبسط به فى قاعات ديارهم ، يعرف بالزليجى ، يشبه المفضّض . وهو ذو ألوان عجيبة ، يقيمونه مقام الرخام الملون ، الذى يصرفه أهل المشرق فى زخرفة بيوتهم ، كالشاذروان وما يجرى مجراه .

وأما آلات الحرب من التراس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر ، فأكثر همّ أهل الاندلس ، فيما حكى ابن سعيد ، كانت مصروفة الى هذا الشان ، ويصنع فيها فى بلاد الكفر ما يبهر العقول . قال : والسيوف البردليات مشهورة بالجودة ، وبرديل [1] آخر بلاد الاندلس من جهة الشمال والمشرق . والفولاذ الذى بأشبيلية اليه النهاية . وفى اشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره . وقد أفرد ابن غالب فى « فرحة الانس » للاثار الاولية التى بالاندلس من كتابه مكانا فقال : منها ما كان من جلبهم الماء من البحر الملح الى الأرحى [2] التى « بطركونة » على وزن لطيف ، وتدبير محكم ، حتى طحنت به ، وذلك من أعجب ماصنع . ومن ذلك ما صنعه الاولون أيضا من جلب الماء من البحر المحيط الى جزيرة قادس ، من العين

---

(١) برديل هى التى يقال لها اليوم بوردو Bordeaux التابعة لفرنسة كان اسمها الأصلى ايام الرومان بورديغاله Burdigala وكان لها شأن عظيم فى أيام الرومانيين وصارت الحاضرة العلمية لبلاد الغال . ثم عند ما زحف البرابرة من الشمال مثل الأليفيين Alains والسويفيين Suèves والفندال أخذ عمرانها يرجع الى الوراء وسنة ٤١٣ للمسيح استولى عليها القوط ثم أخذها منهم الفرنج لعهد كلوفيس وسنة ٧٢٩ شن العرب عليها الغارة وذهب دوق اكيتانية التى كانت برديل تابعة له مستصرخاً شارل مارتل الى ان جرت واقعة بلاط الشهداء التى محص فيها العرب وانقطع املهم من التوغل فى أوربة

(٢) تجمع الرحى على أرحٍ ورُحِيّ وارحاء ونادراً على ارحية

التي في اقليم الاصنام ، جلبوه في جوف البحر في الصخر المجوّف ، ذكراً في انثى ، وشقّوا به الجبال ، فاذا وصلوا به الى المواضع المنخفضة بنوا له قناطر على حنايا ، فاذا جاوزها واتصل بالارض المعتدلة رجعوا الى البنيان المذكور ، فاذا صادف مسبخة بنى له رصيف وأجرى عليه هكذا الى أن انتهى به الى البحر ، ثم دخل به في البحر وأُخرِج في جزيرة قادس ، والبنيان الذى دخل عليه الماء في البحر ظاهر بيّن . قال ابن سعيد : الى وقتنا هذا .

ومنها الرصيف المشهور بالاندلس ، قال في بعض أخبار رومية : انه لما ولى يوليش المعروف بجاشر ، وابتدأ بتذريع الارض وتكسيرها ، كان ابتداؤه بذلك من مدينة رومية ، الى المشرق منها والى المغرب ، والى الشمال والى الجنوب ، ثم بدأ بفرش البطالة ، وأقبل بها على وسط دائرة ، الى أن بلغ بها أرض الاندلس ، وركزها شرقي قرطبة ، ببابها المتطامن المعروف بباب عبد الجبار ، ثم ابتدأها من باب القنطرة قبليّ قرطبة ، الى شقندة ، الى استجة ، الى قرمونة ، الى البحر ، وأقام على كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه ، من مدينة رومية ، وذكر انه أراد تسقيفها في بعض الاماكن ، راحة للخاطرين [١] من وهج الصيف ، وهول الشتاء ، ثم توقع أن يكون ذلك فساداً في الارض ، وتغييرا للطرق ، عند انتشار اللصوص ، وأهل الشر فيها في المواضع المنقطعة النائية عن العمران ، فتركها على ما هي عليه .

وذكر في هذه الآثار صنم قادس الذى ليس له نظير إلا الصنم الذى بطرف جليقية . وذكر قنطره طليطلة ، وقنطرة السيف ، وقطرة ماردة ، وملعب مربيطر [٢]

(١) لم يرد في فصيح اللغة « الخاطر » بمعنى المسافر وانما هو من استعمال العوام وقد تابعهم فيه بعض المؤلفين

(٢) كان يقال لبلدة مربيطر في الماضي ساقنتو Saginto وهي مدينة ايبيرية استولى عليها القرطاجنيون في زمن انيبال الذى جاء بعد سدروبال ونازعهم عليها الرومانيون فجرت وقائع هائلة فاستولى القرطاجنيون على ساقنتو في أول الأمر الا أنها سنة ٢١٤ قبل المسيح آلت الى الرومانيين . والملعب العظيم الذى فيها هو من آثار هؤلاء .

قال ابن سعيد : وفي الاندلس عجائب . منها الشجرة التى لولا كثرة ذكر العامة لها بالاندلس ما ذكرتها ، فان خبرها عندهم شائع متواتر ، وقد رأيت من يشهد بخبرها ورؤيتها ، وهم جمّ غفير ، وهي شجرة زيتون ، تصنع الورق والنّوْر والثمر من يوم واحد معلوم عندهم ، من أيام السنة الشمسية (١) .

ومن العجائب : السارية التى بغرب الاندلس ، يزعم الجمهور أن أهل ذلك المكان إذا أحبوا المطر أقاموها ، فطر الله جهتهم ؟ ومنها صنم قادس ، طول ما كان قائما ، كان يمنع الريح أن تهب فى البحر المحيط ، فلا تستطيع المراكب الكبار على الجرى فيه ، فلما هدم فى أول دولة بنى عبد المؤمن ، صارت السفن تجرى فيه ؟ وبكورة « قبرة » مغارة ذكرها الرازى ، وحكي أنه يقال إنها باب من أبواب الريح ، لا يدرك لها قعر ؟ وذكر الرازى أن فى جهة قلعة « ورد » جبلا فيه شق فى صخرة ، داخل كهف ، فيه فأس حديد متعلق من الشق الذى فى الصخرة ، تراه العيون وتلمسه اليد ، ومن رام اخراجه لم يطق ذلك ، وإذا رفعته اليد ارتفع وغاب فى شق الصخرة ، ثم يعود إلى حالته (٢) . وأما ما أورده ابن بشكوال من الأحاديث والآثار فى شأن فضل الأندلس والمغرب ، فقد ذكرها ابن سعيد فى كتابه المغرب ، ولم أذكرها أنا . والله أعلم بحقيقة أمرها .

وكذلك ما ذكره ابن بشكوال من أن فتح القسطنطينية إنما يكون من قبَل الأندلس قال : وذكره سيف عن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، والله أعلم بصحة ذلك . ولعل المراد بالقسطنطينية رومية . والله أعلم . قال سيف : وذلك أن عثمان ندب جيشا من القيروان إلى لأندلس ، وكتب لهم : أما بعد ، فان فتح القسطنطينية إنما يكون من قبَل الأندلس ، فانكم إن فتحتموها ، كنتم الشركاء فى الأجر والسلام اه . قلت عهدة هذه الأمور على ناقلها ، وأنا برىء من

(١) لم نسمع بذكر شجرة كهذه فى عصرنا الحاضر

(٢) وهذا الفأس أيضاً لم نسمع بخبره فى هذا الزمن

عهدتها [١] ، وإن ذكرها ابن بشكوال وصاحب المغرب وغير واحد ، فانها عندى

(١) قلت : ان هذا الخبر أقرب جدا إلى العقل من خبر الزيتونة التى تورق وتثمر فى يوم واحد ، وكذلك من خبر الفأس الذى لايقدر أحد أن يرفعه من المغارة . . . بل الخبر المروى عن الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه عدا قربه للعقل له آثار ترجع إليه . وفى آخر كتابى « غزوات العرب فى أوروبة » الذى طبع سنة ١٣٥٢ فصل بقلم الأستاذ السيد عبد العزيز الثعالبي التونسى يتعلق بهذا الموضوع قال فى أوله ان أول واضع لخطة الفتوحات الاسلامية فى أوروبة هو الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه فانه حين ندب أخاه من الرضاع عبد الله بن سعد بن أبى سرح لفتح بلاد شمالى افريقية ووافته البشائر بفوز جيوشه على جيوش جيجير والى جيطلة من قبل البيزنطيين ندب القائدين البحريين الجليلين عبد الله بن عبد القيس وعبد الله ابن نافع بن الحصين الفهريين وكانا على الأسطول فأمرهما بالمسير إلى الأندلس وكتب لهما وصية سياسية فى ذلك تلك الوصية الخالدة التى يقول فيها : إن القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس وإنكم إن فتحتم ما أنتم بسبيله تكونون شركاء لمن يفتح القسطنطينية فى الأجر . وقد اتخذ ولاة شمالى افريقية وقواد أجنادها هذه الوصية نبراساً لسياستهم الاسلامية التى يسيرون عليها . وأول أمير شرع فى إعداد الوسائل والمعدات لتنفيذ تلك الوصة الامير حسان بن النعمان شيخ وزراء الدولة الأموية بعد أن دانله شمالى افريقية بالطاعة فقد أنشأ بفناء قرطاجنة دار الضاعة لبناء السفن والأساطيل وصنع الأسلحة وجلب لها الصناع من قبط مصر وسار على منهاجه فى ذلك مولاه طارق بن زياد بعد أن ولى المغرب فجاز بجيوشه أرض العدوة وناجز الأندلسيين سنة ٩٢ ثم تلاهما فى ذلك اسماعيل بن أبى المهاجر الذى تقلد إمارة شمالى افريقية فى عهد عمر بن عبد العزيز فأغزى أساطيله جنوبى أوروبة سنة ١٠٥ وكانت قيادتها لعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ولم يعد الا بعد أن أثخن فى ايطالية . وهذه الغزوة تعتبر كبشير لانقاذ الايطاليين من حكم البيزنطيين الطغاة . وفى ولاية عبيد الله بن الحبحاب لافريقية جهز أسطولا كبيراً جعل إمارته لقائد جيوشه الموفق حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة الفهرى فغزاها سنة ١٢٣ ونكل فيها بالبيزنطيين أشد تنكيل . ولو لم تحصل ثورة البربر ضد الحكم العربى بسبب تخميس أعشارهم لتملك شطوط إيطالية وطهرها من حكم البيزنطيين كما فعل ذلك من قبل حسان بن النعمان فى شمالى أفريقية . وفى سنة ٢٠٧

لا أصل لها ، وأى وقت بعث عثمان إلى الأندلس ؟ مع أن فتحها بالاتفاق إنما كان زمان الوليد ! و إنما ذكرت هذا للتنبيه عليه لا غير . والله أعلم .

قال ابن سعيد : وميزان وصف الأندلس ؛ أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار ،

بعد استقرار الدولة الأغلبية جهز زيادة الله الأكبر أسطولا بامارة قائده محمد بن عبد الله التميمى لمنازلة سردينية ثم أعاد عليها الكرة سنة ٢١٢ وكانت إمارة الجيوش فى هذه المرة لقاضى القضاة الامام أسد بن الفرات فملك «مازرة» وحاصر «سركوسة» وحول أسوارها وأدركت الامام الشهادة رضى الله عنه سنة ٢١٣ فتولى القيادة العامة صاحب اسطول الأندلس القائد أصبغ المعروف بفرغلوسن . و بعد أن استقرت الأمور فى البلاد المفتوحة قلد زيادة الله إمارة إيطالية لابن أخيه ابراهيم بن عبد الله بن الأغلب وما زال متواليا للجهاد حتى فتح بليرم ونابولى . إﻫ ومن شاء الاطلاع على تتمة البحث فليراجعه فى كتابنا « غزوات العرب فى أوربة » ولقد قابلت روايات الشيخ الثعالبى بالكتب المعتمدة فى التاريخ فلم أجد إلا ما يؤيدها قال أبو الفداء : فى أيام عثمان فتحت أفريقية وكان المتولى لذلك عبد الله بن سعد بن أبى سرح ولما فتحت أفريقية أمر عثمان عبد الله بن نافع بن الحصين أن يسير إلى جهة الأندلس فغزا تلك الجهة وعاد عبد الله بن نافع إلى افريقية ، وسنة ثمان وعشرين استأذن معاوية عثمان فى غزو البحر فسير معاوية إلى قبرص جيشا وسار إليها أيضا عبد الله بن سعد من مصر فاجتمعوا عليها وقاتلوا أهلها ثم صولحوا على جزية سبعة آلاف دينار فى كل سنة . وجاء فى تاريخ « البيان المغرب فى أخبار المغرب » لابن عذارى المراكشى خبر غزو معاوية ابن حديج لجزيرة صقلية فى مائتى مركب . ولم أجد شيئا فيه نظر من كلام الاستاذ الثعالبى إلا إهماله ذكر موسى بن نصير فى فتح الأندلس ، وجعله طارق بن زياد مولى لحسان بن النعمان ، والحال أن طارق كان مولى موسى بن نصير وهو الذى أغزاه الأندلس وأما قول المقرى فى النفح : وأى وقت بعث عثمان إلى الأندلس مع أن فتحها بالاتفاق إنما كان زمان الوليد . فليس بشىء لأن عثمان بن عفان رضى الله عنه أمرهم بأن يغزوا الأندلس وكانوا فى ذلك الوقت يحسبون جزائر غربى البحر المتوسط كلها من الأندلس فغزوها وأرادوا أن يعملوا بفكرة عثمان بغزو نفس الاندلس الكبيرة عند أول فرصة تلوح لهم فبقيت هذه الفكرة تتخمر فى رؤوس عمال الخلافة على أفريقية إلى زمن موسى بن نصير عامل الوليد الاموى فخرجت من القوة إلى الفعل

فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة ، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لاتكاد تنقطع من العمارة ، مابين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة [١] .
ومما اختصت به أن قراها فى نهاية من الجمال ، لتصنع أهلها فى أصناعها وتبييضها ، لئلا تنبو العيون عنها ، فهى كما قال الوزير بن الحمارة فيها :

لاحَتْ قُراها بَيْنَ خُضْرَةِ أَيْكِهَا كالدُّرِّ بَيْنَ زَبَرْجَدٍ مَكْنُونِ

ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التى تكدر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها . وفى الاندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة الممصرة من مثلها . والمثال فى ذلك أنك إذا توجهت من اشبيلية فملى مسيرة يوم وبعض آخر ، مدينة شريش ، وهى فى نهاية من الحضارة والنضارة ، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ، ثم مالقة . وهذا كثير فى الاندلس . ولهذا كثرت مدنها ، وأكثرها مسوّر من أجل الاستعداد للعدوّ ، فحصل لها بذلك التشييد والتزيين وفى حصونها ما يبقى فى محاربة العدو ماينيف على عشرين سنة ، لامتناع معاقلها ، ودربة أهلها على الحرب ، واعتيادهم لمجاورة العدو بالطعن والضرب ، وكثرة ماتتخزّن الغلة فى مطاميرها ، فمنها ما يطول صبره عليها نحوا من مائة سنة .

قال ابن سعيد : ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح الى الآن ، وان كان العدو قد نقصها من أطرافها ، وشارك فى أوساطها ، ففى البقية منعة عظيمة ، فأرض بقى فيها مثل اشبيلية ، وغرناطة ، ومالقة ، والمرّية ، وما ينضاف الى هذه الحواضر العظيمة الممصرة ، الرجاء قوى فيها بحول الله وقوته . انتهى . قلت قد خاب ذلك الرجاء [٢] ، وصارت تلك الارجاء للكفر مَعْرجا ، ونسأل الله تعالى ، الذى جعل

---

(١) يريد بقوله إن الصحارى فيها معدومة ، الأندلس القديمة ، أى الولايات الجنوبية من أسبانية. فاما شمال أسبانية ففيه صحراء شاسعة واسعة جاء فى دليل بديكر أن هذا البسيط المتوسط كان من جملة الصحارى لو لم يكن العرب أنشأوا له نظام رى جرّوا به المياه إليه لاحيائه ولا تزال بقايا آثارهم فى ذلك مدهشة للناظرين

(٢) نعم خاب ذلك الرجاء كما قال المقرى وبعد ان كان فى الاندلس خمسة عشر

للهم فرجا ، وللضيق مخرجا ، أن يعيد اليها كلمة الاسلام ، حتى يستنشق أهله منه فيها أرجا . آمين !

(ومن غرائب الاندلس) البيلتان [١] اللتان بطليطلة ، صنعهما عبد الرحمن ، لما سمع بخبر الطلسم الذى بمدينة أرين من أرض الهند . وقد ذكره المسعودى ، وانه يدور بأصبعه من طلوع الفجر الى غروب الشمس . فصنع هو هاتين البيلتين خارج طليطلة ، فى بيت مجوف ، فى جوف النهر الاعظم ، فى الموضع المعروف بباب الدباغين ومن عجبهما انهما يمتلئان وينحسران مع زيادة القمر ونقصانه ، وذلك ان أول انهلال الهلال يخرج فيهما يسير ماء ، فاذا أصبح ، كان فيهما سبعهما من الماء ، فاذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل فى الشهر سبعة أيام وسبع ليال ، فيكون فيهما نصفهما ، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع فى اليوم والليـلة ، حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر ، فاذا كان فى ليلة خمسة عشر ، وأخذ القمر فى النقصان ، نقصتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع . فاذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شيء من الماء . واذا تكلف أحد حين ينقصان أن يملأهما ، وجلب لهما الماء ، ابتلعتا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما إلا ما كان فيهما فى تلك الساعة . وكذا لو تكلف عند امتلائهما افراغهما ، ولم يبق منهما شيئا ، ثم رفع يده عنهما ، خرج فيهما من الماء ما يملأهما فى الحين . وهما أعجب من طلسم الهند ، لأن ذلك فى نقطة الاعتدال ، حيث لايزيد الليل على

مليون مسلم لم يبق منهم فيها الا خمسة عشر مغربياً فى جبل طارق يتعاطون البيع والشراء وبعد ان كان فيها خمسة عشر الف مسجد احدها مسجد قرطبة الذى يسع ثمانين الف مصل لم يبق فيها الا مسجد يسع ثلاثين مصلياً داخل دار بجبل طارق تخص حكومة المغرب صليت فيه يوم زرت الجبل المذكور (وتلك الأيام نداولها بين الناس)

(١) البيلة هى صهريج منحوت من رخام او حجر وكثيراً ما يذكر فى تواريخ المغرب ان فلانا صنع فى المسجد أو القصر بيلة أو بيلتين . وفى فاس بالمدرسة العنانية بدار الوضوء بيلة جلبها ابو عنان المرينى

النهار . وأما هاتان فليستا فى مكان الاعتدال ، ولم تزالا فى بيت واحد ، حتى ملك النصارى ، دمرهم الله ! طليطلة ، فأراد الفنش [١] أن يعلم حركاتهما ، فأمر أن تقلع الواحدة منهما لينظر من أين يأتى اليهما الماء ، وكيف الحركة فيهما ، فقلعت ، فبطلت حركتهما ، وذلك سنة ٥٢٨ .

وقيل ان سبب فسادهما حنين اليهودى الذى جلب حمام الاندلس كلها الى طليطلة فى يوم واحد ، وذلك سنة ٥٢٧ ، وهو الذى أعلم الفنش ان ولده سيدخل قرطبة و يملكها ، فأراد أن يكشف حركة البيلتين ، فقال له : أيها الملك ، أنا أقلعهما وأردهما أحسن مما كانتا ، وذلك انى اجعلهما تمتلئان بالنهار وتحسران فى الليل . فلما قلعت لم يقدر على ردها ، وقيل انه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت ، ولم تزل الاخرى تعطي حركتها . والله أعلم بحقيقة الحال .

وقال بعضهم فى أشبيلية : إنها قاعدة بلاد الاندلس ، وحاضرتها ، ومدينة الادب واللهو والطرب ، وعلى ضفة النهر الكبير ، عظيمة الشان ، طيبة المكان ، لها البر المديد والبحر الساكن ، والوادى العظيم ، وهى قريبة من البحر المحيط ، إلى أن قال : ولو لم يكن لها من الشرف الا موضع الشرف المقابل لها ، المطل عليها ، المشهور بالزيتون الكثير ، الممتد فراسخ فى فراسخ ، لكفى ، و بها منارة [٢] فى جامعها ، بناها يعقوب

---

(١) Alphonse وقد يقول له العرب الاذفنش

(٢) يقال لهذه المنارة عند الاسبانيول الخيرالده La Giralda وهى أعجوبة أشبيلية جاء فى دليل بديكر أن هذه المنارة كانت منارة الجامع الأعظم بناها المهندس العربى جابر ليعقوب بن يوسف سلطان الموحدين بين سنة ١١٨٤ للمسيح وسنة ١١٩٦ وقد وضع فيها بقايا أبنية قديمة لوجود كتابات رومانية لا تزال فى حيطانها وهى مبنية من الطوب كلما ازداد ارتفاعها تزداد ضيقا وهى فى الغاية والنهاية من تناسب الخطوط وقاعدتها مربع يبلغ ١٣ متراً و ٥٥ من جهة إلى جهة وسمك الحائط من مترين وثمانية إلى مترين وثلاثين ومن جهتها الشمالية يوجد تجويفان فيهما تصاوير ممحوة من رسم لويس بركاش Vargas . وعند ما يبلغ العلو ٢٥ متراً يصير السطح الاعلى

المنصور ، ليس فى بلاد الاسلام اعظم بناء منها . وعسل الشرف يبقى حينا لا يترمل ولا يتبدل ، وكذلك الزيت والتين . وقال ابن مفلح : ان أشبيلية عروس بلاد الاندلس لان تاجها الشرف ، وفى عنقها سمط النهر الاعظم ، وليس فى الارض أتم حسنا من هذا النهر ، يضاهى دجلة والفرات والنيل ، تسير القوارب فيه للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار ، وتغريد الاطيار ، أربعة وعشرين ميلا ، ويتعاطى الناس السرح من جانبيه عشرة فراسخ ، فى عمارة متصلة ، ومنارات مرتفعة ، وأبراج مشيدة ، وفيه من أنواع السمك مالا يحصى ، وبالجملة فهى قد حازت البر والبحر ، والزرع والضرع وكثرة الثمار من كل جنس ، وقصب السكر . ويجمع منها القرمز الذى هو أجل من اللك الهندى وزيتونها يخزن تحت الارض أكثر من ثلاثين سنة ، ثم يعتصر فيخرج منه أكثر مما يخرج منه وهو طرى . انتهى ملخصاً .

للجدران بجانب النوافذ مغطى بشبكات من الطوب ومزينا بمحاريب . وقد أفسد المنظر البديع الذى كان لهذه المنارة ماتوجوها به فى أيام العهد المسيحى فان قسيس الكنيسة العظمى قد أزال القمه المخرمة التى كانت تنتهى بها المنارة وجعل مكانها أبنية مربعة تنتهى بقبة عليها كتابة وصورة امرأة تمثل « الايمان » وكان هذا البناء الذى شوهوا به هذه المنارة سنة ١٥٦٨ وعلو « الخيرالدة » عن الارض ٩٣ مترا . اه .

هذا وقد صعدت إليها يوم زرت اشبيلية وهى من أبدع آثار العرب فى أسبانية وإليها يقصد السياح من أقطار الأرض ويسرح النظر من أعلاها فيما لا نهاية له . ولكنى لم أعلم من أين جاء اسمها هذا « الخيرالده » إلا إن كان محرفا عن « الخالده » ويعقوب المنصور سلطان الموحدين كان من أعظم ملوك الاسلام وأفخمهم آثاراً وله فى الرباط من العدوة جامع حسان الشهير كان قائماً على ٤٠٠ سارية محيط كل منها ١٤ شبراً وطولها أزيد من ٢٠ شبراً ومساحة الجامع ٢٦٥٩ متراً مربعاً وكانت له منارة علوها يزيد على ٦٠ متراً ومحيطها ٢٤٠ شبرا وكانت هذه المنارة أعجوبة من الأعاجيب وكانت أشبه شىء بمنار الاسكندرية ولا تزال ماثلة تشهد بعلو همة المنصور فليست منارة اشبيلية هى الفذة من آثاره الخالدة

ولما ذكر ابن اليسع الاندلس قال : لا يتزود فيها أحد ماحيث سلك ، لكثرة أنهارها وعيونها ، وربما لقى المسافر فيها فى اليوم الواحد أربع مدائن ، ومن المعاقل والقرى مالايحصى ، وهى بطاح خضر ، وقصور بيض . قال ابن سعيد : وانا أقول كلاماً فيه كفاية : منذ خرجت من جزيرة الاندلس ، وطفت في بر العدوة ،ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبته ، ثم طفت في أفريقية ، وما جاورها من المغرب الاوسط ، فرأيت بجاية وتونس ، ثم دخلت الديار المصرية ، فرأيت الاسكندرية والقاهرة والفسطاط . ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلبا وما بينهما لم أر ما يشبه رونق الاندلس فى مياهها وأشجارها ، إلا مدينة فاس بالمغرب الاقصى ومدينة دمشق بالشام . وفى حماة مسحة اندلسية . ولم أر ما يشبهها من حسن المبانى والتشييد والتصنيع إلا ما شيد بمراكش فى دولة بنى عبد المؤمن [1] ، و بعض أماكن فى تونس وان كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالاسكندرية ، ولكن الاسكندرية أفسح شوارع وأبسط وأبدع ، ومبانى حلب داخلة فيما يستحسن لأنها من حجارة صلبة ، وفى وضعها وترتيبها اتقان ، انتهى . ومن أحسن ماجاء من النظم فى الاندلس قول ابن سفر المرينى والاحسان له عادة :

فى أرض اندلسٍ تلتذ نعْمَاء ولا يفارق فيها القلبَ سَرَّاء

(١) من أحسن ما كتب عن مآثر البناء الباهرة فى المغرب كتاب اسمه « مراكش ومدن الصناعة الفنية التى منها طنجة وفاس ومكناس والرباط ومراكش فيه ٢٢٧ صورة لتلك الآثار الباهرة والمعالم الزاهرة مؤلفه ـ بيارشامبيون Peirre Champion Le Maroc et ses villes d' Art

والقارىء يجد فى هذا الكتاب من المناير التى أنشأها يعقوب المنصور فى المغرب مالا يقل حسنا و بداعة وفخامة عن منارة اشبيلية ويرى من مآثر المرينيين والسعديين والعائلة المالكة اليوم مالا تفى العبارات بأوصافه مهما ملك الكاتب من ناصية البيان . وقد قال الأخوان الكاتبان جيروم وجان تارو من مشاهير كتاب فرنسة : إن من لم يشاهد فى حياته مقبرة الملوك السعديين فى مراكش لم يدرك إلى أية درجة من الارتقاء بلغت المدنية الاسلامية »

وليس فى غيرها بالعَيْش مُنْتَفَعٌ ولا تقوم بحقّ الأنس صَهْبَاء
وأين يُعْدَلُ عن أرض، تحُضُّ بها على المدامة أمْواه وأفْيَاء ؟
وكيفَ لا يُبْهِجُ الابصارَ رؤيتُها وكل رَوْض بها فى الوَشْى صَنْعَاء ؟
أنهارُهَا فِضَّةٌ ، والمِسْكُ تُرْبَتُها والخَزُّ رَوْضَتُها والدُرُّ حَصْبَاء
وللهواء بها لُطفٌ يَرِقّ به مَنْ لا يرقّ وتبدُو مِنهُ أهواء
ليس النسيم الذى يَهْفو بها سَحَراً ولا انتثارَ لآلى الطّلّ أنداء
وإنما أَرَجُ النَدِّ استثارَ بها فى ماء وَرْدٍ فطابت منه أرجاء
وَأين يبلُغُ منها ما أُصَنِّفُهُ ؟ وَكَيفَ يحوى الذى حازَته إحصاء ؟
قد مُيِّزَت من جهات الأرض حين بدت فريدةً وتولّى مَيْزَها الماء
دارت عليها نطاقا أبحُرٌ خَفَقَتْ وَجْداً بها إذ تبدَّت وَهْيَ حَسناء
لذاكَ يَبسمُ فيها الزهرُ من طَرَبٍ والطيرُ يَشْدُو وللأغصانِ إصْغاء
فيها خَلَعتُ عِذَاري ما بهَا عِوَضٌ فهى الرّياضُ وكل الأرض صَحْراء

ولله در ابن خفاجة حيث يقول :

إن للجنة بالأندلُس مُجْتلى مَرْأى وريا نَفَس
فَسَنَى صُبْحَتها مِنْ شَنَب ودُجَى ظُلْمَتها مِنْ لَعَسِ
فاذا ماهَبَّت الريحُ صَباً صِحْتُ: وَاشَوْقى إلى الأندلس!

وقد تقدمت هذه الأبيات . قال ابن سعيد . قال ابن خفاجة هذه الأبيات وهو بالمغرب الأقصى ، فى بر العدوة ، ومنزله فى شرق الأندلس بجزيرة شقر . وقال ابن سعيد فى المغرب مانصه : قواعد من كتاب الشهب الثاقبة ، فى الانصاف بين المشارقة والمغاربة ، أول ما تقدّم الكلام على قاعدة السلطنة بالأندلس فنقول : إنها مع ما بأيدى عبّاد الصليب منها ، أعظم سلطنة ، كثرت ممالكها ، وتشعبت فى

وجوه الاستظهار للسلطان إعانتها ، وندع كلامنا في هذا الشأن وننقل ما قاله ابن حوقل النصيبي فى كتابه ، لما دخلها فى مدة خلافة بنى مروان بها ، فى المائة الرابعة ، وذلك أنه لما وصفها قال : وأما جزيرة الاندلس فجزيرة كبيرة ، طولها دون الشهر ، فى عرض نيّف وعشرين مرحلة ، تغلب عليها المياه الجارية ، والشجر والثمر ، والرخص والسعة فى الأحوال ، من الرقيق الفاخر ، والخصب الظاهر ، إلى أسباب التملك الفاشية فيها ، ولما هى به من أسباب رغد العيش ، وسعته وكثرته ، يملك ذلك منهم مهانهم ، وأرباب صنائعهم ، لقلة مؤنتهم ، وصلاح معاشهم و بلادهم . ثم أخذ فى عظم سلطانها ، ووصف وفور جباياته ، وعظم مرافقه ، وقال فى أثناء ذلك : ومما يدل بالقليل منه على كثيره ، أن سكة دار ضربه على الدراهم والدنانير ، دخلها فى كل سنة ، مائتا ألف دينار ، وصرف الدينار سبعة عشر درهماً ، هذا إلى صدقات البلد وجباياته ، وخراجاته وأعشاره ، وضماناته ، والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة ، وغير ذلك (١) .

وذكر ابن بشكوال أن جباية الأندلس بلغت فى مدة عبد الرحمن الناصر خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفا من السوق ، والمستخلص (٢) سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار (٣) ثم قال ابن حوقل : ومن أعجب ما فى هذه

---

(١) نقلنا فيما تقدم جميع ما ذكره ابن حوقل عن الاندلس

(٢) هو ما يقال له اليوم « الخزينة الخاصة » وكان لسان الدين بن الخطيب يقول « مستخلص السلطان »

(٣) قال لاوى بروفنسال فى كتابه « اسبانية المسلمة فى القرن العاشر » ما يلى :
« أما من جهة مجموع دخل الخزانة فى أيام خلافة بنى أمية بالأندلس لعهد الناصر فقد وردت بشأنه شهادة يزيد قيمتها صدورها عن رجل هو اميل إلى التنزيل من قدر الامويين منه إلى التعظيم من امرهم وهو ابن حوقل الذى أقام مدة بقرطبة وذلك فى النصف الثانى من القرن العاشر فهو يقول إن دخل خزانة الخلافة من أول تولى الناصر إلى سنة ٣٤٠ (٩٥١) بلغ عشرين مليون دينار ذهب وثلثمائة وأربعين مليون درهم

الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده ، مع صغر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، و بعدهم من البأس والشجاعة ، والفروسية والبسالة ، ولقاء الرجال ، ومراس الأنجاد والأبطال ، مع علم أمير المؤمنين بمحلها فى نفسها ، ومقدار جباياتها ، ومواقع نعمها ولذاتها . قال على بن سعيد مكمل هذا الكتاب : لم أر بدًّا من إثبات هذا الفصل ، و إن كان على أهل بلدى فيه من الظلم والتعصب ما لا يخفى ، ولسان الحال فى الرد أنطق من لسان البلاغة ، وليت شعرى إذ سلب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء ، والهمم والشجاعة ، فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم ، مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف ؟ ومن الذين حموها ببسالتهم من الأمم المتصلة بهم ، فى داخلها وخارجها ، نحو ثلاثة أشهر ، على كلمة واحدة ، فى نصرة الصليب و إنى لأعجب منه إذ كان فى زمان قد دلفت فيه عبّاد الصليب إلى الشام والجزيرة وعاثوا كل العيث فى بلاد الاسلام ، حيث الجمهور والقبة العظمى ، حتى إنهم دخلوا مدينة حلب ، وما أدراك ! وفعلوا فيها ما فعلوا ، و بلاد الاسلام متصلة بها من كل جهة ، إلى غير ذلك مما هو مسطور فى كتب التواريخ

ومن أعظم ذلك وأشده أنهم كانوا يتغلبون على الحصن من حصون الاسلام التى يتمكنون بها من بسائط بلادهم ، فيسبون و يأسرون ، فلا تجتمع همم الملوك المجاورة على حسم الداء فى ذلك ، وقد يستعين به بعضهم على بعض ، فيتمكن من ذلك الداء الذى لا يطب .

وقد كانت جزيرة الأندلس فى ذلك الزمان بالضد من البلاد التى ترك وراء ظهره ، وذلك موجود فى تاريخ ابن حيان وغيره . و إنما كانت الفتنة بعد ذلك .

من الفضة وهو مبلغ عظيم جداً بالنسبة إلى ذلك العصر . ولقد كان هذا الدخل مضاعفاً فى أيام الحكم المستنصر فبلغ إذ ذاك أربعين مليون دينار . اهـ وسنعود إلى هذا البحث عند الكلام على التاريخ

الاعلام بينة ، والطريق واضح (١) . فلنرجع إلى ما نحن بسبيله .

كانت سلطنة الأندلس فى صدر الفتح على ما تقدم من اختلاف الولاة عليها من سلاطين أفريقية ، واختلاف الولاة داع إلى الاضطراب ، وعدم تأثل الأحوال وتربية الضخامة فى الدولة (٢) : ولما صارت الأندلس لبنى أمية ، وتوارثوا ممالكها ، وانقاد اليهم كل أبي فيها ، وأطاعهم كل عصىّ ، عظمت الدولة بالأندلس ، وكبرت الهمم ، واستتبت الأحوال ، وترتبت القواعد . وكانوا صدرا من دولتهم يخطبون لأنفسهم بأبناء الخلائف . ثم خطبوا لأنفسهم بالخلافة ، وملكوا من بر العدوة

(١) هذا البحث قد تقدم عند نقلنا عن ابن حوقل وهو عبارة عن مناقشة بين مسلمى الشرق والغرب كل فريق منهما يعير الآخر ويتهمه بخذلان قومه وقد أوردنا حكمنا فى ذلك وقلنا إن الجميع فى هذا المرض سواء وانهم بعضهم ببعض أشبه من الماء بالماء ولا حول ولا قوه إلا بالله

(٢) أصاب الكاتب هنا المحز ، ومما لاجدال فيه ان تعاقب الولاة المستمر على القيروان وبالتالى تعاقب امراء الاندلس الذين كانوا يتولونها من قبلهم لا يكاد الواحد منهم يصل إلى قرطبة حتى يأتى الخبر بعزله قد كان الاصل الاصيل فى اضطراب حبل الادارة وفى وقوف الفتوحات العربية فى أوربة لأن الثبات والاطراد هما من اهم شروط النجاح . فلما صار الحكم إلى بنى أمية فى قرطبة واستقربها ملكهم وتوطد سلطانهم عظمت الدولة فى الاندلس ورسخت العزائم وسمت الهمم واستتبت القواعد كما قال . غير أن هناك ملاحظة لابد منها وهى أن الجهاد العربى فى أوربة أيام وحدة الخلافة كان وراءه الجيوش الجرارة تزحف من أقاصى خراسان إلى فارس إلى العراق إلى الشام إلى مصر إلى المغرب فلا ينقطع مددها ولا يكاد يحصى عددها . فلما انفصلت الأندلس عن الخلافة العباسية انفردت الأندلس بنفسها ولم يبق لها معول فى الجهاد الا على مسلمى الأندلس وحدهم وهؤلاء دائرتهم محدودة ومادتهم منحصرة وليسوا أكفاء بأنفسهم لامم النصرانية التى هى أمامهم كلجج البحر الاخضر . فمن بعد افتراق الأندلس عن الخلافة العباسية انقطع ما بينها وبين سائر بلاد الاسلام وأصبحت يتيمة غريبة مقطوعة الظهر الاما كان يرد عليها فى الاحايين من مجاهدين ومهاجرين من المغرب الاقصى دون سواه وشتان بين هذا المدد المحدود والمدد العام الذى كان ينظم ما بين الشرق والغرب

ما ضخمت به دولتهم ، وكانت قواعدهم إظهار الهيبة ، وتمكن الناموس من قلوب العالم ، ومراعاة أحوال الشرع فى كل الأمور ، وتعظيم العلماء ، والعمل بأقوالهم ، و إحضارهم فى مجالسهم ، واستشارتهم ، ولهم حكايات في تاريخ ابن حيان ، منها ما هو مذكور من توجه الحكم على خليفتهم ، أو على ابنه أو أحد حاشيته المختصين وأنهم كانوا فى نهاية من الانقياد إلى الحق ، لهم أو عليهم ، بذلك أنضبط لهم أمر الجزيرة .

ولما خرقوا هذا الناموس ، كان أول ما تهتك أمرهم ثم اضمحل [1]

وكانت ألقاب الأول منهم الأمراء أبناء الخلائف ، ثم الخلفاء أمراء المؤمنين .

---

(١) امراء بنى أمية فى قرطبة كانوا على وجه الاجمال على استقامة فى أمورهم ولم يخرج منهم من يجاهر بالفسق كما خرج من امراء بنى أمية فى دمشق . وكانوا فى الأندلس مذعنين للحق مقيمين لشعائر الاسلام متحلين بحلى التقوى ومجاهدين فى سبيل الله ولم يتهتك أمرهم بسبب فسق أو ظلم أو اهمال للحكم ، ولكن اراد الله أن يكون هشام بن الحكم المستنصر فسلا ضعيفاً لا يقدر على ادارة أمور المملكة بنفسه فاستبد بالامر الحاجب المنصور بن أبى عامر وحجر على الخليفة ولم يبق له شيئاً فاحفظ ذلك بنى أمية وأعوانهم وكثيراً من ابناء البيوتات العربية الذين غصوا بمكان العامريين ولم تتحمل نفوسهم هذا الاستئثار من هؤلاء بالدوله فصاروا قاعدين لهم كل مرصد حتى يثبوا عليهم ويعيدوا الأمر كما بدأ . وكان المنصور وابنه المظفر يعلمان ما يجيش فى صدور الاموية وبيوتات العرب من الحقد عليهم فأخذا باستعمال البربر وعولا عليهم واوقعا العداوة والبغضاء بين العرب والبربر وكان كل منهما من الحزم والتدبير بحيث استوسق له الامر فلما جاءت دولة شنجول ابن المنصور وكان فسلا فاسد التدبير تمكن الامويون من اسقاطه واشتعلت الفتنة التى أسالت الدماء جداول فى قرطبة ووقع بين العرب والبربر ما كان السبب فى صدع وحدة الدولة وظهور ملوك الطوائف واستئساد طواغيت لاسبانيول واسترجاعهم كثيراً من الحصون والمدن وباختصار رجع النصارى فى الأندلس فكرّوا على المسلمين وكانوا أوشكوا أن يقلعوهم من الاندلس تماماً لولا نصرة الدول المغربية كالمرابطين ثم الموحدين ثم بنى مرين الذين نسأوا فى اجل إسلام الاندلس نحواً من ثلاثمائة سنة بالاقل

إلى أن وقعت الفتنة بحسد بعضهم لبعض ، وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذى رتبت عليه [١] . فاستبدت ملوك الممالك الأندلسية ببلادها ، وسُمّوا بملوك الطوائف . وكان فيهم من خطب للخلفاء المروانيين ، و إن لم يبق لهم خلافة . ومنهم من خطب للخلفاء العباسيين المجمع على إمامتهم [٢] ، وصار ملوك الطوائف يتباهون فى أحوال الملك حتى فى الألقاب ، فآل أمرهم إلى أن تلقبوا بنعوت الخلفاء ، وترفّعوا إلى طبقات السلطنة العظمى ، وذلك بما فى جزيرتهم من أسباب الترفه والضخامة ، التى تتوزع على ملوك شتى فتكفيهم ، وتنهض بهم للمباهاة

ولأجل توثّبهم على النعوت العباسية قال ابن رشيق القيروانى :

مما يُزَهدنى فى أرضِ أندَلُس تَلْقِيبُ مُعتَضد فيها ومُعتَمد
ألقابُ مَمْلكةٍ فى غيرِ مَوضعِها كالهرِّ يَحْكى انتفاخاً صَوْلَةَ الأسَدِ

وكان عباد بن محمد بن عباد قد تلقب بالمعتضد ، واقتفى سيرة المعتضد العباسى أمير المؤمنين . وتلقب ابنه محمد بن عباد بالمعتمد . وكانت لبنى عباد مملكة اشبيلية ، ثم انضاف إليها غيرها . وكان خلفاء بنى أمية يظهرون للناس فى الأحيان على أبهة الخلافة ، ولهم قانون فى ذلك معروف إلى أن كانت الفتنة ، فاذدرت العيون ذلك الناموس ، واستخفّت به . وقد كان بنو حمّود من ولد ادريس العلوى ، الذين توثبوا على الخلافة فى أثناء الدولة المروانية بالأندلس ، يتعاظمون ، و يأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بنى العباس ، وكانوا إذا حضرهم منشد لمدح ، أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم ، يتكلم من وراء حجاب ، والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة . ولما حضر ابن مقانا الاشبونى أمام حاجب إدريس بن يحيى

---

(١) يشير إلى استئثار العامريين بالأمر وغلبتهم على الخلافة وما آل إليه ذلك من الفتنة التى بددت شمل الأمة وأظهرت ملوك الطوائف

(٢) مثل ابن مردنيش وغيره

الحمودى ، الذى خطب له بالخلافة فى مالقة ، وأنشده قصيدته المشهورة النونية التى منها قوله :

وكأنَّ الشمسَ لَمَّا أشرقَتْ فانثنَتْ عنها عيونُ الناظرينْ
وَجْهُ إدريسَ بنِ يَحْيى بنِ علِيّ بن حَمُّودَ أميرِ المؤمنينْ

وبلغ فيها إلى قوله :

انظُرونا نقتَبِسْ مِنْ نورِكُمْ إنّه مِنْ نورِ رَبِّ العالمينْ

رفع الخليفة الستر بنفسه وقال : انظر كيف شئت . وانبسط مع الشاعر وأحسن إليه . ولما جاء ملوك الطوائف صاروا يتبسطون للخاصة ،وكثير من العامة ، ويظهرون مداراة الجند وعوام البلاد ، وكان أكثرهم يحاضر العلماء والأدباء ، ويحب أن يشهر عنه ذلك عند مباديه فى الرياسة . ومذ وقعت الفتنة بالأندلس ، اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد على إمام الجماعة ، وصار فى كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرياسة ، كما يتوارث ملوكها الملك ، ومرنوا على ذلك ، فصعب ضبطهم إلى نظام واحد ، وتمكن العدو منهم بالتفرق ، وعداوة بعضهم لبعض ، بقبيح المنافسة والطمع إلى أن انقادوا إلى عبد المؤمن وبنيه ، وتلك القواعد فى رؤوسهم كامنة ، والثوار فى المعاقل تثور ، وتروم الكرّة ، إلى أن ثار ابن هود ، وتلقب بالمتوكل ، ووجد القلوب منحرفة عن دولة بر العدوة [1] ، مهيأة للاستبداد . فملكها بأيسر محاولة ، مع الجهل المفرط ، وضعف الرأى . وكان مع العامة كأنه صاحب شعوذة ، يمشى فى الأسواق ، ويضحك فى وجوههم ، ويبادرهم بالسؤال ، وجاء للناس منه مالم يعتادوه من سلطان ،

---

(١) عند ما ظهرت ملوك الطوائف وأخذ بعضهم يغزو بعضاً والعدو يستفيد من الغازى والمغزو ويهتبل كل غرة ، خاف المرابطون ومن بعدهم الموحدون أن يسقط الاسلام كله فى الأندلس ، فخفوا لنجدته وأجازوا إلى الجزيرة بالجيوش الجرارة واستولوا على أكثر ما كان بأيدى ملوك الطوائف . ولكن بعض هؤلاء كانوا يجاذبونهم الحبل مثل ابن هود مثلا وطالما استظهروا بالأسبانيول على دول بر العدوة ،

فأعجب ذلك سفهاء الناس وعامتهم العمياء ، وكان كما قيل :

أمورٌ يَضْحكُ السفهاءُ منها وَيبكى منْ عواقبها الحليمُ

فآل ذلك إلى تلف القواعد العظيمة ، وتملك الأمصار الجليلة ، وخروجها من يد الاسلام ، والضابط فيما يقال فى شأن أهل الأندلس فى السلطان ، أنهم إذا وجدوا فارساً يبرع الفرسان ، أو جواداً يبرع الأجواد ، تهافتوا فى نصرته ، ونصبوه ملكا من غير تدبير فى عاقبة الأمر ، الام يؤل ؟ و بعد أن يكون الملك فى مملكة قد توورثت وتدوولت ، ويكون فى تلك المملكة قائد من قوادها ، قد شهرت عنه وقائع فى العدو ، وظهر منه كرم نفس للأجناد ، ومراعاة ، قدموه ملكا فى حصن من الحصون ، ورفضوا عيالهم وأولادهم إن كان لهم ذلك بكرسي الملك ، ولم يزالوا فى جهاد وتلاف أنفس ، حتى يظفر صاحبهم بطلبته . وأهل المشرق أصوب رأيا منهم فى مراعاة نظام الملك ، والمحافظة على نصابه ، لئلا يدخل الخلل الذى يقضى باختلال القواعد ، وفساد التربية ، وحل الأوضاع ، ونحن نمثل فى ذلك بما شاهدناه .

لما كانت هذه الفتنة الأخيرة بالأندلس ، تمخضت عن رجل من حصن يقال له أرجونة ، و يعرف الرجل بابن الأحمر ، كان يكثر مغاورة العدو من حصنه ، وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة ، إلى أن طار اسمه فى الأندلس ، وآل ذلك إلى أن قدمه أهل حصنه على أنفسهم ، ثم نهض فملك قرطبة العظمى ، وملك اشبيلية ، وقتل ملكها الباجى ، وملك جيان ، أحصن بلد بالأندلس ، وأجلّه قدراً فى الامتناع ، وملك غرناطة ومالقة ، وسموه بأمير المسلمين . فهو الآن المشار إليه بالأندلس والمعتمد عليه

وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فانها كانت فى مدة بنى أمية مشتركة فى جماعة يعينهم صاحب الدولة للاعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير ، فيسمّيه بالحاجب ، وكانت هذه المراتب لضبطها

عندهم كالمتوارثة فى البيوت المعلومة [١] لذلك ، إلى أن كانت ملوك الطوائف ، فكان الملك منهم ، لعظم اسم الحاجب في الدولة المروانية ، وأنه كان نائباً عن خليفتهم يسمّى بالحاجب [٢] . ويرى أن هذه السمة أعظم ما تنوفس فيه وظفر به ، وهى موجودة فى أمداح شعرائهم وتواريخهم ، وصار اسم الوزارة عاماً لكل من يجالس الملوك ، ويختص بهم ، وصار الوزير الذى ينوب عن الملك ، يعرف بذى الوزارتين [٣] ، وأكثر ما يكون فاضلا فى علم الأدب ، وقد لا يكون كذلك ، بل عالما بأمور الملك خاصة .

وأما الكتابة فهى على ضربين ، أعلاهما كاتب الرسائل ، وله حظ فى القلوب والعيون عند أهل الأندلس ، وأشرف أسمائه الكاتب . وبهذه السمة يخصه من يعظمه فى رسالة . وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة ، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فان كان ناقصاً عن درجات الكمال ، لم ينفعه جاهه ، ولا مكانه من سلطانه ، من تسلط الألسن ، والطعن عليه وعلى صاحبه .

والكاتب الآخر كاتب الزمام [٤] ، هكذا يعرفون كاتب الجهبذة ، ولا يكون

---

(١) مثل بنى أبى عبده وبنى حدير وبنى شُهيد وبنى جَهْوَر وغيرهم مما سيأتى ذكره فى محله .

(٢) الحاجب فى زمن الحكم المستنصر كان فى يده جميع أمور المملكة ، ولذلك عند ما مات ووراءه ولد صغير هشام الثانى غلب الحاجب على الأمر ، وحجب الخليفة وأدى ذلك فيما بعد إلى الفتنة وسقوط الخلافة ، ولقد كان الناصر أبصر بالعواقب فأبقى المملكة بدون حجابة مدة ثلاثين سنة ووزع الأعمال بين وزرائه فراراً من حصر السلطة فى الحاجب

(٣) كان هذا اللقب من أوضاع بنى العباس ومعناه وزارة القلم ووزارة السيف وأول من لقب به فى الأندلس عبد الملك بن شهيد سنة ٣٢٧ فى دولة عبد الرحمن الناصر

(٤) ويقال له : صاحب الأشغال الخراجية ، وكانوا يقولون أحياناً لديوان المالية « ديوان الأزمة »

بالأندلس و برّ العدوة ، لانصرانياً ولا يهوديا البتة ، إذ هذا الشغل نبيه ، يحتاج إلى صاحبه عظماء الناس ووجوهُهم . وصاحب الأشغال الخراجية فى الأندلس أعظم من الوزير ، وأكثر اتباعاً وأصحابا ، وأجدى منفعة ، فاليه تميل الأعناق ، ونحوه تمدّ الأكفّ ، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار .

ومع هذا إن تأثلت حالته ، واغترّ بكثرة البناء والاكتساب ، نُـكب وصودر . وهذا راجع إلى تقلب الأحوال ، وكيفية السلطان

وأما خطة القضاء بالأندلس فهى أعظم الخطط عند الخاصة والعامة ، لتعلقها بأمور الدين ، وكون السلطان لو توجّه عليه حكم حضر بين يدى القاضى ، هذا وصفها في زمان بنى أمية ومن سلك مسلكهم ، ولا سبيل أن يتّسم بهذه السمة إلا من هو وال للحكم الشرعى فى مدينة جليلة ، و إنْ كانت صغيرة ، فلا يطلق على حاكمها إلاّ مسدّد خاصة ، وقاضى القضاة يقال له قاضى القضاة وقاضى الجماعة .

وأما خطة الشرطة بالأندلس فانها مضبوطة إلى الآن ، معروفة بهذه السمة ، و يعرف صاحبها في ألسُن العامة بصاحب المدينة ، وصاحب الليل ، و إذا كان عظيم القدر عند السلطان ، كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان ، وذلك قليل ، ولا يكون إلا في حضرة السلطان الأعظم . وهو الذى يحدّ على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه ، قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضى ، وكانت خطة القاضى أوقر وأتقى عندهم من ذلك .

وأما خطة الاحتساب فانها عندهم موضوعة فى أهل العلم والفِطَن ، وكأن صاحبها قاضٍ ، والعادة فيه أن يمشى بنفسه راكباً على الأسواق ، وأعوانه معه ، وميزانه الذى يزن به الخبز فى يد أحد الأعوان ، لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان ، للربع من الدرهم رغيف ، على وزن معلوم . وكذلك للثُّمن ، وفى ذلك من المصلحة أن يرسل المتاع الصبى الصغير ، أو الجارية الرعناء ، فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق ، فى معرفة الأوزان .

وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ، ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ماحد له المحتسب فى الورقة ، ولا يكاد تخفى خيانته ، فان المحتسب يدس عليه صبياً أو جارية يبتاع أحدهما منه ، ثم يختبر الوزن المحتسب ، فان وجد نقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس ، فلا تسأل عما يلقى ! و إن كثر ذلك منه ، ولم يتب بعد الضرب والتجريس فى الاسواق نفى من البلد . ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها و يتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه ، لانها عندهم تدخل في جميع المتاعات ، وتتفرع إلى ما يطول ذكره . وأما خطة الطواف بالليل وما يقابل من المغرب أصحاب أرباع فى المشرق ، فانهم يعرفون فى الاندلس بالدرابين، لان بلاد الأندلس لها دروب باغلاق تغلق بعد العتمة ، ولكل زقاق بائت فيه له سراج معلق، وكلب يسهر ، وسلاح معدّ وذلك لشطارة عامتها ، وكثرة شرهم ، واعيائهم فى أمور التلصص، إلى أن يظهروا على المبانى المشيدة ، و يفتحوا الاغلاق الصعبة ، و يقتلوا صاحب الدار ، خوف ان يقرّ عليهم ، أو يطالبهم بعد ذلك ، ولا تكاد في الأندلس تخلو من سماع : دار فلان دُخلت البارحة ، وفلان ذبحه اللصوص على فراشه . وهذا يرجع التكثير منه والتقليل إلى شدة الوالى ولينه ، ومع افراطه فى الشدة ، وكون سيفه يقطر دما ، فان ذلك لا يعدم وقد آل الحال عندهم إلى أن قتلوا على عنقود سرقه شخص من كرم ، وما أشبه ذلك ولم ينتهِ اللصوص .

وأما قواعد أهل الأندلس فى ديانتهم فانها تختلف بحسب الاوقات والنظر إلى السلاطين ، ولكن الاغلب عندهم اقامة الحدود ، و إنكار التهاون بتعطيلها ، وقيام العامة في ذلك و إنكاره ، ان تهاون فيه أصحاب السلطان ، وقد يلج السلطان فى شيء من ذلك ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ، ولا يعبئون بخيله ورجله ، حتى يخرجوه من بلدهم . وهذا كثير فى أخبارهم .

وأما الرجم بالحجر للقضاة والولاة للاعمال ، إذا لم يعدلوا ، فكل يوم . وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق فى الدورة التى تكسل عن الكدّ ، وتخرج الوجوه

للطلب فى الاسواق فمستقبحة عندهم الى النهاية . واذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب ، سبّوه وأهانوه ، فضلا عن أن يتصدقوا عليه ، فلا تجد بالاندلس سائلا إلا أن يكون صاحب عذر .

وأما حال أهل الاندلس فى فنون العلوم فتحقيق الانصاف فى شأنهم فى هذا الباب انهم احرص الناس على التميّز ، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميّز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يُرى فارغاً ، عالة على الناس ، لأن هذا عندهم فى نهاية القبح . والعالم عندهم معظّم من الخاصة والعامة ، يشار اليه ، ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس ، ويكرم فى جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك . ومع هذا فليس لأهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة ، فهم يقرأون لأن يعلموا ، لا لأن يأخذوا جاريا . فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه ، يحمله على أن يترك الشغل الذى يستفيد منه ، وينفق من عنده ، حتى يعلم ، وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء ، إلا الفلسفة والتنجيم ، فان لهما حظاً عظيما عند خواصهم ، ولا يتظاهرون بها خوف العامة ، فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة ، أو يشتغل بالتنجيم ، اطلعت عليه العامة اسم زنديق ، وقيّدت عليه أنفاسه ، فان زلّ فى شبهة رجموه بالحجارة ، أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرّبا لقلوب العامة . وكثيراً ما يأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشأن اذا وجدت ، وبذلك تقرّب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن ، على ماذكره الحجارى ، والله أعلم .

وقراءة القرآن [1] بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة ، وللفقه رونق ووجاهة

---

(١) ما رأيت فى التاريخ بلداً من بلدان الاسلام يعنى أهله بقراءة القرآن بوجوهها أكثر من الاندلس

ولامذهب لهم إلا مذهب مالك[١]، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب مايباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوى الهمم فى العلوم . وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى ان المسلمين كانوا يسمّون الامير العظيم منهم الذى يريدون تنويهه بالفقيه ، وهى الآن بالمغرب بمنزلة القاضى بالمشرق ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى فقيه ، لأنها عندهم أرفع السمات[٢] . وعلم الاصول عندهم متوسط الحال . والنحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة ، حتى أنهم فى هذا العصر فيه منهم كأصحاب عصر الخليل وسيبويه ، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة ، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه ، كمذاهب الفقه . وكل عالم فى أى علم لا يكون متمكنا من علم النحو ، بحيث لا تخفى عليه

---

(١) كان أهل الأندلس لأول الفتح على مذهب الامام الأوزاعى إمام أهل الشام الذين كانت لهم اليد الطولى فى فتح الأندلس ، وكانت الدولة الأموية تعول عليهم قبل الجميع ، وبقى الأندلسيون على مذهب الأوزاعى إلى زمن هشام بن عبد الرحمن الداخل ففى ذلك الوقت رحل زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمى المعروف بشبطون إلى الشرق ، وسمع من مالك كتابه الموطأ ورحل جماعة غير شبطون كقرعوس بن العباس وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبى هند ، وغيرهم ممن رحل إلى الحج ، فلما رجعوا إلى الأندلس وصفوا من فضل مالك ، وسعة علمه وجلالة قدره ، ما عظم به صيته بالأندلس وكان رائدهم فى ذلك شبطون ، وهو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس مكملا متقنا . وقيل إن الامام مالكا رضى الله عنه سأل بعض الحجاج الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس فوصفوا له سيرة الأمير هشام بن عبد الرحمن وأثنوا له عليه وكان مالك غير راض عن سيرة بنى العباس ولا سيما بعد أن فعل أبو جعفر المنصور بعلوية المدينة الافاعيل من الحبس والاهانة فقال الامام مالك للأندلسيين : نسأل الله أن يزين حرمنا بمثل ملككم . فوصل الخبر إلى الأمير هشام مع ما علم من جلالة مالك وورعه فحمل الناس على مذهبه ، وقد ذكرنا هذه القصة برواياتها فى حواشينا على كتاب محاسن المساعى فى مناقب الامام أبى عمرو الأوزاعى ، الذى طبعناه من ثلاث سنوات فمن شاء فليراجعها فى ذلك الكتاب .

(٢) لم يبرح هذا الاصطلاح فى المغرب إلى اليوم .

الدقائق ، فليس عندهم بمستحق للتمييز ، ولا سالم من الازدراء ، مع ان كلام أهل الاندلس الشائع فى الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشلوبينى أبى علىّ المشار اليه بعلم النحو فى عصرنا الذى غرّبت تصانيفه وشرّقت ، وهو يقرىء درسه ، لضحك بملء فيه ، من شدة التحريف الذي فى لسانه . والخاص منهم اذا تكلم بالاعراب وأخذ يجرى على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه [1] ، ولكن ذلك مراعى عندهم فى القراءات والمخاطبات فى الرسائل . وعلم الادب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ، ومستظرفات الحكايات ، أنبل علم عندهم ، وبه يتقرب من مجالس ملوكهم واعلامهم ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل . والشعر عندهم له حظ عظيم وللشعراء من ملوكهم وجاهة ، ولهم عليهم حظ ووظائف ، والمجيدون منهم ينشدون فى مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ، ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم ، إلاّ أن يختلّ الوقت ، ويغلب الجهل فى حين ما ، ولكن هذا الغالب . وإذا كان الشخص بالأندلس نحوياً أو شاعراً فإنه يعظُم فى نفسه لامحالة ، ويستخف ويظهر العُجْب ، عادة قد جبلوا عليها .

وأما زىّ أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم ، لاسيا فى شرق الأندلس ، فان أهل غربها لاتكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلاّ وهو بعمامة ، وقد تسامحوا بشرقها فى ذلك . ولقد رأيت عزيز بن خطاب ، أكبر عالم بمرسية حضرة السلطان فى ذلك الأوان ، وإليه الاشارة ، وقد خطب له بالملك فى تلك الجهة : وهو حاسر الرأس ، وشيبه قد غلب على سواد شعره .

وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة ، فى شرق منها أو فى غرب وابن هود الذى ملك الأندلس فى عصرنا ، رأيته فى جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة ، وكذلك ابن الأحمر الذى معظم الأندلس الآن فى يده ، وكثيراً

(١) ولا أظن هذا الاستثقال خاصاً بأهل الاندلس

ما يتزيا سلاطينهم وأجنادهم بزىّ النصارى المجاورين لهم(١)، فسلاحهم كسلاحهم،

(١) قال ابن خلدون رحمه الله فى مقدمته تحت عنوان « إن المغلوب مولع ابداً بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده » : ان النفس أبدا تعتقد الكمال فى من غلبها وانقادت إليه ، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى ، إنما هو لكمال الغالب ، فاذا غالطت بذلك واتصل لها ، حصل اعتقاداً ، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به ، وذلك هو الاقتداء . أو لما تراه ، والله اعلم ، من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس ، وإنما هو بما انتحله من العوائد والمذاهب ، تغالط أيضا بذلك عن الغلب ، وهذا راجع للاول . ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلاحه فى اتخاذها وأشكالها ، بل وفى سائر أحواله ، وأظهر ذلك فى الأبناء مع آبائهم ، كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً ؟

وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم . وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زى الحامية وجند السلطان فى الاكثر ، لأنهم الغالبون لهم ، حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ، ولها الغلب عليها ، فيسرى إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير كما هو فى الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة فانك تجدهم يتشبهون بهم فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم ، حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والأمر لله اه .

قلت وقد نظرنا هذا بأعيننا فى الأعصر الأخيرة عند ما ظهر غلب الغرب على الشرق بأسباب كثيرة ليس هنا موضع ذكرها فتهافت ولاة الأمور فى الشرق على تقليد الأوربيين لافى اتقان العلوم والصناعات وتنظيم أحوال الاجتماع وتسديد أمور الملك فقط ، مما هو واجب حتما ، بل تهافتوا على تقليدهم فى أزيائهم وملابسهم ومآكلهم ومشاربهم

وبدأ ذلك فى أيام السلطان محمود العثمانى . ولكن لم يبلغ فى وقت من الأوقات حب هذا الاقتداء ما بلغه فى هذا العصر ، لا سيما بعد الحروب العامة ، فما كادت تركية وإيران تسترجعان استقلالهما ، حتى بدأتا بالتشبه بالأوربيين فى الدقيق والجليل

وأقبيتهم فى الأشكرلاط وغيره كأقبيتهم ، وكذلك أعلامهم وسروجهم . ومحاربتهم بالتراس والرماح الطويلة للطعن ، ولا يعرفون الدبابيس ، ولا قسيّ العرب ، بل يعدّون قسي الافرنج للمحاصرات فى البلاد ، أو تكون للرجالة عند المصافقة للحرب ، وكثير ما تصبر الخيل عليهم أو تمهلهم لان يؤثروها .

ولا تجد فى خواص الأندلس وأكثر عوامهم من يمشى دون طيلسان ، إلاّ أنه لايضعه على رأسه منهم إلاّ الأشياخ المعظمون . وغفائر الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً وخضراً ، والصفر مخصوصة باليهود ، ولا سبيل ليهودى أن يتعمم البتة . والذؤابة لايرخيها إلاّ العالم ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وإنما يسدلونها من تحت الاذن اليسرى ، وهـذه الأوضاع التى بالمشرق فى العمائم لايعرفها أهل الأندلس ، وإن رأوا فى رأس مشرقي داخل إلى بلادهم شكلا منها أظهروا التعجب والاستظراف ، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها ، لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا إلاّ أوضاعهم . وكذلك فى تفصيل الثياب .

وأهل الأندلس أشدّ خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلاّ ما يقوته يومه ، فيطويه صائماً ،

والكلى والجزئى وأصدرت الحكومة التركية أوامرها بلبس القبعة حتما . ودقت مئات من الأعناق على مجرد الاعتراض عليها . وجعلت الأحرف اللاتينية مكان الاحرف العربية برغم ان كتابة التركية بالاحرف اللاتينية قد انحرفت بهذه اللغة عن لهجتها الاصلية ، واستبدلت بها لغة غير الاولى ، ولم يكتفوا بهـذا حتى أرادوا حمل الاتراك على طمس معالم كل قديم ، وتحدثوا بالغاء التاريخ التركى من أصله ، ومنعوا الالحان الشرقية وآلات الطرب الشرقى ، وتبدلوا بها الموسيقى الاوربية ، وكادوا ينتقلون الى منع المآكل الشرقية لو لم تكن الاذواق أصعب مراسا من غيرها ، وكل هذا من باب اقتداء المغلوب بالغالب ، مما أشار اليه امام علم الاجتماع ابن خلدون رحمه الله ، وليس فى الحقيقـة بضرورة من الضرورات ، ولقد ترقى اليابانيون ، وبلغوا مبالغ الاوربيين فى كل شىء ، وربما بذوهم ، ولم يزالوا يابانيـين فى اذواقهم وعاداتهم ، ومآخذهم ومتاركهم ، وكل شىء توارثوه عن آبائهم

و يبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها . وهم أهل احتياط وتدبير فى المعاش ، وحفظ لما فى أيديهم ، خوف ذل السؤال ، فلذلك قد ينسبون للبخل . ولهم مروآت على عادة بلادهم ، لو فطن لها حاتم لفضل دقائقها على عظائمه . ولقد اجتزت مع والدى على قرية من قراها ، وقد نال منا البرد والمطر أشد النيل ، فأوينا إليها وكنا على حال ترقب من السلطان ، وخلوّ من الرفاهية ، فنزلنا فى بيت شيخ من أهلها من غير معرفة متقدّمة فقال لنا : إن كان عندكم ما اشترى لكم فحماً تسخنون به ، فانى أمضي فى حوائجكم ، وأجعل عيالى يقومون بشأنكم ، فأعطيناه ما اشترى به فحما . فأضرم ناراً ، فجاء ابن له صغير ليصطلى ، فضربه ، فقال له والدى : لِمَ ضربته ؟ فقال : يتعلم استغنام أموال الناس ، والضجر للبرد من الصغر . ثم لما جاء النوم قال لابنه : اعط هذا الشاب كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه . فدفع كساءه إلىّ . ثم لما قمنا عند الصباح وجدت الصبى منتبهاً ، ويده فى الكساء ، فقلت ذلك لوالدى فقال : هذه مروآت أهل الأندلس ، وهذا احتياطهم أعطاك الكساء وفضلك على نفسه ، ثم أفكر فى أنك غريب ، لايعرف هل أنت ثقة أو لص ، فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه ، خوفا من انفصالك بها وهو نائم . وعلى هذا الشيء الحقير فقس الشيء الجليل .

انتهى كلام ابن سعيد فى المغرب باختصار يسير . ولله درّه ، فانه أبدع فى هذا الكتاب ما شاء ، وقسمه إلى أقسام ، منها كتاب وشى الطرس ، فى حلى جزيرة الاندلس . وهو ينقسم إلى أربعة كتب : الكتاب الأول : كتاب حلى العرس ، في حلى غرب الأندلس . الكتاب الثانى كتاب الشفاه اللعس ، فى حلى موسطة الاندلس . الكتاب الثالث : كتاب الأنس ، فى حلى شرق الأندلس . الكتاب الرابع كتاب لحظات المريب ، فى ذكر ما حماه من الأندلس عبّاد الصليب .

والقسم الثاني كتاب الألحان المسلية فى حلى جزيرة صقلية . وهو أيضاً ذو أنواع . والقسم الثالث : كتاب الغاية الاخيرة فى حلى الارض الكبيرة . وهو

أيضاً ذو أقسام . وصوّر رحمه الله تعالى أجزاء الأندلس فى كتاب وشى الطرس .
وقال أيضاً : إن كلا من شرق الأندلس وغربها ووسطها يقرب فى قدر المساحة بعضه من بعض ، وليس فيها جزء يجاوز طوله عشرة أيام ليصدق التثليث فى القسمة ، وهذا دون مابقى بأيدي النصارى . وقدّم رحمه الله كتاب حلى العرس ، فى حلى غرب الأندلس ، لكون قرطبة قطب الخلافة المروانية ، واشبيلية التى مافى الاندلس أجمل منها فيه . وقسمه إلى سبعة كتب ، كل كتاب منها يحتوى على مملكة منحازة عن الأخرى . الكتاب الأول : كتاب الحلة المذهبة ، فى حلى مملكة قرطبة . الكتاب الثانى : كتاب الذهبية الأصيلية ، فى حلى المملكة الاشبيلية . الكتاب الثالث : كتاب خدع المالقة ، فى حلى مملكة مالقة . الكتاب الرابع : كتاب الفردوس ، فى حلى مملكة بطليوس . الكتاب الخامس : كتاب الخلب ، فى حلى مملكة شلب . الكتاب السادس : كتاب الديباجة ، فى حلى مملكة باجة . الكتاب السابع : كتاب الرياض المصونة ، فى حلى مملكه اشبونة . وقد ذكر رحمه الله تعالى فى كل قسم ما يليق به ، وصوّر أجزاءه على ما ينبغى . فالله يجازيه خيراً ، والكلام فى الأندلس طويل عريض .

وقال بعض المؤرخين : طول الأندلس ثلاثون يوماً ، وعرضها تسعة أيام ، و يشقها أربعون نهراً كبارا ، و بها من العيون والحمامات والمعادن مالا يحصى ، و بها ثمانون مدينة من القواعد الكبار ، وأزيد من ثلثمائة من المتوسطة ، وفيها من الحصون والقرى والبروج مالا يحصى كثرة ، حتى قيل إن عدد القرى التى على نهر اشبيلية اثنا عشر الف قرية . وليس فى معمور الأرض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعا من يومه إلا بالأندلس .

ومن بركتها أن المسافر لا يسافر فيها فرسخين دون ماء أصلا . وحيثما سار فى الاقطار يجد الحوانيت فى الفلوات والصحارى والأودية ورؤس الجبال لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الأطعمة .

وذكر صاحب الجغرافيا أن جزيرة الأندلس مسيرة أربعين يوما طولا ، فى ثمانية عشر يوماً عرضاً ، وهو مخالف لما سبق . وقال ابن سيده : أخذت الأندلس فى عرض الاقليمين الخامس والسادس من البحر الشامى فى الجنوب ، إلى البحر المحيط فى الشمال ، وبها من الجبال سبعة وثمانون جبلا اه . ولبعضهم :

لله أندلسٌ وما جَمعت بها من كلِّ ما ضَمَّتْ لها الاهواء
فكأنما تلك الدِّيار كواكبٌ وكأنما تلك البِقاعُ سَماء
وبكل قُطْرٍ جَدْوَلٌ فى جَنَّةٍ ولِعَتْ به الأفيَاء والأنداء

وقال آخر :

حبَّذَا أندلسٌ من بَلَدٍ لم تزلْ تُنْتِجُ لى كلَّ سرور
طائرٌ شادٍ ، وظلٌّ وارفٌ ومياهٌ سائحاتٌ فى قُصُور

وقال آخر :

يا حُسْنَ أندلسٍ وما جَمَعَتْ لنا فيها من الاوطارِ والاوطانِ
تلك الجزيرةُ لستُ أنسَى حُسنها بتعاقُبِ الأحيانِ والازمان
نَسَجَ الربيعُ نَباتَها من سُنْدُسٍ موشيةٍ ببدائع الالوان
وغدا النسيمُ بها عليلاً هائماً بِرُبوعِها ، وتلاطم البحران
ياحُسْنَها والطَّلُّ ينثر فوقَها دُرَراً خلالَ الورد والريحان
وسواعدُ الانهار قد مُدَّت الى نُدَمَائها بشقائق النعمان
وتجاوبَتْ فيها شوادِى طَيرها والتفّت الاغصانُ بالاغصان
ما زُرْتُها إلا وحيَّانى بها حَدَقُ البهارِ وأنمُلُ السوْسان
من بعْدها ما أعجَبَتْنِىَ بلدةٌ مع ما حلَلْتُ به من البُلْدان

وحكى بعضهم ان بالجامع فى مدينة اقليش بلاطا فيه جوائز منشورة مربعة

مستوية الاطراف ، طول الجائزة منها مائة شبر وأحد عشر شبرا. وفى الاندلس جبل من شرب من مائه كثر عليه الاحتلام من غير ارادة ولا تفكر ، وفيها غير ذلك مما يطول ذكره . والله أعلم . انتهى .

ما قاله المسعودى فى مروج الذهب عن الاندلس

وصاحب الاندلس كان يدعى لذريق ، هذا كان اسم ملوك الاندلس ، وقد قيل انهم كانوا من الاسبان ، وهم أمة من ولد يافث ابن نوح ، واتصلت هنالك ، والاشهر عند من سكن الاندلس من المسلمين ان لذريق كان من ملوك الاندلس الجلالقة ، وهم نوع من الافرنجة ، وأخو لذريق الذى كان بالاندلس قتله [1] طارق مولى موسى بن نصير حين افتتح بلاد الاندلس ، ودخل الى مدينة طليطلة ، وكانت قصبة الاندلس ودار مملكتهم ، ويشقها نهر عظيم يدعى تاجُه ، يخرج من بلاد الجلالقة « والوسقيد [2] » وهى أمة عظيمة ، لهم ملوك ، وهم حرب لاهل الاندلس

---

(١) لا نعلم لماذا قال المسعودى إن أخا لذريق هو الذى قتله طارق بن زياد ، على حين أن الرواية المشهورة هى أن لذريق نفسه هو الذى قتل فى المعركة التى وقعت بين المسلمين والاسبانيول ، وبها انهار ملك القوط بالأندلس ، وقد جاء فى كتاب « أخبار مجموعة » الذى هو أول تاريخ للأندلس بعد أن انهزم لذريق ـ وفى أخبار مجموعة يقول رذريق ، وهى أقرب إلى الأصل ـ لم يدر أين وقع ، إلا أن المسلمين وجدوا فرسه الأبيض ، وكان عليه سرج له من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد ، ووجدوا حلة من ذهب مكللة بالدر والياقوت ، وقد ساخ الفرس فى الطين ، وفى السواخ وقع فيه وغرق العلج ، فلما أخرج رجله ثبت الخف فى الطين ، والله أعلم ما كان من أمره ، لم يسمع له خبر ، ولا وجد حياً ولا ميتاً . انتهى .

وقد جاء فى بعض تواريخ الأسبان أن لذريق لم يقتل فى المعركة ، وأنه فر إلى شمال اسبانية ، وبقى يقاتل المسلمين إلى أن مات ، ولكن الرواية الغالبة هى أن لذريق قتل فى المعركة .

(٢) هذه اللفظة محرفة بالنسخ ولا شك بأن مراد المسعودى ، بها أمة الباسك أو الباشكونس وكان يقال لهم قديماً Vascongados

كالجلالقة والافرنجة . و يصب هذا النهر فى البحر الرومى (١) وهو موصوف بانه من أنهار العالم ، وعليه على بعد من طليطلة قنطرة عظيمة تدعى قنطرة السيف ، بنتها الملوك السالفة ، وهى من البنيان المذكور والموصوف ، أعجب من قنطرة سنجة (٢) من الثغر الجزرى ، مما يلى سميساط من بلاد سرحة .

ومدينة طليطلة ذات منعة ، وعليها أسوار منيعة ، وأهلها بعد أن فتحت وصارت لبنى أمية قد كانوا عصوا على الامويين ، فأقامت مدة سنين ممتنعة ، لا سبيل للامويين اليها فلما كان بعد الخمس عشرة وثلثماية ، فتحها عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وعبد الرحمن هذا هو صاحب الاندلس فى هذا الوقت ، (٣) وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وقد كان غيّر كثيراً من بنيان هذه

---

(١) أخطأ المسعودى فى قوله أن نهر تاجه ينصب فى البحر الرومى ، والحقيقة أن مصبه فى المحيط الاطلانطيكى ، ولعله وقع منه سهو فحسب نهر تاجه هو نهر إبره الذى يمر بسرقسطة ، فان هذا ينصب فى البحر الرومى .

(٢) لعله أراد سنجار ، لأننا لا نعلم بلداً اسمه سنجة فى بلاد الجزيرة : وأما سنجار فهى منها وهى على نهر . ويوجد بلدة يقال لها سنجة ، والعجم تقول لها سنكة ولكنها ليست فى الثغر الجزرى ، بل فى خراسان ، ويقال لبلادها الغور . وقد كنا نقول لعل فى جملة « الثغر الجزرى » تصحيفاً ، وحقها أن تكون « الثغر الخزرى » نسبة إلى بحر الخزر ولكن ينفى ذلك قوله « مما يلى سميساط » ، والحال أن سميساط هى مدينة من الثغر الجزرى بالعجم . فأما بلاد « سرحة » فلم نجد لها ذكرا فى بلاد الجزيرة . وإنما يوجد سرحة فى اليمن : فالصحيح أنها سرجة بنقطة وهى بقرب سميساط ، على شاطىء الفرات كما ذكر ياقوت فى معجم البلدان .

(٣) أهم شىء فى التاريخ ، وهو الذى يقرب الوقائع الى الذهن ، ويجعل القارىء كأنه يراها بعينه ، هو أن يكون المؤرخ معاصراً للاشخاص الذين يصفهم ، وللوقائع التى يرويها ، لا سيما إذا كانوا من الرجال المشهورين فى التاريخ ، أو كانت الوقائع

المدينة حين افتتحها. وصارت دار مملكة الاندلس قرطبة الى هذا الوقت .

ومن قرطبة الى مدينة طليطلة نحو من سبع مراحل ، ومن قرطبة الى البحر مسيرة نحو من ثلاثة أيام . ولهم على بحر تونس من الساحل مدينة يقال لها اشبيلية .

و بلاد الاندلس مسيرة عمائرها ومدنها نحو من شهرين ، ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة . وتدعى بنو أمية الخلائف ، ولا يخاطبون بالخلفاء ، لأن الخلافة لا يستحقها عندهم إلا من كان مالكا للحرمين ، غير أنه يخاطب بأمير المؤمنين(١)

التي يتحدثون عنها من الحوادث التي اشتهر خبرها : فالمسعودى ، كابن حوقل ، كان معاصرا للخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر وهو يكتب تاريخه هذا سنة ٣٣٢ ، إلى بعد أن خرج ابن حوقل فى سياحته ، وبدأ بكتابه ، بسنة واحدة : والواقعة التى محص فيها المسلمون فى زمان عبد الرحمن فى بلاد الجلالقة عند مدينة سمورة ، وذكر المسعودى وقوعها سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ، وقتل فيها من المسلمين أربعون الفاً ، وقيل خمسون الفاً هذه نفسها جاء خبرها فى كتاب « أخبار مجموعة » ، ولكنه جعلها فى عام ستة وعشرين وثلثمائة ، ولم يذكر عدد شهداء المسلمين فيها ، وإنما قال انهم هزموا أقبح هزيمة واتبعهم العدو أياما يأسرونهم ويقتلونهم فى كل محلة فلم يكد ينجو منهم إلا قوم جمعوا أصحابهم على ألويتهم ، وتخلصوا إلى بلدانهم . ثم إن المسعودى يذكر أن الثغر بين المسلمين والأفرنج سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، كان طرطوشة ، على ساحل البحر الرومى ، ثم يذكر غارات المجوس على الأندلس .

ثم هناك نقطة ذات بال وهى أن من ملك الحرمين الشريفين يحق له أن يدعى الخلافة . وهى من النظريات التى كانت تدور فى ذلك العصر ، ولا تزال إلى يوم الناس هذا .

(١) ستعلم أن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر عاد فنادى بنفسه خليفة ، وأطلق عليه مسلمو الأندلس هذا اللقب ، وذلك بعد أن ضعف شأن الخلافة العباسية واستبد بهم الأعاجم ، وتصدعت وحدة المملكة العربية . فرأى عبد الرحمن نفسه جديرا بالخلافة ، ولم يكبر ذلك أحد ، لانه كان أعظم ملوك عصره فى عالمى الاسلام والنصرانية وسار على خطته ابنه الحكم الملقب بالمستنصر ، ولكن خلف من بعدهما خلف أضاعوا الخلافة ، وكان ذلك مبدأ ضياع الاندلس .

وقد كان عبد الرحمن بن معاوية ، أو هشام بن عبد الملك بن مروان سار إلى الأندلس في سنة تسع وثلاثين ومائة ، فملكها ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر . ثم هلك فملكها ابنه هشام بن عبد الرحمن سبع سنين . ثم ملكها ابنه الحكم بن هشام نحواً من عشرين سنة ، وولده ولاتها إلى اليوم ، على ما ذكرنا أن صاحبها عبد الرحمن ابن محمد . وولى عبد الرحمن فى هذا الوقت فتاه الحكم ، وكان أحسن الناس سيرة وأجملهم عدلا . وقد كان عبد الرحمن صاحب الاندلس فى هذا الوقت المقدم ذكره غزا سنة سبع وعشرين وثلثمائة فى أزيد من مائة الف فارس من الناس ، فنزل على دار مملكة الجلالقة ، وهى مدينة يقال لها سمورة ، عليها سبعة أسوار من عجيب البنيان ، قد أحكمتها الملوك السالفة ، بين الأسوار فصلان وخنادق ، ومياه واسعة ، فافتتح منها سورين ، ثم ان أهلها ثاروا على المسلمين ، فقتلوا منهم ، ممن أدرك الاحصاء ، وممن عرف ، أربعين ألفاً ، وقيل خمسين الفا . وكانت للجلالقة والوسكيد على المسلمين وآخر ما كان بأيدى المسلمين من مدن الاندلس وثغورها مما يلى الافرنجة مدينة أربونة ، خرجت عن ايدي المسلمين من مدائن الالس وثغورها سنة ثلاثين وثلثمائة ، مع غيرها مما كان فى أيديهم من المدن والحصون . وبقى ثغر المسلمين فى هذا الوقت ، وهو سنة ست وثلاثين وثلثمائة من شرقى الاندلس ، طرطوشة ، وعلى ساحل بحر الروم مما يلى طرطوشة آخذاً في الشمال « افراغة[1] » على نهر عظيم ، ثم لاردة . ثم بلغنى عن هذه الثغور أنها تلاقى الافرنجة وهى أضيق مواضع الاندلس . وقد كان قبل الثلثمائة ورد إلى الاندلس مراكب فى البحر فيها ألوف من الناس أغارت على سواحلهم ، زعم أهل الأندلس أنهم ناس من المجوس[2] ، تطرأ إليهم فى هذا البحر فى كل مائتين

(١) Fraguas ومن عادة العرب أن يجعلوا ألفاً قبل الاسم حتى لا يبدأوا بالساكن وقد قيل فى طرابلس اطرابلس وفى غرناطة اغرناطة وفى فراغه افراغه ولها نظائر .

(٢) هؤلاء هم النورمنديون وكانوا وقتئذ مجوساً

من السنين ، وأن وصولهم إلى بلادهم من خليج يعترض من بحر اوقيانوس ، وليس بالخليج الذى عليه المنارة النحاس . وأرى ، والله أعلم ، أن هذا الخليج متصل ببحر مانطش [١] ونيطش ، وأن هذه الأمة هم الروس الذين قدمنا ذكرهم فى ماسلف من هذا الكتاب ، إذ كان لايقطع هذه البحار المتصلة ببحر أوقيانوس غيرهم

قول القلقشندى فى صبح الأعشى عن الأندلس

قال فى الجزء الخامس تحت عنوان « المملكة السادسة من ممالك بلاد المغرب جزيرة الأندلس » قال فى تقويم البلدان : وجزيرة الأندلس على شكل مثلث : ركن جنوبىّ غربىّ ، وهناك جزيرة قادس ، وفم بحر الزقاق . وركن شرقىّ ، بين طرّكونة ، وبين برشلونة ، وهى فى جنوبيه ، وبالقرب من بلنسية وطرطوشة وجزيرة ميورقة . وركن شمالىّ بميلة إلى البحر المحيط ، حيث الطول عشر درجات ودقائق ، والعرض ثمان وأربعون . وهناك بالقرب من الركن المذكور مدينة شنتياقوه ، وهى على البحر المحيط فى شمالىّ الأندلس وغربيها . قال : والضلع الأول من الركن الجنوبي الغربى – وهو عند جزيرة قادس – إلى الركن الشرقى الذى عند ميورقة ، وهذا الضلع هو ساحل الأندلس الجنوبى الممتد على بحر الزقاق . والضلع الثانى من الركن الشرقى المذكور إلى الركن الشمالى الذى عند شنتياقوه . وهذا الضلع هو حد الأندلس الشمالى ، ويمتد على الجبل المعروف بجبل البرْت [٢] ، الحاجز بين الأندلس وبين أرض تعرف بالأرض الكبيرة . وعلى ساحل الأندلس الممتد على بحر برْدِيل . والضلع الثالث من الركن الشمالى المذكور إلى الركن الجنوبى المقدّم الذكر ، وهذا الضلع هو ساحل الأندلس الغربى الممتد على البحر المحيط .

(١) La Manche

(٢) وربما قال العرب « البرتات » وهى لفظة افرنجية معناها الأبواب وهذا الجبل هو البرانس أو البيرانة .

قال ابن سعيد : قال الحجاري : وطول الأندلس من جبل البرت الفاصل بين الأندلس والأرض الكبيرة ، وهو نهاية الأندلس الشرقية إلى اشبونة ، وهى فى نهاية الأندلس الغربية ، الف ميل . وعرض وسطه ، من بحر الزقاق إلى البحر المحيط ، عند طليطلة وجبل البرت ، ستة عشر يوماً . قال فى تقويم البلدان : وقد قيل : إن طوله غرباً وشرقاً من اشبونة ، وهى فى غرب الاندلس إلى أربونة ، وهى فى شرق الأندلس ، مسيرة ستين يوماً ، وقيل : شهر ونصف . وقيل : شهر . قال : وهو الأصح .

واعلم أن جبل البرت المقدّم ذكره متصل من بحر الزقاق إلى البحر المحيط ، وطوله أربعون ميلا ، وفيه أبواب فتحها الأوائل ، حتى صار للأندلس طريق فى البر من الأرض الكبيرة ، وقبل فتحها لم يكن للاندلس من الأرض الكبيرة طريق . وفى وسط الأندلس جبل ممتد من الشرق إلى الغرب ، يقال له جبل الشارة ، يقسمه بنصفين : نصف جنوبىّ ونصف شمالى اه . ثم ذكر القلقشندى أهم حواضر الأندلس وسنأثر عنه مانجده جديراً بالنقل ، وذلك عند وصولنا إليها .

ماقاله ابن العماد الحنبلى فى شذرات الذهب

فى سنة أربع وثمانين افتتح موسى بن نصير أوربة من المغرب ، وبلغ عدد السبي خمسين ألفاً . اه . سمى الأندلس أوربة ، من باب تسمية البعض باسم الكل .

وذكر فى حوادث سنة ٨٧ فتح سردانية من المغرب . وفى حوادث ٨٩ فتح جزيرتى ميورقة ومنورقة . وقال عن حوادث ٩٢ : فيها افتتح إقليم الاندلس على يد طارق مولى موسى بن نصير ، وتمم موسى فتحه فى ثلاث سنوات . وذكر فى حوادث سنة ١٧٢ موت صاحب الأندلس أبى المطرف عبد الرحمن بن معاوية بن الخليفة هشام بن عبد الملك الأموى الدمشقى المعروف بالداخل وقال إنه : فرَّ إلى المغرب عند زوال دولتهم ، فقامت معه اليمانية ، وحارب يوسف الفهرى ، متولى

الأندلس ، وهزمه ، وملك قرطبة فى يوم الأضحى سنة ثمان وثلاثين ومائة .
وامتدت أيامه ، وكان عالماً ، حسن السيرة ، وعاش اثنتين وستين سنة . وولى بعده ابنه هشام ، و بقيت الأندلس لعقبه إلى حدود الأر بعمائة الخ .

قول المقدسى فى جغرافيته الشهيرة المسماة

« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم »

ذكر المقدسى الأندلس فى جملة إقليم المغرب ، بدأ بافريقية ، أى مملكة تونس الحاضرة ، وتقدّم إلى المغرب الأوسط ، وكان يسمّى فى ذلك الوقت اقليم تاهرت ثم تقدم إلى سجلماسة ، وفاس ، والسوس الأقصى . ثم ذكر جزيرة صقلية ، و بعد أن عدد مدنها بدأ بالأندلس فقال : وأما الأندلس فنظيرها هيطل من جانب المشرق ، غير أنّا لم نقف على نواحيها فنكوّرها ، ولم ندخلها فنقسمها . ويقال انها الف ميل . وقال ابن خرداذبة : الأندلس أربعون مدينة ، يعني المشهور منها ، لأن أحداً لم يسبقنا إلى تفصيل الكور ، ووضع القصبات ، فبعض المدن التى ذكر هى قصبات ، على قياس مارتبنا .

وسألت بعض العقلاء منهم عن الرساتيق المحيطة بقرطبة ، والمنسوبة اليها والمدن فقال : انا نسمى الرستاق اقليما ، فالاقاليم المحيطة بقرطبة ثلاثة عشر مع مدنها ، فذكر « أرْجونة » « قَسْطَلّة » « شَوْذَر » « مارْتُشْ » « قَنَبانُش » « فجّ ابن لَقِيط » « بلاط مَرْوان » « حصن بُلْكونة » « الشنيدة » «وادى عبد الله » « قرسيس » « المائدة » « جيّان » ـ وعلى ما دل اخر الاسم هى ناحية مدنّها الجفر ـ « بَيَغُو » « مارتُش » « قانت » « غَرْناتة » « مَنْتيشة » « بَيّاسَة » وسائر مدن اندلس المذكورة « طُرْطُوشة » « بَلَنْسِيَة » « مُرْسِيَةٍ » « بَجّانَة » « مَالَقَة » « جزيرة جبل طارق » «شَذُونة» « إشْبِيلِيَة » « أُخْشُنُبَة » « مريّة » «شَنْتَرِين» « باجَة »

« لَبْلَة » « قَرْمُونة » « مَوْرُور » « إسْتِجَة » .

ثم عاد بعد قليل فذكر الاندلس بشيء من التفصيل فقال : قرطبة هي مصر الأندلس سمعت بعض العثمانية يقول : هي أجلُّ من بغداد . في صحراء يطل عليها جبل ، ولها مدينة جوّانيّة ، وربض الجامع في المدينة وأسواق . وأغلب الأسواق ودار السلطان في الربض . قدامها واد عظيم ، سطوحهم قراميد . الجامع من حجر وجير . وسواريه رخام . حواليه مياض .

وللمدينة خمسة ابواب : باب الحديد ، باب العطارين ، باب القنطرة ، باب اليهود ، عامر . وقد دلت الدلائل ، واتفقت الآراء على انه مصر جليل ، رفق طيب ، وان ثَمّ عدلا ، ونظراً ، وسياسة ، وطيبة ، ونعما ظاهرة ، وديناً ، وان ناحية الاندلس على سجية « هيطل »(٢) ابداً ثَم غزاة ، ابداً في جهاد ونفير(١) مع علم كثير ، وسلطان خطير ، وخصائص ، وتجارات ، وفوائد .

وحدثني بعض الاندلسيين انها ثلاثة عشر رستاقا على خمسة عشر ميلا « أرَجُونة » مسورة ، ليس لها بساتين وأشجار ، لكنها بلد الحبوب ، ولهم عيون ، ومزارعهم على المطر ، و « قَنْطَلّة » على ثلاثة عشر ميلا من أرجونة ، وهي في سهلة كثيرة الأشجار والزيتون والكرمات ، ومشاربهم من آبار ، ويسقون البساتين بالسواني . و « شَوْذَر » على ثمانية عشر ميلا من قرطبة ، وهي في سهلة كثيرة الزيتون جداً ، شربهم من أعين ، « مارْتُش » على خمسة عشر ميلا من قرطبة ، وهي جبليّة ، ليس لها غير الكرمات ، ولهم أعين . و « قَنْبَانُش » على خمسة عشر ميلا ، وهي سهلية ، ذات مزارع أكثرها بموضع يقال له « قَنْبَانِية » مشاربهم من آبار . و « فج ابن لقيط » على خمسة وعشرين ميلا في سهلة كثيرة المزارع ، شربهم من آبار . و « بلاَط مَرْوَان » على ثلاثين ميلا ، لها واد جرّار ، سهلية ، ذات مزارع . و « بُرْيَانَة » ذات

(١) هذا خلاف ما زعمه ابن حوقل . والصحيح في هذا المقام هو كلام المقدسي

(٢) يقال هيطل لبلاد ما وراء النهر : بخارى وسمرقند وما جاورهما

مزارع سهلية ، شربهم من آبار ، وفيها حصن من حجارة ، والربض حوله ، والجامع في الحصن ، والأسواق في الربض . وحصن « بُلكُونَة » كثير الزيتون والاشجار، والعيون ، مسوَّرة بحجارة ، شربهم من عين واحدة وآبار ، على أربعين ميلا من قرطبة ، و « الشنيدة » على جبل ، كثيرة الكروم والمزارع والعنب ، شربهم من أعين وآبار، على يومين من قرطبة ، المنزل فج ابن لقيط . و « وادى عبد الله » من نحو القبلة ، على أربعين ميلا من قرطبة . المنزل « وادى الرُّمَّان » سهلية ذات مزارع وأنهار وأشجار . و « قرسيس » على ستين ميلا من قرطبة ، سهلية كثيرة التين والأعناب والزيتون الكبير ، شربهم من أعين . و « جيَّان » على خمسين ميلا من قرطبة ، اسم الرستاق « أُوْلَبَة » ومدينة جيّان على جبل ، كثيرة الأعين ، قد خرب حصنها ، غير أنها منيعة بالجبل ، بها اثنتا عشرة عيناً ، ثلاث عليها أرحية ، تقوم بالأندلس ، ومن ثَم ميرة قرطبة وثمارها كثيرة ، وصِفْ ماشئت من طيبها ورُحبها ، فانها جنة الأندلس على ماحكي لى . ودل آخر الاسم على أنها ناحية بنيانُهم بالحجارة ، باردة كثيرة الرياح ، وبكورتها حرّ ، هى فى عداد النواحى قياساً على مارتبنا . ومدَّنها الجفر (١) ، على الجبل ، كثيرة الاودية والارحية ، على عشرة أميال من جيان ، كلها أشجار وثمار ، وزيتون وأعناب ، على واد تجمع الفواكه . و « بَيْغُو » وهى جبلية لها أودية تخر منها عيون تدير الأرحية ، كثيرة التوت والزيتون والتين . و « مارتش » مسورة على جبل ، شربهم من أعين ، كثيرة التين والزيتون والكروم . « قانت » مسورة فى قنبانية ، لا بساتين لها زاكية . و « غرناطة » على واد به منية ، طوله ثلاثة عشر ميلا للسلطان ، فيه من كل الثمار حسن عجيب ، سهلية كثيرة المزارع . قلت : وما المنية ؟ قال البستان (٢). « مَنْتِيشَة » مسورة على واد

---

(١) كذا ولم يظهر لنا مراد المؤلف هنا إلا أن يكون ثمة تحريف

(٢) تقدم لنا ذكر لفظة المنية وماذا كانوا يعنون بها ، وهذا نص يؤيد ما ذكرناه وهو أن المنية المتنزه أو البستان

كثيرة الزيتون والتين سهلية . و « ييّاسة » مسورة فى جبل ، بناؤهم طين ، وشربهم من أعين ، كثيرة التين والكرمات . قلت : هل بقى لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا . قلت : فاشبيلية و بجانة . . . وذكرت عدة من البلدان . قال : هذه نواح لها أقاليم ، كما تقول : القيروان وتاهرت وسجلماسة وهم يسمون الرستاق اقليما . فعلمت أنها كور على قياسنا ، وأنها إن لم تكن أجل من كور هيطل فليست بأقل منها

فيحصل القول ، وتثبت الدلائل ، على ان مثل المغرب كمثل المشرق ، كل واحد منهما جانبان : فكما ان المشرق خراسان وهيطل يفصل بينهما جيحون ، فكذلك المغرب والاندلس يفصل بينهما بحر الروم .

غير انا نعجز عن تكوير الاندلس ، فتركناها على الجملة ، ووصفنا كورة قرطبة لما كثر المخبرون عنها ، واتضح عندنا أمرها . وعرضت كتابى على شيخ من مشايخهم فقال : على هذا القياس يجب أن تكون الاندلس ثمانى عشرة كورة ، فعدّ بجّانة ، مالقة ، بلنسية ، تُدمير ، سَرَقوسَة (١) ، يابِسَة ، وادى الحجارة ، تُطيلَة ، وَشْقَة ، مدينة سالم ، طُليطُلة ، إشبيلية ، بَطَلْيوس ، باجة ، قرطبة ، شَذُونة ، الجزيرة الخضراء وسألت آخر فقال : صدق ، وزاد لِبيرَة ، خُشُنُبة . ويجوز أن يكون بعض هذه البلدان نواحي ، قياساً على يلاق وكشّ والصفانيان . والله أعلم بالصواب .

ثم ذكر المقدّسى جمل شؤون هذا الاقليم فقال : هو اقليم جليل كبير طويل يوجد فيه أكثر ما يوجد فى سائر الاقاليم ، مع الرخص ، كثير النخيل والزيتون ، به مواضع الحرّ ، ومعادن البرد ، كثير اليهود ، جيد الهواء والماء .

فأما الحر فانك تجده من مصر الى السوس الاقصى ، إلا فى مواضع ، فان بها جبلاً وبلداناً باردة ، والغالب على الاندلس البرد ، كثير المجذّمين ، والخصيان ، والثقلاء ، والبخلاء ، قليل القصّاص ، رُفَق ، يحبون العلم وأهله ، ويكثرون التجارات والتغرب .

---

(١) يعنى سرقسطة وهو أقرب إلى لفظ الاسبانيول بها

وأما المذاهب فعلى ثلاثة أقسام : أما فى الاندلس فمذهب مالك وقراءة نافع .
وهم يقولون : لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك . فان ظهروا على حنفىّ أو شافعىّ
نفوه ، وان عثروا على معتزلىّ أو شيعى ونحوهما ربما قتلوه . و بسائر المغرب الى مصر
لا يعرفون مذهب الشافعى (رحه) انما هو ابو حنيفة ومالك (رحمهما) . وكنت
يوماً أذاكر بعضهم فى مسألة فذكرت قول الشافعى (رحه) فقال : اسكت ! من هو
الشافعى ؟ انما كانا بحرين: ابو حنيفة لأهل المشرق، ومالك لأهل المغرب ، افنتركهما
ونشتغل بالساقية ؟ و رأيت أصحاب مالك (رحه) يبغضون الشافعى قالوا : أخذ العلم
عن مالك ثم خالفه .

وما رأيت فريقين أحسن اتفاقاً وأقل تعصباً منهم ، وسمعتهم يحكون عن
قدمائهم فى ذلك حكايات عجيبة ، حتى قالوا انه كان الحاكم سنة حنفىّ، وسنة مالكى .
قلت : وكيف وقع مذهب أبى حنيفة (رحه) اليكم ولم يكن على سابلتكم ؟ قالوا : لما
قدم وهب بن وهب من عند مالك (رحه) وقد حاز من العلوم والفقه ماحاز استنكف
أسد بن عبد الله أن يدرس عليه ، لجلالته وكبر نفسه ، فرحل إلى المدينة ليدرس
على مالك ، فوجده عليلا ، فلما طال مقامه عنده قال له : ارجع إلى ابن وهب فقد
أودعته علمى وكفيتكم به الرحلة ، فصعب ذلك على أسد ، وسأل : هل يعرف لمالك
نظير ؟ فقالوا : فتى بالكوفة يقال له محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة . قالوا : فرحل
اليه وأقبل عليه محمد اقبالا لم يقبله على أحد ، ورأى فهماً وحرصاً ، فزقّه الفقه زقاً ، فلما
علم أنه قد استقل و بلغ مراده فيه ، سيّبه إلى المغرب ، فلما دخلها اختلف اليه الفتيان ،
ورأوا فروعاً حيرتهم ، ودقائق أعجبتهم ، ومسائل ما طنت على أذن بن وهب وتخرج به
الخلق ، وفشا مذهب أبى حنيفة (رحه) بالمغرب قلت : فلم لم يفش بالأندلس ؟ قالوا
لم يكن بالاندلس أقل منه ههنا ، ولكن تناظر الفريقان يوماً بين يدى السلطان فقال
لهم : من أين كان أبوحنيفة ؟ قالوا : من الكوفة . فقال : مالك ؟ قالوا : من المدينة .
قال : عالم دار الهجرة يكفينا ؟ فأمر باخراج أصحاب أبى حنيفة . وقال : لا أحب أن

يكون فى عملى مذهبان . وسمعت هذه الحكايات من عدة من مشايخ الاندلس

والقسم الثالث مذاهب الفاطمىّ ، وهى على ثلاثة أقسام : أحدها ما قد اختلف فيه الأئمة مثل القنوت فى الفجر ، والجهر بالبسملة ، والوتر بركعة ، وما أشبه ذلك . والثانى الرجوع إلى ما كان عليه السلف ، مثل الاقامة مثنى التى ردّها بنو أميّة الى واحدة ، ومثل لبس البياض الذى ردّه بنو العباس إلى السواد ، والثالث ما تفرّد به مما لا يخالف الائمة ، و إن لم يعرف له قدمة ، مثل الحيعلة في الآذان ، وجعل أول الشهر يوماً يرى فيه الهلال ، وصلاة الكسوف بخمس ركعات وسجدتين فى كل ركعة وهذه مذاهب الشيعة ، ولهم تصانيف يدرسونها .

ونظرت فى كتاب « الدعائم » فاذا هم يوافقون المعتزلة فى أكثر الأصول و يقولون بمذهب الاسماعيلية . ولهم فيه سر لا يعلمونه ولا يأخذونه على كل أحد ، إلا من وثقوا به ، بعد أن يحلفوه و يعاهدوه . و إنما سموا باطنيّة لانهم يصرفون ظاهر القرآن إلى بواطن ، وتفاسير غريبة ، ومعان دقيقة . وهذه الأصول مذاهب الادريسية وغلبتهم بكورة السوس الاقصى ، وهى قريبة من مذاهب القرامطة .

وأهل المغرب والمشرق فى مذاهب الفاطمى على ثلاثة أقسام : منهم من أقرّ بها واعتقدها . ومنهم من كفر بها وأنكرها . ومنهم من جعلها فى اختلاف الأمة . وأكثر أهل اصقلية حنفيون . وقرأت فى كتاب صنّفه بعض مشايخ الكرّاميّة بنيسابور أن بالمغرب سبعمائة خانقاه لهم ، فقلت لا والله ولا واحدة !

وأما القراءات فى جميع الاقليم فقراءة نافع حسب الرسوم ، لا يشهد فى هذه الأقاليم الستة إلا معدّل ، وحضرنا يوماً[1] ملاكا فأمرنى أبو الطيب حمدان أن أكتب شهادتى ، فَهُنِّيت بذلك ، ولا يأخذون الميت إلا من الرأس أو الرجلين ، و يصلون كل ترويحة و يجلسون ، ولا يسلخون الأغنام إذا شووها ، و يدخلون

(١) الملاك : الزواج

الحامات بلا مآزر إلا القليل ، و بالمغرب رسومهم مصرية ، إلا أنهم قل ما يتطلسون وكثيراً ما يجعلون الرداء بطاقين ثم يطرحونه على ظهورهم مثل العباة ، أصحاب قلانس مصبّغة ، والبربر ببرانس سود ، وأهل الرساتيق باكسية ، والسوقة بمناديل ، والتجار يركبون أحمرة مصرية وبغالا ، وكل مصاحفهم ودفاترهم مكتوبة فى رقوق ، وأهل الاندلس أحذق الناس فى الوراقة ، خطوطهم مدورة ، و به تجارات تحمل من برقة ثياب الصوف والاكسية ، ومن اصقلية الثياب المقصورة الجيدة ، ومن افريقية الزيت والفستق ، والزعفران ، واللوز ، والبرقوق ، والمزاود ، والانطاع والقُرَب ، ومن فاس التمور ، وجميع ما ذكرنا ، ومن الاندلس بز كثير ، وخصائص وعجائب ، ومن خصائص الاقليم المرجان ، يخرج من جزيرة فى البحر اسم مدينتها مرسى الخرَز ، يدخل إليها فى طريق دقيق كالمهدية ، من بحرها يرتفع القرن ، وهو المرجان ، لا معدن له غيرها . وهى جبال فى البحر ، يخرجون إلى جمعه فى قوارب ، ومعهم صلبان من خشب قد لفوا عليها شيئاً من الكتان المحلول ، وربطوا فى كل صليب حبلين ، يأخذهما رجلان ، فيرميان بالصليب . و يدير النواتى القارب ، فيتعلق بالقرن ثم يجذبونه ، فمنهم من يخرج عشرة آلاف إلى عشرة دراهم . ثم يجلى في أسواقهم ، و يباع جزافا رخيصاً ، ولا اشراق له قبل جليه ولا لون . و بتطيلة سمّور كثير [1] .

و بالاندلس السَفَن [2] الذى يتخذ منه مقابض السيوف . و يقع اليهم من البحر المحيط عنبر كثير فى وقت من السنة ، ويرتفع من اصقلية نوشاذر كثير ابيض . وسمعت انه قد انقطع معدنه ، واستغنى عنه أهل مصر بدخان الحامات .

وأما الارطال فكانت بغدادية فى الاقليم كله ، إلا الذى يوزن به الفلفل ، فانه يشف على البغدادى بعشرة دراهم . والآن هو المستعمل فى أعمال الفاطمىّ بالمغرب كله . والمكاييل قفيز القيروان اثنان وثلاثون ثمناً ، والثمن ستة أمداد بمدّ النبىّ

(١) المشهور أنه بسرقسطة ولكن تطيلة هى من عملها

(٢) السفن محركة جلد أخش كجلود التماسيح يجعل على قوائم السيوف

صلى الله عليه وسلم . وقفيز الاندلس ستون رطلا ، والربع ثمانية عشر رطلا . وفنيقة نصف القفيز . ومكاييل الفاطمى الدوّار ، وهى التى تشفّ على ويبة مصر بشىء يسير قد ألجم رأسها بعارضة من حديد ، وأقيم عمود من قاعها الى العارضة فوقه حديد يدور على رأس الويبة ، فاذا اترعها أدار الحديد ، فمسحت فم الويبة ، وصح الكيل . وأرطاله رصاص على كل رطل اسم أمير المؤمنين ، فان اجتمعت أرطال بموضع واحد بسيط صبّها ، وطبع على كل رطل ، ولو كانت عشرة .

وأما نقوده فى جميع أعماله الى أقصى دمشق فالدينار ، يزلّ عن المثقال بحبة ، أعنى شعيرة ، والسكّة مدوَّرة الكتابة . وله ربع صغير يؤخذان بالعدد . والدرهم أيضا زالّ له نصف يسمونه القيراط ، وربع ، وثمن ، ونصف ثمن ، يسمونه الخرنوبة ، يؤخذ الجميع بالعدد . ولا يرخصون فى المعاملة بالقطع ، وسنجهم[1] من زجاج مطبوع ، كما ذكرنا من الارطال . ورطل مدينة تونس اثنتا عشرة أوقية ، والوقية اثنا عشر درهماً .

والعجائب بهذا الاقليم كثيرة ، منها ابو قلمون ، وهى دابة تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبرها ، وهو فى لين الخز ، لونه لون الذهب ، لايغادر منه شيئاً ، وهو عزيز الوجود ، فيجمع وينسج منه ثياب تتلوّن فى اليوم ألواناً ، ويمنع السلطان من حمل ذلك الى البلدان ، إلا ما يخفى عنهم ، ربما بلغ الثوب عشرة آلاف دينار .

بأصقليةّ جبل تفور منه النار أربعة أشهر ، فى كل عشر سنين مرة ، وسائر الاوقات يدخن ، وحوله ثلوج متلبدة ، إلا موضع الدخان .

بمدينة « إيكجِا » عيون تخرج أوقات الصلاة ثم تغور . فان قصدها رجل كان قد قتل نفساً بغير حق لم يخرج له شىء .

فان قال قائل : إنك تركت كثيراً من العجائب فى هذا الاقليم لم تذكرها . قيل له : إنما تركنا ماذكره من قبلنا فى تصانيفهم . ومن مفاخر كتابنا الاعراض

(١) جمع سنجة وهى ما يوزن به كالأوقية والرطل

عما ذكره غيرنا . وأوحش شيء فى كتبهم ضد ماذكرنا . ألا ترى أنك إذا نظرت فى كتاب الجيهانى وجدته قد احتوى على جميع أصل ابن خرداذبه ، و بناه عليه ، و إذا نظرت فى كتاب ابن الفقيه ، فكأنما أنت ناظر فى كتاب الجاحظ والزيج الأعظم ، و إذا نظرت فى كتابنا وجدته يسبّح وحده يتيما فى نظمه . ولووجدنا رخصة فى ترك جمع هذا الأصل ما اشتغلنا به ، ولكن لما بلّغنا الله تعالى أقاصى الاسلام ، وأرانا أسبابه ، وألهمنا قسمته ، وجب أن ننهى ذلك إلى كافة المسلمين . ألا ترى إلى قوله تعالى : (قل سيروا فى الأرض) (أفلَم يسيروا فى الأرض فينظروا) وفيما نذكرعبرة لمن اعتبر وقوائد لمن سافر .

مما قاله عن الاندلس لسان الدين بن الخطيب

وقال لسان الدين بن الخطيب السلمانى عن مملكة غرناطة ، وقوله هذا فى الاحوال الاجتماعية يصدق على جميع الأندلس : أحوال أهل هذا القطر فى الدين ، وصلاح العقائد أحوال سنة ، والنحل فيهم معروفة ، فمذاهبهم على مذهب مالك بن أنس إمام دار الهجرة جارية . وطاعتهم للأمراء محكمة . وأخلاقهم فى احتمال المعاون الجبائية جميلة . وصورهم حسنة . وأنوفهم معتدلة غير حادة . وشعورهم سود مرسلة . وقدودهم متوسطة معتدلة ، إلى القصر . وألوانهم زهر مشربة بحمرة . وألسنتهم فصيحة عربية يتخللها أعراب كثير ، وتغلب عليهم الامالة [1] وأخلاقهم أبيّة فى معانى المنازعات . وأنسابهم عربية ، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير . ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشى بينهم الملف المصبوغ شتاء ، وتتفاضل أجناس البز بتفاضل الجدة والمقدار والكتان والحرير والقطن والموعر والاردية الافريقية والمقاطع التونسية والمآزر المشقوقة صيفا ، فتبصرهم فى المساجد أيام الجمع كأنهم الازهار المفتّحة فى البطاح الكريمة ، تحت

(١) عرب الأندلس كانوا يتكلمون بالأمالة ، وسنأتى بأمثال من ذلك عند الوصول إلى هذا الموضوع

الاهوية المعتدلة . أنسابهم حسبما يظهر من الاشتراءات والبياعات السلطانية والاجازات عربية يكثر فيها القرشى [١] . والفهري [٢] . والأموى [٣] . والانصارى [٤] . والاوسى [٥] . والخزرجى [٦] . والقحطانى [٧] . والحميرى [٨] . والمخزومى [٩] .

---

(١) قرشه : جمعه من ههنا وههنا وضم بعضه إلى بعض . قال الفراء : ومنه قريش القبيلة وأبوهم النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر فكل من كان من ولد النضر فهو قرشى دون ولد كنانة ومن فوقه كذا فى الصحاح . قال الزبيدى فى تاج العروس : قلت وعند أئمة النسب كل من لم يلده فهر فليس بقرشى ، قاله ابن الكلبى ، وهو المرجوع إليه فى هذا الشان . وقيل سميت قريش بهذا الاسم حين غلب عليها قصى ابن كلاب ، وكان يقال : تقرّش القوم إذا اجتمعوا ، وكان قصى يسمى مجمعاً لجمعه قريش بالرحلتين ، وقيل لأنهم كانوا يتقرشون البياعات فيشترونها ، أو لأن النضر بن كنانه اجتمع فى ثوبه يوما فقالوا تقرش . أو لأنه جاء إلى قومه يوما فقالوا كأنه جمل قريش أى شديد . أو سموا قريش بمصغر القرش ، وهى دابة بحرية سيدة دواب البحر وكذلك قريش سادات الناس جاهلية واسلاما ، وقيل سموا بذلك لأنهم كانوا أهل تجاره ، لا أصحاب زرع وضرع ، من قولهم فلان يتقرش المال ، والنسبة إلى قريش قرشى ونادرا يقال قريشى

(٢) هو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة وقريش كلهم ينسبون إليه

(٣) نسبة إلى بنى أمية ، وهما اميتان الأكبر والأصغر ابنا عبد شمس بن عبد مناف من قريش ، والنسبة اليهم أموى بضم ففتح وأموى بالتحريك على التخفيف

(٤) نسبة إلى أنصار الرسول عليه السلام

(٥) نسبة إلى الأوس وهو أوس بن قيلة أخو الخزرج

(٦) نسبة إلى الخزرج وكان الخزرج والأوس أخوين ، وهما ابنا قيلة ، وهى أمهما ، وأبوهما حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد من عرب اليمن

(٧) نسبة إلى قحطان أبو عرب اليمن ، وقالوا فى نسبه قحطان بن عابر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام

(٨) نسبة إلى حمير وهو ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان

(٩) نسبة إلى مخزوم وهو ابن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب وأولاده

والتنوخي (١) . والغساني (٢) . والازدي (٣) . والقيسي (٤) . والمافري (٥) .
والكناني (٦) . والتيمي (٧) . والهذلي (٨) . والبكري (٩) . والكلابي (١٠) . والنمري (١١) .

حي من قريش ومخزوم أيضاً قبيلة من عبس وهو بن مالك بن غالب بن قطيعة ابن عبس

(١) نسبة إلى تنوخ كصبور قبيلة من اليمن ، قيل إنهم عدة قبائل اجتمعوا وتحالفوا وقيل تنوخ ونمر وكلب ثلاثتهم إخوة

(٢) نسبة إلى غسان كشداد وهو ماء نزل عليه قوم من الأزد بين رمع وزبيد من اليمن ، فسموا به وهم بنو مازن بن الأزد بن الغوث من عرب اليمن

(٣) نسبة الى الأزد وهو الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان بن سبأ ، ويقال أزد شنوءة وأزد عمان وأزد السراة واستدرك الزبيدي على صاحب القاموس أزد بن عمران بن عمرو بن عامر ، وقالوا ان الأزد افترقوا على سبع وعشرين قبيلة

(٤) نسبة إلى قيس عيلان وهو أخو الياس الذي هو خندف ، وكلاهما ولد مضر وقد غلب هذا الاسم على العرب العدنانية ، فالناس يقولون قيس ويمن

(٥) نسبة إلى معافر حي من همدان من عرب اليمن

(٦) نسبة إلى كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر وهم خمس قبائل بنو عبد مناة بن كنانة ، وبنو عمرو بن كنانة ، وبنو عامر بن كنانة ، وبنو ملكان ابن كنانة ، وبنو مالك بن كنانة ، ثم بنو كنانة قبيلة أخرى في تغلب بن وائل ، وقبيلة من كلب منهم خلف بن حامد الكناني من قضاة الأندلس

(٧) تميم كأمير ابن مر بن أد بن طابخة أبو قبيلة من مضر مشهورة

(٨) هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر حي من مضر

(٩) نسبة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه أو إلى بني بكر بن عبد مناة بن كنانة ابن خزيمة أو إلى بكر بن عوف بن النخع أو الى بكر بن وائل بن قاسط بن هنب أو إلى بكر بطن من عذرة

(١٠) كلاب في قريش هو ابن مرة وفي هوازن ابن ربيعة بن صعصعة

(١١) النمر ككتف بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة ، والنسبة اليه نمري بفتح الميم ، والحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر المالكي الأندلسي هو نمري

واليعمرى (١) . والمازنى (٢) . والثقفى (٣) . والسلمى (٤) . والفزارى (٥)
والباهلى (٦) . والعبسى (٧) . والعنسى (٨) . والعذرى (٩) .

---

(١) يعمر بطن من كنانة وربما كان هذا اللفظ هو اليعفرى، لا اليعمرى ، وذلك لأننا نقلنا كلام لسان الدين بن الخطيب عن الاحاطة طبعة مصر ، وهى طبعة مشحونة غلطا وتصحيفا وتحريفا . وقد رددنا كثيراً من ألفاظها إلى الأصل بالقرينة والاستدلال فان كان هذا اللفظ هو اليعمرى ، فيوجد فى العرب قبيلة اسمها يعمر جاء ذكرها فى تاج العروس ، إلا أنه لم ينسبها ولكن السويدى ذكر أنها من كنانة . وإن كان هو اليعفرى فبنو يعفر هم بطن من حمير ويقال لهم الأوزاع

(٢) مازن بن مالك بن عمرو بن تميم وهم حى مشهور منهم أبو عثمان المازنى النحوى وبنو مازن أيضا من الخزرج ، وبنو مازن بن منصور بن عكرمة من قيس عيلان . وبلادهم الطائف وجبالها

(٣) ثقيف كأمير أبو قبيلة من هوازن واسمه قسىء بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان

(٤) نسبة إلى سليم كزبير وهو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة من قيس عيلان ، وهم قبيلة كبيره منتشرة فى الشرق والغرب ، ومنهم أكثر عرب برقة

(٥) فزارة بلالام ابن ذبيان بن غضيب بن ريث بن غطفان ، أبو قبيلة من غطفان منهم بنو العشراء وبنو غراب وبنو شمخ

(٦) نسبة إلى باهلة قبيلة من قيس عيلان ، وباهلة اسم امرأة من همدان كانت تحت معن بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان فنسب ولده اليها

(٧) نسبة إلى عبس اسم أصله الصفة وهو عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس . وهم رهط الحطيئة الشاعر وعروة بن الورد وإليهم ينسب عنترة بن شداد ، وفى بنى هلال أحياء ينسبون إلى عبس

(٧) العنس بسكون النون بطن من كهلان وإليهم ينسب الأسود العنسى الذى كان فى اليمامة وارتد هو ومسيلمة الكذاب

(٩) عذرة بلالام قبيلة فى اليمن وهم بنو عذرة بن سعد هذيم بن سعد بن ليث ابن سود بن أسلم بن ألحاف بن قضاعه واخوته الحارث ومعاوية ووائل وصعب بنو سعد هذيم بطون كلهم عذرة وأمهم عائذ بنت مر بن أد ، وكذلك منهم سلامان

والحجبي[(١)] والضبي[(٢)] والسكونى[(٣)]. والتيمى[(٤)]. والعبشمى[(٥)]. والمرى[(٦)]. والعقيلى[(٧)]

ابن سعد فى عذرة أيضا كذا قاله ابن عبيد وهم مشهورون فى العشق والعفة حتى ضرب المثل بالهوى العذرى ومنهم جميل بن عبد الله بن معمر صاحب بثينة، ومنهم عروة بن حزام صاحب عفراء

(١) جاء فى تاج العروس : والحجبيون محركة بنو شيبة لتوليهم حجابة البيت الشريف

(٢) ضبة ابن أد عم تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر وأبناء ضبة ثلاثة سعد، وسعيد، مصغرا، وباسل. فسعيد وباسل لاعقب لهما فانحصر جماع ضبة فى سعد بن ضبة وهم جمرة من جمرات العرب

(٣) السكون كصبور حى من العرب، وهو ابن أشرس بن ثور بن كندة

(٤) فى قريش تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، ومن تيم هؤلاء اثنان من العشرة المبشرين بالجنة، أبو بكر الصديق، وأبو محمد طلحة بن عبيد الله، وهما يجتمعان فى عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، ويجتمعان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرة ابن كعب وفى قريش أيضا تيم بن غالب بن فهر أخو لؤى بن غالب وفى بنى بكر بن وائل، تيم بن قيس بن ثعلبة بن عكابة وفيهم أيضا تيم بن شيبان بن ثعلبة وقيل إن تيم بن شيبان هذا هو من بنى شيبان بن ذهل ثم فى بنى ضبة تيم اللات ابن ذهل بن مالك بن بكر بن سعد، وفى الخزرج تيم اللات بن ثعلبة، قال فى تاج العروس. والتيوم كثيرون

(٥) نسبة إلى عبد شمس، وهم بطن من قريش، ويوجد فى العرب عبشمس ابن سعد بن زيد بن مناة بن تميم، والعب هنا قيل ضوء الشمس، وقيل لعاب الشمس وقيل هو العبء بالهمز يفتح فيكسر والنسبة أيضا عبشمى قال الشاعر :

وتضحك منى شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلى أسيراً يمانيا

(٦) نسبة إلى مروهو تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر قبيلة مشهورة، وهناك مر ابن عمرو بن الغوث بن جلهمة من طىء وإخوته ستة عشر، ويقال أيضاً مرى نسبة إلى مرة بالتاء. وفى قريش مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ثم إنه يوجد فى قيس عيلان قبيلة اسمها بنو مرة، وهو مرة بن عوف ابن سعد بن قيس عيلان.

(٧) نسبة إلى عقيل كزبير، وعقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر، وفى بنى فزارة عقيل بن هلال، وفى أشجع أيضاً عقيل بن هلال.

والفهمى[١]. والصريحى[٢] والجزلى[٣]. والقشيرى[٤]. والكلبى[٥]. والقضاعى[٦].

(١) نسبة إلى فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان ، رهط تأبط شرا . وفهم أيضا هم فهم الجرات ، بطن من لخم . وفى الأزد فهم بن غنم بن دوس ، منهم جذيمة بن مالك بن فهم الملك الأبرش .

(٢) لم نقف حتى الآن على اسم قبيلة يقال لها الصريح ، وغاية ما رأينا أنه فى تاج العروس يقول : (والصريحان قبيلة) ولم يزد على هذه الكلمة شيئاً - ونظراً لكثرة التحريف والتصحيف فى طبعة الاحاطة التى أخذنا عنها فيغلب على ظننا أن (الصريحى) هنا إنما هو الصليحى باللام ، فاذا كان كذلك فالصليح فخذ من همدان منهم القاضى محمد بن على الهمدانى الصليحى ، وكانوا قائمين بدعوة العبيديين باليمن كما جاء فى سبائك الذهب للسويدى وذكر السلطان بن رسول صاحب أنساب العرب منهم أمراء .

(٣) نسبة إلى جزيلة كسفينة بطن من كندة .

(٤) نسبة إلى قشير كزبير وهو قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ابن معاوية بن بكر بن هوازن ، والى هذه القبيلة ينسب الامام أبو القاسم القشيرى صاحب الرسالة المشهورة .

(٥) نسبة إلى كلب بن وبرة وهو أخو نمر وتنوخ كما فى معارف ابن قتيبة وقال العينى : فى طيء كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن الحاف بن قضاعة .

(٦) قضاعة قبيلة من حمير من القحطانية . وعليه جرى ابن اسحاق والكلبى وغيرهما وذهب بعض النسابين إلى أن قضاعة من العدنانية وأنه بن معد بن عدنان . قال ابن عبد البر وعليه الاكثر : قال السويدى : والأشهر هو الأول . قلنا وهو المعتمد عليه . إلا أن النسابة جعفر بن حبيب قال : لم تزل قضاعة فى الجاهلية والاسلام تعرف بمعد حتى كانت الفتنة بالشام بين كلب وقيس عيلان أيام مروان بن الحكم فمالت قضاعة إلى اليمن وانتمت إلى حمير . وذكر ابن الأثير فى الانساب هذا الاختلاف ونقل عن محمد بن سلام المصرى وقد سئل انزار أكثر أم اليمن ؟ أنه قال : إن تمعددت قضاعة فنزار أكثر وإلا فاليمن . ومن الغريب أنه روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثان كل منهما له طريق أحدهما يفيد أن قضاعة من اليمن والآخر أنها من معد بن عدنان . وهذا برهان على كثرة الوضع فى الأحاديث ، وقد رأيت كلا منهما فى كتاب انساب العرب لابن رسول من سلاطين اليمن .

والاصبحى (١) . والمرادى (٢) . والرعينى (٣) . واليحصبى (٤) . والتجيبى (٥) .

(١) نسبة إلى ذى أصبح من حمير ، قيل هو الحارث بن عوف بن مالك بن زيد ابن سدد بن زرعة وقال بن حزم ، وهو ذو أصبح مالك بن زيد بن الغوث من ولد سبأ الأصغر . وإلى هذه القبيلة ينسب سيدنا مالك بن أنس أحد أصحاب المذاهب الأربعة . وجده الأقرب هو أبو عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان الاصبحى الحميرى من التابعين .

(٢) نسبة إلى مراد كغراب وهو مراد بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا ، وفى المصباح : مراد قبيلة من مذحج قال الزبيدى : ومذحج هو مالك بن زيد المتقدم ذكره

(٣) نسبة إلى ذى رعين كزبير قال الجوهرى إنه من ولد الحارث بن عمرو بن حمير بن سبا من عرب اليمن ، ورعين حصن أو جبل فيه حصن ، وفى اليمن مخلاف يقال له شعب ذى رعين .

(٤) نسبة إلى يحصب ذكر الحافظ بن حزم فى جمهرة الانساب : أن يحصب هو أخو ذى أصبح جد الامام مالك ، وقلعة يحصب بالأندلس سميت بمن نزلها من اليحصبيين من حمير ، منها سعيد بن مقرون بن عفان ، والنابغة ابن ابراهيم المحدثان ، والقاضى عياض بن موسى صاحب الشفاء ، وعبد الله بن محمد بن معدان اليحصبى الاندلسى كتب عنه السلفى .

(٥) تجيب بالضم كما جزم به أهل الحديث ، وأكثر الأدباء : قال الزبيدى فى تاج العروس : إن اهل الانساب يميلون إلى فتحه وقال القاضى عياض : إنه بالفتح كما قيدناه عن شيوخنا ، وذهب أبو محمد بن السيد النحوى إلى صحة الوجهين ، وسمعت الاستاذ السيد رشيد رضا رحمه الله يلفظ تجيب بالضم نقلا عن أحد مشايخه فى الحديث والتاء فى تجيب أصلية عند الخليل ، وتابعه فى ذلك الفيروزأبادى مجد الدين ، ولكن الجوهرى وابن فارس وابن سيدة ذهبوا إلى أنها زائدة ، والقبيلة بطن من كندة ، قال ابن قتيبة ، ينتسبون إلى جدتهم العليا ، وهى تجيب بنت ثوبان بن سليم بن مذحج وقال ابن الجوانى : هى تجيب بنت ثوبان بن سليم بن رها بن منبه بن حريث بن جلد ابن مذحج وهى أم عدى وسعد ابنى أشرس بن شبيب بن السكون ، قال ابن حزم : كل تجيبى سكونى ولا عكس . ومن تجيب كنانة بن بشر التجيبى قاتل أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضى الله عنه ، وهناك قبيلة أخرى اسمها تجوب منها عبد الرحمن بن ملجم قاتل أمير المؤمنين علي بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فهو تجيبى من مراد ثم من حمير .

والصـدفى [١] . والغافقى [٢] . والحضرمى [٣] . واللخمى [٤]

---

(١) نسبة إلى صدف ككتف قيل هو صدف بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير بن سبأ ، وينسب إلى صدف خلق من الصحابة وغيرهم ، نزلوا بمصر واختطوا بها ، ومنهم يونس بن عبد الأعلى الصدفى صاحب الامام الشافعى رضى الله عنه ، وقد نزل من الصدف قوم بالأندلس ولهم قرية بغربى الأندلس تقدم ذكرها والنسبة إلى الصدف صدفى بالتحريك كراهة الكسرة قبل ياء النسب

(٢) بطن من عك قال ابو عبيد كان منهم فى الاسلام أمراء ورؤساء ، ويوجد الغافق بالألف واللام وهم بطن من انمار بن أراش ، وجاء فى نفح الطيب أن أكثر أهالى شقورة من الأندلس ينتسبون إلى غافق ، وإلى غافق ينسب عبد الرحمن الغافقى أمير الأندلس الذى استشهد فى وقعة بلاط الشهداء

(٣) نسبة إلى حضرموت وهو ابن سبأ الأصغر ، وسميت به مدينة حضرموت ويقال للعرب الذين من حضرموت حضارمة . وقد انتسب إلى هذه البلدة أعيان كثيرون من كل قطر ، وأورد فى تاج العروس من أسماء الحضرميين من فقهاء ومحدثين ما ملأ صحيفة كبيرة وابن خلدون إذا انتسب يقول عن نفسه الحضرمى

(٤) قبيلة من كهلان ، جاء فى أنساب العرب لابن رسول من ملوك اليمن أن اسم لخم مالك بن عدى . قال : واختلف فى لخم وجذام ، فقال قوم : هم ابنا عدى بن عمرو بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وقال ابن اسحاق : وأكثر أهل النسب على أن لخم وجذام ابنا عدى بن عمرو بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وقال ابن الكلبى : لخم وجذام ابنا عدى بن عمرو بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . قال ابن رسول : وكل هؤلاء قد أجمعوا أن لخما وجذاما فى قحطان . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من حديث محمد بن سيرين عن أبى هريرة باسناد ليس بالقوى : الايمان يمان آل لخم وجذام ، صلوات الله على لخم وجذام ، يقاتلون الكفار على رؤوس الشعف ، ينصرون الله ورسوله . وقالت فرقة : إن قنص بن معد بن عدنان هو أبو لخم ، واحتجوا بحديث روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أتى بسيف النعمان بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة

والجذامى [١] . . . .

وعنده جبير بن مطعم ، فقال له عمرو ياجبير ممن كان النعمان بن المنذر ؟ فقال كان من اشلاء قنص بن معد بن عدنان يعنى من بقايا قنص ، انتهى .

قلنا فى هذه الرواية شك ، وإن صحت عن جبير بن مطعم فيكون خطأ منه ، لأن لخم وجذام هم من عرب اليمن ، والقول بخلاف ذلك هوخرق للاجماع قال فى سبائك الذهب : وقد كان للخميين ملك بالحيرة من العراق وإنه كان لبقايا لخم ملك باشبيلية من الأندلس ، وهى دولة بنى عباد : وقال القضاعي فى خطط مصر انهم حضروا فتح مصر واختطوا بها ، وفى صعيد مصر بنو سماك وبنو سهل وبنو شنوءة وبنو عدى وبنو راشد وأفخاذ كثيرة من لخم ومنهم بنو عمم الذين ينسب إليهم ملوك الحيرة رهط النعمان بن المنذر واسم عمم الأصلى هو عدى ، ولما كانت عائلة محرر هذه السطور تنتسب إلى المناذرة فقد راجعت سلسلة نسبهم إلى لخم فى سجل النسب الارسلانى المبدوء به سنة ١٤٢ للهجرة المتسلسل خلفاً عن سلف من ذلك التاريخ إلى الآن تحت تصديق القضاة والحكام ، والعلماء الأعلام فوجدته يقول : إن الملك المنذر الذى لقبته العرب بالمغرور هو ابن الملك النعمان أبى قابوس بن الملك المنذر بن الملك المنذر ، وهو ابن ماء السماء مارية ابنة ربيعة التغلبى أخت كليب والمهلهل بن الملك امرىء القيس ابن الملك النعمان الأعور ابن الملك امرىء القيس بن الأمير النعمان ابن الملك عمرو بن الملك امرىء القيس بن الملك عمرو ، وهو بن أخت جذيمة الأبرش الذى زوجها من ابنه عدى حتى يملك على لخم ، وعدى هو ابن نصر بن ربيعة بن المنذر بن تميم بن عمرو ابن سعد بن ذميل بن الحارث بن زيد بن الحارث بن إياد بن نصر بن فهم بن عامر بن زهير بن مالك بن جزيلة ابن مالك . وهو لخم بن عدى بن عمرو بن عبد شمس ، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان جد العرب العرباء والله أعلم .

(١) نسبة إلى جذام ، وهى بضم الجيم وبالذال المعجمة ، بطن من كهلان ، ويقال ان جذام كان أخا لخم ، .وهذه هى الرواية المشهورة ، وإنك لتجد هذين القبيلين دائما متلازمين . قال الجوهرى : ويزعم نسابة مضر أن جذام من مضر وأنهم انتقلوا إلى اليمن فحسبوا من اليمن ، ثم إن جذام هم فى مقدمة العرب الذين فتحوا مصر مع عمرو ابن العاص ، ذكر السويدى فى سبائك الذهب نقلا عن الحمدانى قال : وبالأسكندرية من جذام ولخم أقوام ذوو عدد وعدد ، وأهل شجاعة وإقدام وضرب بالسيف ورشق بالسهام ، ولهم أيام معلومة ، وأخبار معروفة ، ووقائع فى البر والبحر مشهورة . ومن جذام ملوك بنى هود أصحاب سرقسطة

والسلولى (١) . والحكى (٢) . والهمداني (٣) . والمذحجى (٤) . والخشنى (٥) .

(١) سلول فخذ من قيس بن هوازن ، وفى الصحاح والعباب قبيلة من هوازن هم بنو مرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، وسلول اسم امهم ، وهى ابنة ذهل ابن شيبان بن ثعلبة ، وفى سلول هؤلاء قيل :

وإنا أناس لا نرى القتل سبة   إذا ما رأته عامر وسلول

(٢) نسبة إلى الحكم ، وهو مخلاف فى اليمن نسب إلى الحكم بن سعد العشيرة من مذحج . قال الزبيدى فى تاج العروس : ولبنى الحكم بقية كثيرة باليمن منهم بنو مطير ، وقال ابن الكلبي أن الحكم بن يتبع بن الهون بن خزيمة دخل فى مذحج منهم رهط الجراح بن عبد الله الحكى عامل خراسان

(٣) نسبة إلى همدان بفتح فسكون ، بطن من كهلان ، واسم همدان هو أوسلة بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ قال الزبيدى : والعقب من همدان فى جشم بن خيران بن نوف بن همدان ، والعقب من جشم فى فخذين لصلبه بكيل وحاشد فمن بكيل فى رومان وسوران وخيران ، ومن حاشد فى سبيع بن سبع بن صعب بن معاوية بن كثير بن مالك بن جشم بن حاشد ولهم بطون متسعة باليمن انتهى .

وهم الذين نصروا عليا فى حرب صفين حتى قال رضى الله عنه .

فلو كنت بواباً على باب جنة   لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وإلى همدان ينسب الهمدانى صاحب الاكليل وصفة جزيرة العرب ، وكان علامة فيلسوفا ، وقد سمى بهمدان أحد حصون مملكة غرناطة والاسبانيول يقولون « هندين Alhendin » قلبوا الميم نونا ولفظوا الاسم بالامالة كما سمعوا من العرب الأندلسيين

(٤) مذحج كمجلس هو مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ، وقيل بل مذحج هو ابن يحابر بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ . قال الزبيدى : وهم شعب عظيم منه بطون وأفخاذ

(٥) نسبة إلى خشين كزبير وهو جابر بن خشين بن عاصم بن لؤى فى نسب فزارة وأيضاً هناك خشين بن النمر بن وبره بن تغلب بن حلوان فى قضاعة . ومن هؤلاء جرثوم بن ناشر الخشنى رضى الله عنه ، ومنهم بشر بن حيان التابعى ، ومنهم محمد بن عبد السلام الخشنى أبو عبد الله صاحب كتاب القضاة فى قرطبة وولده محمد بن محمد

والبلوى [1] . والجهنى [2] . والمزنى [3] والطائى [4] . والاسدى [5] .

وأبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الخشنى الأندلسى النحوى المعروف بابن أبى الركب أخذ عنه الشريشى صاحب المقامات

(١) نسبة إلى بلى كرضىّ قبيلة معروفة وبلى هو ابن العمرو بن الحافى بن قضاعة والنسبة إلى بلى بلوى مثل علوى

(٢) نسبة إلى جهينة بضم الجيم وفتح الهاء وسكون الياء المثناه وفتح النون بعدها حى من قضاعة يسكنون اليوم فى سواحل الحجاز وعددهم كبير

(٣) نسبة إلى مزينة كجهنة قبيلة من مضر . وهو بن أد بن طابخة ، وهم رهط ابن أبى سلمى الشاعر صاحب المعلقة . وهم يسكنون اليوم حول المدينة المنورة

(٤) نسبة إلى طىء بفتح الطاء وتشديد الياء وهمزة فى الآخر قبيله من كهلان كانت منازلهم باليمن فخرجوا على أثر خروج الأزد منها ، وانتهى أمرهم بالاستيلاء على جبلى أجأ وسلمى الذين يعرفان الآن بجبلى طىء ، قال السويدى فى سبائك الذهب : وافترقوا فى أول الاسلام فى الفتوحات قال ابن سعيد : هم الآن أمم كثيرة تملأ السهل والجبل حجازاً وشاماً وعراقا قال : وهم أصحاب الرئاسة فى العرب إلى الآن فى العراق والشام ومن بنى طىء بنو نبهان ، وبنو ثعل المشهورون بالاجادة فى الرمى ، وبنو جرم الذين أعقابهم فى بلاد غزة ، وبنو بولان بفتح أوله وسكون الثانى ، ومنهم الثلاثة الذين يقال إنهم وضعوا الخط العربى . وكان منهم بنو الجراح أيام الفاطميين ، وكانت لهم رئاسة على طىء ثم صارت الآن لآل عيسى بن مهنا . ومنهم بنو سنبس طائفة ببطايح العراق ، وطائفة بدمياط من الديار المصرية ، ومنهم بنو لام فى العراق ومنهم بنو تيم الذين كان يقال لهم مصابيح الظلام ، وهم الذين مدحهم امرؤ القيس . ومنهم بنو صخر فى بلاد البلقاء . ومنهم آل فضل من ربيعة طىء ولهم رئاسة وامارة ، ومنهم بطون وأفخاذ لا يحصيها إلا خالقها كما أن الأعيان والأعلام المنسوبين إلى بنى طىء لايحصى عددهم . ومنهم حاتم الطائى الذى ضرب به المثل فى الكرم ، وأبو تمام الطائى والبحترى كلاهما أشعر شعراء المولدين . ومنهم محيى الدين بن عربى المتصوف الشهير ومنهم ابن مالك النحوى الجيانى الأندلسى

(٥) نسبة إلى اسد وهو أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، وكذلك أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان وهى قبيلة أخرى

والاشجعى[١] .والعاملى[٢] . والخولاني[٣] . والايادى[٤] . والليثى[٥] .والخثعمى[٦]

(١) نسبه إلى أشجع وهم حى من غطفان كانوا عرب المدينة ، وكان سيدهم معقل ابن سنان . قال فى العبر : ان منهم بالمغرب الأقصى حياً عظيما فى جهات سجلماسة

(٢) نسبة إلى عاملة وهم حى باليمن من ولد الحارث بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ نسبوا إلى أمهم عاملة بنت مالك بن وديعة بن قضاعة ، أم الزاهر ، ومعاوية بن الحارث بن عدى نفسه ، ومنهم عدى ابن الرقاع الشاعر قال الجوهرى : ويزعم نساب مضر أنهم من ولد قاسط قال الاعشى :

أعامل حتى متى تذهبين   إلى غير والدك الأكرم
ووالدكم قاسط فارجعوا   إلى النسب الفاخر الأقدم

قال فى تاج العروس : وشذ بن الأثير حيث جعل عاملة من العمالقة اه .

وجاء فى سبائك الذهب نقلا عن أبى عبيد أن بنى عاملة هم بنو الحارث بن مالك يعنى ابن الحارث بن مرة بن أدد وانه كان تحته عاملة بنت مالك بن وديعة بن عُفير ابن عدى قال الحمدانى : وجبل عاملة من بلاد الشام وقيل إن هذه القبيلة من اليمن نزلت به فقيل له عاملة وقد يحذفون التاء فيقال جبل عامل وهو الواقع بين صيدا وصور من الشمال إلى الجنوب وبين البحر المتوسط وغور الحوله من الغرب إلى الشرق

(٣) نسبة إلى خولان بطن من كهلان وبلاد خولان فى اليمن من شرقيه وقد افترقوا فى الفتوحات ومنهم بنو سعد وبنو بكر وبنوقيس وبنو الأصهب وبنو حبيب وبنوعمرو ومما أتذكره أننى رأيت فى الجبل الأخضر من برقة مكاناً إلى الجنوب منه يقال له خولان

(٤) نسبة إلى أياد وهم حى من معد إلا أنهم يسكنون اليمن قال ابن دريد : هما إيادان إياد بنى نذار وإياد بن سود بن الحجر بن عمار بن عمرو

(٥) نسبة إلى ليث وهو ليث بن بكر بن عبدمناف بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر وفى التهذيب بنو ليث حى من كنانة

(٦) بنو خثعم بطن من أنمار بن أراش قال فى العبر : بلاد خثعم مع اخوتهم بجيلة بسروات اليمن والحجاز . وقال السلطان ابن رسول فى كتابه أنساب العرب . واختلف فى خثعم وبجيلة فأكثر أهل النسب يقولون أنهما أبناء أنمار بن نزار بن معد ابن عدنان وأنهما لحقا باليمن وانتسبا عن جهل منهما إلى أنمار بن أراش بن العمرو بن غوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

والسكسكي (١) . والزبيدي (٢) . والثعلبي (٣) . والكلاعي (٤) . والدوسي (٥)

(١) نسبة إلى سكاسك حي باليمن وهما قبيلتان الأولى من كندة وهو كندة بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد وولد لكندة أشرس وولد لاشرس سكسك ويقال له حميس وهو أخو السكون وحاشد ومالك بني أشرس . والقبيلة الثانية هم بنو زيد بن واثلة بن حمير وزيد هذا كان يلقب بالسكاسك .

(٢) نسبة إلى زبيد كزبير وهم بطن من مذحج وهو منبه الاكبر بن صعب بن سعد العشيرة بن مالك وهو جماع مذحج وزبيد الأصغر هو منبه بن ربيعة بن سلمة بن مازن ابن ربيعة بن زبيد الاكبر قال ابن دريد : زبيد تصغير زبد وهو العطية . وينسب إلى زبيد عمرو بن معدى كرب الصحابي الفارس المشهور أسلم سنة تسع وشهد الفتوح واستشهد بالقادسية وقيل بنهاوند رضى الله عنه والقاضى أبو الهذيل محمد بن الوليد بن عامر الزبيدي ومحمد بن الحسين الزبيدي الاندلسي صاحب القالي ومحمد بن عبيد الله بن مذحج بن محمد بن عبد الله بن بشر الزبيدي الاشبيلي اللغوي نزيل قرطبة .

(٣) نسبة إلى ثعلب ويوجد في العرب قبائل شتى باسم ثعلبة . فثعلبة في أسد . وثعلبة في تميم . وثعلبة بن ربيعة . وثعلبة في قيس ، وثعلبتان في طيء وهما ثعلبة بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طي وثعلبة بن رومان بن جندب المذكور قال الزبيدي : وقرأت في أنساب أبي عبيد : الثعالب في طي يقال لهم مصابيح الظلام كالربائع في تميم . ويوجد بطن اسمه ثعلبة في غطفان

(٤) نسبة إلى ذي الكلاع وهما من اليمن أحدهما الأكبر . وهو يزيد بن النعمان الحميري من ولد شهال من وحاضة بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة بن سبأ الأصغر وذو الكلاع الأصغر هو أبو شراحيل سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذي الكلاع الأكبر .

(٥) الدوس بن عدثان بن عبد الله وأخطأ بعضهم فظن أنه عدنان بالنقطة الموحدة والحال أنه بالثاء المثلثة وهم قبيلة من الأزد قال ابن الجواني النسابة : هو دوس بن عدثان بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن أزد منهم أبو هريرة الدوسي الصحابي المشهور ، ودوس أيضاً قبيلة من قيس وهم بنو قيس بن عدوان بن عمرو بن قيس عيلان .

والحوارى [١]. والسلمانى [٢].

هذا ويرد كثير من شهادتهم، ويقل من ذلك السلمى نسباً والدوسى والحوارى والزبيدى، ويكثر فيهم كالانصارى والحميدى [٣] والجذامى والقيسى والغسانى . وكفى بهذا شاهداً على الاصالة ودليلا على العروبة .

وجندهم صنفان : اندلسى، وبربرى . والاندلسى منهم يقودهم رئيس من القرابة وحصىّ [٤] من شيوخ الممالك، وزيهم فى القديم شبه زيّ اقيالهم وأضدادهم من جيرانهم الفرنج : اسباغ الدروع، وتعليق الترسة، وجفاء البيضات، واتخاذ عراض الأسنة، وبشاعة قرابيس السروج، واستركاب حملة الرايات خلفه، كل منهم بصفة تختص بسلاحه، وشهرة يعرف بها. ثم عدلوا الآن عن هذا الذى ذكرنا الى الجواشن المختصرة، والبيض المرهفة، والدرق العربية، والسهام اللَّمَطية [٥]، والاسل العطفية .

والبربرى يرجع الى قبائله المرينية، والزناتية، والنجانية، والمغراوية، والعجيسية

(١) لم نجد فى ما قرأناه إلى الآن قبيلة لها هذه النسبة وإنما ورد فى تاج العروس : وحوار كغراب صقع بهجر، وكذلك بلد الحيرة بقرب الكوفة النسبة اليهاحيرى وحارى وقد تكون هذه اللفظة من جملة الألفاظ التى حرفها النساخ فأصبح لا يعرف أصلها .

(٢) نسبة إلى سلمان بطن من مراد وهو سلمان بن يشكر بن ناجية بن مراد قال الرشاطى : وأهل الحديث يفتحون اللام . منهم عبيدة بن عمرو وقيل ابن قيس الكوفى السلمانى أسلم فى حياة النبى عليه السلام ولم يره وروى عن على وابن مسعود . وإلى هذه القبيلة ينسب الوزير العلامة لسان الدين بن الخطيب الذى ننقل كلامه الآن . ويوجد بطن من جذام اسمهم السلمان بالألف واللام

(٣) لعله يريد الحميدات وهم من بنى أسد بن عزى ينسبون إلى حميد بن زهير بن الحرث بن راشد كما فى التوشيح قاله الزبيدى فى تاج العروس .

(٤) الحصى بالحاء المهملة المعروف بالعقل .

(٥) نسبة إلى قبيلة من البربر اسمها اللمط معروفة بنوع من الدرق إلى النهاية فى المتانة ولكن الموصوف هنا هو السهام .

والعَرب المغربية ، الى أقطاب ورؤوس يرجع أمرهم الى رئيس على رؤسائهم ، وقطب لعرفائهم ، من كبار القبائل المرينية ، يمت الى ملك المغرب بنسب . والعمائم تقل فى زى هذه الحضرة ، إلاَّ ما شذَّ فى شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم والجند العربى منهم . وسلاح جموعهم العصى الطويلة المثناة بعصى صغار ذوات عرى فى أوساطها ، ترفع بالانامل عند قذفها ، تسمى « بالامداس » وقسى الافرنجة يحملون على التدريب بها على الايام . والمواسم متوسطة ، وأعيادهم حسنة مائلة الى الاقتصاد : والغنى بمدينتهم فاش ، حتى فى الدكاكين التى تجمع صنائعها كثيراً من الاحداث كالخفافين ومثلهم . وقوتهم الغالب البُرّ الطيّب عامة العام ، وربما اقتات فى فصل الشتاء الضَعَفة والبوادى والفَعَلة فى الفلاحة الذرة العربية ، ومثل أصناف القطانى الطيبة .

وفواكههم اليابسة عامة العام متعددة ، يدّخرون العنب سليما من الفساد الى شطر العام ، الى غير ذلك من التين ، والزبيب ، والتفاح ، والرمان ، والقسطل [1] ، والبلوط ، والجوز ، واللوز ، الى غير ذلك مما لا ينفد ولا ينقطع ، إلا مدة فى الفصل الذى يزهد فى استعماله .

وصرفهم فضة خالصة ، وذهب ابريز طيب محفوظ ، ودرهم مربع الشكل من وزن المهدى القائم بدولة الموحدين ، فى الاوقية منه سبعون درهما ، يختلف الكتب فيه : فعلى عهدنا فى شِق : « لاإله إلا الله محمد رسول الله » وفى شِق آخر : « لاغالب إلا الله » غرناطة . ونصف ، وهو القيراط ، فى شق : « الحمد لله رب العالمين » وفى شق : « وما النصر إلا من عند الله » ونصفه ، وهو الربع ، فى شِق : « هدى الله هو الهدى » وفى شِق : « العاقبة للتقوى » .

ودينارهم في الاوقية منه ستة دنانير وثلثا دينار ، وفى الدينار الواحد ثُمن أوقية وخُمس ثُمن أوقيـة ، وفى شِق منه : « قل اللّهُمّ مالكَ المُلْكِ (الى) بيدِك الخير » ويستدير به قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » وفى شِق :

---

(١) هو ما يقال له الكستنا

« الامير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين ابى الحجاج بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل ابن نصر أيّد الله أمره » ويستدير به : « لا غالب إلا الله » ولتاريخ تمام هذا الكتاب في وجه : « يا أيها الذين آمنوا اصْبِروا وصابِروا ورابطوا واتّقُوا اللهَ لعلَّكم تفلِحون » ويستدير به : « لا غالب إلا الله » وفي وجه : « الامير عبد الله الغنى بالله محمد بن يوسف بن اسماعيل بن نصر أيّده الله وأعانه » ويستدير بربع : « بمدينة غرناطة حرسها الله » .

وعادة أهل هذه المدينة الانتقال الى حلل المصير ، أوان إدراكه بما تشتمل عليه دورهم ، والبروز الى الفحوص باولادهم وعيالهم ، معوّلين فى ذلك على شهامتهم . وأسلحتهم على أكتاد دوابهم ، واتصال أمصارهم بحدود أرضهم ، وحليهم في القلائد والدمالج والشنوف والخلاخل الذهب الخالص الى هذا العهد فى أولى الجدة ، واللجين فى كثير من آلة الراجلين فيمن عداهم ، والاحجار النفيسة من الياقوت والزبرجد والزمرد ، ونفيس الجوهر كثير ممن ترتفع طبقاتهم المستندة الى ظل دولة ، أو اصالة معروفة موفّرة .

وحريمهم حريم جميل موصوف بالحسن وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، وطيب النَّشر ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، إلا أن الطول يندر فيهن . وقد يبلغن من التفنن فى الزينة لهذا العهد ، والمظاهرة بين المصبّغات ، والتنافس بالذهبيات والديباجياب ، والتماجن فى اشكال الحلى الى غاية ، نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر ، ويكف كف الخطب ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميع من بها بستره ، ولا يسلبهم خفى لطفه بعزته وقدرته . انتهى . قلت : كيف لو عاش ابن الخطيب فى عصرنا هذا ! فماذا كان يقول ياليت شعرى ! ؟ ولله الأمر من قبل ومن بعد ! .

ما ذكره المقّرى فى النفح عن أنساب عرب الأندلس

قال : إنه لما استقر قدم أهل الاسلام فى الأندلس ، وتتامّ فتحها ، صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم إلى الحلول بها ، فنزل بها من جرائيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم ، إلى أن كان من أمرهم ما كان . فأما المدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش . وأما بنو هاشم من قريش فقال ابن غالب فى فرحة الأنفس: بالأندلس منهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب . ومن هؤلاء بنو حمّود ملوك الأندلس بعد انتثار ملك بنى أمية . وأما بنو أمية فمنهم خلفاء الأندلس . قال ابن سعيد : ويعرفون هنالك إلى الآن بالقرشيين ، وربما عموا نسبهم إلى أمية فى الآخر ، لما انحرف الناس عنهم ، وذكروا أفعالهم فى الحسين رضى الله عنه . وأما بنو زهرة فمنهم باشبيلية أعيان متميّزون وأما المخزوميون فمنهم أبو بكر المخزومى الأعمى الشاعر المشهور من أهل حصن المدور . ومنهم الوزير الفاضل فى النظم والنثر أبو بكر بن زيدون ، ووالده الذى هو أعظم منه ، أبو الوليد ابن زيدون وزير معتضد بنى عباد .

قال ابن غالب : وفى الأندلس من ينسب إلى جمح ، وإلى بنى عبد الدار ، وكثير من قريش المعروفين بالفهريين من بنى محارب بن فهر ، وهم من قريش الظواهر ، ومنهم عبد الملك بن قطَن سلطان الأندلس . ومن ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء ، وبنو الجد [١] الأعيان العلماء . ومن بنى محارب بن فهر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، سلطان الأندلس ، الذى غلبه عليها عبد الرحمن الأموى الداخل وجدّ يوسف عقبة بن نافع الفهري ، صاحب الفتوح بأفريقية . قال ابن حزم : ولهم بالأندلس عدد وثروة .

وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير ، وجلهم فى طُلَيْطُلة وأعمالها ، ولهم

(١) لمولاى سليمان سلطان المغرب تأليف خاص فى نسب بنى الجد الذين يقال لهم اليوم بنو الفاسى

ينسب الوشقيون الكنانيون الأعيان الفضلاء ، الذين منهم القاضي أبو الوليد ، والوزير أبو جعفر ، ومنهم أبو الحسين بن جبير العالم صاحب الرحلة ، وقد ذكرناه في محله .

وأما هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر فذكر ابن غالب أن منزلهم بجهة أريولة من كورة تدمير . وأما تميم بن مرة بن أُدّ بن طابخة بن الياس بن مضر فذكر ابن غالب أيضاً أنهم خلق كثير بالأندلس ، ومنهم أبو الطاهر صاحب المقامات اللزومية . وأما ضبة بن أُدّ بن طابخة فذكر أنهم قليلون بالأندلس . فهؤلاء خندف من العدنانية .

وأما قيس عيلان بن الياس بن مضر من العدنانية ففي الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم ، ومنهم من ينتسب إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة ابن قيس ، كعبد الملك بن حبيب السلمي الفقيه ، صاحب الامام مالك رضي الله عنه وكالقاضي أبي حفص بن عمر قاضي قرطبة . ومن قيس من ينتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة . قال ابن غالب : وهم بأشبيلية خلق كثير ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هوازن قال ابن غالب : ولهم منزل بجوفي بلنسية ، على ثلاثة أميال منها و بأشبيلية وغيرها منهم خلق كثير ، ومنهم بنو حزم ، وهم بيت غير البيت الذي منه أبو محمد بن حزم الحافظ الظاهري ، وهو فارسي الأصل[1] ومنهم من ينتسب إلى سعد بن بكر بن هوازن . وذكر ابن غالب أن منهم بغرناطة كثيرا كبني جودي وقد رأس بعض بني جودي . ومنهم من ينتسب إلى سلول ، امرأة نسب اليها بنوها وأبوهم مرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . ومنهم من ينتسب إلى كلاب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . ومنهم من ينتسب إلى نمير بن عامر بن صعصعة . قال ابن غالب : وهم بغرناطة كثير ومنهم من ينتسب إلى قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . ومنهم بلج بن بشر صاحب

(١) الافرنج مجموعون على أنه من أصل اسبانيولي

الأندلس وآله و بنو رشيق . ومنهم من ينتسب إلى فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان . ومنهم من ينتسب إلى أشجع بن ريث ابن غطفان . ومن هؤلاء محمد بن عبد الله الأشجعي سلطان الأندلس

وفي ثقيف اختلاف : فمنهم من قال إنها قيسية ، و إن ثقيفاً هو قيس بن منبه ابن بكر بن هوازن ، ومنهم بالأندلس جماعة ، و إليهم ينتسب الحر بن عبد الرحمن الثقفي صاحب الأندلس وقيل إنها من بقايا ثمود . انتهى قيس بن عيلان وجميع مضر

وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار . قال في فرحة الأنفس : ان اقليم هؤلاء مشهور باسمهم ، بجوفيّ مدينة وادي آش . انتهى . والأشهر بالنسبة الى أسد أبداً بنو اسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، ومنهم من ينتسب الى محارب بن عمرو بن وديعة بن بكير بن افصى بن دعمى بن جديلة بن أسد ابن ربيعة ، . قال ابن غالب في فرحة الانفس : ومنهم بنو عطيه أعيان غرناطة . ومنهم من ينتسب الى النمر بن قاسط بن هنب بن افصى بن دعمى بن جديلة بن أسد كبني عبد البر الذين منهم الحافظ ابو عمر بن عبد البر ، ومنهم من ينتسب الى تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب ، كبني حمديس أعيان قرطبة ، ومنهم من ينتسب الى بكر بن وائل كالبكريين أصحاب أونبة وشلطيش ، الذين منهم أبو عبيد البكري صاحب التصانيف . انتهت ربيعة .

وأما إياد بن نزار ، وقد يقال انه ابن معدّ ، والصحيح الاول ، فينتسب اليهم بنو زهرة المشهورون باشبيلية وغيرهم . انتهت العدنانية . وهم الصريح من ولد اسماعيل عليه السلام .

واختلف في القحطانية ، هل هم من ولد اسماعيل ؟ أو من ولد هود ؟ على ما هو معروف ، وظاهر صنيع البخاري الاول ، والاكثر على خلافه . والقحطانية هم المعروفون باليمانية ، وكثيراً ما يقع بينهم و بين المضرية وسائر العدنانية الحروب بالاندلس ، كما كان يقع بالمشرق ، وهم الاكثر بالاندلس ، والملك فيهم أرسخ ، إلا ما كان من

خلفاء بنى أمية ، فان القرشية قدمتهم على الفرقتين ، واسم الخلافة لهم بالمشرق . وكان عرب الاندلس يتميزون بالعمائر والقبائل والبطون والافخاذ ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبى عامر الداهية الذى ملك سلطنة الاندلس ، وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم وتعصبهم فى الاعتزاء ، وقدّم القواد على الأجناد ، فيكون فى جند القائد الواحد فِرق من كل قبيل ، فانحسمت مادة الفتن والاعتزاء بالاندلس ، إلا ما جاءت على غير هذه الجهة .

قال ابن حزم : جماع أنساب اليمن من جرم بن كهلان ، وحمير بن يشجُب ابن يَعْرُب بن قحطان بن عابر بن شالَخ بن ارْفَخْشذ بن سام بن نوح ، وقيل قحطان بن الهَمَيْسَع بن تيهان بن نابت بن اسماعيل ، وقيل قحطان بن هود ابن عبد الله بن رباح بن جارف بن عاد بن عَوْص بن إرَم بن سام . والخلف فى ذلك مشهور ، فمنهم كهلان بن سبا بن يشجُب بن يعرب بن قحطان ، ومنهم الازد ابن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ، واليهم ينتسب محمد بن هانىء الشاعر المشهور الالبيرى ، وهو من بنى المهلّب . ومن الازد من ينتسب الى غسّان ، وهم بنو مازن بن الازد ، وغسّان ماء شربوا منه . وذكر ابن غالب ان منهم بنى القسيعي من أعيان غرناطة ، وكثير منهم بصالحة ، قرية على طريق مالقة ، ومن الازد من ينتسب إلى الأنصار على العموم ، وهم الجم الغفير بالاندلس .

قال ابن سعيد : والعجب أنك تعدم هذا النسب بالمدينة ، وتجد منه بالأندلس فى أكثر بلدانها ما يشذ عن العدد كثرة . ولقد أخبرنى من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد منه إلاّ شيخاً من الخزرج ، وعجوزاً من الأوس . قال ابن غالب : وكان جزء الأنصار بناحية طليطلة ، وهم أكثر القبائل بالأندلس فى شرقها ومغربها انتهى . ومنَ الخزرج بالأندلس أبو بكر عبادة بن عبد الله بن ماء السماء ، من ولد سعد بن عبادة ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المشهور بالموشحات . و إلى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر سلاطين غرناطة ، الذين كان لسان

الدين بن الخطيب أحـد وزرائهم ، وعليهم انقرض ملك الأندلس من المسلمين ، واستولى العدو على الجزيرة جميعاً كما يذكر . ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس أخى الخزرج ، ومنهم من ينتسب إلى غافق بن عك بن عديان بن أزان بن الأزد . وقد يقال عك بن عدنان بالنون .فيكون أخا معدّ بن عدنان وليس بصحيح

قال ابن غالب : من غافق : أبو عبد الله بن أبي الخصال الكاتب ، وأكثر جهات شقورة ينتسبون إلى غافق . ومن كهلان من ينتسب إلى همدان ، وهو أوسلة ابن مالك بن زيد بن أوسلة بن الخيـار بن مالك بن زيد بن كهلان ، ومنزل همدان [1] مشهور ، على ستة أميال من غرناطة . ومنهم أصحاب غرناطة بنو أضحى . ومن كهلان من ينتسب إلى مَذْحِج . ومَذْحِج اسم أكَمَة حمراء باليمن ، وقيل اسم أم مالك وطيء بن أدَد بن زيد بن كهلان . قال ابن غالب : بنو سراج الأعيان من أهل قرطبة ينتسبون إلى مَذْحِج . ومنزل طيء بقبليّ مرسية . ومنهم من ينتسب إلى مراد بن مالك بن أُدَد . وحصن مراد بين أشبيلية وقرطبة مشهور . قال ابن غالب : وأعرف بمراد منهم خلقا كثيرا . ومنهم من ينتسب إلى عنس بن مالك بن أدَد ومنهم بنو سعيد مصنفو كتاب المُغْرب . وقلعة بني سعيد مشهورة في مملكة غرناطة . ومن مَذْحِج من ينتسب إلى زُبَيْد قال ابن غالب : وهو منبه بن سعد العشيرة بن مالك بن أدد . ومن كهلان من ينتسب إلى مرة بن ادد بن زيد بن كهلان . قال ابن غالب : منهم بنو المنتصر العلماء من أهل غرناطة . ومنهم من ينتسب إلى عاملة . وهى امرأة من قضاعة ، ولدت للحرث بن عَدِيّ بن الحرث مرة بن أدد فنسب ولدها منه إليها . قال ابن غالب : منهم بنو سماك القضاة من أهل غرناطة . وقوم زعموا أن عاملة هو ابن سبأ بن يشجُب بن يعرُب بن قحطان ، وقيل هم من قضاعة .

(١) الاسبان يسمون هذا المكان « هندين » Hendin لأنهم قلبوا الميم نوناً ثم لفظوا الألف بالأمالة فصارت كالياء .

ومن كهلان خولان بن عمرو بن الحرث بن مُرّة . وقلعة خولان مشهورة بين الجزيرة الخضراء واشبيلية . ومنهم بنو عبد السلام أعيان غرناطة . ومنهم من ينتسب إلى المعافرين يعفر بن مالك بن الحرث بن مرة ، منهم المنصور بن أبى عامر صاحب الأندلس . ومنهم من ينتسب الى لخم بن عدى بن الحرث بن مرّة . منهم بنو عباد أصحاب اشبيلية وغيرها . وهم من ولد النعمان بن المنذر صاحب الحيرة . ومنهم بنو الباجى أعيان اشبيلية ، و بنو وافد الأعيان . ومنهم من ينتسب إلى جذام ، مثل ثوابة بن سلامة صاحب الأندلس ، و بنى هود ملوك شرق الأندلس . ومنهم المتوكل ابن هود الذى صحت له سلطنة الأندلس بعد الموحدين . ومنهم بنو مردنيش أصحاب شرق الأندلس . قال بن غالب : وكان لجذام جزء من قلعة رباح . واسم جذام عامر ، واسم لخم مالك ، وهما ابنا عدى

ومن كهلان من ينتسب إلى كندة ، وهو ثور بن عفير بن عدى بن مرّة بن أُدَد ، ومنهم يوسف بن هرون الرمادى الشاعر . ومنهم من ينتسب إلى تُجيب ، وهى امرأة أشرس بن السكون بن أشرس بن كندة . ومن كهلان من ينتسب إلى خَثْعَم بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ومنهم عثمان بن أبى نسعة [1] سلطان الأندلس . وقد قيل انمار ابن نزار بن معد ابن عدنان . انتهت كهلان .

وأما حمير بن سبا بن يشجُب بن يعرب بن قحطان فمنهم من ينتسب إلى ذى رُعَين . قال ابن غالب : وذو رُعَين هم ولد عمرو بن حِمْير فى بعض الأقوال ، وقيل هو من ولد سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قَطَن بن عَريب بن زُهَير بن ايمَن بن الهَمَيْسَع بن حمير . قال : ومنهم أبو عبد الله الحناط الأعمى الشاعر . قال الحازمى فى كتاب النسب : واسم ذى رُعين

---

(١) اكثر الافرنج يجعلون عثمان بن ابى نسعة هذا الذى تزوج بابنة الكونت اود ملك غاليا بربريا ولم نعلم سندهم فى ذلك

عَريم بن زيد بن سهل . ووَصَل النسب . ومنهم من ينتسب إلى ذى أُصْبَح . قال ابن حزم : هو ذو أصبَح بن مالك بن زيد من ولد سبا الأصغر ابن زيد بن سهل ابن عمرو بن قيس، ووَصَل النسب . وذكر الحازمى أن ذا أصبح من كهلان . واخبر أن منهم مالكَ بنَ أنس الامام ، والمشهور أنهم من حمير . والأصبحيون من أعيان قرطبة . ومنهم من ينتسب إلى يحصب قال ابن حزم : إنه أخوذى أصبح ، وهم كثير بقلعة بنى سعيد ، وقد تُعْرف من أجلهم في التواريخ الأندلسية بقلعة يحصب . ومنهم من ينتسب إلى هوازن بن عوف بن عبد شمس بن وائل بن الغوث . قال ابن غالب ومنزلهم بشرق اشبيلية والهوازنيون من أعيان أشبيلية . ومنهم من ينتسب إلى قُضَاعة بن مالك بن حمير ، وقد قيل إنه قضاعة بن معدّ بن عدنان ، وليس بمُرض

ومن قضاعة من ينتسب إلى مهرة ، كالوزير أبى بكر بن عمار ، الذى وثب على ملك مرسية (١) ، وهو مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . ومنهم من ينتسب إلى خشين بن تنوخ ، قال ابن غالب : وهو بن مالك بن فهم بن نمر ابن وبرة بن تغلب . قال الحازمى : تنوخ هو مالك بن فهر بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة . ومنهم من ينتسب إلى بَلِيّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . ومنهم البلويون الاشبيلية . ومنهم من ينتسب إلى جهينة بن أسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . قال ابن غالب : وبقرطبة منهم جماعة . ومنهم من ينتسب إلى كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان ، كبنى أبى عبدة الذين منهم بنو جهور ملوك قرطبة ووزراؤها . ومنهم من ينتسب إلى عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن أسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . ومنهم أعيان الجزيرة الخضراء بنو عذرة

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى حضرموت منهم الحضرميون بمرسية وغرناطة واشبيلية (٢) و بطليوس وقرطبة . قال ابن غالب : وهم كثير بالأندلس ،

(١) وهو الذى قتله المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية لهجوه اياه هجوا مقذعاً

(٢) ابن خلدون صاحب التاريخ هو من حضارمة اشبلية ولا تزال فى اسبانيا وثائق خطية تثبت املاك بنى خلدون فى ذلك الصقع

وفيه خلاف ، قيل : إن حضرموت هو ابن قحطان ، وقيل هو حضرموت بن قيس ابن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان بالجيم بن قَطَن ابن العريب بن الغرز بن نبت بن أيمن بن الهيسع بن حمير . كذا نسق النسب الحازمى ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى سلامان ، ومنهم الوزير لسان الدين بن الخطيب حسبما ذكر فى محله .

وقد رأيت أن أسرد هنا أسماء ملوك الأندلس من لدن الفتح إلى آخر ملوك بنى أمية ، وإن تقدم ، ويأتى ذكر جملة منهم بما هو أتمّ مما هنا فنقول : طارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، ثم الأمير موسى بن نصير ، وكلاهما لم يتخذ سرير السلطنة ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وسريره اشبيلية ، ثم أيوب بن حبيب اللخمى وسريره قرطبة . وكل من يأتى بعده فسريره قرطبة ، والزهراء والزاهرة بجانبيها ، إلى أن انقضت دولة بنى مروان ، على ما ينبه عليه ، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، ثم السَّمْح بن مالك الخولانى ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، ثم عنبسة بن سحيم الكلبى ، ثم عذرة بن عبد الله الفهرى ، ثم يحيى بن سلمة الكلبى ، ثم عثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، ثم حذيفة بن الأحوص القيسى ، ثم الهيثم بن عبيد الكلابى ثم محمد بن عبد الله الأشجعى ، ثم عبد الملك بن قَطَن الفهرى ، ثم بلج ، ثم بشر ابن عياض القشيرى ، ثم ثعلبة بن سلامة العاملى ، ثم أبو الخطار بن ضرار الكلبى ، ثم ثوابة بن سلامة الجذامى ، ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى . وههنا انتهى الولاة الذين ملكوا الأندلس من غير موارثة ، افرادا ، عددهم عشرون ، فيما ذكر بن سعيد ، ولم يتعدوا فى السمة لفظ الأمير قال ابن حيان . مدتُهم ، منذ تاريخ الفتح من لذريق سلطان الأندلس النصرانى ، وهو يوم الأحد لخمس خلون من شوال سنة اثنتين وتسعين إلى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المروانى على سرير الملك بقرطبة ، وهو يوم الأضحى لعشر خلون من ذى الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة ـ ست وأربعون سنة وخمسة أيام اهـ .

ثم كانت دولة بنى أمية ، أولهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ثم ابنه هشام الرضى . ثم ابنه الحكم بن هشام . ثم ابنه عبد الرحمن الأوسط . ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن . ثم ابنه المنذر بن محمد . ثم أخوه عبد الله بن محمد . ثم ابن عمه عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله . ثم ابنه الحكم المستنصر ، وكرسيهما الزهراء . ثم هشام ابن الحكم . وفى أيامه بنى حاجبه المنصور بن أبى عامر الزاهرة . ثم المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر . وهو أول خلفاء الفتنة ، وهدمت فى أيامه الزهراء والزاهرة ، وعاد السرير إلى قرطبة . ثم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر ، ثم تخللت دولة بنى حمود العلويين ، وأولهم الناصر على بن حمود العلوى الادريسى . ثم أخوه المأمون القاسم بن حمود . ثم كانت دولة بنى أمية الثانية وأولها المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر . ثم المستكفى محمد ابن عبد الرحمن بن عبد الله . ثم المعتمد هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ، وهو آخر خلفاء الجماعة بالأندلس . وحين خلع اسقط ملوك الأندلس الدعوة للخلافة المروانية ، واستبدت ملوك الطوائف كابن جهور فى قرطبة ، وابن عبّاد باشبيلية ، وغيرهما ، ولم يعد نظام الأندلس إلى شخص واحد إلى أن ملكها يوسف بن تاشفين الملثم من بر العدوة ، وفتك بملوك الطوائف ، و بعد ذلك ما خلصت له ولا لولده على ابن يوسف ، لأن بنى هود نازعوه فى شرقها بالثغر ، إلى أن جاءت دولة عبد المؤمن و بنيه . فما صفت لعبد المؤمن بمحمد بن مردنيش الذى كان ينازعه فى شرق الأندلس ثم صفت ليوسف بن عبد الرحمن بموت ابن مردنيش ، ثم لمن بعده من بنيه ، وحضرتهم مراكش . وكانت ولاتهم تتردد على الأندلس وممالكها ، ولم يولّوا على جميعها شخصاً واحداً لعظم ممالكها ، الى أن انقرضت منها دولتهم بالمتوكل محمد بن هود من بنى هود ، ملوك سرقسطة ، وجهاتها ، فملك معظم الأندلس بحيث يطلق عليه اسم السلطان ، ولم ينازعه فيها إلا زيان بن مردنيش فى بلنسية من شرق الأندلس ، وابن هلالة فى طبيرة من غرب الأندلس . ثم كثرت عليه الخوارج قريب موته

ولما قتله وزيره ابن الرميمى بالمرية زاد الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر . وكان عرب أهل الأندلس فى المائة السابعة يخطبون لصاحب افريقية السلطان أبى زكريا يحيى ابن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص.. ثم تقلصت تلك الظلال ، ودخل الجزيرة الانحلال ، إلى أن استولى عليها حزب الضلال . والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

نظرة إجمالية

إن اسبانية والبرتغال ليستا على وجه الاجمال معروفتين حق المعرفة عند الناس ومهما اتسعت المعلومات عنهما فالناس تعلم عن أكثر البلدان الأوربية ما لا تعلمه عنهما ، لأن الممالك المعدودة كأنموذجات للمدنية الحاضرة ، والمواصم التى يقصد اليها السياح لأجل الفرجة والاستشفاء أو البحث . ويؤمها الطلبة لأجل تحصيل العلوم ، ليست فى اسبانية ولا فى البرتغال ، وإذا رجعنا إلى طبيعة الأرض ، وبداعة المناظر فليس فى الجزيرة الايبيرية فى الحقيقة من تنوع المناظر الساحرة ما فى إيطالية مثلا ، كما أن السائح لا يرى فيها تلك المروج الزمردية ، والبحيرات اللطيفة ، والجبال الشامخة ، المعممة بالثلج ، ولا مسارح اللمحات التى يراها فى سويسرة ، ولكن مما لا جدال فيه أن مواقع معدودة من اسبانية والبرتغال تعد من أبدع مواقع العالم ، وأنها المثل الأعلى من جهة الجنان والبساتين .

أما من جهة المدنية فهى فى جنوبي اسبانية راجعة الى أشد أدوار التاريخ توغلاً في القدم ، وقد كان للفينيقيين فى هذه البلاد دور طويل عريض ، وقد أثروا فيها آثاراً لاتزال بقاياها ماثلة إلى الآن ، ثم جاء الرومانيون ، وكانت لهم طبيعة عمرانية معروفة لهم شرقا وغرباً ، فوجدوا مجال العمل فى اسبانية ذا سعة ، فعملوا ، وبنوا ، وأثّروا ، وأثّلوا ، وتركوا آثاراً ناطقة بفضلهم ، وجسوراً وأقنية معلقة منبئة عن شأوهم، وملاهى وهياكل ، كالتى فى ماردة ، وطرّكونة ، ومربيطر ، وغيرها مما لا يدرسه الزمان ، ولا ينال منه الحدثان .

وجاء بعد ذلك العرب فأثلوا في الجزيرة الايبيرية ، أو الجزيرة الاندلسية على رأيهم ، حضارة عربية شرقية بلغت من الأبهة ، والفراهة ، وسلامة الذوق ، سدرة المنتهى ، فلا تكاد تمر بمكان إلا للعرب فيه آثار باهرة ، وعنهم أخبار تتحدث بها السامرة ، ولا يزال نظام سقيا الجنان ، وتوزيع المياه على الارضين ، هو النظام الذى رتبوه فى أيامهم ، ثم انه لا ينكر ان الفن المسيحى ، سواء فى القرون الوسطى ، أومن بعد عهد النهضة Renaissance قد ترك فى اسبانية آثاراً فاخرة ، ومبانى فخمة ، كقصر الاسكوريال مثلا .

فالذين يقصدون إلى اسبانية من السياح لا تخيب آمالهم ، ولا تذهب نفقاتهم سدى ، وذلك لأن السائح الأوربى يجد دائماً فى اسبانية أشياء جديدة بالنسبة اليه .

فالبلاد كلها عبارة عن جزيرة يحيط بها البحر من جهاتها الثلاث ، وتحيط بها جبال البرانس الشامخة من الجهة الرابعة ، فهي معتزلة فى مكانها ، منتبذة من اوربة زاوية خاصة بها ، غير متأثرة بغيرها ، محتفظة بجميع مميزاتها وخصائصها ، لا هى شرقية تماما ، ولا هى غربية تماما ، بل هى متوسطة بين اوربة وأفريقية ، واصلة بين المشرق والمغرب ، منطوية فى أحناء وجودها هذا المستقل على أسرار لا يعرفها إلا من أكثر من التجوال فيها ، وقرن السير بالنظر .

وهناك شعب شديد الخنزوانة قائم بذاته ، لا يشبه غيره ، ولا يريد أن يتشبه بغيره ، وله مآخذ ومتارك لاينزل عنها ، وهو بفطرته لايحب تقليد الشعوب الاخرى ، بل هو من قديم الزمان مستمسك بأوضاعه ، متعال عن السير وراء أقرانه ، لا يرضى بما لديه بدلا ، ولا يبتغى عما ائتلفه حِوَلا .

نعم من جهة الصناعة وفن الرسم والتصوير قد يقلد الاسبانيول سواهم ، بل يجد الناظر فى كنائسهم وقصورهم آثاراً للفن الايطالى ، الذى يدور على محاكاة الطبيعة . وكذلك يجد فى رسومهم وتصاويرهم تأثير الفن الافرنسي ، والفلمنكي ، بل ليس فى اسبانية فن تصوير خاص بها ، ولافن بناء خاص بها ، وإنما هى محاكاة للامم

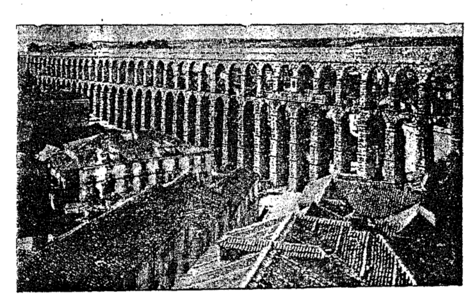
الغربية الاخرى مع جزء فيها من الطبع الاسبانى . وإذا كان السائح الاوربى لم يعرف بلاد الشرق ، أو لم يقيض له أن يزور بلاد الاسلام ، فانه يجد فى اسبانية آثاراً عربية ، تكفيه لأخذ صورة حقيقية عن المدنية الاسلامية ، التى منها فى الاندلس أمثلة كافية ، وقطع تعد من أنفس وأرقى ما تركه العرب من الآثار فى الارض .

وأما السائح الشرقى فانه يقضى سياحته فى أسبانية متأملا ، غائصاً فى بحار العبر هائماً فى أودية الفكر . كلما عثر على أثر عربى خفق له قلبه ، واهتزت أعصابه ، وتأمل فى عظمة قومه الخالين ، وما كانوا عليه من بعد نظر ، وعلو همم ، وسلامة ذوق ، ورفق يد ، ودقة صنعة . وكيف سمت بهم هممهم إلى أن يقوموا بتلك الفتوحات فى ماوراء البحر فى بحبوحة النصرانية ، وملتطم أمواج الأمم الأوربية ، وأن يبنوا فيها بناء الخالدين ويشيدوا فيها ألوفا من الحصون ، وأن يملأوها أساساً وغراساً ، كأنهم فيها أبد الآبدين ، فلايزال قلب السائح المسلم فى الأندلس مقسّما بين الإعجاب بما صنعه آباؤه فيها ، والابتهاج بما يعثر عليه من آثارهم ، وبين الحزن على خروجهم من ذلك الفردوس الذى كانوا ملكوه ، والوجد على ضياع ذلك الارث الذى عادوا فتركوه ؛ وأكثر مايغلب عليه فى سياحته هناك هو الشعور بالألم ، فهو لا يزال يسير بين تأمّل وتألّم ، وتفكر ، وتحسّر ، لكنه يريد مع ذلك أن يقترى هذه الآثار ، وأن يمشى فى مساكن أولئك الآباء ، وأن يخاطب الأحجار ، وذلك لأنه لهوى النفوس سرائر لاتُعلم ، من من جملتها أنها تنزع إلى البكاء عند دواعى الوجد ، كما ترتاح إلى الطرب عند بواعث السرور ، وأنها قد تهتف بالأمرين معاً ، وتجمع الضدين شَرَعاً ، وأن كل ما هو حنين وتذكار ، وولوع بعد الأعيان بالآثار ، هو من سرائر البشرية ، ومما هو غالب على النفس الناطقة .

العمران والفن فى اسبانية

هذا ، و إذا حاولنا تحليل الإنشاء العمرانى الذى يعول عليه فى اسبانية وجدناه ينقسم إلى أربعة أدوار : رومانى ، وقوطى ، وعربى ، وأوربى متجدد ، فالرومانى أعظم آثاره متجلية فى مدينة ماردة ، قاعدة « لوزيتانيا » التى بناها أغسطس ، ففيها الجسر الذى كانت له ٨١ حنيّة ، وفيها القناتان المعلقتان ، وفيها الملهى التمثيلى ، وفيها ملهى التمثيل البحرى وفيها الملعب العام ، وفيها هيكل المريخ الذى تحول فيما بعد كنيسة وفيها قوس النصر الشهيرة ، وغير ذلك من المبانى الخالدة . وطركونة فيها عدة هيا كل وملهى تمثيلى ، وملعب وحمامات ، وجميعها من أفخم المبانى الرومانية التى يقيدها التاريخ لتلك الأمة العظيمة . وسقوبية Ségopice هى ذات القناة المعلقة التى طولها ٨١٨ متراً ، منها ٢٦٦ متراً راكبة على طاقين من الحنايا ، الواحد فوق الآخر ، عدد قناطرها ١١٩ قنطرة ، وهو أكمل وأروع بناء رومانى فى اسبانيا .

وأما القوطى فأقدم آثاره فى « أوبيط » Oviedo وهى كنيسة « سان ميكال دوليننو » San Mikal de Lino من بناء رامير الأول (٨٤٢ ـ ٨٥٠) وكنيسة



القناة الرومانية المعلقة فى شقوبية

« سانتا مار ية نارنـكو » Naranco وغيرهما . وفى برشلونة اديار البندكتيين « سان بابلو دلـكمبو San Pablo delcampo و « سان بدرو دولاس بو يلاّس » San Pedro de Las Puellas من أبنية القرن العاشر .

وبعد ذلك لعهد بداية الـكرّة الاسبانيولية على العرب ظهرت صنعة جديدة فى البناء تدل عليها كنائس ذلك الوقت ، يكثر فى بنائها شكل الصليب ، ويقل الزخرف ، وتمتاز بالرصانة والمتانة . ومن هذا النوع كنيسة «سانتياقو دو كومبوستيلا» De Compostela التى يرجع بناؤها إلى سنة ١٠٦٠ ، وقد امتد إلى سنة ١٠٩٦ وهى تقليد لـكنيسة « سان سِرنين » فى طلّوزة . وعلى نسق هذه الـكنيسة بنيت كنيسة « سان ايزيدورو » فى ليون بين سنتى ١٠٦٣ و ١١٤٩ و « سانتا مَرية » فى « كورنية » وسان بدرو فى وشقة وغيرها . ثم فى القرن الثانى عشر بدأوا فى اسبانية يقلدون نسق البناء المعروف في فرنسة ، و يقال له هناك غوتيق Gothique وأصله نسبة إلى القوط ، ولـكنه ليس بالقوطى الاسبانيولى القديم ، فبنيت كنائس فى طلمنكة ، وطرّكونة ولاردة ، وتطيلة ، وآبلة ، وسقو بية ، على هذا النسق . وقدفاقت فى الضخامة جميع ما تقدمها .

وفي مدينة برغش Burgos كنيسة كبرى بناها المطران مور يسيو سنة ١٢٢١ تحتوى مجموعة فنون البناء فى الثلاثة الاعصر الاخيرة لذلك العهد . وكان يقال انها أبدع كنيسة فى اسبانية . بناها الاستاذ يوحنا الـكولونى Jean Cologne وكان من بلدة كولونية بنّاؤون كثيرون يعملون فى اسبانية ، وكانوا يتوخون فى ذلك العهد مناغاة الابنية العر بية ، و يحاولون التفوّق عليها . فكنيسة برغش بنيت سنة ١٢٢١ و بعد ذلك بقليل ، عند ما حوّلوا المسجد الأعظم فى طايطلة الى كنيسة فى سنة ١٢٢٧ اجتهدوا فى أن يعطوه من السعة والاتقان والفخامة والضخامة ما لم يكن معهوداً إلى ذلك الوقت ، وليس في اسبانية كنيسة أوسع رقعة من كنيسة طليطلة سوى كنيسة اشبيلية . ثم بعد بناء كنيسة طليطلة أنشأوا الـكنيسة الـكبرى فى ليون ،

ذات الصور البديعة على البلور ، وتبع ذلك كنيسة « آبلة » Avila ثم فى القرن الرابع عشر والخامس عشر جدّ طرز آخر للبناء يميل إلى توسيع الداخل، ومنه كنيسة سانت ياقو فى طليطلة ، وكنيسة « استورقة » Astorca وكنيسة سان بنيتو فى « بلد الوليد » Valladolid ودير « البرّال » Parrel فى سقوبية ، وفى « نبارة » Navarre كنيسة ببنبلونة Panpelonne وهى أشبه بكنائس فرنسة . وأبهى تلك الكنائس كلها الكنيسة العظمى فى برشلونة ، بناها فابر الميورقى . وفى القرن الخامس عشر بنيت كنيسة أشبيلية مكان الجامع الكبير الذى كان فيها ، وهى أوسع بنيّة فى ذلك العصر ، بناها معلمون من هولاندة ، وكانوا قد بدأوا يقلدون العرب فى نقش الكتابات على أحجار المبانى العامة ، وتطريس الخطوط على الأبواب

وأما فى كتلونية فانتهى طرز انشاء الكنائس بأن أصبح مطابقاً تمام المطابقة لطرز بنائها فى فرنسة ، ولما كشف الاسبانيول أميركة ، وبلغت اسبانية ما بلغته من العظمة والبسطة في القرن الخامس عشر ، ازداد الاسبان تفنناً فى البناء ، وشادوا تحت تأثير العز ، ونشوة السلطان ، وكثرة الخيرات ، مبانى مدهشة ، تستحق السياحة من البلاد النائية ، وذلك من قبيل « سان بابلو » و سان غريغوريو » فى بلد الوليد ، و « سنتا كروس » فى سقوبية ، وفى ذلك العصر نبغ « خيل دوسيلو » الذى يعد عبقرى وقته فى البناء . إلا أنه قد دخل إذ ذاك فى هندسة الكنائس فى أسبانية بدعة لم تكن لتزيدها بهاء ولا رونقا ، وهى جعل موضع خاص فى وسط البيعة لأجل الأحبار والقسيسين ، مما كان يخل بالهندسة ، و ينافى وحدة الخطوط .

وكذلك هناك بدعة أخرى ، ليست بأقل منها هُجْنة ، وهى الاجتهاد فى منع النور عن الكنائس ، وإبقاء داخلها مظلما بقدر الامكان . وهذه العادة فاشية فى أكثر بيع أوربة حتى يظن الغريب الجاهل بالأوضاع أن الظلمة هي مستحبة فى قانون الكنيسة ، وأن النور مكروه فيه . ولا نظن أحداً يكابر فى هذه الحالة

وأما طرز البناء العربى فهو على العكس من ذلك فهو يكره الظلام ، ويحب

النور ، كما تشهد ذلك فى جميع المساجد والمبانى العمومية التى شادها المسلمون فى الأندلس وغيرها ، فأما مسجد قرطبة فهو أعظم مسجد فى أسبانية ، ومن أعظم المساجد فى الاسلام ، لا أظن مسجداً يفوقه فى السعة سوى المسجد الحرام ، وسوى المسجد الأقصى . وربما كان جامع ابن طولون فى مصر بهذا المقدار . ولم يقع إنشاء المسجد الأعظم فى قرطبة دفعة واحدة ، بل وقع شيئا فشيئا ، كما سيأتى تفصيل ذلك ، فكان يزاد فيه كلما ازداد سكان قرطبة . وترى الافرنج الذين يدخلون إليه يؤوّلون سعته هذه بأنه بناء قوم كانوا يحلمون بأن الاسلام لابد أن يعم العالم ، فان المسقوف والصحن من هذا المسجد يسعان ثمانين ألف مصل يصلون وراء إمام واحد .

فأما النقش والفُسَيفِساء اللذان فى هذا المسجد فلا شك فى كونها من الصنعة البيزنطية ، كما أنه لا شك فى أن صنّاع المسلمين تعلموها وتفنّنوا فيها ، وقد تفننوا فى الخرط والنحت والنقش والزينة بما جعل لهم أسلوبا خاصاً معروفا بهم منسوباً إليهم ، تجده فى مساجدهم ، وقصورهم ، وحماماتهم ، وأبراجهم ، وأبوابهم ، وكل بناء يولونه شطراً من عنايتهم .

ومما تمتاز به المبانى الاسلامية نقش آيات القرآن الكريم ، والأحاديث الشريفة والامثال ، والأشعار ، فى الحيطان والسقوف ، وفوق الابواب ، وفى الامكنة المعروضة للنظر ، بما تزداد به الابنية سناء ، والابهاء بهاء ، ويعد من نفائس الزينة التى تزهو بها هذه المعاهد . ولقد رأيت فى رُندة قاعة انكشفت جديدا ، حيطانها كلها من المرمر ، وقد حُفر عليها سورة الفتح من أولها إلى آخرها . وكان الاسبانيول يوم أجلوا العرب عن الاندلس إذا رأوا بناء متقناً ، وضنّوا به أن يجعلوه دكا ، أبقوه ماثلا ، لكنهم غطوا بالجص جميع ما على الحيطان من الكتابات العربية ، حتى يمحوا أثر الاسلام من بلادهم بالمرة .

ولبث ذلك ديدنهم إلى هذا العصر الذى شعروا فيه بأن السياح إنما تقصد بلادهم لأجل مشاهدة الآثار العربية ، فرجعوا ينقبون عنها فى كل سهل وجبل ،

وكلما انكشف لأحدهم منها شيء عدّ نفسه قد عثر على كنز ، وصارت المجالس البلدية تمنع هدم أى أثر قديم للعرب ، و إن كان متداعياً إلى الخراب اكتفوا بتقويم شعثه ، وأبقوه على هيئته . وقد يكون الشارع ضيقاً ولا يسمحون بتوسيعه ، إذا استلزم ذلك هدم الأبنية العربية .

ومما يُعجب به الافرنج من مساجد الأندلس جامع فى طليطلة يقال له اليوم « سانتو كريستو دولالوز Dela Luz » تاريخ بنائه كما يفهم من الكتابة التى فى مدخله سنة ٩٢٢ مسيحية . ولما استرجع الأسبانيول طليطلة فى القرن الحادى عشر المسيحى حولوه كنيسة ، ولم يغيروا فيه إلا الجهة الشرقية . وفى هذا المسجد بقايا نقوش عربية بديعة . و يقال إن الأذفونش السادس الذى احتال على ابن ذى النون حتى أخذ من يده طليطلة قد سمع أول قداس بعد استيلائه على هذه البلدة فى هذا المسجد نفسه . وفى طليطلة أيضاً من أمثلة الصنعة العربية كنيس لليهود يقصد إليه السياح لنفاسة بنائه . وقد بقى في الأندلس من المآثر العربية التى يشار إليها بالبنان قصر الجعفرية فى سرقسطة ، ومنارة اشبيلية الشهيرة ، و باب ساحة النارنج فى هذه البلدة ، والقصر Alcazar الذى بناه الملك بترو الملقب بالغاشم ولكن على الطرز العربى بأيدى بنائين من العرب .

فأما حمراء غرناطة فلا تزال إلى يوم الناس هذا زينة اسبانية وحليتها ، ومقصد المتفرجين من جميع الأقطار يزورها فى دور السنة من سبعين الى مائة ألف متفرج ، ومن أغرب ما سمعت أن بعضهم يقيم الشهر والشهرين والثلاثة فى غرناطة ، وقلما يمضى يوم إلا و يقصد فيه إلى الحمراء حتى يمتع نظره بما فيها من نفائس الصنعة ، و بدائع الطبيعة ، لأن موقع الحمراء الطبيعى هو أيضا نادر فى الدنيا . ومما يحمد الله عليه أن صناعة البناء الأندلسية هى محفوظة كلها فى المغرب، لا تختلف فى شىء عما كانت عليه فى الاندلس ، وان الزليج الذى تزين به الحيطان والساحات ، والذى يشبه القاشانى فى المشرق ، لا يزال يصنع و يتنافس به .

هذا ، و بعد أن استرد الاسبان بلاد الاندلس من أيدى العرب ، وصار هؤلاء تبعة لهم تحت اسم المدجّنين ، والاسبان يقولون مدجّر Mudéjar بقيت الصنعة العربية زاهرة ، يبنى بها الاسبان أنفسهم ، ويدخلونها حتى فى بعض كنائسهم ، وقد يجمعون بينها و بين الصنعة القوطيـة . ومن القصور المبنية على الطراز العربى قصر « الانفانتادو » فى وادى الحجارة ، وقصر اسمه « كازادل كردون » Casa del Cardon فى برغش ، من بناء مهندس عربى اسمه محمد ، من سقوبيـة ، تاريخ بنائه يرجع الى القرن الخامس عشر .

ولا تخلو اسبانية من أبنية قلدوا فيهـا الصنعة الايطالية بعد عصر التجدد Renaissance ثم رغبوا فى زيادة التزيين والتزويق والتخريم والترصيع ، حتى سمى هذا الطرز من البناء بطرز الصـياغة . وكان البناءون من الطليان يطوفون فى اسبانية ، و يبنون القصور لأمرائها بحسب الصنعة الايطالية ، وربما أرسـل بعض المترفين من اسـبانية إلى جَنَوَة ، فأوصوا على رسوم لقبور موتاهم ، و بنوا بحسبها فى بلادهم . ولم يكن الطليان وحدهم هم الذين يبنون بمقتضى الهندسة الجديدة فى اسبانية بل كان هنـاك بناءون من فرنسة وهولاندة و بلجيكة وكان أشهر هؤلاء « أنريك دوايغاس » Enrique de Egas الذي هندس مدرسة « سنتا كروز » فى بلد الوليد ، وعدة مستشفيات فى طليطلة وغرناطة وسانت ياقو .

واشتهر من النحاتين فى ذلك العصر « فيليب ڤيكارنى » Vigarni « وسيلو » Siloe الذى بنى كنائس غرناطة وكنيسـة مالقـة . واشتهر أيضاً دياغو دوريانو Diego Deriano الذى له ابنية شهيرة فى اشبيلية . مثل دار البلدية ، وكذلك فى تلك الحقبة بنيت فى بيّاسة دار بلدية فاخرة . وفى أُبذة كنيسة سانتا مارية المشهورة بناها المهندس المسمّى « بلد البيرة » وهو الذى بنى كنيسة جيّان . واشتهر أيضاً « ريبارا » بانى دار البلدية فى شريش . ومن المدن الشهيرة بالمبانى المشيدة بحسب الطراز الجديد طلمنكة Salamanqua ذات الاديار والمـدارس ، ومدينـة القلعـة

Alcala وقونكة . ثم جاء عهد فيليب الثانى ، وكان الميل فيه إلى الفخامة ، مع عدم الاعتناء بالزخرف ، وبحسب هذا الاسلوب بُنى الاسكوريال الشهير كما لايخفى .

ثم جاء مهندسون أحبوا الخروج عن قواعد الفن ، ونزعوا منزع عدم التقيد مثل « جوفاره » Juvara الذى بنى قصر آل بربون الملوكى ، ويقال انه من أنفس آثار هذا الأسلوب الجديد الحر الذى يسميه الاسبان باسم « روكوكو » Rococo وكذلك يعدون مدخل كنيسة مرسية من طُرف هـذا الاسلوب . و بالاجمال ففى اسبانية من جميع أساليب الفنون النفيسة ، وكلها تستحق النظر . وفيها عدا الكنائس وقصور الملوك والمبانى العمومية منازل للنبلاء والمترفين فى كثير من المدن ، يجـدر بالسائحين أن يعوجوا عليها ، مثل قصور « آل بينافنت » Benavente فى بياسة ، وآل مدينة سالم Medinaceli فى « كوغولودو » Cogoludo وقصور « فالاسكو » Velasco « وميراندة » Miranda فى برغش وقصور « مندوزه » Méndoza في وادى الحجارة ، وغيرها من قصور العائلات النبيلة .

فأما صناعة النحت فقد وجد منها آثار قديمة ترجع إلى زمن الرومانيين ، لـكنها شخوص معدودة . ثم وجدت تماثيل قليلة من أوائل عهد النصرانية ، ولـكن فن النحت ، فى اسبانية لم يبلغ درجة تستحق الذكر إلا فى النصف الثانى من القرن الثاني عشر ، و إن وجد فى اسبانية بعض تماثيل تعد من طرف الفن فيكون ذلك من صنع الطليان أو الفرنسيس ، وفى كنيسة طركونة أمثلة من جميع أساليب النحت المعروفة حتى إن من جملتها محراباً باقياً من عهد المسلمين . وقد كان الغالب على بلاد « نبارة » الأسلوب الافرنسى فى النحت ، كما ترى ذلك فى دير بنبلونة وأماكن أخرى وأجمل ما فى اسبانية من التماثيل تماثيل السيدة مريم العذراء ، تجد منها نفائس فى اشبيلية وطرطوشة وميورقة وطليطلة وغيرها . وأكثر ما تنحت التماثيل هو للأموات من ملوك وأمراء وأحبار وأعيان . وأشهر هذه تمثال الملك فرديناند فى برغش ، وتمثال الأسقف « فرنندس دولونا » Deluna فى كنيسة سرقسطة . وكذلك تمثال الأسقف

« دوسار ڤنتس » De Cervantes فى اشبيلية وأرباب الفن يترنمون دائماً بذكر تماثيل برغش ، التى هى من خرط خيل « سيلو » Siloe ويعجبون بقبور كارلس الثالث وامرأته فى بنبلونة « وجوان كرادو » Grado فى زمّورة . ثم إنه فى كنيسة سرقسطة المسماة « بالسيو » وفى كنيسة طركونة تماثيل يقول أهل الصنعة إنها يتائم فى بابها .

ولو جاء الكاتب يحصى ما فى اسبانية من التماثيل الشهيرة ، والتصاوير المستعذبة والتهاويل المعروفة ببداعة الصنعة ، لطال به الأمر ، فان هذه البلاد ملأى بهذا النوع منه ما هو من عمل صنّاع طليان ، ومنه ما هو من عمل صنّاع البلدان الشماليه ، كفرنسة والمانية وبلجكة وهولاندة . ومن أشهر المتفننين فى النحت من أمة الاسبانيول « الونزو برّوغيت » Berruguete الذى كانت له حظوة لدى الامبراطور شارلكان فى بلد الوليد ، فقد ترك هذا الفنّ آثاراً كثيرة ، أثيرة ، يطول تعدادها . ومثله « بياترو تورّيجيانى » Torrigiani . ومما يجب ذكره أن مملكة أراغون كانت لها ملَكة قوية فى صناعة النحت ، امتازت بها على غيرها من الأقطار الاسبانية واشتهر من صناعها « داميان فورمان » Forment ، كما أنه كان فى قشتالة من الصناع المشهورين « كسبار بسرّة » Becerra أقام مدة طويلة فى رومة ، وقد رجع منها أستاذاً كبيراً فى النحت والتصوير معاً ، وكان يؤثر العمل فى الخشب على العمل فى الحجر ، وأحسن آثاره المذبح الذى فى استورقة . وممن اشتهر فى اشبيلية « مارتينس مونتانس » Montanes المعدود من فحول هذا الفن ، وكان أسلوبه وطنياً محضاً ، غير متأثر بأى فن أجنبى . ونبغ فى القرن الثامن عشر نحات أصله طليانى ، مولود فى مرسية اسمه « زار سيلو » Zarcillo وكان له مذهب خاص لا يقلد فيه غيره .

أما من جهة التصوير فلم يوجد فى اسبانية بقايا تصوير من عهد القوط الأولين وإنما بقيت تصاوير راجعة إلى القرون التي كان فيها العرب مالكين لاسبانية . وان السائح يجد فى الاسكوريال ، وفى المكتبة الوطنية فى مجريط ، وفى أكاديمية التاريخ

فى هذه العاصمة ، كتباً أثرية تشتمل تضاعيفها على صور يأخذ منها صورة ذهنية عن درجة هذا الفن فى اسبانية لعهد العرب ، ومنها صور لبعض القصور العربية ، وكان يسمى هذا النوع من الرسم بالبيزنطى . ثم دخل في اسبانية التصوير الافرنسى ، ومنه آثار تذكر فى طلمنكة ، و بنبلونة ، وتطيلة ، ودخل من جهة أخرى التصوير الايطالى واشتهرت له نفائس فى بلنسية وكتلونية وجزيرة ميورقة ، وامتاز بنصاعة الألوان ، ودقة التقاطيع ، وغلب عليه الجمال . وقد وجد فى اسبانية نوع من التصوير لا يخلو من الصنعة العربية منه مذبح دير « بيادره » Piedra

وعلى كل حال فلا الفن الافرنسى ، ولا الفن الايطالى ، بلغ فى اسبانية فى التصوير ما بلغه الفن الفلمنكى ، فلقد اشتهر من مصورى الفلمنك الذين كانت اسبانية معرضاً لبدائعهم « جان فان أيك » Van Eyck ونبغ مصورون اسبانيوليون فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، هم من مقلدى الطريقة الفلمنكية . وفى كل مقاطعة من أسبانية يجد العارف بهذا الفن مسحة منتقلة اليها من مملكة أجنبية . ففى الشمال مثل نبارة وأراغون تسود الريشة الافرنسية ، وفى الشرق مثل بلنسية وميورقة تسود الريشة الإيطالية ، وأما فى برشلونة فتوجد آثار الرسم الافرنسى والألمانى والإيطالى على السواء ، وأبدع أمثلة التصوير الاراغونى والقشتالى يجدها الإنسان فى سقوبية وآبلة ، وفى المتحف الآثارى فى مجريط ، كما أنه يجد أنفس قطع الفن الكتلونى فى فى كنيسة برشلونة ، وكذلك يجد فى متحفى بلنسية وميورقة نفائس كثيرة . وفى اشبيلية يتجلى أيضاً الفن الفلمنكى عياناً ، لأن أعظم مصور فى هذه البلدة وهو « كاسترو » Castro كان من أتباع الطريقة الفلمنكية ، ثم طرأت على اشبيلية طريقة جديدة طليانية الأصل تميل إلى محاكاة الواقع بحذافيره ، وعدم الاسترسال إلى التخيل ، واشتهر بها مصور اسمه « زورباران » Zurbaran ولا تنس آثار مصورى البنادقة الذين من عملهم أماثيل أنيقة فى الاسكوريال وقصر مجريط . وكان قد نبغ من رجال الفن البندقى مصور يقال له « تتوان » Tetuan ونبغ له تلميذ يونانى الأصل

أطلق عليه الأسبان لقب « الكريكو » Greco وقد رأيت لهذا الكريكو صوراً كثيرة فى طُلَيطلة

وفى القرن السادس عشر نبغ في مصورى اسبانية رجل يقال له « هريره » Herrera يعدّه الاسبانيول الفن الوطنى الأكبر ، لأنه يمثل الرصانة والشدة والحمية والصفات التى تغلب عليهم . وكان أهل بلنسية معروفين بحسن الذوق فى التصوير ونبغ فيهم نوابغ فى هذا الفن ، ولكن تأثير الفن الايطالى ظاهر فى تصاويرهم ، ومن أشهرهؤلاء « ريبالتا » Ribalta ثم « اسپنوزه Espinosa تلميذه ثم « ريباره » Ribera . وليس فى اسبانية مدرسة أحدث عهداً فى التصوير من مدرسة غرناطة وممن نبغ فيها « الونزوكانو » Cano . وفى القرن السابع عشر نبغ « مورلّو » Murullo الذى يحبه الاسبانيول أكثر من غيره ، وقد كان فى فنه من مقلدى الطبيعة ، أميناً للحقيقة ، لا يؤثر الخروج عنها ، وكان له ميل إلى محاكاة أذواق العامة وله تلاميذ كثيرون مثل « اوزوريو » Osorio و « طوبار » Tobar وظهر فى ذلك العصر أيضا « فلاسكس » Velazquez وأصله من شلب وقد تبع فى التصوير الطريقة الاشبيلية ، وترك آثاراً يفتخر بها الاسبانيول ، مثل صورة فليب الرابع ، وصورة الدون كارلوس ، ولم يسن لنفسه طريقة يقال إنها طريقة مدرسيه ليتابعه الناس فيها ، بل لم يكن يتقيد بأسلوب خاص به . وفى مجريط نبغ « جوان كارينيو » Carreno فى أوائل القرن السابع عشر ، وكان مصوراً للبلاط الملوكى فى أواخر عهد آل هبسبوزغ ، ثم اشتهر « سيريزو » Cerezo و « فرنسيسكو ريزى » Rizi الذى يحاكى فى تصويره الألوان المستحبّة فى الشرق . ومن مصورى القرن السابع عشر فى مجريط « ليوناردو » Leonardo ثم « مينوز » Munoz : وفى أواخر القرن السابع عشر نبغ « كولّو » Coello وكان يحاكى الفلمنكيين بسطوع الألوان واشعاع النور ، وشثونة التقاطيع . وبه ختمت دولة التصوير القديمة في اسبانية ، وقيل انه مات كمدا ، لأن البلاط الملوكى استدعى إليه « جيوردانو »

Jiordano وفى زمن آل بوربون نبغ « بالومينو » Palomino ولـكن البوربون فى القرن الثامن عشر اعتمدوا على مصورى الفرنسيس ، وروجوا بضائعهم . وفى أواخر القرن الثامن عشر ، إلى أوائل التاسع عشر ، اشتهر « فرنسيسكو غويا » Goya وكان هذا الرجل أعجوبة فى طريقته ، يرسل نفسه على سجيتها ، ولا يعرف المحاباة ، وقد تعرض غويا هذا لجميع المواضيع ، وله تصاوير دينية معلقة فى كنائس طليطلة وبلنسية ومجريط ، إلا أنه لم يكن يحسن إلا هذا اللون ، ولم يكن الناس يحبون تصاويره إلا لخشونتها ، ولمذهبه فى الصراحة ، لا رثاء فيها . والصورة التى رسمها لعائلة كارلوس الرابع هى فى الحقيقة مخزاة ناطقة بعظائم أمور . وله تصويرملاعب الثيران ، وديوان التفتيش ، وتصاوير تمثل حرب الاستقلال ، أجاد فيها إلى الغاية ويقال إنه أقدر مصور مثّل أعياد الاسبانيول . وجاء خلفا له مصور يقال له « مدرازو » Madrazo

ثم جاء العصر الأخير فنبغ « براديلّا » Pradilla « وبنليور » Benlliure واضرابهما ، فأتقنوا الصور التاريخية ، وفق هوى الاسبانيول فى الغرام بالماضى المجيد ، والافتتان بالعظيم والمحزن والمناظر القاسية . ثم ظهر المصور « فورتوفى » Fortuny وهو من كتلونية ، اعتنى بالحياة العصرية ، وكان له ملـكة تامة فى ايجاد تناسب الألوان ، على نمط نسّاجى خراسان وكشمير . وبالجملة فالأسبانيول أصحاب دولة فى التصوير والنحت ، وربما كانوا أدرى بتمثيل أحوالهم الداخلية ، والأشكال التى ترتاح إليها نفوسهم من سائر الأمم ، ولو كان الآخرون أعلى منهم كعباً فى الفنون النفيسة على وجه العموم

كلام القاضى أبى القاسم صاعد بن أحمد
الأندلسى الطليطلى

المتوفى سنة ٤٦٢ وذلك عن الأندلس العربية فى كتابه « طبقات الأمم »

قال تحت عنوان « العلوم فى الأندلس » : وأما الأندلس فكان فيها أيضاً بعد تغلّب بنى أمية عليها جماعة عُنيت بطلب الفلسفة ، ونالت أجزاء كثيرة منها ، وكانت الأندلس قبل ذلك فى الزمان القديم خالية من العلم ، لم يشتهر عند أهلها أحد بالاعتناء به إلاّ أنه يوجد فيها طِلّسمات قديمة في مواضع مختلفة ، وقع الاجماع على أنها من عمل ملوك رومية ، إذ كانت الأندلس منتظمة بمملكتهم

ولم تزل على ذلك عاطلة من الحكمة إلى أن افتتحها المسلمون فى شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين من الهجرة ، فتمادت على ذلك أيضاً لا يُعنى أهلها بشىء من العلوم إلا بعلوم الشريعة ، وعلم اللغة ، إلى أن توطد الملك لبنى أمية ، بعد عهد أهلها بالفتنة ، فتحرك ذوو الهمم منهم لطلب العلوم ، وتنبهوا لإشارة الحقائق على حسب ما يأتى ذكره بعد ان شاء الله تعالى .

وأما دين أهل الأندلس فدين الروم من الضابئة أولا ثم النصرانية إلى أن افتتحها المسلمون فى التاريخ الذى ذكرناه ، وأما ملكهم فكان لطوائف من الأمم مختلفة ، تداولوها أمة بعد أمة ، فمن تلك الأمم الروم وكان عمّالهم ينزلون مدينة طالقة العتيقة المجاورة لاشبيلية . واتصل ملكهم بها زمناً طويلا إلى أن غلبتهم عليها القوط . فانتسخ الملك الرومى منها ، واتخذ القوط مدينة طليطلة ، من مدائنها العتيقة قاعدة لملكه ، وملكوا الاندلس أفخم ملك قريباً من ثلاثمائة سنة ؛ إلى أن غلبهم المسلمون عليها فى التاريخ الذى قدمنا ذكره ، واقتعد ملوكهم قرطبة وطنا ، ولم تزل مركزاً لملك المسلمين بها إلى زمان الفتنة ، وانتشار الأمر على بنى أمية . فافترق عند

ذلك شمل الملك بالأندلس ، وصار إلى عدة من الرؤساء ، حالهم كحال الطوائف من الفرس .

وأما حدود الأندلس ، فان حدها الجنوبى منها الخليج الرومى ، الخارج مما يقابل طنجة فى موضع يعرف بالزقاق ، سعته اثنا عشر ميلا ، ثم ينتهى إلى مدينة صور من مدائن الشام . وحداها الشمالى والغربى ، البحر الأعظم المسمى أوقيانوس المعروف عندنا ببحر الظلمة . وحدها الشرقى الجبل الذى فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين : بحر الروم ، والبحر الأعظم ، ومسافة ما بين البحرين فى هذا الجبل ثلاث مراحل ، وهو الحد الأصغر من حدود الأندلس ، وحداها الأكبران الجنوبى والشمالى ، ومسافة كل واحد منهما نحو ثلاثين مرحلة ، ومسافة حدها الغربى نحو من عشرين مرحلة ، ووسط الأندلس مدينة طليطلة العتيقة ، التى كانت قاعدة القوط . وعرضها ٣٩ درجة و ٥٠ دقيقة ، وطولها ٢٨ درجة بالتقريب ، فصارت بذلك فى التقريب من وسط الاقليم الخامس ، وهى فى وقتنا هذا الذى هو سنة ستين وار بعمائة قاعدة الأمير أبى الحسن يحيى بن اسماعيل بن عامر بن مطرف بن موسى بن ذى النون عظيم ملوك الأندلس . وأقل بلاد الأندلس عرضاً المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، على البحر الجنوبى منها ، وعرضها ٣٦ درجة ، وأكثر مدنها عرضاً بعض المدائن التى على ساحلها الشمالى ، وعرض ذلك الموضع ٤٣ درجة ، فمعظم الأندلس فى الاقليم الخامس ، وطائفة منها فى الاقليم الرابع ، كاشبيلية ، ومالقة ، وقرطبة ، وغرناطة ، والمرية ، ومرسية . وهذا الجبل الذى ذكرنا فيه هيكل الزهرة الذى هو الحد الشرقى من الأندلس ، هو الحاجز ما بين الأندلس و بين بلاد افرنسة من الأرض الكبيرة ، التى هى بلاد افرنجة العظمى والأندلس آخر المعمور فى المغرب ، لأنها كما ذكرنا منتهية إلى بحر الأوقيانوس الأعظم اهـ

التقسيمات الجغرافية

القشتالتان وليون

لم تكن اسبانية فى الماضى مملكة واحدة كما هى الآن ، بل كانت أقساماً شتى ، وممالك مستقلة بعضها عن بعض . و بعد أن غلب العرب على جميعها ، ولم يبق موضع قدم منها لم يستولوا عليه ، بقيت صخرة لاذ بها ملك يقال له « بلاى » ، دخل فى كهف منها بثلاثمائة رجل ، فلم يزل العرب يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعا ، وترامت طائفة منهم إلى الطاعة ، فلم يزالوا ينقصون حتى بقى فى ثلاثين رجلا ، معهم عشر نسوة أصرّوا على الامتناع فى ذلك الكهف ، الذي كان يصعب الوصول اليه ، وجعلوا يقتاتون من العسل الذي كان النحل يمجه فى خروق الصخرة ، فاستخف بهم المسلمون وتركوهم وقالوا على ما فى رواية « أخبار مجموعة » : ثلاثون علجاً ما عسى أن يكون أمرهم ! ؟ فهؤلاء بعد رجوع المسلمين عنهم عادوا فخرجوا من الصخرة غير خاضعين ، واعصوصب حولهم كل من نزع به فى تلك الأرض عرق الأنفة عن الخضوع للأجنبى ، ورأس بلاى هذا تلك العصابة التى لم تزل تنمو وتغلظ ، حتى صارت امارة حقيقية ، ثم مملكة بحسب حسابها . ثم تكونت منها سلطنة قشتالة التي هى أول حكومة اسبانيولية استقلت عن العرب بعد أن دانت لهم جميع الجزيرة الايبيرية .

ثم لما بدأ العرب يتراجعون إلى الجنوب ، بسبب الفتن التى كانت تقع بينهم و بين البربر ، وتقع فيما بينهم بعضهم مع بعض ، جعلت قشتالة تسترد شيئاً فشيئاً من البلدان التى كان المسلمون قد استعمروها ، وصار المسلمون يجلون عن الشمال إلى الجنوب ، فلذلك انقسمت قشتالة الى ما يقال له « قشتالة القديمة » و «قشتالة الجديدة» Royaume de deux Castilles وجميع قشتالة واقعة بين جبال « استورياس » Asturies و « بسقاية » Biscaye من الشمال ، ومملكتى « اراغون » و «بلنسية»

من الشرق ، ومملكة « مرسية » والاندلس من الجنوب ، و « الاسترامادور » و « ليون » من الغرب . فأما «قشتالة القديمة » Castilla la Vieja فهي إلى الشمال وأما « قشتالة الجديدة » Castilla la Heuva فهي إلى الجنوب . والبسيط المرتفع الايبيرى الذى يقول له الاسبانيول « ميزيتا » Meseta يشتمل على القشتالتين وليون والاسترامادور . وليس فى هذا البسيط شىء ينطبق على ما يتخيله الناس ، وما تسير به الأخبار عن خصب اسبانية ، وكرم تربتها . وطيب نجعتها ، واعتدال هوائها . والحقيقة ان اسبانية التى كسبت تلك الشهرة ، وقيل انها جنة الله فى أرضه ، هى مقاطعات اسبانية الجنوبية والشرقية ، وقطعة من وادى ابره لاغير . ومتوسط ارتفاع هذا البسيط الذى نحن فى صدده عن سطح البحر هو ٨٠٠ متر يحده من الشمال جبال اشتورياس Asturias وجبال قنتبرية Cantabres ومن الشرق الجبال المسماة بالايبيرية ومن الجنوب شارات مورينا . وقولنا انه ليس مطابقاً للصفة التى يتخيلها الناس عن اسبانية لا ينفى أن يكون فيه أودية عميقة ، ذات زرع وضرع ، وإن كان يوجد بجانبها بسائط ، هى فى الحقيقة غير قابلة للسكنى ، من قسوة هوائها ، وكزازة ارضها .

وأما تقسيمات قشتالة القديمة التى أوتادها جبال قنتبرية فى الشمال والتى ريّها بواسطة « الوادى الجوفى »[1] أى « دورو » Douro ووادى « إبره » ووادى

(١) هذا النهر أول منابعه مكان يقال له اوربيون Urbion على علو ٢٢٥٥ متر عن سطح البحر بين شارات دومندا Demanda وشارات سان لورانزو Lorenzo وشارات سيبوليرا Cebollera وهى التى منها تنحدر مياه نهر إبره أيضا . وأصل اسمه دورو Duero مشتق من لفظة « دور Dour » ومعناها الغزارة ، واتصال هذا النهر بنهر ابره كان له تأثير فى الوحدة الأسبانية ، أى فى توحيد قشتالة مع أراغون . والوادى الجوفى هذا يجرى على ارتفاع سبعمائة متر فوق سطح البحر ، فهو يسقى بسائط فى غاية الاتساع ، إلى أن يصل إلى بلد الوليد ، التى هى على يمينه ، وفى أول مجراه ينحدر انحداراً خفيفا حتى يصل إلى الحدود بين أسبانيا والبرتغال ، فهو ينصب هناك بجرية شديدة فى مضايق تجعل منه نهراً هائلا ، ويصير مجراه فى غاية العمق ، وفى بعض

« بَسيورقة » Pisuerga فهى ست مقاطعات : الاولى « برغش » Burgos ومساحتها ١٤١٩٦ كيلو متراً مربعاً ، وعدد سكانها نحو من ٣٥٠ ألف نسمة . والثانية « آبلة » Avila ، ومساحتها ٨٠٤٧ كيلو متراً مربعاً . وعدد سكانها ٢١٠ آلاف نسمة ، والثالثة « سقوبية » Ségovie ومساحتها ١٠٣١٨ كيلو متراً مربعاً ، وعدد سكانها زهاء ١٧٠ ألف نسمة . والرابعة « شورية » Soria ومساحتها ١٠٣١٨ كيلو متراً مربعاً وعدد سكانها ١٦٠ ألف نسمة . والخامسة «لوكرونى» Logrono ومساحتها ٥٠٤١ كيلو متراً مربعاً ، وعدد سكانها ١٩٠ ألف نسمة . والسادسة « شنت اردم » أو « شنت اندر » Santander ومساحتها ٥٤٦٠ كيلو متراً مربعاً ، وعدد سكانها نحو من ٣٠٠ ألف نسمة .

أما قشتالة الجديدة فهى فى قلب اسبانية تتوسطها شارات « وادى الرمل » Guadarrama وأعلى قنة فيها ترتفع عن سطح البحر ٢٣٨٥ متراً وهى إلى الشمال من قشتالة الجديدة ، وأما شارات مورينا فهى منها إلى الجنوب الغربى ، وفيها يمر « وادى تاجُه » Tago « ووادى شقر » Xucar و « مَنزَانارس » Manzanares « ووادى يانة » Guadiana وهى تشتمل على المقاطعات الآتية:

الأماكن ترتفع ضفافه مائتى متر عن سطح المياه ، وأحيانا تتقارب الضفتان تقارباً شديدا ، وينحصر الماء انحصاراً عجيبا ، وتتكون من هذا الوادى شلالات ، لو استخدمت قوتها الكهربائية لجاءت بالخوارق ، ولكنه عند ما يدخل فى بلاد البرتغال ينبسط فى الأراضين ، ويعود هادئا . وللوادى الجوفى أنهر تمده من اليمين ومن الشمال ، منها دوراتون Duraton وسيغه Cega وأداجه Adaja وزاپارتيال Zapartiel وطورماس Tormes ويقال انهم يفكرون فى شق جداول بين هذه الأنهار ، حتى يمكن المجىء على الماء من طلمنكة ، التى هى على نهر طورماس ، إلى زمورة ، التى هى على الوادى الجوفى . ونهر أداجة هو نهر آبلة ، ولكن أراضيها لاتستفيد منه كما يجب ، ونهر زاپارتيال وهو نهر مدينة الكمبو . وأما نهر طورماس ، فانه يسقى بسيط طلمنكة ويتصبب إلى الوادى الجوفى على مقربة من البرتغال وأما اشقوبية فان نهرها هو المسمى بآرسما Aresma

مقاطعة « مجريط » Madrid ومساحتها نحو من ٨٠٠٠ كيلومتر مربع ، وعدد سكانها ٨٨٠ ألف نسمة . و « طليطلة » ومساحتها ١٥٣٣٤ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها نحو من ٤١٥ ألف نسمة . و « سيودادريال » Ciudad - Real ومعناها البلدة الملكية ، وهى محدثة بعد مجىء العرب ، ومساحتها ١٩٧٤١ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها ٣٨٠ ألف نسمة . و « قونقة » Cuenla ومساحتها ١٧١٩٣ كيلو متراً مربعاً ، وأهلها ٢٧٠ ألفاً . و « وادى الحجارة » Guadalajara ومساحتها ١٢١٩٢ كيلو مترا مربعاً ، وسكانها ٢١٠ آلاف .

وأما مملكة « ليون » Léon فكانت حدودها من الشمال الاشتورياس ، ومن الشرق والجنوب الشرقى قشتالة القديمة ، ومن الجنوب نحراً « الاسترا مادور » L'Estrémadure ومن الغرب غاليسية ــ و بلاد البرتقال ، وليون اليوم هى عبارة عن المقاطعات التالية :

نفس ليون ومساحتها ١٥٣٧٧ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها ٤٠٠ الف نسمة . « وطلمنكه » Salamanqua ومساحتها ١٢٣٢١ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها ٣٣٥ الفاً . و « زمورة » Zamora ومساحتها ١٠٦١٥ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها ٢٨٠ الفاً . و « بلد الوليد » Valladolid ومساحتها ٨١٤١ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها ٢٨٥ الفاً و « بالنسية » Palencia ــ هى غير بلنسية Valencia التى على البحر المتوسط ــ ومساحتها ٨٤٣١ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها نحو من ٢٠٠ الف نسمة .

ولقد كانت هذه المقاطعات التى فى قلب اسبانية تعد من فيافى بنى أسد ، لولا ما ساق اليها العرب من مياه ، وشقوا من جداول ، واتخذوا من وسائل ، حتى اهتزت وربَت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وكانوا إذا عدموا الينابيع المتفجرة ، التى تلزم لأجل الرى ، يبادرون إلى إنشاء البرك ، والمصانع الهائلة ، يجمعون اليها المياه السائلة فى الشتاء ، على نمط ما كانوا يعملون فى اليمن ، وذلك مثل البركة التي فى « منسا » Mansa وهى تحريف المصنع ، وأما بعد رحيل العرب فقد تهدمت المصانع وطمست

تلك القنىّ ، ورجعت هذه الأرضون إلى قسوتها الأولى ، وتبدلت من خضرتها غَبَرَة وصارت تلك الفلات من حنطة وحبوب وزعفران سداداً من عوز ، فى أماكن معلومة ، و بقى ذلك الى العصر الحاضر الذى عمّت به المدنية ، وامتدت السكك الحديدية ، فعاد الأهالى يعتنون بهذه الأراضى ، و يستدرون خيراتها ، لأنهم أصبحوا قادرين على اخراجها الى الخارج ، بواسطة السكك الحديدية ، وصاروا يميرون بحنطتهم بلاد البرتغال ، وقويت رغبتهم فى زراعة قصب السكر ، والشمندر . وقد كان فى أسبانية من عشرين سنة أكثر من ثمانين معملا للسكر

بلاد البشكنس

أما بلاد البشكونس فهى ثلاث مقاطعات : الأولى «غيبوسكوه» Guépuzco ، والثانية « بسقاية » Biscaye أو Vizcaya والثالثة « أَلبَة » بالتحريك Alava ومساحة جميعها ٧٠٧٥ كيلو مترا وعدد سكانها نحو من سبعمائة ألف . وهم أمة مستقلة بنفسها ، تسكن إلى الشرق من جبال قنتبرية ، على أبواب فرنسة ، وأصل اسم هذه الأمة هو « الباسقونغادوس » Vascongados ومنه اشتق اسمها الحالى « الباسك » أو « الباسكس » Les Basques . وكان العرب يقولون لهم الباشكونس ، ومنهم من يقيم على حدود « نبَاره » Navarre ومجموعهم يقارب مليونًا أو أكثر . ومنهم جمٌ فى أرض فرنسة ، ولغة الجميع واحدة مختصة بهم . ومنهم من يتكلم بالأسبانى أو الافرنسى ، ولكن نحواً من نصف مليون لايتكلمون بغير لغة الباشكونس . وهم من أشد أمم الأرض استمساكا بقوميتهم ، واحتفاظاً بخصوصيتهم ، يزعمون أنهم أقدم أمة في أوربة ، ولا نزاع فى أنهم هم بقايا الشعب الايبيري القديم ، والثمالة الخالصة المحضة التى لم تدخل عليها شائبة من ذلك الشعب القديم . أشداء جبليون ، موثقو الخَلق ، تغلب عليهم السمرة ، إلا من كان منهم

فى أعالى الجبال ، فيغلب عليه اللون الأشقر ، شُمّ الأنوف ، محدّدو الأذقان ، شعورهم مائلة إلى السواد ، وكان لهم زىّ خاص بهم لا يعرفون سواه ، ولكن قد بدأ هذا الزى يضمحل ، ولم يبق منه إلا طاقية من الصوف يقال لها البوانه Laboina لا يزالون يلبسونها على رؤوسهم ، وهى زرقاء فى مقاطعة غيبوسقوه ، وحمراء فى بسقاية وبيضاء فى ألبَة . والبشكونس الذين فى أرض فرنسة أيضاً يحافظون عليها . وأما من جهة عاداتهم القديمة فمنهم من تركها ، ومنهم من لا يزال يعض عليها بالنواجذ ، مثل أهل بسقاية . وتجدهم يستعملون محاريثهم القديمة ، وعجلات تجرها البقر ، وعليها نِيرٌ مزخرف مغطى بجلد ضان . وعندهم نوع من الرقص فى أعيادهم ومواسمهم يسمونه « أور يسكو » Aurréscu يجرونه على صوت مزمار صغير يسمى « دولسينيه » Dulsinya مع قرع الطبول .

والبشكونس من أشد أمم الأرض حباً بالحرية وأنَفَة عن قبول الضيم ، وكما كانوا يردّون غارات العرب من الجنوب ، كانوا يردّون غارات الفرنج من الشمال وكانت مواقع بلادهم الجبلية تساعدهم على رد غارات هذه الأمم العظيمة ، فان مساكنهم أكثرها فى الجبال تحيط بها الأوعار ، والأرض كما يقال تقاتل مع أهلها .

وهم الذين أوقعوا بجيش شارلمان وهو منصرف عن سرقسطة بعد أن عجز عن أخذها . وسيأتى فى كتابنا هذا عند الوصول إلى التاريخ تفصيل جميع ما وقع بين البشكونس والعرب . ولم يخضع البشكونس لملوك ليون ، وملوك نَبَارة ، وملوك قشتالة فى الآخر ، إلا على شرط احترام هذه الدول لعاداتهم وقواعدهم . وكانت لهم امتيازات يقال لها « فُيُورس » Fueros ولم تزل امتيازاتهم هذه محفوظة ، إلى أن جرت الحروب الداخلية المسماة بالكارلوسية ، والتى آخرها كان سنة ١٨٧٦ فمن بعدها أزالت الحكومة الأسبانية امتيازاتهم وأخضعتهم للخدمة العسكرية ، ولقانون احتكار الملح ، واحتكار الدخان .

وهم يسمون أنفسهم بغير الاسم الذى يسميهم به الأسبان ، أى الباسقونغادوس ،

الذى منه جاء اسم الباشكونس ، الذى كان يسميهم به العرب . فاسمهم هم بلغتهم هو « أوسكالدوناك Euscaldunac ولا يعرف معنى هذه الكلمة . وفى لغتهم لا يضعون أل التعريف قبل الاسم بل بعده . وهذا الاصطلاح ليس بنادر ، بل اللغة السويدية واللغة الدانمركية واللغة البلغارية واللغة الرومانية فيها ذلك . وليس فى هذه اللغة المثنى بل عندهم المفرد والجمع . وعلامة الجمع هى الكاف (K) وكذلك لا يوجد عندهم فرق بين المذكر والمؤنث فى التعبير . وقد غلب ذلك على لسانهم حتى إذا تكلم البشكونسى بالافرنسية يقول . هذا المرأة Ce Femme بدلا من هذه المرأة . وأما من جهة الأفعال فربما كان بينهم بعض المشابهة مع العرب ، فانه إذا أراد البشكونسى أن يقول مثلا : أنا أجىء » يقول « أنا عمال أجىء » وإذا أراد أن يقول لك « ستأكل » قال « عليك أن تأكل » وكذلك هم مثل العرب فى كثرة المترادفات فى لغتهم ، برغم أن لغتهم فى أصلها فقيرة ، وهى لم تكمل إلا بالالفاظ الكثيرة الاجنبية ، من غشقونى ، وافرنسى ، واسبانيولى ، وعربي . بحيث إذا تجرد هذا اللسان من هذه الالفاظ الداخلة عليه لا يبقى منه إلا ما يعبّر عن الاشياء المادية والمحسوسة ، فهو فى هذا أشبه بالتركى . وليس عند الباشكونس لفظة تعبر مثلا عن « الروح » واسم الله عندهم « السيد الذى فى العلى » وعندهم « الارادة » يعبر عنها بلفظة تفيد « الفكر والشهوة والتمنى » وقد اجتهد كثير من العلماء فى درس لغة الباشكونس ، ولكن صعوبة هذا الدرس جاءت من كثرة اختلاف لهجات هذه الأمة ، فان القرية الواحدة لا تتكلم بلهجة القرية التى تجاورها ، فصارت اللهجات لا تحصى . وهذا شأن كل لغة الكتابة فيها نادرة ، وشأن كل شعب تغلب عليه الأمّية . ومع هذا فقد أحصى الأمير لويس بونابرت ٢٥ لهجة باشكونسية ، يمكن إعادتها إلى ثمانية أصول بالتحليل الدقيق . وهذه الأصول الثمانية تتلخص فى ثلاثة عامة . أما الأصول الثمانية فهى : اللابوردى ، والسولتى ، والنبارى الادنى الشرقى ، والنبارى الأدنى الغربى ، والنبارى الأعلى الشمالى ، والنبارى الأعلى الجنوبى ، والغيبوشقى ،

والبسقانى ، ويمكننا أن نردّ أيضا هذه اللهجات المختلفة إلى شرقى وغربى ، فالسولّى والنبارى الادنى هما الشرقى ، والبِسقانى هو الغربى . واللهجات الاخرى هى المتوسطة بينهما . وبلاد الباشكونس لا تخلو من أجناس غريبة عنها ، وليس فيها مقاطعة خالية من الغرباء غير « غيبوسقوه » وبلاد نبارة نصفها أو أقل من الباشكونس. وأما بيُّونة وبنبلونة وبلباو فلا يتكلمون فيها بلغة الباشكونس ، وقد بدأت هذه اللغة تنحل وتضمحل بغلبة الاسبانيولى والافرنسى عليها . ولا عجب فى ذلك ، فان مكتوباتها نادرة ، ولم يعثر الباحثون على كتب بهذه اللغة ترجع إلى أعلى من القرن العاشر للمسيح ، قيل إنهم وجدوا صحيفة قديمة من سنة ٩٨٠ فيها تحديد مقاطعة بيُّونة Bayonne ، وقيل إن هذه الصحيفة نفسها ليست بوثيقة لايعترضها الشك .

وقد كشف أحد الرهبان اليسوعيين جدولا فيه ثمانية عشر كلمة من لغة الباشكونس ، وذلك فى كتاب مخطوط لزائر افرنسى زار كنيسة سنت ياقو فى القرن الثانى عشر ، وأقدم كتاب عند الباشكونس طبع سنة ١٥٤٥ ، وهو ديوان شعر مشتمل على قصائد دينية ، وأخرى غرامية . وقد طبعوا أيضا ترجمة الانجيل الى هذه اللغة سنة ١٥٧١ ، وذلك على نفقة مجلس نبَارة وجميع ما هو مكتوب بلغة الباشكونس يبلغ ستمائة مجلد لا أكثر . وأكثر الذين كتبوا هذه الكتب هم مؤلفون تلقوا ثقافة افرنسية أو قشتالية ومعظمها فى مواضيع دينية ، وعن حياة القديسين . نعم يوجد من الباشكونس من تلقوا ثقافة اسبانيولية أو افرنسية ، وأجادوا الكتابة ، لكن باللغة الافرنسية واللغة الاسبانية ، وقد جمع بعض المؤلفين كثيراً من قصص الباشكونس وتقاليدهم وأخبارهم . وأحسن المجاميع فى هذا الموضوع هو ما كتبه يوليان فيسون Viuson الذى له على الباشكونس بحث فى الانسيكلو بيدية الافرنسية الكبرى [1] .

(١) فى هذه الأيام الأخيرة انبرى الكاتب الافرنسى المسمى فرنسوا دوهوركو François Duhourcau فنشر فى جريدة عطارد فرنسة Mercurede France بحثاً طويلا عن البشكنس ، لأنه من الكتاب المعجبين بهذه الأمة ومتانة أخلاقها

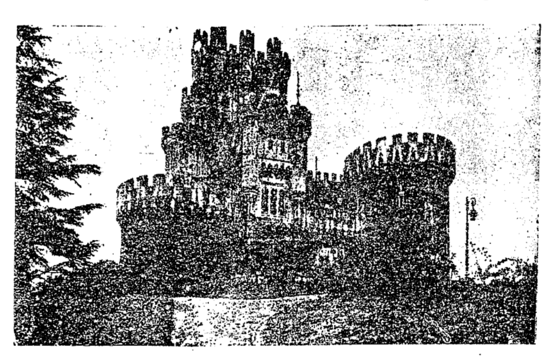
أما الباشكونس الذين فى أرض فرنسة فهم يسكنون مقاطعات لابورد La bourd ونباره السفلى La basse Navarre وسول Soule ومساحة هذه المقاطعات الثلاث

وشدة استمسا كها بأوضاعها القديمة . فالبشكنس يزعمون أنهم أقدم أمة على وجه الأرض وأنهم لم يطرأوا على أسبانية من مكان آخر ، بل كأنهم نزلوا من السماء إلى أرضها ، ولكن المؤرخين مع اقرارهم بشدة توغل هذه الأمة فى القدم ، يذهبون إلى أنها هى أيضاً طارئة على اسبانيا من مكان آخر ، ومن جملتهم المسيو دوهوركو ، يرى ان أصل أهالى الجزيرة الايبيرية هو الجنس الايبيرى ، وأن الفرق بين البشكنس وسائر الاسبانيول أن البشكنس هم ايبيريون اقحاح ، وان سائر الاسبانيين هم أيبيريون امشاج ، وان الايبيريين شعب قوقازى طرأ على أسبانية ، عن طريق البحر المتوسط وجنوبى فرنسة ، فنزل على المنحدرين الشمالى والجنوبى من البيرانس . وقد حاول الكاتب المذكور أن يستدل على أصل البشكنس وقرابتهم من الأمم الاخرى بأدلة من لغتهم ، وهو منزع كنا فى مقدمة من نبه عليه ، ولنا رسالة فى ذلك قرأناها فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى ليدن سنة ١٩٣١ ونشرناها فى مجلة المقتطف ، وعنوانها « علاقة اللهجات بالتاريخ » إذاً لا نرى هذا الباحث مخطئاً فى تنقيبه عن أصل هذه الأمة من جهة تشابه لغتها مع لغات أمم أخرى . فهل وفق دوهوركو إلى بلوغ مراده ؟ الجواب أنه من المعلوم أن اللغة البشكنسية هى اقدم من اليونانية واللاتينية ، ولم يثبت كونها فرعا من لغة السنسكريت الهندية ، بل يظن البحاثون أن أصلها لغة منقرضة فرض العلماء وجودها فرضاً ، وهى فى هذا أشبه باللغة الاتروسكية Etrusque فان هذه اللغة أيضاً ليست فرعا من فروع السنسكريت ، فيظهر للمسيو دوهوركو أن الاتروسكيين والبشكنس من أصل واحد ، وقد وجد بعض الكلمات فى لغة البشكنس تشبه كلمات أخرى فى لغة الاتروسك . من ذلك كلمة « لار » فهى تفيد معنى « رئيس » فى لغة البشكنس ، وهى كذلك فى لغة الاتروسك ، فمن هنا استدل على كون هذين الشعبين من أصل واحد ، ولما كان الرومانيون أصلهم من الاتروسك ، وصل إلى الاستنتاج بأن البشكنس هم أولاد عم الرومان ، وأصل الأصل هو من القوقاز ، وليس هذا الرأى بكرا ، فقد زعم اليزه ركلوز الجغرافى الشهير من خمسين سنة أنه يوجد بين لغتى البشكنس والكرج تشابه ، وان أصلهما لغة كانت شائعة فى آسية الصغرى منذ الآف وآلاف من السنين ، ولم تكن هذه اللغة لا من اللغات الآرية ولا السامية ولا الاورالية.

هى ستة آلاف كيلو متر مربع . فأما المقاطعات التى يسكنونها فى اسبانية فقد تقدم ذكرها . وهى جزء من ثلاثين من مساحة الجزيرة الأيبيرية بحسب تعريف اليزى « ركلوس » الجغرافى الشهير Lisée Reculs و بلادهم فيها قابلية زراعية ، وفيها معادن كثيرة كالقصدير والرصاص والحديد ولكنهم من جهة الزراعة لم يكونوا ممن بلغ شأواً عالياً . ومن الباشكونس مهاجرون كثيرون إلى أميركة كل سنة ، فلهذا عددهم يقل فى بلادهم الأصلية يوماً فيوماً .

وقد فحص الأطباء مثل الدكتور بروكا والدكتور فالسكو من مجريط جماجم الباشكونس من سبعين سنة ، وأخذوا منها عدداً كبيراً من مقابر تلك البلاد ، كما انهم ميزوا جماجم الأحياء ، فوجدوا أن هذه الأمة فيها نوعان من الجماجم ، منها النوع الذى يزيد طوله على عرضه بنحو الربع ، ومنها الذى يتساوى طوله بعرضه . ويقال عن أخلاق الباشكونس انهم كثيرو الخيالات ، سريعو الانفعالات ، وان عندهم خرافات قديمة لم يتخلصوا منها حتى الآن ، ولكن فطرتهم الأصلية مبنية على الاستقامة ، وعندهم حسن معاشرة ومخالقة ، إلا أنهم بطّاشون عند الغضب ، ومع ان الرصانة غالبة على طباعهم ، فانهم يحبون الألعاب ، و يتلذذون بالمآكل والمشارب وحسن الوفادة ، واكرام الضيف عندهم مما لا يفوقهم فيه أحد . ونساؤهم حلائل أمينات ، وأمهات مربيات ، إلا أن التدين عندهن بالغ درجة الوسواس ، لاسيما عند البنات اللواتى يئسن من المحيض ، وكثيراً ماينتهى أمر العانس من هؤلاء بالجنون . والباشكونسىّ بطبيعته ذكى الفؤاد ، شهم ، عزيز النفس ، صعب القيادة ، واذا تعلم وتهذّب ففيه قابلية كبيرة للترقى ، أما خرافاتهم القديمة فمنها أن الانسان اذا رأى امرأة يوم الاثنين تحت نافذة بيته ففى ذلك الاسبوع يحصل له بلاء ، واذا صاح الديك فى أول الليل فيكون هذا الصياح علامة على كون الديك أحس بمرور الساحرات وهو خطر يتلافونه بأخذ قبضة من الملح وذرها فى أرض البيت ، والمتزوج يوم عرسه يجتهد أن يمسك بذيل من ثوب زوجته و يضعه تحت ركبه حتى يكون فيما بعد

هو السيد في البيت ، وكان للباشكونس اعتقاد عظيم بالسحر ، وكانت السحرة عندهم فى كل مكان ، وكانت لهم اجتماعات يتداعون اليها ، و يعتقدون ان هؤلاء السحرة لهم علاقات مع الشيطان وأنهم يدفعون شره ، ولكن هذه الخرافات قد بدأت تضمحل شيئاً فشيئاً .



حصن بوترون فى بيلباو من بلاد الباشكنس

وقد كان للباشكونس دور مهم فى حروب استرداد الاندلس من أيدى المسلمين و بهذا السبب تميزت بينهم عائلات كثيرة ، ورأست وعزّت و برّت ، و بتوالى الزمن صارت نبيلة . ففى قشتالة وليون الملك هو المالك لجميع الأرض ، أما فى نبارة ، حيث مواطن الباشكونس ، فالملك يشاركه فى ملك الأراضى هؤلاء النبلاء الذين ساعدوه على طرد المسلمين ، ولهذا عندهم هناك ثلاث طبقات : النبلاء ، والعامة ، والطبقة المتوسطة بينهما . وفى « ألبَه » الأهالى ينقسمون إلى نبلاء و إلى عامة ، وذلك لأن منهم من حارب المسلمين ، ومنهم من خضع لهم ، فالذين خضعوا لهم هم المعدودون من صنف العامة .

ولهذا حصل التمايز بينهما ، أما فى « بسقاية » و « غويبوسقوه » و « لابورد »

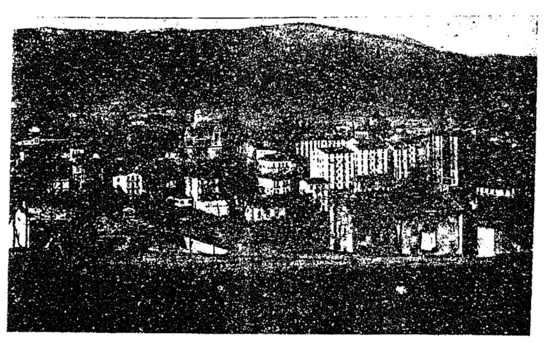
حيث لم يتمكن المسلمون ، ولم تكن لهم ولاية ، فجميع الأمة معـدودة من النبلاء ، لأنه ليس فيها من أسلم ، ولا من خضع للاسلام . والنبالة فى هذه المقاطعات يقال لها نبالة أرض ، لا نبالة دم ، والفرق بينهما أن الذين أخرجوا المسلمين بالحرب صارت لهم حقوق متأثلة ، واستولوا على الأراضى التى كانت صارت إلى العرب ، وأقاموا فيها أكّارين من عبيدهم وجنودهم ، فصار هؤلاء بكرور الأيام عائلات نبيلة ذوات اقطاع ، وأما نبلاء الأرض فهم الذين توارثوا أراضيهم من القديم ، وحفظوها خلفاً عن سلف ، لأنه لم يقع عليها فتح ، وأما القوانين والأعراف التى يمشي الباشكونس عليها فهى عبارة عن عادات واصطلاحات قديمة مختلطة بقوانين جديدة ولكل ناحية عادات تختلف عن غيرها ، وأكثرها يدور حول الامتيازات التى نالها بعض الأهالى ، وتملكوا بها الأراضى فى حروبهم مع العرب . وهذا هو خلاصة ما يقال عن الباشكنس ، إحدى الأمم الأيبرية وأقدمها ، ونزيد عليه أن باشكنس فرنسة و باشكنس اسبانية عقدوا سنة ١٩٠٢ مؤتمراً فى « فونتارابية » سموه مؤتمر اتحاد الباشكنس .

عود إلى ليون وقشتالة

ثم نعود إلى تفصيل ما أجملناه عن ليون والقشتالتين بقدر الامكان فنقول :

الحدود بين فرنسة واسبانية من جهة الشمال الغربى هى وادى « بيداسوا » Bidassoa الذى يجرى بين « هنداى » Hendaye و « فونترابية » Fontarabie وهناك جزيرة اسمها جزيرة الحجل ، فى وسط النهر اتفقت فرنسة واسبانية من قديم الزمان على جعلها منطقة متحايدة ، وفيها تلاقى الكردينال مازارين مع الدون « دوهارو » ، لأجل عقد صلح البرانس ، وتقرير زواج بنت فيليب الرابع ولويس الرابع عشر ، وفى هذه الجزيرة نفسها انعقد سنة ١٤٦٤ مؤتمر بين لويس الحادى عشر ملك فرنسة ، وهنرى الرابع ملك قشتالة ، وفيها أيضاً ودّع فرنسوا الأول ملك فرنسة أولاده وعانقهم وهم ذاهبون رهائن إلى مجريط ، بحسب معاهدة سنة ١٥٢٦

وفى هذه الجزيرة أيضاً تقررت بين فرنسة واسـبانية مصاهرة مزدوجة ، وذلك سنة ١٦١٥ بعقد نكاح ايزابلّة ابنة هنرى الرابع ملك فرنسة على فليب الرابع ملك اسبانية وعقد نكاح حنّة النمساوية أخت فيليب الرابع هذا على لويس الثالث عشر .



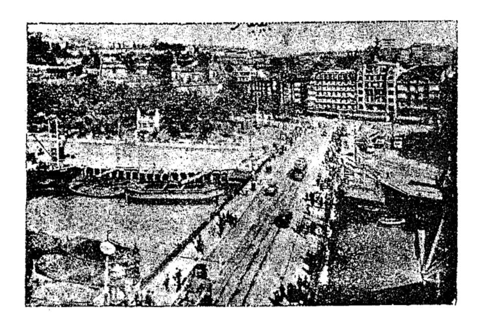
مدينة ايرون

ويوجد على وادى بيداسوا جسر مشترك طوله ١٣٠ متراً ، والنقطة المتوسطة منه هى الحد الفاصل بين المملـكتين ، فاذا تجاوزته إلى الغرب فأنت فى مقاطعة « غيئبوسكو » من بلاد الباشكونس . وأول مدينة تستقبلك هى مدينة « ايرون » Irun وعدد سكانها بضعة عشر ألف نسمة ، وهى بلدة عصرية ذات موقع جميل على الضفة اليسرى لوادى بيداسوا . ثم على مسافة عشرين كيلو متراً من هناك تصل إلى مدينة « سان سيباستيان » Saint-Sebastien والباشكونس يقولون لها « دونوستيا » Donostiya و يقولون لها أيضاً « أيروشولو » Eruchulo وهى قاعدة مقاطعة « غيئبوسكوا » وموقعها من أبدع المواقع . وفيها كانت تصيف العائلة الملوكية فى أسبانية ، ونبلاء الاسبانيول يقصدونها للنزهة ، وعدد سكانها يقرب من خمسين ألف نسمة . وهى قسمان ، قديم وجديد ، وحولها جبال يصعد إليها المتنزهون ، وعليها حصون منها جبل « ايقلدو » Igueldo وجبل « العليا » Ilia وعلى خمسين كيلومتراً

من هناك مدينة « طولوزه » Tolosa وهى بلدة صغيرة ، سكانها ستة آلاف نسمة ، وموقعها بهيج ، وفيها معامل للورق ، وهى على نهر « أورية » ، وبالقرب منها على مسافة عشرين كيلو متراً بلدة « زومرّاقة » Zumarraga وهى بلدة على نهر أوروله Urola ، ولها أيضاً منظر بديع . ومن هذه البلدة خرج « ميكال لو بِّس دوليكازبى » De Ligazpé فاتح جزر الفيليبين سنة ١٥٦٩ ، وله فيها تمثال ، وبالقرب منها بلدة صغيرة يقال لها « ڤرغاره » Vergara والبلاد هناك كلها جبال وأودية ، إلى أن يصل المسافر إلى بسيط « أَلَبَة » Alava ولألبة ذكر كثير فى كتب العرب . وهذا البسيط تنحدر إليه جداول أهمها نهير يقال له « زادوره » وقاعدة مقاطعة ألبة مدينة « فيتورية » وكانت معروفة عند العرب ، ويقال إنهم كانوا يقولون لها سنت مرية ؟ وهى بلدة صناعية ، سكانها ٣٥ ألفاً ، يقال أن بانيها هو « ليوفيجلد » ملك البيزيقوت Leovigilde بناها سنة ٥٨١ بعد يوم كان له على الباشكونس ، ثم إن الأذفونش الثامن ملك قشتالة انتزعها من يد النباريين سنة ١١٩٨ وفيها تمثال لرجل يقال له « ماتيومورازه » من زعماء الباشكونس ، كان يدافع عن امتيازاتهم . والبلدة قسمان عتيق وجديد ، والعتيق هو القسم الأعلى . وفى هذه البلدة ، أى فيتورية ، جرت معركة بين الانكليز والفرنسيس فى ٢١ يونيو سنة ١٨١٣ وكانت هذه المعركة ختام حرب أسبانية فى زمان نابوليون الأول . ثم هناك بلدة يقال لها « كستيلو » وبلدة أخرى يقال لها « أرغانزون » وهما من البلاد الصغيرة القديمة . ثم بلدة « ميرانده » وهذه سكانها خمسة آلاف نسمة ، وفيها حصن قديم وهى على نهر إبرُه

ومن جهة البحر يوجد بلدة يقال لها « غوتارية » Guetaria وبلدة يقال لها « زوميا » Zumaya على مصب نهر أوروله ، وبلدة يقال لها « سيستونه » Cestona وفى تلك الناحية دير كبير منسوب إلى القديس أغناطيوس لو يوله Ignacio de Loyola مؤسس رهبانية الجزويت ، وهو مبنى فى مكان البيت الذى ولد فيه لو يوله . وعلى البحر مرسى يقال له « ديفا » Deva سكانه ثلاثة آلاف ، وبلدة أخرى إسمها « ليكتيو »

Lequeitio سكانها أربعة آلاف ، ولها مرسى بديع . ثم بلدة «موتريكو» Motrico وأهلها صيادو سمك ، وفيها تمثال من رخام للجنرال « داميان » المولود فى موتريكو ، والمقتول فى واقعة طرف الأغر سنة ١٨٠٥ ثم بلدة « أونداروه » Ondarroa وهى مرسى سكانه صيادو سمك أيضاً ، و بلدة « الزولة » Alzola وفيها حمامات معدنية تنفع لأجل مرض المثانة ، و بلدة « الجويبار » Elgoibar و بلدة أخرى اسمها « إيبار » وفى كلتيهما معامل للسلاح . ثم بلدة دورنغو Durango ولها واد خصيب وفيها كنيسة « سان بطرودو طبيره » من أقدم كنائس الباشكونس ، و بلدة يقال لها « آمور يبيطه » Amorebieta و بلدة يقال لها « غرنيقه » Guernica وسكانها



بيلباو

٣٥٠٠ ، ولها موقع فى غاية الجمال ، وكانت فى القديم قاعدة لمقاطعة « سقاية » وهناك وادٍ بديع يقال له « ميندا كا » Mundaca وكان للأمبراطوره أوجينى زوجة نابوليون الثالث قصر للنزهة فى تلك البقعة . ثم بلده « برميو » Bermeo وسكانها عشرة آلاف ، وفيها بيمارستان للمجانين يخص ثلاث مقاطعات الباشكونس . ثم بلدة « بيلباو » Bilbao وسكانها ٩٥ ألفاً ، وهي على نهر « نرڤيون » Nervion وهى

قاعدة مقاطعة بسقاية ، تحيط بها جبال مغطاة بالحراج ، وتبعد عن البحر ١٢ كيلومتراً ولها تجارة واسعة ، وهي قسمان . المدينة الجديدة ، والمدينة القديمة . فالقديمة هي على الضفة اليمنى للنهر ، والجديدة هي على الضفة اليسرى . وعلى النهر خمسة جسور ، وقد أصلحوا النهر حتى صارت البواخر التي محمولها أربعة آلاف طن تدخل فيه . ولهذه البلدة مرسى على البحر عند مصب النهر يقال له « العبره » El - Ebra وهذه المدينة معدودة من المدن الغنية ، بسبب معادن الحديد التي بجانبها ، وفيها مبانٍ جديرة بالذكر ، ومعاهد خيرية ، منها ملجأ للعميان وللخرس ، وفيها معامل ، ويقال إن باني هذه المدينة هو « لوبِس دوهارو » Haro أمير بسقايه ، وذلك سنة ١٣٠٠

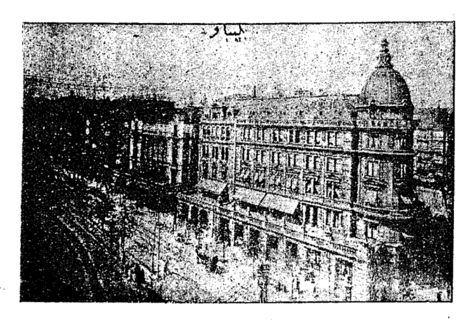


الحمام في بيلباو

وفي تلك الناحية بلدة « ارانغورِن » Arenguren وفيها معامل للورق ، وبلدة « كارانزا » Carranza وفيها ينابيع معدنية والمهم هناك هو مدينة « سانت اندر » Santander وهي مدينة بحرية سكانها سبعون ألفاً . وهي قاعدة مقاطعة بهذا الاسم ، وهي بلدة قديمة ، كانت تنتهي إليها طريق رومانية ، وكان العرب يقولون لها « شنت أدرم » وأحياناً « شنت اندر » وهي قسمان : القسم الأعلى ، وهو المدينة القديمة ، وأزقتها ضيقة ، والقسم الأدنى ، وهو المدينة الجديدة ومرساها بديع ، وتجارتها واسعة ، وهي من أهم المرافىء البحرية في شمالي اسبانية

ثم مدينة « أوردونية » وهى على وادى «نرڤيون» وعدد سكانها ٣٥٠٠ وجميع مناظر تلك البلاد شائقة نظراً لـكثرة الجبال والأودية والغابات فيها .

ثم نعود إلى الجهة الداخلية ، وهى التى يمر بها نهر ابرُه ، فمن مدن هذه الجهة « بريفسكا » Briviesca وهى بلدة صغيرة سكانها ٣٥٠٠ اجتمع فيها نواب البلاد سنة ١٣٨٨ وقرروا أن ولى عهد قشتالة ينبغى أن يحمل لقب « برنس الاشتورياس »



أحد البيوت المالية فى بيلباو

و بقربها بلدة « أونيه » One وفيها دير للبندكتيين اسمه سان سلفادور ، مبنى سنة ١٠١١ وفيه أربعة قبور من قبور الملوك وهناك قرية « كينتانا بالاَّ » Qnintanapalla التى فيها سنة ١٦٨٢ تزوج كارلوس الثانى ملك اسبانية بمارية لويز من آل بربون ، فى زمن لويس الرابع عشر . وقرية « توركادة » التى ينسب اليها « تومادوتوركادة » Torquemada رئيس ديوان التفتيش الشهير فى اسبانية . وفي تلك البلاد مسا كن كثيرة منحوتة فى الجبال . ومن الأماكن المذكورة فيها قرية « دويناس » Duenas التى تلاقى فيها فرديناند ملك أراغون مع ايزابلا ملـكة قشتالة قبل زواجهما

وعلى وادى دورو Duero الذى يقول له العرب « الوادى الجوفى » بلدة « ارانده » Aranda وهى صغيرة بديعة المنظر ، وهناك مدينة « صان استبان »

San Estevan de Gormaz وكان العرب يقولون لها « شنت استابين » وفيها حصن قديم من أيام حروب العرب . ومدينة « اوسما » Osma وهي بلدة ايبيرية عتيقة ، كان لها ذكر في الدور العربي ، وبالقرب منها على شفير واد عميق دِمَن حصن عربي قديم . وقرية « المازان » Almazan ، وفيها مسارح نظر بديعة ، وآثار أسوار قديمة ، وقنطرة على الوادي الجوفي طولها ١٦٣ متراً . ومدينة « الكامبو » Medina del Campo وهى صغيرة ، وكان فيها قصر اسمه « قصر موتا » Castillo de la Mota مبنى من سنة ١٤٤٠ كانت تؤثره الملكة ايزابلا ملكة قشتالة ، زوجة الملك فرديناند ، وتقيم به وماتت فيه سنة ١٥٠٤

ومن مدينة « الكانبو » أو « الكامبو » إلى « زمورة » ٩٠ كيلو مترا بالسكة الحديدية ، و بينهما بلدة « تورو » Toro مبنية على جبل شاهق مدهش فوق الوادى الجوفى

برغش

وأما برغش ، Burgos فهى مركز مقاطعة بهذا الاسم ، وسكانها يزيدون على ثلاثين ألفاً ، وهي مركز قيادة عسكرية ، ومقر رئاسة أساقفة ، وموقعها على يفاع من الأرض فى القسم الشمالى من قشتالة ، يسقيها نهر اسمه « ارلِنسون » Arlençon تراه أكثر السنة شحيحا ، لكن له فيضانات مدهشة . وفى برغش حصن على رابية مشرفة على البلد ، لم يبق منه إلا رسوم طامسة . وفى أسفل هذه الرابية الكنيسة الكبرى وهى من أبدع بدائع الصنعة القوطية فى اسبانية .

ولبرغش سهل مريع يسقيه جدول اسمه « بيكو » وأقنية من ارلنسون . وهذه البلدة هى من أقرس مدن اسبانية بردا ، يتسلط عليها ريح الشمال ، وقد يقع فيها الثلج فى شهر يونيو وفى الشتاء يصح أن يقال فيها :

لا ينبح الكلب فيها غيرَ واحدة ... من الصقيع ولا تسرى أفاعيها

وأما فى القيظ فهى من أشدها حرارة ، يهب عليها ريح الجنوب المحرق فيشوى



مدينة برغش « منظر عمومى »

الوجوه ، وعليها يصدق المثل الذى يقال عن مجريط وهو : تسعة أشهر شتاء ، وثلاثة أشهر جهنم الحمراء .

وفى برغش أبنية تعد من أجل ما يوجد فى اسبانية ، وأهمها الكنيسة الكبرى بدأ ببنائها الملك فرديناند الثالث الذى يقال له القديس فرديناند ، وذلك سنة ١٢٢١ واستمروا يبنون فيها و يزخرفون و يزينون مدة ثلاثمائة سنة . فتأمل كم فيها من بدائع وتصاوير وتماثيل وتخاريم ، تعد فى الدرجة الأولى من درجات الفن . و يوجد غير الكنيسة الكبرى كنائس أخرى تقصدها السياح . مثل كنيسة سان نيقولا ، وكنيسة سان اشتابين ، وكلها على طرز البناء القوطى ، وكذلك فى هذه البلدة حصن قديم يقال له « كاستيليو » يصعدون إليه من باب عربى اسمه قوس سان اشتابين وكان يسكن فيه ملوك قشتالة . وفى هذا الحصن احتفل بزواج السيد لذريق دو بيفار المسمى بالقمبيدور الشهير فى التاريخ الذى يجعله الاسبانيول بطلهم القومى ، نظراً لشجاعته واقدامه . برغم أنه كان ظالمًا غدارا ، ناقص الذمام ، عديم الوفاء . مما ثبت فى التاريخ ثبوتاً لا ريب فيه ، ولكن الشعب الأسبانى تعامى عن ذلك وخلق لهذا

الرجل محاسن لم تسكن فيه ، حتى يمكنه تمام الاعجاب به ، وقد ولد لذريق البيفارى De Buver هذا سنة ١٠٢٦ ومات سنة ١٠٩٩

وسنأتى على ذكره فى قسم التاريخ ، ونروى كيفية استيلائه على بلنسية ، واحراقه القاضى ابن حجاف فى ساحة تلك البلدة ، بحجة أنه خبأ عنه بعض خزائنه والحقيقة انه إنما أراد إلقاء الرعب فى قلوب أهل بلنسية . حتى لا يخفوا عنه شيئاً من الأموال التى كان يطمع فيها . وقد كانت ولادة هذا البطل الغشوم فى برغش ، ومكان البيت الذى ولد فيه لا يزال معروفاً . وفى دار البلدية مخدع فيه عظام السيد المذكور . وقد كانت من قبل مدفونة فى دير « كاردينية » Cardena ، وتقلبت هذه العظام على حالات شتى إلى أن جمعوها سنة ١٨٨٣ فى دار البلدية فى برغش . وبالقرب من دير كاردينية ، كانت تسكن امرأة السيد ، وهى المسماة « شيمانة » وكانت ابنة الكونت دياغو من « اويبط » diego d'oviedo فانها بعد أن مات زوجها وأخرجت من بلنسية سكنت فى برغش إلى أن ماتت [1] سنة ١١٠٤ .

(١) اختلف الناس فى أمر هذا البطل الاسبانى اختلافاً شديدا من كونه عبقرى بسالةٍ وأصالة متحليا بجميع مزايا الابطال،إلى كونه سيدا عملسا سفاكا للدماء ، غدارا نهابا ، ليس فيه شىء من مزايا الكرام . وقد كتب المؤرخون سيرته بين قادح ومادح، وقد وجد فى مكتبة ديرسان ايزيدور فى ليون مخطوط نشر سنة ١٧٩٢ يتكلم عن هذا السيد . ولكن أحسن كتاب عن السيد باعتراف الافرنج انفسهم هو المخطوط الذى عثر عليه دوزى فى غوته Gotha سنة ١٨٤٤ وهو كتاب كتبه الكاتب العربى ابن بسام بعد موت السيد بعشر سنوات ، لازيادة . وكان ابن بسام يعرف السيد معرفة شخصية فوصفه عن معرفة تامة ، ولم يكن يذكره إلا ويردف اسمه باللعنة ، ولذلك إذا قال فيه خيرا فلا بد من تصديقه ، لانه كلام عدو بحق عدوه ، فهو يقول عن السيد ما يأتى : برغم هذا كله لابد من الاعتراف بأن هذا الرجل الذى كان نقمة إلهية فى وقته ، بحبه للمجد ، ومتانة خلقه ، ورباطة جأشه ، وشجاعته الخارقة للعادة ، كان أعجوبة وقته ، وكان النصر لايفارق رايته ، وكانوا يقرأون سير أبطال العرب بحضوره ، ولما وصلوا إلى سيرة المهلب أعجب بها اعجاباً شديدا ، انتهى .

ويقال ان باني برغش هو « رودريغس بورسالوس Rodriguez Porcelos كونت قشتالة ، بناها سنة ٨٨٤ ، وكانت من قبل تابعة للاشتورياس ، ولكن الملك «أوردونيو» الثاني Ordono قتل ذرية بورسالوس ، فاستقلت المدينة واتخذت لنفسها حكومة جمهورية ، ثم فى زمن« فرنان غونزالز » Farnen Gonzales صارت قاعدة قشتالة[1] ثم عند ما اتحدت قشتالة وليون مملكة واحدة كانت هى مركز قشتالة القديمة . وفى برغش هذه هزم الفرنسيس فى زمن نابليون الجيوش الاسبانية .

ومن مباني برغش المشهورة القصر المسمَّى « بالكُردون » Caza del Cordôn وهو قصر بناه أمير الجيوش « فاليسكو » فى أواخر القرن الخامس عشر على يد البناء المشهور المسلم محمد السقوبى Mahomat de Segovia وفى برغش دير للراهبات شهير أصله مقصف لملوك قشتالة ، ثم حوّله الأذفونش الثامن سنة ١١٨٧ ديراً للراهبات ، وكان فيه مائة من هؤلاء المتبتّلات . ولم يبق الآن سوى ثلاثين . و يقال للواحدة منهن

هذا كلام بن بسام بحق السيد ، ترجمه دوزى من العربية ، ونحن الآن نترجمه إلى العربية عودا على بدء ، والله أعلم بمكان الأصل . ومنه يعلم أن السيد كان بطلا حقيقياً ، لا بطلا خياليا ، وإنما الناس نحلوه محاسن لم تكن فيه وربما أضافوا إليه مقابح تجاوزوا فيها الحدود ولكن مما لا مشاحة فيه أن الشر غالب عليه ، وانه أحرق القاضى ابن جحاف فى ساحة بلنسية ، لكونه خبأ عنه أمواله . أما شجاعته وإقدامه فما لا يختلف فيه اثنان ، وكان ملكا قشتالة واراغون فرديناند ورامير يتنازعان على مدينة كالاهوره Calahorra فلولا السيد لم يتغلب ملك قشتالة على ملك اراغون ، وسنأتى بقصة السيد على وجهها فى القسم التاريخى من هذا الكتاب ، وإنما اكتفينا الآن بالاشارة اليها .

(١) وقرأت فى كتاب «الصلة» لأبى القاسم خلف بن بشكوال ترجمة صادق بن خلف ابن صادق بن كيل الأنصارى من طليطلة فقال عنه إنه سكن برغش . فمن هنا يظهر أن العرب استولوا على برغش وسكنوا بها . هذا إلا إذا كان المقصود بالبلدة التى سكن بها صادق بن خلف الأنصارى هى قرية « برغش » بفتح الباء Bargos التى فى وادى الرمل على مسافة ٦٣ كيلو مترا من مجريط . فاما برغش المدينة المشهورة فهى بضم الباء Burgos

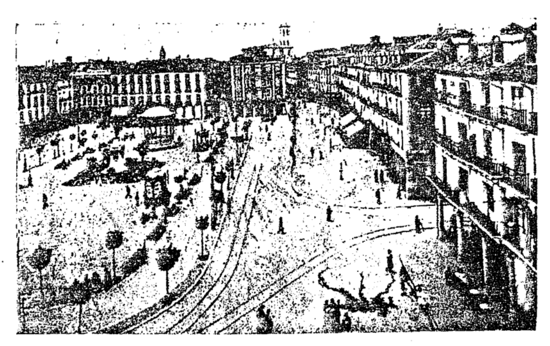
« سنيوره » أي سيدة ، ولا يقال « أخت » كما يقال لغيرهن .

وفى هذا الدير كنيسة خزانة فيها راية عربية أخـذها الأسبان من المسلمين في وقعة العقاب . وأما دير كوردينية فهو من أقدم الأديار ، كان بناؤه سنة ٥٣٧ و بانيه سَنْشَه Sancha أم الملك تيودوريق . وهناك دير آخر تاريخ بنائه يرجع إلى سنة ٥٩٣ فى قرية صغيرة بقرب برغش يقال له دير سيلوش Silos بانيه الملك « ريكاريد » Récarèd وهو اليوم للبندكتيين

بلد وليد

ثم بلد الوليد Valladolid وهذه اللفظة عربية محرفة عن « بلد الوالى » . هكذا سماها العرب ، فأضاف إليها الأسبان حرف الدال ، فصار الانسان يتوهم أنها بلد بناها رجل يقال له الوليد ، وهى الآن مركز مقاطعة بهذا الاسم . سكانها فوق السبعين ألفاً وموقعها في مرج أفْيَحْ ، على الضفة اليمنى من وادى بسيورقة . وكانت هـذه البلدة مقراً لملوك قشتاله [١] وفيها تأهل فرديناند بايزابلّا سنة ١٤٦٩ وفيها مات كريستوف كولولمب فى ٢١ مايو سنة ١٥٠٦ وفيها أقام فيليب الثانى وفيليب الثالث ، وكذلك نابوليون الأول جعل فيها مركزه عند مافتح أسبانية ، وفيها كنيسة كبرى بدأوا بهـا سنة ١٥٨٥ على يد « هرّيرة » من البنائين المشهورين ، طول المسقوف من هذه الـكنيسة ١٢٢ متراً ، وعرضها ٦٢ متراً ، وفيها مدرسة جامعة ، عدد طلبتها يقارب خمسة آلاف ، وأساتيذها خمسون ، وفيها خزانة كتب تشتمل على ٣٥ ألف مجلد . منها

(١) قال فى صبح الأعشى : مدينة وليد بفتح الواو وكسر اللام وسكون المثناة من تحت ودال مهملة فى الآخر . وموقعها فى أواخر الاقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول احدى عشرة درجة واثنتا عشرة دقيقة والعرض ثمان وثلاثون درجة وثلاث دقائق . قال فى « تقويم البلدان » : وهى من أحسن المدن وهى فى الغرب من طليطلة فى جنوبى جبل الشارة الذى يقسم الاندلس نصفين . قال : ويحلها الفونش ملك الافرنج فى أكثر أوقاته



الساحة الكبرى « بلد الوليد »

ثلاثمائة مخطوط ، وأمام المدرسة الجامعة تمثال للكاتب الاسبانيولى الشهير « ميشال دوسرفاثنتس » Cervantes صاحب كتاب « الدون كيشوط » . وفى هذه البلدة متحف كان فى أصله مدرسة يقال لها مدرسة « سانتا كروز » Santa Cruz وعلى باب هذه البناية القديمة صورة المطران « مندوزا » ساجداً أمام القديسة « تيريزه » وفى هذا المتحف مجموعة من تماثيل خشبية نادرة فى بابها ، لأشهر نحّاتى أسبانية ، وفيه من نفائس التصاوير والتماثيل مايدهش السائحين .

وفى هذه البلدة أيضاً كنيسة يقال لها كنيسة المجدلية ، فيها قبر بانيها «الدون بدور دولاغاسكا » de Lagasca وفيها كنيسة يقال لها كنيسة « سانتامارية لاانطيقا » la Antigua هى من الكنائس الاثرية ، ومدرسة يقال لها مدرسة «سان غريغوريو»، بناها البناء الشهير « ڤيغارنى » في أواخر القرن الخامس عشر . على بابها شجرة نسب الملوك الكاثوليكيين أى فرديناند وأيزابلا والمطران الونزو دو برغش . وفي بلد الوليد ايضاً كنيسة سان بابلو ، بدأوا ببنائها سنة ١٢٧٦ ثم جددها سنة ١٤٦٣ الكردينال « توركادا » وفيها ست أو سبع كنائس غير التى ذكرت . وكلها من الأبنية الموصوفة

بحسن الصنعة . وبالقرب من بلد الوليد بلدة « شنت طانكش » ، وأصل اسمها فى زمن الرومانيين « سبتيمانكة » Septimanca ثم انقلب إلى سيمنكاس Simancas والعرب يقولون لها « شنت طانكش » وفيها حصن مودعة فيه أوراق دولة اسبانية من القديم ، وهى ثمانون ألف اضبارة ، تشتمل على ٣٣ مليون وثيقة .

و بالقرب من سيمنكاس مدينة قديمة صغيرة اسمها «طورد زلاّس» Tordsillas ومن مدن تلك الجهة « أريفالو » Arévalo وهى بلدة قديمة صغيرة ، سكانها أربعة آلاف نسمة ، وكانت فى الماضى معدودة من مفاتيح مملكة قشتالة . ثم مدينة «آبلة[1]»

---

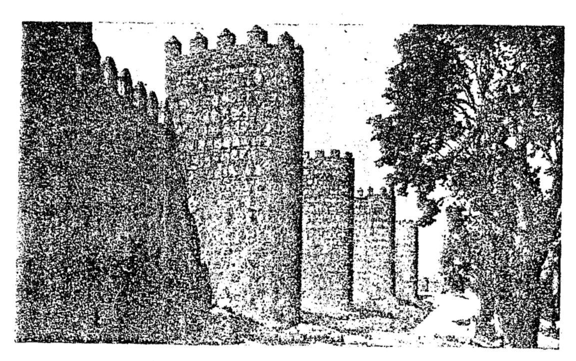
(١) قد سكن المسلمون فى آبلة لأول فتح العرب لاسبانيا ، وانتسب اليها جماعة من أهل العلم ، منهم أناس هاجروا منها إلى فاس ، وقد ذكر لى الاديب المدقق السيد محمد الفاسى من بنى الجد الفهريين أن أبا عبد الله محمد بن ابراهيم بن احمد العبدرى الآبلى المتوفى فى فاس سنة ٧٥٧ للهجرة ، أصل أجداده من آبلة ، نزحوا منها إلى تلمسان وبها ولد أبو عبد الله هذا ، ثم انتقل إلى فاس ومات بها ، وهو تلميذ العالم الرياضى الكبير ابن البناء المراكشى ، والشيخ العلامة ابن خلدون

وقد وجدت فى آبلة بلاطة تاريخ الكتابة التى عليها سنة ٨٠١ للهجرة ، نقلها لاوى بروفنسال ، وقال إن هذه البلاطة وجدت بقرب باب القصر Alcazar فى آبلة ، وهى هذه : « هذا قبر عبد الله بن يوسف السي (؟) المقتول على ظلم . . . . . (؟) . . . . . ظه وملكه عام ض ١ لهجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . . . . . (؟) . . . الله يجمعنا معه فى الجنة النعيم لاحول ولا قوة إلا بالله »

قال لاوى بروفنسال إن هذا التاريخ يوافق سنة ١٣٩٨ - ٩٩ مسيحية . قلنا إن آبلة هى من المدن التى أخلاها المسلمون من أوائل الفتح ، مثل شقوبية ، وسمينكاس ، واستورقة ، وليون ، وزموره وغيرها ، نعم ان المنصور بن أبى عامر كان قد غزا فيما بعد هذه البلاد كلها ، واستولى عليها ، بعد أن أوقع بجيوش جميع أمم الاسبانيول ، وأعاد شمالى اسبانية إلى ملك الاسلام . ولكن لم يمض على ذلك إلا قليل ، حتى كانت الفتنة فى قرطبة ، وسقطت الخلافة ، وصار المسلمون يستعين بعضهم على بعض بالنصارى ونجمت ملوك الطوائف ، وأصبحت الحالة أشبه بالفوضى ، فاسترجع النصارى جميع تلك المدن ، منها ما أخذوه بالقوة ، ومنها ما اشترطوا التخلى عنه لأجل النصرة التى كان

Avila وسكانها ١٢ ألف نسمة ، وهى مركز مقاطعة بهذا الاسم ، ومركز أسقف ، وموقعها على سطح رابية منقطعة من الجهات الثلاث ، وأمامها الجبال التى يقال لها شارات « مالاغون » من جهة الشرق ، وشارات آبلة من جهة الشمال الغربى . وهواء هذه البلدة هو فى غاية القسوة ، وقد تنازع الأسبانيول والعرب هذه البلدة مدة أربعة قرون متوالية ، ولم تدخل فى حوزة المسيحيين نهائياً إلا سنة ١٠٩٠ فى زمن الاذفونش السادس ، فحصنها الاذفونش ، وجدد فيها أبنية كثيرة ، وبقيت إلى القرن السابع عشر من أحفل مدن اسبانية وكان فيها جمٌّ غفير من الموريسك ، أى العرب الذين نصّرهم الأسبانيول ظاهراً ، ولبثوا مسلمين باطناً ، وكانت هذه المدينة عامرة بهم ، فلما طردوهم فى سنة ١٦١٠ ، وهو الجلاء الأخير ، سقطت هذه المدينة سقوطاً تاماً . وفى آبلة من الكنائس مايعدّ فى الطبقة الأولى بين كنائس أسبانية ، على كثرة احتفال الأسبانيول بالكنائس ، وبذلهم فى بنائها ما عز وهان . ومن أشهرها كنيسة « سان سلفادور » San Salvador وهى مبنية من الحجر المحبّب ، يخالها الناظر إليها حصناً من الحصون . وهى من القرون الوسطى ، وبابها بديع الصنعة ، وفى داخلها تصاوير لأشهر المصورين ، وفيها قبر المطران «الفونسو دومادريغال» من عمل النحات الشهير « فاسكو زارزا » Zarza ، وفيها كنيسة « سان بدرو » ودير « سانتو توماس » بناه الملوك الكاثوليكيون ، أى فرديناند وايزابلّا سنة ١٤٨٢ ، وفيه قبر البرنس جوان الذى مات سنة ١٤٩٧ وكان الولد الوحيد لفرديناند وايزابلا وسور آبلة القديم طوله ٢٤٠٠ متر ، ولم يكملوه إلا سنة ١٠٩٩ . وفى آبلة ماتت

يرجوها منهم كل من الفريقين المتقاتلين فى قرطبة ، إذاً فى سنة ٨٠٠ للهجرة لم يكن فى آبلة مسلمون غير المدجنين ، فان آبلة كانت قبل تاريخ هذه الكتابة بثلاثمائة سنة رجعت إلى النصرانية ، فان كان قد بقى فيها مسلمون فيكونون ممن اختاروا « الدجن » أى الاقامة تحت حكم النصارى ، من دجن دجنا ودجونا أى أقام بالمكان وألفه واستأنس به . وأصل استعماله للحمام والحيوانات . يقال الحيونات الداجنة ، ضد الحيونات البرية



سور مدينة آبلة

القديسة « تريزا » Teresa ، ولها هناك دير مشيد فى محل البيت الذى ولدت فيه سنة ١٥١٥ ، وهذه القديسة هى شفيعة آبلة . وفيها أيضاً كنائس أخرى متقنة مثل « سان سغوندو » Segundo و « سان فيسنت » Vicente نسبة إلى القديس فيسنت الذى يقال انه في سنة ٣٠٣ للمسيح قتل من أجل عقيدته المسيحية . وهناك صخرة هى فى داخل الدير ، يقال إن القديس المذكور قتل عليها . وفى آبلة ساحة منسوبة إلى المنصور بن أبى عامر . و بالقرب من آبلة واد بهيج ، يقال له « وادى البرش» Alberche ، وفيه بلدة مشهورة بنوع من العنب يسمى البياو Albillo و يقال لهذه البلدة « سبريروس » Cebreros

ومن مدن قشتالة « فيلاّلبة » Villalba واقعة على واد متسع تحيط به أهاضيب من شارات وادى الرمل ، وهى على حدود قشتالة الجديدة . وفى تلك الجهة قرية يقال لها « شارمارتين » Charmartin وهى التى فيها كان نابليون الأول عند ما استسلمت له مدينة مجريط .

ومن مدن قشتالة « أولميدو » Olmedo وهى صغيرة ، ثلاثة آلاف نسمة ،

إلا أنها كانت ذات شأن فى الماضى ، وكانت مسكن نبلاء قشتالة ، حتى ضرب المثل بها ، فكانوا يقولون : من أراد أن يسود فى قشتالة ، فعليه أن يستند على أولميدو وأر يفالو . ثم بلدة يقال لها « كوكو Coco » كان لها شأن عظيم فى القديم ، ولكنها اليوم قرية صغيرة . و بلدة سقو بية Ségovia ، وكل هذه البلاد قريبة من مجريط ، والسكة الحديدية تمر على سقو بية ثم تدخل فى نفق وادى الرمل ، وطوله ٢٧٠٠ متر و إذا أفاض الانسان من هذا النفق وقع نظره على سهل قشتالة الأفيح ، فشاهد أجمل ماتقع عليه العين . وفى تلك الناحية دير الاسكوريال الشهير ، ثم مجريط

وهذه البلدة هى اليوم عاصمة أسبانية ، وسكانها يزيدون على ثمانمائة الف وفيها مدرسة جامعة ، ومركز اسقفية ، وموقعها على ٦ ، ١ ، ٣١ من الطول الغربى من خط نصف النهار الباريزى ، وعلى ٤٠ ، ٢٤ ، ٣٠ من العرض الشمالى . وهى تعلو عن سطح البحر ٦٤٠ متر

مجريط Madrid

قال ياقوت فى معجم البلدان : مجريط بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، وكسر الراء ، و ياء ساكنة ، وطاء : بلدة بالأندلس ينسب إليها هارون بن موسى بن صالح بن جندل القيسى الأديب القرطبى ، أصله من مجريط ، يكنّى أبا نصر ، سمع من أبى عيسى الليثى وأبى على القالى ، روى عنه الخولانى ، وكان رجلا صالحا صحيح الأدب ، وله قصة فى القالى ذكرتها فى أخباره من كتاب الأدباء - يعنى كتابه معجم الأدباء - ومات المجريطي لأربع بقين من ذى القعدة سنة ٤٠١ قاله ابن بشكوال . اه

ومن غريب الأمور أن ياقوت ذكر مجريط في مكانين من كتابه ، ففى الأول ذكرها فى صفحة ٣٨٨ من الجزء السابع من معجمه ، الطبعة الأولى المصرية المصححة بقلم الشيخ احمد بن الأمين الشنقيطى ، ثم فى صفحة ٣٩٤ من الجزء نفسه ، عاد فذكر مجريط هى نفسها وترجمها غير الترجمة الأولى فقال : مجريط بالفتح ثم السكون وكسر الراء ، و ياء ، وآخره طاء مهملة : مدينة بوادى الحجارة ، اختطها محمد بن عبد الرحمن

ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك . ينسب إليها سعيد بن سالم الثغرى ، ساكن مجريط ، يكنى أبا عثمان . سمع بطليطلة من وهب ابن عيسى ، و بوادى الحجارة من وهب بن مسرّة وغيرهما ، وكان فاضلا ، وقُصد السماع عليه ، ومات لعشر خلون من شهر ربيع الآخر سنة ٣٧٦ قاله ابن الفرضى انتهى نقلا عن بغية الملتمس

والذى يلوح لنا أنه كتب عن مجريط أولا ، وانتهى منها ، ثم تلقَّى معلومات جديدة عنها فبدلا من أن يلحقها بما تقدم له فى شأن مجريط ، عاد فترجمها مرة أخرى وينسب إلى مجريط عدد من أهل العلم فى الاسلام منهم أبو محمد عبد الله بن سعيد المجريطى[1] وعبد الرحمن[2] بن عبد الله بن حماد المجريطى . وهارون بن موسى ابن صالح ابن جندل القيسى القرطبى ، أصله من مجريط ، وأبو العباس يحيى بن محمد ابن فرج بن فتح ، المعروف بابن الحاج[3] المجريطى ، توفى بقرطبة سنة ٥١٥ وأبو يعقوب يوسف بن عبد الرحمن بن عبدالله بن حمّاد[4] المجريطى ، توفى بمجريط نفسها سنة ٤٧٣ وعبد الرحمن بن عيسى بن عبد الرحمن بن الحاج المجريطى ، سكن قرطبة ، وكان

(١) سمع من علماء طليطلة وعلماء قرطبة وتوفى بالمشرق سنة ٣٩٠ أو فى السنة التى بعدها

(٢) أخذ عن ابن مدراج وعبدوس بن محمد وأبى بكر الزبيدى وابن الهندى وابن العطار وابن ابى زمنين وكان فاضلا ثقة متواضعاً قال ابنه يوسف بن عبد الرحمن : توفى أبى رحمه الله فى صفر سنة ٤٠٧ وهو ابن ٧٧ سنة

(٣) كان من علماء الأدب والعربية قال ابن بشكوال : وقد أخذ عنه أصحابنا وكان أحد العدول وتوفى رحمه الله يوم الاثنين لاربع بقين من ربيع الأول سنة ٥١٥ بقرطبة ودفن بمقبرة أم سلمة حضرت جنازته اه

(٤) روى عن ابى عبد الله بن الفخار وابى عمر الطلمنكى وابى محمد الشنتجيالى ورحل الى المشرق حاجاً ولقى أبا ذر الهروى ويحيى بن نجاح ولقى ببرقة ميمون ابن طريف وباطرابلس أبا الحسن بن المنمر وقرأ عليه كتابه فى الفرائض وكان أبو يعقوب ابن الحاج هذا ثقة حسن الخط من بيت خير وفضل توفى بمجريط سنة ٤٧٣

يكنّى بأبى الحسن(١) . وأبو الحسن غريب بن خلف بن قاسم الخطيب القيسى الجريطى نزيل مالقه ، كان من أهل العلم ، وله تصنيف

وأعظم المنسوبين إلى مجريط أبو القاسم مسلمة بن احمد الجريطى الفلكى الكيماوى الشهير . وممن ينسب إلى مجريط سعيد بن سالم الجريطي المعروف بأبى عثمان الثغرى الذى ذكره ياقوت ، وينسب إلى مجريط أبو العباس يحيى بن عبد الرحمن ابن عيسى بن عبد الرحمن بن الحاج ، كان ساكناً فى قرطبة . وتولّى قضاء جيّان ، وقضاء مرسية ، وقضاء غرناطة ، ثم تولّى قضاء قرطبة بعد أبى الوليد بن رشد ، وكان قاضياً جليلا ، توفى(٢) سنة ٥٩٨ .

وأما أبو يعقوب يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حمّاد الجريطى الذى قلنا إنه توفى بمجريط سنة ٤٧٣ ، فاذا كان القشتاليون استولوا على مجريط سنة ١٠٨٣ فينبغى أن تكون وفاته وقعت فى مجريط بعد استرداد الاسبانيول لهذه البلدة . وأخبرنى مهندس اسبانيولى مدقق متخصص بعلم الآثار اسمه فرناندس من أهل قرطبة أنه لما استولى الأسبان على مجريط كان فيها أربعة جوامع

كان بناء مجريط فى زمن العرب ضرورة عسكرية ، لأنهم جعلوها قلعة فى وجه القشتاليين ، ولولا القلعة ما تكونت ثمة بلدة ، إذ ليس إلا بلد مَحْل ، وماء ضَحْل ، وبقيت فى أيدى العرب مدة طويلة إلى أن تمكن الاسبانيول من إرجاعها سنة ١٠٨٣ وذلك على يد الأذفونش السادس ، وكانت القلعة العربية فى مكان القصر الملوكى الحالى وهذا القصر هو أفخم بناء فى هذه العاصمة الآن ، وكان الشروع ببنائه سنة ١٧٦٤

---

(١) قال ابن الآبار فى التكملة : يعرف بالجريطى لان أصله منها أخذ القراءات عن ابى القاسم بن النحاس وتولى القضاء برندة وحدث عنه ابنه القاضى أبو العباس يحيى بن عبد الرحمن وكان مولده سنة ٤٧٣ وتوفى سنة احدى وعشرين وخمسمائة

(٢) ترجمه ابن الابار . فقال : انه اخذ القراءات عن أبيه وقرأ على ابى بكر ابن العربى وأبى زيد الخزرجى وأبى بكر بن سمجون وتولى قضاء جيان ومرسية وغرناطة ثم قضاء قرطبة بعد ابن رشد وكان معدوداً فى رجالها مع الجزالة والعدالة والايثار للحق

هذا ، ولما دخلها الاسبانيول حوّلوا مسجدها الكبير إلى كنيسة باسم السيدة العذراء وأعطوا مجريط امتيازات كثيرة ، وصارت لذلك العهد مدينة لابأس بها ، تمتد إلى باب « لاتينه » Latina وباب « سرّاده » Cerrada ، وباب «وادى الحجارة » وباب « سانتو دومينكو » Sato Domingo وباب «سان مارتين » San Martin وباب « الصول » Del Sol ، ووقع بين أهل مجريط وأساقفة أسبانيه دعوى على مشاعات البلدة ، فصدر الحكم بأن تكون المراعى لرجال الكنيسه وأن تكون الغابات للمدينه .

وفى سنة ١٣٢٩ جمع فرديناند الرابع أول مجلس للأمة الاسبانية فى مجريط وفى سنة ١٣٨٣ التجأ إلى اسبانية لاوون ملك أرمينية شريداً ، فولّوه على مجريط ، ولكن بعد وفاته رجعت البلدة إلى حكم قشتالة ، وفى سنة ١٣٩٠ حصلت في مجريط فتن متتابعة أيام كان الملك هنري الثالث صغيراً فانتقلت العائلة المالكة إلى سقوبية . ثم تجددت هذه الفتن فى زمن هنرى الرابع بين سنتى ١٤٥٤ و ١٤٧٤ ، ولم تستقر أحوال مجريط إلا فى زمن الملوك الكاثوليكيين ، أى فرديناند وايزابلّا سنة ١٤٧٧ وفى زمن شارلكان ثارت مجريط عليه ، وانضمت إلى الحزب الذى كان يأبى الانقياد للحكم المركزى ، إلا أن هذا الحزب انتهى أمره بالفشل ، فدخل شارلكان مجريط سنة ١٥٢٤ وبعد ذلك بسنة ، لما وقع فرنسوا الأول ملك فرنسة أسيراً فى يد الامبراطور شارلكان ، بعد معركة « بافيه » Pavia جيء به إلى مجريط ، واعتقلوه مدة في البرج المسمى « لوجانس » Lujanes ثم نقلوه إلى القصر Alcazar ، وكان عدد أهالى مجريط فى أوائل القرن السادس عشر لا يتجاوز ثلاثة آلاف نسمة .

والذى فكر فى جعل مجريط عاصمة اسبانية هو فيليب الثانى ، وذلك سنة ١٥٦٠ وقبلها كانت العاصمة طليطلة . وكان فى طليطلة كرسى الأسقف الأكبر ، فكانت هذه المدينة عاصمة اسبانية فى الدين والدنيا ، وكان الاحتكاك الدائم لايخلو من حوادث تبعث على الاختلاف ، فأخذ فيليب الثانى يفكر فى الانتقال إلى مركز

آخر يتوسط المملكة من جميع الجهات ، فلم يجد أفضل من مجريط ، على علاتها ، وقحولة أرضها ، وعطلها من أكثر المواهب الطبيعية التي تقوم بها عمارة البلدان . فانه فكر في سرقسطة ، فوجدها منحرفة إلى الشمال . وفي برغش وليون ، فلم يجد فيهما التوسط اللازم الذي جعله نصب عينيه ، وفي قرطبة واشبيلية ، فوجدهما ضاربتين في الجنوب ، وكان مراده على كل حال أن يغادر طليطلة فراراً من مجاورة أحبار الكنيسة فاختار مجريط ، برغم وقوعها في أرض قليلة الخيرات ، لا تجري فيها أنهار ولا تمتاز بزرع ولا ضرع ، كما أن هواءها جامع بين الأضداد ، فمن نوافح البرد القارس ، إلى لوافح الحر المحرق ، ففي أيام الشتاء قد تنزل درجة الحرارة في الميزان إلى ١١ تحت الصفر ويتجمد الماء أكثر فصل الشتاء ، وفي الصيف تصعد الحرارة إلى الدرجة ٤٣ في الظل ، كأنه حر الساحل الجنوبي ، ثم ان هواء مجريط ، إما أن يكون شديداً عاصفاً ، يصرع الرجل الماشي في الشارع ، وإما أن ينقطع تماماً ، حتى لا يطفىء المصباح ، فتقلبات الأحوال الجوية في هذه العاصمة أعجوبة من الأعاجيب ، ومن أمثالهم : لا تترك معطفك قبل ٢٠ مايو .

ولما انتقل فيليب الثاني إلى مجريط كان فيها ٢٥٠٠ بيت ، و ٢٥ ألف نسمة ، فضاقت على رجال الدولة والجند . وصدرت الأوامر بانزال الأمراء والقواد وأصحاب المناصب في البيوت الكبيرة ، فمن ذلك الوقت امتنع الناس عن بناء الدور الفيحاء ، وصار الأغنياء منهم يعتمدون السكنى في المنازل الحقيرة ، حتى لا ينزل رجال الدولة في دورهم . فلذلك بقيت مجريط لا تتقدم إلى الأمام مدة طويلة ، مع ان الفن لذلك العهد كان بلغ أوج الترقي ، واستمرت هذه الحالة على مجريط إلى أن جاء آل بوربون ملوكاً على اسبانية ، فشرع كارلس الثالث ، أفضل ملوك هذه العائلة ، في عمارة مجريط والاعتناء بشأنها . ولما استعفى كارلس الرابع من عرش اسبانية سنة ١٨٠٨ جاء يوسف بونابرت ، وأخذ يوسع شوارع مجريط ، ويهدم حاراتها القديمة ، والأديار التي كانت تضيق بها الأرض بما رَحُبت ثم ذهب حكم نابليون ، وأعيد حكم آل

بربون ، وجاء فرديناند السابع ، فأخذ يعتني بتوسيع مجريط وتزيينها ، إلى أن كسبت شكل عاصمة حقيقية .

وأشهر ساحة فى مجريط هى التى يقال لها « باب الشمس » Peurta del Sol ومن هذه الساحة يمتد شارعان ، أحدهما المسمى شارع « القلعة » Alcala وهو أوسع شوارع المدينة وأبهاها ، وبه تسير جميع المواكب فى الاحتفالات ، والثانى شارع « جيرونيمو » وفيه أعظم المخازن وأغناها .

وفى مجريط أكاديميه للفنون النفيسة ، وفيها متحف المدفعية وفيه آثار ونفائس كثيرة . وفيه قاعة تسمى القاعة العربية ، جمعوا إليها كل ما قدروا عليه من مخلفات العرب ، من رايات ، وعمائم ، وأثواب ، وأحذية ، وسيوف ، ومن جملتها سيف أبي عبد الله بن الأحمر ، آخر ملوك غرناطة . وقد اشتمل هذا المتحف أيضاً على غنائم كثيرة مما حازه الاسبانيول فى فتح أميركة ، وتلك المستعمرات الواسعة ، وكذلك فى هذا المتحف تذكارات كثيرة من أيام حروب الكرلوسيين .

وحروب الكرلوسيين تشغل من تاريخ اسبانية حيزاً كبيراً ، بحيث لا يفهم القارىء حقيقة تاريخ اسبانية فى القرن الماضى بدون أن يعرف قضية الكرلوسيين هذه . فلذلك رأينا تلخيصها فيما يلى :

الدون كارلوس البربونى المولود سنة ١٧٨٨ المتوفى سنة ١٨٥٥ كان ابن كارلس الرابع ، ملك أسبانية ، واخا فرديناند السابع . فلما حمل نابليون الأول فرديناند هذا على الاستعفاء واعتقله ، كان الدون كارلس مع أخيه فى الاعتقال ، فلما عاد فرديناند الى الملك ، بعد سقوط نابليون سنة ١٨١٤ عاد الدون كارلس أيضاً مع أخيه ونظراً لكون فرديناند لم يعقب ولداً ، كان كارلس هو ولىّ العهد الشرعى ، وحوله اجتمع رجال الكنيسة والرهبان والنبلاء الذين يكرهون مبادىء الثورة ، وجميع من كان من أنصار الملكية المطلقة ، وأصحاب الامتيازات والاقطاعات ، فصار الدون كارلس يناوىء أخاه الملك ، ولم يتمكن فرديناند من العرش فى وسط هذه المزاهز الا بواسطة

جيش أنجدته به فرنسة سنة ١٨٢٣ ، واشتدت العداوة بين الأخوين ، فتزوج الملك فرديناند بماريةَ كرستينا من ملوك الصقليّتين ، وولد له منها الأميرة ايزابلاّ ، فصارت هي فى نظر أبيها وارثة الملك . والحال ان قانون أسبانية كان يحصر الارث فى الذكور ، فادّى الامر الى الحرب بين حزب الملك وحزب الدون كارلس ، ومزّقت هذه الحروب الأمة الأسبانية تمزيقاً ، واتفقت فرنسة وانكلترة ، فعضدتا الملك فرديناند فى وجه أخيه ثم مات الملك سنة ١٨٣٣ فقامت مقامه زوجته الدونة مارية ، وعضدتّها فرنسة وانكلترة ، فانهزم كارلس الى البرتغال ، لمصاهرة بينه و بين الدون ميكال ملك البرتغال . الاّ ان حزب الدون كارلس كان كبيراً ، وثارت معه المقاطعات التى كانت تكره النظام المركزى ، فاشتعلت نار الفتنة فى الاستورياش ، وبلاد الباشكونس ، ونَبَارَه ، واراغون ، وكتلونية . واشتدت الحرب الأهلية فى أسبانية ، الى ان وقع الخلف أخيراً بين زعماء حزبه ، ففشلوا ، واضطر كارلوس الى الفرار سنة ١٨٣٩ ، والتجأ الى فرنسة فى زمن الملك لويس فيليب ، واعتقل فيها .

ثم نزل عن دعواه لشخصه وخلفه ابنه الدون المسمى كارلس أيضاً ، فاخذ هذا يثير حزبه على ابنة عمه ، وجرت وقائع وحروب فى أيامه ، كما جرت فى أيام أبيه . وما زال يقاتل و يثير الفتنة الى أن مات . فخلفه أخوه الدون جوان . ثم خلف الدون جوان ولده الدون كارلس أيضاً ، وذلك سنة ١٨٦٨ ، وسماه حزبه كارلس السابع ، ودخل أسبانية ، وأثار الفتنة ، نظير عمه وجده . وتغلب على عساكر الدولة الأسبانية ، وقام بتشكيل وزارة ، واوشك ان يستولى على العرش . واستمرت هذه الحالة مدة أربع سنوات ، الى أن تغلّبت الدولة الأسبانية فى الآخر عليه ، فانهزم الى الخارج ، فصار يجول فى الاقطار الى ان مات . وانتهت الشحناء الكارلوسية .

ثم نعود الى ذكر مدينة مجريط فنقول : انه فيها دار لمجلس النواب ، يقال لها دار المؤتمر Palacio del Congreso وهى بناء فخم ، انشأه المهندس . ترسيزو بشكوال Pascual . وأمام الرتاج اسدان من سكب الرمل ومدافع غنمها الاسبان من

المراكشيين فى واقعة تطوان سنة ١٨٦٠ . وفى مجريط متحف يقال له متحف البرادو Prado ، بدأوا به سنة ١٧٨٥ ، وهو قسمان ، أحدهما للتماثيل ، والآخر للتصاوير . وفيه آثار ايدى مشاهير المصورين والنحاتين ، ممن تقدم لنا ذكرهم فى الفصل المتعلق بالفن ، ومن غيرهم . فهو من أحفل متاحف أوربة بلا نزاع ، يختلف اليه عشاق الفن ما شاؤا ان يختلفوا ، ولا يزالون يرون فيه أشياء جديدة . وفيها جنة النبات Gardin Botanique ، وقد بدأوا بها سنة ١٧٧٤ الا ان دليل بديكر يجعلها دون حديقة النباتات التى فى بلنسية ، ودون حدائق النباتات التى فى البرتغال .

وفى مجريط ساحة يقال لها ساحة الشرق ، فى نهايتها ملهى التمثيل الملوكى . وأما قصر مجلس الشيوخ فانه فى طرف من المدينة ، بينما مجلس النواب هو فى الطرف الآخر .

وأما خزانة الكتب الوطنية ففيها عدا الكتب ، وعدا الوثائق التاريخية ، متحف يقال له متحف الفن الحديث ، ومتحف آخر يقال له متحف الآثار القومية . وقد بدأوا ببناء دار الكتب هذه سنة ١٨٦٦ ، وانتهوا منها سنة ١٨٩٤ ، وامام رتاجها تماثيل المشاهير من رجال أسبانية ، وفى داخلها تماثيل ملوكهم وملكاتهم . وأول من جمع هذه الكتب فى مجريط هو الملك فيليب الخامس ، وذلك من مائتين وخمس وعشرين سنة . وسنة ١٨٦٦ إشترت الحكومة مجموعة كتب مخطوطة كانت تخص دوق اوشونة ، واضافتها الى هذه المكتبة . ومجموع ما تشتمل عليه من الكتب هو ستمائة وخمسون الف مجلد ، منها ثلاثون الف مخطوط ، والفان وسبعة وخمسون كتاباً طبعت فى بداية عهد الطباعة . وفيها عشرون الف ورقة من الوثائق . وثلاثون الف صورة يدوية . وفيها ثمانمائة طبعة من كتاب الدون كيشوط . والبناء هو سبع طبقات من الحجر والحديد ، وفى قاعة القراءة ٣٢٠ كرسياً . ولما ذهبت الى مجريط سنة ١٩٣٠ كنت أذهب كل يوم الى هذه المكتبة ، وفيها اطلعت على كتب كثيرة تتعلق بالأندلس ، ثم اقتنيت اكثرها فيما بعد ذلك ، ونسخت بخط يدى

يومئذ قسما من كتاب اخبار مجموعة ، وهو أول تاريخ عربى لمسلمى الاندلس ، يصل الى زمان الناصر ، وقسما من كتاب القضاة بقرطبة ، لأبى عبد الله محمد الخشنى

وأما خزانة الآثار القومية ففيها مائتا ألف وثيقة ، جمعت من كل الأطراف ، ولا سيما من كنيسة آبلة . وتحت المكتبة أقباء ملأى بالآثار القديمة التى قبل التاريخ وعظام بشرية ، وهناك مكان للعاديات الشرقية ، ومنسوجات قبطية ، وآنية أصلها من قبرص ، وكثير من المصنوعات الايبيرية ، والتماثيل العتيقة ، مما يحار له العقل . ويقضى السائح الأيام والأشهر وهو يقضى منه العجب ، ويوجد قاعات لآثار القرون الوسطى : من كتابات ، وقطع فنيّة ، ونواويس . وهناك قاعة خاصة بآثار العرب ، والآثار المسيحية التى يطلق عليها اسم الطراز المدجّن ، والاسبانيول يقولون المدجَّر ، وأكثر هذه الآثار العربية مأخوذة من أشبيلية وقرطبة وسرقسطة وغرناطة وفى القاعة العربية أسطرلابان عربيان ، أحدهما تاريخ صنعه سنة ١٠٦٧ مسيحية ، وهو أقدم أسطرلاب معروف اليوم . وفيها تحت الزجاج مجموعة عظيمة من الصحون والآنية العربية . وإلى الحائط الغربى من القاعة العربية قوسان من باب الجعفرية ، فى سرقسطة ، وقطع من البهو الملوكى فى الجعفرية المذكورة ، وباب عربى جىء به من ليون ، وحوض للوضوء جىء به من مدينة الزهراء فى قرطبة ، وآثار من جامع بناه محمد الثالث فى غرناطة وإلى الحائط الجنوبى باب عربى من خشب وجدوه فى « دروقه » ، وإلى الحائط الشرقى مجموعة من الزّليج ، وفى الوسط فوّارة أشبه بفوّارة قاعة الأسود فى الحمراء ، وفوّرتان من قرطبة ، ويوجد سيوف عربية ، وخواتم ، وآنية من العاج ، وغير ذلك من نفيس صناعات العرب . ومما يوجد فى هذا المخزن مفاتيح مدينة وهران يوم دخلها الاسبانيول سنة ١٥٠٩

وفى الطبقة الأولى من خزانة الآثار هذه توجد آثار مكسيكية قديمة ، حازها الاسبانيول يوم فتحوا تلك البلاد ، وآثار غريبة ، وآنية خَزَفيّة ، ومنسوجات من أميركا الجنوبية ، وفُسَيفِساء من صنعة أميركا الشمالية القديمة وغير ذلك مما وجدوه فى المكسيك وكولومبية وكوبا وغيرها .

ومكتبة مجريط هى من أغنى مكاتب أوربة بلا نزاع ، سواء فى الكتب ، أوفى الآثار أو فى التحف النفيسة ، وفيها أيضاً نفائس من صنعة فارس وتركية والهند ، وتماثيل صينية ، ومصنوعات من العاج من عمل الصين ، وفيها أيضاً من صناعة اليابانيين و بلاد الفيليبين ، وفيها معرض للسكوكات القديمة ، من زمان قرطاجنة فما بعدها ، وغير ذلك مما لايكاد يحيط به العقل .

وفى مجريط تمثال لكريستوف كولومب منصوب فى ساحة منسوبة إليه . وتمثال للملكة إيزابلا الكاثوليكية ، وتماثيل أخرى لأعاظم الرجال . وفيها متحف للعلوم الطبيعية أنشأوه سنة ١٧٧١ ، يوجد فيه كثير من الحيوانات والطيور والحشرات والهوام والبقايا المتحجرة . ولما كانت مجريط خالية من الماء فى وسطها فقد جرُّوا إليها قناة يقال لها « لوزويا » Lozoya ، وأنشأوا خزَّاناً يفضى إليه الماء فى أعلا نقطة من المدينة ، وهذا الخزّان يسع ١٨٠ ألف مترمكعب من الماء ، وهناك برج عال ارتفاعه ٣٧ متراً تتفرق منه المياه على الحاضرة . وأوسع ساحة فى مجريط هى الساحة التى يقال لها «ساحة الشرق» Plaza de Oriente أنشأها يوسف بونابرت لما كان ملكاعلى أسبانية ولكثرة ما أنشأ من الساحات صاروا يقولون له « Rey Plazueles » ومعناه ملك الساحات . وقد هدم لأجل توسيع هذه الساحة عدة أديار وكنيسة وخمسمائة بيت . وفيها أربعون تمثالا للملوك القوط والأسبان . وفى مجريط دار للسلاح مشهورة ، وكان أصلها فى بلد الوليد ، فنقلها فيليب الثانى إلى مجريط ، وفيها أسلحة من جميع الأنواع ، منها ماجاء هدية من اليابان إلى فيليب الثانى ، ومنها أسلحة مكسيكية . وفيها رايات باقية من زمن شارلكان وفيليب الثانى ، وكذلك دروع ومغافر كانت لشارلكان وفيها أيضاً عمامة وأسلحة منسوبة لخير الدين بربروس ، قيل إنهم أخذوها فى موقعة تونس سنة ١٥٣٥ ، وفيها أسلحة على باشا أمير البحر التركى ، مع ثيابه وراية تركية ، مما أخذه الأسبان فى واقعة ليبنط الشهيرة سنة ١٥٧١ ، وفيها رايات لمشاهير قوّاد أسبانية . وخيمة من مصنوعات تركية ، كانت لفرنسوا الأول ملك فرنسة وقد أخذها

الاسبانيول في وقعة « بافيا » التي أسر فيها ، وفيها سيوف باركها البابوات لأن أصحابها جاهدوا فى المسلمين ، مثل الملك هنرى الرابع صاحب قشتالة ، والأمبراطور شارلكان وفيليب الثانى ، وفيليب الثالث ، وفيليب الرابع ، وفيها أسلحة تركية من صنعة القرن السادس عشر والسابع عشر ، و بقايا غنائم أخذوها يوم فتحوا وهران سنة ١٧٣٢ ، وفيها أسلحة شارلكان يوم نازل تونس ، و يوم انكسر عن مدينة الجزائر . وفيها أسلحة كانت للملك فرديناند الكاثوليكى ، وقلما وجد سلاح لملك من ملوك أسبانية إلا ومنه بقية فى هذا المخزن

وفى مجريط دار يقال لها أكاديمية التاريخ ، بنيت سنة ١٧٣٨ ، وفيها متحف يحتوى على أسلحة ايبيرية قديمة ، وعلى مجموعة مسكوكات ، ومن جملة مافيها راية عربية كانت من قبل فى كنيسة سان اشتبان . وأما من جهة الكتب ففيها ٤٤ ألف مجلد ، من أصلها ألفان من المجلدات المخطوطة ، وأكثرها عائد لتاريخ أسبانية

وأما الكنائس فحدّث عنها ولا حرج ، ففى اسبانية تكون القصبة لا يتجاوز سكانها عشرة آلاف نسمة ، ولا تعدم فيها كنيسة متقنة تستحق أن يقصد السياح اليها ، فكيف تكون ياليت شعرى ! حاضرة المملكة التى جلس فيها ملوك اسبانية من ثلاثمائة سنة ؟ وأشهرها الكنيسة الكاتدرائية التى يقال لها كنيسة سيدة المدينة Nuestra Senoira de la Almudena

هذا وقد ترددت فى أثناء مقامى بمجريط على مكتبة أكاديمية التاريخ ، وعثرت فيها على كتب كثيرة . وقطفت من أزهارها . ونسخت بقدر ماأمكننى الوقت ، وانى لذاكر الآن بعض الكتب التى استجلبت نظرى ، من أسفار تلك المملكة وهى : «تاريخ علماء» الاندلس ، لأبى الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى المعروف بابن الفرضى ، وكتاب « الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية » . و« الروضة الغنّاء في أصول الغناء» ، و « تفريج الكرب عن كروب أهل الأرب . فى معرفة لامية العرب» لمحمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن زاكور ، و « نظم الدر والعقيان ، فى شرف

بيت بني زيّان ، وذكر ملوكهم الأعيان ، ومن ملك من أسلافهم في مامضى من الزمان » ، و « عمدة الطبيب في معرفة النبات » ، لابن بطلان ، و« نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق » للشريف الادريسى ، الذى نقلنا عنه كل ما قاله عن الاندلس فى كتابنا هذا وكتاب « فتوح أفريقية » ، وكتاب « القواعد المسطرة ، فى علم البيطرة » لعلى بن عبد الرحمن بن هذيل بن محمد الفزارى . وكتاب «فضالة الاخوان فى طيّبات الألوان » ، لأبى الحسن على بن محمد بن القاسم بن محمد بن أبى بكر بن الوزير التجيبي الاندلسى . و« تقييد الرسائل » من انشاء الفقيه القاضى الكاتب ابن المطرّف ابن عميرة . و « عقد الجمان ، فى تاريخ أهل الزمان » لبدر الدين أبى محمد محمود بن احمد بن موسى العينى . و « الروض المتون ، في أخبار مكناسة الزيتون » ، لمحمد ابن احمد بن محمد بن محمد بن غازى العثمانى المكناسى . و « نتيجة الاجتهاد ، فى المهادنة والجهاد » ، لاحمد بن المهدى الغزّال الفاسى . وكتاب « الاكتفا فى أخبار الخلفا » ، لأبى مروان عبد الملك بن الكردبوس . وكتاب « الدرة المضية ، فى اللغة التركية » ، لزين الدين عبد الرحمن بن ابى بكر العينى . و « القوانين الكلية ، لضبط اللغة التركية » ، لشمس الدين محمد بن نور الدين على بن زين الدين . وكتاب « استخراج ملح المعادن» . وكتاب«تأيّد الملّة» . و«الذخيرة»لابن بسام ، و رسالة بفضل الاندلس لأبى الوليد اسماعيل بن محمد الشقندى . و«حكاية الجارية تودور» ، وما كان من حديثها . وكتاب الجغرافية فى مساحة الأرض وعجائب الأسقاع والبلدان . وقصة الست زمرّد الستورية . و « التكملة» لابن الأبّار . ودفتر لرسم الكتب الموضوعة فى خزائن يمنى المحراب من الجامع الأعظم (يريد جامع قرطبة) . ودفتر لرسم الكتب الموضوعة فى خزائن بسرى المحراب من الجامع الاعظم . وكتاب «فوائد الموائد» تأليف يحيى بن عدى ، وقيل تأليف جمال الدين ابى الحسن المعروف بالجزّار . وكل هذه الكتب نظرت فيها بقدر ما وسع الوقت وكتاب فوائد الموائد كثير النكات ، يقرأه الانسان للتسلية . أوله : « الحمد لله الذى جعل الطعام رزقاً للعباد ، وقواماً للأجساد ، وسبباً لذم البخلاء ومدح الأجواد ، أحمده على ما منح من طيبات رزقه ، ومعرفة

الـكرام من خلقه ، رازق الاطعمة الشهية ، ومسخر النفوس السخية ، الخ» . وأجل كتاب رأيته فى هذه المكتبة هو «الفلاحة فى الارضين» ، لابى زكريا يحيى بن محمد ابن احمد بن العوام الاشبيلي . وهو جزءان ، وعدة صفحاته ٨٤١ . ويندر أن يكون فى هذا الفن كتاب أجل قدراً منه . وقد قرأت فى مجلة المجمع العلمى العربى التى تصدر فى دمشق أنه مترجم إلى الافرنسية وقد نسخت من هذا الـكتاب عدة صفحات ورأيته ينقل كثيراً عن الفقيه الامام أبى عمر احمد بن محمد بن حجاج فى كتابه «المقنع» وهو المؤلَّف سنة ست وستين واربعمائة ، نقل فيه صاحبه عن الرازى ، واسحق ابن سليمان ، وثابت بن قرّة وغيرهم . وكذلك نقل ابو زكريا يحيى بن محمد بن العوّام الاشبيلى صاحب كتاب الفلاحة هذا عن كتاب الشيخ أبي عبد الله محمد بن ابراهيم ابن الفصّال الاندلسى ، الذى بنى كتابه على تجاربه الخاصة ، ونقل عن كتاب الحكيم الشيخ ابى الخير الاشبيلى ، وهذا مبنى على تجارب المؤلف وعلى آراء جماعة من الحـكماء والفلاحين . ونقل عن كتاب الحاج الغرناطى . وكتاب ابن أبى الجواد ، وكتاب غريب بن سعد ، ونقل عن حكماء اليونان ، وأيضاً عن كتاب الفلاحة النبطية المشهور المبنى على أقوال جلّة من الحـكماء منهم آدم ، وصغريت ، وينبوشاد ، وأخنوخا ، وماسى ، ودونا ، وكانترى ، وغيرهم . وأما تاريخ ابن الفرضى ، ورسالة الشقندى فى فضل الاندلس ، فقد نقل عنهما صاحب النفح ما شاء .

الاسكوريال L'escurial

ومن ضواحى مجريط قرية الاسكوريال Escorial أو Escurial ومعناها معدن الحديد ، والقرية قسمان : القرية القديمة تسمّى « أباجو » ، والقرية الجديدة وتسمّى « الريبة » وعدد سكان هذه ثلاثة آلاف نسمة . وهى مصيف لاهل مجريط ، وفيها الدير الشهير الذى يسميه الاسبانيون Rial Monasterio de San Lorenzo del Escorial وهو الذى بناه فيليب الثانى ، وذلك انه فى حصار مدينة سان كنتين سنة ١٥٥٧ أصابت مدافعه كنيسة باسم القديس « لورنزو » ، وهو جندى رومانى

من أصل اسبانيولى ، توفى شهيداً فاراد فيليب أن يعوّض القديس من هدم تلك الكنيسة المبنية على اسمه ببناء دير عظيم ، جعل فيه أيضاً مدفن والده شارلكان ، الذى كان تخلى عن الملك من تلقاء نفسه ، واختار العزلة والنسك ، وصح فيه قول المتنبي:

ويمشي به العُكّازُ فى الدَّيْر راهباً   وما كانَ يَرْضَى مَشْىَ أشقرَ أجْرَدَا

وكان فيليب الثانى يريد ان يقتفى أثر أبيه فى التنسك والاعتزال ، فبعد ان بحث نحواً من سنتين عن مكان لهذا الغرض اصابه فى جوار مجريط بقرية الاسكوريال ، فاستدعى اليه المهندس الطليطلى الشهير « جوان بوتيستا » ، و بدأ بالعمل سنة ١٥٥٩ ، ولكن المهندس مات بعد أن بدأوا بالبناء ، فخلفه عليه « جوان دوهرّيره » الذى هو من تلاميذه ، وكان الأول تعلم البناء فى رومة ، وأما الثانى فكان تحصله فى بروكسل . وكان فيليب الثانى يشترك بنفسه فى الشغل ، و يأخذ و يعطى مع الصنّاع ، ولا يتركهم يعملون شيئاً بدون رأيه وقد بذل همة فوق تصور العقل لاجل اكمال هذه البنية التى قل ان يوجد مثلها فى الدنيا . وقد انتهوا من العمل ووضع الصليب على القبة سنة ١٥٨١ ، وآخر حجر وضع فى هذا الدير كان وضعه فى ١٣ سبتمبر سنة ١٥٨٤ ، وأما المقبرة الملوكية فما تمت الا فى زمن فيليب الرابع ، حفيد فيليب الثانى . وقد خمّنوا نفقات هذه البناية الكبرى بستة عشر مليوناً وخمسمائة الف بسيطة . وطرز هندسة هذا الدير هو طرز عصر التجدد الثانى فى ايطالية ، وهو الذى يعتمد في جلاله على مجرد تناسب الاقسام ، وليس فى الاسكوريال شىء من الزينة ولا الزخرف ، وجميع تلك الجدران لا يتخللها غير نوافذ صغيرة . واذا نظرت الى هذا البناء العظيم حسبت انه قلعة أو سجن . ولما أراد فيليب الثانى ان يزين داخل الدير بالتصاوير التى لابد منها نظراً للمذهب الكاثوليكي ، استجاد بعض مصورى ايطالية المشاهير مثل « تيبالدى » و « كامبيازو » و « زوكارو » وأما من أسبانية فقد استدعى « جوان فرناندس » و « نافاريت الاكرونى » .

وقد انتقد الكثيرون من أساطين الفن بناء الاسكوريال ، وقالوا إنه ليس له

من مزية غير السعة والكثرة ، وانه ليس فيه ذوق ولا قوة توليد ، ولا فضل اختراع ، وكل ماهناك فهو خطوط هندسية مستقيمة ، تسود عليها بساطة زائدة ، يمجّها الطبع . وقد علّل بعضهم هذه البساطة الزائدة بكون فيليب الثانى كان هو الآمر الناهى فى اختيار الأشكال التى لم يكن يستحسن منها إلاّ البسيط الساذج . وكان كلما جاءه المهندسون بشىء من الزخرف رفضه فجاءت بنايته هذه أشبه فى يبوستها وجهامة منظرها بالبرية التى تحيط بها . أما طول البناية فهو ٢٠٦ أمتار والعرض هو ١٦١ مترا ، ولها أربعة أبراج . وفى وسطها كنيسة ذات قبة عالية وبرجين عظيمين ، فى كل منهما جرس كُبّار وإلى الشرق والشمال من هذه الكنيسة المقر الملوكى ، وإلى الغرب ساحة خارجية ، وإلى الجنوب الدير الحقيقى وحواشيه وأماكن القسيسين .

وللاسكوريال رتاج عظيم ، عليه تمثال القديس لورانزو ، يعلو أربعة أمتار ، ورأسه ويداه من المرمر ، وفى يده اليمنى مِشواة من النحاس المذهب ، إشارة إلى كيفية استشهاد القديس ، الذى يقال إنه أُميت على آلة مثلها . وفى الكنيسة ست اسطوانات ، عليها تماثيل ملوك العهد القديم ، وجميع الرؤوس والأيدى من الرخام الأبيض ، والتيجان والصوالجة من النحاس المذهب . وقبة الصليب ترتفع ٩٥ مترا ، والكنيسة فى غاية الاتساع ، وفيها ٤٨ مذبحاً وعلى حيطانها تصاوير الوقائع الدينية الكبرى ، مثل البشارة ، والحمل ، وولادة عيسى ، وعبادة الملائكة له ، وملوك المجوس ، وبنى إسرائيل فى البادية ، واليوم الآخر ، وهزيمة بنى إسرائيل للعمالقة ، وغير ذلك .

وأما مقبرة الملوك فهى مجاورة للمذبح الأعظم ، وذلك حتى تقام القداسات اليومية على عظام الملوك المدفونين . وفى هذه المقبرة زخرف كثير ، مخالف لقاعدة البساطة التى كان فيليب الثانى قد جعلها إماماً له فى بناء هذا الدير . والسبب فى ذلك هو أن هذه المقبرة قد أكملها خلفاؤه من بعده ، والمدافن واقعة ضمن محاريب فى الحيطان ، وكل مدفن فيه ناووس من الرخام الأسود ، عليه كتابة باسم الدفين . وفى هذه المقبرة ستة وعشرون ناووساً ، لم يبق منها غير قليل خالياً ، وليس جميع الملوك

مدفونين هنا ، بل فيليب الخامس ، وفرديناند السادس ، ونساؤهما ، ليسوا فيها .
وهناك مقبرة أخرى فيها أجساد الأمراء والأميرات ، ممن لم يصل إلى العرش .

وفى هذا الدير خزانة كتب عظيمة ، واقعة فى بهو طوله ٥٢ متراً ، فوق الرتاج الذى منه الدخول إلى المقر الملوكى . وفى هـذه الخزانة من نوادر الـكتب والآثار مايستحق كل اعتبار . من ذلك كتب الصلاة التى كان يصلى بها شارلـكان وفيليب الثانى ، ومخطوط اسبانيولى يتضمن قصيدة فيرجيل الشاعر الرومانى التى تسمّى «اينايد» Eneide ، والأناجيل الأربعة ، فى مجموعة كتبت لـكونراد الثانى ، قيصر ألمانية ، وأنجزت فى زمن هنرى الثالث ، وتاريخها سنة ١٠٥٠ ، ومخطوط فيه رؤيا يوحنا ، تاريخه القرن الخامس عشر . وفيها مصحف شريف بخط مغربى مذهب كبير الحجم ، اتصل بالاسبانيول سنة ١٥٩٤ ، وقد سألت عنه بعد زيارتى للاسكوريال ، السيد الشريف الأجل ، مؤرخ المغرب فى هذا العصر ، مولاى عبد الرحمن بن زيدان ، حفظه الله ، لأنى وجدت مكتوبا على الصوان البلورى ، الذى فيه هذا المصحف أنه مأخوذ من السلطان زيدان ، صاحب المغرب . فأجابنى مولاى عبد الرحمن بأن السلطان الذى أخذ منه هذا المصحف ليس من العائلة الشريفة السجلماسية بل من الملوك السعديين ، وذلك أن بعض قرصان الاسبانيول غنموا مركباً من البحر لهذا السلطان ، وكان فيه أمتعة نفيسة ، وكتب من جملتها هذا المصحف . وقد قرأت فى تاريخ الاستقصا للناصرى السلاوى ، في الجزء الثالث ، في صفحة ١٢٨ ما يلى :
وقال منويل : « إن قراصين الاسبانيول غنمت فى بعض الأيام مركبا للسلطان زيدان فيه أثاث نفيسة ، من جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغير ذلك »

ومن جملة آثار خزانة الاسكوريال تآليف للملك الاذفونش الملقب بالحـكيم ، من القرن الثالث عشر ، وكرة أرضية ، كان فيليب الثانى يستعملها فى مطالعاته الفلـكية . وفى هذه الخزانة صورة لفيليب الثانى ، يوم كان فى الواحدة والسبعين من

العمر ، وصورة لشارلكان يوم كان فى التاسعة والأربعين ، وصورة لفيليب الثالث ، وصورة أيضا لكارلس الثانى ، وهو ابن أربع عشرة سنة . ثم إنه يوجد فى الخزانة قسم للكتب الخطية ، لا يمكن الاطلاع عليه إلا بإذن خاص من إدارة الاسكوريال .

وأما القصر الملوكى الذى فى الاسكوريال فانه إن كان فيه شيء من الزخرف ، فهذا قد حصل بعد موت فيليب الثانى . فأما هو فلم يكن بنى لنفسه إلا غرفة صغيرة يشاهد منها المذبح الأكبر فى الكنيسة ، وغرفتين بجانبها ، ولا تزال فيها المفروشات التى كانت فى أيام فيليب الثانى ، ولا تزال فى غرفته الخاصة المائدة التى كان يكتب عليها مع أدواتها ، وهناك الكرسى التى كان يمد عليه رجله . وفى هذه الغرفة كان يستقبل سفراء الدول . وفيها مات ، وذلك فى اليوم السابع عشر من سبتمبر سنة ١٥٩٨ ، على أثر مرض برّح به ، وكان وهو يجود بروحه ينظر إلى مذبح الكنيسة الكبير ، كما أنه كان في يده نفس المصلوب الذى كان فى يد والده شارلكان يوم فاضت روحه .

وللاسكوريال حديقة تنفتح أبوابها الساعة الثانية بعدالظهر . ولها منظر من أبدع المناظر ، لا تبلغ العينان مدّه على سهل قشتالة الجديدة ، ومجريط ، ووادى الرمل .

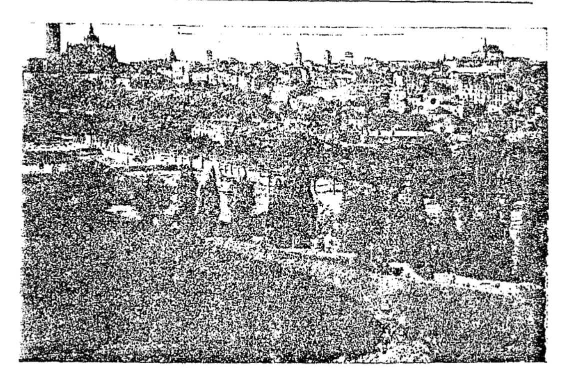
ولما زرت اسبانية سنة ١٩٣٠ أى من ست سنوات ، ذهبت إلى الاسكوريال أنا واثنان من شبان المغرب النجباء ، وسرواته الأدباء ، وهما السيدان العالمان الفاضلان أحمد بلا فريج ، ومحمد الفاسى الفهرى ، وكان معنا السنيور دوزميت يوا كين ، من شبان نبلاء الاسبانيول ، فطوّفنا فى الاسكوريال مدة ساعات ، وجلسنا فى خزانة الكتب ، حيث رأيت من الكتب العربية ما لا يوجد فى كثير من المكاتب . وهناك تعارفنا مع الأستاذ المستشرق العلامة القسيس آسين بلاسيوس المشهور ، وتحادثنا معه فى مختلف المواضيع ، وسألناه عن سبب ذهابه إلى أن رواية دانتى ، الشاعر الايطالى الأكبر ، المسماة بالمهزلة الالهية ، هى فكرة مسروقة من رسالة الغفران ، لأبى العلاء المعرّي ، فأدلي إلينا بآرائه فى الموضوع ، وبيّن لنا أن التشابه الواقع

فى عدة من النقط لا يمكن أن يكون من قبيل وقع الحافر على الحافر ، وقال أيضاً إن رسالة الغفران كانت مترجمة إلى اللاتينية ، ككثير من الكتب العربية ، فيترجح أن يكون دانتى قد اطلع عليها . ثم سألناه عن رأيه فى علماء غرب الأندلس ، فرأينا له فى حقهم رأياً عظيما ، وذكر منهم عدداً من جملتهم أبو محمد بن حزم ، برغم كون ابن حزم طعن كثيراً فى النصرانية ، وان آسين بلاسيوس ليس نصرانياً فحسب ، بل هو قسيس مستمسك بدينه . وأما لسان الدين بن الخطيب فقال لنا انه لا يعجبه . وذكر لنا آسين بلاسيوس أنه تلميذ « قُدَيره » المستشرق الاسبانيولى الذى أصله من العرب ، والذى طبع فى مجريط كتب ابن بشكوال ، وابن الأبّار وغيرهما ، وله تحقيقات كثيرة ، وإليه يرجع الفضل فى تجديد العناية بالعربية فى اسبانية

شقوبية[1] Ségovie

ومن مدن قشتالة المعدودة « مدينة « شقوبية »Ségovia وهى مدينة عالية سكانها اليوم ١٥ — ١٦ ألف نسمة ، وهى مركز مقاطعة منسوبة اليها ، ومركز اسقف ، وإنما أهميتها هى بكونها من أقدم المدن الايبيرية ، وأنها تشتمل على آثار قديمة ذات عظمة ، منها القناة الرومانية المعلقة ، وفيها كنائس وقلاع باقية من القرون الوسطى ، وموقعها أشبه بموقع طليطلة ، وذلك أنها مبنية على قمة صخرية ، علوها مائة متر ، ولها شوارع ضيّقة ، معوّجة ، معرّجة ، غريبة الشكل ، والقصر Alcazar فى

(١) قد كان لهذه البلدة شأن عظيم فى قشتاله القديمة ، ولم تبق فى أيدى المسلمين أكثر من نصف قرن ، اذ ابتدر استرجاعها الاذفونش الأول ، أو ابنه فرويله ، ثم عاد فزحف اليها المنصور ابن أبى عامر وفتحها ، فى جملة مافتح من شمالى أسبانية ، ولكن بعد موته ، وبعد اشتعال الفتنة الكبرى فى قرطبة ، انتهز الأسبان الفرصة فاسترجعوها هى وسموره وطلنكه وآبلة ، وما يتبع هذه المدن من النواحى . وكان الفريقان اللذان يقتتلان فى قرطبة ، كلما استعان احدهما على الآخر بالاسبانيول ، اشترط هؤلاء عليه لمعاونته على الفريق الآخر ، تسليم كذا وكذا من الحصون ، فيبادر المسلمون بالتخلى للاسبان عنها ، كما سيأتى مفصلا



شقوبية « منظر عمومي »

أعلى القمة ، و بالقرب منه الكنيسة . وللبلدة نهر يقال له « اريسمة » يجرى فى جانبيها ، ولها أسوار قديمة من زمان الايبيريين ، ثم جددها الرومانيون . ولها أرباض مثل « سان دورانزو » و « سان مرقس » و « سان ميلان » مبنية فى سفوح الجبل الذى هى عليه .

أما القناة المعلقة ، التى هى مع جدران طرّكونة ، أعظم مآثر الرومان فى اسبانية فالمظنون أنه كان بناؤها في أيام أغسطس قيصر ، ثم تجددت فى أيام فلافيانوس ، أو تراجانوس ، كما يظهر من الكتابات الباقية ، والماء مجلوب من شارات « فنفريا » Fuenfria ، وهو يجري فى البداية مكشوفاً على مسافة ١٦ كيلو متراً ، إلى أن يصل إلى شرقى شقوبية ، حيث بُنيَتْ له خزّانات ، ومن هنا يكون مجراه على جسر طوله ٨١٨ متراً . منه على مسافة ٢٧٦ متراً قسم مبنى طبقاً عن طبق ، ولهذا القسم ١١٩ قوساً ، وهو الواصل بين جانبي الوادي العميق ، وارتفاع أركان الجسر هو من سبعة أمتار إلى ٢٨ متراً ونصف ، وجميع البناء هو من الحجر المحبّب . ولما حاصر العرب شقوبية سنة ١٠٧١ انهدم فى أثناء الحصار خمس وثلاثون قوساً ، و بقيت مهدومة إلى زمن

الملكة ايزابلا ، فأمرت بتجديدها . وهذه القناة المعلقة تمر فوق ساحة يقال لها إلى اليوم ساحة «السويقة» La Plaza Del Azoquejo هي فى مدخل المدينة العليا وهذه الساحة هى أهم مركز للبيع والشراء واسمها عربى كما لايخفى . وفى شقوبية ساحات أخرى ، وفيها كنائس متعددة ، منها كنيسة سان ميكال ، بنيت سنة ١٥٥٨ ، والكنيسة الكاتدرائية ، بدأوا بها سنة ١٥٢٢ ، وانتهوا منها سنة ١٥٧٧ ، بناها المعلم « جوان خيل اونتانون » بانى كنيسة طلمنكة ، وابنه « لذريق بن خيل » وطول هذه الكنيسة ١٠٥ أمتار ، وعرضها ٤٨ متراً . أما القصر فى شقوبية فهو من بناء الاذفونش السادس ، وكان قد تهدم ثم تجدد

و بالقرب من شقوبية بلدة يقال لها « سان ايلدفونسو »San Ildefonso سكانها أربعة آلاف نسمة ، فى موقع بديع ، يقصدها الناس للاصطياف ، يقال إن بانيها هنرى الرابع ، جعل فيها هناك مكاناً ينزل فيه عند ما كان يذهب إلى الصيد ، وذلك سنة ١٤٥٠، و بالقرب من هذه البلدة قرية يقال لها « لاغرنجة » La Granja وكانت مكاناً لفيليب الخامس أول ملوك البور بون فى اسبانية ، وقد بنى فيها قصراً وحدائق على نسق وطنه فرنسة . وكان يجلس فيها خلفاؤه . مثل فرديناند السابع . و بالقرب من هناك بلدة « ارانجويز » Aranjuez وهى بلدة سكانها ستة آلاف نسمة ، يمر عليها جدول من نهر تاجُه ، فيسقى البسائط التى حواليها . وهذه البلدة قديمة من زمن الرومانيين ، وكانت تصطاف فيها الملكة ايزابلا الكاثوليكية . وقد بنى فيها الأمبراطور شارلكان مكاناً ينزله عند الصيد ، فصارت هذه البلدة مركزا لاصطياف ملوك اسبانية إلى زمن كارلس الرابع ، الذى تخلَّى هناك عن الملك لابنه سنة ١٨٠٨ ومن ذلك الوقت أهملت الأبنية الملوكية هناك ، ولم يبق للنزهة غير الجنان البديعة التى تحدق بها ، ومن الغريب أنهم كانوا يقيّظون فيها ، مع أن الحرارة ربما تصعد فيها إلى درجة ٤٧ من ميزان سنتيغراد . والحقيقة أن أحسن فصل فى أرانجويز هو فصل الربيع . وهي بالنسبة إلى ملوك أسبانية أشبه بفرساي بالنسبة إلى ملوك فرنسة ،

و بوتسدام بالنسبة إلى ملوك بروسية . والقصر الملوكى فى أرانجويز هو من القصور الملوكية المعدودة ، فيه كثير من التحف والتصاوير و بديع الصنعة [(١)]

طليطلة Tolêdo

هذه البلدة هي من أعظم بلاد اسبانية قديماً وحديثاً ، مركزها فى وسط اسبانية ، و إن كانت أميل إلى الجنوب منها إلى الشمال ، وأصل بنائها متوغل فى القدم ، يقال إنها كانت حاضرة الكاربيتانيين Carpetani ، وقد ورد ذكرها فى كتاب المؤرخ الرومانى « تيتليف » ، وهو يقول لها « طُليطُم » Toleteum ، ويذكر أنها بلدة صغيرة ، ولكنها منيعة بموقعها الطبيعى . استولى عليها الرومانيون سنة ١٩٢ قبل المسيح ، وفى زمن القوط Visigoths جعلها الملك « أتانجلد » كرسياً لملكه وذلك سنة ٥٦٧ للمسيح ، وصارت هى حاضرة المملكة .

ولما وقع الانشقاق الدينى فى النصرانية بين الكاثوليكيين الذين يقولون بألوهية عيسى ، والاريوسيين الذين لم يكونوا يقولون بألوهية عيسى ، جرت فى طليطلة مجادلات دينية شديدة ، وانعقدت مجامع متعددة لفصل الخلاف ، وكان لكل من الحزبين قوة هى كفوء للأخرى ، إلا أن الملك القوطى ريكاريد جحد المذهب الاريوسى سنة ٥٥٧ للمسيح ، فسادت بعد ذلك الكثلكة فى اسبانية كلها . ولم يلبث العرب بعدها أن فتحوا اسبانية ، واستولوا على حاضرتها طليطلة ، وغنموا فيها مغانم كثيرة ، مما سيرد ذكره فى القسم التاريخى من هذا الكتاب . ولكن العرب

---

(١) قد ذكر الوزير الغسانى فى رحلته إلى أسبانية فى زمان السلطان مولاى اسماعيل أن ملك أسبانية دعاه للنزهة فى أرانجويز هذه حيث رحب به كثيراً وأكرم نزله قال : فدخلنا بستاناً له هناك قد حفه به واديان كبيران مجموعهما يسمى وادى طاجه وهو المار بمدينة طليطلة من هذا الموضع بعد مروره بمسيرة يوم وهذا البستان هو غاية فى جداوله ونظم أشجاره وقد اشتمل على أزهار وأنوار ودواليب وصهاريج وبرك مياه ومقاعد فى غاية الاتقان .

لم يتخذوها حاضرة لملكهم كالقوط لأنهم و إن كانوا وجدوها متوسطة بالنسبة إلى اسبانية ، فلم يجدوها متوسطة بالنسبة إلى القوة العربية ، وقد كانوا لايقدرون أن يبعدوا كثيراً عن افريقية ، فلذلك جعلوا مركز الإمارة فى اشبيلية ، ثم فى قرطبة ، وصارت قرطبة هى العاصمة مدة قرون متطاولة .

على أن طليطلة كان لها شأن عظيم فى زمن العرب ، وكانت هى المعقل الأعظم لهم فى وجه الاسبانيول ، وكانت تسمى الثغر الأدنى ، وكان فيها أمير من قبل الخليفة وطالما انتقضت طليطلة على قرطبة ، وطالما ساق عليها بنو أمية من قرطبة الجحافل الجرارة . وكانت تمتنع عليهم ، و ربما تغلب عليها الخلفاء بالحيلة ، كما سيأتى خبره . وأخيراً عند ماجرت الثورة فى قرطبة ، وانتثر سلك الخلافة ، استأثر بأمر طليطلة الأمراء بنو ذى النون ، واستقلوا بها سنة ١٠٣٥ . وفى جميع أدوارها كانت مدينة علم وصناعة ، وفيها أحسن معامل السلاح ومناسج الحرير والصوف . وفيها صنعة الحفر والتنزيل على المعادن ، وهى الصنعة الباقية إلى الآن من أيام العرب . ونفائس هذه الصنعة تباع في كل أوربة . ولها فى طليطلة تسعة معامل فى يومنا هذا ، والمترفون يتنافسون باقتناء ما يصنع بها من ساعات ، وأسفاط ، وعلب ، ومحاجن ، وأقلام ، وسكاكين ، وغير ذلك ، من عمل اليد ، وقد ورث الطليطليون كل هذا من العرب

وقد بقيت طليطلة فى أيدى العرب من سنة ٧١٢ مسيحية إلى سنة ١٠٨٥ ، أى زهاء أربعة قرون ، وكانت فى أيامهم كلها زاهرة باهرة . وغلبت العروبة على نصارى طليطلة ، فلبثوا نصارى ، ولكن اتخذوا اللغة العربية ، والثقافة العربية لأنفسهم وكانوا يقيمون صلواتهم ، وما يسميه النصارى بالطقوس الكنيسيّة ، وذلك باللغتين العربيه والقوطيه ، وصار الاسبانيول يطلقون عليهم اسم « موزاراب » Mozarabes محرفة عن « نصف عرب » ومن الغريب أن رغبة أهل طليطلة فى العربية ، وصلت إلى أنهم بعد سقوط طليطلة فى أيدى الاسبانيول الذين أرجعوها حاضرة لملكهم ، لم يزالوا مستمسكين بعروبتها ، ولبث أخذهم ، وعطاؤهم ، و بيعهم ، وشراؤهم ، وجميع

صكوك معاملاتهم ، بالعربية [1] إلى سنة ١٥٨٠ ، أى أن آثار العربية لم تندرس من

(١) ومن شدة رغبة مستعربى طليطلة فى اللغة العربية كانوا ينقشون على قبورهم فضلا عن دورهم الكلمات العربية التى يعبرون بها عن مرادهم فقد وجد من هذه القبور فى طليطلة من جملتها قبر تاريخه سنة ١١٥٦ مسيحية وعليه بلاطة مكتوب عليها اسم الدفين بالعربى وباللاتينى متقارنين ذكر ذلك لاوى بروفنسال ونقل نص الكتابة وهو هذا : بسم الله الرحمن الرحيم كان من مضى لله برحمته مقايل بن سمنة من دار الدنيا إلى دار الآخرة يوم الأحد ماضى من نوتبر اربعة أيام سنة أربعة وتسعين ومائة والف لتاريخ الصفر نضر وجهه و . . . وقد نقل الكتابة اللاتينية التى بجانب الكتابة العربية وقال ما يفيد أن صاحب هذا القبر كان من الطائفة المستعربة فى طليطلة وهى فئة من النصارى الاسبانيين اتخذت اللغة العربية لساناً لها حتى بعد رجوع طليطلة إلى الأسبان ثم ذكر قبراً آخر تاريخه ١١٦٠ مسيحية وعليه كتابة عربية بجانبها كتابة لاتينية أيضاً ونصها : لتاريخ الصفر هذا القبر لشمسى ابنة ابن الشيخ رحمها الله وجعل الجنة مأواها بيوم أربع وعشرين لشهرا اغشت ثمانية وتسعين ومائة الف

ولما كان لاوى بروفنسال يترجم كل هذه الكتابات للافرنسية فقد ترجم لفظة « شمسى » بقوله بالافرنسية Mon Soleil وقال انه اسم متداول كثيرا بين مستعربة طليطلة . قلنا : نعم قد مر علينا هذا الاسم فى الصكوك التى نقلناها كانموذجات لمعاملات نصارى طليطلة باللغة العربية ولكننا نميل إلى الظن بأن لفظة شمسى ليست من باب الاضافة إلى ضمير المتكلم بل هى شمسة بالتاء المربوطة ملفوظا بها بالامالة التى كانت غالبة على لفظ أهل الأندلس . فبدلا من أن يقولوا « شمسة » بفتح السين كانوا يقولون « شمسة » بكسر السين كما يقول أهل سورية اليوم لأن الامالة هى لهجة أهل سورية أيضا وأصل وجود الامالة فى لغة الأندلس آت من الشام . فأما كتابة شمسى هنا بالياء فلا عبرة به بل هو غلط إملاء كما هو فى كتابات أخرى لهؤلاء المستعربين وردفها إملاء لفظة « مضا » بالألف و « أتا » مما نقله لاوى بروفنسال نفسه . ثم إن لفظة شمسة هى ذات أصل فى اللغة وهى مستعملة فى سورية كاسم مرة من طلوع الشمس أو انتشار نورها ولها فى اللغة معنى آخر وهى مشطة معلومة للنساء . وأنت إذا ذهبت إلى سورية الآن تجد أسماء لا تحصى من قبيل « نجمة » ، والأهالى لا يلفظونها بفتح الميم بل بكسرها بمقتضى الامالة فتظنهم يقولون « نجمى » ، فلو ترجمت هذه اللفظة فلا ينبغى أن تترجم Mon étoile لأنها ليست لفظة نجم مضافة إلى ياء المتكلم بل هى مؤنث « نجم »

طليطلة إلا قبل عهدنا هذا بثلاثمائة سنة لاغير . وكان ذلك بتكرار الأوامر الصادرة من الحكومة بمعاقبة كل من يتكلم بالعربية ، أو يكتب بها ، ولولا ذلك لربما كانت بقيت العربية فى طليطلة إلى يوم الناس هذا .

وقد جمع « أنجل غوانزاليز بالانسيه » أحد أساتيذ الأدب فى مجريط Angel Gonzalez Palencia تحت عنوان « نصف العرب ، أو موزاراب طليطلة ، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر » عدداً كبيراً من الصكوك والوثائق ، التى كانت تكتب فى طليطلة لذلك العهد ، فبلغ ذلك ثلاثة مجلدات ، فيها مايناهز ألف صفحة بالقطع الكبير مع ترجمتها بالاسبانيولى . و إليك بعض أمثلة من هذه الوثائق .

« بجميع منافعه كله إلى آخرها ، وعامة مرافقه على ضروب أنواعها ، فى قاعته ، وفيما عليها ، و بكل حق وملك ، هو من هذا المبيع الموصوف و به وله ومنسوب إليه ، فى داخله وخارجه ، و بالدخول إليه والخروج عنه ، لم يستبق البايع المذكور لنفسه ، ولا لأحد بسببه ، فى شىء من جميع المبيع الموصوف كله ، حقاً ولا ملكا ، قليلا ولا كثيراً ، ولا منتفعاً بوجه من الوجوه كلها ، ولا بسبب من الأسباب ، إلاوخرج عنه للمبتاع المذكور ، بالبيع الصحيح التام البتّ البَتْل [1] الناجز الصريح الذى لم يتصل به شرط مفسد ولا ثُنيا ولا خيار » انتهى .

مثال آخر :

« دفع الأرسيدياقن [2] المذكور جميع الذهب الموصوف كله للبايع المذكور ، وقبضه منه ، وصار عنده وفى ملكه وذمته ، وأنزله فى جميع المبيع الموصوف كله منزلة ذى المال فى ماله ، وذى الملك فى ملكه ، بعد أن عرفا قدر هذا المبيع ومبلغه بمنتهى

(١) البتل هو القطع مثل البت

(٢) Archidiacre أو « أرشيد ياكر » بالافرنسية وهو ذو رتبة كنسية له الحق فى مراقبة القسيسين الذى يخدمون الرعية وتفقد أعمالهم والرتبة هى نفسها يقال لها « أرشيد ياكونة » Archidiaconat وأما فى الاسبانية فصاحب هذه الرتبة يقال له « أرسيديانو » Arcidiano وقد قال له العرب « أسيدياقن »

خطره ، ولم يجهلا شيئاً منه ، وعلى سنة النصارى فى بيوعهم وأشريتهم ، ومراجع إدراكهم » اهـ.

مثال ثالث :

« شهد على أشهادهما بالمذكور فيه عنهما ، من أشهاده به على أنفسهما ، حسب نصه وسمعه منهما ، وعرفهما بحال الصحة والجواز والطواعة » اهـ

وإليك هذا الصك :

« اشترى ربى بواسحق بن نحميش اليهودى من جميلة بنت فرج زوجة البليوشى البناّ جميع [1] خصّها وهو النصف من الكرم المعروف بالقوجال بحومة قرية جَلَنْكِشْ [2] من قرى مدينة طليطلة وعلى الاشاعة فيه مع من يشركها بسائره وحدُّه فى القبلة الطريق وفى الجوف جبل لابن برطال ، وفى الشرق كرم ابن فرنجيل [3] وفى الغرب الطريق وفيه بابه بثمن عدته ثلاثمائة مثقال من الصروف الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ بما فيه عشر درهما [4] بمثقال على سنة المسلمين فى بيوعهم ومرجع الدرك . فى رمضان المعظم عام خمسة وتسعين وأربعمائة [5]

وممن اشهده على بن البليوشى باجازته له وإمضائه له وإقراره ألاّ حق له فى شىء من المبيع المذكور بوجه من الوجوه ولا سبب من الأسباب ، وإنه كان لوالدته جميلة إلى أن باعته حيث وصف .

إبراهيم على بن سعيد بن الفتح اللدنى . وإبراهيم بن وهب (هنا كلمة غير مقروءة) . و (هنا كلمة أخرى لاتقرأ) بن يوسف بن الربابى . ومحمد بن احمد بن سعيد وعبد الرحمن بن أحمد بن عفيف الفهرى وأحمد بن محمد (كلمة ممحوّة) . ومحمد ابن

(١) الخص هو بيت من الشجر أو الورق وهو كثير الاستعمال فى لغة سورية ولا نرى المبيع هنا بيتاً من الشجر أو الورق وإنما هو نصف كرم والفرق ظاهر ولعلهم توسعوا فى هذه اللفظة أوهى « خاصها » وقد كتبت بحذف الألف ككثير من الألفاظ

(٢) Chalencas (٣) Aben Franchil (٤) كذا

(٥) هذا الصك تاريخه بعد خروج طليطلة من يد الاسلام بسبع عشرة سنة

عبد الله بن مظاهر الأنصارى . واحمد بن يوسف الأنصارى . و إبراهيم بن عبدالرحمن ابن أبى . . . . وسلمة بن يونس الأنصارى . ويحيى بن عبد الله . . . . الغافقى »

و إليك هذا الصك :

« اشترى عبيد بن أسد من خلف بن عبد الله جميع الكرم الذى له فى أول منزل رزين . حده فى القبلة نهر تاجه ، وفى الجوف كرم يشت الحريرى [١] ، وفى الشرق كرم لأبى خالد ، وفى الغرب غروسات السلطان [٢] أيده الله ، بثمن عدته ستون ديناراً ، من البريزات [٣] الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ ، وفى شهر نونبر الكائن فى سنة ثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر [٤] .

ومما وجب إلحاقه إلى المدخل للكرم الموصوف فوق هذا على باب الكروم [٥] الذى لردريقة قسيس السلطان الذى هو من ليون والباب المذكور مشترك بينهما إذ كان الكرم فى القرع واحد وعلى ذلك كله يقع الاشهاد .

عبدالرحمن بن زكريا : يوان بن خلف شاهد . سليم بن زكريا وكتب عنه . سليمان ابن عمر شاهد وكتب عنه . وعلى بن الحرير . عبد العزيز بن خير . وعبد الله ابتوال . وسليمان بن المدجالة . إليان بن سعيد . وعبد الملك بن عبد الملك وكتب عنه وعليه شهد عندى . وبخط عجمى جليانش بطريس تشتا . وبخط عجمى سيدا له ابن مشارك

(١) Justo el Hariri

(٢) السلطان هنا هو الاذفنش لأن تاريخ الصك واقع فى أيام دولة الاسبان بطليطلة فقد كان رجوع طليطلة إلى الاسبانيول يوم الثلاثاء مستهل صفر سنة ٤٧٨ وقيل فى المحرم .

(٣) كذا . فهل هى محرفة عن « ابريزات » ؟ بمعنى ذهبات . أولها تأويل آخر ؟

(٤) تاريخ الصفر هو تاريخ كان مصطلحاً عليه فى اسبانية من قبل دخول الاسلام بل من قبل المسيح وكان مبدأه فى أول يناير سنة ٣٨ قبل المسيح لعهد أغسطس قيصر وبقى هذا التاريخ معروفاً فى اسبانية إلى القرن الخامس عشر للمسيح .

(٥) استعمل هنا الجمع استعمال المفرد بدليل قوله « الموصوف » وقوله عنه « الذى »

شاهد . وعلى كل اسم من العجمي معلم شهد عندى . وبالعربى أبو خالد بن أسطر اهـ .
مثال آخر :

« اشترى خير بن ركوى من يحى بن عبد السلام جميع الدار التى له بحومة رحبة القشالى [1] حد الدار في الشرق دار خلف بن جواد [2] ، وفى الغرب دار جلبارت الفرنجى [3] ، وفى القبلة دار أبى الحسن بن ذكرى وفى الجوف دار مفرج ابن عثمان بثمن عدته أربعون ديناراً من الدينارات الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ من شهر إبريل فى سنة واحد وثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر .

وشهود الأصل فيه : فرج بن عبد الله . ومسعود زرقون شهد وكتب . عبد الرحمن بن يحى شاهد على ذلك . وعيسى بن الحسن شاهد وكتب عنه بأمره . وعيشون بن يحى شاهد . هذيل بن حكم شاهد وكتب . زكرى بن عثمان شاهد وكتب عنه . وبالأعجمى يُشتُش فليش [4] بطرُه [5] يُشتش .

صحت هذه النسخة (الخ) فى العشر الأوسط من شهر شبتمبر سنة ثلاثين ومائتين وألف للصفر . يوان بن يليان الصقلى شهد . ويوانش بن مقايل بن عبد العزيز المشنارى . وباطرُه بن عمر بن غالب بن القلّاس .

مثال آخر :

« ابتاع يحى بن خلف ويحى بن قريش من بيطر وأنفونش [6] وزوجه يشته [7]

---

(١) Plaza del Caxali (٢) Jàlaf ben Chuad

(٣) Chelabert el franco من هنا يعرف أن طليطلة بقيت حتى بعد رجوعها إلى الاسبانيول بلدة عربية يشار فيها إلى الأفرنجى بصفته هذه لأنه غريب فيها

(٤) Justes félix (٥) Petro ومن هنا يعلم أنه كان فى طليطلة نزر لا يعرفون الكتابة العربية فكانوا يوقعون بالاسبانيولية

(٦) يعرف من هنا أن اسم « الفونس » كما كان يقال له عند العرب « اذفنش » كان يقال له أيضا « الفونش » وانفونش » واللام والنون كثيراً ما تقوم إحداهما مقام الأخرى . وقد رجعنا إلى ترجمة هذا الصك بالاسبانيولى فوجدناه يكتب هذا الاسم هكذا Pedro Alfonso (٧) يشته هى فى الترجمة الاسبانولية Justa

جميع المنية[١] التى لها بمنزل مُشكة[٢] المعروفة من قبل لابن سلمة ، والمتصيرة إليهما بالابتياع ، التى حدها فى الغرب مضربة القرمادين ، وفى القبلة المضربة المذكورة أيضاً وفى الشرق محجة سمرة إلى الكرمات ، وفى الجوف المحجة السالكة من طليطلة إلى القرضيطة[٣] ، وفيها بابها ، تخرج بين ذلك حصة لاشتافن من بيت قوبه ، وحدها من المحجة الداخلة إلى الثانية ، بثمن مبلغه من الدنانير اثنان وثمانين[٤] ديناراً ، من الدينارات الجارية بمدينة طليطلة ، حرسها الله حين التاريخ كل دينار منه . . . . . عشره و إلى ذلك الكريم[٥] المعروف بالقوجول بمنزل مُشكة المبتاع منهما المذكورين بيطره أنفُنش وزوجه بُشته ، والمتصيّر إلى يحيى ، و يحيى بالابتياع من البايعين للمنية بيطره وزوجه زيادة وعواناً إلى الدنانير المذكورة فى عقب . . . . ابريل التى من سنة ألف ومائة وثلاثين للصفر

عبد الملك بن عامر . ولب . . . وعبد الله بن جلبرث . وخير بن يحيى . ومروان ابن غالب . يحيى بن معبد وكتب عنه و بأمره . السرقسطى كتب عنه بأمره وعمر ابن عامر بن الليث . وعبد الرحمن بن غلمير بن عريب . وعبد العزيز بن سعيد وكتب عنه بأمره . وعبد الله القوطى وكتب عنه بأمره »

مثال أيضاً :

«اشترى دمنقوس الارجيقس ودمنقوس القس . . . . كنيسة شنت لوقادية[٦] خارج مدينة طليطلة حماها الله من ميقال . . . . وزوجه بيليه . . . . من الحصة التى له بدار الخازن ، و بحوز المشاطر ، وهو نصف خمسين ونصف القرية ، بمبلغه من الثمن خمسة وأربعين ديناراً من السكة الجارية حين عقده ، اشترى دمنقوس والارجيقوس

---

(١) تقدم فى هذا الكتاب كلام طويل عن معنى « المنية » وهو البستان

(٢) فى الترجمة الاسبانيولية Manzel Mosca (٣) فى الترجمة الاسبانيولية Alcardete

(٤) كذا ويظهر أن كاتب هذا الصك لم يكن يعرب كثيرا

(٥) تصغير كرم (٦) فى الترجمة الاسبانيولية Leocadia

وديمنقوس المذكوران جميع هـذا النصف سهله ووعره عامره وغامره أنادره (١) وقرالاته (٢) وسدوده (٣) وقنانره (٤) وأرحاءه وبرجه ، والمدخل إلى جميع الدار والمخرج منه وذلك كله فى النصف من شهر مارس من سنة ألف ومائة وخمسة وأربعين

شهد عندى . . . . . بن بوانش شاهد . شهد عندى . . . . . . بن عبد . . . . شهد عندى ، وعبد الرحمن بن . . . . »

مثال آخر :

« اشترى مرتين الأرجيد ياقن من يوسف بن يعيش اليهودى جميع الثلاثة جبال الكروم المتصلة التى له بمرطيلة ، حدها فى الشرق كرم بيطر والجزار ، وفى الغرب كرم شلوط ، وفى القبلة كرم . . . . . الطريق بثمن عدته . . . . . اثنتان وثلاثون دنانير الجارية بطليطلة حين التاريخ فى شهر مارس الكاين فى عام ثمانية وأربعين بعد ألف لتاريخ الصفر .

ويوصف بن . . . . . شاهد . وسيف بن العزاد شاهد . إبراهيم بن إسحق ومرتين الخياط . عمر بن عبد الله ، وعبد الملك بن مرتين بن خير ، وسعدان بن عبد الله ، ويعقوب البرسلونى شاهد »

مثال آخر :

« اشترى ميقايل بن بقى من البيرة زوج فرننده منيوس ، وبينهما منيوه وغانصالبه ، وأختهما وابنتهما شولى جميع نصف الجنان المعروف لهم بحومة الليتيق

---

(١) جمع اندر وهو الذى تدرس عليه الحبوب كالبيدر

(٢) هو جمع قرال وهو حظيرة الحيوانات تكون وراء المنزل وهـذا لفظ اسبانيولى استعمله عرب الأندلس (٣) وفى الترجمة الاسبانيولية Azud فيظهر أن الاسبانيول أخذوا لفظة « السد » إلى لغتهم (٤) فى الترجمة الاسبانيولية Canales أى قناة فيظهر أن الأسبان أخذوا هذه اللفظة إلى لغتهم وضموا إليها اللام ثم رجعت العامة فى طليطلة فجعلت اللام راء وجمعت الكلمة جمع تكسير على « قنانر » بدلا من أن تقول « قنالات » أو تردها إلى العربى الفصيح فتقول « أقنية »

من نظر مدينة طليطلة ، حماها الله ، على الاشاعة ، حده فى الشرق نهر تاجُه ، وفى الغرب حده أرض بيضة للشيخ ابن مُشقيق ، وفى القبلة نهر تاجُه أيضاً ، وفى الجوف[1] المحجة السالكة ، بثمن عدته مائتين ديناراً اثنتين من الفرود الجارية حين التاريخ ، والمثقال الشرقية المأحونية ، دينارين وسدس فى عقب فبرير سنة تسع وأربعين ومائة وألف لتاريخ الصفر

سهل بن خلف بن على ، حسان بن جهيد وسلمة بن سعد وكتب عنه بأمره ، عبد الله بن حسّان »

مثال آخر :

« اشترى دعنقة بن يحيى من سفيان بن أبى البقى ومفرّج بن خير ، جميع حصتهما من المنية التى بمنزل مُشكة ، من نظر مدينة طليطلة حماها الله ، وذلك الثلث من جميع هذه المنية التى تعرف فى عهد الاسلام . . . . . مع ثلث البير وثلث ثمار القباوب ؟ على البحيرة ، وثلث الصهريج مع . . . . . والمدخل والمخرج إلى البير والصهريج ، وحد هذا الثلث المذكور فى الشرق كرم لأبى اسحاق القمرانى مع القس ابن فرحون ، وفى الغرب حصة لورثة يحيى بن سرير رحمه الله ، وفى القبلة فدان

(١) تقدم لنا بحث غير قصير عن قضية استعمال الاندلسيين والمغاربة لفظة الجوف بمعنى الشمال واختلاف آراء أدباء العصر وأهل اللغة فى منشأ هذا الاصطلاح ولما كان بعضهم ذهب إلى كون الجوف إنما استعمل بمعنى الشمال لأن مدينة الجوف ونواحيها واقعة فى شمالى الحجاز وذلك قياساً على أن أهل الشام يستعملون القبلة بمعنى الجنوب فقد سألت حضرة الوجيه المفضال الشيخ محمد نصيف المشهور من أعيان جدة هل لهذا الاصطلاح من أثر فى الحجاز ؟ فأجابنى أنه سأل العلماء والقضاة وكتاب المحاكم والمحامين وغيرهم فأجابوه بأنهم لم يسمعوا بشىء كهذا ولا رأوا فى الصكوك والوثائق القديمة تسمية الحد الشمالى بالجوف بل الحدود فى الحجاز هى هكذا : شرقا وغربا وشمالا ويميناً أى جنوبا وقد يقولون جنوبا . فثبت من هنا أن لاستعمال الجوف بمعنى الشمال وجهاً آخر خاصا بالاندلس نفسها وقد يكون جاء إلى المغرب من الاندلس

حُبس على شنت فليج [١] وفى الجوف الطريق الداخل إلى القرضيط ، بعدد مبلغه من الذهب المرابطية [٢] سبعة عشر مثقالا ، فى أول شهر شبتمبر عام خمسين ومائة وألف تاريخ الصفر

إن ثلث المنية المذكورة فوق هذا أن ثلثى أرضها أرض بيضا خاوية عن جميع الثمرات والكرم والغراسات ، وجميع الثلث المذكور بغير تعليق [٣] ولا اعتمار

عمر بن سعيد شهد وخلف بن عمر كذلك ، وسلامة بن مقيال شهد ، وعبد الله ابن عثمان نقطة ، وعتبة بن وليد ورمّان بن عامر ، وخير بن مورن . وعبد العزيز بن أبى الحسن بن أبى رجال ، ويعيش بن فيليش ، وعبد الملك بن بهلول ، وبهلول بن . . . . وكتب عنهم بأمرهم ، وعبد الله بن فرسان وكتب عنه ، وعبد الرحمن ابن عبد الرحمن شاهد ، وعثمان بن عثمان شاهد وكتب عنه

شهدوا الشهود على . . . . . بعد اقرار الفريقين فى التاريخ المؤرخ إن شاء الله

مثال آخر :

« اشترى يوانش بن ملّوك بن استافن بن عبد الرحمن جميع الغرس مع الأرض البيضا المتصلة به المعهودين له بحومة بنال من عمل طليطلة حرسها الله ، حدها فى الشرق الطريق الناهض إلى حصن مورة حرسها الله ، وفى الغرب غرس بيطره شرّانُه الحداد ، وفى الجوف غرس مرتين بلايس بثمن عدته أربعة مثاقيل ذهباً مرابطياً فى شهر يولية من سنة إحدى وسبعين ومائة وألف لتاريخ الصفر

يحيى بن على بن يحيى شاهد ، بيطره بن سهل ، ومقيال بن يوانس شاهد ، ومسعود بن يحيى بن عفان شاهد ، فليس ابن مروان شاهد وكتب عنه لورانس بن . . . . . . يوانس شاهد »

---

(١) Félix

(٢) كانت المسكوكات المرابطية فى ذلك العهد متداولة لأن المرابطين كانوا فى الاندلس

(٣) لا نعلم هل هى هكذا من الأصل أم هى محرفة عن « تعزيق » ، وهو مصدر عزق فعل المبالغة من عزق الأرض شقها وكربها

مثال آخر :

« اشترى بلدوين قيليار وزوجه مونينه من بيطره الخياط ، من أهل مدينة شقوبية جميع حصته الواجبة له بالقسمة مع شركة بيطره تعليقس [١] وذلك النصف الذى بجهة الشرق من الميشون [٢] والقرال [٣] المتصل به بحومة ربض الافرنج ، قرب القاعدة شنته مرية أم النور بمدينة طليطلة حرسها الله ، حد هذا النصف المبيع من الميشون والقرال ، فى الشرق حوانت السلطان أيده الله ، وحوانت الأحباس ، وفى الغرب النصف الثانى الذى لبيطره تعليقس قسيمة المبيع المذكور ؛ وفى القبلة المحجة السالكة ، وإليها يشرع باب الميشون المبيع المذكور ، وفى الجوف حوانت السلطان أيده الله التى للفخارين بثمن عدته خمسون مثقالا ذهباً مرابطياً [٤] مالكية طيّبة وازنة ، فى شهر يوليو من عام اثنين وسبعين ومائة وألف للتاريخ الصفر .

هو بر الافرنجى وكتب عنه ، وهربرت بلنك وكتب عنه ، وبامين الافرنجى وكتب عنه وغطارد [٥] طليطلة وكتب عنه ، وبيطُره بن يوسف بن مروان ، ومرتين ابن استافن وعثمان بن سليمان بن ملك وكتب عنه ، ويوليان بن يحيى وكتب عنه ، وغونصلبُه فرولس ، وكتب عنه أبو على بن روبين وكتب عنه . وبيطره قولونبيريانة ، وكتب عنه وبياك مونس من سنت رمان وكتب عنه ، ودون مينوه

(١) Talliques بالترجمة الاسبانيولية

(٢) بالاسبانيولى Meson وهو بمعنى Maison بالافرنسى أى بيت ولكن يغلب عليه بالاسبانيولى معنى الخان أو الفندق

(٣) ذكرنا أن القرال حظيرة الحيوانات أو الدجاج عندهم

(٤) كان هذا العهد عهد دولة المرابطين بالاندلس وربما كان متأخراً عن دورهم ولكن مسكوكاتهم بقيت متداولة . والأصح أن دولتهم انقضت سنة ١١٤٧ للمسيح

(٥) علامة الشرف عند الافرنج هى De كما لا يخفى وقد جاءت فى هذه الصكوك أحيانا بوضع حرف الدال مع كسرة فى آخرها هكذا دِ وجاءت أحيانا بوضع حرف الدال ومعها الياء

أدفونش قايد « مورة » [(١)] شاهد وكتب عنه بامرته »

مثال آخر :

« اشترى الوزير دون ميقايل ميطس ، أعزه الله ، من بهلول وأخيه بيطره ابنى مرتين بن بهلول رحمه الله جميع الدار الكبيرة ، والقرال المتصل بها ، من جهة الغرب ، والقبلار يسا المتصلة أيضاً بها من جهة القبلة ، حدود جميع ذلك كله فى الشرق الطريق السالك واليه يشرع الباب ، وفى الغرب دار ابن طورنيو المسلم [(٢)] أمين الفخّارين ، وفى القبلة دار بيطره البنّا ابن بهلول ، وفى الجوف دار تيقيت بين البائمين ودار سلمة بن حسان ، بثمن عدته ثمانون مثقالا ذهباً مرابطياً ، فى العشر الأول شهر اوغوشت من سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف لتاريخ الصفر .

وعبد الله بن داود شاهد . وباقى بن عمر بن باقى . ودمنقوه بن يحيى بن مرتين وبهلول بن عمر شاهد على النص . عبد الله بن البمص . ويوان بن عامر . وعامر ابن تمام . وعبد الرحمن بن ابراهيم شاهد . ويحيى بن مفرّج وكتب . وعلى بن عيّاش وكتب عنه . وحكم بن شلمون وكتب عنه . ويوليان بن سلمة شاهد . وجنيد ابن عبد الملك بن ليون وكتب عنه . وبيطره بن عبد العزيز بن عطّاف بن لنبطار .

مثال آخر :

« يشهد من تسمى أسفل هذا الكتاب من الشهداء انهم حضروا وسمعوا من يوان الكراسنى وزوجه اويانية ، يقولا انهما باعا من رودريقه اوردوناز الحصّار جميع الكرم الذى لهما بالوعد بحومة كنيسة شنت فليس ، قبلى طليطلة ، حرسها الله ، وحدّه فى الشرق كرم لبنت الشمنتانى ، وفى الغرب كرم لولدين [(٣)] سربى ، وفى القبلة

---

(١) لايخفى أن مورة اسم حصن من حصون طليطلة

(٢) لما قل عدد المسلمين فى طليطلة بالهجرة والتنصر صاروا إذا ذكروا مسلماً فى أحد الصكوك يذكرونه بقولهم فلان المسلم

(٣) اسم علم

الجبل ، وفى الجوف كرم القسكلى بثمن عدته ثلاثة مثاقيل ذهباً مرابطياً ، ودفع البايع الثمن الى البايعين ، وأقرّا انهما قد اتصفا منه وأنزلا فى المبيع وحقوقه الخ . وكتب الاستدعا فى شهر مايو من عام خمسة وسبعين ومائة وألف لتاريخ الصفر .

يعيش بن قريش شهد عندى ، ومرتين بن رمانش شاهد وكتب عنه شهد عندى . شهدوا عندى الشهود بأعيانهم ، وفى التاريخ وأنا عبد الرحمن بن يحيى بن حارث وبالله التوفيق .

مثال آخر :

« اشترى مرتين سلمة بن ابى حجة من مرتين باطرس قرعتين اثنين من جملة اثنين وثمانين قرعة بقرية السكلبيين والبجار من عمل مدينة طليطلة من أراض بور ومعمور وأنادر ، ومروج وأشواط[1] و برادات و بكل حق ، بثمن عدده أربعة مثاقيل مرابطية ، ورباعى مثقال ضرب المرية ، فى شهر نونبر الذى من عام سبعة وثمانين ومائة وألف للصفر

شهود الأصل فيه . . . . . مجانت بن عثمان بن خلف . وعمر بن عبد الله شاهد . ويحيى بن سعيد شاهد كذلك . وبالعجمى سبربان بطرس تشتش . ديمنقه شربطول تشتش

هذه النسخة الخ . فى العشر الاخير من نونبر سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف للصفر :

اشتابن بن لازُره . وشلبطور[2] بن سهل بن عبد الرحمن . ويحيى بن وليد ابن قاسم . وباطره بن عمر بن غالب بن القلاّس » .

ولا يمكننا أن نستقصى جميع الصكوك والحجج التى فى هذه المجموعة التى تقع فى ألف صفحة كبيرة ، و إنما اقتبسنا منها بعض أمثلة لاجل تمثيل حالة طليطلة

(١) جمع شوط والشوط بالعربية يأتى بمعنى الأرض بين شرفين يجرى بها الماء
(٢) Salvador

الاجتماعية ، التي قيل فيها بحق إنها الحد الواصل بين الاسلام والنصرانية ، والتخم الذي يجمع بين الشرق والغرب ، ترى ذلك من اختلاط الأسماء فبينما الأب هو عمر إذ الابن هو بطره ، و بينما الأب هو عبد العزيز إذ الابن هو ميقيال . وربما تجد بيطره بن يحيى بن أصبغ ، واشتافن بن حسّان ، ومرتين بن عثمان ، وشلبطور بن عبد الرحمن وهلم جرا . والسبب فى ذلك هو أنه لما فتح العرب الأندلس ، وأسلم من أهلها أناس كثيرون استعربوا اسما وفعلا . ومنهم من لم يدخل في الاسلام ، ولكنه استعرب وهو باق على نصرانيته . وأكثر ما تجلّى هذا الوضع فى مدينة طليطلة التي كان النصارى فيها يشبهون نصارى المشرق باستعمال كثير من العربية فى صلواتهم وطقوسهم الدينية .

وقد تبدلوا بأسمائهم الأسبانيولية القديمة أسماء عربية كأسماء المسلمين إلى أن كان القسوس ورجال الكنيسة منهم يتسمون بأسماء اسلامية . وحسبك أن أحد مطارين طليطلة كان اسمه عبيد الله بن قاسم وكان له مقام عند الخليفة الناصر رحمه الله ، كما أنه بعد أن استرجع النصارى طليطلة تنصّر من مسلميها عدد كبير ، نقل صاحب النفح عن ابن بسام فى الباب الثامن من الجزء الثاني : أنه لما دخل الأذفونش طليطلة سار مع المسلمين سيرة حسنة فى أول الأمر حتى استمالهم إليه . وعبارة ابن بسام هى هذه : « و بسط الكافر العدل على أهل المدينة وحبب التنصر إلى عامة طغامها ، فوجد المسلمون من ذلك ما لا يطاق حمله ، وشرع فى تغيير الجامع كنيسة في ربيع الاول سنة ست وتسعين واربعمائة » اه .

قلنا إنه تمهل قليلا حتى أجرى بالفعل ما كان يضمره من أول ساعة دخوله إلى طليطلة ، فأما بحسب الروايات التي بين أيدينا ، والتي معناها أن طليطلة خرجت من يد الاسلام سنة ١٠٨٥ مسيحية فان الجامع الأعظم تحول إلى كنيسة (١) ثاني سنة

(١) قد جاء ذكر طليطلة فى رحلة الكاتب الأرفع أبي عبد الله بن عبد الوهاب الوزير الغساني الأندلسي الفاسي ، كاتب السلطان مولاى اسماعيل ، الذى أرسله

وقد رأينا فى دليل بديكر أن الاذفونش السادس فتح طليطلة سنة ١٠٨٥ ، وكان

السلطان سفيرا فى بعض المهمات إلى صاحب اسبانية ، وكان قد جول فى تلك المملكة واطلع على أحوالها فكتب رحلة شهيرة بديعة اتصلت بترجمتها إلى اللغة الافرنسية قبل أن أطلع على أصلها العربى الذى أهدانيه العلامة الكبير المؤرخ الشهير مولاى عبد الرحمن بن زيدان ، نقيب العائلة السلطانية العلوية بالمغرب ، أدام الله عزهم ، وقد نقلت كثيرا من هذه الرحلة إلى الفصل المتعلق بمسلمى الاندلس فى كتابى حاضر العالم الاسلامى . وكانت وفاة الوزير الغسانى فى فاس عام تسعة عشر ومائة والف . قوله عن طليطلة : قد أمر الطاغية من أصحب معنا من خدامه بمرورنا على مدينه طليطلة لنشاهد مسجدها الجامع الذى هو من عجائب الدنيا فى بنائه وذكره وبعد صيته فبتنا يوم خروجنا من مدريد بقرية يقال لها وشقة ، وكانت من حواضر العدوة التى لها ذكر ، دار علم ونباهة ، وهى اليوم قرية متبدية . وبها من أثر البناء القديم الاسلامى بعض أثر مثل الباب الذى يدخل به إليها حين كانت مدينة . أما اليوم فالتبدي أقرب إليها من الحضر . وبينها وبين مدينة طليطلة أحد وعشرون ميلا . وطليطلة مدينة كبيرة قاعدة من قواعد مدن العدوة ، ودار ملك قديم ، وهى على ربوة من الأرض ، فى حافة مطلة على الوادى المسمى طاجو ، وهو الوادى المار بأرنجويس ـ كتب الوزير الغسانى طاجو وأرنجويس بالخاء لا بالجيم وذلك بحسب تلفظ الاسبانيول بهما ـ وقد أحاط هذا الوادى بالحافة التى عليها المدينة من ثلاثه أرباعها والربع الموالى للبر هو الآتى من طريق مدريد . وأسوار هذه المدينة وحيطانها وازقتها باقية على حالها من عهد عمارتها من المسلمين ، وأثرها أثر الحضارة ، إلا أن أزقتها ضيقة جداً ، ودورها باقية على حالها من البناء الاسلامى وتفصيله ، والنقش فى السقوف والحيطان بالكتابة العربية ، ومسجدها الجامع هو من عجائب الدنيا ، إذ هو مسجد كبير مبنى كله من الحجارة الصلبة الغريبة ، القريبة الشبه من الرخام ، وسقوفه مقبوة من الحجارة وهى فى غاية ارتفاع السمك وعلوه ، وسواريه فى غاية الضخامة ، والصناعة العجيبة والنقوش ، وقد أحدث النصارى فى هذا المسجد من جوانبه زيادة فى الوسط بشباك من نحاس أصفر ، وفيها من تصاويرهم وصلبانهم وآلة الموسيقى المسماة عندهم أوركان التى يضربون بها وقت صلواتهم ، مع الكتب التى يقرأونها فى الصلوات ، شىء كثير . وقد جعلوا أمام هذا الشباك صورة المصلوب ، وهو من ذهب ، يقابلونها فى صلواتهم ، وأمام المصلوب

المسلمون اشترطوا لتسليمها أن يبقى المسجد الأعظم لهم ، ورضى الاذفونش بهذا

مصابيح كثيرة من ذهب وفضة ، توقد ليلا ونهاراً ، مع شموع كثيرة كبيرة . وأبواب هذا المسجد فى غاية الاتقان والصناعة . وقد زادوا فوقها من الصور ما هو من عوائدهم التى لا يمكنهم تركها ، ومن الزيادات المحدثة فى جوانب هذا المسجد بيوت كثيرة كبيرة مشتملة على خزائن من الأموال ، فيها من الذخائر والأحجار الملونة ، مثل الياقوت الأحمر والأبيض ، والأصفر ، والزمرد ، والتيجان المرصعة بالدر الفاخر ، والأحجار النفيسة التى لها بال ، ولا تقوم بمال ، ومع هذه الذخائر تاج كبير من ذهب ، ومعه سواران من ذهب ، زعموا أن ذلك من عهد المسلمين رحمهم الله . وعن يمين هذه الخزائن خزانة فيها كتاب كبير مكتوب بماء الذهب ، زعموا بأنه كتاب التوراة ، وهو عندهم فى غاية التحفظ والصون والاعتناء به ، لا يخرج عن موضعه الذى به ، وذكروا أن والد هذا الطاغية أحب إخراجه من هناك ، وأن يكون عنده بعد أن أعطاهم فيه مدينة كبيرة بخراجها وجميع منافعها ، فلم يعطوا به كلاماً ، لضنهم به . وعن يمين هذه الخزانة أيضاً خزانة أخرى ، فيها صندوق كبير مرصع ، مشحون بالموائد الفاخرة المرصعة بالذهب ، مثل الهدايات والقلائد والسلاسل والخواتم الثمينة وعن يمينه صومعة من فضة ، تزيد على قامة الانسان ، وداخلها وخارجها من الذهب المرصع بالأحجار النفيسة ، وقد عمل هذا المنار على شكل منار مسجد طليطلة ، وعلى هيئته ومثاله ، وهو عندهم زينة ، يخرجونه فى أعيادهم مع الصلبان التى يطوفون بها فى الأزقة ، وهذا المنار الذى بهذا المسجد ، أعاده الله للاسلام ، وعمل هذا على شكله ، هو من أعاجيب البناء صناعة وعلواً فى الجو ، فقد اشتمل على ثلاثمائة درجة . منها مئتان إلى موضع التأذين وفى موضع التأذين جعل أعداء الله تعالى تسعة نواقيس كبار جدا ، دائرة ، كل ناقوس منها ستة وثلاثون شبرا ، مع غلظ ثلاثة أرباع الذراع . وبناء هذا المنار كله من الحجارة الصلبة التى تشبه الرخام ، من جنس الحجر الذى بنى المسجد منه ، نسأل الله أن يعيده لتوحيده وذكره ، وحوالى هذه الخزائن من الخزائن المشحونة بالقناديل الذهبية والفضية والصلبان المرصعة ، والثياب التى يلبسها الغرايلية ، وأكابر القسوس والشمامس والرهبان ، التى طرزت بالجوهر النفيس شىء كثير . وهؤلاء الرهبان الذين فى هذه الكنيسة هم جميعاً إلى نظر الكردينال ، الذى هو اليوم أكبر كردينال عند سائر المسيحية ، وهو الذى تحت البابا كما تقدم التنبيه عليه ، وعلى البابا

الشرط ، ولكن فى السنة التالية نقض الاذفونش عهده ، بناء على الحاح الملكة كونزتانزة و برنار رئيس الأساقفة اهـ .

وكيف كان الأمر فقد تنصر كثير من مسلمى طليطله ، و بقى كثير من المسلمين على دينهم ،لاسيما طبقة الخواص ، ولكنهم لم يهجروا البلدة دفعة واحدة . وما خلت طليطلة من المسلمين تماماً إلا بعد قرون متطاولة . ومن الغريب أن طليطلة رجعت إلى النصارى فى الثلث الثالث من القرن الحادى عشر للمسيح ، وأنه فى أوائل القرن السابع عشر كان لا يزال فيها مسلمون فى زى نصارى . وقد نقلنا فى بحث مسلمى الاندلس فى حاضر العالم الاسلامى فى الجزء الثانى عن كتاب الأنوار النبوية فى أنباء خير البرية ، للعالم النسابة سيدى محمد بن عبد الرفيع الاندلسى المتوفى فى رجب عام اثنين وخمسين وألف ، وصفه يوم كانوا بالاندلس لحالة المسلمين الذين كانوا مضطرين تحت خطر الحرق بالنار ، أن يظهروا النصرانية وهم يبطنون الاسلام ، وكيف كان والد المؤلف المذكور يعلم ولده الاسلام سراً ، ويوصيه بأن يكتم ذلك

دمرهما الله . وحيث كانت طليطلة هى من قواعد مدن اسبانية ، كان الكردينال الذى يتولى أمر كنيستها أكبر من يتلقب بالكردينال عند عبدة الصليب . وهذا الكردينال الموجود اليوم هو رأس ديوان اسبانية ، واليه ينتهى جميع أمرهم فى دينهم ودنياهم ، وعن رأيه يصدر كتاب الديوان جميعا ، وفى طليطلة أثر القصبة التى كان يسكنها الملوك قبل هذا ، وقاعدة طليطلة كانت دار ملك العجم الأولى ، هى واشبيلية ، وإليها كان قصد طارق ، رحمه الله ، بوجهته حين دخل العدوة ، بعد مروره بقرطبة ، ولم يعرج على غيرها ، حتى انتهى اليها ، ووجد بها من الآثار التى تدل على مكانتها مالا حصر له . ومن جملة ذلك المائدة المشهورة ، إلا أن بعض أهل التاريخ يزعم أن المائدة لم تكن بطليطلة ، بل كانت بموضع آخر قريب من طليطلة ، يسمى وادى الحجارة وان طارقا لما فتح طليطلة خرج إلى الموضع المعروف وادى الحجارة قرب الفج الذى كان ينسب إليه خلف الجبل حتى بلغ مدينة المائدة ، وسميت بذلك لوجودها بها ، وهى المنسوبة إلى سليمان بن داود عليهما السلام ، وقيل إنها كانت من زبرجدة خضراء ، وانها كان لها ثلاثمائة وخمس وستون رجلا والله اعلم ، انتهى

حتى عن والدته وعمه وأخيه ، وجميع أقاربه ، وأن لا يخبر أحداً من الخلق بما يعلمه إياه فى الخفاء . ثم كان يرسل والدته إليه فتسأله : ما الذى يعلمك والدك فيقول لها : لاشىء . فتقول له : أخبرنى بذلك ولا تخف لانى عندى الخبر بما يعلمك . فيقول لها : أبداً ماهو يعلمنى شيئا . قال : وكذلك كان يفعل عمى ، وأنا أنكر أشد الانكار ثم أروح إلى مكتب النصارى . وآتى الدار فيعلمنى والدى ، إلى أن مضت مدة ، فارسل إلى من اخوانه فى الله والأصدقاء . فلم أقرّ لأحد قط بشىء ، مع أنه رحمه الله تعالى قد ألقى بنفسه للهلاك لامكان أن أخبر بذلك عنه فيحرق لامحالة . لكن أيدنا الله سبحانه وتعالى بتأييده الخ . إلى أن يقول : فلما تحقق والدى رحمه الله تعالى أنى أكتم أمور دين الاسلام عن الأقارب ، فضلا عن الأجانب ، أمرنى أن أتكلم بافشائه لوالدتى وعمى و بعض أصحابه الأصدقاء فقط ، وكانوا يأتون إلى بيتنا فيتحدثون فى أمر الدين وأنا أسمع ، فلما رأى حزمى مع صغر سنى فرح غاية الفرح ، وعرفنى بأصدقائه وأحبائه واخوانه فى دين الاسلام فاجتمعت بهم واحداً واحداً . » اه

وقد علقت على هذه الجملة بقولى : إن الاسلام بالاندلس حسبما يظهر من هذا الوصف كان أصبح شبيها بجمعية سرية تكتم أمرها أشد الكتمان ، ولايقدر واحد من المسلمين أن يبوح باسلامه إلا لمن يكون قد ابتلى أمانته ، وامتحن صدقه فكانوا يجتمعون سراً إذا كان بعضهم واثقا ببعض ، ويتكلمون فى أمر الدين فى أشد الخفية . ثم نقلت عنه مايلى :

« وسافرت الأسفار لأجتمع بالمسلمين الأخيار من جيان ، مدينة ابن مالك إلى غرناطة ، و إلى قرطبة ، واشبيلية ، وطليطلة ، وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء أعادها الله تعالى للاسلام فتلخص لى من معرفتهم أنى ميزت سبعة رجال ، كانوا كلهم يحدثوننى بأمور غرناطة ، وما كان بها فى الاسلام حينئذ ، و بما أقوله وقلته بعد ، فسندى عال لكونه ماتم إلا بواسطة واحدة بينى و بين الاسلام بها » اه .

وعلقت على هذه الجملة الأخرى مايلى : إنما من عرف كون ابن عبد الرفيع

توفى عام ألف واثنين وخمسين للهجرة ، لا يخفى عنه أنه كان شاباً فى أول سنى الالف للهجرة ، أي منذ نيف وثلاثمائة سنة . و يظهر له أنه منذ نيف وثلاثمائة سنة ، كان فى جيان وغرناطة واشبيلية وقرطبة أناس لا يزالون يدينون بالاسلام سرا ، وهم فى الظاهر نصارى . وأغرب من هذا وجود مثل هؤلاء فى طليطلة المصاقبة لمجريط ، والتى كان مضى على استرجاع الاسبانيول لها يوم زارها ابن عبد الرفيع أكثر من خمسمائة سنة . أى أنه بقى مسلمون فى الباطن فى طليطلة من بعد أن زال عنها حكم الاسلام بخمسمائة عام

ثم ذكرت فى محل آخر من هذا البحث : « وقيل لى إن أحد المغاربة وقع فى هذه الأيام الأخيرة ببعض قرى طليطلة ، فوجدهم يذبحون الأكباش يوم عيد النحر عندنا ، و يقولون إنها عادة توارثوها عن آبائهم اه .

ثم إني أذكر فى المبحث نفسه فصلا عثرت عليه فى جريدة « العَمَلَة » النمساوية الصادرة فى فينة ، عددها المؤرخ فى ٣ يناير سنة ١٩٣٢ ، جاء فيه بمناسبة الكلام عن ثورات أهل العمل ، كلام عن موريسك الأندلس ، وأعمال ديوان التفتيش الكاثوليكى مايلى :

« فأخذ هذا الديوان ينقّب وينقّر عن الكلّية والجزئية من أعمال المسلمين ، ومنع جميع شعائرهم الدينية ، بل منع جميع عاداتهم ومذاهبهم فى الحياة : ولو لم يكن لها تعلق بالدين ، وعاقب على ذلك . وكان يعاقب أشد العقاب من علم عنه أنه لا يأكل لحم الخنزير أو الميتة ، أو عرف عنه أنه لا يشرب الخمر ، أو قيل إنه أدرج ميته فى كفن نظيف . وكانت النظافة فى ذاتها ذنباً يعاقب عليه ، و فى سنة ١٥٩٧ وجد فى طليطلة المسمى « موريسكوبار ثولوم شانجه » فلحظ عليه القوم أنه شديد التطهر ، فعذبوه عذاباً شديداً ، وما زالوا يعذبونه حتى أقر بأنه يتطهر عن عقيدة ، فحكموا عليه بالسجن المؤبد ، و بضبط جميع أملاكه . ووجدوا قرآناً عند عجوز اسمها « ايزابلا زاسن » فقالت أنها لا تقدر أن تقرأه فلم ينفعها هذا القول ، وعذبوها ،

ولكن لما كان عمرها تسعين سنة اكتفوا من اهانتها بحملها على حمار ، والطواف بها فى الشوارع وعليها غطاء مكتوب عليه اسمها « وإثمها » ثم زجّوها فى السجن بعد ذلك ، وبقيت فيه إلى أن علّموها قواعد المسيحية » اه .

من هذا الفصل الوارد فى جريدة « العَمَلة » النمساوية .

Arbeiterzeitung يتأيد ما رواه ابن عبد الرفيع الاندلسى ، من انه فى أوائل القرن السابع عشر كان لا يزال فى طليطلة بقايا مسلمين ، وأن العروبة لم يكن طمس هناك أثرها بالكلية . وهذا بحث سنفرد له إن شاء الله ، بعد أن أعددنا مواده ، جزءاً خاصاً من كتابنا هذا .

ونعود إلى طليطلة واختلاط أسمائها ، الاسبانيولى بالعربى ، والعربى بالاسبانيولى مما يدل على امتزاج المجتمعين في هذه البلدة ، بشكل غريب ، لم يسبق له مثيل ، وإليك أمثلة أخرى :

« باع القائد دون شبيب بن عبد الرحمن من دون دُمنقه مرزالّه الدليل ، ومن زوجه يُشتة بنت مرتين الخ . والشهود يحيى بن خليل ورفاعة بن يحيى القنترى وابراهيم بن خليل وعبد الله بن عمر وحسين بن جعفر بن حسين وميقائيل بن شبيب ابن عبد الرحمن » .

ومثال آخر :

« اشترى القس دون دمنقة بن مقيال بن الريم من بوان باطرس جميع الفدان الواحد الأرض البيضا الذى له بحومة أوليش الكبرى عمل طليطلة حرسها الله . إلى أن يقول : وسعة هذا الفدان المبيع المذكور كسمة كل قرعة هى بالحومة المذكورة بثمن عدته مثقال ونصف من الذهب البياسى الضرب [١] . أما الشهود فهم : بيطُره ابن يليان بن ابى الحسن ، وشلمون بن على بن وعيد الخ .

وفى مكان آخر صك المشترى فيه الارجبرشت [٢] دون نقلاوش القونونقى [٣]

---

(١) البياسى نسبة إلى بياسه من عمل قرطبة ويظهر أنه كان بها دار ضرب لعهد الاسلام

(٢) Archiprêst القس الأكبر (٣) Canonigos القانونى

بقاعدة شنتة مرية عمّرها الله والبائعة مرية بنت تمام على حفيدها الصغير الذى من غير رشد المسمّى شربند بن باطُرة غرسية الذى فى حضانتها . و فى هذا الصك ذكر الوزير القاضي دون يليان بن أبي الحسن بن الباصُه أدام الله عزّه .

و فى صك آخر يقول : اشترى دون لازر بن على من دون يوان بن عثمان ومن زوجه دمنقة بنت حنصون جميع الكرم الذى لهما بحايز شنت اشتاين خلف نهر تاجُه و بمقربة من قرال بنى ابى مالك من احواز مدينة طليطلة حرسها الله . والتاريخ هو فى العشر الأوسط من شهر ينير سنة إحدى ومائتين وألف للصفر والثمن ثلاثون مثقالا من الذهب البياسى . والشهود يليان بن فرجون و بيطرو بن اندراش بن عزيزى وميقايل بن سلمة بن سدرابه ولب بن فرنندس . وفى آخر الصك يقول : وأنا يوان ابن عثمان بن عثمان بعت وقبضت » اه

وانظر إلى هذا الصك :

« اشترى الدياقن دون دمنقه نفرُه الذى من أئمة قاعدة شنتة مرية بطيطلة حرسها الله من الامام دون بيطرو جلبرت منها أيضاً جميع الغرس المعلوم له بحومة برج الشياطين عدوة نهر تاجه فى حومة شنت فليس من أعمال مدينة طليطلة المذكورة انها يصل اليه وهو الغرس الذى كان اغترسه أبو الطيّب المغترس وحدّه فى الشرق غرس لدون اشنا بن القميرانى وفى الغرب شنطير سالك من النهر المذكور الى الطرق التى بالحومة المذكورة و إلى سواها وفى القبلة غرس الاندراش وفى الجوف غرس لبيطروه اشكردُه بثمن عدده ثلاثة عشر مثقالا ونصف مثقال ذهباً بيامى الضرب طيباً وازناً فى شهر مارس من عام اثنين ومائتين وألف » .

وهذا المثال :

« اشترى ميقيال يوانش وأخيه دمنقر يوانش على السواء بينهما والاعتدال من دونة التى كانت زوجاً لاندراش دحجاج ومن بينهما يوانش و يُليان واشتابن ورومان ومريه وقُلُنبَه جميع الدار التى لهم بحومة شنت رومان داخل مدينة طليطلة حرسها

الله التى حدها فى الشرق دار لورنة دمنقه سبريان وفى الغرب الزقاق الغير نافذ والباب فيه شارع وفى القبلة غرفة على اسطوان هذه الدار وهى لدون فيليز شنجس»

وهذا صك آخر :

« اشترى الاردُه [١] الافرنجى وزوجه دونة مرشكيطه [٢] ، من اولاليه [٣] بنت ديقُه ، وهي التى كان أخاها بيطروه ديس [٤] شيون السكنفرية [٥] متاع [٦] شنته مريه العظمى ، جميع الدار المعلومة لها ولأخيها بيطروه ديس المذكور بحومة شنته مريه القاعدة داخل مدينة طليطلة حرسها الله التى حدها أجمع فى الشرق الطريق السالك ، والباب إليه شارع ، ودار كانت لنقلاش د طوريش ، وفى الغرب دار انتالين ولد غلتار لقواس ، وفى القبلة دار الوزير القاضى دون رودريقه ديمنقس ، ودار لاشتافن مشتابار ، وفى الجوف قرال لانتلين المذكور ، ولريموند بلدى [٧] ولد جفري مرابطى [٨] ، ودار كانت لأرنلد فرانساشك الخ »

وتأمل فى هذا الصك :

« اشترى دونه لوقاديه بنت ميقائيل شايس ، وابنتها دونه مريه ، التى كانت زوجاً لدون غرسية القميرانى رحمه الله من دونه مرينه التي كانت زوجاً لدون قليام ومن بينهما دون فليز ، ودون بيطروه ، ودون يوانش ، ودونه ديمنقه ، جميع الميشون الذى هو حانوت الآن ، والشوطار الذى تحته ، والغرفة التى عليه ، المعلوم لهم بحومة

---

(١) فى الترجمة الاسبانيولية Alardo el Franceses

(٢) فى الترجمة الاسبانيولية Dona Morisquita

(٣) Eulàlia فى الترجمة

(٤) Diaz فى الترجمة

(٥) Sayon de la cofradia فى الترجمة

(٦) متاع هنا يراد به المنسوب إلى المكان وهو اصطلاح العامة

(٧) فى الترجمة Raimundo boldi

(٨) فى الترجمة Jofré Almoravide

كنيسة شنته مريه القاعدة فى ربض الافرنج (١) ، داخل مدينة طليطلة ، حرسها الله وحد هذا المبيع فى الشرق والغرب والقبلة والجوف طريق آخذ على ما يشين الطعام الى سوق الرقيق ، وطريق آخر على اليليندين ، إلى سوق الحصّارين ، وميشون لقليان د ديقرميلش وميشون لارنال ميقلاُه ، وهو قريب البائمين ، وكان قسم المبيع ومثله بثمن مبلغه أربعون مثقالا ذهباً ، بيّاسية الضرب ، طيبة وازنة ، بشهر ديجمبر الذى من عام ثلاثة ومائتين للصفر .

وشهود الأصل فيه بيطرو بن يليان بن أبى الحسن ، وعمر بن أبى الفرج ، وفيليس بن غليام ، ويوانش بن غليام ، وبيطروش بن غليام ، واندراش فرتوم ، وميقاييل ارتند . وفى آخره مذكور هكذا : صحة النسخة (الخ) وذلك فى العشر الأوسط من شهر فبرير سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف للصفر

شلبطور بن عبد الملك بن العريب ، ويحيى بن وليد بن قاسم »

وغيره :

« واشترى القس دمنقةُ بن الريم من دونة بنت الوزير القاضى عبد الرحمن ابن يحيى بن حارث ، جميع الكرمين المعلومة لها بحومة منزل مُشْقة من مدينة طليطلة حرسها الله ، وحد أحدها فى الشرق كرم لورثة لب اشنابنس ، وفى الغرب نهر تاجُه وفى القبلة كرم لمرتين قالبه وفى الجوف جبل كرم لمرتين قالبه ، وقطعة كرم لصق نهر

(١) كان للافرنج أى للفرنسيس حارة خاصة بهم فى طليطلة لسكناهم هناك بحسب رواية المسيو لافالى Lavallée وسبب ذلك هو انه لما فتح الاسبانيول طليطلة سنة ١٠٨٥ كانت امرأة الأذفونش السادس يقال لها « كونستنزه » وكانت أفرنسية الأصل وكان مع جيش الأذفونش الذى فتح طليطلة عدد كبير من الفرنسيس وكان معهم رهبان كثيرون من الفرنسيس أيضاً اشتهر بينهم راهب اسمه برنار من دير ساهاغون Sagahun فلما تم استيلاء الاسبان على طليطلة سكن هؤلاء الفرنسيس فيها . وكانت الملكة التى هى أفرنسية الأصل تمدهم وتعززهم حتى أنهـا جعلت الراهب برنار المذكور مطراناً لطليطلة .

تاجه (إلى أن يقول) : حضر لهذا المبيع دون يوليان بن البائعة . وقال ان لا اعتراض عنده فيه وسلّمه

والشهود بيطرو بن مرتين بن بهلول ، و بهلول بن غالب ، و يوانش بن تمام وعمر بن أبي الفرج . وفي الآخر هكذا : كان ذلك بحضرى وانا يوانش بن عطاف بن لنبضار »

وغيره :

« اشترى الارجبرشت [1] الاجل دمنُه نقلاوش أدام الله عزه ، من دمِنقه بنت شلبطور [2] أبقاها الله ، جميع النصف من المسجد الذى بحومة شنته مرية ، بحضرة طليطلة حرسها الله ، حد هذا النصف المذكور فى الشرق النصف الثانى الذى هو لاختها شول ، وفى الغرب حجرة لمريم المسلمة التى كانت زوجاً للأبدى الجزّاز . وفى القبلة الدار التى كانت لابرسيوه ، وفى الجوف الطريق و إليه يشرع الباب ، بثمن مبلغه ثمانية عشر مثقالا من الذهب الطيب الوازن ، فى العشر الآخر من شهر مايو سنة خمسه ومائتين وألف

والشهود : عبد الرحمن بن عبد الملك ، ودمِنقة بيطروس البامى ، وعبد الله بن عمر بن يوانش بن سليمان ، وعامر بن يحيى بن بلاى »

وغيره :

« اشهدت دونة شولى بنت عمر بن هشام ، و بنتاها يوشتا وسى بنتى مقيال ابن سليمان على أنفسهن شهدا آخر هذا الكتاب أنهن بعن من الوزير الأجل دون اشتافن يليانس ، أكرمه الله الربع الواحد على الاشاعة من جميع السد المعروف بسد الفته الذى فى نهر تاجُه تحت حصن قلانيه الخ . »

وغيره :

« اشترى يوان مستعرب [3] لدون مَلَندة الدليل ، و بمال دون ملنده المذكور

---

(١) Archiprétre (٢) Salvador

(٣) Mozarabe انه يظهر من هذه الكتابات التى إذا ذكرت الافرنجى تنص عليه بأنه افرنجى وإذا ذكرت الاسبانيولى المتكلم بالعربية تنص عليه بأنه مستعرب

من دونه ستميورى ، التى كانت زوجاً لدون دعنقه البرنيتي ، رحمه الله جميع الحوانيت والغُرَيْفة المتصلة بها ، (إلى أن يقول) واعترف المتبايعان المذكوران أن البايعة المذكورة قبضت عن الستة عشر مثقالا المذكورة أعلاه من المبتاع المذكور القلايب

وإذا ذكرت المسلم أشارت أنه مسلم وإذا ذكرت اليهودى أشارت اليه بأنه اسرائيلى انه كان فى طليطلة أربع أو خمس فرق منها العرب المسلمون الذين بقوا حافظين للغتهم ودينهم حتى بعد استيلاء الاسبانيول ومنها الاسبانيول المستعربون الذين كانوا يتكلمون ويكتبون ويقيمون صلواتهم بالعربية حتى إنهم كانوا إذا كتبوا كتاباً يبدأونه ببسم الله الرحمن الرحيم وكانوا متعصبين جدا للعربية ولذلك بقيت اللغة العربية والثقافة العربية سائدين فى طليطلة مدة ستمائة سنة بعد انقراض حكم الاسلام منها ومنهم الاسبانيول الذين يتكلمون ويكتبون بلغتهم الاسبانية وكان المستعربون يسمونهم بالقشتاليين كما مر فى أحد الصكوك التى نقلناها . وكان منهم أيضاً الافرنج الذين بدأت سكناهم فى طليطلة من وقت استرداد الاسبانيول لها لأنهم كان منهم جنود كثيرون فى جيش الأذفونش السادس . ومنهم اليهود الذين كانوا عنصرا كبيرا ولم يكن الاسبانيون المستعربون بالفئة التى ترضى بالسيادة للاسبانيين القشتاليين أو للافرنج حتى انه وقع خلاف بين النصارى المستعربين والنصارى غير المستعربين من قشتاليين وافرنج فى مسئلة الصلوات فان المستعربين كانوا يقيمون القدّاس الذى يسمى بالاسبانية بالميشة أو الميسة وذلك باللغة القوطية بحسب قاعدة قديس عندهم يسمى سان ايزيدور وكانوا يخلطون ذلك بالعربية وكان الاسبانيول يقولون لهذا الطقس « نصف عربى » أو « موزاراب » فكان الافرنج والقشتاليون يريدون حمل الجميع على استعمال الطقس الرومانى ولكن المستعربين أبوا إباء شديدا وكان أشدهم خصاما فى هذا الأمر جوان رويس ماتانزاس Juanriuz de los Matanzas ولما تعذر حل هذه العقدة قيل إنهم لجأوا إلى البراز وأنهم يخرجون من كل فئة فارساً فيتجاول الفارسان والذى يصرع الآخر تكون فئته هى الغالبة فى الموضوع . فلما تبارز الفارسان كانت الغلبة للفارس المستعرب ولكن فئة الافرنج بقيت مصرة على عنادها . فلجأوا إلى امتحان آخر على عهدة الرواة ورموا كتاب الصلاة الرومانى وكتاب الصلاة القوطى فى النار وقالوا الكتاب الذى يخرج سالما من النار يكون له الحكم . فخرج كتاب المستعربين سالما وخرج الكتاب الرومانى أقل سلامة منه فيقال أن الأذفونش السادس أبقى عند ذلك الطقسين معا .

المعروفة لَمَنْدة الدليل بقرية قنالِش ، والنبر الذى كان له بها ، والحمار والعجلة ، هذه الأسباب المذكورة عن سبعة مثاقيل ونصف الخ . »

وغيره :

« اشترى الوزير المشرّف دون ديمنقهُ بن سليمان بن غصن بن شربند ، أكرمه الله من سبريان بن بِسَنْت ، ومن زوجه لوقادية بنت يحيى البياسى ، جميع الدار المعلومة لها بحومة كنيسة شنت يوانش ، بثمن عدده ومبلغه سبعون مثقالا من الذهب الفنشى الطليطلى الضرب الطيب الوازن الخ . »

وغيره :

« اشترت الابطيسة[1] الجليلة دونه مطرى أكرمها الله ، التى بدير شنت قلمنت عمّرها الله من القس دون ديمنقهُ الخ »

وغيره :

« اشترى أبو زكرى يحيى بن على المالقى ، من دونه لوقادية بنت بيطروسُلبيس ومن ابنها رودريقه بن بشكوال جميع الكرم المعلومة لها بحومة كنيسة شنته قلمبه عمل مدينة طليطلة حرسها الله الخ .

والشهود فرنانده يوانش وعبد الله بن عبد العزيز بن خطّاب ، وبَسَنْت بن عبد العزيز بن سعد ، وباطره بن عمر بن غالب بن القلاّس »

وغيره :

« اشترى دون يوان البلجانى أكرمه الله من بيطرو بن يوليان بطيط جميع الجنينة[2] التى له بحومة باب المخاضة ، على نهر تاجُه (إلى أن يقول) ودخل فى هذا المبيع الموصوف جميع ما كان للبايع المذكور فى السانية الكبيرة المشهورة الخ . »

---

(١) أى الراهبة الرئيسة

(٢) فى جميع البلاد العربية يستعملون « الجنينة » بمعنى البستان الصغير

وغيره :

« اشترى افراير [١] دون فرناندوه الذى من فرايرين قلعة رباح ، للرواهب الذين بدير شنت قلمنت بمدينة طليطلة ، أنماها الله من ميقاييل إلى آخره »

وغيره :

« اشترى دون يليان القس الميردوم ، متاع شنت دعنقة ، إلى دير شنت قلمنت الذى هو بمدينة طليطلة حماها الله ، ومن مال الدير المذكور الخ » .

وغيره :

« اشترى الفرايلى دون فرناند وه يوانش ، متاع قلعة رباح إلى الابطشة دونة مطرى متاع شنت قلمنت الخ » .

ومن هذه الصكوك مافيه :

« اشترى الوزير الأجل المشرف الأفضل الأكمل أبو عمر شوشان [٢] ، أدام الله عزه ، من دون مرتين [٣] دى القونط ، ومن زوجه دونة قلمبة بنت فرنند واباط [٤] الشطر الواحد على الاشاعة ، من جميع الاندر الذى شطره الثانى للمبتاع المذكور ، وقد بيّن فيه قرال ، وهو بقرية أوليش الكبرى من عمل مدينة طليطلة حرسها الله ، ولشهرته استغنى عن تحديده ، بثمن مبلغه ستة مثاقيل من الذهب الفونشى الضرب ، وذلك في شهر ديجمبر سنة ست وثلاثين ومائتين للصفر .

---

(١) الراهب.

(٢) مكتوب فى الترجمة الاسبانيولية اسم هذا الرجل هكذا :Abuomar Susàn وقبل اسمه مكتوب Alguacil Almogarife ومن المعلوم أن الاسبانيول حرفوا لفظة « الوزير » حتى صارت « الغاسيل » ويظهران لفظة « المشرف » كانت دخلت أيضا فى لغتهم حتى صارت تستعمل فيها.

(٣) Martin de Alconte

(٤) Fernando Abat

وتحته مكتوب : غالب بن غلمون . ومرتين بن يحيى بن عبد العزيز . وديمنقه ابن بيطروه القنترى . تكيف الأشهاد فيه بين يدى وأنا شلمون بن على بن وعيد »

ثم هذا الصك الذى يتضمن بيع عقار موقوف ، و بيان السبب الذى اضطر إلى هذا البيع فهو يقول :

« باعت الابطيشة [(١)] الجليلة دونه شنجه التى على دير شنت ياترو بالحزام [(٢)] أكرمها الله مع كونباتها [(٣)] الكائن أسماهم فى هذا الكتاب ، من دون مرتين ابن باطروه دِ قشطَرَة [(٤)] ، جميع الميشون الذى علم فى أصله للدير المذكور بربض الافرنج التى على مقربة العشابين وبداخل مدينة طليطلة ، حرسها الله ، وهو الميشون الذى حده فى الشرق طريق سالك للحصارين ، وفى الغرب ميشون لدون بطال السبطير [(٥)] ، ولدونة يوشتة [(٦)] زوج غليلم [(٧)] دبياسة ، ولباطروه غليلم ، ولبنى دون جوان دلبدقدوه [(٨)] ، وفى القبلة المحجة السالك ، و بابها شارع اليها ، وفى الجوف ميشون لدون باطروه جشُولين [(٩)] ، وحوانيت السلطان ، بثمن مبلغه وعدده أربعون مثقالا ذهباً من الذهب الفونشى ، وصار عندهم وفي ملكهم لينفقوه على أنفسهم ، وعلى جميع من هو فى الدير المذكور ، مما يجب له النفقة منه في الدير ، لا غنى لهم عنه فى المأكل فى هذه الاعوام المحيلة ، إذ لجّتهم الحاجة والفاقة لئلا يموتون جوعاً ، إذ قد

---

(١) فى النص الاسبانيولى Abbatissa Sanecia

(٢) فى الترجمة Alhicem

(٣) أى صواحباتها .

(٤) Pedro de Castro

(٥) Don Vidal El - Zapatero

(٦) Justa

(٧) Guèllermo de Baeza

(٨) فى الترجمة الاسبانيولية وضعوا مكان هذه الكلمة نقطا للدلالة على جهالتها .

(٩) Pedro Chasolin

أحفلوا على ذلك فى الدير المذكور، وخارج الدير ، قد شاوروا فيه الاعيان القنونقين [١] بالقاعدة [٢] شنتة مرية أم النور ، درّ لنا الله شفاعتها ، فكلهم قد حطوه عليه ، وأجمعوا الرأى فيه ، إذ الضغطة والحاجة والفاقة ، قد صحت انها حاطت بهم ، ولذلك باعوا المبيع الموصوف ، وجاز لهم بيعه ، وصح للمبتاع ابتياعه عن ذلك أبداً ، وللمبتاع المذكور براءة تامة ، فبرى، في العشر الأول من شهر فبرير سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف لتاريخ الصفر .

واعترف المبتاع المذكور دون مرتين أن هذا الشرى على حسبه ونسبته هو بينه و بين زوجه دونه يوشتة ، على المناصفة ، وعلى الجميع يقع الاشهاد .

مقيال بن على بن عمر . ويواتش بن مقيال بن عبد العزيز الشنارى .

Ego Abbatissa Sancia. Monasterii Sancti Petri Consedo. Ego Fernandus Iohnnes Subdiaconus Sancti Nicolai Testis. Ego Dominica Priora Confirmo. Ego Lazarus Presbiter Sancti Sevasliani Eeclesie Testis. Ego Liocadia Confirmo. Ego Anastasia Confirmo. Ego Eugenia Confirmo etc.

فمن هذا الصك وأمثاله يعرف انه فى طليطلة لم يكن الجميع يكتبون بالعربية وكان لا يزال قسم كبير من الاسبانيول يضعون امضاءاتهم بالاسبانية ولكن العربية كانت هى السائدة .

ولنأخذ من بعض الصكوك بعض الجمل التى تدل على حاله طليطلة الاجتماعية فى ذلك العصر ، لكون استقصاء هذه الوثائق بأجمعها غير ضرورى ويكفى من القلادة ما أحاط بالجيد .

فمن ذلك صك شراء للدون البيروه البرس [٣] وزوجته الدونة مرية الجنان [٤]

---

(١) Alos Canonigos يريد بها القانونيين وهى رتبة دينية عندهم

(٢) فى الترجمة ا لاسبانيولية هى الكنيسة الكبرى Catedrale

(٣) فى الترجمة الاسبانيولية « البيروه » هو Alvaro « والبرس » هو Alvarez

(٤) الجنان جمع جنة ولكنه يستعملها استعمال المفرد بدليل قوله «الذى علم لوالده»

الذى علم لوالده دون مقيال بن الوزير سيد ، بحومة السوميل ، من عمل مدينة طليطلة (الخ) وفى آخر هذا الصك يقول هكذا : وليعلم أن الجنان المذكور هو الآن مبور ، ومقطوعة ثماره ، كان قطعوها المسلمون دمرهم الله . وذكر ذلك ليعلم بعد أن ألزمت نفسها ومالها دونة دينقه المذكورة دفع ابنها الفونش المذكور متى قام أو قام أحد عنه وأراد طلب المبتاعين شىء منه يدفعه عنهما بمالها .

وإليك هذا الصك يستدل منه القارىء على أحوال طليطلة فى ذلك العصر فهو يقول :

« اشترى القبشقول[1] دون جردان من دونه دونة بنت عبد الله بن يحيى جميع الدار التى لها بحومة القاعدة شنته مريه ، داخل الدرب المشهور بدرب الارسبرست[2] دون نيقولاش ، وبداخل مدينة طليطلة حرسها الله ، ومنتهى حدودها فى الشرق اسطبل كان مسجداً فى القديم ، هو للارسبرست[3] دون بيطرو من طلبيره[4] ودار لورثة شُقْرُه[5] ، وفى الغرب دار كانت لورثة الايطي[6] ، هى الآن للمبتاع المذكور ، وفى القبلة دار لورثة البرنيطى[7] ، وفى الجوف الدرب المذكور ، والباب

وقد مر أيضاً أنه استعمل « الكروم » استعمال الكرم بالمفرد وعلى كل حال ليست جميع هذه الصكوك كتابة المدققين بالعربية وان كان منها ما هو بغاية الضبط

(١) فى الترجمة الاسبانيولية Capiscol Don Jordan

(٢) فى الترجمة الاسبانيولية Arcipreste

(٣) هذه اللفظة أى « الارسبرست » بمعنى القسيس الاكبر تكتب أحيانا بالسين وأحيانا بالشين والغالب أن العرب كانوا يلفظون السين فى الاعلام الاسبانيولية شيناً ولكن قد يراعون فيها الأصل أحياناً فيلفظونها سيناً

(٤) Talavrra

(٥) Suegro

(٦) فى الترجمة الاسبانيولية Laiti

(٧) فى الترجمة الاسبانيولية Berniti

إليه شارع ، و بعض دويرة المسلم على ولد القلبق [١] الخ ، والشهود : قرشتو بل بن يليان ، ولورنس بن دمنقه بن عمران . و بيطروه بن مرتين مستعرب .

وقد رأينا هذه اللفظة «مستعرب» مراراً فى هذه الصكوك ، واستدللنا بها على أن نصارى طليطلة كانوا قسمين قسم يقال لهم المستعربون ، وهم الذين كانوا يتكلمون ويكتبون و يقيمون صلواتهم باللغة العربية ، وقسم آخر كانوا يتكلمون ويكتبون بالأسبانيولية و يقيمون صلواتهم باللاتينية ، وهذا هو السبب فى أنهم عند كتابة الصكوك يميزون الأسبانيولى الذى لغته العربية بقولهم «مستعرب» وكذلك يذكرون عند وضع الشهادات لفظة « بالعربى » ولفظة « بالعجمى » لأن من الشهود من كان يكتب امضاءه بالعربى ومنهم من لم يعرف وضع امضائه بالعربى فيشيرون إلى أنه وضع بالعجمى

ومما تعرف منه اصطلاحاتهم مثل هذا الصك :

اشترى دون غونصالبهُ المكرّج بالقاعدة شنته مريه كرياطور المطران الأجل دون غونصالبهُ قدّس اللهروحه . فلفظة « كرياطور» هى ترجمة Criado بالاسبانيولية وهى لفظة معناها أشبه بمعنى شماس المعروف فى الشرق ، وهو الذي يخدم المطران . وفى هذا الصك ذكر رجل يقال له الدون مرتين العدوى البنّاء . فأنت ترى فى كل مكان اختلاط الاسماء العربية بالأسماء الأسبانية

وانظر إلى صك آخر :

باع كونبانت [٢] القاعدة المعظمة شنته مريه أم النور . درّ كنا الله شفاعتها ، وأكرمهم . من دونة دمنقه بنت أبى الربيع سليمان بن عثمان ، التى كانت زوجاً لدون لب بن يحيى ، جميع الدار الخ .

---

(١) فى الترجمة الاسبانيولية Galàpago ومن هنا يعلم أنه كان لايزال مسلمون بطليطلة تحت النصارى من بعد ما استولى عليها الاسبانيول بقرن وقرنين وثلاثة وكانوا معروفين بأنهم مسلمون لأن اكراه المسلمين على التنصر لم يقع إلا من القرن السادس عشر فصاعدا بعد سقوط غرناطة آخر سلطنة اسلامية فى ذلك القطر

(٢) فى الترجمة الاسبانيولية Convento

وفى هذا الصك ذكر دار كانت للشقرشتان [١] ولأخته دونه اغطه .

وإليك هذا الصك :

اشترى رومان بن [٢] باطرو زور ير حفيد السمّاد ، لنفسه ولزوجه دونه أوره بونه ، ومن مالها جميعاً ، على اعترافه ، من دونه دمِنقُه بن عبد الرحمن بن جابر (الخ) بحومة بال ذي قبش [٣] عمل طليطلة (الخ)

ويظهر أنه كان لليهود فى طليطلة شأن عظيم ، لأن الأسماء الاسرائيلية تدور كثيراً فى هذه الصكوك ، وفيها أسماء رجال لهم مقام اجتماعى نبيه ، مثل ماورد فى بعض الصكوك قوله :

« اشترى الوزير أبو هارون موسى بن الشحات الاسرائيلى أعزه الله من دونه غاليانه (الخ) .

وأما أهمية رجال الكنيسة فلا تخفى فى كل حرف من حروف هذه الكتابات ومنها يظهر أن أكثر الأملاك كانت لهم ، لأن أكثر البيع والشراء هو منهم وإليهم وإذا ورد ذكر أحدهم فبغاية التعظيم والاجلال ، مثل قوله فى كثير من الصكوك :

« اشترى المطران [٤] الأجل المقدّس الأفضل دمنُهُ مرتين لبّوس [٥] الذى

---

(١) فى الترجمة الاسبانيولية Sacristàn

(٢) فى الترجمة الاسبانيولية Romàn Huigo de Pedro El Cebrero, Nieto de Assamad ولا نعلم هل هذا الاسم مأخوذ من السماد أو هو محرف عن الصمد فانهم أحياناً يخطئون فيجعلون الصاد سينا كما مر بقولهم حومة « السوميل » وحقها أن تكون بالصاد « الصوميل » ، والصميل اسم عربى شهير هذا مع كون السين والصاد تقوم احداهما مقام الاخرى فى الفاظ كثيرة

(٣) فى الترجمة الاسبانيولية Valdecubas

(٤) فى الاسبانيولى Arzobispo

(٥) Martin Lopéz

لكرسى قاعدة طليطلة و برماط أشبانية الخ » (١)

ولم تكن أسماء رجال الكنيسة كلها لاتينية بل من القسيسين من كانت أسماؤهم عربية فنى بعض الصكوك :

« اشترى القس دون لب بن تمام بن محيط الذى من أئمة كنيسة شنت زوال (٢) من دونة توطه بنت دون لب دقترال (٣) جميع الدويرة التى صارت لها بالعطية من الدياقن دون مقايال دالبه (٤) رحمه الله بحومة كنيسة شنت يناس (٥) وبداخل مدينة طليطلة الخ . وفى بعض الصكوك مذكور القس الدون عبد العزيز من أئمة كنيسة شنتة لوقاديه الخ »

ومن الصكوك التى تستجلب النظر ما يلى :

« اشترى دون دعنقة بشكوال ، تربية المطران الأجل ، القديس الأفضل ، الحسيب الأكمل ، دون ردريقه شمانس (٦) وصل الله بركته ومن مال المطران المذكور ، وله و يده فيه عارية الخ »

ومثله :

« اشترى القونوق دون جوان دى ستفيله (٧) ، أعزه الله ، لمولانا المطران القديس الأفضل ، البرماط الأعدل ، دون رودريقه شمانس ، أدام الله نصره ، ومن مال

---

(١) Primado de Espana وهو الاسقف الاعظم لأسبانية ومن هنا يعلم أن معاملات الاسقف الأعظم نفسه كانت بالعربية حتى بعد استرداد الاسبان لطليطلة بزمن طويل

(٢) San Zoel

(٣) Toda Hija De Don Lope De Cotarel

(٤) Mical De Alba

(٥) San Gines

(٦) Rodrigo Giménez

(٧) De Setfila

المطران ، و يده فيه عارية بقوله ، من دونة مريه بنت حسين بن قرون ، رحمه الله وأعزها ، جميع الملك المشهور لأبيها المذكور ، والحق لها بالارث عنه ، وهو بحايز قرى ششلة[1] مدينة طليطلة ، حرسها الله ، والمبيع الموصوف هو تحت كدية قرية المونسير[2] ، ويقسم التخم مع القريه المونسير المذكورة ، ومع قريه بيله انتقوه (إلى أن يقول) دخل فى هذا المبيع كل الذى صح وصار لوالد البايعة المذكورة بالعطية عن الامبراطور الشريف[3] مع ابنه السلطان المعظم دون شانجه ، رحمهما الله ، بالصك الكريم التى استظهرت البائعة المذكورة ودفعته للمبتاع المذكور اه .

ومثله :

« اشترى دون ربرت[4] الافرنجى ، الذى هو الآن من ربض الافرنج ، لنفسه ولزوجه دونه رواش[5] سوية بينهما ، من دونه ديمنقه ، ومن اختها دونه مرتينه ، بنتى دون غليلن ، جميع الدار التى لها بحومة حمام يعيش ، من حومة البير المر ، داخل مدينة طليطلة الخ

والشهود : بيطروه بن اشتافن الربالى . وديمنقه اندراش ، ودون رجلد الافرنجى ودون غليلم طبلد ، من ربض الافرنج ، و بيطرو تقولا البنا ، وكتب عن كل واحد منهم اسمه عنه بأمرهم وحضرتهم وفيليز بن يحى بن عبد الله

وهذا تأييد لكون الافرنج لم يزالوا بعد رجوع طليطلة إلى الأسبان كأنهم غرباء فيها . وفى صك من الصكوك يذكر مشتريين ثم يقول : بعد أن فسر عليهما

---

(١) Sisla

(٢) Almonasir

(٣) Emperador وهو الاذفونش السادس الذى تولى من سنة ١٠٧٢ إلى سنة ١١٠٩ ولقب نفسه بامبراطور اسبانية

(٤) فى الترجمة الاسبانيولية Roberto El Francés

(٥) فى الترجمة الاسبانيولية Raues

معانيه بلفظ أعجمى فهماه واعترفا بفهمه ، فى العشر الآخر من شهر أوغوشت سنة ست وخمسين ومائتين وألف للصفر .

ومما يستجلب النظر صك فيه :

« باع دون جوان رويس [١] بن دون رودريقُه رويس ، أخ الأسقوف [٢] المعظم دون غرسيه رويس ، الذى على سقافة كرسى كونكة ، أدام الله كرامته الخ

ومما يستجلب النظر صك فيه :

اشترى المطران الأجل دون رودريقُه شيانس بريماط أشبانية أطال الله مدة وأدام بقاءه ، من دون فرنندوه لبّوس بن دون لب فرنندس رحمه الله وأكرمه الخ .

ومثله :

« اشترى القَبلْتُهُ [٣] المكرم من شنانير [٤] القاعدة العظمى ، شنته مريه ، دركنا الله شفاعتها الخ

ومما يستجلب النظر هذا الصك :

« اشترى أبو حسن على البشيري المسلم وزوجه عائشة بنت الدودري من الغيران وفقهم الله ، على المناصفة بينهما ، من دونهأو رابونه ، تربيه القائد الأجل دون اشتابن الخ والتاريخ العشر الآخر من ينير سنة أربع وثمانين ومائتين وألف للصفر . ومن هذا التاريخ أيضاً يعلم أنه كان يوجد جماعة من المسلمين بطليطلة فى ذلك العصر

وهذا الصك :

« اشترى دون بيطرو رويس فارس ، من أتانس [٥] قائد الغرْديه [٦] ،

(١) فى الترجمة الاسبانيولية Guan Ruiz

(٢) فى الترجمة الاسبانيولية Obispo Deluenca وهى أى كونكة بلدة تقدم ذكرها فى هذا الكتاب كان فيها العرب وكانوا يقولون لها فونكة وأحياناً كونكة

(٣) فى الترجمة الاسبانيولية Cabildo وهو ذى رتبة فى الكنيسة

(٤) فى الترجمة الاسبانيولية Senares ومعناها السادات

(٥) فى الترجمة الاسبانيولية Atenas

(٦) فى الترجمة الاسبانيولية Guardia ومعناه الحرس

لمولانا الأليته [١] دون شانجه بن مولانا الأمير المعظم المرحوم فرتنده عفا الله عنه الخ

وكان النصارى والمسلمون يبيعون الأسرى بالوثائق ، كما يظهر لك من الصك الآتي : باع مرتين غرسيه دى أبْرَه [٢] ، من أبو عمر بن الشيخ أبو سليمان بن أبي عمر ابن محيش الاسرائيلي ، أسير واحد إسمه محمد بن ابراهيم القصلوني من غرناطة ، بيعاً تاماً ناجزاً ، بثمن مبلغه وعدده مائة وخمسة وأربعون مثقالا (إلى أن يقول) نقلا عن كتاب عجمي بشأن الأسير ، إن هـذا الأسير محمد أخرجه جوان ديمنقوس بالمناداة [٣] بقرطبة ، وتاريخه ألف وثلاثمائة وعشرة من تاريخ الصفر اهـ

وفى صك آخر :

باع غنصالُبه قاضي الحضرة أيده الله ، وقاضي بمدينة قرطبة ، وساكن بها ، من غنصالُبه بن الفونش بن الفونش بيطروس بن سربتوش أكرمه الله أسـير واحد ، على الأسمر البنّا بن سعيد مملوك كان لغنصالبه رودريقُه بمدينة قرطبة المذكورة بيعاً تاماً صحيحاً بثمن عدده أربعمائة مثقال كل مثقال خمسة عشر فرد من البيض الجارية ، الآن وهذا الأسير باعه البايع للمبتاع المذكور كما ذكر على يدى دلال الأسارى أبي عمر ابن اسرائيل الاسرائيلي الذى هو دلال الأسارى بطليطلة فى حادى وعشرين نونبر عام أربعة وعشرين وثلاثمائة وألف للصفر

---

(١) فى الترجمة الاسبانيولية Eleito ومعناه المختار أو المنتخب

(٢) Martin de Garcia de Abra

(٣) المناداة هى فى الاصطلاح ان ينادى الدلال على البضاعة المعروضة للبيع حتى يقبل السامعون للنداء على شرائها وقد كان استعمال هذه اللفظة لهذا المعنى فى بغداد وجاءت بهذا المقام فى المقامة المضيرية لبديع الزمان الهمذانى كما انها كانت مستعملة فى الأندلس وأخذها الاسبانيول فى جملة ما أخذوه من العربى الى لغتهم . واما الاسير المسلم محمد الذى بيع فى المناداة فى قرطبة فقد بيع فيها بعد استيلاء النصارى عليها

ومما يستوجب النظر الصك الآتى :

اشترت دونه مركاشه لابنها المدرّج[١] شانجه مرتينوس ، كاتب مولانا الملك المعظم، دون شانجه أطال الله بقاءهم ، وخلّد ملكهم ، بمال ابنها المذكور ، الذى صار له بالعطية من مولانا الملك المذكور الخ .

وفى صك آخر يقول :

كاتب مولانا الملك المعظم الأعلى دون شانجُه أطال الله بقاهم ، وخلّد ملكهم وأيدهم ونصرهم ، ومن ماله المختص به الذى صار له من مولانا الملك المذكور الخ .

وهذا الصك :

اشترى مرتين شانجس قبدلَه[٢] القاعدة شنته مريه لنفسه ولزوجه مانقه بنت مرتين غونس ، سوية بينهما ، من قاسم البنّا بن محمد مملوك مولانا الملك المعظم دون شانجه ، أطال الله بقاهم ، ومن زوجته فطومة الماشطة ، جميع الدار التى لهما بحومة بيرالمر الملاصقة بالفرن بها الخ .

وهذا الصك الذى فيه :

اشترى دون جوان بيطروس بن دون بيطروه يايان بن الوزير القاضى دون يليان أكرمه الله لنفسه ومن ماله ، من مريه بنت جوان النجار ، جميع الدار مع خمسة حوانت ، بحومة كنيسة شنت يوشت ، وقريب الكدية . بمدينة طليطلة حرسها الله ويلاصق ذلك كله من جوانبه وجهاته قاعة قرال ، هى لجماعة مسلمين طليطلة ، حيث تذبح الكباش ، ودار لجوان مرتين العدّار ، ودار لقنونقين شنته لوقادية لصق قصر مولانا الملك الخ ، والتاريخ سابع نونبر عام تسعة وعشرين وثلاثمائة وألف للصفر اه .

قلنا ثبت من هنا أنه كان فى ذلك التاريخ جماعة من المسلمين فى طليطلة وهذا

---

(١) لقب من القاب الكنيسة

(٢) قبدله بمعنى خادم الكنيسة والقاعدة العظمى هى الكنيسة الكاتدرائية Catédrale

بعد سقوط طليطلة فى أيدى الاسبان بمائتين وخمسين سنة . وكانوا إلى ذلك الوقت يمارسون شعائر دينهم و يذبحون الكباش فى عيد الاضحى

وهذا الصك :

قاطع القونتق الأجل دون غشطين ، الذى من قونوتقين القاعدة العظمى شنته مريه أم النور ، درّ كنا الله شفاعتها ، أسيرته ومملوكته المتنصرة سيسليه المسماة به بالمعمودية ، على حرية نفسها منه ، بأربعون مثقالا فونشياً صروفاً ، لتخدم سيسليه المذكورة بداخل مدينة طليطلة ، حرسها الله و باحوازها ، دون رقيب عليها ولاثقاف وتأخذ لنفسها جميع مايعود الله عليها من فايد وعايد ، قلّ به أم كثر ، وتؤدى له الفدية المذكورة ، كما يذكر بعد هذا ، فى كل شهر ، شهر بعد آخر ، إلى أن تتم الفدية المذكورة و إذ ذلك تكون سيسليه المذكورة حرة كسائر حرائر النصرانيات أهل ملتها ، وما ينقص لها من شهر تكمله فى شهر ثان وثالث ، و إن لم يتكمل لها فى الشهر الثالث ، كما ذكر ، حاشى مرض بيّن يمنعها عن الفدية ، أو هربت وخالطت قوم سوا ، أو وجدت فى سرقة أو خيانة ، فتخسر ما يكون منها مدفوعاً ، وتعود للأسر كما كانت الخ .

وتاريخ هذا الكتاب ديجمبر سنة تسع وسبعين ومائتين وألف اه ملخصاً

و يوجد صكوك أخرى فى موضوع شراء المسلمين لحريتهم [1] من ذلك مايلى :

قاطعت الابطيشة الجليلة دونة أورابونة التى على راهبات ديرشنت قلمنت

(١) هذه الطريقة يقال لها فى الاسلام المكاتبة وهى ان يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجمه عليه ويكتب عليه انه اذا ادى نجومه فى كل نجم كذا وكذا فهو حر واذا أدى جميع ما كاتبه عليه فقد عتق وولاؤه لمولاه الذى كاتبه وذلك ان مولاه سوغه كسبه الذى هو فى الاصل لمولاه فالسيد مكاتب بكسر التاء والعبد مكاتب بفتحها اذا عقد عليه ما فارقه عليه من أداء المال . سميت مكاتبة لما يكتب للعبد على السيد من العتق إذا أدى مافورق عليه ، ولما يكتب للسيد على العبد من النجوم التى يؤديها فى محلها وأن له تعجيزه اذا عجز عن اداء نجم يحل عليه .

والبريورة [١] به ، دونه لوقاديه ودونه امونيه ، دام عزهن ، لأسيريهن ومملوكيهن عزوز ، ويعرف برود ريقه بن معمّر العربى ، واحمد اللوقى ، على حريتهما منهن بخدمتهما جميع الغرس المعلوم للدير المذكور بحومة برالس ، فى حيّز قرية أوليش ، على أن يخدما الارض المذكورة مدة خمسة أعوام متوالية ، من تاريخ هذا الكتاب ، فى كل عام منها بالكشف والحفر والثنى والتثليث ، ويطبعا المواضع بقضبان الزرجون [٢] ، وعليها القيام بالزبار [٣] طول المدة . واذا قام القاطمين المذكورين بالخدمة والعمارة حسبما وصف يصيران أحرار كسائر أحرار المسلمين أهل ملّتهما ، فى مالهم وعليهم ، وإن تهربا أو أحدهما فى طى المدة المذكورة ، أو عجزا عن اكمال القطيع الموصوف يخسرا ما يتقدم لها ، ويردهما راهبات الدير للأسر كما كانا أولا . وتاريخ هذا الصك عشر نونمبر عام خمسة وثمانين ومائتين وألف للصفر اه .

ومثله صك آخر للابطيشة المذكورة بحق أسرى مسلمين هم : محمد المنارى ولد

---

(١) La Priora وهى وظيفة فى الدير

(٢) الزرجون جمع زرجونة وهو قضيب الكرم ويقال له الشكير وجاء فى المخصص لابن سيده عن ابن قتيبة ان الزرجون آت من الفارسية وانه فيها زركون بالكاف ومعناه الصفرة كلون الذهب وهذه اللفظة معروفة فى سورية ومنها جاءت الى الاندلس

(٣) هو تقليم الكرم وهى لفظة معروفة فى سورية بهذا المعنى يقال زبر فلان كرمه وقد وصلت الى الأندلس من أهل الشام والحال انه ليس فى كتب اللغة هذه اللفظة بهذا المعنى بل فى اللغة زبر البئر زبراً طواها بالحجارة وكذلك زبرت الكتاب قرأته وزبرته كتبته وقيل انه النقش فى الحجارة . والزبور الكتاب المزبور . والمزبر هو القلم . ثم ان الزبر يأتى بمعنى الزجر ولم نجد فى ما راجعناه من كتب اللغة فعل زبر بمعنى قطع وانما فسروا قوله تعالى (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا) بان الزبر هى القطع جمع زبرة وهى مثل قوله تعالى (آتونى زبر الحديد) اى قطع الحديد وفى بلادنا لبنان يقولون للمنجل زوبر وليست فى كتب اللغة بهذا المعنى وانما هى فى اللغة : الداهية فلعل هذا المعنى لهذه المادة دخل الى العربية الشامية من احدى اللغات السامية التى كانت فى الشام قبل الفتح

القنّان ، واحمد الذى كان لدون ميقائيل دى رنالش ، وعمر بزارة ، يعرف بابن احمد ابن جامع الصنهاجى ، وعلى الرمنقارة الغمارى على حرية أنفسهم ، وذلك بالخدمة مدة ثمانية أعوام متوالية فى جميع الكرم المعلوم بحومة قرية أوليش ، (إلى أن يقول) وان هربوا أجمع أو أحدهم ، أو خالطوا قوم سوا ، أو وجدوا فى سرقة ، يخسروا ما يكون لهم ويرجعون للأسر الخ ، وتاريخه ست وثمانون ومائتان وألف .

ومثل ذلك هذا الصك :

قاطعت الجليلة دونة قلنبة ابنة الوزير الأجل دون غطار فرنندس أدام الله عزتها مع يعيش الخياط بن احمد الغرناطى ، على حرية أسيرتها أم الهدى الجلياقية ، بمائتين مثقال فنشية وثمانية مثاقيل ونصف ، صرف خمسة عشر ديناراً كل مثقال ، ليبتنى يعيش المذكور بأم الهدى المذكورة ، ويتخذها زوجته ، ويخدمان بطليطلة فى الذى يليق بهما دون رقيب عليهما ولا ثقاف ، ويأخذان لأنفسهما فائدهما وعائدهما قل أم كثر ، ويؤديان الفدية المذكورة ، وذلك مثقالين اثنين كل شهر ، (إلى أن يقول) وإن لم يتكمل لها ذلك بتمام الشهر الثالث ، حاشا مرض بيّن يمنعهما عن الخدمة ، أو هربا جميعاً أو خالطا قوماً سوا ، أو باتا بخارج طليطلة بغير أمرها ، أو شرب يعيش المذكور خمراً [1] ، يخسران ما يتقدم لها مدفوعا ، وترجع أم الهدى للأسر كما كانت أولا ، ويؤدى يعيش الفدية على التنجيم ، وإن عجز عن التأدية فقد فُوّض للجليلة دونه قلنبة التقبض على جسمه ، ولا تسرحه إلا اذا أنصفها ، وعليه أن يهدى لها فى كل عيد من ثلاثة أعيادها هدية ، دون عذر ولا تأخير ، وأن يخيط لها [2] بدون أجرة لنفسها خاصة دون غيرها . وتاريخ هذا الصك ديجمبر عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف .

---

(١) من النكت اللذيذة ان هذه الدونة النصرانية تشترط على رقيقها يعيش المسلم ان لا يشرب خمرا وان شرب يرد الى الاسر

(٢) لأنه خياط كما تقدم

ثم ضمن يعيش المذكور على بن على الفبري بخمسة مثاقيل ، وابراهيم بن يحيي خمسة مثاقيل ، وزينب ابنة الحاج خمسة مثاقيل ، وقاسم بن احمد الحضرمى الاشبيلى خمسة مثاقيل ، ولب بن نصر القزاز خمسة مثاقيل ، وابنة سليمان التى كانت لابن يعيش خمسة مثاقيل ، وميمونة ابنة يحيي اللمطى خمسة مثاقيل ، وابنة عبد الحق الانصارى من مجريط[١] خمسة مثاقيل ، وفاطمة ابنة احمد الانصارى من وبذة[٢] خمسة مثاقيل وابن مفرّج من مرشانة[٣] مقاطع[٤] ابى يوسف يعقوب البرجلونى اربعة مثاقيل ومحمد ابن احمد بن غرغل الخيّاط مقاطع اسحق الشنتريني خمسة مثاقيل ومحمد عبد الرحمن الصفار مقاطع ربى بن قفاجة ثلاثة مثاقيل ، ويوسف ابن حسن الغمارى القزاز مقاطع روبس بن دون روى ثلاثة مثاقيل ، وعلى بن يوسف البهلى ثلاثة مثاقيل ، وفاطمة ابنة محمد مقاطعة امثليجة الحكيم أربعة مثاقيل ، وابراهيم ابن مالك الفران مقاطع ربى قسيم السوفر خمسة مثاقيل ، وابراهيم بن عمر الاشبيلى مقاطع ابى اسحق بن الصباغ مثقالين ، وحسين الصباغ بن على الاشبيلى مقاطع ابى الربيع بن صدوق مثقالين . فضمن المذكورون ماذكر عنهم فى يعيش المذكور لسيدته المذكورة ، وذلك على شرط انه إن يهرب يعيش فى طى القطيع فوقه[٥] ولم يحضروه لها فعليهم غرم ما ضمنوه فيه لها .

وهناك صك مقاطعة لراهبة بدير شنت قلمنت لمملوكتها فطيمة بنت عمر على النحو المتقدم .

ومما يستجلب النظر ، ويطلع به القارىء على اصطلاحات النصارى فى مايكتبونه بالعربية فى ذلك الوقت هذا الصك :

كتاب معاوضة صحيحة تكيّفت باسم الله تعالى وحسن عونه بين الكمندتور[٦]

(١) Madrid (٢) Ubda ويقال لها ابذة أيضاً

(٣) Marcina (٤) مقاطع اى مكاتب بالفتح

(٥) اى اعلاه (٦) Comanador

دون جيل الذي هو الآن كمندتور دار شنت ياقب[١] للاصبيطال[٢]، وعلى حبوسات الرتبة الافرايرية[٣] بها و بين الابطيشة الجليلة دون سيسيلية التي على دير شنت قلمنت أنعام الله الخ .

ولما كان اليهود فى كل مكان وكل زمان يتعاملون بالدَّين ، ففى هذه المجموعة صور مئات من السندات المالية أكثرها لهم نذكر منها بعض أمثلة : للأمين أبي الحسن زيزه بن ربى بن أبي يوسف أعزه الله ، قِبَل دون بطرو البرقنطى ، وقِبَل زوجه لَّبه وفى مالها وذمتهما ، وعلى جميع أملاكهما وأحوالها كلها حيث كانت وعلمت لهما دَيْنا لازما وحقا واجباً ، سبعة مثاقيل ونصف ذهباً فنشياً الخ

ومثال آخر : لأبى سرور فرج بن أبي عمران مرال الاسرائيلى ، قِبَل دون غرسيه غليالم شبر ين القُننق[٤] دون غرسيه الذى كان من قاعدة شنته مريه وهو بعل مريه لنبرت[٥] من ربض الافرنج دينا لازما اثنى عشر مثقالا وثمان فونشية لانصافه من ذلك شهرين اثنين تاريخ هذا الكتاب ، وداخل ضامن غارم عنه فى ذلك الدون دعنقُه انطلين البلطير بن دون انطلين ، من ربض الأفرنج ، و إن كانت قلمية فى ذلك فيكون عليهما على مالها ، فى تاسع يوم من شهر مارس سنة تسع وخمسين ومائتين للصفر اه . وتحته الشهود

ومثال آخر : لأبى عمر بن الشيخ أبي سليمان بن أبي عمر بن نحميش الاسرائيلى قِبَل الوزير دون بيطروه يوانش ، وقبل زوجه الجليلة دونه طريشة[٦] بنت الوزير القاضى دون جوان بونش أعزهما الله ، واجب خمسون مثقالا فونشياً لينصفاه دَينه

---

(١) Santiago (٢) Hospital

(٣) الرهبان وفى المغرب يقولون لهم افرايريلية وهى محرفة عن افرايرية واصل معناها الاخوان

(٤) Canonigos فى الترجمة الاسبانولية

(٥) Lonbert (٦) Théresa

يوم فصح شنت ميقائيل الآتى لتاريخه ، و إن عجزوا عن انصافه إذ ذلك يغرّما له قوط رباعى كل يوم يجوز بعد الأمد المذكور ، و إن طلبا منه يميّز يغرّما له قوط خمسة مثاقيل ، و بظهور هذا الكتاب و بعد فسره عليهما فى رابع وعشرين ابريل عام ستة وثمانين ومائتين وألف للصفر اه . ثم الشهود

وفى هذه المجموعة صكوك من أنواع متعددة ، منها وصايا ، ومنها رهون ومنها مصالحات ، ومنها صكوك شركات ، ومنها مزارعات ، وما أشبه ذلك . لنذكر منها صك مزارعة على سبيل المثال ، وهو هذا :

أنزل القس ماير ديعنقُه المستعربى من كنيسة شنت مارتين ليوان فرنندس فى الأرض المعلومة له بحومة جبل حمارة ، عمل طليطلة حرسها الله ، حدها فى الشرق غرس بيطرو مرتينس ، وفى الغرب أرض بيضا ، وفى القبلة رأس جبل حمارة المذكور ، وفى الجوف غرس غنصالُبه الجزّار ، فى أرض القس المذكور بالمناصفة ، وذلك بشرط يأتي ذكره بعد هذا ، ليغترسها يوان المذكور بقضيب الزرجون ، و يعتمر بالزبر والحفر والثنا فى كل عام ، مدة خمسة أعوام ، أولها تاريخ هذا الكتاب . . . . . الأعوام المذكور ينقسم الغرس على ثلاثة أثلاث ، يأخذ صاحب الأرض الثلث الواحد يأخذه الخيار فى أحد الجانبين ، والمغترس الثلثين متصلين عن اغتراسه واعماره . فى أول شهر مارس من سبعة وتسعين ومائة وألف من تاريخ الصفر اه .

وهذا الاصطلاح بقولهم « انزل » فلان لفلان فى الأرض الفلانية على شرط كذا وكذا مستفيض فى هذه الصكوك

ومن غريب هذه الصكوك صك ما يتضمن استرهان الأسارى والتعامل بهم كأنهم من جملة الأموال : أشهد دون مرتين فرنندس القرمادي بن دون فرنندو القرمادى وفقهما الله على نفسه شاهداً آخر هذا الكتاب أنه قبض الآن من أبى الحسن بن يامن بن أبى اسحاق البرجلونى الاسرائيلى أعزه الله الثلاثة اسارى الذين استرهنهم لدونه أورابونه زوج فيدلقُه عن دَينه المترتب له قِبَلها ، وهم الأسارى

سليمان الذى كان لدون ميقاييل خريبش ، وعبد الله اللوشى الكوسبج [1] ، ويوسف الغازى الصغير ، الذين قيمتهم خمسون مثقالا فونشياً ، صرفاً طيباً ، وصارت عنده الأسارى المذكورين . وفى ملكه ، وعلى شرط وربط أن يصرفهم لأبى الحسن بن يامن المذكور ، متى ما يطالبه بهم . ويدوم أخذهم منه على كل حال من الأحوال ، وإن عجز عن احضارهم له عندما يطالبه بهم فليغرّم له قيمتهم الخمسين مثقالا . سادس عشر أوكطوبر عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف للصفر . ثم الشهود اه .

ومن الصكوك المتعلقة بأسارى المسلمين ما يأتى :

ضمن للأبداشة [2] الجليلة دونه لوقاديه فرنندس التى على راهبات دير شنت قلمنت ، ادام الله كرامتها وجه أسيرها احمد بن يوسف الرحوى الأسمر من يوسف والد المضمون أحمد المذكور ومريم ابنة محمد زوجة يوسف والدة أحمد المضمون ويوسف بن محمد المعروف الشقيق ، ضمان وجه واحضار ، على شرط أن يمشى أحمد المضمون المذكور مسرّحاً من الثقاف من الآن لتمام أربعة أعوام . فان هرب في طىّ الأعوام المذكورة ولم يحضروه لسيدته المذكورة على الحلول من هروبه ، فعلى الضُمّان المذكورين غرم مئة مثقال فنشية ، صرف كل مثقال منها خمسة عشر ديناراً ، وعلى المضمون المذكور أن يعطى لسيدته الابطيشة المذكورة فى كل شهر طول

---

[1] الكوسج بفتح السين الذى لحيته على ذقنه لا على عارضيه وهى لفظة فارسية وهو فى العربى الأثط ولقد كتبوها هنا بياء وهو خطأ ولكن الأندلسيين كانوا يتكلمون بالامالة ويقولون للحكم مثلا « الحكم » بالكسر وللامام الأوزاعى الامام « الأوزيعى » ويقولون « سنه » بكسر السين والنون بدلا من « سنة » بفتحهما ولفظهم هذا أشبه بلفظنا نحن فى بر الشام ويقولون « زمان » بكسر أوله ويقولون « فرقد » بكسر القاف ويقولون « كتيب » أى « كتاب » ويقولون « برى » بكسر الباء بدلا من « برّى » بالفتح ويقولون « خمسمية » كما نقول نحن فى سورية لا خمسماية وهلم جرا

[2] بالترجمة الاسبانيوليه Abadasa ولعلها الابطيشة التى مر ذكرها أو تقرب منها ومعناها ظاهر وهو الراهبة الكبرى

الأربعة الأعوام المذكورة مثقالا واحداً ، شهراً بعد آخر إلى تمام الأربعة أعوام ، دون مطل ولا تسويف بوجه ، وفى الشهر الذى يعجز المضمون المذكور عن آداء المشاهرة المذكورة فعلى الضُمّان المذكورين إحضاره لسيدته المذكورة أو يغرّموا لها المشاهرة المذكورة ، وإن عجزوا عن غرم المائة مثقال المذكورة أو عن المشاهرة المذكورة ، فقد فوضوا له وللمستظهر بهذا الرسم التقبض عليهم وتثقفهم فى ثقافها ، ولا تسرحهم منه إلا إذا أنصفوها من الضمّان المذكورين من الجائز عليهم من المشاهرة المذكورة ، دون أمر حاكم بوجه من الوجوه . فى العشر الاوسط من شهر ديجمبر سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف للصفر . والشهود : محمد بن عبد الرحمن ابن محمد ، وعلى بن يحيى بن محمد الانصارى

ومثله صك تضمن به عائشة ابنة احمد السكونى ، زوج داود الأسمر بن سليمان ، أسير دون غنصالبُه الفونش بن دون الفونش بيطروس سر باتش [(١)] وذلك زوجها المذكور داود ، ضمان وجه واحضار ، على شرط أن يمشى الاسير داود و يتصرف فى أشغال سيده ، حينما يأمره بالحاضرة والبادية ، فان هرب ولم تحضره زوجته فقد فوضت له التقبض عليها ، وتثقيفها فى ثقافه بدون أمر حاكم . وتاريخ هذا الصك الخامس والعشرون من شهر يونيو من عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف للصفر ، وشهوده احمد بن محمد بن احمد الأنصارى ومحمد بن عبدالرحمن بن محمد

ومثله ضمان نزهة بنت سعيد الاوريولى [(٢)] ، ووالدتها عايشة بنت سعيد الحداد من لورقة [(٣)] . وجه زوجها احمد الحداد بن على ، نحو سيده دون غنصالبُه الذى مر ذكره ، ضمان وجه و إحضار . و إن هرب المضمون فتغرّم نزهة وعايشة خمسمائة مثقال من البيض . وتاريخ هذا الصك حادى عشر يونيو عام خمسة وثلاثين وثلاثمائة

---

(١) Servatus

(٢) نسبة الى اوريولة Orihoala

(٣) Lorca

وألف ، وشهوده : على بن أحمد بن حسن بن عبد الله الأنصارى وعلى بن قاسم بن على بن الصيقل الانصارى [١]

ومثله :

اعترفت شمسى [٢] بنت لب الفخار المعروف الغزيل [٣] و بنت عائشة المعروفة الرو بية اعترافا صادقا أنها تضمنت وجه زوجها شعيب الرحوى بن محمد المعروف بالمطيرش وحفيد غالب السمار نحو المطران الأعز الأكرم دون غتار غومس [٤] ضمان وجه واحضار على النمط الذى تقدم ، وتاريخ هذا الصك الخامس والعشرون من شهر ابريل عام ثلاثة وخمسين وثلاثمائة وألف ، وشهوده : أحمد بن على بن محمد ، ويوسف ابن قاسم بن يوسف الانصارى وابراهيم بن أحمد بن ابراهيم .

وهنا صك وقف يجدر بالنظر :

وقف الدياقن مرتين من كنيسة شنت مرية أم النور بطليطلة حرسها الله ، فى مجلس القضاء أنماه الله بالدوام ، بين يدى الوزير القائد عمران ، وفقه الله ، عن تقدم الوزير الجليل القاضى الأعلى ، أبى الحسن حاتم ابن حاتم ، أدام الله توفيقه وتسديده وذكر ان الشنيور يوان رودميروس فى أيام حكمه الحضرة المذكورة ، أمر لشانجة قرلون بدار بحومة القاعدة المذكورة ، وحازها وسكن فيها ، إلى مدة وفاته ، فى خدمة السلطان واستظهر بعقد بذلك ، فأعذر إلى الدياقن المذكور ليستظهر بكتاب من

(١) يكثر ذكر « الأنصارى » فى عرب طايطلة وهو يؤيد ما روى من كون اكثر قبائل الاوس والخزرج لأول فتح الأندلس نزلت فى طليطلة ونواحيها

(٢) يلزم أن تكون «شمسه» ولكن الأندلسيين يتكلمون بالامالة كما قلنا فالكاتب كتب الاسم بحسب ماكان يلفظ عندهم وقال « شمسى » والآن فى سورية يلفظون « شمسه » كانها « شمسى » الا فى أماكن معلومة لا يتكلم أهلها بالامالة

(٣) حقها ان تكون « الغزال » ولكن الامالة الأندلسية جعلتها « الغزيل » وفى الترجمة الأسبانية Algazil

(٤) Gitierre Gomez

الشنيور المذكور ، إذ لا مقنع فى العقد ، فرغب الى الوزيرين الجليلين القاضى الأعلى أبى الحسن حاتم ، وصاحب المدينة زيد بن حارث (١) . أعزهما الله ، ليتفضلا عليه بخطاب منهما ومن القونشلى (٢) أبقاهم الله ، إلى الشنيور المذكور . فأدنى له بذلك ، ثم بعد ذلك أحضر الدياقن عند من وفقه الله مرتين (٣) الناظر ، و بيطره ناغروه (٤) و برمندة بلاييس و بيطره بلاييس (٥) ، وخلف بن رزق ، وعبد الله بن ماضى وشهدوا عنده فى مجلس نظره ، و بمحضر من الحاكم مرتين غرسيس ، انهم أشهدهم الشنيور يوان رودميروس و بأيديهم خطاب لطينى (٦) الى الوزير الجليل القاضى الأعلى أبى الحسن حاتم ، والوزير الجليل صاحب المدينة أبى زيد بن حارث ، أعزهما الله فى الدارين ، اللتين قلت لى أنا أعطيت الواحدة لشانجة ، والأخرى لميقاييل ، فثبت عندهما ، وفقهما الله ، ذلك وأمضياه ، وأنزلا الدياقن المذكور في الدار . وتاريخ هذا الصك شهر مايو سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف لتاريخ الصفر . ومنه يعلم أنه فى ذلك التاريخ أى بعد أخذ الاسبانيول لطيطلة بنحو من مائة وسبعين سنة كان يوجد فيها قضاة من العرب أو المستعربين ، وكان صاحب المدينة أيضاً منهم .

ومن الصكوك التى استرعت نظرنا حكم يتعلق بصدقات الامبراطور الاذفونش السادس جاء فيه :

فلما وقف الوزير القاضى المذكور مع من ينزل اسمه أسفل هذا ، من أهل الشورى مع اسمه أدام الله عز جميعهم ، على جميع ما تقدم ذكرهم ، من احتجاجها ، وعلم ما استظهر به كل واحد منهما ، من فوائد وأصول ما بيده ظهر لهم دام عزهم أن الامبراطور قدس الله روحه تصدق بما كان له فى القرية المذكورة على الدير المذكور

---

(١) كان العرب يسمون والى البلدة من قبل السلطان بصاحب المدينة

(٢) فى النص الاسبانى Concilio

(٣) Martin (٤) Negro (٥) Pelayz

(٦) أى لاتينى العبارة

(إلى أن يقول) ولما يعلم علماً صحيحاً ان أغلب قرى مدينة طليطلة حرسها الله لم تصر لأربابها المالكين الآن لها إلا بعطية . . . أو بعطية من تقدّمه من سلفه الشريف الكريم رضى الله عنهم جميعهم دام عزهم ، أن يحملوا القرية المذكورة محمل غيرها من القرى المعطاة من عندهم ، رضى الله عنهم فأوجبوا حكما منهم من السنّة للدير المذكور لتكون له مالا وملكا على مقتضى السك العزيز المؤرخ المذكور ، وكل استدعاء استظهر به المتكلم عن ورثة عبد الملك بن هارون رحمه الله وأكرمهم اسقطوها لوجوه كثيرة اه . وفى الآخر يقول : وفى الأصل الذي انتسخت هذه النسخة منه أسماء الحكام أهل الشورى الذين حضروا الحكم المذكور وأمضوه أعز الله جميعهم . بخط عجمى: اغوغنصالبة[1] أرسبيسبو طولاطانة برماط اسبانية[2] و بخط عجمى: اغوديمنقش ارجيديا قُنش مجريط . و بخط عجمى : اغوجرنانش برشبتر طولطانش كونفورم[3] . و بخط أعجمى : اغو بطروش ديس القائد كونفورم . و بخط عربى : سلمون بن على ابن وعيد . وخير بن شلمون بن على بن وعيد . وخالد بن سليمان بن غض بن شربند و بخط عربى : انا فلحتش الأسقف لكورة لبلة[4] خيرها الله ، و يوشاب الارجقش ابن منصور حضر ذلك . و يوشتبش القس بن عبد الملك . وباطره بن عمر بن غالب ابن القلاس . اشتابن بن بليانس .

انتهت النسخة وذلك فى شهر ابريل عام اربعة وعشرين ومائتين وألف للصفر.

عمر بن عبد الرحمن ، ويوسف بن عبد العزيز ، ومرتين بن حسن ابن عبد العزيز الخ .

و يوجد جم من الاحكام على هذا النسق و يظهر ان ملكتهم فى العربية

---

(١) Ego أى أنا

(٢) اسقف اسبانية الأعظم

(٣) Conforme أى مطابق

(٤) Niebla

أخذت تضعف بمرور الأيام فتجد صكوكا وأحكاماً كثيرة ملأى من الخطأ واللحن مثلا :

كانت قرية دار الخازن من قرى الحاضرة طليطلة حرسها الله من إمام المسلمين معطلة الناعورة ومشرعها واقفة ، فوقع اتفاق أهل القرية المذكورة من المدرّجين[(١)] ليعمروها ، و إقامة ما وهى منها ، وتجديد ما عهد لها ، وكان بها حبسان أرض بيضا للكنيسى شنت لو قادية الخارجة عن الحاضرة المذكورة ، وشنت مرتين بها عرض المدرّجون واللايقون على الخدام بالكنيستين المذكورتين ،عرضهم فى إقامة الناعورة وتجديد ما وهى منها ، فادعوا عندهم بقلة ذات اليد من أنفسهم ، ومن رسوم الكنيستين ، فرأى المتقدمون بالذكر اعراض ذلك ثانية على المطران الفاضل دِمنه برتندُه ، كفيل البيعة المقدسة أدام الله توفيقه وتسديده لما إليه تفويض الحبسان ، والنظر من الديارات ، وانه رأس الامامة بالقاعدة شنت مرية ، أم النور بالحاضرة طليطلة أدام الله حماتها فظهر إليه ومن حضر قعدودته[(٢)] من أئمة النظر فى ذلك ، وأمر السالى أمره أن يعطى هذين الحبسين لمن يعتمرهما باسم المساقاة إلى مدة الخ

وهذا كتاب صلح :

هـذا كتاب وقع الاصطلاح عليه ، وجرى الاقتصار اليه ، مابين هند بنت جبران و بنى أخيها الوزير ماير تمام رحمه الله غرسية وأولياليه ومريه ، على ما يأتى ذكره بعد هذا ، وذلك أن يعطي غرسيه لهند عمته المذكورة جميع حصته فى جنان أبيه المخلّف له ولأخته المذكورين المعروف بعهد المسلمين بجنة الحنشى ، بربض طليطلة و بحومة مرج القاضى الخ .

---

(١) تتكرر كثيراً فى هذه الصكوك لفظة « المدرج » و « المدرجين » وفى الترجمة الأسبانية التى بازاء الأصل العربى تفسر بلفظة Racionero

(٢) هكذا وجدنا هذه اللفظة والاشبه أن تكون محرفة وأن تكون « قعودته » فالقعودة هى المجلس وأما القعدودة فلم نجدها

ومن الوثائق التى اطلعنا عليها عقود أنـكحة كالذى يلى :

كتاب إيجاب واختطاب ، وعقد نـكاح وارتباط ، أمر بعقده والاشهاد على نفسه بجميع مافيه دون ديعنقه بيطريس حين مراهقة[1] الخاتمين ، و بدل العربانين[2] بعد تقديسهما بينه و بين دونه لوقادية التى كانت زوجاً لدون رودريقهُ دِ مرسيه عن بنتهما دونه يوشته البكر التى فى حجرها ، وتحت ولاية نطقها ، لتكون دونه يوشته المذكورة لهذا دون ديعنقه بطريس المذكور زوجاً سنيّة ، وصاحبة مرضية ، كالذى توجبه الشريعة المتوليقية ، وتحط عليه الديانة الحوارية ، وعلى أن هذا دون ديعنه بيطرس المذكور أوجب لخطيبته المذكور عن الأزدواج بها بيمن الله مهراً لها عشر جميع ماله أثاثاً وعقاراً ، حيث كان ، واين علم ، وعلى أن ينقدها أيضاً عند الابتناء بها هدية موهو به لها . وذلك خلدى[3] ، وفنك[4] ، ورداء ، وقناع ، وخف ، وجورب ، تفعل فى جميعه بحول الله عند ذلك ما وافقها كفعل ذى المـال فى ماله ، وجميع ما يـكتسباه الخطيبان المذكوران من وقت ازدواجهما فانه يكون بينهما سوية بالمناصفة والاعتدال إن شاء الله ، والتزم الخطيب المذكور احضار الهدية المتقدمة الذكر ، والانفاذ بها لخطيبته المذكورة ، عند الابتناء بها بيمن الله وتوفيقه . والتزم المتاهران المذكوران أيضاً إكمال ذلك كله بحول الله بعد أن قبض كل واحد من

---

(١) المراهقة المقاربة

(٢) العربان والعربون بضم أولها والعربون بفتح الأول والثانى هو ما عقد به المبايعة من الثمن أو هو ان يعطى المشترى شيئاً من الثمن أو المستأجر شيئاً من الايجار ثم يقول ان تم العقد احتسبنا وان لم يتم فما أخذته هو لك . ونحن فى الشام نقول العربون والعامة تقلبه فتقول الرعبون . ويظهر ان الأندلسيين استعملوا العربان وهو صحيح فصيح ومن العادة فى الزواج عند النصارى ان يتعاطى العروسان الخواتم والعربون أو العربان وهذا قبل البناء

(٣) فى النص الاسبانيولى Unos Pendiantes

(٤) فى النص الاسبانيولى Una Alfanega colcha

الخطيبين خاتم ثابتة عرباناً لما وقع الاتفاق عليه ، والارتباط إليه ، بتأييد الله ، مما ذكر فوق هذا ، بعد المعرفة منهما بقدر ما ارتبط اليه المتماهرين المذكورين ، على سنة النصارى فى ازدواجهم الجيّاز عندهم ، بعد أن أعلمت الدونه يوشتة المذكورة بذلك كله ، ورضيت به ، وأشهدته أيضاً به على نفسها ، وذلك فى اليوم الرابع والعشرين من شهر مارس بسنة ثلاثة وعشرين ومائتين وألف للصفر ، ووقع الاشهاد اليوم الخامس والعشرين من الشهر المذكور .

ومن الوثائق التى يستدل منها على رسوخ الثقافة العربية فى طليطلة صك وصية للقس ماير[1] عبد العزيز بن سهيل يقول فيه :

لما مرض القس ماير عبد العزيز بن سهيل رحمه الله المرض الذى توفى منه أمر بكتب وصيته و إنفاذ متضمنها على أيدى النايه[2] القس وماير قرشتبول من شنت مرتين ، ويحيى بن عبد الكريم ونسخة الوصية كذا :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أوصى به القس ماير عبد العزيز بن سهيل ، وهو بحال الصحة والجواز والطواعية ، مؤمن بالأب والابن والروح القدس إله واحد ، وبالشنبلة[3] الذى هو وثيقة الايمان وبالأناجيل الأربعة ، وبما أمر به الحواريون ، والآباء المقدسون ، فأوصى إن حدث به حدث الموت أن يعطى للوقادية الساكنة معه ، والخادمة له ، جبل الغرس الذى عند الطريق ، بدار الخازن ، وثلث الزرع ، وسبعة مثاقيل مرابطية عن دويرة كذا (إلى أن يقول) : وما يبقى يعطى عن روحه لقسيسين أو ثلاثة من أصحابه عن أربعين مسّة ، وما بقى يعطي للمساكين ، وعن لبان للكنائس ، وكرم الفندرى يكون باقياً فى أيدى الأوصياء وما قام فيه يخرج منه بما يُخدم . وما فاض يكون منه خمسين ربعاً والغير يكون منه الثلث فى زيت ولبان وحطب ، والثلث

El-Simbolo (٣) Annaye (٢) Mair (١)

الثانى للأسرى ، والثالث للمساكين . وجعل هذه الوصية والعمل بها إلى يحيى قرمانُه ، والقس دون قرشتوبل ، والقس النايه . ليكملوا ذلك حسب ماوصفه . ومن مات منهم يترك من يقوم مقامه عن خدمة الكرم . وكتب فى يوم الثلاثة الثامن من شهر ديجمبر من عام ثلاثة وستين ومئة وألف . فأنفذ الأوصياء جميع ما أمر به فى هذه الوصية ، وما أمر به فى الكرم المعلوم له بدار الخازن . وقد يفسر فيها . فلما بقى الكرم بأيدى الأوصياء مدة ثلاثة أعوام ، واعتمروه عمارة جيدة ، لم يكن فيه فائد للشرائع والأسرى والمساكين ، حسب ما كان ظنه الموصى رحمه الله واعتقده فيه ، فلما صح عند الوزير القاضى أبى الاصبغ بن لنبطار[1] وفقه الله ، قلة فائدته ، وأنه على غير ماظنه الموصى فاعتقده فيه ، أخذ فى ذلك مع من وجب الأخذ معه فيه ، من كبار مدينة طليطلة من المدرّجين والمستعربين والقشتيليين ، فرأى الوزير القاضى المذكور معهم أحباس الكرم المذكور على قاعدة شنته مرية ، بحضرة طليطلة ، أدخلنا الله فى شفاعتها ، لما ظهر إليهم من قلة الفائد العائد إليها ، وكثرة مؤنها بعد رغبة جميعهم إلى الأوصياء ، والتحامل عليهم فى ذلك ، فاسعفوا الرغبة ، وصح احباس الكرم المذكور ، على القاعدة المذكورة عن شرط على أهل القاعدة ، أن يكون اسم القس ماير عبد العزيز بن منصور رحمه الله فى جملة أسماء القونقين المتوفين بالقاعدة المذكورة حسب رتبهم وسيرهم الخ ، وتاريخ هذه الوصية مع حكم القاضى شهر يوليوه من سنة سبع وستين ومئة وألف . وبعد ذلك الشهود منهم من هو وضع شهادته بالعربى ومنهم من هو واضع شهادته بالأسبانى

وهذه وصية ثانية :

هذا ما أوصى به وعهد بتنفيذه ، حسب ما يأتى الذكر فيه الوزير القاضى دومنقهُ انطولين ، أعزه الله وهو عليل فى جسمه وثابت فى عقله وذهنه مؤمن بالأب

---

(١) L' Elgiacil Y Alcald Abulasbag Ben Almpader

والابن والروح القدس الله واحد ، ومعتقد بما بشر به الحواريون ، ووصفه الأنبياء المختارون ، خشية الموت، وحلول الفوت ، الذى لابد منه ، ولا محيص لأحد خلق الله عنه ، فأول ما أمر به شفاه الله أن يمتثل بعد عينه إن توفاه الله تعالى ، أن يزين على أقباره حين دفنه ، ومدة الثلاثة أيام بجميع أئمة البلد من أهل الكنائس بعد اندابهم بمن حف بهم من أساقفة ومدرجين ، على حسب رتبهم ، و إن كان المطران حاضراً فيندب ، وله الأجر والثواب إن يحضر و يزين مع من حضر مدة الثلاثة أيام المذكورة ، و بعد الثلاثة أيام فليستمر مدرجين كنيسة شنته لوقاضية ، التى داخل المدينة بالتزيين إلى تمام تسعة أيام . وأمر أن يعطى للمطران الأجل أكرمه الله خمسة مثاقيل ، وللأسقف دومنه يوانس المرشانى مثقال وللاسقف دومنه فلقيس مثقال فينا الخ ، و بعد أن عدد جميع ما أراد الايصاء به بالتدقيق من عقار ولباس وطعام ومال صامت وناطق ، ذكر بأن يخرج جميع ما ذكر من ثمن غنمه و بقره ودوابه ، ورماكه وخنازيره ، ومن مانتاتى ومن الكاس الصغير الفضة ، وأمر أن يعطى ليوان مستعرب الكاب ، وما يبقى بعد هذا كله يكون لأخته دونه مريه و بنتيها

وفى وصية أخرى للمسماة دونه لوقادية بنت يوانش ، بعد ذكر الديباجة المصطلح عليها فى أول الوصايا ، وذكر جميع ما أرادت توزيعه على الكنائس والقسوس والصواحبات تقول : وأمرت أن تكون الأسيرة عائشة التى لها فيه النصف تُرَد نصرانية إن هى شاءت وتنصف دون غرشيه عن نصفيته من ثمنها بما اشتريت ، والنصفية خمسة مثاقيل من مالها ، وتكون حرّة من أحرار النصارى فيما لهم وعليهم ، تصير حيث تشاء وتهوى ، بعد أن تخدم لدون غرسية عام واحد لاغير .

وقرأت فى وصية أخرى من دونه قرشتينة بنت اندراش بعد الايصاء للكنائس وللقسيسين وللأصحاب ولذوى القرابة مايلى :

وعهدت الموصية المذكورة فى أسيرتها مريم زوج عبد الله القزّاز ، أن تكون حرة من أحرار المسلمين فى مالهم وعليهم ، عن عشرة مثاقيل ذهباً قنشياً ، كانت

الموصية المذكورة قد قبضتها باعترافها من عبد الله القزاز زوجها المذكور . ولذلك انقطع عن مريم المذكورة حبل الرق ، فتملك مريم المذكورة نفسها ، تنهض حيث تشاء الخ .

وفى أكثر هذه الوصايا يذكر شيء من المال لفكاك أسرى النصارى ، فقد كانت الحالة عندهم كما عند المسلمين ، فأصحاب الخير والاحسان ، ولا سيما النساء من المسلمين ، كانوا يوصون بجانب من أموالهم لفكاك أسرى المسلمين فى بلاد النصارى وكذلك أهل الخير من النصارى ، ولا سيما النساء ، كانوا يوصون بشطر من أموالهم لفكاك أسرى النصارى فى بلاد المسلمين . قرأت فى وصية المسمى دون رودريقة شابطورس بن دون شلبطور بن الوزير دون يوان ميقاليس مايلى :

أمر أن يزين عليه فى كفنه ، وأيام زيارة قبره ، ودفنه ، فى جميع ما احتاج إليه بما يقوم فى ذلك ويليق بمثله ، ويكون دفنه فى قبر والده دون شلبطور المذكور ، بالقاعدة شنته مريه ، وأمر للقانونقين بها عن دفنه بها ، وعن أن يذكروه فى صلواتهم ، عشرين مثقالا ، وأمر عن ميشات [1] عن روحه مفرقة على أئمة كنانيس الحضرة مئة مثقال ، وأمر عن فك أسارى النصارى العمال فى أسر المسلمين خمسمائة مثقال ، وأمر عن قبلانية [2] بالقاعدة شنته مرية ثلاثمائة مثقال ، على شرط أن يقدس ميشة كل يوم عن روحه ، لمدى الدهر ، فى هيكل من هياكل القاعدة المذكورة ، ويضع انفشاريوه [3] كل عام عن روحه قانونقين القاعدة المذكورة ، كما العوائد وبذلك يصح لهم القبلانية ، يعنى الثلاثمائة مثقال المذكورة ، وأمر لمعلمه ومعرّفه القس دون شانجه ، من كنيسة شنت يوانس ، عشرة مثقالات ، على أن يقدس

(١) جمع ميشة وهى ما يقول له نصارى الشرق القدّاس

(٢) خدمة كنسية

(٣) هو ما نسميه بالحول وبالافرنسية Anniversaire

مدى عام ميشات عن روحه . وفى آخر الوصية بعد ذكر الخيرات كلها يقول :

وقيد فيه عن أمره على يدى والدته ، دونه ستى المذكورة ، ثقة منه بديانتها وحسن أمانتها ، أنها تفعل فى ذلك كله فعل من يعلم أن الله لايخفى عليه خافية فى سماواته وأرضه ، والتاريخ شهر يونوه سنة تسع وأربعين ومائتين للصفر

وفى وصية للدون ملندُه فرنندس ابن الوزير القاضى يقول : فأول ما أمر به أن يعطى لمعلمه القس جوان مثقالا واحداً ، ويحل عن روحه الفين ميشه ويخرج أيضاً من بلاد الاسلام أسيرٍ بالغ مابلغ بعشرين مثقالا .

وفى وصية للدون غنصالبُه خل تاريخها شهر اوكتوبر سنة اثنين وسبعين ومائتين وألف . أمر متى توفاه الله ان يعلم ما له كله ، أصله ومتحركه ، أثاثاً وعقاراً ، دقه وجلده ، جامده ومتخلخله ، ويخرج منه عن خمسمائة مثقال فونشية ، وتبذل عن روحه ، الى أن يقول : ويعطى في استفكاك أسارى من بلاد الاسلام ستين مثقالا الخ

وفى وصية للدون بطره شانجه من جماعة شنت رمان ، وصهر دون جوان اشتا ابن دى البقال ، يقول من جملة وصايا عدة : وأمر لرتبة افرايرين قلعة رباح مائة مثقال فونشية على شرط ان يدفنوه الافريرين منها هنا بطليطلة بشنته فليج ، ويزينوا عليه كما لو كان افرايرى منهم ، وأمر بان يفك زوج نصارى اسيرين فى بلاد الاسلام بما يقوم فى ذلك

ومن أطول الوصايا التى اطلعنا عليها فى هذه المجموعة وصية للمسمى الدون الفونش[(١)] متاوش بن دون متاوش بن دون ميقال بن فرون ، أمر بانه متى توفى يعلم ماله كله ، قليله وكثيره ، ويبذل عن روحه فى سبيل الله ، وأن يزين منه عليه فى دفنه وكفنه بما يليق لمثله ، ويكون كفنه من الصوف أرخص ما يوجد للشراء ، ويوقد عليه زوج قناديل ، يكون زيتهما ربع واحد فقط ، وزوج قناديل أخرى صغار . توقد حيث

(١) Alfonso Mateos

يكون جثمانه ، ودفنه يكون بكنيسة شنتة لوقادية ، بقبر جده ، ويزين عليه لتمام الخمسين يوماً ، ولتمام العام ، وتكون القناديل لذلك مثل القناديل المذكورة ، ويقدس عليه مشيتين فى كل يوم من يوم دفنه إلى السابع يوم ، ويفرق على المساكين في كل يوم طول السبعة أيام مثقال وأمر أن يبتاعوا أوصياؤه المذكورين بعد هذا ملكا بمائتين أو ديار بمائة وثمانون مثقالا ، وتحبسها زوجه دونه ميورى طول حياتها ويعمل من فائدها قبلانية عن روح الموصى المذكور تقديس ميشة واحدة فى كل يوم للأبد ، وتعمل منه نفرشاريه [1] واحد عن روح الموصى فى كل عام ، ثم أخذ فى توزيع تركته على وارثيه ، وعلى من أراد أن يتصدق عليهم ، وعلى الكنائس والرهاين ، وحبس أملاكا لوارثيه أن يستغلوها ، بدون أن يكون لهم حق بالبيع ، وجعل شطراً كبيراً من ثروته لزوجته دونه ميورى ، وأيضاً الاماء الست اللاتى كن له ثم قال : والمسلمتين الباقيتين من مسلماتها تبقى لانصاف الوصية ، ولا يعترض أحد خلق الله لدونه ميورى ، والستة إماء المذكورات بوجه قال فى هذه الوصية : وميز الموصى المذكور أن نبّون المسلم والجعفر بن الجعفرين ، وابراهيم الاحول والاسمر والاعرج المسمى دومنقه روبيّوه وبكر ، انهم لزوجه دونه ميورى صارو لها باتراث عن أبويها ولها أيضاً فى خاصتها احمدوج السقا ، ابتاعته من مالها المختص بها وقاسم وعلى هما للموصى ولزوجه دونه ميورى ، الحظ الذى فيهما للموصى يباع و يبدل ثمنه فى انصاف هذه الوصية ، وقطيع مريم وفطّوش الباقى منه هو لدونه ميورى ، ويكون لها فى خاصتها اه . نقلنا ذلك لأجل اطلاع القارىء على كيفية معاملة الاسبانيول لأسرى المسلمين ، وتاريخ هذه الوصية سادس مايو عام ستة وثلاثمائة للصفر .

ثم اطلعنا على وصية للدونه متاية [2] زوج الدون غنصالبه البطلير ساكنه بربض الافرنج من طليطلة نصها : بسم الله الرحمن الرحيم وله الحمد وحده . هذا ما أوصت

---

(١) Anniversaire بالافرنسية

(٢) Matia

به دونه متابه النخ وتاريخ هذه الوصية سادس ديجمبر عام عشرين وثلاثمائة وألف للصفر . وفى تاريخ ١١٩١ صك يقول فيه :

اشترى يحيى بن محمد الانصارى ، من دون غليان القس ، لزوجه هند بنت عبد الرحمن ابن محمد ، جميع الحجرة التى بقرب كنيسة امنيوم شنتوروم ، بمدينة طليطلة ، حرسها الله ، حد هذه الحجرة فى الشرق قرال لورثة دعنقه اياس ، وفى الغرب طريق فيه خروج الحجرة المذكورة ، واليه يشرع بابها ، وفى الجوف دار ولد الشقية المسلم ، وفى القبلة قرال لورثة دعنقه إياس ، بثمن مبلغه عشرة مثاقيل من الذهب الطيب البيامى النخ .

وفى آخر المجموعة صكوك ووثائق خاصة باليهود ، تجد منها سطراً بالعربية ، وسطراً آخر بالعبرية ، ولا جرم أن يهود طليطلة كان لهم شأن عظيم يستدل عليه من كثرة الوثائق المتعلقة بهم ، ومنها سندات لا تحصى لهم على نبلاء النصارى بأموال وافرة . فقد كانوا هم المرابين فى تلك الحاضرة ونواحيها ، وكان عددهم كبيراً ، ومن شاهد كنيس اليهود [1] الذى شاهدته أنا بنفسي فى مدينة طليطلة ، وهو الذى يعد من أنفس نفائس الصنعة العربية ، ولا يذهب سائح إلى طليطلة إلا ويشاهده ، علم

(١) الكنيس المذكور بنى فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر وقيل ان الوزير صموئيل لاوى هو الذى قام بنفقة بنائه ، وكان فى طليطلة عدة كنس لليهود لكثرة عددهم فيها وأحدها حوله الأسبان الى كنيسة باسم « صان رومان ، اما ظن « توما تامايو بركاش Toma Tamayo De Vargas ان كنيسة « صانتا مارية البيضا » أصلها كنيس لليهود وانه معبد قديم لهم وسابق لعهد النصرانية وانه كان فى طليطلة جالية يهودية لعهد المسيح انفرذ احبارها بعدم استحسان الحكم عليه الى غير ذلك فيترجح كونه تخرصاً وأحاديث ملفقة وربما كان بعض اليهود اخترعوا تلك الرواية من بعد ، رامين بها الى الزلفى لدى الاسبانيول بعد ان ملكوا البلد . وعلى كل حال فليس فى كنيسة « صانتا ماريه » المذكورة ادنى شبه مع هندسة معابد اليهود بل كلها طرز عربى بحت ان كان فى أقواسها أو فى نقش حيطانها أو فى زليجها أو فى تقسيمها وقد بنيت فى القرن الثالث عشر مكان جامع كان تداعى الى الخراب

مكانة اليهود المادية والمعنوية فى تلك الحاضرة[1] ، وكانت لهم أيضاً بجانبهما مكانة علمية أدبية ، إذ نبغ منهم العلماء والادباء ، وكانوا هم أكثر القائمين بترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية والاسبانية ، بحيث انه بواسطتهم انتشرت علوم العرب فى أوربة فى القرون الوسطى . ولذلك قيل ان أوربة لم تعرف علوم يونان رأساً ، وانما عرفتها بواسطة العرب .

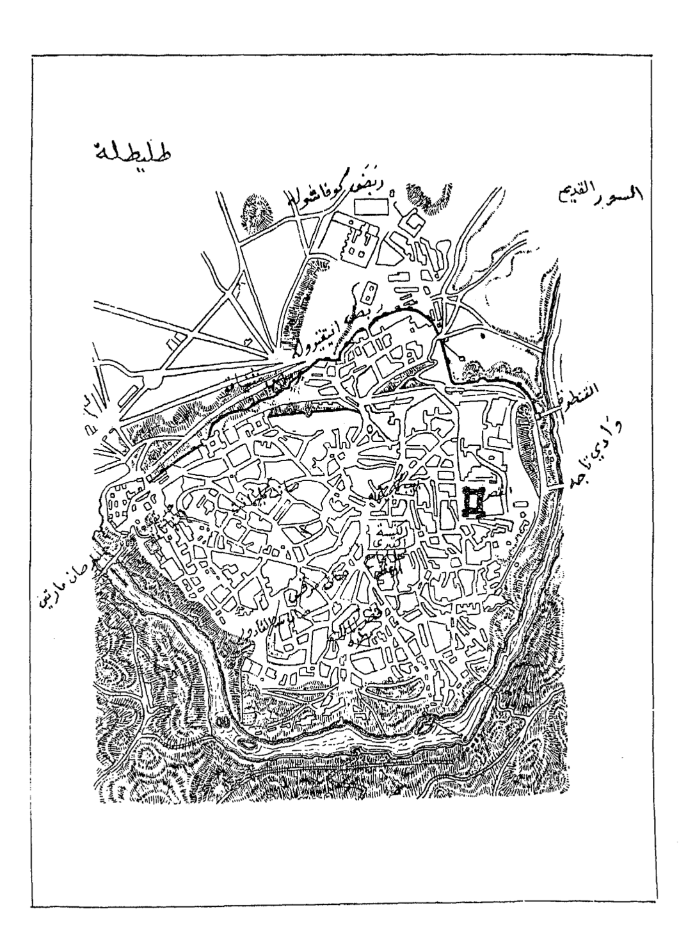
فلم يخطىء الذين قالوا إن طليطلة كانت واسطة التعارف بين الشرق والغرب ، وان العالمين الاسلامى والمسيحى قد تلاقيا فيها . وقال المسيو جوسه P. Jousset صاحب جغرافية أسبانية والبرتغال المصورة :

ان الرسوبات البشرية التى ثبتت فى طليطلة ، قد جعلت من هذه المدينة متحفاً حقيقياً ، لا متحفاً كالمتاحف المعتادة ، التى يجمع أصحابها فيها الآثار النادرة ، جمعاً مصطنعاً حتى يأتى الناس ويطلعوا عليها ، ولكنه متحف حقيقى أوجدتهأعصر تبلغ عشرين قرناً ، وكل منها ترك أثراً فى طليطلة ومن زار أسبانية ولم يزر طليطلة فيعود كانه لم يعرف أسبانية . فهى مدينة أصيلة ثابتة بارزة ، ليس فيها شىء من المعتاد المألوف الذى ملته الأنفس ، بل كل مافيها أصل جليل يهم الآثارى والمتفنن . وهى وحدها تستحق سياحة السائح الى أسبانية . ومدخلها قنطرة ذات قوس واحد على نهر تاجُه . وعلى هذه القنطرة برج مكتوب عليه أن النهر طغى ، فهدم الجسر ، فرممه الاذفونش ، الملقب بالحكيم سنة ١٢٥٢ . ثم اكمل تجديده بريعاط أسبانية المطران تينوريو Tenorio سنة ١٣٨٠

وكان هذا الجسر من زمان العرب ، بل يظن انه كان من قبلهم . وقد نقل « سلازار دو مندوسه » Salazar de Mendoza الكتابة العربية التى كانت

---

(١) وكان منهم عند ملوك الأسبانيول وزراء وكتاب ، وكان صموئيل لاوى ناظر الخزانة عند الطاغية بطرس الملقب بالصارم ، ونفذت كلمته عنده كثيرا وان كان قتله فى الآخر


طليطلة
السور القديم
القنطرة
وادي تاجه
الكنيسة الكبرى

مزبورة على الحجر فى هذا الجسر : الله اكبر والصلاة والسلام على جميع من آمن بالله ورسوله محمد (١) ونقل الكونت دوموراه de Mora كتابة أخرى مدفونة فى باطن الجسر هى هذه : « بنى هذا الجسر بامر ملك طليطلة العظيم محمد سويد الجاشعى بطليطلة حرسها الله وانتهى سنة ٢٠٤ للهجرة » (٢)

وجاء فى نفح الطيب : وطليطلة قاعدة ملك القوطيين ، وهي مطلة على نهر تاجُه ، وعليه كانت القنطرة التى يعجز الواصفون عن وصفها ، وكانت على قوس واحدة ، تكنفه فرجتان من كل جانب ، وطول القنطرة ثلاثمائة باع ، وعرضها ثمانون باعاً . وخربت أيام الامير محمد ، لما عصى عليه أهلها ، فغزاهم ، واحتال فى هدمها . »

قلنا : أما هذه القنطرة التى يعجز الواصفون عن وصفها فلا يمكن أن تكون القنطرة الحالية ، لأن هذه ليست بهذه العظمة التى ذكروها ، وان كانت جليلة فى ذاتها . وهذه ذات قوس كبيرة واحدة ، مع أخرى صغيرة . وقد كانت القنطرة العربية فى مكانها ، ولكن الوادى عند ما طغى ذهب بها ، فرممها الاذفنش الملقب بالحكيم (٣) ثم ان تنوريو الأسقف الأعظم برماط أسبانية ، اكمل تجديد البناء كما مر

وعلى هذه القنطرة برج مبنى من سنة ١٤٨٤ ، وتمثال القديس « سان (٤) ايلدفونس » وكتابة من زمن فيليب الثانى . وعلى الضفة اليسرى من نهر تاجه بقايا حصن سان «سرفنده» أو شربند ، كما يقول العرب والفئة المستعربة من الاسبانيول . وهو حصن كان بناه على ذلك الجبل الاذفونش السادس ، فاتح طليطلة ، الذى فى

---

(١) نقلنا هذا عن جغرافية أسبانية والبرتغال المصورة تأليف جوسة Jousset ولم نطلع على الأصل العربى لهذه العبارة

(٢) لم نعثر على أصل هذه الكتابة بالعربى وانما نقول انها غير ممكنة بهذا الشكل . ونحن نرويها عن جغرافية أسبانية والبرتغال لجوسه Jousset

(٣) Alphonse le Sage

(٤) Ildefonse

أيامه بدأ انهيار دولة الاسلام فى الاندلس . ومن جسر طليطلة الى محطة السكة الحديدية مسافة يشرف منها السائح على منظر بديع ، والى الشمال الشرقى من المحطة يوجد بقايا حصن عربى قديم يقال له اليوم قصر « غاليانه » (١)

فأما أسوار طليطلة فهى موصوفة بالمنعة ومن رأى طليطلة يقول إنها لا تحتاج إلى أسوار ، لمنعة موقعها الطبيعى ، ولكثرة ما فيها من غور ونجد ، فهي في هذا المعنى أشبه بمدينة لوزان فى سويسرة ، لا يكاد يجد فيها الإنسان مساحة مسطحة تزيد على ٢٠٠ متر بل ترى الماشى فيها يصعد وينزل أبداً ، وربما كانت طليطلة تفوق لوزان فى قلة الاستواء ، فان أكثر شوارعها لا تسير فيها العربات ، ولهذا تقل المركبات فى طليطلة ، والناس تنقل أشياءها على الدواب ، فكيفما توجهت فى طليطلة تجد جر الأثقال ضربا من المحال .

وبرغم هذا فان الملوك الغابرين قد أحكموا أسوارها ، وجعلوها طبقاً عن طبق ، فجمعت بين المنعتين الطبيعية والصناعية .

ومما لا نزاع فيه أنه مع كل ما بنى فيها الاسبانيول على أيدى مهندسين من الفرنسيس والألمان والطليان ، وما بنوا فيها من الكنائس والأديار والمستشفيات والمدارس وما عنوا بتغيير شكلها العربى ، لا تزال المسحة العربية غالبة على هذه البلدة ، فى ضيق الشوارع ، وقلة نوافذ البيوت ، وسعة الدور الداخلية ، وحصانة الأبواب ، وغير ذلك من أساليب العرب فى البناء ، ولا تجد الرهبان والراهبات مقيمين فى أديار هى على الطراز العربى إلا فى طليطلة . وقد نقل دليل بديكر كلمة فى حق طليطلة عن الكاتب الافرنسى المشهور « تيوفيل غوتيه » (٢) هى هذه ، وقد أبدع وصفها : « طليطلة فيها من الدير ، ومن السجن ، ومن القلعة ، ومن الحرم الاسلامى ، وذلك لأن العرب مروا بها » . نعم فيها من الدير لكثرة ماشاد الاسبانيول

---

(١) Palacio de Galiana

(٢) Theophile Gautier

فيها من المعاهد الدينية تغطية لآثار العرب . وفيها من السجن لما يشاهد من الوثاقة والمتانة فى مبانيها وفيها من القلعة لكثرة أسوارها ولمنعة مكانها الطبيعى وفيها من الحرم لأن بيوتها الأصلية هى بيوت عربية كسائر بيوت العرب فى الدنيا

وأعظم بنية فى طليطلة هى الكنيسة الكبرى التى يقولها المستعربون «القاعدة» وهى على اسم مريم العذراء عليها السلام ، وفيها مذابح رومانية ، ومذابح نصف عربية وهى فى الحقيقة بيعة عظيمة بمنتهى الفخامة ، تعد من الدرجة الأولى في كنائس العالم وموقعها بحذاء الأكمة التى عليها القصر Alcazar

ويقول المؤرخون عن تاريخ هذه الكنيسة انه فى زمن ريكاريد القوطى تشيدت سنة ٥٨٧ كنيسة باسم العذراء ، لا تزال هناك كتابة تدل عليها وكان بجانبها دار أسقفية أقام بها القديسون أوجين ، وإيلاد ، وإيلديفونس ، ويليان . وفي سنة ٧١٢ ب . م . عند ما فتح العرب طليطلة حولوا هذه الكنيسة إلى مسجد ، وكانت لهم المسجد الجامع [1] ، وبقى الأمر كذلك إلى سنة ١٠٨٥ التى فيها استولى

---

(١) كان فى هذا المسجد الجامع حوض أمر ببنائه الظافر بن ذى النون سنة ٤٢٣ وقد وجدت كتابة على بلاطة رخام بالخط الكوفى البارز هذا نصها بعد البسملة : أمر الظافر ذو الرئاستين أبو محمد اسماعيل بن عبد الرحمن بن ذى النون اطال الله أيامه ببنيان هذا الجب بجامع طليطلة حرسها الله فتم بعون الله فى جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة . وقد ظهر من هذه الكتابة التى نقلها لاوى بروفنسال ان الظافر المذكور تولى طليطلة بطلب من أهلها قبل التاريخ الذى ذكره المؤرخون فقد قالوا انه جاء خلفاً ليعيش بن محمد بن يعيش سنة ٤٢٧ والحال انهذه الكتابة مؤرخة سنة ٤٢٣ فهى تصرح بكون الظافر بن ذى النون هو الذى أمر ببناء هذا الحوض اذ اصطلح الأندلسيون على تسمية الحوض بالجب . وأما لقب ذى الرئاستين فقد لقب الظافر نفسه به حتى يعلو عن لقب ذى الوزارتين الذى كان لقبه به الخليفة الأموى . وقد وجدت كتابة ثانية فى طليطلة نصها : مما أمر بعمله الظافر ذو الرئاستين اسماعيل بن ذى النون فى سنة تسع وعشرين واربعمائة

الأذفونش السادس على طليطلة صلحاً بعد حصار طويل [1]

(١) نحب أن نذكر هنا ما قاله دوزى R. Dozy المستشرق الهولاندى الشهير فى كتابه : تاريخ مسلمى أسبانية Histoire Des Musulmans En espagne وهو ملخصاً : « ان القادر بن ذى النون كان فرض على أهل طليطلة مبالغ وافرة من المال فأدوها اليه وقدمها للاذفنش . فقال له الامبراطور : (لان الاذفنش السادس كان سمى نفسه بذلك) هذا لا يكفى . فقدم له القادر ذخائر أبيه وجده . فقال له : وهذا أيضاً لا يكفى . فقال له القادر : انى حاضر لاعطائك فوق هذا لكن على أن تعطينى مهلة . فقال له الأذفنش : انى عملك على شرط أن تسلمنى أيضاً حصونا تكون رهناً عندى . فرضى القادر بهذا الشرط اذ لم يكن له قدرة على الامتناع فكان مضطراً أن يرضى بكل شىء وكان يرى سيف الاذفونش معلقاً فوق رأسه لا يستطيع أن يخالفه فكان يدفع المال بعد المال ويخلى الحصون بعد الحصون ولأجل ارضاء الامبراطور يفرض المغارم الثقيلة على رعيته التى بدأت تهاجر الى مملكة سرقسطة . وكان الأذفونش كلما ازداد القادر طاعة له يزداد عتواً فانتهى الأمر بان فرغت يد القادر فجاء الأذفونش واكتسح ارباض طليطلة فحاول القادر أن يدافع عن عرشه لكنه رأى نفسه عاجزاً فعرض على الاذفونش تسليمه طليطلة تحت شروط وهى ان الاذفونش يتعهد بتأمين أهالى طليطلة على أموالهم ودمائهم ومن شاء منهم الهجرة هاجر ومن شاء الاقامة أقام وانه لا يفرض عليهم الا غرامة واحدة مقررة من قبل وان المسجد الاعظم يبقى للمسلمين وان الاذفونش يساعد القادر على ملك بلنسية

فرضى الأمبراطور بهذه الشروط وفى ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ دخل الأذفونش طليطلة وقد بلغ من العظمة ما ليس له حد وما لا يساويه إلا ما بلغه أمراء المسلمين وقتئذ من الدناءة فاقبلوا عليه من كل فج يقدمون له الهدايا ويعرضون طاعتهم ويعلنونه أنهم ليسوا أكثر من جباة عنده فتسمى الأذفونش بملك الملتين وكان يكتب ذلك فى مناشيره ولم يكن يخفى احتقاره لأمراء الاسلام . ولما جاء حسام الدولة بن رزين يهنىء الأذفونش بفتح طليطلة مقدماً له نفائس الهدايا كان عند الأذفونش قرد يلعب أمامه فأنعم عليه به ورجع حسام الدولة مفتخراً بأن الأمبراطور أنعم عليه بقرد وعد ذلك من أعظم النعم . وكان فى بلنسية ولدا عبد العزيز يتنازعان ملكها وكان فيها حزب ثالث يريد تمليك صاحب سرقسطة وحزب رابع يميل إلى القادر بن ذى النون وقد

وكان المسلمون قد اشترطوا لأجل تسليم البلدة بقاء المسجد الجامع لهم ورضى

كان هذا بظاهره جيش قشتالة تحت قيادة (الفارفانيس) Alvar Fanez وكان البلنسيون مضطرين أن يقدموا ميرة هذا الجيش وكانت تكلفهم ستمائة ذهب فى النهار فقالوا للقادر إنهم فى غير حاجة إلى هذا الجيش حتى يطيعوه فلم يسمع القادر كلامهم لأنه كان يعلم أنهم لا يحبونه فاستبقى القشتاليين فى بلنسية استظهارا بهم وفرض على أهلها وأهالى ملحقاتها غرامات منقضة للظهور وبلص الأعيان من أموالهم ومع هذا فلم يقدر أن يقوم بكل ما يتطلبه القشتاليون ففرض عليهم أن يقطعهم أراضى فى مملكة بلنسية فرضوا بذلك وتملكوا القرى ولكنهم لم يقوموا على حرثها بأنفسهم بل جعلوا فيها زراعاً يحرثونها لهم واستمروا يشنون الغارات على الأطراف وانضم إلى الجيش القشتالى جماعة من غوغاء العرب ومن العبيد ومن الأشقياء أصحاب السوابق فى الاعتداء وقطع السابلة وارتد هؤلاء عن الاسلام وأخذوا يفعلون الأفاعيل التى لم يسمع بمثلها فكانوا يسفكون الدماء ويهتكون أعراض النساء وربما باعوا الأسير المسلم بزق خمر أو برغيف من خبز أو بقطعة من حوت وكانوا يمثلون بمن يمتنع عن إعطائهم مايريدون فيقطعون لسانه أو يفقأون أعينه أو يلقون به للكلاب المفترسة لتأ كله . فكانت بلنسية وقتئذ فى الحقيقة ملكا للأذفونش ولو كان القادر بن ذى النون ملكا عليها فى الظاهر ، وكانت سرقسطة أيضاً تحت حصار الامبراطور وقد أقسم أن يفتحها ، وكان هناك القائد القشتالى غرسية شيميناس بجماعة من فرسانه يشن الغارات على المرية وكان صاحب غرناطة فى المقيم المقعد أيضا مع القشتاليين . وفى ربيع سنة ١٠٨٥ نازل القشتاليون أهل غرناطة فى عقر دارهم ووقع الرعب فى قلوب المسلمين حتى صار الخمسة منهم لا يقومون لواحد من النصارى ووجد فى إحدى المرار أربعمائة جندى من المرية وكانوا من نخبة الجند فهربوا من وجه ثمانين قشتاليا فعم اليأس جميع المسلمين ورأوا أنه لم يبق أمامهم إلا إحدى خطتين ، إما الرحيل عن أوطانهم ، وإما الدخول فى طاعة النصارى ، وبقيت خطة ثالثة وهى استصراخ المرابطين من إفريقية . ثم ذكر دوزى كيف دعا المعتمد بن عباد يوسف بن تاشفين لانقاذ الأندلس ولما ذكر له ولده الرشيد ما فى ذلك من الخطر عليهم أجابه أنه لم يبق أمامنا إلا إحدى هاتين الخطتين إما أن نخضع لحكم النصارى وإما أن نرضى بولاية المرابطين وإنى أفضل أن أرعى الجمال فى إفريقية على أن أرعى الخنازير فى قشتالة وسيأتى ذكر ذلك تفصيلا فى باب التاريخ .

الأذفونش بذلك . قال ابن بسام . لما توالت على أهل طليطلة الفتن المظلمة والحوادث المصطلمة وترادف عليهم البلاء والجلاء ، واستباح الفرنج لعنهم الله تعالى ، أموالهم وأرواحهم ، كان من أعجب النوادر الدالة على الخذلان ان الحنطة كانت تقيم عندهم مخزونة خمسين سنة لا تتغير ، ولا يؤثر فيها طول المدة بما يمنع من أكلها فلما كانت السنة التي استولى عليها العدو فيها ، لم ترفع الغلة من الأندر حتى أسرع فيها الفساد . فعلم الناس أن ذلك بمشيئة الله تعالى ، لامر أراده ، من شمول البلوى ، وعموم الضراء ، فاستولى العدو على طليطلة ، وأنزل من بها على حكمه . وخرج ابن ذي النون منها على أقبح صورة وأفظع سيرة ، ورآه الناس و بيده أسطرلاب ، يأخذ به وقتاً يرحل فيه . فتعجب منه المسلمون ، وضحك عليه الكافرون .

و بسط الكافر العدل على أهل المدينة ، وحبب التنصر إلى عامة طغامها ، فوجد المسلمون بذلك مالا يطاق حمله ، وشرع فى تغيير الجامع كنيسة فى ربيع الأول سنة ست وسبعين وار بعمائة .

ومما جرى في ذلك اليوم أن الشيخ الأستاذ المغامى رحمه الله تعالى صار إلى الجامع وصلى فيه ، وأمر مريداً له بالقراءة ، ووافاه الفرنج ، لعنهم الله تعالى ، وتكاثروا لتغيير القبلة ، فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ ولا معارضته ، وعصمه الله تعالى منهم ، إلى أن أكمل القراءة ، وسجد سجدة ، ورفع رأسه و بكى على الجامع بكاء شديداً ، وخرج ولم يعرض له أحد بمكروه اه .

قلنا إن الأسبان كانوا يعلمون أن تلك الساعة هى الساعة الأخيرة للجامع فصبروا على هذا الشيخ الجليل حتى أتمها بآخر عبادة اسلامية فيها

وفى ١١ أغسطس ١٢٢٧ جعل ملك أسبانية ، الذى يقولون له القديس فرديناند هذه البنيةَ دكا ، حتى يبنى مكانها بيعة على الطراز القوطى ، الذى منه كنائس شمالى فرنسة ، وجنوبى ألمانية ، وانتدب المهندس الافرنسى بطرس بترى ، الذى بقى متولياً إدارة تشييدها مدة تزيد على خمسين سنة ، و بعد وفاته عمل فيها مهندسون

آخرون ، أشهرهم رودريقه الفونسُه ، وجوان غواس ، والبير غومس ، ومرتين شانجس وغيرهم ، فالعمل فيها لم ينقطع مدة طويلة ، وهى قائمة على خمسة صفوف من الاساطين وطولها ١٢٠ متراً وأربعون سنتيمتراً ، وعرضها ٥٩ متراً و ١٣ سنتيمتراً وبناؤها من الحجر المحبب ، إلا أن نقوشها الخارجية والداخلية هى فى الحجر الكلسى ، ولا يضارعها فى أسبانية إلا كنيسة اشبيلية من بعض الوجوه . وكنيسة طليطلة أطول من كنيسة اشبيلية بعشرة أمتار إلا أن كنيسة اشبيلية أعلى بعشرة أمتار . ومزايا كنيسة طليطلة على كنيسة اشبيلية هى فى تناسب الأقسام وبداعة الزخرف وتخريم المذبح الأعظم ، حتى كأنه قطعة من العاج المخرّم المرصع .

ولا عجب ، فقد بقى العمل فى القاعدة العظمى ، بحسب قولهم ، مدة ثلاثة قرون ولها ثمانية أبواب ، أكثرها من الأعاجيب . وهى أبواب الغرب التى لا يفتحونها ، مقتصرين على الباب الجنوبى المسمى بباب الاسود ، والباب الجوفى المسمى بباب الساعة ، الذى يشرع من جهة المدينة العليا . وفيها عدة مذابح ، منها مذبح نصف عربى . ولكن جميع بدائع الصنعة والنقش والتصوير مستوفاة فى المذبح الأعظم . وعقود الاقواس كلها من المرمر ، تحيط بأعناقها قلائد مذهبة من الصنعة العربية Arabesque

وفى هذه الكنيسة من صنوف الخرط والنجْر وفنون التنزيل والحفر ما يعجز القلم عن وصفه ، فليس له إلا النظر بالعين ! وماذا تقول فى بناء لبثوا يعملون فيه ثلاثمائة سنة ، وبذلوا عليه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، واستجادوا له أشهر الصنّاع فى أعصرهم ، وأمهر النحاتين والمصورين فى أوقاتهم ؟ ! وفى خزائن هذه البيعة كنوز هى فوق التخمين من كل نوع ، قد تراكمت من قرون . ولكن الذى يريد الفرجة لا يقدر أن يتبين محاسنها ، من ضعف النور الذى يدخل إلى الكنيسة ، لأنهم ، كما لا يخفى ، يستحب عندهم فى الكنائس أن يكون نهارها ليلا ، لما فى ذلك من الهيبة بزعمهم ، وهذا ما رأينا الكثيرين من الافرنج ينتقدونه ، ويقابلون بينه وبين مساجد الاسلام التى تفيض نوراً .

وأما المذبح نصف العربي فقد جعلوه بقرب الباب ، وقد كان بناؤه على يد المهندس هنري دوايغاس ، بأمر الكردينال شيمانيس الشهير Jiménes وذلك سنة ١٥٠٤ ، وهم يقدسون على هذا المذبح بحسب الطقس القوطي الذي وضعه سان ايزيدور . وكانت في طليطلة قد بقيت ست كنائس محافظة على الطقس القوطي إلى سنة ١٨٥١ ، فمن ذلك الوقت توحّد الطقس ، وصار رومانياً محضاً .

ومن كنائس طليطلة المعدودة كنيسة سان جوان [١] الملوك ، وهي كنيسة بناها فرديناند و إيزبلا على الأسلوب القوطي ، والأسلوب المعروف بالريناسنس [٢] مجموعين فيها وقد بذل فرديناند و إيزبلا في بنائها قناطير مقنطرة من الذهب فجاءت من أبدع الكنائس زخرفا وكانا أعدّاها لدفنهما فيها ، إلا أنهما عدلا عن ذلك الرأي بعد استيلائهما على غرناطة سنة ١٤٩٢ ومحوهما كل أثر لملك الاسلام في الأندلس فقررا عند ذلك أن يكون دفنهما في كنيسة غرناطة ، وتوقف العمل في كنيسة سان جوان هذه ، ولم تتم إلا في القرن السابع عشر . فلذلك اختلف طرز بنائها في ذاته بحيث جمعت بين أسلوبين متغايرين . وعلى جدران هذه الكنيسة الخارجية سلاسل حديد يقولون انها كانت قيوداً لأسارى المسيحيين الذين أنقذهم فرديناند وايزابلا يوم دخلا غرناطة ، وفي هذه الكنيسة صور للقديس سان جوان . وصورة شعار الملكين فرديناند وايزابلا وأسلحتهما ، والمذبح الاعظم من هذه الكنيسة منقول من كنيسة شنت افرج [٣] القديمة ، قال في دليل بديكر : إن زينة حمراء غرناطة ونقوشها قد تمثلت هنا بصور مسيحية . وقد كانت هذه الكنيسة في يد الفرنسيسكانيين ، ثم تحولت من زهاء مائة سنة كنيسة لأهالي المحلة المجاورة . وكان بجانبها دير تحول متحفاً ومدرسة صناعية .

---

(١) San Guan de las Reyes

(٢) Renaissance

(٣) Santa Cruz

وموقع هذه البيعة هو على أكمة مشرفة ، تسرح منها الأنظار على وادى تاجه ، وعلى البقعة [١] ، وعلى شارات سان برناردو وغريدوس . و إلى الشمال الغربى من دير سان جوان الملوك يقع الباب المسمى عند العرب بباب المكاره [٢] ، وعلى مقربة من هناك فى بقعة يقال لها باجَه كنيسة سانتا لوقادية . وهى قديمة ، بنيت فى القرن الرابع ، فى المكان الذى يقال ان القديسة لوقادية نالت فيه اكليل الشهادة ، وكان

---

(١) La Vega

(٢) Al - Makara وحق هذه اللفظة أن تكون « المكاراة » بألفين اثنتين وهى مصدر كاراه الدابة ، والفاعل مكار ، ويقال مكارى الدواب وكرى الدواب أيضاً . هذا ويقال إن هذا الباب كان موجودا فى زمن القوط ثم جاء العرب فبنوه على ذوقهم ثم لما استرجع الاسبان طليطلة هدموه وبنوه من جديد على طرز أبنيتهم ولكنه بقى منه قوس عربى واحد يعتمد على أعمدة مكتوب على أحدها : الله اكبر . اشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . وقد نقل « جوسه » فى جغرافية أسبانية والبرتغال عن « سلازار مندوزه » كتابة يقولون إنها كانت باقية فى الحجر إلى زمن فليب الثانى ومعناها على عهدتهم هو هذا : لااله إلا الله محمد رسول الله جميع المؤمنين الذين يعتقدون بنبينا محمد ويقبلون أيدى المرابط مولاى عبد القادر يغفرالله لهم ذنوبهم ولا يكونون فى يوم من الأيام صما ولا عمياً ولا مقطوعى الأعضاء ويتلقون منه البركة فى ساعة الموت ولا يعتلون قبل موتهم إلا ثلاثة أيام ويذهبون إلى الجنة وعيونهم مفتوحة وذنوبهم مغفورة انتهى قلت : هذه القصة مستغربة جدا فانه لا يذكر أى عبد القادر هو المقصود هنا ؟ فان كان عبد القادر الجيلانى الولى الشهير الذى تقال فيه مثل هذه الأقاويل فالشيخ عبد القادر الجيلانى مات سنة ٥٦١ أى بعد فتح الاسبان لطليطلة بثلاث وثمانين سنة ويستبعد جداً أن يكتب المسلمون فى طليطلة على باب من أبواب المدينة كتابة منقوشة على الأحجار ان لم تكن البلدة فى أيديهم ولم تكن الولاية عليها للاسلام . وأما إن كان المراد بالمرابط عبد القادر شخصاً آخر من الأولياء الذين عاشوا قبل خروج طليطلة من يد الاسلام فمن العجب أن يذكر اسم هذا المرابط غفلا بدون نسبة ومن العجب أيضاً أن تقال جمل كهذه فى كتابة مزبورة على الحجر لمخالفتها للسنة ولذلك لنا شبهة قوية فى صحة وجود كتابة كهذه

العرب قد هدموها ، فلما رجع الاسبانيول جددوها .

وعلى ضفة نهر تاجه قريباً من هناك معمل السيوف ، وتاريخ إنشائه سنة ٧٨٨ ولكن لم تبق لسيوف طليطلة تلك الأهمية ، بعد أن بقيت قروناً مشهورة بهذه الصناعة من زمن الرومان إلى زمن القوط ، إلى زمن العرب ، إلى زمن الأسبان ، لاسيما القرن السادس عشر ، ومن النصال الطليطلية انموذجات بديعة فى متحف مجريط ، و إلى الجنوب من باب المكاره ، قطعة من السور تنتهى بباب سان مرتين ، و إلى الشمال من هذا الباب المسلخ الذى يقال انه كان فى مكانه قصر الملك لذريق ، الذى منه انتزع العرب جزيرة الاندلس ، وهو الذى افتض كريمة الكونت يليان المسماة فلورندة [٢] ، ولأجل ذلك حنق هذا الكونت حنقاً بلغ به أن دعا العرب لاجتياح الأندلس ، ففتحوها ويقال من جملة الاساطير انه كان يوجد هناك كهف يقال له كهف هرقل ، نظر فيه لذريق مرة فعثر على كتابة تؤذن بانتهاء ملك الاندلس .

وعلى الوادى يوجد جسر سان مرتين ، معقود فوقه الى الغرب من البلدة . وكان بناؤه سنة ١٢١٢ ، ثم تجدد سنة ١٣٩٠ . وله خمسة أقواس ، الاوسط منها يرتفع ثلاثين متراً ، وعليه برجان . والى اليمين منه تحت السور حمّام يقال له حمّام الكهف [١] حيث الملك لذريق شاهد فلورنده كريمة الكونت يوليان تستحم ، وكان بعد ذلك ما كان .

والى الجنوب من بيعة سان جوان الملوك كانت فى القديم حارة اليهود ، التى كان يقال لها « الجديرة » ، وكان هؤلاء اليهود بنوا هناك حصناً حصيناً يضعون فيه أموالهم وأما كنيسة مارية البيضاء فكانت فى الأصل كنيساً لليهود ، بنى فى القرن الثانى عشر ، ثم تحول كنيسة للنصارى فى بداية القرن الخامس عشر ، ثم صارت محل خلوة للمتنسكين ، ثم ثكنة عسكرية ، ثم مخزنا . وهى ذات بناء فخم على ثمان وعشرين

(١) Florinda

(٢) Bain de la Cave



قوساً ، وقواعد أساطينها مزينّة بالزّليج ، والصنعة العربية . وأما الكنيس الشهير الذى تقدم الكلام عليه فيقال له كنيس [١] الانتقال ، فقد بناه الحاخام «ماير عبدلى» على نفقة صموئيل لاوى ، كما تقدم الكلام عليه . واتقن بناؤه إلى النهاية ، فلما طرد الملوك الكاثوليك يهود اسبانية حولوا هذا الكنيس إلى كنيسة باسم سان بنيتو ، وسلّموه إلى فرسان قلعة رباح ، ثم تحول كنيسة باسم العذراء . و إلى الشرق من هذا الكنيس يوجد بيت المصور الشهير غريقو [٢] الذى له آثار كثيرة فى كنائس طليطلة وأصله يونانى من جزيرة كريت وقد ساقته الأقدار من البندقية إلى طليطلة سنة ١٥٨٥ فسكن فى طليطلة فى قصر المركيز « فيلنه » [٣] والآن يوجد هناك متحف لآثار غريقو

ومن كنائس طليطلة كنيسة يقال لها سان جوان الندامة [٤] بناها الكردينال شيميناس سنة ١٥١٤ ، وجعل معها ديراً ، وهى فى شرقى البلدة . ومن الكنائس المعدودة كنيسة سانتو طومى [٥] وكانت جامعاً فحولوه كنيسة ، وجددوا بناءه فى القرن الرابع عشر ، ولكن منارته لا تزال على أصلها . وفى هذه الكنيسة قبر الكونت أورغاز الذى جددها على نفقته . و إلى الجنوب من هذه الكنيسة قصر كان يقيم به الأمبراطور شالكان ، وفيه ماتت امرأته ايزابلّا البرتغالية ، وفى هذا القصر صناعات عربية وقوطية مختلطة .

ومن كنائس طليطلة المعدودة كنيسة سانت ياقو الربض بنيت لعهد الاذفونش السادس ، وهى على الهندسة العربية ومنارتها لا تزال منارة مسجد اسلامى . وأما

(١) أى انتقال مريم العذراء إلى السماء Sinagoga del transito

(٢) Greco

(٣) Villena

(٤) Penitencia

(٥) Santo Tomé

الدار الاسقفية التى يقيم بها برماط اسبانية ، وكان له ذلك الشأن العظيم حتى كان يجاذب الملك الحبل فهى قبالة الكنيسة الكبرى من الجهة الغربية

قال المسيو جوسّة صاحب جغرافية اسبانية والبرتغال المصورة : لو أردنا أن نتكلم عمّا فى طليطلة من قصور كانت لنبلاء العرب والاشبيليين فى تلك الشوارع الضيقة وعلى مفارق الطرق ، وذلك مثل قصر آل بركاش[١] وآل ماكِدة[٢] ومونارِس[٣] وغيرهم وقصر البقعة[٤] ، وقصر الميزة[٥] بقاعته العربية المدهشة لاستلزم ذلك كتاباً مستقلا . وقاعة الميزة هذه ذات سقف نادر النظير فى صنعته العربية . وطولها ٢٠ متراً ، وعرضها سبعة أمتار وعلوها ١٢ متر

ومن قنطرة طليطلة يسير الانسان صُعُداً إلى الشمال الغربى فيمر بالسور العربى الذى كان للمدينة وبسور أحدث منه بُنى لأجل حماية الحارة المسماه بالربض[٦] .

---

(١) Vargas وهى عائلة معروفة مشهورة ربما كان منها بركاش المغرب الذين منهم والى رباط الفتح الحالى السيد عبد الرحمن بركاش ومن أراد أن يطلع على تاريخ هذه العائلة فعليه بكتاب « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح » للشيخ محمد أبى جندار

(٢) Maqueda حتى الآن لم يظهر لنا حقيقة هذا الاسم

(٣) Munarriz

(٤) Vega

(٥) Mesa

(٦) Arrabal الاسبانيول يقولون للربض « الربال » بقلب الضاد لاما وهو بدون شك تحريف الا انه وجد لذلك أصل فى اللغة العربية وقد نص على ذلك علماء اللغة ولما كنت فى جبال الحجاز سمعت هذه اللغة من ثقيف وهذيل فى ناحية يقال لها الشفا فسمعتهم يقولون « الليف » باللام المفخمة يريدون بها « الضيف » وصلاة « اللهر » فى صلاة « الظهر » وقرية « الليق » فى قرية « الضيق » وهلم جرا . وقد ذكرت ذلك فى كتابى « الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج الى اقدس مطاف » وعقبت عليه بقولى : ولما كنت فى الأندلس سمعتهم يقولون فى كل بلدة « الرَّبال » يعنون به ضاحية البلدة فاردت أن أعرف مأخذها فقرأت فى كتبهم انها لفظة عربية محرفة عن « الربض »

وبعد مسيرة خمسة دقائق يصل إلى باب عربى البناء يقال له باب « السول » Puerta del Sol قيل إنه بُنى سنة ألف ومائة مسيحية ، أى بعد استرداد الاسبانيول لطليطلة ، ولكنه بُنى على الطرز العربى ، وكان هذا الباب في القديم هو باب طليطلة الحقيقى . ولم يتفق المؤرخون فى تاريخ هذا الباب : فقال بعضهم : إنه بُنى لعهد الاذفونش السادس ، وقال بعضهم : انه بُنى فى آخر زمان العرب ، وعلى مقربة من هذا الباب باب آخر يقال له باب « بيزَغرة » Visagra وأصله باب شقره بناه الأسبانيول ، وعليه تمثال النسر، شعار الأمبراطور شارلكان ، ويوجد باب آخر يقال له « بيزاغرة انتيكة » Visagra Antigia[1] أى العتيقة لأنه من زمان العرب

ففكرت حينئذ فى قلب الضاد لاما عند هذيل ومن جاورهم من ثقيف وقلت من يدرى ؟ فلعل أول من تلفظ بالربض هناك تلفظ بها باللام ، فقد كان فى غزاة الاندلس كثير من هذيل وثقيف . انتهى . ولما كان كتابى هذا قد طبع بمطبعة المنار فى القاهرة وتولى تصحيح مسوداته الأستاذ الأكبر فقيد الاسلام السيد رشيد رضا رحمه الله فقد علق على عبارتى هذه فى الحاشية ما يأتى : مخرج الضاد العربية الفصحى قريب من اللام المفخمة ، فهو بينها وبين مخرج الضاد ، فلهذا تشتبه الضاد تارة بالظاء فى نطق اكثر العرب الى عهدنا هذا وتارة باللام المفخمة فى نطق هؤلاء الهذليين والثقفيين . ومثل هذا الاشتباه يكثر فى النطق ، ولا سيما نطق الذى يعجل بالكلام فيتلقاه بعض السامعين محرفاً فيصير التحريف اصلا متبعا . وذكر علماء اللغة انه سمع ابدال اللام من الضاد فقالوا « الطجع » أى اضطجع كعكسه فى قولهم رجل « جضد » أى « جلد » . وبعد كتابة ما تقدم راجعت مادة ضجع فى التاج فاذا هو يقول : قال المازنى : ان بعض العرب يكره الجمع بين حرفين مطبقين فيقول « الطجع » ويبدل مكان الضاد أقرب الحروف إليها وهى اللام . زاد فى اللسان : وهو شاذ . وقال الأزهرى : وربما أبدلوا اللام ضادا كما أبدلوا الضاد لاماً قال بعضهم « الطراد » و « اضطراد » لطراد الخيل . انتهى . نقلنا كلام السيد الامام هنا لفائدته

(١) هذه اللفظة محرفة عن بيب شقرة إذ لايخفى كون الآمالة الاندلسية جعلت الباب بيباً

وهو بناء يستحق النظر ومنه يسير الانسان على طريق عريض على جانبيه الأشجار إلى باب يقال له باب « قرون » Cambron وهناك بقايا قصر آل بركاش . ولا يجوز أن ننسى من آثار طليطلة التاريخية الكنيسة التى بقرب باب السول ، والتى يقال لها « سانتو كريستو دولالوز » Santo Cristo de la Luz أى النور وأصل هذه الكنيسة الصغيرة مسجد صغير بنى سنة ٩٢٢ مسيحية ، كما يستنتج من الكتابة العربية التى على بابه [1] ، وهو على ستة صفوف من الأعمدة ويقال إن أعمدته مأخوذة من كنيسة قوطية قديمة والله أعلم ، وتتعلق خرافة بهذا المسجد المقلوب كنيسة والذى له ولأمثاله قال الشاعر العربى رأى طليطلة يوم استولى عليها النصارى :

مَسَاجِدُهَا كَنَائِسُ ! أَىُّ قَلْبٍ   عَلَى هَذَا يَقَرُّ وَلاَ يَطِيرُ ؟!

وهذه الخرافة معناها انه لما دخل الاذفونش السادس إلى طليلة ، وكان معه القمبيدور الملقب بالسيد سجد حصان السيد بزعمهم امام حائط هناك ، فهالهم سجود الحصان من نفسه فبحثوا فى الحائط ، فوجدوا فيه مصلوباً ، وبجانبه سراج يضىء زيته من زمن القوط .

---

(١) يقال لهذه الكنيسة الصغيرة كنيسة بيب مردوم أى الباب المردوم والبيب كما لا يخفى هو الباب بلفظ أهل الأندلس الذين كانوا يتكلمون بالامالة وكان على باب الجامع الذى تحول كنيسة كتابة تاريخها ٣٧٠ للهجرة كشفوها سنة ١٨٩٩ وتكلم عنها مارسه Marçais فى كتابه عن الفن الاسلامى . وكذلك ذكرها الامبار Lambert فى كتابه عن طليطلة وفى كتابة أخرى « فن البناء الاسلامى بقرطبة وطليطلة فى القرن العاشر » . وكان العالم الاسبانيولى أما دوردولوس ريوس Amador de Los Rios قد حل هذه الكتابة بما يفيد أن الجامع بنى بمعرفة مهندس اسمه موسى بن على وشخص آخر اسمه سعادة وذلك فى المحرم سنة ٣٧٠ وفق ٩٨٠ قال لاوى بروفنسال الذى نقلنا عنه هذه الرواية من كتابه « الكتابات العربية فى اسبانية » إنه هو فى سنة ١٩٢٥ لم يستطع قراءة هذه الكتابة ما عدا البسمله . فلعلها سنة ١٨٩٩ كانت لاتزال محفوظة وكانت قراءتها لا تزال ممكنة .

وأشهر قصر فى الاندلس هو قصر طليطلة المبنى على أعلى قمة من تلك البلدة ، فقد كان فيما يظهر مقر الامارة من قديم الدهر ، ففيه أقام الايبير يون ، ثم القوط ، ثم العرب ، ثم الاسبان ، وفيه نزل اذفونش السادس يوم دخل طليطلة . ولقد تبدلت هيئته كثيراً بكثرة ما توالى عليه من الحريق . وكان كلما احترق جددت الملوك بناءه ولكن الذى لايتغير فيه هو مسرح النظر الذى له ، والذى لا يضارعه منظر لقصر من قصور اسبانية كلها . وقد كان هذا القصر تارة حصنا وطوراً قصرا ، وتعاقبت عليه أدوار مختلفة .

وأشهر ساحة فى طليطلة ، وهى التى فيها أكثر حركة البلدة ، الساحة التى يقال لها ساحة البرُ [1] أى ساحة القمح ، ومنها يصعد الصاعد إلى القصر ، وبالاجمال لايوجد بلدة أكثر من طليطلة قد حفظت الهيئة والبيئة العربيتين ، وكيف ما توجه السائح فيها يعثر على نقوش عربية ، وزلّيج ، وخشب محفور من آثار العرب ، وقد ذكر جوسّه انه وجدت تيجان ذهب مخرمة فى ضواحى طليطلة ، وتحقق انها من كنوز العرب المدفونه ، ومن قديم الدهر كان فى طليطلة أبنية فخمة ، وللارشيبرست يوليان بيريز Julian Pérez تاريخ أحصى فيه عدد الكنائس القوطية التى هدمها العرب أو حولوها الى جوامع ، مثل شان قرشتو بل Cristobal ، وسان لورنزوه ، وسان يشته Justo وسانتا مرية الجدلية ، وسان ايزيدور ، وسان انطولين والمقبرة التى كانت فى كنيسة شنت ليقودية ، فقد زعم هذا القسيس ان العرب خربوا جميع هذه الكنائس ، وجعلوا عاليها سافلها ، وقال انه كانت فى طليطلة اديار كثيرة من قبل ما أعلن الملك القوطى ريكاريد إلغاء المذهب الاريوسى ، وأمر بأن تكون الكثلكة هى المذهب السائد بدون منازع ، وذكر ان العرب تركوا بعض هذه الأديار للمسيحيين مثل سان سيلفانو Silvano

---

(١) Zocodover

وأما تاريخ طليطلة فخلاصته انها كانت العاصمة الدينية والمدنية لاسبانية فى زمن القوط ، وانه انعقد فيها ستة عشر مجمعاً ، آخرها كان انعقاده سنة ٦٣٣ ، تحت رئاسة يزيدور مطران اشبيلية ، الذى كان عندهم قديساً ، وأكثر أسباب هذه المجامع الدينية كانت ناشئة عن الجدال بين الاريوسية والكثلكة . وكان مبدأ الاريوسية آراء قسيس شهير اسمه آريوس Arius ، ولد فى برقة أو الاسكندرية سنة ٢٨٠ للمسيح ، ومات سنة ٣٣٦ . واشتهر بتجديد عقيدة سابليّوس وبولس المريساتى ، وهى التى تقول بأن المسيح لم يكن هو ابن الله فعلا ، وانما كان ابنه اسما ، والله هو الآب فقط ، واتبع عقيدة اريوس جم غفير فحكم مجمع الاسكندرية بكفره سنة ٣١٩ ولكن بقى له تبع كثير بحيث ان الامبراطور قسطنطين اضطر إلى عقد مجمع عام هو المجمع المسمى بالمجمع النيقى ، لأنه انعقد فى نيقية بقرب القسطنطينية سنة ٣٢٥ ، فقرر المجمع المذكور بالأكثرية لا بالاتفاق ان الابن والآب طبيعة واحدة ، وأن المسيح هو الله مثل الآب ، وانه هو الابن ، وحرر دستوراً للايمان على هذه القاعدة ولم يزل هذا الدستور هو قانون الدين المسيحى إلى يومنا هذا . وقد صدر أمر الامبراطور قسطنطين بنفى اريوس مدة من الزمن ، إلى أن سكنت الخواطر ، ثم أذن له فى العودة الى الاسكندرية ، وربما كان قسطنطين فى الباطن مائلا إلى عقيدة اريوس ، لكنه كان مضطراً إلى مجاراة العامة ، ثم مات اريوس ولم تمت عقيدته وانقسم بها الرومانيون إلى قسمين ، فتمسك بها بعض قياصرتهم كقسطنس ، وحمل عليها الآخرون كتيودوسيوس . وأخيراً تلاشت فى المملكة الرومانية ، إلا أنها عادت فظهرت بين البرابرة الذين جاءوا من الشمال مثل القوط ، والوندال ، والبرجونيين ، واللونبرديين ، ثم تغلبت عليها الكثلكة فى القرن السابع ، ثم عادت فظهرت مرة ثالثة بعد الاصلاح البروتستانتى ، وعرف بها فئة يقال لهم السوسينيون ، نسبة إلى رجل لاهوتى من ايطالية انتصر لهذه العقيدة ، بل أنكر أكثر قواعد النصرانية .

وقد كان فى طليطلة هذه عقد المجمع الذى حكم بتحريم مذهب اريوس .

ولما افتتحها العرب لم يجعلوها عاصمتهم ، كما كانت فى زمن القوط ، وآثروا عليها قرطبة لكونها أقرب إلى افريقية ، فصارت طليطلة تعصى أمر قرطبة ، وتثور على بنى أمية ، ولكن عمرانها لم يتقاص بالثورات ، لكثرة ما كان بها من الصنائع ، مثل صناعة السيوف [1] وصناعة نسج [2] الحرير والصوف ، ولأن بقعتها من

(١) يقال إن الرومانيين عند ما ملكوا طليطلة وجدوا فيها صناعة السيوف زاهرة ثم لما جاء العرب اليها وجدوها أيضا كما وجدها الرومانيون وإنما زادوها إتقاناً بما كان لأهل دمشق من رسوخ القدم فى هذه الصنعة . وبقيت طليطلة تصنع السيوف طول مدة العرب فيها ثم بعد أن رحلوا عنها مدة ستة قرون والناس تتنافس بالسيوف الطليطلية . ولكن عند ما جدت الأسلحة الحديثة فى أواخر القرن الثامن عشر قضت على سيوف طليطلة . وكان الطليطليون غير مقتصرين على صنعة السيوف بل كانوا يصنعون أيضاً ابر الفولاذ وكانوا يصنعون السروج وعدد الخيل والمهاميز وزرد الدروع . وكانت عندهم صناعة الخزف والصناعة المسماة فى دمشق بالقاشانى

(٢) كانت طليطلة مركزا لصناعة نسج الحرير والصوف والمخمل والأطلس بجميع أنواعها ولم تكن اشبيلية ولا قرطبة تفوقانها فى هذا وكان النساجون فى طليطلة وارباضها خمسين الف عامل . وفى القرن السادس عشر كانت فيها صنعة الطربوش فكان يعمل بها بضعة الآف عامل وكانوا يشحنون في ذلك الوقت إلى نحو من خمسة ملايين طربوش فى السنة إلى افريقية وإلى البلاد الشرقية . وكانوا يصنعون القلانس والكمم والطاقات المزركشة بأنواعها

ومما اشتهرت به طليطلة لذلك العهد صنعة الخبز التى كانت فيها المثل الأعلى وكانوا يصنعون نوعا من الاقراص بالسمن والسكر واللوز لم يكن أحد يباريهم فيه وكانت للخبازين فى طليطلة مكانة لا يستخف بها وأول كتاب فى الطبخ طبع فى اسبانية وكان طبعه سنة ١٥٢٥ فى طليطلة . ولا يزال إلى هذا اليوم مع تقلص عمران طليطلة محفوظاً بها بعض الشيء من ذلك الاتقان فى الخبز وهم يصنعون مربيات كثيرة من الفواكه

أما الصناعات الباقية إلى الآن فى طليطلة بعد أن سقطت عن معاليها القديمة فهى نسج الحرير والقطن ونقش المعادن على طرز دمشق مما يسمى فى اوربة بالاراباسك والادوات الكنسية والحفر والتنزيل فى الخشب وما أشبه ذلك . فطليطلة بعد أن نزل عدد سكانها من مائتى الف نسمة إلى عشرين الفاً لاتزال تعد من المدن الصناعية

أخصب بقاع الاندلس فكانت تبقى السنين الطوال والخلفاء يحاولون اخضاعها ، ويغادونها ويراوحونها بالجيوش ، وهي مع ذلك عزيزة منيعة ، ثابتة راسخة ، أمنع من عقاب الجو . وقد كان استرداد الاسبانيول لطليطلة مبدأ تأخر العرب بدون نزاع ، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسّال :

حُثُّوا رَوَاحِلَكُمْ يَا أَهْلَ أَنْدُلُسٍ ... فَمَا الْمُقَامُ بِهَا إِلاَّ مِنَ الْغَلَطِ

الثَّوْبُ يُنْسَلُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى ... ثَوْبَ الْجَزِيرَةِ مَنْسُولاً مِنَ الْوَسَطِ

مَنْ جَاوَرَ الشَّرَّ لاَ يَأْمَنْ عَوَاقِبَهُ ... كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَيَّاتِ فِي سَفَطِ ؟

وقد أصاب هذا الشاعر في قوله هذا ، لأنه لما استولى النصارى على طليطلة كانوا كأنهم دخلوا في وسط بلاد الاسلام ، وجاءت الاسلام الضربة في حامل رأسه لأنه كان المسلمون في ذلك الوقت لايزالون في سرقسطة ونواحيها ، وكان لايزال لهم قواعد وحواضر هي إلى الشمال من طليطلة . ثم إن موقع طليطلة بمنعته الخارقة للعادة جعلت الأسبانيول منها في حصن حصين لا يؤتى وعصمتهم في حرز حريز لا يؤخذ ، وهم أنفسهم لم يقدروا على طليطلة في حقيقة الأمر إلا بفساد أحوال المسلمين ، والفتن التي كانت بينهم . وخلاصة الأمر أنه بعد أن نشبت الفتنة الكبرى في قرطبة بين العرب والبربر ، وانتثر السلك ، ونجمت الملوك الذين يقال لهم ملوك الطوائف ، استبد بأمر طليطلة بنو ذي النون ، كما سيأتي الكلام عليه ، فوقعت العداوة بينهم وبين بني هود الذين استقلوا بسرقسطة ، وتوالت الوقائع بين الفريقين ، وكل منهما يستظهر بالاسبانيول على الآخر

ولنأتك بمثال ننقله لك عن ابن عذاري المراكشي في كتابه « المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » وهو خير كتاب عرّف بأخبار الأندلس . قال عند ذكره سقوط طليطلة : « وخرج فرديلند الطاغية أيضا المظاهر لسليمان بن هود ، وهو فردلند بن شانجة ، أمير جليقية إلى ثغر طليطلة في خلق كثير . وجاءه ابن عم

ابن ذى النون ليدله على عورات البلاد ، وتهارب الناس أمامه من كل جهة إلى طليطلة حتى غصت بهم ، واضطربت أحوال أهلها . كل ذلك وأميرهم يحيى بن ذى النون غائب عنهم بجيشه فى مدينة سالم ، مقيم بها لئلا يدخلها ابن هود فلما تيقن بخروج هذا اللعين إلى عمله ، وضجت رعيته إليه ، جاء فى جموعه ، فلم يصنع شيئا ولا قدر على لقائه (أى على لقاء الطاغية) واضطربت أحوال الناس بطليطلة خلال ذلك ، فلما رأى ذلك أهل طليطلة أرسلوا إلى الطاغية فردلند المظاهر لابن هود ليعقدوا معه صلحاً على بلدهم طليطلة وما حولها على مال يؤدونه إليه و يرحل عنهم . فقال لهم : ما أجيبكم إلى سلم ، ولا أعفيكم من حرب ، حتى تفعلوا كذا وكذا . واشترط عليهم شروطاً لا يقدرون عليها . فقالوا : لو كنا نقدر على هذه الأشياء وهذه الأموال لأنفقناها على البرابرة ، واستدعيناهم لكشف هذه المعضلة . فقال لهم فرلند : « أما قولكم لا تقدرون على هذه الأموال فذلك محال ، فلو كسفت سقوف بيوتكم لبرقت ذهباً لكثرته ، وأما استدعاؤكم البرابرة فأمر تكثرون به علينا ، وتهددوننا به ، ولا تقدرون عليه مع عداوتهم لكم ، ونحن قد صمدنا إليكم ، مانبالى من أتانا منكم ، فانما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديما فى أول أمركم ، فقد سكنتموها ماقضى لكم ، وقد نصرنا الآن عليكم بردائتكم ، فارحلوا إلى عدوتكم ، واتركوا لنا بلادنا ، فلا خير لكم فى سكناكم معنا بعد اليوم ، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا و بينكم » اهـ .

فلم يجد رسل أهل طليطلة عند فردلند وأصحابه النصارى قبولا لما عرضوه عليهم من الصلح .

وكان أخو هذا العلج صاحب يحيى بن ذى النون مظاهراً له فخرج فى هذه السنة إلى بلاد ابن هود فوطئها ، وأغلظ فى اهلاكها ، وأخل بالثغر الأعلى ، ففعل أخيه فردلند فى نظر ابن ذى النون ، ودامت الفتنة بين هذين الأميرين ، ابن هود وابن ذى النون ، على هذه الحال من سنة خمس وثلاثين إلى آخر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة وانقطعت بموت سليمان بن هود فى السنة المذكورة . ولما تنفس مخنق ابن ذى النون

بموت سليمان المذكور جعل يطلب جاره ابن الأفطس صاحب بطليوس فجرت له معه حروب كثيرة الخ

قلنا إن بيت القصيد فى هذا التاريخ هو قول الطاغية : « وقد نُصِرنا عليكم بردائتكم » . جاء فى نفح الطيب : ومن أول ما استرد الافرنج من مدن الأندلس العظيمة مدينة طليطلة من يد ابن ذى النون سنة ٤٧٥ . وقال بعض المؤرخين : أخذ الأذفونش طليطلة من صاحبها القادر بالله ابن المأمون يحيى بن ذى النون بعد أن حاصرها سبع سنين ، وكان أخذه لها فى منتصف محرم سنة ٤٧٨ اه . وفيه بعض مخالفة لما قبله ، وسيأتي قريباً بعض ما يؤيده . قال : وهى مدينة حصينة قديمة أزليّة ، من بناء العمالقة ، على ضفة النهر الكبير [١] . ولها قصبة حصينة فى غاية المنعة ولها قنطرة واحدة عجيبة البنيان ، على قوس واحد ، والماء يدخل تحته بعنف وشدة جرى . ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها فى الجو تسعون زراعاً ، وهى تصعد الماء إلى أعلى القنطرة ، ويجرى الماء على ظهرها فيدخل المدينة .

وطليطلة هذه دار مملكة الروم ، وبها كان البيت المغلق الذي كانوا يتحامون فتحه ، حتى فتحه لذريق فوجد فيه صورة العرب اه .

وقد حكي ابن بدرون فى شرح العبدونية أن المأمون يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة بنى بها قصراً تأنق فى بنائه ، وأنفق فيه مالا كثيراً ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة ، وسيق الماء إلى رأس القبة ، على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها ، محيطاً بها ، متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة فى غلالة من ماء سكب [٢] لا يفتر ، والمأمون ابن ذى النون قاعد فيها لا يمسه من الماء

(١) العمالقة المعروفون فى التاريخ لم يكونوا البانين لطليطلة ولكن العرب يطلقون لفظة عمالقة على جميع الأقدمين الذين اشتهروا بالقوة والعظامة وأما قولهم النهر الكبير فان كان يريد به نهر تاجه فهو صحيح لأنه من أكبر أنهار الاندلس ولكن جرت العادة بأن يسمى بالوادى الكبير نهر قرطبة النازل إلى اشبيلية وهو غير تاجه كما لا يخفى

(٢) إن طليطلة هي من الأقاليم المعتدلة فى اسبانية ولكن الحر يشتد فيها جدا أيام

شيء ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل ، فبينما هو فيها إذ سمع منشداً ينشد :

أَتَبْنِي بِنَاءَ الخالدين وَإِنَّمَا بقاؤُكَ فيها لو عَلِمْتَ قَلِيلُ
لَقَدْ كَانَ فِي ظِلِّ الأَرَاكِ كِفَايَةٌ لِمَنْ كُلَّ يَوْمٍ يَعْتَرِيهِ رَحِيلُ

فلم يلبث بعد هذا إلاّ يسيراً حتى قضى نحبه . اهـ .

وقال ابن خلكان : إن طليطلة أُخذت يوم الثلاثاء مستهل صفر سنة ٤٧٨ بعد حصار شديد . وقال ابن علقمة : إن طليطلة أخذت يوم الاربعا لعشر خلون من المحرم سنة ٤٧٨ ، وكانت وقعة الزلاّقة التى نشأت فى السنة بعدها اهـ .

وجاء فى دليل بديكر أن الأذفونش السادس ملك قشتالة دخل طليطلة ومعه السيد (١) فى ٢٥ مايو ١٠٨٥ ونقل كرسى الملك من برغش إلى طليطلة عام ١٠٨٧ وجعل مطران طليطلة هو أسقف اسبانية الأعظم ، و بدأوا ببناء الكنائس والأديار فأكثروا منها . ولكن المدينة العربية بقيت حافظة سيادتها فى وجه الحملة المسيحية، و بقى الناس فى طليطلة يبنون مدة قرون متطاولة على الطرز العربى (إلى أن قال) وكان أساقفة طليطلة مثل لوذريقة وفونسيقة وتنووريو ومندوسة . وشيمينيس وطلبيرة ولورنسانة هم أصحاب الأمر والنهى فى البلدة ، وكان دخل الأسقفية السنوى ثلاثمائة الف دوكة ، وكان فى دار الأسقفية ١٥٠ قسيساً هم حاشية برماط اسبانية ، وكانت لهم عناية بالعلوم والآداب (٢) وكانوا أيضاً يسوقون الجيوش إلى القتال

الصيف بما يلفحها من رياح افريقية حتى تبلغ درجة الحرارة فيها أربعين بميزان سنتيغراد وهى تجمع الاضداد ففى الشتاء تنزل درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر ولكن لا يطول فصل البرد الشديد أكثر من شهر واحد وفصل الربيع فيها لا يطول أيضاً بل يبدأ الحر فيها من شهر مايو . وأحسن فصولها هو الخريف

(١) Le Cid وهو القمبيذور الذى سبق ذكره عند ذكر مدينة برغش

(٢) فى دار الاسقفية خزانة كتب مفتوحة للزائرين ثلاث ساعات قبل الظهر ولكن خزانة كتب الكنيسة الكبرى هى أهم بكثير وفيها مخطوطات نفيسة واسفار من الطبع القديم . وليس اليوم فى طليطلة معاهد علمية تستحق الذكر كما كان فى الماضى فقد

فأسماؤهم داخلة فى جميع الحوادث الكبيرة فى عصرهم . ولقد كان الكردينال بطروه غونزاليس مندوزه هو الذى أغرى أكثر من الجميع بقتال مملكة غرناطة اه .

ولنذكر الآن ما جاء فى معجم البلدان عن طليطلة قال : طليطلة ، هكذا ضبطه الحميدى . بضم الطائين ، وفتح اللام ، وأكثر ما سمعناه من المغاربة بضم الأولى وفتح الثانية مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس ، يتصل عملها بعمل وادى الحجارة ، وهى غربى ثغر الروم ، و بين الجوف [1] والشرق من قرطبة . وكانت قاعدة ملوك القوطيين ، وموضع قرارهم ، وهى على شاطىء نهر تاجه ، وعليه القنطرة التى يعجز الواصف عن وصفها . وقد ذكر قوم أنها مدينة دقيانوس صاحب أهل الكهف . قال : و بالقرب منها موضع يقال له جنان الورد ، فيه أجساد أهل الكهف لا تبلى إلى الآن ، والله أعلم . وقد قيل فيهم غير ذلك ، كما ذكر فى الرقيم ، وهى من أجل المدن قدراً ، وأعظمها خطراً . ومن خاصيتها أن الغلال تبقى فى مطاميرها سبعين سنة لا تتغير ، وزعفرانها هو الغاية فى الجودة . و بينها و بين قرطبة سبعة أيام للفارس وما زالت فى أيدى المسلمين منذ أيام الفتوح إلى أن ملكها الافرنج فى سنة ٤٧٧ [2]

كان أمرها فى زمن العرب معلوماً وسيرى القارىء من كثرة عدد من خرج منها من العلماء والادباء درجة رقيها العلمى فى الدور العربى . ولما عاد الاسبانيول إليها وردوها عاصمة لهم لم تبلغ الدرجة التى كانت عليها لعهد العرب لأن مدنية العرب كانت بلاجدال أرقى جداً من مدنية الاسبانيول . إلا أنه فى القرن الخامس عشر بنى الاسبانيول فيها مدرسة جامعة وظهرت فيها نهضة علمية وتحولت قصور عبد الله بن موسى أحد امراء طليطلة لعهد العرب معاهد للتدريس ولكن انتقال الحكومة إلى مجريط رد طليطلة إلى الدرجة الثانية بل الثالثة من جهة العلم والتعليم

(١) يستعمل ياقوت الحموى هنا لفظة الجوف بمعنى الشمال على نسق المغاربة

(٢) روى بعضهم أن استيلاء الفرنج على طليطلة وقع فى سنة ٤٧٥ وروى آخرون أنه وقع سنة ٤٧٧ وروى آخرون أنه فى سنة ٤٧٨ وهى أصح الروايات وأما بالتاريخ المسيحى فدخول الاذفونش السادس إلى طليطلة فاتحاً كان فى ٢٥ مايو عام ١٠٨٥ .

وكان الذى سلمها اليهم يحيى بن يحيى بن ذى النون ، الملقب بالقادر بالله ، وهى الآن فى أيديهم (إلى أن قال) : ينسب اليها جماعة من العلماء ، منهم أبو عبدالله الطليطلى روى كتاب مسلم بن الحجّاج ، توفى يوم الأربعاء الثانى عشر من صفر سنة ٤٥٨ وعيسى بن دينار بن واقد الغافقى الطليطلى ، سكن قرطبة ، ورحل ، وسمع من أبى القاسم ، وصحبه ، وعوّل عليه ، وانصرف إلى الأندلس ، فكانت الفتيا تدور عليه ، لا يتقدمه فى وقته أحد . قال ابن الفرضى : قال يحيى بن مالك بن عائذ : سمعت محمد بن عبد الملك بن أيمن يقول : كان عيسى بن دينار عالماً متفنناً ، وهو الذى علّم المسائل أهل عصرنا .

وكان أفقه من يحيى بن يحيى ، على جلالة قدر يحيى . وكان محمد بن عمر بن لبابة يقول : فقيه الاندلس عيسى بن دينار ، وعالمها عبد الملك بن حبيب ، وعاقلها يحيى ابن يحيى . وتوفى سنة ٢١٢ بطليطلة ، وقبره بها معروف . ومحمد بن عبد الله بن عيشون الطليطلى أبو عبد الله ، كان فقيهاً ، وله مختصر فى الفقه ، وكتاب فى توجيه حديث الموطأ ، وسمع كثيراً من الحديث ، ورواه . وله إلى المشرق رحلة ، سمع فيها من جماعة ، وتوفى بطليطلة لتسع ليال خلون من صفر سنة ٣٤١ اهـ كلام ياقوت

ولما تغلب الاسبانيول على طليطلة اهتز لذلك الاسلام ، وأدرك العقلاء سوء المصير ، لأن ذهاب هذه القاعدة من أيدى المسلمين ، وهى فى وسط أسبانية ، كان مقدمة حوادث كبار توقعوها ، ولم يخطئوا فى حسبانهم لها . وقد كانت وقعة الزلاقة فى السنة التالية ، وهى التى أجاز فيها يوسف بن تاشفين إلى الأندلس اصراخاً لمسلميها هى نتيجة سقوط طليطلة فى أيدى النصارى . و بالرغم من كون ابن تاشفين أحرز فى وقعة الزلاقة نصراً عزيزاً ، وفتحاً مبيناً ، وخضد شوكة الاسبانيول فى ذلك اليوم ، فانه لم يتمكن من استرداد طليطلة ، و بقيت العلة فى محلها ، و إنما تأخر انحلال دولة الاسلام فى الأندلس بواسطة المرابطين ، ثم بواسطة الموحدين نحواً من ثلاثمائة سنة

ولنذكر هنا مرثية قيلت لدى سقوط طليطلة ، وحتى الآن لم نعرف اسم قائلها ، ونحن ننقلها عن نفح الطيب كما هي . وهي هذه :

لِثُكْلِكِ كَيْفَ تَبْتَسِمُ الثُّغُورُ   سُرُورًا بَعْدَ مَا بَئِسَتْ ثُغُورُ ؟ !

أَمَا وَأَبِي مُصَابٌ هُدَّ مِنْهُ   ثَبِيرُ الدِّينِ ، فَاتَّصَلَ الثُّبُورُ

لَقَدْ قُصِمَتْ ظُهُورٌ حِينَ قَالُوا :   أَمِيرُ الْكَافِرِينَ لَهُ ظُهُورُ

تَرَى فِي الدَّهْرِ مَسْرُورًا بِعَيْشٍ ؟   مَضَى عَنَّا لِطِيَّتِهِ السُّرُورُ !

أَلَيْسَ بِنَا أَبِيُّ النَّفْسِ شَهْمٌ   يُدِيرُ عَلَى الدَّوَائِرِ إِذْ تَدُورُ ؟ !

لَقَدْ خَضَعَتْ رِقَابٌ كُنَّ غُلْبًا   وَزَالَ عُتُوُّهَا وَمَضَى النُّفُورُ

وهَانَ عَلَى عَزِيزِ الْقَوْمِ ذُلٌّ   وَسَامَحَ فِي الْحَرِيمِ فَتًى غَيُورُ

طُلَيْطُلَةٌ أَبَاحَ الْكُفْرُ مِنها   حِمَاهَا ! إِنَّ ذَا نَبَأٌ كَبِيرُ !

فَلَيْسَ مِثَالَهَا إِيوَانُ كِسْرَى   وَلاَ مِنْهَا الْخَوَرْنَقُ وَالسَّدِيرُ

مُحَصَّنَةٌ مُحَسَّنَةٌ بَعِيدٌ   تَنَاوُلُهَا ، وَمَطْلَبُهَا عَسِيرُ

أَلَمْ تَكُ مَعْقِلاً لِلدِّينِ صَعْبًا   فَذَلَّلَهُ كَمَا شَاءَ الْقَدِيرُ

وَأَخْرَجَ أَهْلَهَا مِنْهَا جَمِيعًا   فَصَارُوا حَيْثُ شَاءَ بِهِمْ مَصِيرُ

وَكَانَتْ دَارَ إِيمَانٍ وَعِلْمٍ   مَعَالِمُهَا الَّتِي طُمِسَتْ تُنِيرُ

فَعَادَتْ دَارَ كُفْرٍ مُصْطَفَاةٌ   قَدِ اضْطَرَبَتْ بِأَهْلِيهَا الْأُمُورُ

مَسَاجِدُهَا كَنَائِسُ ! أَيُّ قَلْبٍ   عَلَى هَذَا يَقَرُّ وَلاَ يَطِيرُ ؟ !

فَيَا أَسَفَاهُ ! أَسَفَاهُ ! حُزْنًا   يُكَرَّرُ مَا تَكَرَّرَتِ الدُّهُورُ

وَيُنْشَرُ كُلُّ حُسْنٍ لَيْسَ يُطْوَى   إِلَى يَوْمٍ يَكُونُ بِهِ النُّشُورُ

أُدِيلَتْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ كَانَتْ   مَصُونَاتٍ مَسَاكِنُهَا الْقُصُورُ

وَأَدْرَكَهَا فُتُورٌ فِي انْتِظَارٍ   لِسِرْبٍ فِي لَوَاحِظِهِ فُتُورُ

وكانَ بِنَا وَبِالقَيناتِ أَوْلَى لَوْ انْضَمَّتْ على الكلِّ القُبورُ
لَقَدْ سَخُنَتْ بِحالتِهِنَّ عَيْنٌ وكَيفَ يَصِحُّ مَغْلُوبٌ قَرِيرُ ؟
لَئِنْ غِبْنا عَنِ الإِخْوَانِ إِنَّا بأحزانٍ وَأَشْجَانٍ حُضورُ
نذُورٌ كانَ للأَيَّامِ فيهِمْ بِمَلكِهِم فقد وفَتْ النذورُ
فإِنْ قُلْنَا العقوبةُ أَدْرَكَتْهُمْ وجاءَهُمُ مِنَ اللهِ النَّكِيرُ
فإِنَّا مِثْلُهم وَأَشَدُّ مِنهمْ نَجُورُ ، وَكَيفَ يَسْلَمُ مَنْ يَجُورُ ؟
أَنَأْمَنُ أَنْ يَحُلَّ بِنَا انْتِقَامٌ وفينا الفسقُ أَجْمَعُ وَالفُجُورُ ؟
وَأَكْلٌ لِلْحَرَامِ ولاَ اضطِرارٌ إليهِ ، فَيَسْهُلُ الأمرُ العسيرُ
ولكن جُرْأَةٌ في عُقْرِ دَارٍ كذلكَ يفعَلُ الكَلْبُ العَقُورُ
يزولُ السَّترُ عَنْ قَوْمٍ إذا ما على العِصْيانِ أُرْخِيَتْ السُّتورُ
يطولُ عليَّ ليلِي ، رُبَّ خطبٍ يطولُ لِهولِهِ اللَّيْلُ القصيرُ
خُذوا ثارَ الدِّيَانَةِ وانصرُوها فَقَدْ حَامَتْ على القَتْلَى النُّسورُ !
ولا تَهِنُوا وسُلُّوا كلَّ عَضْبٍ تهابُ مضاربا عنهُ النحورُ
وَمُوتوا كُلُّكُمْ فالمَوْتُ أَولى بكم ، منْ أَنْ تُجَارُوا أَوْ تَجُورُوا
أَصَبْرًا بَعْدَ سَبْيٍ وامْتِحَانٍ يُلامُ عَلَيْهِما القَلْبُ الصَّبُورُ ! ؟
فَأُمُّ الصَّبْرِ مِذكارٌ وَلُودٌ وأُمُّ الصقرِ مِقْلاتٌ نَزُورُ
نَخُورُ إِذَا دُهِينَا بالرَّزَايَا وليس بِمعجبٍ بَقَرٌ تَخُورُ
وَنَجْبُنُ ليس نَزْأَرُ ، لو شَجُعْنا ولم نَجْبُنْ لَكانَ لَنا زَئِيرُ
لَقَدْ سَاءَتْ بنَا الأَخْبَارُ حَتَّى أَماتَ المخبرِينَ بِهَا الخبيرُ
أَتتنَا الكُتْبُ فيهَا كُلُّ شَرٍّ وَبشَّرَنا بأَنْحُسِنا البَشِيرُ
وقيلَ تَجَمَّعُوا لفِراقِ شَمْلٍ طُلَيطلةٌ تملَّكَها الكَفورُ

قُل فى خُطة فيها صَغارٌ يَشيب لِكَرْبِها الطفلُ الصَّغيرُ
لَقد صَمَّ السَّميعُ فلم يُعَوِّل على نَبَاء كما عَمِيَ البَصيرُ
تُجاذِبُنَا الأعَادِي باصْطِنَاعٍ فينجذبُ المُمَوَّلُ وَالفقيرُ
فباقٍ فى الديانة تحت خِزْيٍ تثبِّطُه الشُّوَيْهَةُ والبَعيرُ
وَآخَرُ مَارِقٌ هَانَتْ عليْهِ مصائبُ دينِه فلهُ السَّعيرُ
كَفَى حَزَناً بأنَّ النَّاسَ قَالُوا إلى أيْنَ التَّحَوُّلُ وَالمَسِيرُ ؟
أنترُكُ دُورَنَا وَنَفِرُّ عَنْهَا ؟ وَلَيْسَ لَنَا وَرَاءَ البحرِ دُورُ
ولا ثَمَّ الضِيَاعُ تَرُوقُ حُسناً نُبَاكِرُها فيُعجبنَا البُكُورُ
وظِلٌّ وَارِفٌ وَخَرِيرُ مَاء فلا قُرٌّ هناكَ وَلا حَرُورُ
وَيُؤكَلُ مِنْ فَوَاكِهِهَا طرِيٌّ وَيُشْرَبُ من جَدَاوِلِها نَميرُ
يُؤدَّى مُغْرَمٌ فى كُلِّ شَهْرٍ ويؤخَذُ كلُّ صائفةٍ عُشُورُ
فهُمْ أحْمَى لِحَوْزَتِنَا وَأوْلَى بنا ، وَهُمُ الموالى وَالعَشيرُ
لقد ذَهَبَ اليقينُ فلاَ يَقِينٌ وغَرَّ القَوْمَ باللهِ الغَرُورُ
فلاَ دِينٌ ولا دُنيَا وَلَكِنْ غُرورٌ بالمَعِيشَةِ مَاغُرُورُ
رَضُوا بالرِّق ، يالله ! ماذا رَآه وَمَا أشَارَ به مُشيرُ ؟
مضى الاسلامُ فابكِ دَماً عَلَيْهِ ! فما يَنفِى الجَوَى الدمعُ الغزيرُ
وَنُحْ وَاندُبْ رفاقاً فى فَلاةٍ حَيارَى لا تَحُطُّ ولا تَسيرُ
ولا تجنحْ إلى سَلْمٍ وحارِبْ عَسى أنْ يُجْبَرَ العظْمُ الكَسيرُ
أنَعْمَى عن مرَاشِدِنَا جميعاً وما إنْ منهمُ إلاّ بَصِيرُ ؟ !
وَنَلْقَى واحِداً وَيفِرُّ جَمْعٌ كما عَنْ قَانِصٍ فرَّتْ حَميرُ !
ولو أنَّا ثَبَتْنَا كانَ خيراً ولكن مالَنَا كَرَمٌ وَخِيرُ

إذا ما لم يكن صَبْرٌ جَمِيلٌ فليسَ بنافعٍ عـدَدٌ كَثِيرُ
ألا رَجُلٌ له رَأْيٌ أصيلٌ به مِمَّا نُحَاذِرُ نَسْتَجِيرُ!
يَكُرّ إذَا السيوفُ تَنَاوَلَتْـهُ وأينَ بنا إذَا وَلَّتْ كُرُورُ؟
وطَعْنٌ بالقَنَا الخطَّارِ حَتَّى يقولُ الرمْحُ : ما هَذا الخطيرُ؟
عظيمٌ أن يكونَ الناسُ طُرّاً بأندُلُس : قتيلٌ، أو أسِـيرُ
أُذَكِّرُ بالقِرَاعِ اللَّيثَ حِرْصاً على أنْ يَقْرَعَ البيضَ الذُّكورُ
يبادرُ خَرْقَهَا قبلَ اتساعٍ لِخَطْبٍ مِنهُ تَنْخَسِفُ البُدورُ
يُوَسِّعُ لِلَّذِي يَلْقَاهُ صَـدْرًا فقد ضاقَتْ بِمَا تَلْقَى صُدُورُ
تَنَغَّصتِ الحَيَاةُ فلا حَيَاةٌ وودَّعَ جيرةٌ إذ لا مُجيرُ
.قليل فيهِ هَمٌّ مُسْتَكِنٌ وَيَوْمٌ فيـهِ شَرٌّ مُسْتَطِيرُ
ونرجو أن يُتيحَ اللهُ نَصْراً عليهم ، إنهُ نِعْمَ النَّصِيرُ!

ويقال فى قضية أخذ الأسبانيول لطليطلة النكتة الآتية : كان الاذفونش السادس قد فرّ من وجه أخيه شانجه ، فالتجأ الى ابن ذى النون ملك طليطلة ، فسمح له بالاقامة عنده ، ولم يكن من عادة العرب أن يستنكفوا فى وقت من الأوقات من إيواء الدخيل . وكان المسلمون أنفسهم اذا حزب الواحد منهم أمر يذهب نزيلا عند أحد ملوك النصارى ، وكم التجأ فيما بعد مسلمون من غرناطة الى اشبيلية ، ونصارى من اشبيلية الى غرناطة فالمأمون ابن ذي النون تلقى الاذفونش أوانئذ براً وترحيباً ، وائتلف الضيف والمضيف وكانا يذهبان معاً إلى الصيد ، وكانت أرض طليطلة شجراء ، أكثر جداً مما هي اليوم فبينما ذات يوم المأمون والاذفونش فى إحدى الجنان بجوار طليطلة ، أدركت القائلة الاذفونش ، فاضطجع فى ظل شجرة ، وجلس المأمون يتحدث إلى أصحابه على مقربة منه ، فبينما هم فى الحديث ، عنّ لهم موضوع طليطلة وما هى عليه من المَنَعة الطبيعية ،

على شفير ذلك الوادي العميق . فأجمع من حضر من أهل النظر على أن طليطلة لاتؤخذ ولا ينال منها مرام . فانبرى أحد الذين كانوا فى ذلك المجلس ، وخالف رأى الجماعة ، وقال إنه يكفى لتذليل طليطلة ، أن يعمد العدو إلى ضواحيها فيجتاحها ، ويقطع الميرة عن أهلها ، فيضطروا إلى التسليم . فان لم يمكن أخذ طليطلة بالسيف فيمكن جداً أخذها بالجوع .

وكان الأذفونش بين النائم والواعى . فلما سمع الحديث عن أخذ طليطلة ، أصغى إليه ، وتنبه له ، ووعى كل ماسمعه . ولكنه أسرّها فى نفسه ، ولم يشعر القوم بأنه سمع مما قيل شيئا . ثم إنه لما جلس على عرش قشتالة تذكر ذلك المجلس ، وعمل برأى من قال إن طليطلة قد تؤخذ بالحصر والجوع .

ويظهر من هنا أن الاذفونش لم يكن يجهل العربية ، لأن ابن ذى النون وجماعته إنما تكلموا فى تلك القائلة بالعربية ، لا بالاسبانيولية . فلو لم يكن الأذفونش عارفا بالعربية لما فهم الحديث

والخلاصة أنه حاصر طليطلة عدة سنوات وعاث فى نواحيها ، وقطع الميرة التى كانت تأتيها من ضواحيها ، وما زال يجوّع أهلها حتى أخذها فى ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ كما تقدم

وقيل ، وهو الأرجح ، إنه استولى على تلك البلدة بدون عناء كبير ، بل باقناعه القادر بن المأمون بن ذى النون بأنه يكون خيرا له لو ذهب إلى بلنسية ، وملك فيها وهى في بحبوحة من الاسلام ، وترك له طليطلة الواقعة دائما فى حلق العدو .

وقد أجمع المؤرخون على سوء تدبير القادر بن ذى النون ، وأنه لم يكن كفؤاً لعروس مثل طليطلة ، فكان وجوده فيها السبب فى ذهابها من يد الاسلام . وكان ذلك نبأً كبيراً ، كما جاء فى مرثية طليطلة ، لان القشتاليين أخذوا بعدها بمخنق الاسلام وبركوا على قلبه فى جزيرة الأندلس ، وصار بعدها ثغرُه مُعْوِرا وأمرُه مدبرا .

وأصل بنى ذى النون من البربر الذين كانوا فى خدمة الدولة العامرية . وروى

ابن عذارى أن اسم جدّهم لم يكن « ذا النون » ، وإنما كان « زنون » ، وهو اسم من أسماء البربر فتصحف بطول المدة ، وصار « ذا النون » بالذال .

قال : ولم يكن لهؤلاء القوم نباهة قديمة ، ولا ذكر إلا فى دولة ابن أبى عامر ، فانهم تقدموا فى دولته واشتهروا ، فكان منهم من يقود الجيوش ، ويلى الأعمال والبلاد . وكان منهم فى آخر أمد الجماعة وال بكورة « شنت برِيه » ، فلما وقعت الفتنة بالأندلس كان الوالى بمدينة طليطلة وذوابّها عبد الرحمن بن منيوه ، وأدركته منيته فى خلال ذلك، فورث نظره عبدالملك بن عبد الرحمن بن منيوه ، فأساء السيرة بالرعية . وكان أهل طليطلة على قديم الدهر أهل فتنة وقيام على الملوك ، فلم يرضوا سيرة هذا الفتى فخلعوه ، وولوا على أنفسهم من ينظر فى أمرهم . ثم إنهم نقموا عليه شيئا فعزلوه وولوا غيره ، ثم خلعوه . ثم رأوا أن يرسلوا إلى ابن ذى النون بشنت برِيه ، فوجه إليهم ابنه اسماعيل بن عبدالرحمن بن ذى النون . فاستولى هذا الفتى على ملك طليطلة وبلادها ، فساس أهل مملكته السياسة الحسنة

وكان أكبر أهل طليطلة رجلا يسمى أبا بكر بن الحديدى ، وكان شيخها ، والمنظور اليه بها من أهل العلم ، والعقل والدهاء ، وحسن النظر فى صلاح البلد . وكانت العامة تعضده ، وتقوم دونه ، فكان هذا الفتى اسماعيل بن ذى النون لايقطع أمراً دونه ، ويشاوره فى مهمات أموره ، فحسده قوم من أهل طليطلة على منزلته عند أميرهم ، فناقشوه وعادوه ، وحضرت منية اسماعيل بن ذى النون ، فولى بعده ابنه يحيى بن اسماعيل الملقب بالمأمون ، ولما ملك يحيى بن ذى النون طليطلة جرى على سيرة أبيه فى استعمال قانون العدل ، وجرى مع بن الحديدى على سنن أبيه ، فاستقامت طاعته ، وضخم ملكه . انتهى . قلنا ولم يكن القادر بن المأمون على شىء مما كان عليه أبوه فلذلك أضاع تلك البلدة العذراء ، والخطة الغراء ، وأى ملك أضاع ! وأى ثغر مكن منه عدو الاسلام ، فتمكن بقدر ما استطاع ؟ !

ولنذكر هنا ملخصاً ما قاله المستشرق لاوى بروفنسال فى الانسيكلوبيدية

الاسلامية قال : توليدو ، وبالعربى طليطلة ، مدينة فى اسبانية ، موقعها فى وسط الجزيرة الايبيرية على مسافة ٩١ كيلو متراً إلى الجنوب ، والجنوب الغربى من مجريط وارتفاعها عن سطح البحر ٥٦٨ متراً ، وهى على أكمة من الصخر ، يحيط بها نهر تاجُه من الجهات الثلاث ، جاريا فى واد عميق ، يسقى حفافيه إلى الشمال الشرقى ، والشمال الغربى ، بقعة بديعة مريعة ، ومن بعدها ترى بسائط قشتالة الجرداء . وليس فى طليطلة اليوم أكثر من ٢٥ ألف نسمه من السكان ، إلا أنها لا تزال مركز ولاية ، ولايزال فيها كرسى الأسقف الأعظم برماط اسبانية . وأما موقعها فلايضاهيه موقع فى العظمة .

وقد ذكرها جغرافيو العرب فأطالوا ، وقصروا ، وجعلها الشريف الادريسى من إقليم الشارات ، وفى زمانه كانت طليطلة انتقلت إلى أيدى الاسبانيول ، وإنما نوه الإدريسى بمنعة موقعها ، وبحصانة أسوارها ، وبالتفاف جنانها التى تجرى فيها قنىّ الماء المرفوع بالنواعير .

وممن أطرى طليطلة أبو الفداء الذى ذكر بساتينها ، وقال إنه يوجد فيها رمان ذو حجم غير معهود . وقال ياقوت الحموى : إن الحنطة التى تنبتها بقعة طليطلة تبقى سبعين سنة ولا تتعفن ، وإن زعفرانها هو بغاية الجودة . وقد ذكر طليطلة المؤرخ الرومانى تيتليف وسماها « توليته » وقال : إن الرومانيين استولوا عليها بصعوبة سنة ١٩٣ ق . م . وذلك فى زمن فولفيوس Fulvues ، وكانت مدينة زاهرة لعهد الرومان وصار لها شأن عظيم بعد انتشار النصرانية . وفى سنة أربعمائة للمسيح انعقد فيها مجمع أساقفة حضره ١٩ أسقفا ، وفى سنة ٤١٨ استولى عليها القوط ، وجعلوها حاضرة ملكهم . وفى سنة ٥٦٧ استقر بها «أتاناجلد» ملك القوط ، ولما تنصرر يكاريد سنة ٥٨٧ عظم شأنها ، وصارت عاصمة الكثلكة فى اسبانية . وفى طليطلة كان لذريق ملك اسبانية ، ويتحدثون أنه فيها شاهد فلورندة ابنة الكونت يوليان صاحب سبتة تغتسل فى الحمام ، الذى يقال له حمام الكهف ، فهام بها ، ولما فتح طليطلة طارق بن

زياد سنة ٩٢ للهجرة ، او ٧١٤ للميلاد ، كانت تقريباً خاوية على عروشها ، ولم يكن فيها غير نزر من اليهود ، ضمهم طارق إلى جيشه . ثم وافاه الجيش الذى كان سرحه لأخذ غرناطة ومرسية . وفى طليطلة جعل مؤرخو العرب ملتقى طارق مع موسى ابن نصير سيده ، ولكن موسى لم يتريث فى طليطلة ، بل ساق منها إلى الشمال قاصداً سرقسطة . وجميع من كتبوا من العرب عن الأندلس ينقلون الأخبار التى كانت شائعة ، والتى هى أشبه بالأساطير منها بالحقائق عن الكنوز والأموال التى وجدها العرب فى طليطلة عند ما فتحوها ، وأشهر هذه الأخبار قصة « البيت المغلق فى طليطلة » وقد بحث فى هذا الموضوع بحثا دقيقا المسيو « رينى باسه » René Basset فى رسالة ألفها سنة ١٨٩٨ .

ويدور ذكر طليطلة كثيراً فى كتب العرب ، ولا سيما من بعد استقرار دولة بنى أمية فى قرطبة ، فان طليطلة لم تكن تطيع قرطبة ، وأصبحت مركز عصيان دائم على الدولة ، ومما لا شك فيه أن السواد الأعظم من أهلها بعد استيلاء الاسلام عليها لم يتركوا الديانة الكاثوليكية برغم استعرابهم ، وأنهم كانوا لا يطيقون حكم المسلمين برغم شدة تسامح هؤلاء ، فكانوا لا يدعون فرصة تمر ، ولا غِرة تلوح ، حتى يطغوا و يتمردوا

وفى طليطلة وجدت الثورة البربرية التى وقعت سنة ١٢٢ للهجرة أعظم أنصارها و بجانب طليطلة كانت واقعة وادى السليط التى استأصل فيها جيش قرطبة دابر ثوار طليطلة .

ثم الى طليطلة هذه انهزم يوسف الفهرى من وجه عبد الرحمن الداخل ، و بقى ممتنعاً بها حتى قتل [1] سنة ١٤٢ ، ومن زمن عبد الرحمن الداخل إلى زمن عبد الرحمن

(١) بعد أن تمت الغلبة لعبد الرحمن الداخل على يوسف الفهرى فى خبر سنأتى على تفصيله فى قسم التاريخ إن شاء الله ، فر يوسف إلى « فريش » ثم إلى « فحص البلوط » كما جاء فى كتاب « اخبار مجموعة » أقدم تاريخ عربى للاندلس ، ثم واقع محجة طليطلة



الناصر لم تفترّ طليطلة يوماً واحداً عن المقاومة ، وفى سنة ١٤٧ ثار فيها هشام بن عذره فرماه عبد الرحمن باثنين من قواده : بدر وتمام بن علقمة اللذين حصرا المدينة [1] ،

يريد بن عروة ، ليأمن عنده ، وهو إلى طليطلة على عشرة أميال ، فمر بعبد الله بن عمر الانصارى . وهو بقرية من قرى طليطلة ، فقيل له : هذا يوسف منهزماً . فقال لأصحابه : ويحكم ! اخرجوا بنا نقتله ، ونريح الدنيا منه ، ونريحه من الدنيا ، ونريح الناس من شره ، فقد صار رجلا ناجشا للحرب . فخرج حتى لحقه ، وليس بينه وبين مدينة طليطلة إلا أربعة أميال ، وليس معه إلا سابق الفارسى ، مولى لبنى تميم ، ومن يجهله يقول مولى يوسف . وبقيته بسرقسطة ، ووصيف واحد فقط ، وقد ماتوا من شدة الركض . وليس معهم منعة ولا مدفع ، فقتل عبد الله يوسف الفهرى ، وقتل سابق ، وهرب الغلام حتى دخل طليطلة . ثم أقبل عبد الله بن عمر برأس يوسف ، فلما بلغ ابن معاوية (أى عبد الرحمن الداخل) إقبال عبد الله بن عمر برأس يوسف أمر بضرب عنق عبد الرحمن بن يوسف المكنى بأبى زيد ، وكان عليه حردا لما صنع بعياله ، ثم أخرج رأسه إلى رأس أبيه . اهـ قلنا ظاهر من هذا النص ، وصاحبه أدرى بالحقيقة لأنه أقرب عهداً بالحوادث المذكورة ، ان يوسف الفهرى لم يكن دخل طليطلة ، وإنما كان قاصدا دخولها يوم قتله عبد الله بن عمر الانصارى

(١) الذى فى « أخبار مجموعة » هو هشام بن عروة الفهرى ، لا هشام بن عذره ؟ ولا نعلم هل التصحيف فى كلام أخبار مجموعة أو فى كلام لاوى بروفنسال ؟ وقال فى « أخبار مجموعة » إنه كان مع هشام فى الثورة حياة بن الوليد التجيبى والعمرى من ولد عمر بن الخطاب رحمه الله فخرج إليه الأمير عبد الرحمن إلى طليطلة فحاصره فيها فلما عضته الحرب ، وناله الحصار ، دعا إلى الصلح وأعطى ولده رهينة ، ورجع عنه الأمير. فلما انصرف عنه خلع أيضا ، وعاد إلى نفاقه ، فغزاه الأمير السنة الثانية ، فنزل به وحاربه ودعاه إلى الرجوع فصبر ، فلما يئس منه أمر بابنه الرهينة فضربت عنقه ، ثم جعل الرأس فى المنجنيق ورمى به إليه فسقط فى المدينة ، ورجع عنه ذلك العام (إلى أن يقول) ثم رجع الأمير ، وبعث بعد ذلك بدراً مولاه ، وتمام بن علقمة إلى طليطلة لحاصر هشام بن عروة ، وقطع الأمير البعوث على الأجناد ، وجعلها بينهم دولا فى كل ستة أشهر. فاذا انقضت دولة ندب أخرى ، حتى مل أهل المدينة الحصار ، واستثقلوا الحرب ، وكاتبهم مع ذلك تمام وبدر ، فاسلموا هشاماً والعمرى وحياة (إلى أن يقول) ثم أمر بهم الأمير فقتلوا وصلبوا

ولما تولى هشام الاول ونازعه أخوه سليمان، ذهب هذا إلى طليطلة ، والتزم الاميرهشام أن يذهب ويحاصر طليطلة ، و بعد حصار شهرين رجع عنها خائباً . وسنة ١٨١ تولى الحكم بن هشام فثارت عليه أيضاً طليطلة بقيادة رجل اسمه عبيدة بن حُميد ، وكان أكثر من يغرى أهل طليطلة بالثورة شاعرهم غِربيب ، الذى كانوا يحبونه[١] حباً جماً ، فولي الامير الحكم على طليطلة مولّداً أصله من وشقه ، اسمه عمروس ، وكان اتفق مع الامير أن يأخذ أهل طليطلة في شَرَك يوقعهم فيه ، وذلك انه دعاهم وقتلهم جميعاً ، في الواقعة المسماة بواقعة الحفرة[٢] (سنة ١٩١) ولكن لم يمض أكثر من عشر سنوات

(١) قال فى النفح : وكانت فى أيام الحكم حروب وفتن مع الثوار من أهل طليطلة

(٢) يقول دوزى المستشرق العظيم ، أشهر أوربى كتب على الاندلس ، إن طليطلة كان فيها من الاسبانيول المستعربة أكثر مما فيها من العرب والبربر الذين كانوا منتشرين فى قراها . فبسبب ذلك ، وبسبب نفوذ كلمة القسيسين والأساقفة ، كانت طليطلة مستعدة دائما للانتقاض . وكان الاسبانيول لايزالون ينظرون إليها نظرهم إلى عاصمة لهم فى الدين والدنيا ، وأهل طليطلة بفطرتهم مترعون إلى الثورة لا يضاهيهم فى ذلك قبيل ، وكان عندهم شاعر اسمه غربيب من عائلة اسبانيولية مسلمة يغريهم بالانتقاض أبدا . وكان أمير الاندلس يحسب الحساب لغربيب ، ولم يقدم على شيء يحق طليطلة ما دام غربيب حياً ، ولكن بعد موت غربيب استدعى الأمير اسبانيوليا مسلما من وشقة اسمه عمروس وقال له : انه لايوجد غيرك من يقدر أن يرضى من أهل طليطلة الذين لا يرضون عليهم والياً عربيا ، فلذلك أنا اخترتك واليا عليهم لأنهم من جنسك . ثم أسر اليه رأيه فى الاقتصاص منهم فوافقه عمروس عليه لما كان من شدة طمعه ورغبته فى ارضاء الأمير ، ثم كتب الأمير إلى أهل طليطلة كتابا يقول لهم فيه إنه نزولا عند رغبتهم اختار لهم والياً من جنسهم

وما وصل عمروس الى طليطلة حتى بدأ بإعمال الحيلة حتى ينال ثقة الطليطليين التامة ، وأخذ يتظاهر بالعصبية للجنس الأسبانيولى ، ويبدى فى الأحايين بغضاءه لبنى أمية وللعرب على الاطلاق ، ثم قال للطليطليين ان سبب العداوة بينكم وبين السلطان هو وضع الجنود فى بيوتكم ، وتثقيلهم عليكم باصناف المغارم فمن هناك كانت تنشأ أسباب الخصام فاذا ساعدتمونى فى بناء حصن لايواء هذه الجنود فى طرف البلدة تكونون

على هذه الواقعة حتى ثارت طليطلة مرة أخرى ، وذلك سنة ١٩٩ فزحف اليها الأمير الحكم بنفسه ، ودخل البلدة ، وأحرق الجانب الأعلى منها ، ثم فى سنة ٢١٤ وفق

كفيتم أنفسكم مؤونة هذه المشاجرات . ولما كان الطليطليون قد أولوا عمروس مزيد ثقتهم رضوا باقتراحه هذا بل آثروا أن يكون هذا الحصن فى وسط البلدة بدلا من أن يكون على طرف منها . ولما انتهى بناء الحصن أعلم عمروس السلطان بانه قد أتم بناء الحصن وانتقل اليه بجنوده . فاسرع السلطان باعلام أحد القواد الذين يرابطون فى الثغور بان يكتب اليه عن حركة بدت من جهة العدو ، وذلك حيلة منه حتى يتمكن من ارسال الجنود الى طليطلة . فلما وصل كتاب القائد أمر السلطان بزحف الجيوش على رأسها ثلاثة من وزرائه بمعية ابنه الأمير عبد الرحمن ، ولم يكن بلغ من العمر اكثر من ١٤ سنة ، فوصلت الجيوش الى ضواحى طليطلة فاشار عمروس الى أعيان الطليطليين بالسلام على الأمير ففعلوا وقابلهم الأمير بالحفاوة الزائدة ورجعوا مسرورين فقال لهم عمروس : تقتضى المصلحة ان ندعو الأمير ليقيم بين أظهرنا عدة أيام ، فان هذا الأمير سيكون هو الملك فى المستقبل ، وانه يحسن أن تكون علاقات الطليطليين به وثيقة فاستحسن القوم رأى عمروس ، وأقبلوا على الأمير يدعونه ليقيم عندهم أياماً فأجاب دعوتهم بعد أن اعتذر ثم لما حصل المقصود أمر الامير بدعوة أهالى طليطلة وضواحيها إلى طعام فكتبوا إلى جميع الأعيان والوجوه واقبلوا زرافات فى الميعاد المعين ، فلم يأذنوا لهم فى الدخول إلا واحداً واحداً فكان الواحد يدخل من باب ويرسل فرسه مع تابعه لانتظاره أمام الباب الآخر . وكان عمروس أمر بحفر حفرة فى دار الحصن أقام بجانبها عددا من الجلادين فعندما يصل الواحد من أعيان طليطلة إلى جانب الحفرة يتلقونه بالسيوف ويلقونه فيها . ولم يعلم على التمام عدد الذين قتلوا فى ذلك اليوم : فابن عذارى يقول سبعمائة والنويرى وابن القوطية يجعلونهم خمسة آلاف . ولما صار الوقت ضحى قال أحد أطباء طليطلة لجماعة كانوا أمام باب القصر : ماذا تراه حصل بهؤلاء المدعوين ؟ فقيل له : لعلهم خرجوا من الباب الآخر . فقال لهم : كنت عند الباب الآخر فلم أجد احداً خرج . ثم نظر فرأى دخاناً يتصاعد فقال لهم : ليس هذا دخان الوليمة وإنما هو دخان أجساد قتلاكم . وبعد ذلك هدأت طليطلة مدة طويلة . اه وأما غريب الشاعر الطليطلى فقد قال عنه فى « بغية الملتمس » ما يلى : غريب (بكسر أوله) الطليطلى شاعر قديم مشهور الطريقة فى الفضل والخير ومما يتداول الناس من شعره :

٨٢٩ ، ثارت طليطلة أيضاً بتحريض مولد اسمه هاشم الغرّاب ، فاستمرت الفتنة سنتين إلى أن سكنت . وفي زمن عبد الرحمن الثانى ثارت أيضاً فأرسل اليها جيشاً بقيادة الأمير أميّة ، وكان ذلك بعد الفتنة السابقة بخمس سنوات لاغير .

ثم في السنة التى بعدها حصر الامير طليطلة حصاراً استمر عدة أشهر ، ثم أخذها عنوة في عام ٢٢٢ ولم يرجع عنها حتى أخذ منها رهائن بقيت فى قرطبة الى سنة ٢٣٨ ولكن فى هذه السنة نفسها عند ولاية الامير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم رفعت طليطلة لواء العصيان ، وعزل أهلها الوالى العربى الذى عندهم وزحفوا بجيش هزم جيش الأمير محمد فى اندوجر سنة ٢٣٩ ، ولما كانوا يتوقعون زحف الجيوش اليهم من قرطبة تحالفوا مع « أوردونوه » الأول ملك ليون الذى أمدهم بجيش من عنده ، ولكن الجيش الأموى تغلب عليهم وقتل منهم عشرين ألفاً .

وسنة ٢٤٤ قوّب الأمير محمد تحت جسر طليطلة بينما كتائب الجند فوق القنطرة ، فوقعت وهلكوا جميعا ، فاضطر الطليطليون إلى الخضوع ، ولكن على صورة دفع جزية سنوية ، وتمتعهم باستقلالهم الداخلى .

و بقيت الحال على هذا المنوال إلى زمن الخليفة الناصر ، فلما انتهى من إخضاع

يهددنى بمخلوق ضعيف يهاب من المنية ما أهاب
وليس إليه محيا ذى حياة وليس إليه مهلك من يصاب
له أجل ، ولى أجل ، وكل سيبلغ حيث يبلغه الكتاب
وما يدرى ، لعل الموت منه قريب . أينا قبل المصاب
لعمرك مايرد الموت حصن إذا اكتاب الملوك ولا حجاب
لعمرك إن محياى وموتى إلى ملك تذل له الصعاب
إلى ملك يدوّخ كل ملك وتخضع من مهابته الرقاب

فظاهر من شعر غربيب أنه شاعر ثائر صعب المقادة لايرهب الملوك ولا يعرف فرقاً بين الملك والصعلوك وهو يذكر مايذكر من استواء الجميع أمام الموت تهويناً للموت على الناس صنع كل داع إلى ثورة

جميع الثائرين أرسل إلى طليطلة جماعة من الفقهاء ، ليبلغ أهلها بأن استقلالهم الداخلى غير مقبول . فنصح الفقهاء لهم ، فذهب نصحهم بدون فائدة فزحف الخليفة إلى طليطلة بنفسه بجيش جرّار ، وخيّم على الجبل المقابل لطليطلة ، وأصرّ وصمّم على أن لا يبرح مكانه حتى يفتحها .

ثم جعل يبنى فى المخيّم بالحجر ، وأقام سوقاً ، وسمّى المخيّم مدينة الفتح . ودام الحصار إلى سنة ٣٢٠ ، وفق ٩٣٢ ، فاضطر الطليطليون إلى الاستسلام . وجعل فيها الناصر حامية أموية ، وصارت مركزاً للثغر الأوسط .

وكان والى طليطلة معدوداً من أكابر رجال الديوان ، فتولاها محمد بن عبد الله ابن حُدير ، ثم القائد أحمد بن يعلى .

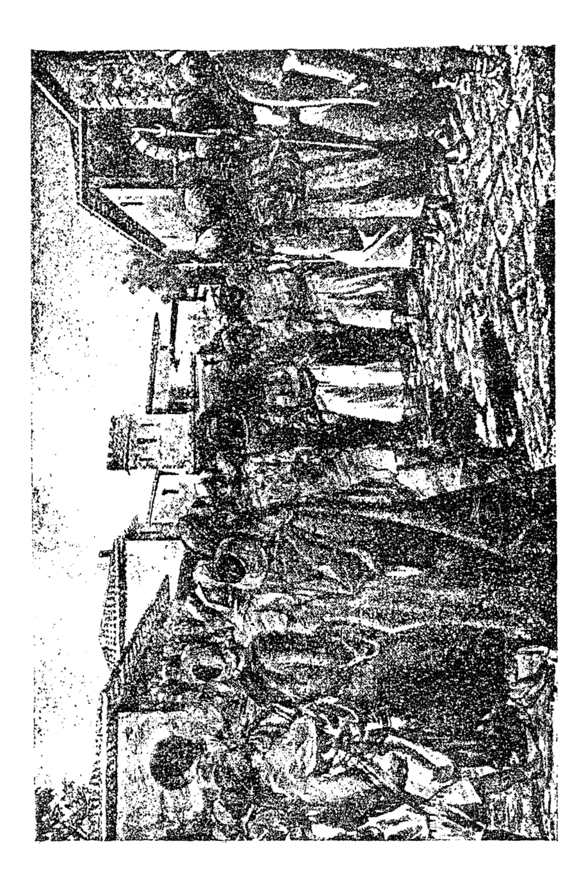
وفى زمن الحكم المستنصر بن الناصر تولاها غالب بن عبد الرحمن الناصرى ، حمو الحاجب المنصور بن أبى عامر

ولما نشبت فى قرطبة الفتن التى أفضت إلى سقوط دولة بنى أمية ، لم تستفد طليطلة من تلك الحوادث ، كما كانت تفعل قبل ذلك ، وكانت على مدة سنين مقراً للقائد واضح ، وملجأ لمحمد بن هشام بن عبد الجبّار ، ولكن لما انقسمت الأندلس إلى ممالك صغيرة صارت طليطلة مملكة مستقلة يليها بنو ذى النون

وكان بنو ذى النون من زعماء البربر خدموا المنصور بن أبى عامر ، وكانوا فى شنتبرية [1] . فلما سقطت الخلافة فى قرطبة أرسل أهل طليطلة إلى عبد الرحمن ابن ذى النون يعرضون عليه ولاية بلدهم ، فأرسل إليهم ابنه اسماعيل ، فتولى طليطلة وملحقاتها ، واعتمد على أحد أعيانها أبى بكر بن الحديدى . وذهب بعض مؤرخى العرب إلى أنه بعد سقوط الخلافة لم يكن ابن ذى النون أول أمير لطليطلة ، بل سبقه ابن مسرّة ، ومحمد بن يعيش الأسدى ، وولده أبو بكر يعيش . وذكروا أيضاً سعيد

---

(١) Santaver وهى من مقاطعة قونكة



ابن شنظير ، و ولده أحمد وعبد الرحمن بن منيوه وولده عبدالملك . على أن بداية حكم ابن ذي النون كانت سنة ٤٢٧ وفق ١٠٣٥ إلى ١٠٣٦ ، فتلقب ابن ذى النون بالظافر . وكانت وفاته سنة ٤٣٥ ، وخلفه ابنه يحيى ، وتلقب بالمأمون . ولما مات يحيى سنة ٤٦٧ كانت المملكة الطليطلية قد عظمت واتسعت ، فخلفه حفيده يحيى بن اسماعيل بن يحيى ، الذى تلقب بالقادر ، ولم يكن فى هذا شىء من حسن تدبير جده ولا من دهائه . فأخذت مملكة طليطلة بالانحطاط ، وفارقه جميع حلفاء جده من أمراء الاسلام ، فانفرد وأحس بالضعف ، والتزم أن يلجأ إلى الاذفونش السادس صاحب قشتالة وليون ، فرضى الاذفونش بأن يحميه لكن على شرط أن يؤدي إليه إتاوة سنوية كان الأذفونش يزيدها سنة عن سنة . فاضطر القادر إلى أن يزيد الضرائب على أهل مملكته ، فثاروا به فتقبض على كثير من أعيانهم ، وأوقع بهم ، ومن جملتهم وزيره ابن الحديدى ، فازداد بذلك غضب الطليطليين ، حتى فرّ القادر من طليطلة ، وبايع أهلها المتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس الذى تولاها سنة ٤٧٢ .

فلما زحف إليها الأذفونش السادس بحجة أنه يريد حفظها لابن ذى النون كان ذلك خداعاً منه ، ودخلها فى ٢٧ محرم سنة ٤٧٨ ، وفق ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ وكان قد أُجْبر القادر على عقد معاهدة معه يتخلى له بها عن المملكة ، فكانت مرحلة شاسعة من مراحل استرداد المسيحيين للأندلس .

وحصل لأخذ طليطلة وقع عظيم فى النصرانية وعند المسلمين أيضاً . وكانت هذه الواقعة سبب غارة المرابطين فى السنة التالية . إلا أنه مع ظفر يوسف بن تاشفين ، والأيام التى أدالها الله للموحدين بعد المرابطين فى جزيرة الأندلس ، لم يتمكن المسلمون من استرجاع طليطلة ، ولبثوا يحاصرونها حيناً بعد حين ، فقد حصروها مرة في زمن الأذفونش السادس نفسه ، ومرة أخرى فى زمن سلطان الموحدين أبى يوسف يعقوب المنصور ، وذلك سنة ٥٩٢ ، وفق ١١٩٥ ، وكان المنصور يعقوب استرجع فى هذه

الغزاة قلعة رباح ، ووادى الحجارة ، ومجريط ، على أثر واقعة الأَرَك[1] ، التى كانت للمسلمين على النصارى[2] ، إلا أنه بعد واقعة نافاس طولوزه (المسماة عند العرب بالعقاب) فى ١٦ يوليو سنة ١٢١٢ ، لم يبق أدنى أمل للاسلام فى استرجاع طليطلة .

ولما رجعت طليطلة مسيحية ، وصارت عاصمة قشتالة ، بقيت حافظة مسحة إسلامية راسخة ، فان قسما من أهلها لبثوا مسلمين ، فكما أنها كانت مدينةالوزاراب

---

(١) يسميها احمد بن يحي بن احمد بن عميرة صاحب بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الاندلس ، واقعة الاركة فهو يقول ما يلى : وكان جواز عسكر الموحدين أعزهم الله - يقول أعزهم الله لانه هو كان فى ذلك العصر - الى الجزيرة الخضراء فى عام تسعة وثلاثين وخمسمائة وكان النصارى وقمهم الله قد استجاش بهم ابن غانية ودخل بهم قرطبة وغلبوا عليها وأدخلوا دوابهم فى جامعها المعظم ومزقت أيدى الكفار بهمصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وجمع بعد جهد . ولما سمع النصارى وزعيمهم الانبراطور بان عسكر الموحدين قد جاز الى الجزيرة خاف وخار وجمع الاعوان والانصار واستشار فاشاروا عليه بان يرجع الى بلاده وينظر فى حمايتها فخذله الله وتوافق مع ابن غانية على أن يتركه بقرطبة وينصرف فتركه بها ثم خدعه وطلب منه بياسه فدفعها اليه مخافة أن يستقر بقرطبة . واستولى الأمر العالى أدامه الله بعد ذلك على جميع ما كان بايدى المسلمين بالأندلس وارتفعت المحن والفتن والجور والجزية واجتمعت الكلمة وجرت على الروم دمرهم الله هزايم جمة آخرها هزيمة أذفونش بن شانجه قصمه الله عند الاركة على مقربة من قلعة رباح فى التاسع لشعبان المكرم عام احدى وتسعين وخمسمائة . وكان عسكره الذميم ينيف على خمسة وعشرين الف فارس ومائتى الف راجل . وكان معه جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين واسلابهم واعدوا لذلك أموالا فهزمهم الله تعالى واستوعب القتل اكثرهم وحاز الموحدون جميع ما احتوت عليه محلتهم الذميمة وعاين اللعين الحمام ونجا برأس طمرة ولجام وكانت هزيمة شنيعة على الشرك واد ... م يسمع بمثلها والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين .

(٢) الذين يعرفون تاريخ دولة الموحدين يجزمون بأنه لو طالت حياة يعقوب المنصور لاسترجع طليطلة وجميع ما كان خلا من الاسلام من بلاد الأندلس .

أى الأسبان المستعربين فى دولة الاسلام ، كانت أيضاً مدينة الموريسك أى المسلمين المدجّنين في دولة النصارى . ومن الغريب أنه لم يبق آثار كثيرة فى هـذه البلدة للمسلمين عن إقامتهم الطويلة بها ، وكل مابقى هو آثار جامع صغير فى بيب[1] مردوم هو الذى تحول إلى كنيسة باسم كنيسة مسيح النور ، وكذلك وجـد فى طليطلة من بقايا الاسلام بعض أقسام من قصر « تورنيرياس[2] » ، ومن الباب القديم المسمى بباب شقره[3] . ولكنه وجـد كثير فى الأرباض من قبور المسلمين التى عليها كتابات عربية[4]

(١) ذكرنا من قبل أنهم فى الأندلس كانوا يلفظون بالامالة ويقولون للباب بيب ولا يزال فى قرطبة وفى اشبيلية وفى غرناطة أبواب كثيرة يقال للواحد منها بيب كذا وبيب كذا وهى إمالة يرجح عندى انهم أخذوها من الشام فقد سمعت باذنى بعض أهالى بعلبك يقولون للباب بيب وإن كان الأكثرون فى الشام اليوم لايلفظون الباب بالامالة . ولقد حررت رسالة فى علاقة اللهجات العربية بالتاريخ القيتها فى مؤتمر المستشرقين بليدن سنة ١٩٣١ ونشرتها فى مجلة المقتطف وربما أطبعها على حدة إن شاء الله .

(٢) Tornerias (٣) Visagra

(٤) وجدت سنة ١٨٧٨ فى ديرسان برتلمى فى بقعة طليطلة كتابة هى الآن محفوظة فى المتحف الأثرى الوطنى فى مجريط هذا نصها بعد البسملة : « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنـكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . هذا قبر محمد بن أحمد بن محمد ابن مغيث كان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون توفى رحمه الله ليلة الاحد لثمان بقين من ربيع الآخر سنة سبع وأربعين وأربعمائة »

ذكر لاوى بروفنسال : أن الغزال سفير المغرب زار سنة ١٧٦٦ طليطلة واطلع على هذه الكتابة وروى ذلك فى رحلته فقال : « وركبت فى الحال مع الحاكم للمواضع التى أرشدنا إليها فاذا بمقبرة المسلمين رحمهم الله سارية من الرخام مكتوب عليها بخط كوفى : يا أيها الناس الآية ، وهذا قبر الامام أحمد بن أحمد بن مغيث كان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق

وختم لاوى بروفنسال هذا الفصل فى الانسيكلوبيدية الاسلامية بقوله : برغم أن طليطلة كانت ثغراً ، وكان فيها عناصر عظيمة من النصرانية ، فقد كانت لآخرعهد بنى أمية ، وفى أيام المأمون بن ذى النون ، من القواعد الكبرى للثقافة الاسلامية فى الاندلس ، و إن كثيراً من التراجم والسير لتتعلق بعلماء وحكماء وفقهاء من مسلمى طليطلة . انتهى

ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون توفى رحمة الله عليه ليلة الأحد لثمان بقين من ربيع الثانى سنة تسع وأربعين واربعمائة ثم سارية أخرى مكتوب فى أولها مافى الأول من الآية الشريفة غير أن صاحب القبر لم يعرف من هو لمحو المحل الذى هو مكتوب ولم يبق من الحروف إلا لفظ أربع وأربعين فى محل التاريخ لايقرأ ماقبله ولامابعده

قال لاوى بروفنسال : إن صاحب هذا القبر فيما يترجح هو ابن أبى عمر احمد بن محمد بن مغيث الصدفى المحدث الطليطلى الذى مات سنة ٤٥٩ وترجمه ابن بشكوال فى الصلة وقال إن السفير المغربى لم يكن فيما يظهر ماهرا بقراءة الخط الكوفى

وقد وجدت أيضاً فى تلك البقعة كتابة أخرى هى هذه : البسملة . . . « هذا قبر أحمد بن فرج مولى محمد بن جهور توفى رحمه الله يوم الأحد يوم خمس عشرة من شهر رمضان سنة اثنتين وستين واربعمائة رحمة الله عليه » وكتابة أخرى على قبر مجهول نصها : « البسملة . . . هذا قبر محمد بن يوسف ابن العاسل توفى رحمه الله يوم الخميس لستة عشر خلون من المحرم سنة أربع وستين واربعمائة فرحم الله من ترحم عليه » ووجدت كتابة بخط نسخى تاريخها سنة ٦٦٠ للهجرة هذا نصها بعد البسملة والتصلية : « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور هذا قبر زهرة بنت محمد بن محمد رحمها الله توفيت وهى تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فى عام ستين وستمائة »

فهذه الكتابة هى بعد رجوع طليطلة للاسبانيول بنحو من مايتى سنة فقد بقى فيها عدد غيرقليل من المسلمين المحافظين على جميع شائرهم وقد بقى فيها مسلمون إلى ما بعد ذلك العهد بكثير ولكن بعد صدور الأوامر من ملوك الاسبان بتنصير جميع المسلمين قسراً أصبحوا لايقدرون أن يعلنوا اسلامهم وبقى فى تلك البلدة مسلمون مكرهون على النصرانية وقلوبهم مطمئنة بالايمان إلى ما بعد سنة الف للهجرة

وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية تحت لفظة « أندلس» بقلم المستشرق سيبولد كلام قال فيه : إلى الآن لم يتيسر القيام بتحقيق على تام عن كيفية تأثير المدنية الاسبانية العربية بأوربة فى القرون الوسطى ، و إلى أية درجة بلغ هذا التأثير . فهذا الأمر يتعلق بالبحث عن دار الترجمة التى كانت بطليطلة ، وهى الواسطة التى قام بها أدباء اليهود بين الشرق والغرب ، وكان هؤلاء اليهود بأجمعهم منسوبين إلى الثقافة العربية . انتهى

وجاء فى صبح الأعشى للقلقشندى : أن موقع طليطلة فى آخر الاقليم الخامس قال ابن سعيد : حيث الطول خمس عشرة درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة وثمان عشرة دقيقة ، قال في تقويم البلدان : وهى من أمنع البلاد وأحصنها ، مبنية على جبل عال ، والأشجار محدقة بها من كل جهة ، و يصير بها الجُلّنار بقدر الرمانة من غيرها ، و يكون بها شجر الرمان عدة أنواع ، ولها نهر يمر بأكثرها ، ينحدر من جبل الشارة ، من عند حصن هناك يقال له تاجُه ، و به يعرف نهر طليطلة . ومنها إلى نهاية الأندلس الشرقية ، عند الحاجز الذى هو جبل البُرت، نحو نصف شهر . وكذلك إلى البحر المحيط بجهة شِلب . ثم ذكر القلقشندى من مضافات طليطلة مدينة وليد[١] ، ومدينة الفرج[٢] ، ومدينة سالم[٣] التى فيها قبر المنصور بن أبى عامر

بقى علينا أن نذكر قضية المائدة التى يقال إن طارق بن زياد وجدها فى طليطلة عند فتحها ، وأطال مؤرخو العرب فى وصفها ، وهاموا فى أودية الخيال ، وقالوا ما ليس وراءه مقال ، وسمّوها مائدة سليمان ، وزعموا أنها كانت من دخائر أشبان ، ملك الروم الذى بنى أشبيلية ، وأنه أخذها من بيت المقدس . وقالوا إن هذه المائدة قُوّمت عند

(١) Valladolid

(٢) ويقال لها وادى الحجارة وبالاسبانيولى Guadalajara

(٣) والاسبانيول يقولون لها مدينة سالى بالترخيم Medinaceli

الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار ، وقيل إنها كانت من زمرد أخضر . وقالوا إن طارقا وجد بطليطلة ذخائر عظيمة ، منها مائة وسبعون تاجاً من الدر والياقوت والأحجار النفيسة ، و إيوان ممتلىء من أوانى الذهب والفضة ، وهو كبير ، حتى قيل إن الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لوسعه . وذكروا أن أوانى المائدة من الذهب ، وصحافها من اليَشْم والجزَع ، قال المقرى فى نفح الطيب بعد سرده هـذه الأشياء : وذكروا فيها غير هذا مما لايكاد يصدقه الناظر فيه

قلنا : هذه أخبار أشبه بالأساطير ، وحكايات العجائز منها بالتواريخ ، وقد كان مؤرخونا رحمهم الله فى غنى عن نقل كل ماتلوكه ألسن العوام الذين يتكلمون بقدر عقولهم ، وكلما بعد الزمان أو المكان ازدادت المبالغة فى الخبر . ورحم الله ابن خلدون الذى عاب على المؤرخين تسوقهم من الأخبار كيفما اتفقت ، بدون تمحيص ولا تفكير و بدون عرض الأشياء على أصولها ، ولاقياسها بأشباهها ، وأطال فى هذا الموضوع . وكان حجة للعرب فى أمر التحقيق .

والحقيقة التى لامفر منها أن من عادة مؤرخى العرب ، إلا من رحم ربك ، نقلَ الغث والسمين بدون أن يأذنوا لأنفسهم فى الاعتراض على ما يكونون هم أنفسهم مرتابين فى صحته ، وذلك تورّعا عن تكذيب من قبلهم ، و بحجة ان هذه المرويات قد تكون صحيحة ، وان هذا العالم هو عالم الامكان ، فليس ثمة شىء مستحيل ، وان قدرة الله تعالى لا يعجزها شىء ، وما أشبه ذلك من التعليلات .

والجواب : نعم ان قدرة الله تعالى لايعجزها شىء ، وان هذه المرويات وأغرب منها بكثير غير خارج عن حيز الامكان ، ولكن هذا شىء والذى نحن فيه شىء آخر ، فعدم خروج الغرائب عن حيز الامكان لا يوجب أن يكون كل ما يروى منها صحيحا ، اذا لم توجد له أسانيد لايتطرق اليها الشك ، وحجج لا يمكن فيها النزاع . والحال انه فى مايروى عن هذه المائدة التى قيل ان العرب وجدوها فى طليطلة ، لا توجد إثبات تحمل على الجزم بصحتها ، وقد يكون طارق وجد فى عاصمة القوط هذه

بعض ذخائر ونفائس ، مما لا تخلو منه عواصم الملوك ، وربما وجد مائدة مرصعة بالدرر واليواقيت ، وهذا عند الملوك شيء معتاد ، وقد قيل : عن الملوك ولا تسل ، ولكن العوام جعلوا الواحد مئة ، وواصلوا المسألة إلى الحد الذي يتخيل فيه الانسان قصص ألف ليلة وليلة .

وأما الافرنج فقد تكلموا عن هذه الروايات فحملوها على الخيالات ، وعدوها من المحالات ، وهذا أيضاً مردود لأن عاصمة كعاصمة اسبانية يجوز أن يجد فيها الفاتح من ذخائر ملك القوط حجارة كريمة ، وتيجاناً مرصعة ، ومائدة من الذهب والفضة ويجوز أيضاً أن يطأ إيواناً واسعاً ، مموهة أطرافه بالذهب ، وإن كانت الفرسان لا تلعب فيه بأرماحها .

وأما طول قنطرة طليطلة وعرضها ، وان الطول ثلاثمائة باع ، وان العرض ثمانون باعاً ، فهو من المبالغات التي تتناقلها العوام بدون روية ، ولعلها من خطأ النساخ الذين نقلوا نفح الطيب .

أما ابن حوقل في المسالك والممالك فيقول عن طليطلة : وهي مدينة كبيرة جليلة مشهورة ذات سور منيع ، وهي على وادي تاجُه ، وعليه قنطرة عظيمة ، ويقال ان طولها خمسون باعاً ، الخ ، فظهر من هنا اختلاف الرواية من ثلاثمائة إلى خمسين ، على ان المقّري في النفح يروي أن هذه القنطرة قد خربت أيام الأمير محمد الأموي ، لما عصاه أهل طليطلة ، وقال فيها الحكيم عباس بن فرناس أول من اخترع آلة للطيران :

ما كان يُبقِي اللهُ قنطرةً نُصبت لحل كتائب الكفر

والأمير محمد قد توفي سنة ٢٧٣ ، وابن حوقل كتب كتابه هذا في الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة ، أي بعد وفاة الأمير محمد الأموي بستين أو سبعين سنة ، فتكون القنطرة الشهيرة الموصوفة قد خربت ، وقام مقامها القنطرة الحديثة ، التي يقول ابن حوقل ان طولها خمسون باعاً فهل بين القنطرتين كل هذا الفرق ؟ وعلى كل حال

لا نجد القنطرة الحاضرة على تلك العظمة التي حدثوا عنها ، فهي قنطرة كبيرة بجانبها أخرى صغيرة أصلها من بناء العرب ، ثم تشعثت في زمن الاذفونش الملقب بالحكيم فأصلحها . ثم جددها تينور يوه رئيس الأساقفة .

وجاء في مروج الذهب للمسعودي عن طليطلة قوله : قصبة الاندلس يشقها نهر عظيم يدعى تاجُه : يخرج من بلاد الجلالقة والوسقيد (Basque) وهي أمة عظيمة لهم ملوك وهم حرب لأهل الأندلس كالجلالقة والافرنجة ، و يصب هذا النهر في البحر الرومي .

هذا تحريف من النساخ أو هو سهو من المسعودي نفسه ، لأن نهر تاجه مصبه في البحر الاطلانتيكي وهو موصوف بأنه من أنهار العالم ، وعليه على بعد من طليطلة قنطرة عظيمة تدعى قنطرة السيف ، بنتها الملوك السالفة .

ومدينة طليطلة ذات منعة ، وعليها أسوار منيعة ، وأهلها بعد أن فتحت وصارت لبني أميــة قد كانوا عصوا على الأمويين ، فأقامت مدة سنين ممتنعة ، لا سبيل للامويين اليها . فلما كان بعد الخمس عشرة وثلاثمائة فتحها عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله ابن محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم ، وعبد الرحمن هذا هو صاحب الاندلس في هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وقد كان غيّر كثيراً من بنيان هذه المدينة حين افتتحها وصارت دار مملـكة الاندلس قرطبة إلى هذا الوقت . . . (إلى أن يقول) : ولهم من المدن الموصوفة نحو من اربعين مدينة ، وتدعى بنو أمية الخلائف ، ولا يخاطبون بالخلفاء ، لأن الخلافة لا يستحقها عندهم إلا من كان مالكا للحرمين ، غير انه يخاطب بأمير المؤمنين اه .

قلت : ذكر هذا المسعودي في زمن عبد الرحمن الناصر ، و يظهر انه كتبه قبل أن علم أن الناصر رحمه الله تلقب في آخر الأمر بالخليفة ، و بأمير المؤمنين معاً . وذلك بعد أن توحدت الجزيرة الاندلسية تحت حكمه ، وامتد سلطانه إلى بر العدوة ، وكان قد بدأ الضعف في دولة بني العباس في بغداد .

وربما يكون الناصر لم يكن اشتهر تلقبه بالخلافة فى سنة ٣٣٢ التى كتب المسعودى فيها كتابته هذه فإن وفد قسطنطين بن ليون ملك القسطنطينية إلى الناصر، كان فى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، على رواية ابن خلدون ، أوسنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة ، على رواية غيره ، وقد خاطب فيه صاحب القسطنطينية المذكور عبدالرحمن الثالث الأموى الناصر لدين الله بقوله : « العظيم الاستحقاق للفخر ، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة ، الحاكم على العرب بالاندلس ، أطال الله بقاءه » وفى الاحتفال الذى جرى عند وصول سفراء ملك الروم وتكلم فيه القاضى المفوّه المشهور ، منذر ابن سعيد البلّوطى ، كان من جملة كلامه فى ذلك الجمع : فأصبحتم بنعمة الله إخواناً وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات . (إلى أن يقول) : فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين ، أيده الله بالعصمة والسداد ، وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد ، أحسن الناس حالا ، وأنعمهم بالا ، وأعزهم قراراً ، وأمنعهم داراً الخ .

فمن هنا يظهر أن لقبى الخليفة ، وأمير المؤمنين كانا فى ذلك الوقت مستعملين بحق عبد الرحمن الناصر ، واذا رجعنا الى رواية النفح نجد أن الناصر تلقب بهما من قبل ذلك ، فانه يقول فى صفحة ١٦٥ من الجزء الأول ، الطبعة المصرية الاولى ، ما يلى : وهو أول من تسمى من بنى أمية بالاندلس بأمير المؤمنين ، عند ما التاث أمر الخلافة بالمشرق ، واستبد موالى الترك على بنى العباس ، و بلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، فتلقّب بألقاب الخلافة . انتهى .

وفى بغية الملتمس لابن عميرة : ان موسى ابن نصير لما افتتح الاندلس ، مضى على وجهه يفتتح المداين ، حتى انتهى الى مدينة طليطلة . وهى مدينة الملوك ، فوجد فيها بيتاً يقال له بيت الملوك ، وجد فيه خمسة وعشرين تاجاً مكللة بالدر والياقوت ، وهى على عدد الملوك الذين ملكوها ، كلما مات ملك جعل تاجه فى ذلك البيت ، وكتب على التاج اسم صاحبه ، وكم أتى عليه من الدهر إلى يوم مات . انتهى . فهنا خمسة وعشرون تاجاً لا غير .

وأما فى نفح الطيب فقد ذكر فى الجزء الأول فى الصفحة ١٣٥ أنه وجد فى طليطلة مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ، ووجد فيها الف سيف ملوكى ، ووجد فيها من الدر والياقوت اكيال ، ومن الذهب والفضة مالا يحيط به وصف . ومائدة سليمان ، وكانت فيما يذكر ، من زمردة خضراء وزعم بعض العجم أنها لم تكن لسليمان [١] ، وإنما أصلها أن العجم أيام ملكهم كان أهل الحسنة فى دينهم ، إذا مات أحد منهم ، أوصى بمال للكنائس ، فاذا اجتمع عندهم مال له قدر ، صاغوا منه الآلة من الموائد العجيبة ، والكراسى من الذهب والفضة ، تحمل الشمامسة والقسوس ، فوقها الأناجيل فى أيام المناسك ، ويضعونها فى الأعياد للمباهاة . فكانت تلك المائدة فى طليطلة مما صنع فى هذا السبيل ، وتأنق الملوك فى تحسينها ، يزيد الآخر منهم فيها على الأول ، حتى برّزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات ، وطار الذكر بها كل مطار . وكانت مصوغة من الذهب الخالص ، مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد . وقيل إنها من زبرجدة خضراء ، حافاتها وأرجلها منها ، وكان لها ثلاثمائة وخمس وستون رجلا ، وكانت توضع فى كنيسة طليطلة ، فأصابها طارق ، اه .

قال المقّرى : وقد ذكرنا فيما مر عن ابن حيان مافيه نظير هذا ، وذكرنا فيما مضى من أمر المائدة وغيرها مافيه بعض تخالف . وما ذلك إلا لأنا ننقل كلام المؤرخين، وإن خالف بعضهم بعضاً ، ومرادنا تكثير الفائدة

وبالجملة فالمائدة جليلة المقدار ، وإن حصل الخلاف فى صفتها ، وجنسها ، وعدد أرجلها . وهى من أجل ماغنم بالأندلس ، على كثرة ماحصل فيها من الغنائم

(تم الجزء الأول والحمد لله)

---

(١) ونظنه أصاب

فهرس الكتاب

قبل مجيء العرب وما ورد فى ذلك من أساطير ومن حقائق — ملوك القوط ومدة كل منهم — الحساب اليوليانى والحساب الغريغورى وحساب الصفر الاسبانيولى — بحث عن المعادن بالاندلس وما نقله المقرى وما قاله لاوى بروفنسال المستشرق المعاصر — قول رافائيل بالستر إن اسبانية الاسلامية كانت من أغنى البلاد الاوربية وأحصاها سكاناً ، فى عصر الخلفاء ، كان فيها ست حواضر كبرى وثمانون مدينة معمورة جد العمران وثلاثمائة مدينة من الدرجة الثانية — مملكة غرناطة آخر ممالك الاسلام بالاندلس كانت قبل سقوطها ثلاثين مصراً وثمانين قصبة وعددها أربعة ملايين نسمة — المرية مرسى الاسطول الاسلامى الاندلسى وفيها دار الصناعة — دور الصناعة فى دانية والجزيرة الخضراء وشلب والقنت وقستلون والمنكب ومالقة وقصر أبى دانيس وطرطوشة وجزيرة يابسة — كان فى المرية ألف إلا ثلاثين فندقاً مقيدة فى ديوان الخراج — طليطلة قاعدة ملك القوطيين — كلام أبى بحر صفوان بن ادريس عن الأندلس بشكل مفاخرة بين مدائنها — أهل شلب وفصاحتهم بالعربية وأن الفلاح الذى خلف فدانه كان يقرض الشعر — كتاب من إنشاء لسان الدين ابن الخطيب عن لسان سلطانه بترجيح الجهاد فى الاندلس على الحج وصف سرقسطة وذكر السمور المنسوب إليها — التين المالقى والزبيب المنكبى والزيت الاشبيلى والرمان السفرى الخ — أفاويه الاندلس المتنوعة — حيوانات الاندلس وطيورها — مقاطع الرخام بالأندلس — صناعات الاندلس المتعددة الفائقة — قنطرة طليطلة وقنطرة السيف وقنطرة ماردة وملعب مربيطر — رواية أن الخليفة عثمان بن عفان هو أول من أوصى بفتح الأندلس — كلمة للشيخ عبد العزيز الثعالبى عن هذه الرواية — خبر البيلتين اللتين كانتا بطليطلة — منارة اشبيلية التى من بناء يعقوب المنصور — دخل الدولة الاندلسية أيام الناصر عشرون مليون دينار ذهب وثلاثمائة وأربعون مليون درهم من الفضة . ويقول لاوى بروفنسال إنه تضاعف فى زمن المستنصر إلى أربعين مليون دينار وهذا عظيم جداً بالنسبة إلى ذلك العصر — تعاقب الولاة المستمر بسرعة على القيروان وبالتالى على الأندلس كان السبب فى وقوف الفتوحات العربية فى أوربة لأن الثبات والاطراد هما من أهم شروط النجاح . وأما بعد أن صار الحكم إلى بنى أمية فى قرطبة فقد زال التذبذب الذى كان فى ولاية الاندلس — الجهاد العربى فى أوربة صار مقصوراً على مسلمى الاندلس وحدهم وفى الأحايين من يأتيهم من المغرب وذلك بسبب

فهرس الاعلام

الواردة فى الجزء الأول من كتاب

الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية

رتبها الفقير إليه تعالى عثمان خليل

(أبو)

تم ولله الحمد فهرس الأعلام

فهرس الأماكن والبلاد

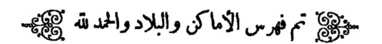
الواردة فى الجزء الأول من كتاب

الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية

رتبها الفقير إليه تعالى عثمان خليل

(ص)

(ط)


تم فهرس الأماكن والبلاد والحمد لله



الخطأ والصواب الواقع فى الجزء الأول

من الحلل السندسية فى الأخبار الأندلسية

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٥	١٦	سهام غير خطاء	سهام غير حظاء
٦	١٦	وهما	هما
٨	١٤	ففلشت	ففشلت
٢٥	٢٢	العناصر العربية	العناصر الغربية
٢٦	٢٢	الكتكلونيون	الكتلونيون
٢٨	١٧	و « الميزيتا »	« الميزيتا »
٢٩	٦	نشوذ	نشوز
٣٤	١٢	السلتون	السلتيون
٣٦	١٩	sisbonne	Lisbonne
٣٧	٥	دوريزين	درايزن
٣٧	٢١	réuniment	réunissent
٣٩	١٦	فى حوالى	نواحى
٣٩	١٦	الهمذانى	الهمدانى
٤٢	٢٠	من أكثرهم	فى أكثرهم
٤٣	٢٠	أغراء	إغراء
٤٤	١٢	بن سعيد	ابن سعيد
٤٦	٦	قلاع	سلاع
٤٦	٢٢	Verdune	Verdun
٤٧	٢	مقد	مقدود
٥٠	٤	خمسة عشر دقيقة	خمس عشرة دقيقة
٥٠	١٠	فرس فاره أو بزدون هجين	فرسا فارها أو بزدونا هجينا
٥٠	١٣	فمن يقبض رزقه	ممن يقبض رزقه
٥٥	١١	marcie	murcie

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٦٩	٩	الزلية	أزلية
٧٧	١١	البلوطين	البلوطيين
٨٧	١٧	المجتازون	المجتازين
٩٠	٢٣	١٨٧٦	١٢٧٦
٩٤	٢٧	جنوبي	جوبي
٩٥	٣	(قرب) ما بين	ما يين
٩٥	١٥	شاليش	شالطيش
١١٥	٣	با تقان	باتفاق
١١٥	٦	ثلاثة	ثلاث
١١٥	١٢	ولا تزال عادة	(ولا تزال عادة
١١٦	١	إلى يومنا هذا	إلى يومنا هذا)
١١٩	١٨	دجار	رجار
١٢٢	١٢	خمسة	خمسُ
١٤١	١٢	إتقان	أتقان
١٤٧	٨	نحو من	نحوا من
١٥٦	٢	لشك	نشك
١٥٦	٢٥	Lislam	L'islam
١٥٨	٣	در	درر
١٥٨	٨	اليونانيين	لليونانيين
١٧٢	٣	ممتهين	ممتهن
١٧٨	٢٠	الصغر	الصفر
١٨٠	٦	الاشبلونة	الاشبونة
١٩٩	١٥	والدنا	ولدنا
١٩٩	١٧	Vargas	و Vargas
٢٠٥	٩	Baossa	Baena

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٠٦	١٨	القهوات	الفوهات
٢١٤	١٢	القلبعية	القَلْعية
١٢٥	٦	يجب هنا وضع رقم ٣ على جبل شلير ووضع رقم ٢ على قوله « مائتان وسبعون قرية »	
٢٣٢	٢	شنت ياقور	شنت ياقو
٢٤٨	١٤	فاذردت	فازدرت
٢٦٤	٨	الى بعد	اى بعد
٢٦٥	١٣	عن ايدى	عما بايدى
٢٦٥	١٣	الالس	الاندلس
٢٧١	١٥	الصفانيان	الصغانيان
٢٧١	١٠	ولا يأخذونه على	ولا يأخذون به
٢٩٩	١٥	محد بن عبد الله	محمد بن عبد الله
٣١٩	١٨	الاراضين	الارضين
٣٢٠	٥	قونلة Cuenla	قونكة
٣٤٤	٢٥	ابن الحاج	ابن حماد
٣٥٢	٢٠	موقعة	واقعة
٣٥٣	١٩	المملكة	المكتبة
٣٥٦	٩	تحصله	تحصيله
٣٦٥	٢٢	وردفها	ورد فيها
٣٦٩	٥	ذ كرى	ز كرى
٣٧٢	٤	الماحونية	المأمونية
٣٧٩	٢٤	الغرايلية	الفرايلية
٣٧٩	٢٧	و على	و الى
٤٣٦	١	خمسة دقائق	خمس دقائق
٤٤١	٩	حامل رأسه	حافة رأسه




شبرا الخيمة
تليفون

